العقل العربي

المسكوت عنه واللا مفكر فيه في مقاربات العقل العربي

محمد الصوياني

هل العقل العربي الذي تمت الدراسات حوله، عربي؟
هل دراسات العقل العربي تمت بمعزل عن الإيديلوجيا
والتحيز؟
وهل هي كما يشاع: عميقة؟
ما الأشياء التي بتناولها يصبح العقل عربياً؟
ما حجم المسكوت عنه في تلك الدراسات؟
وما مدى خطورتها على الفكر العربي؟
لماذا يفضل دارسو العقل العربي السكوت عنها؟
لماذا تعلو الدهشة وتنعقد الألسنة عندما تسأل
الكثيرين من المعجبين بأركون عن
مثال واحد على عمقه وحياديته؟
ما الهروبية التي يمارسها الجابري
في دراساته؟
ما القيمة العلمية لكتابات
الإنشائيين كأدونيس؟
أسئلة آن الأوان لطرحها والاجابة
عليها علمياً لا إنشائياً.
هذا الكتاب يقوم بذلك
بشكل مبسط وبعيد عن
التعقيد وافتعال العمق الذي صاحب أغلب تلك الدراسات

العقل العربي

اللا مفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي

محمد الصوياني

ح محمد حمد الصوياني ، ١٤٢٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني ، محمد حمد
العقل العربي . / محمد حمد الصوياني .- الرياض ، ١٤٢٩ هـ
.. ص ؛ .. سم

ردمك: ٢- ٠١٠٠- ٠٠ _ ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الفكر العربي   ٢- الفلسفة العربية   ٣- الثقافة العربية
أ. العنوان

ديوي ١٩١   ١٤٢٩/١٣٩٥

رقم الإيداع: ١٤٢٩/١٣٩٥

ردمك: ٢- ٠١٠٠- ٠٠ _ ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الإهـــداء

إلى (جريدة الرياض) التي منحتني الكثير عبر ذلك (الجانب الأبيض)
بدأت فيها أول أحرف الشباب وأول أحرف الشيخوخة

إلى رئيس التحرير سعادة الأستاذ تركي بن عبد الله السديري
وإلى نائبه سعادة لدكتور عبد المحسن بن سعد الداود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تستهدف الكتابة عن العقل العربي في مجملها – كما هو معلن – الوصول إلى فرز دقيق لما يمكن تسميته نقاط الإعاقة والإشكال، والتي تحول بين ذلك العقل والتعاطي مع الحداثة في كل مستوياتها، ومن ثم معالجتها والتعامل معها تعاملا يفضي إلى اختراقها وتجاوزها، وتحويلها من معيق إلى جسر نحو المستقبل، مع الاحتفاظ بنقاط القوة التي لا تزال قابلة للتفاعل مع الحديث والأحدث حاضرا ومستقبلا، وهو هدف لا شك في سموه ورقي من يحملونه "حقا"، لكن المعضلة في التعاطي مع هذا العقل ليس فيما يُعلن، ولا فيما يُنظر له، بل في كون تلك الدراسات الضخمة نفسها تشكل العائق الأكبر، ليس للتفاعل مع الواقع والمستقبل فقط، بل في التعاطي مع العقل العربي ذاته توصيفا وممارسة، فعند استبعاد الهامشي والخواطري والإنشائي من تلك الكتابات، يمكن فرز وتصنيف الأبرز منها إلى قسمين:

طرح جاد ورزين وعميق، لكنه يظل في الأطراف.. يظل في تعاطيه مع السطح وتهيبه من الأعماق بعيدا عن كل ما يبشر به من مشاريع، نظرا لأن عمقه لم يكن يمارس فيما يفترض أن يمارس فيه، كانت تلك الجهود المضنية تبذر في تربة غير مناسبة لها، ولذا كان حصادها هامشيا ومن غير طائل، ويتمثل هذا الطرح أكثر ما يتمثل في نموذج الدكتور "محمد عابد الجابري"

وكتابة أخرى يتصدى لها فريق يعي تماما أن عمل الفريق الأول لن يأتي بطائل طالما ظل على السطح.. طالما ظل في الأطراف، ولذا قرر الولوج إلى عمق العقل العربي، وهي كتابة مصيبة كل الإصابة في وعيها، إلا أن الوعي وحده لا يكفي، وبتجاوزها لحقيقة "الوعي وحده غير كاف" تكون قد ارتكبت حماقة كبرى في طريقة ولوغها نحو تلك الأعماق، كانت أشبه بشخص لا يملك أدوات الغوص المعدة لتلك الأعماق، فقرر استخدام مجسمات إسفنجية لتلك الأدوات لأنه لم يجد غيرها، مما جعل مهمة هذا الفريق انتحارية أقرب منها إلى الاكتشاف العمقي الجاد، وهذا الفريق يتصدره بجدارة "محمد أركون".

وبين الطرحين تأتي دراسات "المواقف" الهلامية، بعموميات وطرح عاطفي غير متماسك ولا منضبط، ونتف هنا وهناك، وكتابات إنشائية توظف الساحر والمدهش اللغوي في تمرير الإيديلوجي وأبرز هذا التيار "أدونيس"، أو مناكفة وملاحقة تتخذ المواقف الشخصية منطلقا لها ككتابات "طرابيشي"، أو كتابات لا خطام لها ولا زمام، وكأن صاحبها لا يدرك ما يكتبه ككتابات "علي حرب".

لذا فإن هذه الكتابات الأخيرة ـ الإنشائية والمغرقة في مواقف شخصية وإيديلوجية لا أكثر، لن تأخذ من هذا الكتاب إلا حيزا قليلا وكتمهيد، والهدف من المرور عليها

وضرب نماذج من طرحها.. هو بيان عقلية التيار السائد في الكتابات الفكرية العربية حول هذا الموضوع وغيره والتي غدت تقليدية ومملة.
انسحاب الجابري إلى الأطراف وتمسكه بالحواشي رغم ضخامة مشروعه – أربع مجلدات – في تناول "العقل العربي".. تاركا – في تعاطيه – مساحات شاسعة من مكونات ذلك العقل دون تناول، وكأن تلك المكونات غير موجودة، ليتم تناولها في مبحث آخر جميل ومعزول اضطرارا ومجاملة، كتابة الجابري ممارسة يشوبها النقص الهائل، وتتسم بالانتقائية والاصطفائية الخجولة، مما جعلها دراسة قلقة رغم التماسك الظاهري لمنهجية الطرح، ورغم المجهود الذي لا يمكن إلا احترامه. وهي هروبية لا تحتاج إلى عناء لكشفها.
فعندما يتحدث الجابري عن العقل العربي في مجلدات ضخمة، وبمنهجية تعنى بالفرز والتصنيف، وتهتم بترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، واعتماد المنهجية المعرفية القائمة على فحص أدوات التفكير وآليات الانتاج المعرفي متجاوزا التحليل الايديولوجي القائم على فحص الأفكار والمعارف، النظريات والمذاهب والمدارس، وإذا كان يقوم بفحص أداة الانتاج النظري وطريقته منقبا عن أسس المعرفة وكيفية انبنائها، مستهدفا الخط الثاني من التراث فقط، مستبعدا خطاب الوحي والنبوة من مجال نقده، لأنه يرى – كما يتهمه حرب – أن هذا النوع من النقد لم يحن أوانه بعد في العالم العربي.
إذا كان الجابري يمارس ذلك فإنه يرتكب كوارث علمية أبرزها:
الأولى: ابتسار التراث والانتقائية في تناوله، وهو يهدم الدراسة من أساسها.
الثانية: أن الجابري الذي يبدو لقرائه دقيقا في ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج، لم يكن كذلك في تطبيقاته، نظرا لأنه لم يبدأ بمقدمة أصلا، فالمقدمة التي بدأ بها – كما سيأتي تفصيله – هي في حقيقتها نتيجة.
الثالثة: أن الجابري يمارس نوعا من المخاتلة لقرائه، ريثما يحين الوقت لممارسة اقتحام الخط الأول من التراث، والذي أسميه "قلب العقل العربي" وهو أمر مستبعد من كاتب يحترم قلمه كالجابري، ولا أراها سوى استفزاز من "حرب"
أما "محمد أركون" فهو وإن كان أكثر وعيا بالمناطق الخطرة، من ناحية تأثيرها وفاعليتها من الجابري وأكثر جرأة في الطرح، إلا أن طرحه على المستوى التطبيقي كان نوعا من التهريج مقارنة بطرح الجابري، فالوعي وحده لا يكفي والجرأة لا تعني الدقة ولا الصحة، والاستعاضة عن المنهجية والدقة بالإسلوب النفسي مع القراء، هي المخاتلة بعينها، إنه نوع من التهريج الذي لا يليق بمن يحملون صفة المفكرين.
إن استغلال عشرات المصطلحات العلمية في المقدمات، والبدايات والنهايات، والتهويل من أمرها، وتوظيفها جسرا يتم من خلاله المرور فوق مضامين باللغة السطحية، وبراهين غير موجودة أصلا، إنما يتم ذكر عناوين سريعة لها، كي يتلقاها القارىء بين غابة المصطلحات تلك كمسلمة لا تحتاج إلى تعقيب، فالثقة بـ"أركون الجبار" الذي يحمل لافتة عريضة جدا من المصطلحات تنوء بالعصبة

أولـي القـوة، دون أن يكـون فيهـا مفتـاح واحـد، الثقـة بهـذه اللافتـة المخيفـة مـن المصطلحات تماثل ثقة المريد بشيخه، والمعترف بقسه.
إن تهور أركون وتخبطه، واستسهاله استخدام وابتذال المصطلحات العلمية في مشروع ضخم كهذا، جعل نتائجه وتطبيقاته مثيرة للسخرية.
كما أنه ليس صحيحا على الإطلاق أن الاثنين مختلفان كما يقول "حرب" في دائرة التوجه: (لأن اركون يخاطب الذات الاسلامية عموماً، لأن قضيته الأولى اسلامية، ومن هنا يسمي مشروعه: "نقد العقل الإسلامي". أما الجابري، فإنه يتوجه في خطابه إلى العرب، لأن هاجسه عربي وقضيته الأولى قومية، من هنا يسمي مشروعه: "نقد العقل العربي")
"علي حرب" لا يعي تماماً ما يكتبه، لأن دائرة التوجه واحدة عندهما، والاثنان يمارسان نوعا من التخبط أوالهروب، فالعقل العربي عند الجابري هو إسلامي بحت، وإن سماه عربيا.
والعقل الذي يستهدفه أركون إسلامي بحت، فقد سماه في النسخة "الأصل" الفرنسية "العقل الإسلامي"، وعندما ترجم هاشم كتابه إلى العربية، حوله إلى عنوان "تاريخية العقل العربي" ومضامينه إسلامية لا غير. ولذا ستظل الدراسات حول العقل العربي في حالة مأساوية مالم يتم التخلص من هروبية الفريق الأول، وعبثية الفريق الثاني.
نحن أمام هروبية ودقة في غير موضعها عند الجابري، وتخبط وعبثية أركونية.
ما سرذلك؟ ما المسكوت عنه عندهما وعند غيرهما؟ لماذا اللجوء إلى المراوغة التي هي سمة الكتابات السياسية والإنشائية الأدبية – ككتابات أدونيس" ولا تليق بالكتابات الفكرية التي تروم فحص الفكر والعقائد مهما كانت قدسيتها؟
في هذا الكتاب إجابات هي أقرب للأسئلة، يتم فيها تناول قلب العقل العربي المقدس، بموضوعية تتساوى مع الموضوعية والدقة التي تنعم بها علوم الطبيعة كالكيمياء والفيزياء، وهي إجابات سيكتشف القاريء أنها محرمة "إيديلوجيا"، والغرابة أن هذا التحريم لا يمارسه المتدينون، بل يمارسه أصحاب شعارات "اقتحام المقدس" المعادون لـ"الفكر الغيبي المتعالي" .. إجابات هذا الكتاب لا يسمح بالاقتراب منها أو تناولها، ولا أعرف مفكرا عربيا تجرأ على تقديمها أو طرحها للنقاش بشكل علمي جاد.
في هذا الكتاب اختصار لتلك الإطالات وتقريب لمسافات ظلت لأكثر من قرن من الزمان تلتف حول نفسها، فلسنا بحاجة إلى تلك الإطالات السوفسطائية، ولا إلى تلك المسافات الوسواسية.. نحن بحاجة إلى فتح الباب فقط. والباب أمامنا مباشرة.. لكن دراساتنا العربية تتميز عن غيرها بخلق المزيد من الأبواب، والتفنن في إبداع الجدران...
في هذا الكتاب لن أصحب القاريء في رحلة مضنية حول الحواشي، فالعمق وقلب العقل العربي هو الهدف، ولكن بالأدوات الحقيقية المعدة للغوص لا للتهريج والمناكفة..

ولذا لا بد من التخلص من أكثر سلبيات دارسات العقل العربي والإسلامي "المبالغة في التجريد والإغراق في التنظير" فهي لا تزيد المغلق إلا أقفالا، ولن يتم ذلك إلا بإتاحة المجال لأكبر قدر من الأدلة والوثائق والأمثلة من التاريخ والتراث والواقع، والتي بدونها ستظل الأمور جدلية سوفسطائية، ودورانا في حلقة مفرغة لا نهاية لها، فالكثير من الادعائية والتعالم والتجريد، والقليل من الواقعية والموضوعية والعلمية تعتبر أبرز سمات المفكرين العرب.

ثرثرة عمياء، وإخفاق يبدع في إعادة إنتاج نفسه.

ولعل هذا التجريد الممل يؤكد كون الفكر العربي يمثل بنية تحتية للسائد العربي "نظاماً بالتحديد"، كما يكشف بالتالي كون العقل العربي انعكاسا لذلك النظام في الوقت نفسه، يرث عنه تناقضاته وأزماته وتراجعاته التي ورثها إياه. هذه الدائرة المغلقة تفسر حالة التشظي العربي المأساوي اليوم على مستوى التنظير والدراسات والممارسة، والتي لم تفلح حتى الآن في تشخيص الماهية العربية، ناهيك عن توصيفها للعقل العربي.

إن الصورتين التائهتين أشبه بمرآتين متقابلتين، تمثل إحداهما عمق الأخرى، وإعادة للمشهد نفس في تكرار يأخذ بالذبول داخل فراغ لا متناه. والمخرج الوحيد لهذه الدائرة المغلقة والحالة السرابية، هو في إزالة ما يعمقها ويعيد إنتاجها.. المخرج في نظري هو الواقعية لا السرابية.. الفكر العربي بحاجة إلى الواقعية، وإلى مواجهتها لا التعامي عنها والإصرار على التعامي.

وما لم يتم ذلك فإن أي إصلاح للواقع العربي على كافة الأصعدة، سيكون ميئوساً منه مالم تتم إعادة نظر في العقل العربي بكليته، وتفكيكه للوصول إلى نقاط الأزمة ومكامن الخلل والإعاقة الحقيقية، أما الاقتصار على التعاطي مع بعض مظاهره، فليس سوى ترحيل مقصود، أو غير مقصود لأزماتنا للأجيال التالية، ليس سوى ممارسة إلهاء نقوم خلالها بتسليط الأضواء على، وحول أنفسنا، بدلا من توجيهها لأزمات الأمة وعقلها.

إن أكثر ما يهمني في هذا الكتاب، هو تسليط الضوء على نقاط الخطورة المطمورة في منهج الفريقين "الأبرز"، وكشف المسكوت عنه في تلك الدراسات، فحجم المسكوت عنه يفصح عن قيمة المطروح ووزنه وأهميته. هذا الكتاب كشف للمحرم والمقدس، الذي يتم الاستغناء عن الولوج إليه بالدوران حوله، وفيه أيضا إلزام للمفكرين العرب بما ألزموا أنفسهم به، وتعرية لحالة المداهنة الثقافية التي أرهق بها قراء الفكر العربي بحجة التنوع، وبدعوى الإبداع.

عند ذلك فقط، يمكن الإجابة على السؤال المقلق والمزمن: ما الذي يحدث على الساحة الفكرية العربية بعد قرنين من الثورات والتنظير والدراسات، لماذا يشهد الفكر العربي ما تشهده الشيوعية من مكابرة رغم التلاشي والضمور، لماذا يتحول الفكر العربي إلى ما يشبه ألعاب الاحتفالات النارية، انطلاق قوي وإثارة وتشظي جميل ثم موت بسرعة ذلك الانطلاق.

في الطريق لكشف ذلك كله سأعرج على أسماء لها رنين المفكرين، لكنها كما سيتضح ليست سوى مواقف أوتصفية حسابات لا أكثر والمرور بها مجرد تمهيد لا أكثر، بعد ذلك سأتناول المسكوت عنه أو الممنوع التفكير فيه في العقل العربي، وهو نوعان:
ممنوع داخل العقل نفسه، وهو قسمان:
القسم الأول: ممنوع داخل العقل المسلم - المسيحي.
القسم الثاني: منهج ممنوع، وهو المنهج الذي يتم التعامل معه بانتقائية إيديلوجية – يستدعى من قبل المفكر العربي عندما يظن أنه في صفه، ويلغيه ويقصيه عندما يظن أنه يخالف إيديلوجيته.
ولعلي بتسليط الضوء على ما ينعت بدراسات نقد العقل العربي، وكشف المسكوت عنه فيها.. أشارك في تقديم المتعة للقاريء بمحاولة حل لغز المفكرين العرب.
ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر للمفكر الكبير لأستاذ عبد العزيز الوهيبي الذي ورطني في مثل هذه المواضيع، وللأستاذ ماجد الماجد على ملاحظاته القيمة.
وأخيرا ففي هذا الكتاب: إن أصبت فمن الله فله الحمد حمدا يليق به سبحانه، وإن أخطأت فمن نفسي وأعتذر.

محمد الصوياني
الرياض
الخميس ١- ١- ١٤٢٩هـ
١٠ -١- ٢٠٠٨ م

ماذا يعني العقل العربي

(العقل العربي) هذه الإشكالية المعقدة التي تصدى لها المفكرون العرب، بدءاً من المفكر الكبير الجابري، وبصورة أدق في كتابه (نقد العقل العربي)، وانتهاء بأدونيس في كتاباته الإنشائية كلها، هذا المشروع العربي المتأرجح بين العقلاني والغنوصي اللاعقلاني، ومنذ ما يسمى بعصر النهضة.. اتخذ سمة المراوغة تحت غطاء جميل تم وسمه بـ(الحداثة).

هذه السمة للفكر العربي.. تتميز بما أسميه (الهروبية)، و في اتجاهها الهروبي تتخذ منحى مدمراً، لأنها هروب نحو الأمام، ولو كانت رجعية نحو الخلف لربما حاولت إعادة خلق نفسها، ومن ثم الانطلاق من جديد، لكن ممارستها الهرب نحو الأمام تجسد نوعا من تدمير الذات على المستويين الفكري، والتطبيقي، فبهروبها نحو الأمام تتجاهل إشكالاتها، وتقفز عليها تاركة إياها تتعاظم وتتضخم من خلفها لتلتهمها تلك الإشكاليات شيئاً فشيئاً.

المفكر العربي مأخوذ دائما بتتبع الآثار والقشور دون الغوص للأعماق، مسكون بملاحقة التداعيات والشظايا، لذلك فهو يهدر الكثير من الوقت والورق والجهد الذهني، في مطاردة تأخذه بعيدا عن قلب القضية وجذورها، ليجد نفسه في النهاية بعيدا جدا.. قد انتهى وهو يمسك بشظية من آلاف الشظايا، يقاتل دونها ويعلن على الملأ انتصاره بالقبض عليها.

إذا فأين الجذور التي لم تمس ولم تطرح على طاولة التشريح ليتم البدء منها، بدلا من هذا الهدر الجنوني للطاقات وهذا الكم من التنظير، وكأننا عندما نسقي شجرة الفكر العربي نقوم بغمس أوراقها في الماء بدلا من سقي جذورها، ثم نثور إذا ما اصفرت تلك الأوراق وتساقطت وهي مبللة بالماء.

عندما يتحدث المفكرون العرب عن العقل العربي، فهم يتحدثون عن مفهوم ضبابي غامض، لا يقدرون على تعريفه ولا يدركون آفاقه ومراميه، وأخشى أن ينقرضوا وهم يحاولون إقناع أنفسهم بوضع أيديهم عليه.

لقد انطلقوا في مشروعهم الثقافي العربي وتحركوا مع غياب الهدف، ولكن بدافع مشترك يحركهم جميعا، رغم تباين اتجاهاتهم، دافع إيديلوجي يتمثل في افتعال أزمة مع التراث. أكثر من مائة عام من التنظير والركض العشوائي هنا وهناك، وفي النهاية فشلوا في تقديم شيء سوى الفشل.

محمد عابد الجابري.. حامل لواء التنظير للعقل العربي يعترف بمرارة الفشل الذي امتد على مساحة تتجاوز المائة عام، فيقول في مقدمة كتابه (الخطاب العربي):

(مع وقوف العالم اليوم على مشارف القرن الواحد والعشرين، يكون قد مضى قرن كامل على تبلور اليقظة العربية الحديثة في أهداف وطنية قومية، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، كثفها الوعي العربي المستيقظ في شعار (النهضه)، الشعار الذي صار منذ ذلك الوقت علما عليها ومشروعا لتحقيقها .

مائة عام مرت على (الحكم) الذي عاشة الجيل السابق لجيلنا كـ(مشروع نهضة) وعشناه ونعيشه تحت نفس اللافته حينا وتحت شعار (الثورة) حينا آخر. ومن دون شك فإن مدة قرن من الزمان تجعل الوقوف قصد المساءلة والمراجعة مشروعا تماما، بل ضروريا .حقا إن الزمن في حياة الشعوب يجب أن يقاس بمقاييس غير تلك التي تقاس بها أعمار الأفراد. ولكن، مع ذلك، فإن (مائة سنة) في حياة الشعوب وحدة زمنية لا تخلو من أهمية، وهي بالفعل ذات أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ الحديث والمعاصر. لقد تحققت في العالم ككل، خلال المائة سنة الأخيرة، خطوات عملاقة على صعيد تطور الحياة البشرية في كافة الميادين. ومع ذلك فإن نصيب العرب من هذه الخطوات ما زال دون طموحهم بكثير، بل إن الواقع العربي الراهن، إذا مانظر إليه من نقطة ما في أواخر القرن الماضي، أي من زاوية ما كان يجب أن يفعله العرب ، ليحملنا على التساؤل : هل تمكن العرب فعلا من تحقيق نهضتهم ؟ هل يعيشون اليوم في الواقع ما عاشوه منذ مائة عام في (الحلم) ؟ هل حققوا من التقدم ما يكفي لجعل مشروع النهضة ذاك يتحول فعلا إلى مشروع لـ(ثورة)؟)

ثم يقدم الجابري حقيقة بالغة المرارة تعكس مدى التخلف الذي أوقعنا فيه الفكر العربي فيقول: (بل إن الواقع الكئيب الذي افتتح به العرب ثمانينات هذا القرن ليطرح بجد مسألة ما إذا كان العرب يتقدمون بخطوات (سريعة أو بطيئة) إلى الأمام، أم أنهم، بالعكس من ذلك، يغالبون، بدون أمل، الخطى التي تنزلق بهم إلى الوراء؟)

ثم يقول: (نشعر بأننا لم ننجز بعد نهضتنا كاملة. قد يقرأبعضنا هذا (الشيء) في الميدان الاقتصادي (الصناعة، التشغيل) وقد يراه آخرون في الميدان الاجتماعي (التغذية، الصحة، السكنى ...) وقد يقرأه فريق ثالث في الحياة الثقافية (تعميم التعليم، الرفع من مستواه، الانتاج العلمي ...) وقد نجده جميعا في (الكساح) الذي أصاب سير أهدافنا القومية (تحقيق الوحدة، أي نوع من الوحدة)... ومن دون شك فإن المتجه إلى هذه الميادين، منفردة أو مجتمعة، بأصابع الاتهام، سيجد من شهادات الاثبات ما يفوق حاجته، بل ما سيجعله في غير حاجة إلى (مرافعة)) لكن الجابري يعود للمكابرة وللإيديلوجيا ليقرر أن العقل العربي ليس هو المسؤول عن ذلك التخلف فيقول: (ميدان واحد لم تتجه إليه أصابع الاتهام بعد، وبشكل جدي صارم، هوتلك القوة أو الملكة أو الأداة التي بها (يقرأ) العربي و(يسري) و(يحلم) و(يفكر) و(يحاكم) .... إنه (العقل العربي) ذاته)

ما العقل العربي كما يراه الجابري – فقيه الفكر العربي – كما يصفه فقيه الحداثة العربية (أدونيس)؟

يقول الجابري في تكوين العقل – ٥: (العقل العربي الذي نعنيه هنا هو: العقل الذي تكون وتشكل داخل الثقافة العربية، في نفس الوقت الذي عمل هو نفسه على انتاجها واعادة انتاجها) ثم يقول في (ص١٤) مبينا هدف وإشكالية نتائج دراسته المطولة للعقل العربي: (إن وجهتنا الوحيدة هي التحليل (العلمي) لـ(عقل) تشكل

مـن خـلال انتاجـه لثقافـة معينـة، وبواسـطة هـذه الثقافـة نفـسها: الثقافـة العربيـة الاسلامية. وإذا كنا قدوضعنا كلمـة (العلمي) بين مزدوجتين، فذلك اقرارا منـا منذ البداية بأن هذا البحث لايمكن أن يكون علميا بنفس الدرجة من العلمية التي نجدها في البحوث الرياضية أو الفيزيائية.)

لكنـه يعود مكرهـا للاعتـراف بإشكالية أخـرى تعتـور دراسـة العقل العربـي، والتـي اعترف أن نتائجها لايمكن أن تكون علمية بنفس الدرجة من العلمية التي نجدها في البحـوث الرياضية أو الفيزيائيـة. تلك الإشكالية الأخـرى هـي فـي تعريـف مـرادف ولازم للعقل العربي لا يستطيع الجابري ولا من قبله ولا من بعده أن يتخلص منـه. فيقول (ص١٥): (إن ترجمة كلمة (عقل) بعبارة (الفكر بوصفة أداة تفكير)، وربط (عروبـة) هذا العقل بالثقافـة التـي ينتمـي إليهـا، الثقافـة العربيـة الإسلامية، خطوة أولى، ما في ذلك شك، نحو تحديد مفهوم (العقل العربـي) كمـا نستعمله هنـا، هـي خطوة أولى لا لأنـها تجيب عن الأسئلة الجانبية التي سبقت إثارتها في مستهل هذا الفصل بـل لأنـهـا تطرح اسئلـة بديلـة أكثـر التـصاقا بالموضـوع وأكثـر تعبيـرا عن تعقيداته.

ان الأداة التي نحفـر الأرض بهـا – الفـأس مـثلا – تستمد هويتهـا ، ولنقـل ماهيتهـا، من فاعليتها : الحفر. ولكنها تستمد قدرتها على الحفر من اجزائها وطريقة تركيبها وأيضا من اسلوب استعمالها ...أفلا ينطبق هذا علـى (أداة التفكيـر) سـواء سمينـاها (الفكر) أو (العقل))

الجابري يقر منذ البداية أن بحثه علمي، لكنه ليس بالدرجـة نفسها التـي توجد فـي في بحوث الرياضيات أو الفيزيـاء، وذلـك لانـدماج الباحـث فـي الموضـوع وانـدماج الموضوع فـي الباحث. أبـرز مـن تنـاولوا العقـل العربـي اتزانـا وعقلانيـة يعـاني مـن ارتباك شديد في التوصيف والممارسة، فقد وصف العقل العربي بأنـه: (أداة للإنتـاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها، هي الثقافة العربية بالذات) ثم يصف هذه الثقافة بأنـها: (التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام، وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية، كما تحمل وتعكس وتعبر فـي ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفه الراهن)

إذاً فالعقل عربي، والثقافة عربية، والتاريخ عربي، والواقع والطموح عربيـان. فمـا الإشكالية التي وقع فيها الجابري وأوقع قراءه بها؟

إنها في الممارسـة العملية والتنـاقض العجيب بين النظريـة والتطبيق، وهـي حالـة محيرة ومتلازمـة مـع المفكـرين العـرب عمومـا، ولـيس الجـابري اسـتثناءً، فعنـد التفاصيل تتضح التناقضات، وينكشف الفراغ لتلك الكلمات الخواء، مما أوجد للعقل العربي ذلك المذاق الغريب.

العقل العربي لا يحتاج إلى هجوم فقد ولد متمنطقا بحزام ناسف، حاملا بين تجاويفه تقاسيم الموت، والمفكر العربـي عنـدما يحاصر بالأسئلة عن مفهوم العقل العربـي ينحت لـه تمثـالا أسطوريا جميلا وقويـا وأخـاذاً. أجنحـة وعضلات مفتولـة وعينـان حادتـان وتناسقا ساحراً. لكنه يظل تمثالاً، ويبقى أسطورة.

ورغم أن الجابري ليس كغيره يعيش أزمة خانقة مع التراث كأدونيس وأركون، لكنه ورغم كثرة ما كتبه عن التراث، ورغم جديته في الطرح وعمقه في التحليل، يبدو مترددا في الخوض في أعمق أعماق التراث، لا سيما وهو الذي يرفض حداثة عربية دون العودة للتراث نفسه: (فما لم نمارس العقلانية في تراثنا، وما لم نفضح أصول الاستبداد ومظاهره في هذا التراث، فإننا لن ننجح في تأسيس حداثة خاصة بنا- التراث والحداثة ١٧)

كلمات ضخمة ولكنها فارغة، فعند التطبيق يتردد الجابري متحولا إلى كاتب حائر في التراث الذي يتناوله، الجابري انتقائي في البدايات متخبط في التوصيف، وهو الكاتب الذي ينتقد المفكرين الذين يرفعون شعار الديموقراطية صارفين (معناها إلى الحرية الفردية لا غير، وفي نفس الوقت يرفضون العقلانية بدعوى أنها تفرض النظام وتقيد الحرية، وهم في هذا يقلدون بعض فروع تيار الحداثة في الغرب غافلين أو متغافلين عن الفارق الهائل بين وضعيتنا ووضعية الغرب- ١٧) وينتقد من يأخذون (الحداثة العالمية كما هي، كحضور مستقل يكفي ذاته بذاته) قائلا: (أنه لو كان الأمر بهذه الصورة لما وجد هؤلاء في أنفسهم حاجة إلى انتقاد غيرهم بالتراث، إذ ما شأنهم وهذا الغير لو كانت الحداثة موقفا فرديا بهذا المعنى)

لكن ومع إدراك الجابري لميزة التراث العربي عن التراث في الغرب عند تناوله لإشكالية الحداثتين العربية والغربية مع تراثيهما، فإنه قد أخفق في وضع يده على سر التراث العربي الذي لم يمكن الحداثة العربية من اختراقه وتجاوزه، وهو لم يمض مع غيره في النظرة السطحية للتراث العربي التي ينتهجها الكثيرون كالعظم وأركون وأدونيس، فهؤلاء استئصاليون يتحدثون بإيديلوجية وأفكار جاهزة، حالت بينهم وبين النقد العلمي الجاد، كما لم يسعفهم تقمصهم للحداثة الغربية في تعاملهم مع تراثهم، تلك الحداثة التي تمكنت من اختراق وتجاوز التراث الغربي، وأصبحت لا تتحدث عن تجاوز الحداثة، بل تجاوزت ما بعد الحداثة، في الوقت الذي ينتكس فيه هؤلاء بالعربي للوراء بحثا عن ذاتهم.

الجابري يقر بخصوصية التراث العربي، ويعترف بثقله على كل المستويات، لكنه – كما قلت – أخفق في وضع يده على سر التراث العربي، إن لم أقل أنه لا يريد وضع يده ابتداء. لأن وضع اليد هذا يبدوا شيئا مفزعا وناسفا للمائة عام التي يتحدث عنها.. إنه لا يقول لنا ما سر هذه الخصوصية في التراث العربي، كما أنه لا يريد أن يكشف لنا عن كثافة هذه الخصوصية المتفاوتة بين أنواع هذا التراث. إننا نعيش تراجعا عربيا محبطا على كل الأصعدة منذ ما وجد هذا المفهوم، بل إن أبرز ما يميز هذا العقل (وهو اللغة)، أصبحت مع ولادة هذا المفهوم في حالة تقهقر وتهميش كارثيين، فلم يقتصر الأمر على توقف انتشار العربية، بل تفاقم إلى ظهور دعوات تطالب بالتخلص منها والاتجاه نحو العامية وغيرها، والتعليم بغيرها، بل بكتابتها بالأحرف اللاتينية، مما جعلها غريبة في دارها، وموضع ازدراء عند الأمم الأخرى.

لماذا أوجد مفهوم العقل العربي كل هذه الأزمات، وهي أزمات ستظل مستمرة طالما بقي ما يسمى بالمفكرين العرب، وأقصد بالتحديد تلك الفئة التي يفكر آخرها بالطريقة نفسها التي يفكر بها أولها.
خارج العالم العربي في الغرب وفي الشرق لا يعيشون الأزمة التي يعاني منها الفكر العربي، لقد تجاوزوها إلي إشكاليات ما بعد الإنجاز، هم يفكرون كثيرا في توزيع الغنائم واستمرار تدفقها واستثمارها، يمارسون فن التعامل مع تداعيات النجاح، بينما لم يستطع المفكر العربي حتى الآن الوقوف على أعتاب المعركة، صحيح أنه أكثر الناس حديثا وتنظيرا عن الأمام والمستقبل، لكنه حتى الآن يسير إلى الخلف وبسرعة مروعة. المفكر العربي لا يزال يجهل هل هناك معركة جديرة بالتضحية، أم أن الأمر لا يستحق العناء.. ما زال يعيد طرح مشروعية وجوده.. يعيد طرح نفسه بأقنعة شتى، كحل لإشكالية تتفاقم مع كل صورة جديدة يطرحها، إنه كشخص شاخ وهرم وهو يحاول استكمال أوراقه وشروط قبوله لنيل وظيفة تقدم لها وهو في شرخ الشباب.
ما الذي يجعل الفكر العربي توأما لفشل امتد طوال القرن العشرين، ولدا معا، وعاشا معا، ودفنا معا؟

لماذا اقترن العقل العربي بالإخفاق؟

يجهل الفكر العربي أو يتجاهل أن النجاح هو أن تبدع، هو أن تتفوق على السابق، هو أن تخترق المجهول بعد وعيك للمعلوم، هو أن تقنع بدلا من أن تخطب. مامضى من الفكر العربي كان خطابة وتهييجا وشعارات لا أكثر. قد يستغرب القارىء هذا الشيء ويرى فيه قسوة وتجنيا، انطلاقا من ترديد المفكرين العرب لضرورة الإبداع، لكنه سيكتشف بعد قراءته لوثائق هذا الكتاب أن فيه الكثير من الرأفة بهذا العقل.
أعود للإجابة على السؤال: عندما تستمع إلى ببغاء يردد قصيدة رائعة، فلن تملك سوى الدهشة وفغر الشفاه، لكن هذا المشهد المدهش، يظل تكرارا آليا قد تسد أذنيك عندما تسمعه عدة مرات، وقد تخرج هذا الطير من قفصه، وتتخلص منه في ساعة حزن أو غضب، ولن يسعفك الببغاء بقصيدة أخرى تناسب حالتك ما لم تقم بتلقينه مرة أخرى، لتعود المشكلة ذاتها، تتغير القصائد ويظل الببغاء مجرد جهاز للتسجيل لا أكثر.
الفكر العربي جهاز ضخم لتسجيل الأفكار وترديدها، إنه العقم في أتعس صوره، والملل في أسوأ أوقاته. يبدع المفكرون العرب في التحليل وطرح وجهات النظر بطريقة تجريدية مملة، لكنهم لا يكلفون أنفسهم بذل جهد بسيط من التجربة والحركة. فلاسفة الإغريق الذين احتقروا التجربة التي في متناول أيديهم، وافنوا أعمارهم في تخيل الفلك العاشر والتاسع وبقية الخرافات، ومحاولة الإتيان بألف دليل على ثبوت تلك الخرافة، هؤلاء لا علاقة لهم بالغرب اليوم، فالغرب لم يتقدموا إلا بعد أن هدموا تلك الأبراج العاجية التي يعيشها الفلاسفة، لينزل العقل البشري

للتعامل مع الكون مباشرة، بدلا من التعامل مع العقل الثاني والهيولي والجسيم الذي لا ينقسم، المفكرون العرب يعيشون في أبراج مماثلة، يسمعون طرق المستقبل لبابهم، وبدلا من أن يفتحوا ذلك الباب، يمضون أوقاتهم في نقاش عقيم حول شكل الطارق واسمه ولونه وما يريده استدلالا من صوت الطرق، وينصرف المستقبل عن ذلك الباب وهم في جدلهم الذي لا ينتهي.

لقد قرأوا وشاهدوا نهضة الغرب وفكره وصراعه وما وصل إليه، وهم يستلقون على أرائكهم كتنابلة السلطان، فعلوا ذلك واكتفوا، ثم قرروا أن كل ما فعله الغرب هو الصواب، ولكي نصل إلى ما وصل إليه علينا أن نستنسخ ما فعلوا تماما، وهنا تكمن الأزمة ويتجلى التخلف.

طه حسين في بداياته كان أقنوما للتخلف.. عاد من فرنسا الديموقراطية الراقية، يتكلم الفرنسية ويكتب بالفرنسية ويفكر بالفرنسية، عاد ليقول لمصر، إما أن تكونوا فرنسيين متقدمين، أو مصريين مسلمين متخلفين.

تخلصت فرنسا من كتابها المقدس فتخلوا عن القرآن .. بل تخلوا عن كل مايربطكم بالشرق والشرق الأوسط، فلا عنوان للنهوض سوى الغرب، فالغرب خير محض.

ومات طه حسين بعد أن فشل واعتذر، مات ومات مشروعه معه، مات مشروعه لأنه كان مجرد جهاز للتسجيل لا أكثر، مات مشروعه لأنه ليس مشروعه، كان مشروعا فرنسيا للفرنسيين أخذه معه للمصريين، لم يكن يوما مشروعا مصريا ولا إسلاميا ولا حتى عربيا.

مشهد الببغاء المدهش هو مشهد طه حسين في بداياته وأدونيس وأركون وأمثالهم، مدهشون لكنهم فاشلون، مجرد أوعية لحمل الفكر لا لإنتاجه، لأنهم يكتبوننا من هناك لا من هنا، يتحدثون عنا لا منا.

قد يقول قائل ألا ينطبق الحال على محمد بن عبد الوهاب والألباني والزنداني والوهيبي والعودة، وحتى عمرو خالد.. ألا يمكن وصفهم بالببغاوات المدهشة، لأنهم يرددون أفكارا ترجع إلى أكثر من ألف عام؟ ألا يعتبرون منفصلين عن حاضرهم، ممارسين إحلال الماضي بدلا من الحاضر، وهم بذلك ليسوا منفصلين عن الحاضر فقط، بل يرتكبون جريمة وأد المستقبل.

والإجابة هي أن محمد بن عبد الوهاب الذي خرج من بيوت الطين والأزقة المغبرة، والذي يمتطي الحمار والحصان كان نهضويا أكثر من طه حسين القادم من باريس.. ذات الشوارع المشجرة والمرصوفة، والمكتضة بالآلات الحديثة، والمزدانة بالمتاحف والمعارض والحدائق الجميلة؟

الإجابة هي في استمرارية هؤلاء وانقراض طه حسين.. في كون محمد بن عبد الوهاب ينتقل من تطهير العقل إلى تطهير بيوت الشعر والطين والحجر والمرمر، وتطهير الشارع والسياسة والاقتصاد و...

بينما يكمن التخلف بتقليد "حسين" لمن يهدم الكنيسة ليتجه لهدم المسجد.

هناك فارق كبير في التفكير والتطبيق والنتيجة.

الصورة الأولى: ابن عبد الوهاب فكر يقود الحركة،

بينما الصورة الأخرى: حركة تقود حركة.
الصورة الأولى: الفكر هو الحضور والبقية تداعيات.
الصورة الأخرى: غياب كامل للفكر وحضور كامل للمحاكاة والتقليد.
الصورة الأولى: تنبعث من الداخل من القناعات من الإيمان بالتغيير.
الصورة الأخرى: تنبعث من الدهشة والإعجاب والمشاهدة، من المتعة بالتغيير لا الإيمان به. ومن عدم القدرة على التسلل إلى العقل وإعادة تشكيله، وبالتالي تهشيمه وتهميشه.
الصورة الأولى لا تؤمن بشيء اسمه الفصل بين الحاضر والماضي والمستقبل، بل تؤمن بالإنجاز، الإنجاز هو المقياس وليس الزمان.
الصورة الأخرى مهووسة بالمكان والزمان، لذا تيمم نحو زمكان واحد وتمحوا ما عداه، وهذا ما عجل بسقوطها، وهذا ما سينكشف لاحقا بالأدلة لا بالإنشاء.

الجابري مفكر جاد غير متهور ولا مقلد، لكنه قلق.. فاجأنا بإخراج كتاب ينسف فيه تنظيره حول العقل العربي، ذلك هو كتاب (العقل السياسي).. كان الجابري – كما قلت – جادا في دراسته، مقارنة بآخرين كأركون وأدونيس، فالأول لا تخرج منه بطائل سوى حشر المصطلحات والأسماء الغربية لدرجة الصداع، أما الأخير فصاحب موقف إيدلوجي يعلن عنه منذ البداية، فهو يقول في أول أسطر كتابه (الثابت والمتحول): (في الخلافة ومسأليتها مفتاح أول لفهم التاريخ العربي، فهي ليست نقطة اللقاء بين الدين والدنيا فحسب، وإنما هي كذلك رمز لسيادة الدين على الدنيا ولممارسة هذه السيادة، أن يتولى المسلم منصب الخلافة هو أن يكون خلفا للنبي بمعنى ما، وأن يكون قائما بأمر الله، مؤتمنا على تنفيذ أحكامه، ثم يقول أدونيس – وهنا تتضح إيدلوجية الطرح لديه –: لكن المفارقة أن النبوة/الملك تأسست والنبي يحتضر في مناخ اقتتال، بل يمكن القول أنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف: الأقوى لا الأحق هو وارث النبوة/الملك، أو هو الخليفة) هكذا دون أمثلة أو دراسة أو حتى إحالة.
وليست الإشكالية في تعدد التوجهات ودوافع الكتابة، لأن الاختلاف سنة الحياة، ومن المستحيل أن ننتظر الحياد من الكتاب والمفكرين، فالمفكر يظل بشرا له محدداته ودوافعه التي يصعب عليه التخلص منها، إنما الإشكالية التي أعني، هي تجاهل الموضوعي الذي يمكن الاتفاق عليه، والذي بدونه تصبح الدراسة ونتائجها دون جدوى، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه بعد الفراغ من هذا الموضوعي، يصعب من جديد الاتفاق على كيفية توظيفه، لكن على الأقل لابد من الخروج بشيء مشترك قبل البدء بتناول هذا الموضوع الضخم، أعني العقل العربي، هذا المشترك هو الجانب الموضوعي في الدراسة، والذي بدونه يصبح البحث انتقائيا لا قيمة علمية تذكر له، والمشترك هذا يلح في طرح أسئلته الخاصة ومن أبرزها السؤال العريض: لم يمثل التراث حجر الزاوية في هذا العقل؟ ما سر احتلاله هذا الثقل في التأثير على العقل العربي؟

إذا كان التراث بهذه الأهمية وهذا الثقل، فلا بد من سبر الآلية التي تم بها وصوله إلينا، لإن لهذه الآلية تملك الكثير من مفاتيح الأجوبة التي يجهلها الناقدون للتراث، وبما أن التراث ينتمي – وجودا – للماضي، فما الآلية التي من خلالها يتم فرز التراث وتصفيته من التراكمات التي علقت به وامتزجت به ولوثته؟ ما المرجعية التي يمكن الوثوق بها، نظرا لحيادها وتجردها وموضوعيتها؟

المفكرون العرب – ولا أستثني – أحدا.. أميون في هذا الجانب ولكن بدرجات متفاوته، ولذلك فهم يمارسون في دراساتهم نوعا من الأمية المركبة، ومنها يلجأون إلى الهروب إلى الأمام قفزاً فوق هذا الفراغ الهائل في دراساتهم، وهذا ما أكسبها هذا القلق والاهتزاز في الطرح، لأن البناء على معطيات خاطئة يؤدي إلى أخطاء مضاعفة، أما مقتل الدراسات الفكرية العربية التي تناولت التراث العربي، وبالذات تراثه السياسي، فهو في ذلك الجهل المخيف في التعاطي مع المنهجية العربية النقدية لدى نقاد التراث الأوائل في تناولهم لوثائق التراث العربي، هذا الجهل أو التجاهل يساعد المفكر العربي في المضي قدما في تقديم السيء تلو السيء في التحليل واستخراج النتائج، وبالتالي في سوء فهم الواقع العربي الذي يعتبر التراث أحد مكوناته العميقة والمهمة،

لدينا منهج نقدي ضخم وثري لم يزل في طي النسيان واللامبالاة من قبل المفكر العربي، والأدهى من ذلك، هو ما نسمعه ونقرأه من انحطاط في تناول بعض ألفاظ ذلك المنهج للتندر، كما يفعل أصحاب الطرح الليبرالي في منتدياتهم الإلكترونية بعيدا عن أسمائهم الحقيقية.

أجدني هنا مطالبا بفتح الباب لتناول هذا النوع من الدراسة من قبل المفكر العربي، لا من قبل المتخصصين فيه، فهو بالنسبة لهم زاد يومي وممارسة مستمرة في تعاملهم المستمر مع التراث، لأنني أرى أن القضاء على تلك الأمية لدى المفكرين العرب هو نوع من إيجاد أرضية صلبة، يمكن الوثوق بالالتقاء والاتفاق عليها والانطلاق منها.

لقد تكلم المفكرون العرب كثيرا لكنهم لم يقولوا شيئا، ونظروا كثيرا لكن عن غير العقل العربي، كانوا يمارسون غيبوبة كاملة عن لبه وجذوره.

فمفكر كالجابري بدأ مفهومه للعقل العربي من عصر التدوين، عندما اتضحت تلك الصورة للمنظومات المعرفية التي يدعي أنها تمثل العقل العربي (البيانية والعرفانية والبرهانية). ثم نسف كل تنظيره ومجلداته تلك بعد أن فاجأنا بإصداره لكتابه (العقل السياسي العربي) وذلك بارتداده ليجعل من نقطة تكوين ذلك العقل وبدايته هو عصر البعثة النبوية.

بدايات انتقائية وقلقة، تكشف أن المفكر العربي ينتقي من الماضي ما يتماهى مع الحاضر، ويشطب ما عداه، وهي عملية لا تمت للفكر ولا للعقل بصلة، هي ممارسات عاطفية تبريرية، كمن يبحث في التراث عن صحابي قتل أو سرق، كي يبحث عن مبرر لا رتكابه، ويلغي ما عدا ذلك، أو كحاكم ينتقي من التاريخ أسوأ ما فعل أسوأ الخلفاء من قبله كي يبرر ممارساته.

ما فعله الجابري كان مشابهاً لدرجة ما مع هذا المنهج، فمن المفترض منطقيا وعقليا أن دولة تحولت في زمن قياسي مذهل إلى أعظم إمبراطورية في التاريخ وأطولها عمراً وأقواها أثرا، لم تقم إلا بعد نضج عقلي وفكري.
الكارثة التي ارتكبها الجابري هي في تعريفه للعقل العربي بأنه: (العقل الذي تكون وتشكل داخل الثقافة العربية، في نفس الوقت الذي عمل هو نفسه على انتاجها واعادة انتاجها) الكارثة هنا هي إيديلوجية التعريف. إنه تعريف للعقل الغربي بعد تغيير كلمة عربي.
مغالطة علمية وتاريخية فاضحة، ركض الجابري في مسافات التاريخ ليبحث عن عصر له مقاس التعريف، فوجد أن أنسب تلك العصور الإسلامية هو عصر التدوين، حيث تبلورت المنظومات المعرفية الثلاث: البيانية والعرفانية والبرهانية، وهذا التوقيت يتناقض مع التعريف التفصيلي للعقل العربي الذي قدمه بقوله: (إن وجهتنا الوحيدة هي التحليل (العلمي) لـ(عقل) تشكل من خلال انتاجه لثقافة معينة، وبواسطة هذه الثقافة نفسها: الثقافة العربية الاسلامية)
إن ربط العقل العربي بالإسلامي هو نوع من الارتباك المفضي إلى تخل تام عن التعريف الأول، فالعقل العربي الذي يتحدث عنه لم يتشكل على الإطلاق داخل الثقافة العربية. ولم تكن العربية سوى وعاء لا أكثر لتلك الثقافة، أما حشره للثقافة الإسلامية فمغالطة أخرى، فالثقافة الإسلامية التي شكلت هذا العقل لم تأت كنتيجة.. الثقافة الإسلامية لم تسبق بأية مقدمات أو أنشطة ثقافية، ولم تأت نتيجة تراكمات على الإطلاق.
إن بدايات العقل العربي الذي تناوله الجابري لم تكن كبدايات غيره من العقول على الإطلاق، ولا مثيل لبداياته على امتداد التاريخ، فهو لم يكن نتيجة تراكمية، أو امتدادية، أو تشعبية لما قبله، بل كان نسفا وإعادة خلق من جديد، وهذا ما أربك الجابري عند كتابته للعقل السياسي، حيث وجد في عصر النبوة ما يسعفه، فشد الرحال عائدا بقلمه من عصر التدوين إلى عهد البعثة. لأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أسس دولة سياسية، وقد فات الجابري أنه لم يقم دولته على أنقاض دولة سابقة، ولم يقم بانقلاب عسكري ليؤسس بعده دولة يفصلها إسلامياً، ولم يرثها عن آبائه وأجداده، ليقوم بعدها بنقلة حضارية، بل إنه لم يقمها على أرض قومه ولا بين عشيرته. لقد أقام دولته بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة العقدية والتربوية السرية والجهرية الإسلامية الصرفة، ثم الهجرة والنجاة بدعوته، ولم يضع لبنة من لبنات دولته إلا وقد سبقتها كلمات من القرآن أو السنة، ولم يأمر بتنظيم أو تشريع إلا وقد سبق بوحي من الوحيين. والعرب في عصره لم يكن لهم من دولة.. كانوا قبائل متناحرة تتوارث الدماء والثارات والأصنام.
إن منهجية الجابري منهجية مرتبكة وغير منضبطة، فهو يمارس الهرب إلى الأمام عند تعريفه للعقل العربي بمفهومه الفكري والعقائدي، لكنه سرعان ما يرتد إلى عصر البعثة ليشكل عقلا سياسياً، ويتناسى أنه قد سبق بتكوين عقلي وأخلاقي

رصينين. ولا أدل على ارتباكه المنهجي من تساؤله عن عدم جدوى قرآءة العقل السياسي قبل الفكر، فهو يرفض ذلك الطرح.
إنه يقول في ص٧: (وليس من الممكن فصل الثقافة عن السياسة في التجربة الثقافية العربية، وإلا جاء التاريخ لها عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة) وهذا ما يتناقض مع ما رسه في كتاباته.
ثم هل صحيح أن العقل العربي تبلور من هذه المنظومات المعرفية الثلاث: البياني والعرفانية والبرهانية؟ وهل صحيح أن العقل العربي بدأ يتشكل من عصر التدوين؟ هنا الإشكالية التي أوجدت ما أسميه (الفكر العربي المتشظي)
المحير في الرؤية الجابرية هنا هو انطلاقها من تداعيات الرؤية الإسلامية فقط، فالجابري لا ينطلق من العربي على الإطلاق، بل من الإسلامي. فالعقل السياسي الذي يتناوله هو العقل الذي شكلته الدولة النبوية والراشدة وما بعدها. العقل العربي هو قراءات متعددة للنص الإسلامي فقط، وكأنه إقرار من الجابري بأن العقل العربي لا يزال غير قادر على الانفكاك من الإسلامي، رغم أنه ينسبه لوعائه، أي للعربي فقط، وأمر آخر – ضمني – أشد خطورة، وهو أنه في الحقيقة لا وجود للعقل العربي في تاريخ الأمة.
وهي النتيجة التي أفزعت الدكتور جورج طرابيشي، الذي رأى في نقد الجابري تجاهلا تاما للفكر المسيحي، وتغييبا لأي أثر للكتاب المقدس والثقافة المسيحية، فسطر كتابا حماسيا.. كتابا إيديلوجيا تحدث في مجلده الأول عن كل العقول إلا العقل العربي.. كتابا انتقاميا اسمه (نقد نقد العقل العربي) لدرجة أنه كتب أكثر من مائة صفحة (خارج الموضوع) في بداية الكتاب دون أن يتطرق للإسلام، بل إنه لم يكتب عن الإسلام إلا من باب الاعتذار للمسيحية، فعقد مقارنة عاطفية بين الإسلام والمسيحية وصفها بـ(وجهة نظر تاريخية لا إيديلوجية) بينما هي تقريرية غارقة بالإيديلوجيا كما سيأتي في التمهيد الذي خصصته لأدونيس وطرابيشي في هذا الكتاب، والذي أخذ بملاحقة الجابري كلمة كلمة، من أجل إسقاطه أخلاقيا أولا، ليسهل القضاء على كتابه لاحقا، فتحول الكتاب إلى مشاجرة بعيدة عن الكتاب نفسه.. أشبه بفهرس لمعروضات في متحف، محولا نفسه إلى مؤلف استعراضي.
لكن المحير في الرجلين هو بعدهما عن جذور الإشكالية: الجابري بدأ بعصر التدوين وجعل الإسلام وتداعياته كل شيء.
طرابيشي حشا كتابه بأخبار الأمم الغابرة على طريقة الأقدمين ليخفف من الثقل الإسلامي.
أما أدونيس فقد اختصر ما يريد بكلمات تنضح بالمواقف، فجعل مشكلة الفكر العربي هي في كون جذوره إسلامية، ولهذا دعا إلى التخلص من تلك الجذر المشكلة كشرط لنهضة الأمة العربية على كافة الأصعدة، وهو أمر ستكشفه أوراق هذا الكتاب.

وبعيدا عن حمية جورج طرابيشي (المسيحية) فإن ما كتبه الجابري حول العقل العربي، وما كتبه أدونيس مؤداه أن هؤلاء المفكرين لا يتحدثون عن شيء اسمه (العقل العربي)، بل لا وجود في كتاباتهم لما يسمى بالعقل العربي.

ففي الجانب التكويني والبنيوي لهذا العقل، ومن خلال اتجاهاته الثلاث:

(البياني - الفقهي) و(العرفاني – الصوفي) و(البرهاني – الفلسفي)

يتضح أن الجابري لا يتعاطى مع غير النصين الإسلاميين – القرآن والسنة، بل إن تنظيره كله متمحور حول تداعيات هذين النصين.

في الاتجاه البياني مثلا: الحراك اللغوي كان إفرازاً نصيا: النحو علم أنتجه الحرص على سلامة نطق لغة القرآن وفهم النص وتفسيره، والبلاغة علم أنتجه بيان الإعجاز اللغوي للقرآن، والتجويد علم صوتي أنتج لتقويم قراءة القرآن وإجادته، وإلا فإن اللغة العربية قد نضجت قبل نزول القرآن، فلم لم يتم التنظير لها قبل نزول القرآن، ولم لم يتم الاشتغال بها نحوا وصرفا وبلاغة إلا حرصاً على القرآن لا على اللغة نفسها، بل إن الثورة العلمية الكتابية القياسية ما كنت لتحدث لولا نزول القرآن، فالأمة العربية أمة أمية لم تؤلف كتابا، ولا تحتوي على أية مكتبة، وكلما حدثنا به التاريخ هو مجرد سبع قصائد – مشاعر – كانت تعلق على الكعبة وبعض الشفهيات التي كانت تردد في الأسواق الموسمية.

الحراك الفقهي الضخم، ثورة جديدة لم يكن للعرب أدنى معرفة بها، فتفسير النص فقهيا كان نتاجا نصيا لتوضيح أحكام القرآن والسنة، التفسير كذلك، وما نتج عنه من الحض على قراءة ما عند الآخر – من إسرائيليات – تتحدث عن قصص الأنبياء السابقين، والتحريض على الكشف عن تراث الآخرين الذين جرى التطرق لهم في النص القرآني.. كل ذلك ما كان ليحدث لولا وجود النص القرآني في هذه الأمة العربية الأمية.

الاتجاه العرفاني – العربي لم يكن له وجود رغم قدم الغنوصية ووجودها قبل الإسلام، لكن الغنوصية العربية ما كانت لولا نصوص القرآن والسنة التي تمس الجانب الروحي، فالعربي كان يتعامل مع ما أمامه مباشرة، لا يعنيه الماضي إلا بما خلفه أجداده له من انتصار في حرب، أو أخذ بثأر، أو تميز في شجاعة أو وفاء أو كرم، كما أن عقيدة البعث والآخرة لم تكن حاضرة في تصوره أو ممارساته أو اهتماماته.. كان العربي ساذجا يتعامل مع ما أمامه من محسوساته، لدرجة أنه صنع لنفسه إلها يستطيع لمسه، لأنه لا ريد إجهاد عقله بالتفكر في الكون والحياة والخالق لهما، كما فعل اليونان، وليس يعيش في طبيعة خلابة مليئة بالجمال والغموض والتحولات المناخية، التي تثير مكامن العقل والخيال، كما حدث لليونانيين والهنود والفرس وهم يتخيلون أساطير عن آلهة للخصب والمطر والحرب والمطر والبحر، وآلهة نصفها ثلج ونصفها نار، وآلهة للظلام وأخرى للنور... كانت الجزيرة العربية قاحلة جداً طبيعة وروحاً وفكراً، والنص القرآني هو الذي حمل العرب إلى حدود الغنوصية والتعامل معها.

الاتجاه البرهاني لم يكن لولا محاولة التوفيق بين نصوص القرآن والفلسفة اليونانية، أو ما يمكن إدراجه تحت إشكالية النقل مع العقل، فالعرب كما أسلفت لم يكن لديهم معرفة بفلسفة اليونان، وإعجاب بعض الدارسين لذلك الفكر المغرق في التجريد جعلهم يحاولون التوفيق بين عقيدة القرآن وفلسفة اليونان، ولولا نص القرآن لظل العرب يحلمون حتى اليوم بحدائق الروم والفرس.

ومع هذا كله يظل الجابري الأبرز في فقه الفكر العربي، رغم ابتعاده عن محرك العقل العربي وقلبه.

إذا فلا بد من العودة إلى البدايات الحقيقية لتكوين العقل العربي، ولا بد كذلك من التخلص من أزمة الهرب إلى الأمام التي تحرج المفكر العربي إحراجاً مخيفاً لدرجة الرعب، ولا بد أيضاً من كشف سبب الإحراج الذي تمثله العودة إلى مكونات العقل العربي الحقيقية.

العقل العربي الحقيقي

هناك عقل عربي لا شك، لكن لا يمكن أن يكون العقل بذلك التعريف والتحليل الذي قدمه الجابري عربياً، لأن ذلك التعريف والوصف – مع قصوره وانتقائيته – لا ينطبق إلا على عقل إسلامي، فأسباب نشأته ومنطلقاته ومكوناته وروافده وتاريخه وجغرافيته إسلامية بحتة، بل ورجاله الذي أسهموا في تكوينه مسلمون، بل إنهم عاشوا معاركهم الفكرية لإثبات إسلاميتهم أكثر من أي شيء آخر، كما أنه لا يمكن تصور وجود العقل العربي دون وجود الإسلام، إذا فتحديد الجابري يمكن قبوله كتحديد لجزء من مكونات العقل العربي. وبالتالي فلا بد من البحث عن مكونات العقل العربي.

مكونات العقل العربي

للعقل العربي روافد عدة يشترك فيها الإسلامي ضمن طيف متعدد من الروافد والمكونات، فالمسيحي بكل تفرعاته، واليهودي بكل تفرعاته، والمجوسي والوثني بل والملحد، كلها روافد للعقل العربي، ولا يمكن استبعاد أي مكون بداعي عدم التأثير الواضح، فهذه الروافد هي ما يمنح العقل تلك التسمية، بل العرب عرفوا الإسلام – الذي جعله الجابري أول ووسط وآخر مكونات العقل العربي – بعد تلك الثقافات كلها، فالوثنية كانت تشكل الأغلب من ثقافة القوم، والنصرانية منتشرة في نجران واليمن وديار طي، وحتى نجد وبالتحديد ديار بني حنيفة.

أما اليهود فكان توزيعهم الجغرافي في جزيرة العرب مرهوناً ببيئة جغرافية محددة، بيئة تكثر فيها النخيل، وهذا ما تؤكده نبوءة في التوراة موجودة حتى اليوم، ولذلك توجه اليهود إلى أراض ذات نخل مثل: خيبر وفدك ويثرب (المدينة) والتي استوطنها أكثر من أربع قبائل يهودية، حيث كان تركيزهم وكثافتهم.

أما الإجابة على التساؤل الذي يقول: لماذا لم يذهب اليهود إلى أرض أغنى بالنخيل كالعراق مثلاً ؟ فالإجابة عليه تكمن في نبوءة التوراة التي تتحدث عن وحي في بلاد العرب سيخرج من جبال فاران (جبال مكة) وما زالت هذه النبوءة موجودة في

التوراة حتى اليوم بهذا النص: (Dt:٢٣:٣٣: فقال.جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلألأ من جبال فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم)

و: (Is:١٣:٢١: وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب، فانه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل، لان الرب إله إسرائيل قد تكلم)

وهذه النصوص تتحدث بدقة عن مجيء وحي من جبال مكة (فاران)، والوحي الوحيد الذي خرج من جزيرة العرب هو ما نزل على محمد عليه السلام، كما تتحدث عن ملاحقة ومطاردة وهجرة لهذا الوحي خوفا من أبناء عدنان (قيدار)، كما تتحدث عن سقوط طواغيت أبناء عدنان (زعماء قريش) في غزوة بدر التي وقعت بعد عام من هجرة محمد عليه السلام من مكة. وهناك نصوص أخرى تدل على أن هناك ما حفز اليهود عقائديا للقدوم للجزيرة العربية، وبالتحديد حول جبال فاران، أي حول جبال مكة.

إذا فالعربي عرف الديانات قبل الإسلام وإن كان آخرها ظهوراً (الإسلام).

وبالتالي فاختزال العقل العربي في الإسلامي، نوع من تمجيد العقل العربي بربطه بالمتفوق والأبرز، وهو أسلوب مجاف للموضوعية كما تشير كتابات طرابيشي، وهي حقيقة مرة لا مفر منها، ولا بد من التخلص منها حسب كتابات أدونيس، فجورج طرابيشي أفزعته هذه الهيمنة الإسلامية على العقل العربي كما رسمها الجابري، فراح يجمع ويكدس كحاطب ليل معلومات من هنا وهناك، عن الهنود والفرس وعلاقتها بالعقل بموازات علاقتها بالسحر والشعوذة والتنجيم، وراح يماحك في المصطلحات ويتتبع الجابري في تعريفاته ونقولاته ونتائج دراساته، وكأنه يعيش ثأراً ضد الرجل لا حواراً ونقداً، وهذه النوعية من الإيديلوجيين الذين يلبسون لباس الموضوعية تحيرك فعلاً، فهم يعيشون حالات جدل لا نقد ودراسة، ويمارسون خلط الأوراق في كل مرة ويتناقضون تناقضاً مكشوفاً، لكن قراءة كتاب واحد تكشف كتاباتهم المدفوعة بالمواقف لا البحث العلمي.

وقبل البدء في تفاصيل العقل العربي والمسكوت عنه، أود البدء بتمهيد مختصر عن نماذج عربية تعد الأشهر في تناول العقل العربي، وتمثل العقلية الكتابة العربية السائدة والنمطية اليوم.

النماذج الإيديلوجية المتطرفة في التعاطي مع العقل العربي
جورج طرابيشي

لعل أبرز الرسائل التي تفصح عن موقف جورج طرابيشي تجاه أسلمة الجابري للعقل العربي رسالته الصغيرة المعنونة بـ:(مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام) والتي يقول في أول أسطر مقدمتها: (لا أكتم القارئ أن هذا الكتاب كان يفترض به في الأصل أن يؤلف فصلا – لا أكثر – من جملة فصول المشروع المتعددة الحلقات لـ(نقد نقد العقل العربي) رداً على مشروع عابد الجابري)

تلك الرسالة الصغيرة رغم ما كان فيها من إنصاف مفخخ في المقدمة، كانت بوضوح نوعا من التزييف الذي يحسب على طرابيشي ككاتب علماني، ليدرجه ضمن الكتاب الإيدلوجيين، إلا أنه وفي غمرة حماسه قدم لنا قائمة ببعض الوثائق الهامة التي ساهمت في تشكيل العقل الغربي، ومنها قائمة بالمجازر المسيحية التي ارتكبتها المجامع الكنسية ومحاكم التفتيش، والقساوسة والرهبان ضد العقل والفلسفة والفلاسفة، وضد الآخر الوثني واليهودي، بل ضد المخالف في الرأي داخل العقيدة المسيحية نفسها، ولما بدأ حديثه عن مصير الفلسفة داخل الثقافة الإسلامية، ذكر شيئاً لا يليق إلا برجل لا علاقة له بالبحث والموضوعية.

لقد قال بالحرف الواحد ص ٦٨: (إن محاكم تفتيش ومحارق حقيقية قد أقيمت للفلاسفة وكتبهم) أي عند المسلمين. ولو تأملنا كلمة: (محارق حقيقية قد أقيمت للفلاسفة وكتبهم) في الحضارة الإسلامية لجزم القاريء بأنه قد تم إحراق فلاسفة من خلال محاكم تفتيش إسلامية.

لن أتقول على الرجل، سأترك له المجال ليذكر بنفسه قوائم المحارق المسيحية، ثم أتركه كي يذكر بنفسه أيضاً المحارق الإسلامية وأسماء الفلاسفة الذين تم حرقهم على أيدي المسلمين، حتى يكنشف مستوى طرحه الفكري في نقده للعقل العربي.

المحارق المسيحية للآخر

لن أنقل عن طرابيشي ما يعتبر جدلا أو تزييفاً أو تسطيحاً أو دفاعاً أو نقداً أو حتى تكفيراً في الثقافة المسيحية. سأكتفي بما يمكن إدراجه ضمن مفهوم القمع وتصفية الآخر في نقاط، ثم أترك للقاريء الحكم حول موضوعية إستاذ نقد نقد العقل العربي (طرابيشي) وحجم المواقف الإيديلوجية في كتاباته.

كانت المسيحية مضطهدة حتى تنصر الإمبراطور قسطنطين بعد عام ٣٠٠م، وعندها تحولت المسيحية من حالة الاضطهاد إلى ممارسة الاضطهاد ضد مخالفيها، لكن الغريب هو أسلوب التشبيه الذي أطلقه طرابيشي على ذلك التحول بقوله ص٤٢: (مع تنصر قسطنطين انتقلت المسيحية بعد تأخر ثلاثة قرون من طور (مكي) إلى طور (مدني) إن جاز التعبير، والتقاء الدين والسلطة يتأدى لا محالة إلى تسنين العقيدة orthodoxisation ، أي إلى تغليب كفة العقيدة القويمة أو الصراطية على الهرطقات كافة. وهو تطور نستطيع أن نجد موازياً تاريخياً له

في الإسلام أيضاً من خلال ظاهرة تبديع الفرق والتسييد السياسي واللاهوتي معاً (الفرقة الناجية) وحده)
وهنا أجد طرابيشي – بغض النظر عن التسميات – انتقائياً سطحياً يلصق أحداثاً في طرف، مع أخرى في الطرف الآخر لمجرد التشابه الظاهري، دون أدنى التفاتة للعمق: فالعهد المكي الإسلامي كان بقيادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكانت المرجعية للمسلمين هي القرآن وسنة نبيهم.
بينما كان ما أسماه (العهد المكي المسيحي) يعني فترة طويلة جدا تعادل عمر ثلاثة دول إسلامية، وهذه الفترة تتضمن أحداثاً كثيرة منها: نزول الوحي على عيسى ﷺ واضطهاده و(صلبه كما في أناجيل اليوم) ثم اضطهاد أتباعه، ثم اعتناق بولس (شاءول اليهودي) للمسيحية، ثم قفزه بأحكامها وعقيدتها وهو ما يسمى (المسيحية الثانية) وهي مسيحية مزقت المسيحية إلى عشرات الفرق، فتعاليم بولس أعظم عند المسيحيين من كلام عيسى (الذي هو عندهم ابن الله)، لأنه ناسخ له، ومن هذه الفرق التي حرمت حق التعبير وتمت مصادرة رأيها وأناجيلها وعقيدتها من قبل الكنيسة نفسها: الأريوسية، والبازيليدية، الفالانتانية، الكاربوقراطية، القطافريجية، النوفاتية، الدوناتية، الكليوبونية، الأبيونوتية، المرقيونية، الونتانية، الميناندرية، النيقولائية، السابلينية، السمعانية،الساويرية، النعسانية، الشيتية، البيراتية، الساترنيلية، الانكراتية وغيرها وغيرها.
وفي (العهد المكي المسيحي) أيضاً، تحولت المسيحية من عقيدة تبشير تعتمد على التعليم والتبشير معاً، إلى مسيحية كنسية مكونة من أساقفة وكهنة ورهبان لا يهتمون بالتفكير والبحث والاجتهاد، بل بالإيمان دون تفكير فقط، وقد وصفها الفيلسوف (فرفريوس ٣٠٣م) أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة (تاريخ الفلسفة اليونانية ٢٨٧م) وزعيمها بعد أستاذها أفلوطين: وصف فرفريوس المسيحية بأنها (إيمان لا عقلي) وسمى مؤلفي الأناجيل بأنهم: (مخترعوا لا مؤرخو الأشياء التي عن يسوع) ووصف تلك الديانة وأناجيلها بأنها: (مشروع بربري يتهدد الحضارة)
أما ما يسميه طرابيشي (العهد المدني المسيحي) فقد تكون بعد أن تحولت المسيحية إلى طوائف يكفر بعضها بعضاً، وكل طائفة تدعي أن إنجيلها هو الصحيح، كما أن الدولة المسيحية الجديدة لم تقم على يد عيسى ﷺ (يسوع) المؤسس الأول، ولا على يد مؤسس المسيحية الثانية شاءول (بولس)، الذي كان – قبل ذلك – سفاحاً يقتل ويأسر ويلاحق أتباع عيسى، ولا على يد الجيل الثالث ولا الرابع، بل قامت الدولة على إثر اعتناق امبراطور روماني وثني (قسطنطين) لمذهب واحد ضمن عدة مذاهب، واختياره لتفسير على عدة تفسيرات، أي أن الدولة لم تقم أبدا على فكر مسيحي، بل كانت دولة وثنية مكتملة سياسيا وإداريا واقتصاديا وعسكريا، وكانت تلك الدولة جاهزة بجيوشها وأسلحتها وهياكلها الإدارية لفرض مذهب من بين عشرات المذاهب المسيحية، دون برنامج تربوي أو دعوي، فكانت الفظائع والمجازر والمحارق التي ارتكبت في العهد المدني المسيحي "كما سماه" ومنها ما ذكره طرابيشي نفسه وهو الآتي:

أصدر قسطنطين عام ٣٢٣م مرسوما يقضي بتحريم وحرق كل كتب الفيلسوف فرفريوس.
أمر قسطنطين بعقد مؤتمر (مجمع) في مدينة نيقيا عام ٣٢٥م، وفيه كانت الغالبية تؤيد رجل الدين المسيحي (إريوس) وهي تؤمن بأن عيسى (يسوع) نبي كريم وبشر وليس بإله ولا ابن إله، لكن الإمبراطور قسطنطين هدد وتوعد إريوس ومن يرون رأيه بالنفي والملاحقة.
يقول فيلوس غطرس ٤٣٠م - نقلا عن طرابيشي ٤٥ -: (امتنع أنصار آريوس عن المصادقة على عقيدة المجمع، لفظ الأمبراطور حكمه بأن جميع الذين سيأبون القبول بما أجمع عليه الأساقفة، سواء أكانوا كهنة أم شمامسة أم غيرهم من أعضاء الإكليروس سينفون، وقد كلف فيلومانس بتنفيذ هذا الأمر، وكانت وظيفته بحسب تسمية الرومان قاضياً، فقدم بالتالي لآريوس ولمن كانوا معه الصيغة المكتوبة، وخيرهم بين التوقيع أو النفي... فاختاروا النفي) وهذا يعني بدء مرحلة التصفيات على مستوى المسيحية نفسها، تصفية من تسميهم الكنيسة: (الهراطقة)
تولى قنسطنسيوس ابن قسطنطين فطبق سياسة القبضة الحديدية التي لا ترحم والتي أبادت الوثنية بالقوة، وأرغمت الناس على الدخول في المسيحية القسطنطينية بالحديد والنار، وأصدر مرسوماً بإغلاق المعابد غير المسيحية، ومن يدخلها تحز رقبته وتصادر ممتلكاته.
في نهاية حكمه أصدر ثلاثة مراسيم أعوام: ٣٥٦ و٣٥٧ و٣٥٨م ضد كل شيء يخالف الكنيسة القسطنطينية حتى ولو كان مجرد علم كالرياضيات والفلك، وحكم على كل من يتعاطى تلك العلوم أو غيرها بالإعدام والسجن، بل إن القرار لا يشمل من يمارس تلك الأشياء بل من يطلب مشورة أصحابها. وماينقله جورج طرابيشي هنا يعني – بالضبط – أن العهد المدني المسيحي كان عهد دخول الظلام على أوروبا بدخول المسيحية إليها، فعلى يدها تم إعدام علماء الرياضيات والفلك وغيرهم، ناهيك عن الفلاسفة حيث تم القضاء عليها تماما في ذلك العهد. ثم ينقل طرابيشي:
تتابعت مطاردة المخالفين حتى جاء عهد الأمبراطور ثيودوس.
في عام ٤١٥م وبأمر من الأسقف كوريلوس.. قاد راهب اسمه بطرس في الإسكندرية مجموعة من أتباعه المسيحيين بمهاجمة الرياضية والفيلسوفة (هيباثيا) وقد كانت تشغل منصب (كرسي الفلسفة) في الأسكندرية، فقام الرهب بطرس ومن معه بقتل الفيلسوفة، ثم قاموا بسحلها في الشوارع، ثم قاموا بحرقها تقربا للسيد المسيح في (يوم الصوم الكبير) في آذار ٤١٥م.
بعد اختيار الراهب (نسطور الفارسي) بطريركاً لكنيسة القسطنطينية عام ٤٢٨م بأمر من الأمبراطور ثيودوس طلب من الأمبراطور أن يواصل حملته القمعية في أول خطاب له.

بعد خمسة أيام من توليه منصبه الديني أمر نسطور أتباع الراهب الموحد أريوس بتسليم كنيستهم التي بقيت لهم في القسطنطينية، لكنهم رفضوا فتم حرقها، واحترقت معها المنازل المجاورة.
بعد بضعة أسابيع ٣٠ أيار ٤٢٨م أصدر الأمبراطور أمراً بتجديد تتبع الفرق المسيحية السابقة.
أرسل نسطور راهبا اسمه أنطونيوس وهو أسقف (جرما) لإرغام المقدونيين على ترك مذهبهم المخالف لمذهب قسطنطين فقتلوه، فصودرت كنائسهم في القسطنطينية وفي مدن أخرى.
رفض (نسطور) اعتبار مريم عليها السلام (أم الله) وقال إنها (أم المسيح) وأودع المحتجين عليه السجن وضربهم،
تدخل البابا وعقد مجمع أفسس ٤٣١م للخروج بنتيجة قد اتفق عليها مسبقاً، وهي إدانة (نسطور) وعزله وأخرج قراراً – لافتوى – بلعن نسطور ومن لا يلعنه فعليه اللعنة، العقيدة القويمة تلعنه، والمجمع المقدس يلعنه، بل من يتصل بنسطور فهو ملعون.
تم الحديث بلسان يسوع عن طريق المجمع: (سيدنا المسيح يعلن بلسان هذا المجمع عزل نسطور) وقد جرد من كل ألقابه ونشاطاته وتم نفيه ومطاردة مقلديه ولعنهم معه.
مما سبق يتضح أن الحوار في الكنيسة لم يكن يرتقي إلى مستوى تداول الأدلة، وتحرير محل النزاع، وتلمس العذر للمخالف، كانت أوامر تتلوها ثورات أو ثورات مضادة، نظراً لافتقاد المرجعية الأصلي (الكتاب المقدس) نفسه للشرعية، فهناك عشرات الأناجيل وكل يغني على ليلاه، وليست القضية إنجيلا واحداً والخلاف على فهمه، فالجميع لا يستدلون بنص، بل بفهم، ويقتلون ويحرقون ويلعنون من أجل فهم قد يكون خاطئاً.
عقد مجمع خلقيدونية ٤٥١م وانتصر لعقيدة الطبيعتين، فاشتعلت (وهاجم الرهبان القدس من جميع الأديرة المجاورة لها، واستولوا عليها وأضرموا النار في البيت، وحثوا على الفتنة والعصيان، وذبحوا أشخاصاً موقرين معروفين بتقاهم، وفتحوا أبواب السجون بالقوة، بل إنهم حاولوا قتل الأسقف، فلما أعياهم الأمر ذبحوا أحد أعوانه - سواريانس السقيطي. تاريخ الكنيسة ٤ - ٢٧٧ نقلا عن طرابيشي مصائر ٥٤).
في العام نفسه عزل مجمع خلقيدونية أسقف الإسكندرية، فهاج الناس ضد الجيش الذي يريد تنفيذ القرار، فلجأ الجنود إلى معبد السرابيوم، فحوصروا ثم أحرقوا داخل المعبد وهم أحياء.
كانت ردة الفعل عنيفة، أوقف توزيع الحنطة، واحتلت الإسكندرية.
بعد وفاة الإمبراطور عام ٤٥٧م زحف المعارضون لأسقف كنيسة الإسكندرية المركزية (بروتاريوس) وذبحوه وعلقوه على العمود المربع، ومثلوا به بفظاعة

وجروا جثته في الشوارع، ثم أحرقوه وذروا رماده في الرياح، وتتابعت أحداث دامية قتل على إثرها أكثر من عشرة آلاف قتيل.

في عام ٥٢٧م تولى الأمبراطور يوستنيانس وحكم حتى عام ٥٦٥م، وقد أصدر بعد أيام من توليه أوامره بتنفيذ نتائج مجمع خلقدونية بصرامة، كما أمر بطرد جميع الأساقفة المخالفين وتجريدهم من مناصبهم، وأعيد فتح ملف الموحدين الآريوسيين، فأغلقت كنائسهم وفصلوا من وظائفهم المدنية والعسكرية، وطارد اليهود والبقية الباقية من الوثنيين، ومنع مخالفيه من احتراف مهن حرة كالمحاماة والتعليم، وأصدر أمرا بإبطال شهادتهم في المحاكم، وقام بحرق اليهود السامريين، والمانويين وصادر أملاكهم، وعذبهم قبل ذلك بالجلد والكي، وأجبر خمسين ألفا منهم إلى الهجرة إلى بلاد فارس، فثار المتعاطفون معهم من الطائفة نفسها، فأحرق وأعدم منهم عشرين ألفاً، وحول عشرين ألفاً إلى عبيد، ومنعوا من تعلم التوراة أو دراستها باللغة العبرية حتى يؤكد محو هويتهم، وعامل الطوائف اليهودية التي لا تؤمن باليوم الآخر.

بعد توليه بقليل عدل مدونة قانونية، وجعل هذه المادة تقول بإرغام جميع الوثنيين رجالا ونساء، ومن يكتشف أنه غير مؤمن بالمسيحية فإنه يعدم.

في عام ٥٢٩م أمر الأمبراطور يوستنيانس بإغلاق جامعة الفلسفة في أثينا وبذلك تم القضاء نهائياً على الفلسفة اليونانية على يد المسيحية في عهدها المدني.

في عهد الأمبراطور يوستنيانس وبسبب تدخله في شؤون بطريركية المونوفيزقيين حدثت فتنة ذهب ضحيتها ثلاثة آلاف قتيل

في عهده وبالتحديد عام ٥٤٦م داهمت الشرطة منازل العديد من المثقفين والأطباء والنحاة ومعلمي البيان ورؤساء المدارس، وساقتهم لكي يتعمدوا، أي تغسل رؤسهم وأجسادهم بالماء المقدس، وهي علامة على قهرهم وإرغامهم على الدخول في المسيحية، مما جعل أحدهم واسمه فوقس ينتحر بتجرعه للسم، ونفذ الحكم ببعضهم ممن أبى.

في عام ٥٦٢م حدثت مداهمات أخرى، وقبض على مجموعة من العلماء والمثقفين المخالفين، وبعدها تم قطع أيدي وأرجل المقبوض عليهم والطواف بهم عراة على الجمال وإحراق كتبهم.

هذه بعض مجازر ومذابح ما يسمى بـ(العهد المدني) للمسيحية التي أوردها طرابيشي، وهي مجازر ومذابح ومحارق وتنصير بالإكراه، ومحاربة للآخر وتصفية له دون حوار أو حجة، وإجهاز كامل على الفلسفة والفلاسفة والعقل، من أجل ماذا؟

عند التأمل نجد أن السبب ليس كما يقول أعداء المسيحية من العلمانيين، أنها معركة بين الإيمانيين العلمانيين، فالإيمان موجود لدى جميع الأطراف، لكن يمكن تصنيفه تحت مفهوم التعصب، فالمسيحية المنتقاة لا المسيحية النقية هي التي سيطرت، والمسيحية السلطة لا المسيحية الحجة هي التي بقيت.

لقد كان مجمع نقية ٣٢٥م الخطير خالياً من الحوار.. كان أشبه بغرفة تحقيق وانتزاع اعترافات بالقوة لا أكثر، وإلا فطوال تاريخ العهد المدني الكنسي لم تستطع تهديدات وأراجيف الكنسية أن تصمد أمام حجج الفلاسفة والمنتقدين، بل أمام حجج أريوس الموحد، لذا كان الوعيد بالنار والاتهام بـ(الهرطقة) هو سلاح الكنيسة، وهذا ما جعل أوروبا تتحول على يد المسيحية إلى كهف معتم من الجهل والتخلف منذ أن حولت المسيحية إلى دولة على يد الأمبراطور قسطنطين، وهذا ما جعل الكنيسة تتهاوى من جديد أمام ثقافة النقد ومباديء العلم التجريبي الإسلاميين، والتي أدخلها المسلمون من باب أوروبا الخلفي (الأندلس الإسلامية) ليبدأ عهد جديد مثل زلزالا بدأ يهز بنيان الكنيسة على يد الفكر النقدي الإسلامي، والذي هيأ الأجواء للبدء بعلم تجريبي يقوض ما تبقى من الكنيسة.

أمافي العهد (المدني الإسلامي) فالأمر على النقيض مما حاول جورج طرابيشي تصويره، وهذه هي الأسباب:
في البداية وحالما أسس محمد صلى الله عليه وسلم دولته اعتبر اليهود والمسيحيين أقرب من غيرهم للإسلام.
وقع النبي ﷺ بعد تأسيس دولته معاهدة ووثيقة، يعتبر فيه اليهود شركاء للمسلمين في هذه الدولة، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم.
سمح لليهود بالتسلح داخل الدولة الإسلامية، فكانت كل قبيلة عبارة عن ميليشيا مسلحة.
تم غزو المدينة عدة مرات من قبل الوثنيين، ولم يقم اليهود بالالتزام بالعهد المكتوب بينهم، بل على العكس من ذلك قاموا بالخيانة العظمى، والتعامل مع العدو الخارجي، والتخطيط معه للقضاء على المسلمين ثلاث مرات متتالية كادت تعصف بدولة الإسلام، مما اضطر المسلمون إلى إجلاء المتآمرين مصطحبين معهم ما يستطيعون حمله. لكن بقية اليهود قاموا بأكبر خيانة كادت تعصف بالمدينة كلها، عندما اشتركوا مع الأحزاب في معركة هي نقطة التحول الكبرى في العهد المدني (الخندق)، وقد عانى المسلمون فيها رعبا وجوعا وخوفا، ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين، خيرهم النبي ﷺ أي حكم يريدون؟ فاختاروا حكم حليفهم الأنصاري سعد بن معاذ، فكان لهم ما أرادوا.
في العهد المدني ظل القرآن وما ينزل على محمد عليه السلام هما مصدر التشريع، وتكونت دولة دون طوائف أو مذاهب، مهمتها نشر الإسلام لا الاضطهاد ولا التنكيل، وقد كان قائدها في حالة دفاع عن النفس في كل غزواته.
في العهد المدني سمح للمعارضة بالعيش بين أظهر المسلمين، ولم يتعرض لهم أحد رغم قيامهم بمؤامرات مع أعداء الدولة، ورغم تحريضهم على حصارها وقولهم كما نقل القرآن ذلك: (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) ورغم تماديهم وتصريحهم بالتخطيط لقلب نظام الحكم وطرد النبي عليه السلام منها، وقد سجل القرآن قولهم: (لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)..

سمح للمخالف أن يقول رأيه مهما كان متطرفا، فقد كان النبي يوزع الغنائم في إحدى الغزوات، فقام رجل متطرف وقال: (اعدل يا رسول الله) ومع أن كلامه موجه لنبي لا ينطق عن الهوى، وهو بالتالي تشكيك بالوحي، ومع أن السيوف تقطر بالدماء، إلا أن الرجل مضى في سبيله، وكل ما فعله عليه السلام هو الكشف عن تطرف ذلك الرجل، والنهي عن سلوكياته.

في العهد المدني وبعد أن تمكن ﷺ من فتح مكة نتيجة لنقض قريش عهدها الموقع من الطرفين فتح عاصمتهم مكة للمرة الأولى دون التحام عسكري أو مواجهة مسلحة، ولما تمكن منهم عفا عنهم جميعاً وسامحهم دون قيد أو شرط، وتركهم أحراراً... رغم تاريخهم الإجرامي معه ومع دعوته.

جاءت وفود الجزيرة العربية كلها طائعة مختارة وبايعت النبي ﷺ على السمع والطاعة والانضواء تحت لواء الدولة الإسلامية، وحصلت على أموال طائلة وعطايا وهبات.

بعد وفاة النبي ﷺ تولى أبو بكر الصديق مقاليد الحكم بطريقة سلسة ودون أن تراق قطرة دم واحدة، بين أقوام كانوا يسفكون الدم أربعين عاما من أجل بعير، وكان من المتوقع وجود اختلاف ومعارضة نظرا لعدم وجود نص قطعي بتسمية الخليفة الأول، ولكن جلسة الحوار والتحاكم للنص – المرجع (الكتاب والسنة)، جعل تولية أبي بكر تتم دون أن تراق قطرة أو يتلفظ أحد بكلمة نابية، دون تفسيق أو اتهام أو تكفير.

وخارج المدينة كان هناك من أعلن إسلامه من أجل المال، ولما علم بوفاة النبي عليه السلام رفض دفع الزكاة للدولة الإسلامية، وكأنه فهم أن الزكاة جباية شخصية لمحمد صلى الله عليه وسلم وليست ركنا من أركان الإسلام وعبادة، وحق لثمانية أصناف من المحتاجين من الناس فقط، كما أن بعضهم أعلن نفسه نبياً، وهؤلاء المرتدون كلهم أعلنوا انفصالا سياسيا واقتصاديا وفكريا عن دولة الإسلام، وعلى هذا الأساس تم قتالهم، فهم الذين بايعوا دون إكراه، وهم الذين أسلموا دون إكراه، وهم الذين أعلنوا ولاءهم وانضواءهم لنبيهم ودولة الإسلام دون إكراه، وهم الذين تلقوا الأموال وآلاف الرؤوس من الأغنام والإبل، ولم يرغمهم أحد على البيعة ولا على الإسلام، فلا مبرر لخيانتهم وردتهم وامتناعهم عن دفع الزكاة وانقضاضهم على دولتهم.

ولم يكن الدافع – كما في المسيحية – هو أن لديهم مصحفاً آخر، أو سنة أخرى كما، بل إن عمر (الرجل الثاني بين الصحابة) كان ممن عارض شن حرب على المرتدين، فكيف يقاتلون وهم مسلمون، لكن حصيلة أبي بكر من النصوص في هذا الأمر كانت أكثر من حصيلة عمر، ولما ذكر له أدلته سلم الأمر لأبي بكر، إذا فهناك مرجعية واحدة.. مرجعية واحدة جعلت خلافة أبي بكر سليمة ومقنعة، والحرب على المرتدين سليمة ومقنعة، فقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين مرجعية لا مرجعيات كثيرة كما لدى المسيحية.. كان لدى المسلمين نقاش وحوار وتداول للأدلة لا محارق ومجازر وسحل وحرب على كل مخالف وحكم عليه

باللعن، ولا تحدث باسم الله ولا نيابة عنه، كانت المعارضة موجودة منذ أيام النبي ﷺ وكانت معارضة شرسة وغير محترمة، ومع ذلك لم تمس بسوء، معارضة تفاقم سوؤها لدرجة السب والتحقير لرأس السلطة (النبي) والتهديد والوعيد والتخطيط المستقبلي للقضاء على الدولة اقتصاديا، وقد سجل القرآن أقوال تلك المعارضة فقال: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨))

وهل هناك أشد من تلك المعارضة لنبي يوحى إليه ورأس دولة أعلنت تلك المعارضة الولاء له، ومع ذلك تركهم، لأنه أسس لمناخ من الحرية تتسع فيه الدولة الإسلامية لكل الأقوال والآراء، ما لم تتحول إلى أسلحة وسفك دماء. بل لقد سمح للأقليات غير المسلمة – اليهودية خاصة – بالتسلح وتكوين ميليشياتها الخاصة داخل الدولة الإسلامية، رغم خطورة ذلك السلاح على دولة الإسلام. وهو أمر لم ترتق إليه أرقى الديموقراطيات اليوم.

وفي زمن أبي بكر وعمر استمرت الحريات، بل كان الحاكم في زمن عمر يحاسب نفسه وأهله أكثر مما يحاسب شعبه، وفي عهد عثمان نشأت معارضة منظمة وشبه مسلحة، لكن وكما يحدث في الدول المتحضرة لم ترق قطرة دم واحدة، لقد استوعب عثمان المعارضة واتسع لها كما اتسعت النصوص، وأنصت لهم وهم يقاطعونه، بل ويرجمونه بالحجارة وهو يخطب داخل المسجد، فلم يرفع سيفاً، أو يصدر أمرا بالحرق والصلب والاعتقال، بل رفض عرضاً من أحد أمراء الأقاليم وهو "معاوية بن أبي سفيان" أن يرسل له قوة لحمايته الشخصية، كخليفة تم الاستفتاء عليه من قبل الأمة.. رفض عثمان فكرة تكوين قوة حماية شخصية له، خشية أن يضيق على شعبه من سكان العاصمة بالجنود، وخشية أن يشعر الناس بالرعب والخوف بعد الرخاء والأمن في عهده، وتمادت المعارضة فاستغلت أجواء الحرية، وقامت باغتياله بدل أن يغتالهم، وذبحوه دون أن تراق منهم قطرة دم واحدة، لا يمكن أن نتصور حاكماً بهذا المستوى من الإيثار لشعبه على نفسه؟ ولو كان عثمان كما يتهمه المفكرون العرب والطائفيون متشبثا بالسلطة، لكانت حمايته الشخصية أولى أولوياته.

عندما نعقد مقارنة بين هذا المستوى الرفيع، ومستوى الأمبراطورية الرومانية المسيحية أو الوثنية، فالفارق هائل وكبير للغاية، أما المدهش هنا فهو أننا لا نستطيع أن نقارن حتى بين مستوى تصرف عثمان، ومستوى تصرف الأساقفة والقديسين والقساوسة والباباوات والرهبان المسيحيين، والذين من المفترض أن يكونوا على قدر عال ورائع من التسامح والحب والرحمة والمؤاخاة، باعتبارهم رسل سلام للمسيح رسول السلام، لكنهم بدلا من ذلك قادوا بأنفسهم تلك الجموع لأحراق الكنائس المسيحية ومن فيها من الرهبان المخالفين، وإرغام الوثنين على

التنصر أو الإعدام، وحرق الفلاسفة ولعنهم، وحرق كتبهم وغير ذلك مما تقشعر لهوله الأبدان.
وفي عهد الخليفة علي قامت حرب بينه وبين الخارجين عليه، لكن لم يكن هناك محارق ولا خلاف حول المرجعية نفسها، كانت دوافع الخارجين على علي عديدة، منها: الندم على عدم الدفاع عن عثمان، ومطالبة علي بتسليم القاتل، أما أخطر ما حدث فهو فتنة التكفير على يد الخوارج، مع العلم أنه لم يكن بينهم صحابي واحد ممن عاصر النبي صلى الله عليه وسلم وتلقى عنه الوحي وتربى على منهجيته، وقد رجع ثلثاهم بعد النقاش والحوار وبقي التعصب، ومع هذا كله لم تشهد الأمة خلافاً حول مرجعية – النص، بعكس المسيحية، والتي يحتفظ كل مذهب منها بمرجعية خاصة لا تقبل الآخر ولا تتحاور معه إلا بالدم، بل إن علياً قال للأقلية (الخوارج) الذين حملوا السلاح كلمات غاية في التسامح لا ترقى إليها ديموقراطيات اليوم، قال لهم وهم يكفرونه ويستحلون دمه بل وقتلوه.. قال لهم وهم مجرد ميليشيات دموية تبقر بطون الحوامل: (لكم علينا ثلاث:
لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا (أي لا نحرمكم نصيبكم من ميزانية الدولة)، ولا نبدؤكم بقتال - سنن البيهقي الكبرى ٨ – ١٨٤) ثم أمر أصحابه أن لا تسبى نساؤهم، ولا يقضى على جريحهم، ولا يقتل أسيرهم. وتلمس لهم عذراً عندما قال: إنهم من الكفر فروا. فما هي ومن هي الديموقراطية التي تمنح معارضاً مسلحاً مرتبات وهو غير موظف لديها، وتمنحه حرية المعتقد والعبادة، ولا تبادر إلى حربه إلا إذا بدأ هو بالقتال.
كانت الحروب التي خاضها علي وخصومه حروبا لا يمكن تسميتها بالحروب الدينية، كانت خلافات جانبية حول تسليم قاتل، أو أحقية حاكم، إنها حرب بين سلطة شرعية ومعارضة مسلحة، ليس فيها تكفير أو تبديع أو حرمان من الجنة أو حكم بالنار، بل مع اعتراف المعارضة بفضل خصومهم وقدرهم ودينهم، والترحم عليهم عند السماع بموتهم، وقد اعترف الجميع بعدها بأحقية علي عليهم، ولام الكثيرون أنفسهم بعدها، وهو ما تفتقر إليها المذابح المسيحية، ولعل ما حدث من نسطور وما حدث له وما حدث لآريوس أمثلة لسلوك شائع في العقلية الكنسية.
هذا ما حدث في الخلافة الراشدة وبعد انتهاء العهد المدني.. إذاً فأين ما قاله طرابيشي بالحرف الواحد ص ٦٨: (بل إن محاكم تفتيش ومحارق حقيقية قد أقيمت للفلاسفة وكتبهم) من قبل المسلمين؟

المحارق الإسلامية للفلاسفة

لم يجد طرابيشي إجابة تسعفه في العهد المكي ولا في المدني، ولا في عصر الخلفاء الراشدين ، ولا في الحكم الأموي. لم يجده إلا بعد رحلة طويلة ومريرة من الزمن حتى التقط أنفاسه بعد خمسة قرون وبالتحديد عام ٥٥٥هـ، ليقف على حدث يثير الضحك على جورج طرابيشي نفسه، لا سيما وهو يقول: (إن محاكم تفتيش ومحارق حقيقية قد أقيمت للفلاسفة وكتبهم)

هل أحرق الكندي أو ابن سينا أو الفارابي أو ابن رشد؟ بل هل تعرض أحد للفلاسفة والمترجمين من غير المسلمين لذلك؟

إن المناصب التي احتلوها لم يحتلها إمام من أئمة السنة كأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو ابن حنبل، بل إن ما تعرض له هؤلاء الأئمة من العذاب والسجن والإقصاء على يد السلطة ووزرائها العقلانيين لم يتعرض له فيلسوف في الإسلام، فأين محاكم التفتيش وأين المحارق التي أضرمت، وما هي أسماء الفلاسفة الذين تم إحراقهم وإحراق كتبهم؟

يبدو أن الإجابة استغرقت من طرابيشي سنوات مارس فيها التفتيش والركض والبحث في كتب التاريخ فلم يلتقط أنفاسه إلا في عام ٥٥٥هـ، وليته لم يلتقطها، فالتاريخ الذي توقف عنده والحادثة التي أسعفته بها تلك السنة يسمو عن ذكرها باحث، فضلا عن مفكر يتصدى لمفكر كالجابري، ويزعم القيام بـ(نقد نقد العقل العربي). يذكر طرابيشي حادثة مضحكة جداً عند مقارنتها بما تم سرده من مجازر كنسية، ولا أدري على أي شيء أحسد طرابيشي أعلى توقيتها، أم على تفاصيلها، أم على مقارنتها بما تم على يد أساقفة الكنيسة.

يقول طرابيشي ص ٦٨: (جاء في أخبار سنة ٥٥٥هـ في كامل ابن الأثير أنه لما تولى المستنجد الخلافة ورغب في القضاء على ما كان في الإدارة من سوء وفساد، قبض على أحد القضاة، وكان بئس الحاكم، فأمر بأمواله فأخذت، وبكتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفا لابن سيناء وكتاب أخوان الصفا وما يشاكلها)

هذا النص الذي نقله طرابيشي يمثل إدانة علمية وأخلاقية له، فالرجل يتحدث عن محاكم تفتيش ومحارق لفلاسفة، فلما ساق دليله على ذلك لم يأت بمحاكم تفتيش، بل بمحكمة نزيهة تحارب الفساد الإداري والمالي والقضائي، ولم يأت بفيلسوف بل أتى بقاض مجهول الاسم، قاض مرتش وفاسد، صودرت أمواله التي أخذها عن طريق رشاواه وفساده في القضاء، لكنه لم يُقتل أو يُحرق أو حتى يُجلد مجرد جلد، وأما حرق كتبه فجاء عرضاً وبسبب فساد هذا القاضي المجهول، والذي طالته يد العدالة والتطهير المستنجدي الذي قضى على الجباية، التي أرهقت المواطنين بسبب أمثال هذا القاضي المجهول، والتي قال عنها صاحب الروضتين أن المستنجد بالله: (كان موصوفا بالعدل والرفق، وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مكسا، وكان شديداً على المفسدين، سجن عوانيا كان يسعى بالناس مدة، فبذل رجل فيه عشرة آلاف دينار. قال المستنجد: فأنا أبذل عشرة آلاف دينار لتأتيني بآخر مثله – سير أعلام النبلاء ٢٠ – ٤١٤)

هكذا يجعل طرابيشي من قاض مرتش فيلسوفاً، ومن مصادرة ماله الذي سرقه من أقوات الناس محارق للفلاسفة، إن هذا الإسفاف لا يليق برجل يتصدى لمفكر بحجم الجابري. إيدلوجية طرابيشي لا تنتهي ولا تكتفي بذلك، فلديه من الأدلة على وجود محاكم التفتيش ومحارق الفلاسفة ما يجعل الحليم حيراناً.

ها هو يضرب مثالا أسخف من مثاله الأول فيقول: (وعندما تعرضت أسرة المتصوف الحنبلي الكبير عبد القادر الجيلاني للاضطهاد في عهد وزارة ابن يونس، دهمت دار حفيده عبد السلام بن عبد الوهاب المتوفي سنة ٦١١ – وكان خصماً للفقيه ابن الجوزي – وفتشت ووجد فيها كتب من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفا، وكتب في السحر والنارنجيات وعبادة النجوم، وكلها مكتوبة بخط عبد السلام الذي عبثاً حاول تبرئة نفسه بقوله إنه لا يؤمن بهذه الأشياء وإنما هو نسخها ليرد عليها فحسب. فقد أمر بإحراق كتبه، ولأجل ذلك أقيمت نار عظيمة أمام مسجد مجاور لجامع الخليفة، وجلس القضاة والعلماء – ومن بينهم ابن الجوزي – على سطح المسجد، وتجمع عدد كبير من الناس وقفوا أمام المسجد في صفوف، وألقيت الكتب من فوق سطح المسجد في النار، وقام من يقرأ مضمون هذه الكتب كتاباً كتاباً ويقول: العنوا من كتب هذه الكتب ومن اعتقد بما جاء فيها، فكان العامة يصيحون باللعن، حتى تعدى هذا اللعن إلى الشيخ عبد القادر نفسه، بل وإلى الإمام أحمد بن حنبل نفسه، وكانت غضبة على الكفار والملحدين ولا غضبة يوم بدر)

طرابيشي في هذا النقل المدبج الذي يخلط فيه رغباته مع وثائقه، يجعل من نفسه كاتبا إنشائياً بعيداً كل البعد عن النقد والموضوعية، وهل يضير الدكتور جورج طرابيشي أن لا يجد نصاً يسعفه، هل يضيره أن لا يتورط بكلمته التي أدان بها نفسه: (إن محاكم تفتيش ومحارق حقيقية قد أقيمت للفلاسفة وكتبهم)

لو لم يورط نفسه لكان منصفاً، ولو لم يضرب الأمثلة لاستحق الاحترام العلمي، لكن أن يكون مدعياً، وملفقاً فتلك صفة هو أكثر الناس إدراكاً لخطورتها. سأعود لدليله الأضحوكة. إنه يقول: (تعرضت أسرة المتصوف الحنبلي الكبير عبد القادر الجيلاني للاضطهاد في عهد وزارة ابن يونس)

إن إقحام عبد القادر وأسرته في موضوع حفيده عبد السلام نوع من التزييف والجهل المركب، فلا عبد القادر اضطهد، ولا أسرته تعرضت لذلك، أما الجهل المركب في سياق طرابيشي، والذي يدل على أن الرواية التي يذكرها مكذوبة ومتناقضة، فيتضح في جهل طرابيشي بالتناقض العقائدي الكبير بين من يتحدث عنهم، فالمتصوف الكبير كان على النقيض من عقيدة حفيده، وسيصعق طرابيشي إذا علم أن والد عبد السلام كان يكفر ابنه، وفيه يقول ابن كثير في البداية والنهاية ١٣ – ٨٠: (وفيه وفي أمثاله يقال: نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا.. رأى عليه أبوه يوماً ثوبا بخارياً فقال: سمعنا بالبخاري ومسلم، وأما بخاري وكافر فهذا شيء عجيب)

المفارقة العجيبة هنا، هي في كون عبد السلام كما يقول ابن كثير: (مصاحبا لأبي القاسم ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وكان الآخر مدبرا فاسقا، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان قبحهما الله) هذا السكير الشاذ جنسياً المنحل يعتبر في نظر طرابيشي شهيدا من شهداء المحارق التي أوقدت للفلاسفة، فأين الفلسفة وأين المحارق وأين الموضوعية...؟!! أما ما يفصح عن إيدلوجية طرابيشي عند حديثه عن محارق ومحاكم التفتيش التي يتهم المسلمين بإقامتها، فهي أن الفيلسوف

الشهيد (عند طرابيشي) كان مجرد شرطي وغد، وجلاد شرس ليس في قلبه رحمة، وليس في رأسه شيء من حكمة الفلسفة، وقصة نزاعه مع أبي الفرج بن الجوزي لم تكن سوى حرص ابن الجوزي على عقيدة مجتمعه من هذا المنحل، فبينما كان الركن عبد السلام سكيرا منحرفا أخلاقيا.
يصف العالم المعروف بـ"سبط ابن الجوزي" جده فيقول: (سمعت جدي يقول على المنبر كتبت بأصبعي ألفي مجلد، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفا، قال – السبط –: وكان يختم في كل أسبوع ختمة، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس. ثم سرد سبطه مصنفاته فذكر منها: درة الإكليل في التاريخ أربع مجلدات، وفضائل العرب مجلد، شذور العقود مجلد، الأمثال مجلد، المنفعة في المذاهب الأربعة مجلدان، المختار من الأشعار عشر مجلدات، التبصرة في الوعظ ثلاث مجلدات، إلى أن قال ومجموع تصانيفه مائتان ونيف وخمسون كتابا – تذكرة الحفاظ ٤ – ١٣٤٤)
رجل بهذه القامة والإنجاز لا يمكن مقارنته بأمثال عبد السلام، ثم إنه عالم وليس قساً أو راهباً مهمته التبشير فقط، كما أن ابن الجوزي لم يتعرض لعبد السلام شخصيا، فلم يسجن ولم يجلد بسببه، لكن وجود تلك الكتب – التي تمثل عودة للشرك والخرافة وعبادة الكواكب – مع شخص في مستوى انحلاله تعتبر خطرا على الأمة، وكل ما فعله ابن الجوزي هو الإشارة على الحاكم بخطورة عقيدة هذا الرجل، وأنها نقيض ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، والذي هو العمود الفقري للدولة، ولم يكن لابن الجوزي القدرة على فعل شيء سوى النصيحة، ولا ينتظر من الحاكم أن يطيع العلماء كابن الجوزي في كل نصائحهم، فالأمر يعود للحاكم فقط، أما ذلك الكرنفال الذي نسج حول عملية الحرق فجزء من الدجل الذي يروج له طرابيشي، ووقوعه يعتبر شيئا مستحيلا.
جورج طرابيشي يقول: (دهمت دار حفيده عبد السلام بن عبد الوهاب المتوفي سنة ٦١١ – وكان خصماً للفقيه ابن الجوزي – وفتشت ووجد فيها كتب من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفا، وكتب في السحر والنارنجيات وعبادة النجوم، وكلها مكتوبة بخط عبد السلام الذي عبثاً حاول تبرئة نفسه بقوله إنه لا يؤمن بهذه الأشياء وإنما هو نسخها ليرد عليها فحسب. فقد أمر بإحراق كتبه، ولأجل ذلك أقيمت نار عظيمة أمام مسجد مجاور لجامع الخليفة، وجلس القضاة والعلماء – ومن بينهم ابن الجوزي – على سطح المسجد، وتجمع عدد كبير من الناس وقفوا أمام المسجد في صفوف، وألقيت الكتب من فوق سطح المسجد في النار، وقام من يقرأ مضمون هذه الكتب كتاباً كتاباً ويقول: العنوا من كتب هذه الكتب ومن اعتقد بما جاء فيها، فكان العامة يصيحون باللعن، حتى تعدى هذا اللعن إلى الشيخ عبد القادر نفسه، بل وإلى الإمام أحمد بن حنبل نفسه، وكانت غضبة على الكفار والملحدين ولا غضبة يوم بدر)
إن من يصدق مثل هذه الرواية الموضوعة لا يعرف من هو ابن الجوزي، ومايعني له إمامه أحمد بن حنبل، ولعل كتاب ابن الجوزي الضخم الذي سماه (مناقب الإمام

أحمد بن حنبل) والذي روى فيه أشياء أنتقد على عدم التثبت فيها، لأنها ربما احتوت بعض المبالغات حول شخصية الإمام أحمد، كل ذلك كفيل بإسقاط تلك الرواية، أما لعن عبد القادر فشيء سخيف، فالرجل حنبلي المذهب، ومعروف لدى هؤلاء العلماء بالتقوى والصلاح رغم مبالغات تلاميذه، وإذا كان تصرف حفيده مبرراً للعن، فمن باب أولى تصرف صديقه ابن ابن الجوزي.

وأخيراً تبين لي أن المبالغات اللا معقولة لم تكن آفة مريدي التصوف فقط، بل يبدو أن مريدي الفلاسفة قد أصيبوا بأضعاف ما أصيب به مريدوا الصوفية، وأمامنا الدكتور طرابيشي مثالاً حياً لتلك المبالغات، فهو ليس مأخوذاً بتمجيد الفلاسفة فقط، بل بتمجيد كل من يقتني كتاباً من كتب الفلاسفة، ويبالغ فيصف من لديه كتاب من كتب الفلاسفة بأنه فيلسوف، وأمامنا مثال القاضي المجهول، الذي لا يعرفه أحد ولا حتى طرابيشي، لكن ما دام لديه كتاب إخوان الصفا فهو فيلسوف، ولقد قال إن هذا الفيلسوف وغيره قد تم حرقه، ولما ذكر قصة الحرق.. ذكر أن كتاب إخوان الصفا هو الذي قد أحرق.

وبعد فطرابيشي لا يكتفي بالمبالغات السمجة، بل يتعدى ذلك إلى تزوير التاريخ الإسلامي، وكأن كتاب الجابري قد داس على جرح في أعماقه لم يندمل. يتضح تزوير طرابيشي في طمسه لوقائع مثبتة تاريخياً لا يمكن إنكارها، وتضخيمه لأكاذيب مفضوحة، فهو لا يخجل ولا يتردد في جعل الفلاسفة – حسب رؤيته – وهم (قراء كتب الفلسفة) ضحايا في السياق الإسلامي تماماً كما حدث في السياق المسيحي، ثم يزيد على ذلك في إضفاء الصورة الملائكية الطاهرة على مريدي الفلسفة، فهم ضحايا، وهم مظلومون، فما رأيه في هذه القصة التي تنضح فيها البراءة وثقافة التسامح التي يتصف بها الفلاسفة (حسب تصنيف طرابيشي)؟ مر وقت بعد حرق كتب عبد السلام بن عبد الوهاب (الذي أحرقه طرابيشي) ثم أعيدت له مدرسة جده، ثم تمكن من تولي منصب جباية المكوس فأي ثقافة وفلسفة نشرها؟

يقول ابن حجر في لسان الميزان ٤ – ١٥: (ودرس بمدرسة جده، ثم أحرقت كتبه، ثم أعيدت المدرستان إليه، ثم ولي استيفاء الضرائب والمكوس وظهر منه ظلم كثير فاعتقل بعد قليل ثم أطلق). إذا فالرجل صاحب سوابق، وهو ممن يجيد السطو على أموال الفقراء منتهزا سلطته، وقد تمكن وهو ضمن السلطة (جاب للمكوس) من الانتقام من ابن الجوزي.

يقول الذهبي في ترجمة ابن الجوزي سير أعلام النبلاء ٢١ – ٣٧٦: (وقد نالته – أي ابن الجوزي – محنة في أواخر عمره، ووشوا به إلى الخليفة الناصر عنه بأمر اختلف في حقيقته، فجاء من شتمه وأهانه وأخذ قبضا باليد، وختم على داره وشتت عياله، ثم أقعد في سفينة إلى مدينة واسط، فحبس بها في بيت حرج، وبقي هو يغسل ثوبه ويطبخ الشيء، فبقي على ذلك خمس سنين ما دخل فيها حماما، قام عليه الركن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر، وكان ابن الجوزي لا ينصف الشيخ عبد القادر ويغض من قدره، فأبغضه أولاده ووزر صاحبهم ابن

القصاب، وقد كان الركن رديء المعتقد متفلسفا فأحرقت كتبه بإشارة ابن الجوزي، وأخذت مدرستهم فأعطيت لابن الجوزي فانسم الركن، وقد كان بن القصاب الوزير يترفض – أي أنه شيعي رافضي – فأتاه الركن وقال: أين أنت عن ابن الجوزي الناصبي وهو أيضا من أولاد أبي بكر؟ فصرف الركن في الشيخ – أي جعله مسئولا عن سجنه – فجاء وأهانه وأخذه معه في مركب، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل وعلى رأسه تخفيفة، وقد كان ناظر واسط شيعيا أيضا فقال له الركن: مكني من هذا الفاعل لأرميه في مطمورة. فزجره وقال: يا زنديق أفعل هذا بمجرد قولك، هات خط أمير المؤمنين، والله لو كان على مذهبي لبذلت روحي في خدمته)
هذه هي أخلاق الفلاسفة – حسب تعريف طرابيشي – وثقافة التسامح لديهم، حقد قديم، وسجن وانتقام على مدى خمس سنوات، ووشاية وتحريض واستغلال الطائفية لتصفية الآخر، وغياب تام للعقل الذي تقوم عليه الفلسفة، مع انتهازية سلطوية وسلب لأموال الناس.
أعتقد أن طرابيشي بعد هذا ليس مؤهلا من الناحية الموضوعية لمشروع كبير كنقد النقد، بل هو كأدونيس تماماً كاتب انتقائي وإيديلوجي لايوظف التراث فقط، بل يجيد تزويره والتلاعب به من أجل المعد سلفاً والأفكار الجاهزة التي يكتب تبريراً لها لا نقدا لها. أما ما تناوله حول فتوى ابن الصلاح ونقد ابن تيمية، فموقفهما موقف فكري منطلق من قناعة واستدلال بالنصوص، وكأن طرابيشي يريد مصادرة حق الفتوى من ابن الصلاح مع أنها عمل علمي، وليست مجرد عواطف ومواقف كما في النظام الكنسي. وبالنسبة لابن تيمية فهو يمارس نقداً علمياً متمكنا للفلسفة والمنطق اليونانيين، وهو لم يعط ما يستحق من الدراسة في هذا السياق مقارنة بما ناله في السياق الفقهي والعقائدي، وله كتاب من عشر مجلدات في حوار ونقاش مع الفلاسفة اسمه (درء تعارض العقل والنقل)، وليس لابن تيمية من سلطة كنسية لا سيما هو الذي مات في سجن القلعة.
وقبل أن أتجاوز الإيديلوجيين من المفكرين العرب نحو المفكرين منهم، أود الإشارة إلى نموذج (إيدلوجي) آخر بالغ التطرف على كافة الأصعدة، إنه نموذج:

أدونيس

هذا الكاتب الذي يسحر بإنشائيته، والتي تشدني أسلوبا ومبنى لا معنى، فبها يستطيع تجاوز كل الحدود المنطقية والعلمية، هذا الكاتب يتجنب الكتابة الفكرية الصارمة.. يهرب منها إلى فضاء الأدب، حيث يحصل على المسافات الكافية للمراوغة والمناورة، موظفاً لغة جميلة موحية ومهيجة، لها القدرة على تحييد العقل تحت وابل من الكلمات المتراقصة هنا وهناك، بحيث تصعب إدانته ويقل حرجه، بعكس ما لو كتب بأسلوب عقلاني أو مباشر، والإنشائية منهجه في كل كتبه ولا يستثنى منها إلا – بدرجة ما – كتابه الأكاديمي (الثابت والمتحول)، نظراً لظروف تأليفه، مع العلم أنه قد وظف كتابه ذلك توظيفا إيديلوجيا ذكيا للغاية، وهو يسجل مواقفه في هذا الموضوع أو ذاك كاشفا عن مقت كبير للإسلام (النبع –

القرآن والسنة)، مقت يستبد به لدرجة تجعله غير مؤهل للاتصاف بصفة المفكر والمنظر الموضوعي والمحايد، الغريب أن مقته ذلك يلازمه في كل كتاباته ومواضيعه، سواء كان يتحدث فيها عن الشعر أو السياسة أو الحداثة أو التراث أو الأخلاق، وسأذكر الأدلة على كل ذلك حتى لا يكون الكلام إنشائيا يُلقى هكذا على عواهنه، ولن أعتمد على استلال نصوص قابلة للتأويل، بل على نصوصه التي لا تقبل إلا احتمالا واحدا، ثم أتجاوز هذا الكاتب الإيديلوجي إلى مفكرين يمارسون فكراً جاداً يستحقون وقفة أطول ودراسة أعمق.

كتب أدونيس في الشعر والنقد والسياسة وغيرها، كان خلالها مأخوذا بأمرين:

الأول: القفز وتجاهل كل ما يؤدي إلى الانجذاب إلى الإسلام النبع – الإسلام الأصل.

الثاني: إقصاء كل ما يؤدي إلى أسلمة الحياة والدعوة إلى الإطاحة به، واجتثاثه بأسلوب استئصالي دائما ما اشتكى وتذمر هو منه، وسأذكر أمثلة لا يستطيع هو ولا المعجبين – وأنا منهم – بأطروحاته بل ولا المتعصبين له إنكارها، أمثلة تكشف أي حداثة تسكنه ويسكنها.

أدونيس ناقدا وشاعرا إيديلوجيا

فعلى مستوى الشعر، يحتفي كشاعر وكناقد بالشعر الجاهلي كأول نموذج شعري ناضج ومكتمل وصل إلينا، ويكتب عنه وينظر، وهو محق في ذلك، ويرى أنه إبداع يمثل زمنه وبيئته، ثم يقفز إلى الشعر الأموي والعباسي متجاهلا الشعر الإسلامي أو شعر البعثة، واصفا إياه بعبارات استخفاف غير علمية، لاتصدر عن متذوق، فضلا عن ناقد يوصف بأستاذ الحداثة، فيقول متحدثا عن الشعر والتجديد والإيدلوجيا في (سياسة الشعر ٨): (ما الذي يوحد شعريا بين الشنفرى وعروة – وهما موحدان في الصعلكة وفي المرحلة، وفي الوزن وفي القافية – إنهما شعريا عالمان مختلفان، كذلك الأمر في ما يتعلق بامريء القيس وزهير، وبطرفة وعمرو بن كلثوم...إلخ. هكذا نرى أن ما نسميه بـ(الأصل) الجاهلي الواحد إنما هو شعريا، كثير وليس واحدا. وإذا تجاوزنا العهد الإسلامي الأول – الذي لا أرى فيه شعرا مهما – إلى العهد الأموي سوف نرى أنه هو الآخر كثير وليس واحدا. ما الذي يوحد بين عمر بن أبي ربيعة وجميل بثينة و قيس بن الملوح، بين ذي الرمة والكميت، بين شعراء الخلافة الأموية الأخطل والفرزدق وجرير، والشعراء الخوارج أو شعراء الصعلكة الهاشميين، اللصوص، والمنبوذين. الشأن هو نفسه بالنسبة إلى الشعر في العهد العباسي....إلخ)

وكنت أظن أن رأيه هذا جاء في سياق انفعالي، حتى أصدر كتابه الأسود (المحيط الأسود) والذي كان يطفح بالغل على كل ما يتعلق بـ(الكتاب والسنة) من مصطلحات كالثقافة الإسلامية، ومن مؤسسات كـ(المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) حتى وصل غله إلى من تعاطف أهل السنة معه لظرف كارثي لا أكثر، حيث أفرغ أدونيس كل ما أثقله من أحقاد تجاه صدام حسين وغيره، وكأن صدام كان من مفكرا إسلاميا، أو من علماء ومنظري السنة، وكأن صدام هو البعثي الوحيد في

المنطقة، والديكتاتور الوحيد في المنطقة، وكأن صدام كان طائفيا في حكمه، وكأن إيران وفرق الموت ليست في المنطقة، بل على المريخ، لكنها اللغة السوداء التي تسن سكاكينها على جثث الأسود وتفر من الفئران الحية.
في هذا الكتاب الأسود يحتفي أدونيس ويكاد يذوب أدبا وذوقا في نقاشاته الكثيرة مع الجانب الشيعي، بينما يضيق وبشدة بمجرد الأنفاس، إن كانت صادرة من مفكر سني، وفي فصل من فصول هذ الكتاب أعاد مقولته السابقة حول شعر النبوة والخلافة الراشدة، ولكن بصفاقة ووقاحة أشد فقال: (الشعر الذي سمي "إسلامياً"، في العهد الإسلامي الأول، كان رديئاً وضعيفاً جداً، من الناحية الفنية - الجمالية، وأنه لم يترك أي أثر طيب في الشعر العربي، لا من حيث الصناعة، ولا من حيث الذائقة، وأنه اضمحل وانطفأ من تلقاء ذاته. لم تقبله، من جهة، أذواق المسلمين أنفسهم، ولم يدخل حتى إلى نفوس المؤمنين بينهم. وكان، من جهة ثانية، مجرد إناء قبيح يُملأ بأفكار قرآنية جميلة، كان المؤمنون يؤثرون أن يأخذوها مباشرةً من النص القرآني نفسه، ودون وساطة لا جمال فيها ولا فن – المحيط الأسود٧٢)
إذا فشعر عهد النبوة والخلافة الراشدة ليس شعرا، إنه بتعبير أدونيس (إناء قبيح)، لنتذكر هذه الكلمة جيدا، فسنعود إليها لنعرف مدى احتقانها بالمواقف لاحقاً: حسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك وحتى الحطيئة وغيرهم ليسوا شعراء مهمين، نظرا لأنهم وجدوا في عهد النبوة والتوحيد، وأدونيس لا يطيق التوحيد، ولا ما يرتبط به من إنجازات.. إنه يقفزها.. عهد النبوة شعريا هو إعلان مولد شعر التوحيد والشعر السياسي والإيديلوجي كما يصرح هو، لكن التوحيد كما أسلفت لا يعجب أدونيس لأنه جاء نسفاً للوثنية، ولذا يتحدث عنه بانحطاط قائلا في (النظام والكلام ١٩٤): (في الثقافة الوثنية القديمة كانت السماء موصولة بالأرض وكان الكون بيتا واحدا، أما الثقافة الحديثة التي رفضت الوثنية فإنها لم تفصل السماء عن الأرض وحسب، بل جعلت الأرض موضع ازدراء سمتها دار الشقاء والفناء وسمت السماء بالمقابل دار الهناء والبقاء)
وهو لا يحب عهد الخلافة الراشدة الذي يصفه في أول أسطر رسالته للدكتوراه (الثابت والمتحول ١) بقوله: (النبوة/الملك تأسست والنبي يحتضر في مناخ اقتتال، بل يمكن القول أنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف: الأقوى لا الأحق هو وارث النبوة/الملك، أو هو الخليفة)
لكنه يناقض نفسه في حديثه عن الشعر والإبداع (سياسة الشعر ١٧) فيقول: (تجدر الإشارة إلى أن كل شاعر مؤثر أي خلاق يشكل عالما خاصا لا يقارن بغيره مقارنة أفضلية، خصوصا إذا كانت هذه المقارنة تستند إلى الأسبقية الزمنية، فلا يمكن النظر إلى المسافة التاريخية التي تفصل بين الشعراء على أنها تتابع متدرج في التقدم أو التطور الشعري، يتعذر مثلا إن امرأ القيس أفضل من المتنبي، أو أن أبا نواس أفضل من أبي العلاء، والعكس صحيح)
إذا فكيف يقصي من عالم الشعر جيلا كاملا لارتباطه بزمن البعثة النبوية؟

سألتمس للرجل عذرا حتى لا يكون الكلام إيديلوجيا هو الآخر، وحتى لا يكون فيه تحاملا.. سألتمس لأدونيس العذر في إقصائه لشعر عهد النبوة، نظراً لكونه شعراً إيديلوجي النزعة، وينتمي للمدرسة الواقعية تقريباً، وسأستعين بأدونيس نفسه كي يبين إشكالية نقدية، هذه الإشكالية هي:

هل كل الشعر الإيديلوجي يستحق الإقصاء؟

إنه يقول في (سياسة الشعر١٩): (لا يعد ذلك النتاج الشعري الواقعي شعرا بالمعنى الحقيقي وإنما هو نصوص سياسية واجتماعية وقتيه من هذه الناحية في وظيفته، أي أنه ينتهي حينما تنتهي وظيفته، وذلك على النقيض من النصوص الشعرية.... ثم يقول: لا يعني هذا أن الشاعر حيادي أو يجب أن يكون حياديا، بل يعني أنه لا يجوز أن يخضع كتابته للمقتضيات الإيدلوجية والسياسية ولمستلزمات الإيصال والعادة السائدة في طرق الكلام، فليس الانحياز في الشعر أن يسوغ أو يدافع، أن يمدح أو يهجو، أن يعلم ويبشر، وإنما أن يغير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم، والتي عبر تغييرها مجازيا تنشأ صور وطاقات لتغيير العالم ماديا، دون ذلك لا يكون الشاعر كاتبا – أي يمارس التعبير عن طاقة خلاقة وفعالة، وإنما يكون مستكتبا يقوم بوظيفة محددة، إن دور الشعر في شعريته ذاتها، في كونه خرقا مستمرا للمعطى السائد)

كلمات رائعة، وموقف نقدي لأدونيس جدير بالاحترام، ويصدر عن رؤية متقدمة لمفهوم الإبداع الشعري، خاصة عندما يقول: (فليس الانحياز في الشعر أن يسوغ أو يدافع، أن يمدح أو يهجو، أن يعلم ويبشر، وإنما أن يغير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم، والتي عبر تغييرها مجازيا تنشأ صور وطاقات لتغيير العالم ماديا)

لكن هذ الوصف الرائع يتناقض تماما مع قوله السابق: (وإذا تجاوزنا العهد الإسلامي الأول الذي لا أرى فيه شعرا مهما)

أي أن الشعر العربي المهم والإبداعي بدأ في العهد الجاهلي، ثم مات الإبداع ليبعث من جديد في العهد الأموي، وهنا تبرز مواقف الرجل ومذهبيته التي لا تطيق عهد النبوة والخلافة الراشدة، فإلغاء مرحلة شعرية وهامة يعتبر حكما إيديلوجيا معلبا، إنه يشطب مرحلة شعرية هي في حقيقتها نقلة لم تسبق في عالم الإبداع الشعري، إن إلغاءه حقبة شعرية ذات عالم جديد، وصيغ جديدة ومفاهيم جديدة، ولغة أخرى على غير مثال سابق، يعتبر عملا بغيضا، وحكما ينطوي على موقف عقائدي.

لكن لو تجاهلنا ذلك كله أيضاً، وبرأناه مرة أخرى من ذلك كله، هل يستطيع أدونيس المأخوذ بالجدة على غير مثال سابق، أن يتبرأ من قوله حول توصيفه للشعر المبدع بأنه القادر على (أن يغير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم، والتي عبر تغييرها مجازيا تنشأ صور وطاقات لتغيير العالم ماديا)

السؤال الموجه لأدونيس:

ما الشعر العربي الذي بدأ بتغيير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم إن لم يكن شعر العهد الإسلامي الأول؟

ما الشعر الذي نسف المفاهيم المتوارثة، ونسف وغير السائد والنمطي في العالم إن لم يكن الشعر الإسلامي؟
ما الشعر العربي الذي ساهم في تغيير أرض فارس وإسقاط إمبراطوريتها، وأشرع أبواب كابل، وأزاح إمبراطورية الروم، وتوغل في إفريقيا وأوروبا، بعد أن كان مشغولا بالتخلف.. بإحصاء ضحايا الثارات الغبية في أكثر من ألف وخمسمائة معركة قبل الإسلام، كلها كانت بتحريض من الشعر الجاهلي الذي يكرس التشظي والثأر، وينتشي كلما تفجرت الدماء لأتفه سبب، الشعر الجاهلي بأبيات جميلة لكنها كالهراء، أعاد العقل العربي إنتاجها وصياغتها شعرا وبيانات رنانة، وعبارات منمقة وجميلة وجزلة ولكنها جوفاء كيوم إبداعها الأول.؟!!
عمرو بن كلثوم الجاهلي في معلقته الرائعة ظاهرة إبداعية أعيد إنتاجها بالعقل العربي شعريا، لكنها كما قلت جوفاء، أنا متضخمة حتى الانفجار.. تحمل الشمس باليمين والقمر بالشمال وتنتعل الأرض، لكنها في الواقع والإنجاز ذات تشعر بالتقزم أمام الآخر، الذي تقدم له فروض الطاعة، وتتزلف له بنثر الهدايا والشعر تحت قدميه.
عمرو بن كلثوم شاعر مبدع لكنه – كعربي – ظاهرة صوتية يبارز العالم ويهزمه ويملكه ويسحقه ويعجنه بالهراء، يتكرر في عصرنا شعرا وسياسة وبيانات حديثة، فهو الصمود والتصدي والثورة ورمي العدو في البحر، أو إحراق نصفه، وأكله أيضا، وفي النهاية كما قال (أحمد مطر) الثور لم يعد ولكن تبعته الحظيرة. عمرو بن كلثوم نموذج ومثال للعقل العربي اليوم (شعرا) فهو يقول في معلقته الرائعة:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا — فنجهل فوق جهل الجاهلينا
باي مشيئةٍ عمرو بن هند — نكون لقيلكم فيها قطينا
بأي مشيئةٍ عمرو بن هند — تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

ثم يقول:

ونحن الحاكمون إذا أطعنا — ونحن العازمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا — ونحن الآخذون بما رضينا
وكنا الأيمنين إذا التقينا — وكان الأيسرين بنو أبينا

ثم يقول:

وقد علم القبائل من معد — قباباً لي بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا — وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا — وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا — وأنا الآخذون إذا رضينا
وأنا العاصمون إذا أطعنا — وأنا العازمون إذا عصينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً — ويشرب غيرنا كدراً وطينا
ألا أبلغ بني الطماح عنا — ودعميا فكيف وجدتمونا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً — أبينا أن نقر الذل فينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ تخر له الجبابر ساجدينا

من يقرأ هذه القصيدة الرائعة، وبالتحديد آخر بيتين فيها يدرك العقلية الجاهلية المملوءة بالهراء.. من يقرأ المعلقة يظن أن قائلها كسرى أو قيصر، أو حتى جنكيز خان أو معاوية أو هارون الرشيد أو صلاح الدين، أو حتى السفاح هولاكو، أو هتلر أو السفاح ستالين، أو غيرهم ممن لا يعرفون للحدود عناوينا، ممن كانوا يسيحون كالطوفان في البحر والبر، ومن يبحث عن سبب هذه القضية يظن أنه تهديد من زعيم يملك نصف الأرض لخصم معتدٍ يملك النصف الآخر، بينما الرواية المعتمدة كوثيقة (نقلت لنا الأبيات والسبب معا) تقول أن هذه القصيدة، وما فيها من جيوش ملأت البر، وأتخمت البحر سفينا كانت من أجل صحن!! أجل.. من أجل صحن، يقوم عمرو فيقتل مضيفه. إنه العقل العربي الذي نراه اليوم يكتب المعلقات والعنتريات في وصف الذات، وتهديد الجار والأخ وابن العم، لكنه يقدم الجزية للآخر في ذلة يعاد تدويرها من مقلب مخلفات الجاهلية. فهل هذا الشعر الجاهلي كما يزعم أدونيس لا (يسوغ أو يدافع، أو يمدح أو يهجو، أو يعلم ويبشر، وإنما يغير الطريقة السائدة في رؤية الحياة والعالم، والتي عبر تغييرها مجازيا تنشأ صور وطاقات لتغيير العالم ماديا)

أي رؤية للعالم جديدة يقدمها متسول؟! وأي طاقات يفجرها صحن، وأي عالم بشر به عمرو بن كلثوم، أو مستقبل كشفه سوى الثأر الهمجي المتخلف لصحن؟

أما شعر (البعثة الإسلامية) فليس في نظره شعرا.

الشعر الإسلامي الذي كان يضيء المستقبل ويقتلع الجاهلية من جذورها، ويغير تصورات البشر ومعتقداتهم ورؤيتهم للكون والحياة ليس بشعر مهم في نظر أدونيس.. الشعر الإسلامي الذي تخلى عن النظم العربي الفارغ والممجوج:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ تخر له الجبابر ساجدينا

الشعر الذي شكل خطاً ثالثا بعد القرآن والسنة في إضاءة العالم، بل وفي تعريب العالم ليس بشعر.. الشعر الذي رافق الفتوحات وكشف المستقبل حقاً ليس بشعر، لأنه ارتبط بعصر النبوة والخلافة الراشدة، وأدونيس لا يطيقهما.

لكن قبل الحديث عن إتهام أدونيس أو تبرئته لا بد من ذكر الأدلة، وإلا فإن هذا الحديث يعتبر نوعا من التجني والأحكام المسبقة والجاهزة.

نماذج شعرية تفضح غل أدونيس

إحصائيا وإبداعياً الأدلة أكثر من أذكرها، لكنني سأكتفي ببعضها، لأن الهدف من الحديث عن أدونيس هو الكشف عن عقلية سائدة لدى اغلب المفكرين العرب في تقطيع أوصال التاريخ، وربط أسوأ ما فيه، وتقديمه على أنه التاريخ.. وبيان العقلية الإنشائية المدهشة والفارغة في الوقت نفسه التي يتمتع بها بامتياز، وأدونيس متفوق في هذا النوع من الكتابة الإنشائية الجميلة المحتقنة بالمواقف، وتوجيه ميوله العقائدي وطائفيته لأحكامه التي يدعي أنها علمية ونقدية بل وإبداعية كما

سنرى لا يحتاج إلى تكلف لكشفه، وهذا البيان سيكون تمهيدا لا أكثر في تجاوزنا إلى طرح جاد ومحترم.

بلغ عدد الشعراء الإسلاميون أكثر من (خمسين) شاعرا حسب كتاب أغاني الأغاني، تتضمن هذه القائمة شعراء اعتبرهم بعض النقاد أشعر العرب، ومن بين هذه الأسماء قامات شعرية مبدعة أمثال: حسان بن ثابت والخنساء وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة والحطيئة وجميل وغيرهم، فما الذي حمل أدونيس إلى تجاهل شعر تلك المرحلة الإسلامية؟

في نظري أن السبب لا يحتاج إلى عناء، فالرجل صاحب مشروع يتصادم مع التوجه الإسلامي، وهو كما مر معنا يطالب باجتثاث الثقافة الدينية الإسلامية فقط من أجل أن تنشأ الحداثة، وإلا فلن تقوم لها قائمة، بل إن الرجل يمجد الوثنية في مقابل التوحيد، حتى ولو تجاهل المنجز الإسلامي العظيم والذي غير العالم.

من خلال هذه المعطيات لا يمكن لأدونيس أن يقدم لمريديه وقرائه ما قد يوقظ فيهم ذلك الإبداع الأسلامي في مجال الشعر، فهو شعر خطير جدا يثير ليس فقط العاطفة والذاكرة والحنين إلى تلك المرحلة البكر، ولا يعيد فقط ترتيب أولويات العربي اليوم ليتمكن من النهوض مجدداً.. بل إنه ينسف كل مشاريع أدونيس ومقولاته حول النص والشعر والفكر، فالشعر الإسلامي يحمل القارئ إلى مواقع للتأمل يتجاهلها أدونيس ويستخف بها، ويريد من الآخرين تجاهلها هكذا دون تفكير، الشعر الإسلامي كالشعر الجاهلي تماما: تسجيل ومشاعر وعلاقات وعواطف، لكنه في الإسلامي عالمي الرؤية واسع الأفق، يقدم تصورا جديدا لعلاقة الإنسان بالله وبالإنسان وبالكون وبالحياة.. بل وما بعد الحياة، الشعر الإسلامي يحمل مشروعه العالمي حيث تتأخر القبيلة والعشيرة والإقليمية، وسائر المصطلحات التي ساهمت في تمزيق العرب – كأمة – أكثر مما ساهمت في جمعهم، لتفسح المجال للمشروع الإسلامي ليتدفق نحو اللا حدود، وهي آفاق غائبة عن الشعر الجاهلي، ولو لفت أدونيس نظر المعجبين به إليها وأنصفها لهدم مشروعه الحداثي اللا إسلامي ولا أقول اللاديني، وأعيد.. مشروع أدونيس اللا إسلامي ولا أقول اللا ديني. لأن أدونيس لم يجرؤ ولن يجرؤ يوما على التصدي لليهودية ولا المسيحية أو حتى البوذية بينما عينه تكاد تصاب بالرمد من التحديق بجائزة نوبل، ونماذج الشعر الإسلامي خلال فترة البعثة والخلافة الراشدة، والتي لا يراها أدونيس شعرا مهما هي – عند التأمل – نماذج تطيح بمشروعه الثقافي بتحريكها لمشاعر الأمة وطاقاتها وفعلها ورد فعلها أيضا، إلى عكس ما يراه هو ومن يحمل مشروعه، ولست أصادر حقه في محاربة الحياة الإسلامية، فالقاعدة الإسلامية تقرر (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) و(لا إكراه في الدين) لكن ليس من حقه استغفال القارئ وفرض إيديلوجيته عليه، بأسلوب ديكتاتوري، مدعيا ممارسته لفعل ثقافي يسميه (النقد)، لأنه بذلك يمارس نوعا منحطا من الديكتاتوريات.

وعندما وقع اختياره على مجموعة من القصائد يراها شعرا حقيقيا، جمع في مختاراته بين التناقض والتحيز الممقوت، حيث اختار قول عروة بن الورد: الأغاني ٣ – ٧٣:

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

هذا الشعر البارد المباشر الواضح وغير الموحي، هذا النظم يعتبره أدونيس شعرا، لماذا؟ لأن قائله عروة، وعروة جاهلي إذاً فهو شعر.
الأبيات التي تليه هي:

خاطِرْ بنفسِكَ كَيْ تُصيبَ غنيمةً إنَّ الجلوسَ مع العيالِ قبيحُ
فالمالُ فيه تجِلَّةٌ ومَهَابةٌ والْفقْرُ فيه مذلة وفضوح

هذه الأبيات الأكثر برودة، يعتبرها أدونيس شعرا، فقط لأن قائلها عروة وهو جاهلي، كالبيت السابق تماما، وهنا مقتل أدونيس وتحيزه وأيديلوجته القبيحة، فالبيت ليس لعروة، بل لشاعر إسلامي هو النمر بن تولب وهو إسلامي مخضرم.
كما نسبه في الصناعتين الكتابة والشعر ١ – ١٧١
ولن أكون كأدونيس في تمجيده للجاهلي على حساب الإسلامي، فرغم كونه شعرا من عصر النبوة إلا أنه أقرب إلى النظم منه إلى الشعر، فهو تقريري ومباشر وواضح ونسبة الإيحاء فيه ضعيفة جدا مقارنة بنسبة التعليم والتلقين.
إنني أشم رائحة كريهة في نقد أدونيس، فهذا النقد لا علاقة له بالشعر ولا بالنقد، أشعر بأشياء بغيضة يضمرها ضد الإسلامي دون مبرر، وهي في نظري تنفضح عند قراءتنا للنماذج الرائعة التالية من شعر العصر الإسلامي الأول، وهي نماذج ساهمت في تغيير العالم والتصورات والأحداث والخرائط والأسماء واللغات، وهو عصر تخنق قصائده أدونيس.
هذه أبيات لحسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ.. قالها قبل فتح مكة بأكثر من عام، عندما تصلبت قريش ورفضت أن يزور المسلمون الكعبة والمسجد الحرام، ليمارسوا حقا من حقوق كل العرب في الجاهلية، لكن قريشا صادرت هذا الحق على المسلمين فقط، كما يصادر أدونيس تلك الفترة من الانتماء للشعر إبداعا، رفضت قريش ذلك لأنها كانت ترى أن طواف أولئك المهاجرين المشردين يمس كرامتها، وهم الذين كانوا يتلبطون تحت سياطها بالأمس، عندها أبدع حسان شعرا يكشف لقريش ولمن يهجو نبيه، أن القضية ليست ثأرا جاهليا كما في داحس والغبراء وثارات البسوس، إنها ليست قضية سباب وشتائم، هناك مشروع حضاري يخوضه الشعر اليوم.. تصور جديد للكون والعالم وما وراء العالم.. هناك رسالة ونبي ودين وعلم وثقافة، لا جاهلية ووثنية عمياء.. هناك واقعية في التعامل مع الخصم، وتخطيط وعمل، لكن الأمر بيد الله خالق الإنسان والكون في النهاية.
يقول حسان (المعجم الكبير ٤ – ٣٨) كشفا لا وصفا:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا حنيفا رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
ثكلت بنيتي ان لم تروها تثير النقع من كتفي كداء
ينازعني الأعنة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخمر النساء
فإن أعرضتم عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرت جندا هم الأنصار عرضتها اللقاء
تلاقي من معد كل يوم سبابا أو قتالا أو هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء

هذا الشعر في نظر أدونيس إناء قبيح!!! وهو يتجاهل أن في هذا الشعر من الجدة مالا تعرفه الشعرية العربية من قبل، مفردات ذات دلالات وإيحاءات جديدة غيرت العالم، تبشير بجديد وإنجاز لم يسبق على المستوى العربي:

هناك رسول لله.. ليس بملك يباع الشعر ويشترى على بلاطه.

محمد ليس بجبار ولا طاغوت ولا سفاح، ولا يقدم نفسه على أنه سليل أسرة عظيمة، إنه باختصار مجرد عبد لله ورسوله.

هناك دولة ذات مشروع حضاري ينضوي تحتها من اختار الإسلام مهما كان لون ولا جنسه.

الأنصار بقبائلها لبنة واحدة إيجابية في المشروع الإسلامي، وليست مشروعا أوسيا لتصفية الخزرج أو العكس، تشتعل بينهما الثارات وتسيل الدماء من أجل حصان أو حمار أو حتى كلمة كما في الجاهلية.

الإسلام دين جديد يدعو للسلام، لكنه يملك القدرة على الدفاع عن نفسه وحقوقه، وسيحشد ما يستطيع حشده من أجل ذلك.

لم يعد الهجاء أو التنقص سببا لقيام الحروب وسفك الدماء، ولم تعد العاطفة ولا العادات ولا التقاليد هي الفيصل، الإسلام جاء بالحقيقة، والحقيقة تعني طرح الأسئلة بحثا عن الإجابة، ولا إجابة دون أدلة، الإسلام يحمل الكثير من الأدلة ويحرض على الوصول إليها.

ومن الشعر الإسلامي الذي رافق فتح مكة ومعركة حنين قول الحريش التميمي – ديوان الحماسة ٣٦ :

شهدن مع النبي مسومات حنينا وهي دامية الحوامي
ووقعة خالد شهدت وحكت سنابكها على البلد الحرام
نعرض للسيوف إذا التقينا وجوها لا تعرض للطام
ولست بخالع عني ثيابي إذا هر الكماة ولا أرامي

ولكني يجوب المهر تحتي إلى الغرات بالعضب الحسام

ومن إبداعات الشعر الإسلامي يوم حنين قول عباس بن مرداس (تاريخ مدينة دمشق ٢٦ – ٤٢٢) في هذه القصيدة الرائعة والجديدة:

ما بال عينك فيها عائر سهر مثل الحماصة أغضى فوقها الشعر
عين تأوبها من شجوها أرق فالماء يغمرها طورا وينحدر
كأنه نظم در عند ناظمة تقطع السلك منه فهو يبتدر
أبعد منزل من ترجو مودته ومن جفا دونه الصفوان والحفر
دع ما تقادم من عهد الشباب فقد ولى وزاد عليه الشيب والزعر
واذكر بلاء سليم في مواطنها ومن سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر
لا يغرسون فسيل النخل وسطهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سوابح كالعقبان مقربة في حرة حولها الأعطان والعكر
يدعى خفاف وعوف في منازلها وحي ذكوان لا ميل ولا ضجر
الضاربون جنود الشرك ضاحية ببطن مكة والأرواح تبتدر
حتى دفعنا وقتلاهم كأنهم نخل بظاهر البطحاء منقعر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عزا عند الله مدخر
إذ نركب الموت عصا من بطانيه والخيل ينجاب عنها ثابت كدر
تحت اللوا الضحاك يقدمنا كما مشى الليث في غاباته الخدر
في مأزق من مجر الحرب كلكلها تكاد تأفل منه الشمس والقمر
فقد صبرنا بأوطاس أسنتنا بالحق ننصر من شئنا وننتصر
حتى تصبر أقوام لحربهم لولا الملائك ولولا نحن ما صبروا
فما يرى معشر قلوا ولا كثروا إلا قد أصبح منا فيهم أثر

شاعر الإسلام عبد الله بن رواحة يقول- تاريخ دمشق ٢٨ - ١٠٦:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

ومن الشعر القبيح الذي لايعترف به أدونيس هذه الاعتذارية الرائعة لكعب زهير (جمهرة أشعار العرب ٢٣٦):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل
أكرم بها خلة لو أنها صدقت موعودها أو لو أن النصح مقبول

لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالعهد الذي زعمت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل
كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ... وما مواعيدها إلا الأباطيل
أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل

ثم يقول:

يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الله الذي أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وإن كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل
لظل يرعد إلا أن يكون له ... من النبي بإذن الله تنويل
حتى وضعت يميني لا أنازعه ... في كف ذي نقمات قيله القيل
ولهو أهيب عندي إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسؤول
من ضيغم من ضراء الأسد مخدره ... ببطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من القوم معفور خراديل
إذا يساور قرنا لا يحل له ... أن يترك القرن إلا وهو مفلول
منه تظل حمير الوحش ضامزة ... ولا تمشى بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة ... مطرح اللحم والدرسان مأكول
إن الرسول لنور يستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
لا يفرحون إذا نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
لا يقع الطعن إلا في نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل

ومن الشعر القبيح عند أدونيس هذه القصيدة الرائعة لأبي سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله وهو يعتذر منه عليه السلام، بعد أن عفى عنه، وكان أبو سفيان قد حلف إن لم يسامحه أن يأخذ ولده ويتيه معه في الصحراء حتى يموتان من العطش.. يقول أبو سفيان ابن كثير ٣ ـ ٥٤٣:

لعمرك إني يوم أحمل راية | لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليله | فهذا أواني حين أهدي و أهتدي
هداني هاد غير نفسي و نالني | مع الله من طردت كل مطرد
أصد و أنأى جاهدا عن محمد | وأدعى و إن لم أنتسب من محمد
هم ما هم من لم يقل بهواهم | و إن كان ذا رأي يلم و يفند
أريد لأرضيهم و لست بلائط | مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فقل لثقيف لا أريد قتالها | وقل لثقيف تلك : غيري أو عدي
فما كنت في الجيش الذي نال عامرا | ولا كان عن جرا لساني و لا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة | نزائع جاءت من سهام و سردد

ومما يجعل أدونيس يتجاهل الإبداع في فترة البعثة النبوية والخلافة الراشدة تنوع قصائدها، والمسافات التي قطعتها والمناطق التي اكتشفتها، وكأنها تسابق فتوحات قياسية الزمان والمكان.. ما يرعب أدونيس هو تلك الأجواء الجديدة التي خلقت تلك الإبداعات وخلقت العقل الجديد الذي يسمى – مجازا – العقل العربي، إنها أجواء على غير مثال سابق، فقد كان الشاعر العربي الجاهلي ما إن يفرغ من قوله:

إذا بلغ الفطام لنا صبي   تخر له الجبابر ساجدينا

إلا ويطوي قصائده الأخرى قاصدا بها بلاط أولئك الجبابرة وموائدهم، ليتسول عند أبوابهم ويأكل من فتات موائدهم، وهي تجعل المطلع على هذه النماذج يشعر بأن الشاعر العربي يمارس بالشعر تزييف الحياة لا خلقها، وتكريس التخلف لا الكشف عن القادم.

أما شاعر البعثة الإسلامية فلم يعد ذلك المتسول ولا المزيف ولا المتخلف بالثأر، ولا المسكون بالجهل فوق جهل الجاهلين، لقد حوله النص الإسلامي إلى مبدع آخر، مبدع يعيد خلق العالم والتصورات والمباديء والأفكار.. شاعر البعثة النبوية والخلافة محا من ذاكرة العربي ذل التسول، وزهو الأمم على أمته وغرورها وتعاليها تجاهه، لم يعد اسم كسرى ذلك الاسم الذي يسيل اللعاب لعطاياه، ولا الاسم المخيف الذي ترتعد فرائص العربي عند ذكره.. لم يعد لكسرى تلك المهابة منذ أن قال عليه السلام: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله – صحيح البخاري ٣ – ١١٣٥)

ذات يوم كان عدي بن حاتم الطائي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عدي هذا كان نصرانيا، لكن النصرانية لم تغير شيئا من سلوكياته المادية الجاهلية، فهو يأخذ من قومه الضرائب باسم الدين ليس للفقراء ولكن لنفسه، كانت المسيحية بالنسبة له مجرد فكرة كبقية العرب، ولما أسلم حدث هذا الحوارالمثير يقول عدي: (بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل. فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها. قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا

تخاف أحدا إلا الله – قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد – ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز- البخاري ٣ – ١٣١٦)

كان عدي يحدث نفسه بشيء آخر أقل خطورة من كسرى إنهم الدعار، وهم - كما يقول ابن حجر في فتح الباري ٦ – ٦١٣ - جمع داعر وهو: (الشاطر الخبيث المفسد.. والمراد قطاع الطريق، وطيء قبيلة مشهورة منها عدي بن حاتم المذكور، وبلادهم ما بين العراق والحجاز وكانوا يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جواز، ولذلك تعجب عدي كيف تمر المرأة عليهم وهي غير خائفة) ومع ذلك تتغير أحوال طيء بالإسلام، ويمضون كالسيل خلف سعد بن أبي وقاص نحو بلاد كسرى، فيتساءل قائد جيوش الأكاسرة رستم ما الذي أتى بهؤلاء الأعراب المتسخين؟ كيف يجرؤ هؤلاء المتسولون بقصائدهم بالأمس على غزوه اليوم؟

لقد (أرسل رستم قائد جيش الفرس إلى سعد بن أبي وقاص: أن ابعث إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا. فبعث إليه ربعي بن عامر، فلما انتهى إليه قال له الترجمان واسمه عبود من أهل الحيرة: ما جاء بكم؟ قال الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عباد الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضى إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال والظفر لمن بقي – جمهرة خطب العرب ١ – ٢٤٢)

ربعي هذا كان شاعرا، لكنه ليس متسولا على بلاط فرنسا كأدونيس وأركون، ولم يكن أفقه وفكره محدودين باللقمة. القرآن والسنة حولا ربعي إلى آفاق لا حدود لها، فكان رستم وجيشه مجرد محطة في رحلته التي لا تعرف التوقف، إنه يقول بعد أن تجاوز كسرى وفارس وتوقفت خيله تلتقط أنفاسها في مدينة كابل عاصمة أفغانستان اليوم (تاريخ مدينة دمشق ١٨ – ٤٩):

نحن وردنا من هراة مناهلا	روا من المروين إن كنت جاهلا
وبلخ ونيسابور قد شقيت بنا	وطوس ومرو قد أزرنا القبائلا
أنخنا إليها كورة بعد كورة	نفضهم حتى احتوينا المناهلا
فلله عينا من رأى مثلنا معا	غداة أزرنا الخيل تركا وكابلا

ومن الأجواء التي أوحت بالشعر الإسلامي، هذه المحاورة التي تكشف جدلية يعيشها غير العرب عند حديثهم عن العرب دون إسلام، وهي إشكالية تتجسد أمامنا اليوم في رؤية الغربي للعالم العربي اليوم، هذه المحاورة جرت بين يزدجرد ملك فارس وبين المغيرة بن زرارة، وفيها يتضح الاستعلاء الفارسي على كل ما هو عربي، وفيها بيان لحقيقة العربي – دون الإسلام – وحقيقة نظامه السياسي والاجتماعي، سواء في الجاهلية أو في واقعنا اليوم.

يقول يزدجرد: (إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون

أن تقوموا لهم، فإن كان غرور لحقكم فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم – جمهرة خطب العرب ١ – ٢٤٠) فأجابه المغيرة بن النعمان بقوله: (إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده. فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبيلتنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها: أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجب أحد. أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئا إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا إن ربكم يقول: إني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شئ وكل شئ هالك الا وجهي، وأنا خلقت كل شئ وإلي يصير كل شئ، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلكم داري دار السلام. فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبي فقاتلوه فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك. فقال يزدجرد: أتستقبلني بمثل هذا؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شئ لكم عندي. ثم قال: ائتوني بوقر من تراب فقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن – جمهرة خطب العرب ١ – ٢٤٠)

لقد خرج هؤلاء الإسلاميون يحملون تراب يزدجرد وكأنهم يسحبون أرض بلاده من تحت قدميه، لأنهم لم يكون معركة جدل ومفاخرة وتنابز، بل حلم رسالة وتصميم على إيصال تلك الرسالة وتحقيق ذلك الحلم.

وقد أبدع الشعراء الإسلاميون في قصائدهم، كما أبدعوا في إنجازاتهم وفتوحاتهم التي صنعها الإسلام في أعماقهم قبل أن يجسدوها شعرا وفتحا. الإسلام يحمل أحدهم من اليمن.. من عمق العروبة التي كانت بالأمس تحت وصاية فارس أو الروم، إلى أرض القادسية كي يحتفل مع غيره في نشر رسالته وتقويض عهد طويل من الظلم والاستعباد والتخلف، ولم يكتف بذلك بل توغل في أرض فارس ليجتث رأس الطاغية بسيفه، لقد وصل قيس بن المكشوح المرادي مع النص إلى مسافات كان الشاعر العربي في الجاهلية لا يجسر على الوصول إليها إلا مستجديا

مستطعماً.. لم يكن بإمكانه أن يحلم بها ولو شعراً، لكنه مع النص الإسلامي حول الأحلام إلى محطات لا آفاق.
هاهو قيس اليمني يلاحق بنفسه ملك فارس نفسه.. بكل جبروته ليزيحه عن طريقه الذي لا يعرف النهايات، هاهو قيس دون أصنام.. دون جاهلية يصرع الملوك بيمينه، لا بهراء بن كلثوم، ولكن باعتناقه للقرآن والسنة، إنه يقول:

جلبت الخيل من صنعاء تردى بكل مدجج كالليث سام
إلى وادي القرى فديار كلب إلى اليرموك فالبلد الشآم
وجئن القادسية بعد شهر مسومةً دوابرها دوامي
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعا بسيف لا أفل ولا كهام
وقد أبلى الإله هناك خيراً وفعل الخير عند الله نامي

إنني أعذر أدونيس عندما يتجاهل الشعر الإسلامي، لأن المتلقي عندما يقرأ قول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ تخر له الجبابر ساجدينا

فإنه قد يسخر منه، وقد يبتسم آخر متعجبا من قوله، وقد يعجب ثالث بعجرفته، وقد.. وقد. لكن لا أحد سيشعر بأجواء الشعر وهي تملك المكان والإنسان، وتغيره وتهدمه وتبنيه من جديد، سيتملكه شعور المنصت لشاعر منافق يمدح زعيما خائبا، خالعا عليه صفات الشجاعة والحكمة والدهاء والكرم، وهو أدرى الناس بأنه يقول أعذب الهراء، وأجمل التزييف، وينصرف المتلقي بعد أن يصفق إن كان من الصنف المرتزق نفسه، أو يبصق إن كان يحمل روحا وذوقا أرقى، الأمر منوط بثقافة الإنصات والقراءة التي يملكها، لكن من يقرأ لقيس المرادي تلك القصيدة التي تمتطي الخيل من صنعاء مرورا برأس كسرى والمرازبة الكرام، هنا تتحد رؤية المتلقين – المرتزقين والراقين منهم على حد سواء إعجابا وتأثرا وتأثيرا.. قيس يغير العالم بشعره وبفعله، محولا إياه إلى أفق ينهض بالواقع المكبل بالإحباط والعجز، فالمستقبل والماضي لا يحسب بالزمن ولكن بالإنجاز، وأدونيس لا يحتمل تكرار ذلك الإنجاز، ولا يحتمل وجود محرض لتكراره، فليكن التجاهل إذن.
ومثل قيس يقول بشر بن ربيعة (فتوح البلدان ٢٦١ والأغاني ١٥ – ٢٣٣):

تحن بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص علي أمير
وسعد أمير شره دون خيره طويل الشذا كأبي الزناد قصير
تذكر هداك الله وقع سيوفنا بباب قديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يعار جناحي طائر فيطير
إذا برزت منهم إلينا كتيبة أتينا بأخرى كالجبال تمور
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمال بأحمال لهن زفير

أما القعقاع التميمي فيبدع في وصف الانتصار على الفرس بقوله:

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا | لشر ليال انتجت للاعاجم
ملأنا شعابا في نهاوند منهم | رجالا وخيلا اضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا | فلم ينجه منها انفساح المخارم

قال صاحب معجم البلدان ٥ – ١٧٤ حول بلد اسمه (المقر): من جهة الحيرة كانت بها وقعة للمسلمين وأميرهم خالد بن الوليد في أيام أبي بكر رضي الله عنه فقال عاصم بن عمرو:

ألم ترنا غداة المقر فئنا | بأنهار وساكنها جهارا
قتلناهم بها ثم انكفأنا | إلى الفرات بما استجارا
لقينا من بني الأحرار فيها | فوارس ما يريدون الفرارا

ويقول الأسود بن قطبة وهو تحت قيادة خالد بن الوليد في معركتي "أمغيشيا" و"أليس"، وهو يشارك في تحقيق نصر غير مسبوق "معجم البلدان ١ – ٢٥٤":

لقينا يوم أليس وأمغي | ويوم المقر آساد النهار
فلم أر مثلها فضلات حرب | أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفا | بقية حربهم نهب الإسار
سوى من ليس يحصى من قتيل | ومن قد غال جولان الغبار

ولما التفتت جيوش الخلافة الراشدة إلى الشام التفت معها الإبداع.. التفت شاعر الفروسية وفارس الشعر القعقاع التميمي مبتهجاً بنصر كان العرب في الجاهلية يرونه كالعنقاء، فقال عن يوم اليرموك (تاريخ مدينة دمشق ٢ – ١٦٦):

ألم ترنا على اليرموك فزنا | كما فزنا بأيام العراق
فتحنا قبلها بصرى وكانت | محرمة الجناب لدى النفاق
وعذراء المدائن قد فتحنا | ومرج الصفرين على العتاق
قتلنا من أقام لنا وفينا | نهابهم بأسياف رقاق
قتلنا الروم حتى ما تساوى | على اليرموك نفروق الوراق
فخضنا جمعهم لما استحالوا | على الواقوصة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا | إلى أمر يعضل بالذواق

وكانت معركة (فحل) من أول المعارك في الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وكان ضمن جيشه الشاعر علقمة بن الأرت العبسي الذي يقول (الإصابة في تمييز الصحابة ٥ – ١٣٥):

ونحن قفلنا كل واف سبيله | من الروم معروف النجار منطق
ونحن طلقنا بالرماح نساءهم | وأبنا الى أزواجنا لم تطلق
وكم من قتيل أرهقته سيوفنا | كفاحا وكف قد أطيحت وأسوق

وفي معركة أجنادين كان أحد شعراء الفتوح الإسلامية زياد بن حنظلة يواجه مع جنود الإسلام مائة ألف من الروم، بقيادة القائد الرومي (أرطبون)، وكان هرقل في مدينة حمص، فقاتل المسلمون قتالا شديدا اكتسحوا به جيوش الروم وهزموهم، واستشهد من المسلمين عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام، ولما وصلت أخبار القائد خالد بن الوليد إلى هرقل ملئ هرقل رعبا فهرب من حمص إلى إنطاكية، فقال الشاعر زياد بن حنظلة (معجم البلدان ١ – ١٠٤) أبياتا اختلطت بها الرماح بالنسور التي تلتقط أشلاء الروم الذين تم فطمهم عن الشام إلى الأبد:

ونحن تركنا أرطبون مطردا ... إلى المسجد الأقصى وفيه حسور
عشية أجنادين لما تتابعوا ... وقامت عليهم بالعراء نسور
عطفنا له تحت العجاج بطعنة ... لها نشج نائي الشهيق غزير
فطمنا به الروم العريضة بعده ... عن الشام أدنى ما هناك شطير
تولت جموع الروم تتبع إثره ... تكاد من الذعر الشديد تطير
وغودر صرعى في المكر كثيره ... وعاد إليه الفل وهو حسير

ويبدع عبد الله بن سبرة الجرشي قولا وفعلا في إجهازه على أرطبون الروم، وكانت قطعت يده في تلك المطاردة بين الفارسين الكبيرين في يوم غلطاس، فقال يرثيها، وهو رثاء جديد على المستوى الشعري كما يراه الناقد مصطفى الشكعة (الأمالي في لغة العرب ١ – ٤٩):

يمنى يدي غدت مني مفارقة ... لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا
وما ضننت عليها أن أصاحبها ... لقد حرصت على أن نستريح معا
وقائل غاب عن شأني وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أركبه يسعى بمنصله ... نحوي وأعجز عنه بعد ما وقعا
ما كان ذلك يوم الروع من خلقي ... ولو تقارب مني الموت فاكتنعا
ويل أمه فارسا أجلت عشيرته ... حامي وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
يمشي إلى مستميت مثله بطل ... حتى إذا أمكنا سيفيهما امتصعا
كل ينوء بماضي الحد ذي شطب ... جلى الصياقل عن ذريه الطبعا
حاسيته الموت حتى اشتف آخره ... فما استكان لما لاقى ولاجزعا
كأن لمته هداب مخملة ... أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا
فإن يكن أطربون الروم قطعها ... فقد تركت بها أوصاله قطعا
وإن يكن أطربون الروم قطعها ... فإن فيها بحمد الله منتفعا
بنانتين وجذمورا أقيم بها ... صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

وإذا انتقلنا من شعر الفتح الذي ساهم في إسقاط الطواغيت والظلمة، وتغيير خريطة العالم، ونشر العدل والثقافة، إلى الشعر الإنساني.. يأتي الحطيئة والمخبل وغيرهم، وهما اللذان حكم الفرزدق بتفوقهما شعريا بقوله:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

قال أبو الفرج في (الأغاني ١٣ – ٢١٠ أخبار المخبل ونسبه): ذو القروح: امرؤ القيس، وجرول: الحطيئة، وأبو يزيد: المخبل.

يأتي هذا الشاعران بقصائد بكر في مواضيعها، فالحطيئة يُبكي عمر بن الخطاب عندما يسمع شعره، ويلجئه إلى شراء أعراض الناس منه.

في البداية قال الحطيئة شعرا ضعيفا لم يخفف من غضب الفاروق، المكلف بحماية أعراض شعبه وأموالهم ودمائهم، عندما قال (الأغاني ٢ – ١٧٩):

تحنن علي هداك المليك فإن لكل مقام مقالا
ولا تأخذني بقول الوشاة فإن لكل زمان رجالا
فإن كان ما زعموا صادقا فسيقت إليك نسائي رجالا
حواسر لا يشتكين الوجا يخفضن ألا ويرفعن آلا

لكن الحبس حرر الشعر من أعماق الحطيئة، ليهز مشاعر عمر ويبكيه، فيعقد معه صفقة ألا يكون أداة فرقة وشتم وإرهاب وتلويث للأعراض، قال الحطيئة لعمر رضي الله عنه (الأغاني ٢ – ١٧٨):

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

تلك الأبيات بالنسبة لأدونيس ليست شعراً، بل إناء قبيح!!!

ومن الشعر الإسلامي الإنساني قول أبي خراش الهذلي والمخبل وهما يبكيان ابنيهما اللذين ذهبا للجهاد دون إذن منهما، ليحملا جروحهما وشعريهما ويتجهان بها إلى عمر بن الخطاب خليفة المسلمين العادل، منتظرين عدالته التي أدهشت العالم، فينجح الشعر في التأثير على عمر، وهز مشاعره وإسالة دموعه، وقد حملهما النص القرآني والسنة النبوية في تقديم بر الوالدين على الجهاد، بل وفي تغيير واقع من المفترض أن لا يتغير عند أمة غير أمة الإسلام آنذاك في ظرف استثنائي كالحرب، ويستصدر الشعر حكما هو من حق الآباء كما حكم القرآن وبينت السنة.

هذا الشعر الذي يغير الواقع، وهؤلاء الشعراء الكبار لا أهمية لهم عند أدونيس، لأنهم لا يهاجمون النص بل لأنهم يغيرون العالم ويضيئونه بالنص، وهو لا يطيق ذلك، لأنه يفضل ظلام الوثنية مع أبي جهل على نور القرآن مع عمر.

يقول المخبل في قصيدته ومعاناته في فراق ابنه شيبان:

أيهلكني شيبان في كل ليلة لقلبي من خوف الفراق وجيب
أشيبان ما أدراك أن كل ليلة غبقتك فيها والغبوق حبيب
غبقتك عظماها سناما أو انبرى برزقك براق المتون أريب

أشيبان إن تأبى الجيوش بحدهم يقاسون أياما لهن خطوب
ولا هم إلا البز أو كل سابح عليه فتى شاكي السلاح نجيب
يذودون جند الهرمزان كأنما يذودون أوراد الكلاب تلوب
فإن يك غصني أصبح اليوم ذاويا وغصنك من ماء الشباب رطيب
فإني حنت ظهري خطوب تتابعت فمشيي ضعيف في الرجال دبيب
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى أرى الشخص كالشخصين وهو قريب
ويخبرني شيبان أن لن يعقني تعق إذا فارقتني وتحوب
فلا تدخلن الدهر قبرك حوبة يقوم بها يوما عليك حسيب

فلما تلا هذه الأبيات على عمر بن الخطاب بكى عمر، ورق له، فكتب إلى سعد يأمره أن يقفل شيبان بن المخبل ويرده على أبيه، فلما ورد الكتاب عليه أعلم شيبان ورده، فسأله الإغضاء عنه وقال: لا تحرمني الجهاد. فقال: له أنها عزمة من عمر ولا خير لك في عصيانه، وعقوق شيخك. فانصرف إليه ولم يزل عنده حتى مات – (الأغاني ١٣ – ٢١١)).

هذا الشعر ليس بشعر في نظر أدونيس، بل هو إناء قبيح لأنه إسلامي.

ومثله أبو خراش الهذلي الذي بث معاناة فراق ابنه خراش شعرا فقال:

ألا من مبلغ عني خراشا وقد يأتيك بالنبأ البعيد
وقد يأتيك بالأخبار من لا تجهز بالحذاء ولا تزيد
يناديه ليغبقه كليب ولا يأتي لقد سفه الوليد
فرد إناءه لا شيء فيه كأن دموع عينيه الفريد
وأصبح دون غابقه وأمسى جبال من حرار الشام سود
ألا فاعلم خراش بأن خير المهاجر بعد هجرته زهيد
رأيتك وابتغاء البر دوني كمحصور اللبان ولا يصيد

فكتب عمر رضي الله عنه: بأن يقبل خراش إلى أبيه، وألا يغزو من كان له أب شيخ إلا بعد أن يأذن له – (الأغاني ٢١ – ٢٣٢).

وهذا والد كلاب يستعدي الله على الفاروق حتى يرد ابنه كلابا في قصيدة تضج بالشاعرية والحزن والشكوى يقول فيها – (الأغاني ٢١ – ١٥):

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن قبل الكتابا
أناديه فيعرض في إباء فلا وأبي كلاب ما أصابا
إذا سجعت حمامة بطن واد إلى بيضاتها دعوا كلابا
أتاه مهاجران تكنفاه ففارق شيخه خطئا وخابا
تركت أباك مرعشة يداه وأمك ما تسيغ لها شرابا
تمسح مهره شفقا عليه وتجنبه أباعرها الصعابا
فإنك قد تركت أباك شيخا يطارق أينقا شزبا طرابا
فإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا

ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقف على رأس عمر وحوله المهاجرون والأنصار فقال:

أعاذل قد عذلت بغير قدر ... ولا تدرين عاذل ما ألاقي
فإما كنت عاذلتي فردي ... كلابا إذ توجه للعراق
فتى الفتيان في عسر ويسر ... شديد الركن في يوم التلاقي
فلا والله ما باليت وجدي ... ولا شفقي عليك ولا اشتياقي
وإبقائي عليك إذا شتونا ... وضمك تحت بحري واعتناقي
فلو فلق الفؤاد شديد وجد ... لهم سواد قلبي بانفلاق
سأستعدي على الفاروق ربا ... له دفع الحجيج إلى بساق
وأدعو الله مجتهدا عليه ... ببطن الأخشبين إلى دفاق
إن الفاروق لم يردد كلابا ... إلى شيخين هامهما زواق

فكتب عمر برد كلاب إلى المدينة، فلما قدم دخل إليه فقال: ما بلغ من برك بأبيك؟ قال: كنت أوثره وأكفيه أمره، وكنت أعتمد إذا أردت أن أحلب له لبنا أغزر ناقة في إبله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد ثم أحتلب له فأسقيه. فبعث عمر إلى أمية من جاء به إليه، فأدخله يتهادى وقد ضعف بصره وانحنى فقال: له كيف أنت يا أبا كلاب؟ قال: كما تراني يا أمير المؤمنين. قال: فهل لك من حاجة؟ قال: نعم، أشتهي أن أرى كلابا فأشمه شمة وأضمه ضمة قبل أن أموت. فبكى عمر ثم قال: ستبلغ من هذا ما تحب إن شاء الله تعالى. ثم أمر كلابا أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ويبعث إليه بلبنها ففعل فناوله عمر الإناء وقال: دونك هذا يا أبا كلاب. فلما أخذه وأدناه إلى فمه قال لعمر: والله يا أمير المؤمنين إني لأشم رائحة يدي كلاب من هذا الإناء. فبكى عمر وقال هذا كلاب عندك حاضرا قد جئناك به فوثب إلى ابنه وضمه إليه وقبله وجعل عمر يبكي ومن حضره. وقال لكلاب: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا ثم شأنك بنفسك بعدهما. وأمر له بعطائه وصرفه مع أبيه فلم يزل معه مقيما حتى مات أبوه.

هذا الشعر الجديد الذي يحمل مبدعه إلى رأس الدولة لا ليحذيه ولا ليمدحه ويتزلف إليه، بل ليشكوه ويعلن احتجاجه، ويحاكمه بما بويع عليه، هذا الشعر الذي خالف السائد والمتعارف عليه حول وظيفة الشعر عندما يتلى على بلاط الملوك.. هذا الشعر الذي ينجح في انتزاع الحقوق.. هذا الإبداع لا يسمى شعرا في حداثة أدونيس السوداء، بل هو في نظره آنية قبيحة.

أدونيس أيضا لا يعترف بهذه الرائعة الإسلامية لمالك بن الريب التميمي، والتي يبدع فيها نوعا جديدا من الرثاء، رثاء النفس عند الاحتضار. ولا أدري لم لم يشر إليها أدونيس وهي نوع جديد، وهو الذي أزعجنا لكثرة ما يقول أنه مأخوذ بالجدة.. لم لم تأخذه جدة مالك بن الريب وهو يقول (جمهرة أشعار العرب ١ ـ ٢٢٦):

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا ... مزار ولكن الغضا ليس دانيا

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى   وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا
دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي   بذي الطبسين فالتفت ورائيا
أجبت الهوى لما دعاني بزفرة   تقنعت منها أن ألام ردائيا
لعمري لئن غالت خراسان هامتي   لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فلله دري يوم أترك طائعا   بني بأعلى الرقمتين وماليا
ودر الظباء السانحات عشية   يخبرن أني هالك من ورائيا
ودر كبيري اللذين كلاهما   علي شفيق ناصح قد نهانيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه   ودر لجاجاتي ودر انتهائيا
تذكرت من يبكي علي فلم أجد   سوى السيف والرمح الرديني باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه   إلى الماء لمن يترك له الدهر ساقيا
ولكن بأطراف السمينة نسوة   عزيز عليهن العشية ما بيا
صريع على أيدي الرجال بقفرة   يسوون قبري حيث حم قضائيا
ولما تراءت عند مرو منيتي   وحل بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني لأنني   يقر بعيني أن سهيل بدا ليا
فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا   برابية إني مقيم لياليا
أقيما علي اليوم أو بعض ليلة   ولا تعجلاني قد تبين ما بيا
وقوما إذا ما استل روحي فهيئا   لي القبر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي   وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما   من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني ببردي إليكما   فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
فقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت   سريعا لدى الهيجا إلى من دعانيا
وقد كنت محمودا لدى الزاد والقرى   وعن شتم ابن العم والجار وانيا
وقد كنت صبارا على القرن في الوغى   ثقيلا على ا لأعداء عضبا لسانيا
وطورا تراني في ظلال ومجمع   وطورا تراني والعتاق ركابيا
وطورا تراني في رحى مستديرة   تخرق أطراف الرماح ثيابيا
وقوما على بئر الشبيك فأسمعا   بها الوحش والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتماني بقفرة   تهيل علي الريح فيها السوافيا
ولا تنسيا عهدي خليلي إنني   تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
فلن يعدم الولدان بيتا يجنني   ولن يعدم الميراث مني المواليا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني   وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يا لهف نفسي على غد   إذا أدلجوا عني وخلفت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالد   لغيري وكان المال بالأمس ماليا
فيا ليت شعري هل تغيرت الرحى   رحى الحرب أو أضحت بفلج كما هيا
إذا القوم حلوها جميعا وأنزلوا   لها بقرا حم العيون سواجيا
وعين وقد كان الظلام يجنها   يسفن الخزامى نورها والأقاحيا
وهل ترك العيس المراقيل بالضحى   تعاليها تعلو المتون القياقيا

إذا عصب الركبان بين عنيزة وبولان عاجوا المنقيات المهاريا
ويا ليت شعري هل بكت أم مالك كما كنت لو عالوا نعيك باكيا
إذا مت فاعتادي القبور وسلمي على الريم أسقيت الغمام الغواديا
ترى جدثا قد جرت الريح فوقه غبارا كلون القسطلاني هابيا
رهينة أحجار وترب تضمنت قرارتها مني العظام البواليا
فيا راكبا إما عرضت فبلغن بني مالك والريب أن لا تلاقيا
وبلغ أخي عمران بردي ومئزري وبلغ عجوزي اليوم أن لا تدانيا
وسلم على شيخي مني كليهما وبلغ كثيرا وابن عمي وخاليا
وعطل قلوصي في الركاب فإنها ستبرد أكبادا وتبكي بواكيا
أقلب طرفي فوق رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل مني نسوة لو شهدنني بكين وفدين الطبيب المداويا
فمنهن أمي وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا
وما كان عهد الرمل مني وأهله ذميما ولا بالرمل ودعت قاليا

بعد هذه النماذج التي لا يرى فيها أدونيس شعرا وإبداعا، مقارنة بما يعتبره إبداعا وهو قول عروة:

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

أجل.. قصيدة ابن الريب الرائعة معنى ومبنى وجدة، إناء قبيح لا تمت للشعر بصلة في نظر أدونيس. إنني لا أعرف للتحيز والإيديلوجيا تعريفا إن لم يكن حكم أدونيس مشبعا بها، وهل غير الغل يجعل أدونيس يحكم على هذه القصيدة وأمثالها بقوله في كتابه الأسود (المحيط الأسود): (الشعر الذي سمي "إسلامياً"، في العهد الإسلامي الأول، كان رديئاً وضعيفاً جداً، من الناحية الفنية-الجمالية، وأنه لم يترك أي أثر طيب في الشعر العربي، لا من حيث الصناعة، ولا من حيث الذائقة، وأنه اضمحل وانطفأ من تلقاء ذاته. لم تقبله، من جهة، أذواق المسلمين أنفسهم، ولم يدخل حتى إلى نفوس المؤمنين بينهم. وكان، من جهة ثانية، مجرد إناء قبيح يملأ بأفكار قرآنية جميلة - ٧٣) وسأترك للقاريء أن يحكم بنفسه على هذه المقولة السوداء بعد ما سقته من نماذج شعرية.
لكن لم يشعر أدونيس بكل هذا الرعب من شعر البعثة والخلافة الراشدة ومن التوحيد أيضاً..؟!

خطورة شعر البعثة

يلاحظ أن شعر البعثة والخلافة الراشدة ولد مع مولد الدولة الإسلامية، لكن الأهم في ذلك أن الشعر في هذه الفترة كان تقدميا كشفيا، على عكس الشعر الذي جاء بعده مباشرة. الفترة الإسلامية فتحت للشعر آفاقا أرحب ودفعت به إليها بقوة، فقد حول الإسلام الشعراء من عرب وثنيين إلى مسلمين عالميين، ومن إناس فوضويين متسخين، إلى أناس منظمي الوقت، منتظمي النظافة، نظيفي الأبدان والثياب، بل جعل النظافة ممارسة يومية مفروضة، وحول الشعراء من مستفزين للسيوف كي تفتك بالأهل والعشيرة، إلى محرضين على الفتوحات ونشر الوعي والتوحيد، فلم تعد وظيفة الشعر هي الاسترزاق والمدح الزائف والذم المقذع، بل الكشف والمعارضة والتصحيح والنقد والتغيير، فهذا يتجه نحو عمر حاملا شعرا لا ليمدحه ويحضى بأعطياته، بل لينتقده ويشكوه إلى الله حتى يأخذ حقه، وذاك يلاحق أرطبون الروم ليقتله لا ليتسول منه.. كما اعتاد الشاعر الجاهلي، وثالث يذهب وهو مرقع الثياب ليعطي كسرى خيارات لا يستطيع الفرار منها.

الشعر الأموي والعباسي ارتد جاهليا في جزء كبير منه، تسولا في أكثر هذا الجزء.. هذا النوع من الشعر ذاب في الفترة النبوية والراشدة، تحت حرارة الوعي والأهداف الأسمى التي تتطلع إلى العالم كله، ذاب شعر المديح تحت حرارة الوعي الذي بثه النبي عليه السلام عندما قال لأصحابه – والخلفاء من أقرب أصحابه: (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب ـ صحيح مسلم ٤ ـ ٢٢٩٧)

تم تهميش المديح في عصر الخلفاء، لأن المال العام ليس ملكا للخلفاء الراشدين ينثرونه على من يندحهم، ولا على المسترزقين بأبياتهم، البائعين لإبداعهم، بل هو ملك للفقراء والمساكين والأيتام.. ملك لكل فرد من أفراد الأمة.. هذا المستوى من الوعي جعل الشاعر مشغولا بالإنجاز، بالاحتجاج على الخليفة نفسه بدل مدحه.. بالفتوحات والشهادة، وهنا ضمر الشعر الذي يزيف الوعي ويبرر المظالم للظالم.. ذاب كما ذاب شعر الثأر المحرض على السلب والنهب، والانتقام والتخريب لمجرد الانتقام، لم يعد الأشخاص أهدافاً في الشعر الإسلامي، أصبحت الأهداف أكبر والهمم أعلى والمسؤليات أعظم، والآفاق بلا حدود، أصبح الهدف دولا وإمبراطوريات، وليس صحونا أو بعيرا أو حصاناً أو حماراً كما في الجاهلية، لقد دفع النص الإسلامي بالشعر كي يكون أرقى وذا فاعلية.. ومغيرا بكل ما تحمله تلك الكلمات.

إذا كان أدونيس لا يعترف بهذا الشعر الرائع ومواضيعه الجديدة، ومصطلحاته التي تُقدَّم للعالم العربي قضايا فكرية جديدة ومصيرية غيرت وجه الأرض، وخرائط العالم وعقليات البشر، وهمومهم وأهدافهم وعلاقاتهم: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والقدر، وأشياء جديدة أخرى كاستلال الروح، والحديث عن الفوز بالأجر والثواب بدلا من الفوز بمال الجار ونسائه وخيله وغنمه وخيامه، حتى الرثاء لم يعد بكاء وتعديدا لصفات المرثي.. هناك رثاء جديد للذات بل والأعضاء فأي نقد يتحدث عنه هذا الرجل.

هناك مسافات أخرى قطعها الشعر لا يريد أدونيس أن تقرأها الأمة اليوم:.. فقد أصبح الشعر في عهد النبوة والخلافة الراشدة يغير العادات والتقاليد التليدة، ويحل بدلا منها بر الوالدين وصلة الرحم والزكاة وكفالة الأيتام وإغاثة الملهوف وفك العاني، والأمن في الطرقات والبلدان بشكل غير مسبوق.. أصبح الشعر يتحدث لأول مرة عن مفهوم جديد اسمه: الأمة، ودولتها وفتوحاتها، وحقوق أفرادها.. ولأول مرة يتجاوز الشعر العربي محيط القبيلة الضيق، وأمجادها الزائفة إلى العالمية، ولأول مرة على الإطلاق يضيف إلى أنواع الشعر العربي نوعا جديداً (الشعر الإيديلوجي) المبشر بعقيدة جديدة وتصور جديد للكون والحياة وموقع الإنسان في هذا الكون، أليست هذه جدة..؟!
كل هذه الأشياء الجديدة لا وزن لها عند الحداثة السوداء، لإن إيديلوجية أدونيس تصاب بالذعر عند ذكرها.

التراث الشعري الذي يعترف أدونيس به

لفرط إعجابي بـ"أدونيس" وكتاباته عن النص الشعري كدت لا أقرأ لغيره.. كنت أرى أن الغير متضمن فيه إبداعا ونقدا بصورة أدنى، كنت أجزم بأن نقده للشعر لا يعرف المواقف ولا العقائدية والإيدلوجية، وكنت أجزم بأن نقده موجه للإبداع ومدفوع بالإبداع من أجل استمرارية الإبداع، حتى لفت نظري هجومه العنيف على تعاطي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للنص الإسلامي في كل مؤلفاته دون استثناء، وهو يفعل ذلك بأسلوبين:
تجاهل فهم الصحابة للنص، وعدم إقامته لأي دراسة مقارنة أو حتى جادة لتلك الفترة للوصول إلى أحكام نقدية محترمة.
وسم تلك الفترة بصفة ماضوية وتكتيلها بحيث تصبح رقما أو زمنا ماضيا فحسب، مما يسمح بتبرير تجاهله ذلك، مع أنه دائما ما يلح على أن الجدة في الشيء لا تعني الجدة في تاريخه، فقد يكون الإبداع قديما زمنيا، وقد يزخر الحاضر والمستقبل باللا إبداع.
أدونيس يفعل ذلك لأنه يعرف مدى خطورة فهم الصحابة للنص، لذلك فهو – كما يدعي – لا يؤسس لفهم آخر ينسف به ذلك الفهم أو حتى يخترقه كما يدعي، بل يؤسس لإلغاء النص برمته، وركنه في أرفف المتاحف وزجاجياتها، يفعل ذلك لإدراكه أن فهم الصحابة للنص في فترة البعثة والخلافة الراشدة يتمتع بالتلقائية والسهولة والبعد عن التفلسف والتعقيد، وهذا الفهم شرط لنهضة الأمة الإسلامية من جديد بعكس ما يروج له العلمانيون، الذين يرددون مقولة الفهم الآخر للنص، لكنهم لا يقدمون هذا الفهم ولا يطرحونه ولا يجرؤون، بل إنهم في الحقيقة يريدون إزاحة النص بكامله عن الحياة، هم غير مأخوذين بأي فهم آخر للنص، لكنهم يرددون هذه العبارات تحت ضغط الواقع الإسلامي الهائل الذي لا يستطيعون مقاومته أو تجاهله، فيضطرون إلى مجاملته، ولذلك تراهم يشعرون بالرعب

والهلع عند وصفهم بالكفر أو الإلحاد، ويصفون من يفهم فهم الصحابة بالتكفيري، وهذا دليل على نقاط ضعف ومقاتل منها:
عدم الثقة بما لديهم من فكر.
خوفهم من المواجهة وجبنهم عن التصريح بما يؤمنون به.
إفلاسهم من أي حجة أو دليل مقنع، يزيحون به النص وفهم الصحابة.
افتقادهم لأبرز ميزات الحداثي الغربي في مواجهته لتراثه الفكري خاصة، ألا وهي عدم المواربة أو المجاملة أو حتى النفاق في التعامل معه، بل يصرحون بكفرهم بكل ثقة ودون تردد.

ما ينقص الفكر العلماني

هذا السلوك العربي مناقض تماما لسلوك العلماني الغربي - مبدع العلمانية الحقيقية، فالغربي لا يأبه لوصفه بالكفر أو الإلحاد، أو الهرطقة والزندقة، بل على العكس من ذلك.. يفخر بهذا الوصف، بعد أن كشف زيف وتحريف الكتاب المسيحي المقدس، إنه يعتز بكفره بالزائف والمختلق، والعلمانيون الغربيون لم يعلنوا فهما آخر للنص المسيحي (التوراة والإنجيل) ولم يدعوا ذلك، بل أصروا على كشف زيفه وتحريفه وفضح المؤسسة الدينية القائمة عليه، فهوالذي يمثل قلب المشكلة، ثم أزاحوه دون أن يجهدوا أنفسهم في محاولة إقناع الناس بوجود فهم آخر، أو حتى محاولة تقديم فهم آخر، أو ادعاء تقديم قراءة أخرى..
العلماني الغربي التجريبي قاده علمه وتجربته إلى نسف النص برمته، لتحتل العلمانية كل مقاعده، بينما يجهد أدونيس والعلمانيون الآخرون أنفسهم، بمحاولة إقناع الناس بوجود فهم آخر غير فهم الصحابة الذين نزل عليهم النص، وكانت الباطنية (الغنوصية الهرمسية) هي إحدى تلك القراءات التي يقترحها أدونيس، وأدونيس حتى في تناوله للشعر يؤثر تلك الغنوصية على غيرها، بل يمررها من خلال غيرها.
ففي حديثه عن (الشعرية الفكرية) يطرح ثلاثة نماذج إبداعية يرى أنها تجسد – كما يقول: (ما نفتقده في النظرية، نراه في النص الإبداعي، فهذا النص الذي نجده عند بعض الشعراء من جهة، وعند بعض المتصوفين من جهة ثانية، يخترق تلك النظم المعرفيه وتنظيراتها، إذ أنه يحقق في بنيته وفي رؤيته علاقة عضوية بين الشعرية والفكرية، ويفتح أمامنا بحدوسه واستبصاراته، أفقا جماليا جديدا، وأفقا فكريا جديدا. ينبثق هذا النص اساسيا من نظرة لاتجزئ الإنسان إلى حس من جهة، وفكر من جهة وفكر من جهة ثانية، أو إلى عاطفة وعقل، وإنما ترى إليه كلا لا يتجزأ...) ثم يقول: (سأقدم ثلاثة نماذج متباينه للوحدة بين الشعرية والفكر في الكتابة الإبداعية العربية، تكفي بتنوعها لتقديم صورة شبه وافية عنها وهي: النص النواسي، والنص النفري، والنص المعري)
ويقول: (قوام هذا النص جدل بين ما يرفضه الشاعر وما يقبله ويدعو إليه فهو يرفض قيم الحياة العربيه البدوية، ويرفض التعليمية الدينية، وبخاصة في شكلها

الأخلاقي ويدعو إلى الحياة المدينية وقيمها، وإلى تجاوز هذه التعليمية وممارسة المحرم. تكمن كذلك في ما يفترضه هذا التفجير: أعني تهديم الحواجز التي تغلق فضاء الحرية. لسبب أوآخر، يتخذ أبو نواس من المجون قناعا يختفي وراءه، ومن السكر الذي يحرر الجسدد من رقابة المنطق والتقاليد، رمزا للتحرر الشامل

الغيب أوالباطن هو ما يحاوره النفري - منتصف القرن الرابع الهجري - وما يحاول أن يستقصيه إنه فضاء الكشف، من هنا تقتضي هذه التجربة للتعبير عنها، كلاما يفلت في آن من المشترك العام، ومن العقل والمنطق. وبين النطق والصمت حيث الهوة التي يرى فيها قبر العقل وقبور الأشياء كما يعبر، يتحرك نص النفري ،صامتا في نطقه، وناطقا في صمته – الشعرية العربية ٦٠)

أدونيس انتقائي مملوء بالمواقف، فتنظيره ينسف تنظيره، ومواقفه تفضح نقده، إنه يكتب عبارات هو أول من ينسفها عندما يقول أن قوام نص هؤلاء الشعراء: (يرفض قيم الحياة العربيه البدوية، ويرفض التعليمية الدينية، وبخاصة في شكلها الأخلاقي ويدعو إلى الحياة المدينية وقيمها، وإلى تجاوز هذه التعليمية وممارسة المحرم)

أليس هذا ما فعله شعر العصر النبوة والخلافة، أليس رفضا للحياة المتخلفة المليئة بالجهل المحتقنة بالثأر والوأد، أليس الشعر الإسلامي نسفا للعقيدة الوثنية التي تخضع الإنسان لحجر أو خشبة أو وثن، يذبح له ويصلي ويركع ويسجد، فلم عد هؤلاء الشعراء من المجددين، بينما اعتبر الشعراء الإسلاميين غير مجددين، بل وصف شعرهم بأنه إناء قبيح وشعر غير مهم. أما ما يقوله عن شعر هؤلاء وأن فيه دعوة إلى ممارسة المحرم فهذا ليس بتجديد، إنه انتكاسة نحو الشعر الجاهلي، فامرؤ القيس أبرز الشعراء الجاهليين هو المجدد – وليس أبو نواس – وهو المؤسس للمجون والخمريات.

ومما يحير في نقد أدونيس قوله أن شعر هؤلاء الثلاثة: (تمكن كذلك في ما يفترضه هذا التفجير: أعني تهديم الحواجز التي تغلق فضاء الحرية. لسبب أوآخر، يتخذ أبو نواس من المجون قناعا يختفي وراءه، ومن السكر الذي يحرر الجسدد من رقابة المنطق والتقاليد، رمزا للتحرر الشامل)

أي رؤية يقدمها مجون أبي نواس، إنه الجسد ولا شيء غير الجسد، إن مجون أبي نواس عودة وتكرار لمجون امريء القيس لا أكثر، فتفوق الجسد يكون عندما تعلو البهيمية ويخبو الوعي وتسفل الهمة وينحط الفكر، وليس أدل على ذلك من لحظات الوعي التي يبوح بها أبو نواس، في حالة ارتفاعه من وهدته وانحطاطه، وإلا فأي وعي يبشرنا به أدونيس عندما يجعل من ممارسة أبي نواس للشذوذ الجنسي واعترافه بأنه قد مورس معه اللواط.... عندما يعتبر هذا الانحطاط رمزا للتحرر الشامل، وأي قيم مدينية تبشرنا به حداثته، وأي قيم مدينية يحملها شاعر كأبي نواس وظف شعره للواط والخمرة ومسح البلاط..؟!

قد أتفق معه وهو يقول: (الغيب أوالباطن هو ما يحاوره النفري - منتصف القرن الرابع الهجري - وما يحاول أن يستقصيه إنه فضاء الكشف، من هنا تقتضي هذه

التجربة للتعبير عنها، كلاما يفلت في آن من المشترك العام، ومن العقل والمنطق. وبين النطق والصمت حيث الهوة التي يرى فيها قبر العقل وقبور الأشياء كما يعبر، يتحرك نص النفري ،صامتا في نطقه، وناطقا في صمته)
قد أتفق مع أدونيس إلى حد ما في اعتبار شعر النفري محاولة كشفية. أدونيس يعيش هنا حيث لا حدود ولا فكر ولا أرض ولا سماء، حيث تتراقص الحواس وتتبادل المقاعد، حيث يتحول الكون إلى كلمات وعواطف، ياله من كلام شاعري مغرق في الخيال والسحر، إنشائية تحلق في كل الاتجاهات لكنها تصاب بالشلل على أرض العلم، والخرس أمام الأرقام.. لا مكان لها في عالم العلم والعقل، إنشائية أدونيس هذه، هي سلاحه الوحيد الذي يجيده في نسف العقل، وتغييب الفكر.. ففي مساحات الإنشائية يستدرج أدونيس المغفلين وهم في حالة غيبوبة كي يملي عليهم كلمات هي من صميم الفكر والعقل، يملي عليهم مفاهيم وقناعات ليست من مجالات الشعر والعواطف والتهويم.. أدونيس يدرك جيدا أنه سيهزم بشكل مأساوي إذا قارع الإسلام ونصوصه الحجة بالحجة.
إذا فلم الغناء، فلتغب الحجج، وليغب العقل، وليرم بالعلم إلى الجحيم، فهي لن تسعفه في تبرير إيديلوجيته.. أدونيس يريد من الكلمات "فقط الكلمات" أن تحل محل ثروات العلم التجريبي وإنجازاته، وذلك حتى لا يجد خصمه نقطة التقاء أو أرضية مشتركة يمكن الاتفاق عليها، هو مأخوذ بالتهويم واللاعقل، لأنه يظن أنه بهذه الرؤية يتمكن من تحييد العلم وتزوير نتائجه وحقائقه، وبالتالي يتمكن من جعل الإيمان والكفر والإلحاد ترفرف كأشياء متناغمة في هذا الكون.
وما دام يعيش بهذه العقلية الفوضوية، التي تجعل التوحيد تشويها، والوثنية تناغما كما مر معنا، فإن النقاش العلمي معه نوع من العبث وإهدار الوقت، إنه يعيش في عالم اللافكر، حيث الغنوصية الحلولية النصيرية التي تمزق النظام والحلال والحرام، وتسمح بألوهية علي أو المسيح أو حتى الشيطان، هذه النظرة الغنوصية تشوه الكون والعلم وحتى الخيال، إنها نظرة قادرة على تمرير وتبرير التخلف والتقدم، والديكتاتورية والديموقراطية، بل وتبرير إرهاب الكنيسة ومحاكم التفتيش وعصر الفضاء في الوقت نفسه، هذه الرؤية "الحشاشية" لم تسقط كنيسة، ولم تنتج علمانية حقيقية، ولم تبر للعالم قلما، أو تقدمهم شبرا، إنها ثقافة التشبث بحياة لا عقل فيها، دون بحث في تفاصيل تلك الحياة، عزيزة أم ذليلة، بمباديء أم دون مباديء، بأخلاق أم دون أخلاق، وقد لخصها القرآن بقوله: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أي حياة، حتى ولو كانت في جحر.
تجاوز أدونيس لشعر البعثة والخلافة الراشدة، يجعلني أتساءل عن السبب الحقيقي، لاسيما والرجل مع الإبداع حتى الإزعاج، وهو دائما مايردد أنه مأخوذ بالشعر على غير مثال، عن شعر يضيء ولا يكرر، والإجابة لا يمكن كشفها والوصول إليها من قوله: (وإذا تجاوزنا العهد الإسلامي الأول – الذي لا أرى فيه شعرا مهما) فقط. فأدونيس مفكر وناقد وشاعر، ولكي يتبين موقفه لا بد من رؤيته

من خلال كتاباته في المجالات الثلاث: النقد والفكر والإبداع، عندها يمكن الخروج برؤية واضحة ونتيجة منصفة.

في عالم الفكر يكتب أدونيس قائلا: (أن الله في الأديان غير النبوية موجود في عمق العالم: ليس فوق أو فيما وراء وإنما هو ضمن وفي داخل، إنه محايثة وليس تعاليا، أما الله في الإسلام فهو وراء العالم في الخفي، في الغيب إنه المتعالي ، هكذا ينتج أن العالم بالنسبة إلى العقلانية غير النبوية هو الموجود الواضح، وأن الله هو الملتبس الفرضي، لذلك تلجأ دائما إلى إثباته أو نفيه بالأدلة والبراهين، أما بالنسبة إلى الإسلام فإن العالم هو الملتبس الفرضي، والدليل على وجوده هو الله، لا يمكن السير نحو الله في الإسلام انطلاقا من العالم، بل انطلاقا من الله، وفي هذا تتجلى أهم جوانب الخصوصية في الثقافة الإسلامية – العربية، وهي أنها صدور عن الغيب، والمعرفة هنا ليست إذن علمية أو اكتشافا، وإنما هي وحي وتذكر، وليست بالأحرى تساؤلا حول الله بل هي تمجيد له، ولعل في هذا ما يضيء الحدس اللغوي الإسلامي – العربي ويوضح مكانة اللغة العربية التي نطق الله بها، وبها سمى الأشياء – ٨١)

السياق هنا تنظير علمي، بحت لكنه مغلف بأسلوب أدبي جميل، وهذا يستدعي منا قراءة علمية تتجاوز الضبابية الأسلوبية، لأنه نص علمي كما أسلفت.

أول ما يفاجئني هنا، هو تلك التفرقة الجادة التي توحي بالموضوعية، إنها التمييز بين أديان نبوية سماوية في جانب، وأديان وثنية بشرية في الجانب الآخر. لنتذكر جيدا: أديان نبوية سماوية في جانب، وأخرى وثنية أرضية.

لكن سرعان ما يتحول الموضوعي إلى متعصب غريب، ألم تكن المعادلة قبل قليل أديان نبوية في جانب، وأديان غير نبوية في الجانب الآخر، فلم تحولت إلى: دين إسلامي في جانب، وبقية الأديان التي على الأرض من سماوية ووثنية في جانب آخر؟! إنه يقول : (أن الله في الأديان غير النبوية موجود في عمق العالم: ليس فوق أو فيما وراء وإنما هو ضمن وفي داخل ، إنه محايثة وليس تعاليا... ثم يقول: أما الله في الإسلام فهو وراء العالم في الخفي ، في الغيب إنه المتعالي)

الكلمة المفاجأة التي نسفت الموضوعي هي: (أما الله في الإسلام) فقط "في الإسلام".. هنا تنبعث الرائحة العفنة، الطرح هنا غير موضوعي، هو إيديلوجي متعصب مليء بالكراهية، وإلا فأين الله في اليهودية .. أين الله في المسيحية؟

أليس الدين اليهودي دينا سماويا نبوياً! أولم يتجاوز أنبياؤه العشرات؟ إنه أكثر أنبياء من الإسلام والمسيحية، فللإسلام وللمسيحية نبي واحد، أما اليهودية فأنبياؤها بالعشرات إن لم يكن بالمئات... كيف يتم تجاهل الله في اليهودية؟! أوليس اليهود العرب عربا قبل الإسلام وبعد الإسلام وما زالوا؟ بل إنهم يمثلون قيادات فكرية وحزبية مازالت ماثلة للعيان رغم تلاشيها!! أولم تؤسس الأحزاب الشيوعية العربية كلها على أيدي اليهود.. مثلا؟!

هل الحديث عن الله في اليهودية – بالنسبة لهذا الكاتب – معاداة للسامية قد تحرمه من الترشح لجائزة نوبل، أم فضيحة، أم هو ورطة لا يمكن الاقتراب منها، أم أن إله

اليهود تم تحويله إلى وثن، وما السياق الذي تحول به ذلك الدين النبوي إلى وثني/غير نبوي؟

أسئلة لن نحصل عليها أبدا، ولن يجرؤ هذا المفكر على طرحها أو التعامل معها، إنها السامية ذات السيف الصقيل، ومانحة الهبات والجوائز.

أين الله في الدين المسيحي أوليس دينا نبويا؟ بل هو دين – عند أتباعه – أكثر من نبوي، لأن ابن الله – حسبهم – هو الذي بلغه وبشر به، لماذا لم يتم الحديث عنه كما يفعل مع الإسلام؟ أوليس النصارى العرب عربا قبل الإسلام وبعد الإسلام؟ أولم يساهموا أدبيا وشعريا وإبداعيا قبل الإسلام وبعده وما زالوا؟ هل الله في المسيحية تحول إلى وثن بشري، أم تم تقسيمه إلى إلهي وملائكي وبشري في معادلة رياضية أعيت البشر كلهم: ١+١+١=١

وهل هناك إله ملتبس وغامض كما هو في المسيحية، أولم تمارس الطوائف المسيحية عمليات الاستئصال ضد بعضها – كما مر معنا وكما نقل جورج طرابيشي – لدرجة تجاوزت التكفير وإصدار الفتاوى – وهو عمل فكري – إلى حرق الكنائس ومن فيها من الكهنة – وهو عمل إرهابي- والطواف بأجساد الرهبان عارية بعد تقطيع أيديها وأرجلها، كل ذلك من أجل خلاف حول المسيح هل له طبيعتان أم طبيعة واحدة، وحول الروح القدس هل هو على درجة مساوية للأب والابن أم أقل، بل حول مريم العذراء هل هي أم للمسيح، أم أمٌ لله. أولم يطلق بابا الفاتيكان الجديد وثيقة تعتبر البروتستانتينية والأرثوذوكسية على غير خطى المسيح، أي أنها بدع لا يرضاها الرب، هذه الوثيقة لم تطلق في عصور الظلام والقرون الوسطى، ولم يباركها القائمون على محاكم التفتيش، بل أطلقها وأيدها وباركها البابا الجديدي عام (٢٠٠٧م)

فهل هناك إله بلغ من الالتباس والغموض مثل هذا الإله الذي لا يدري أحد هل هو واحد أم اثنان أم ثلاثة، وهل ولد أم خلق وهل له أمٌ أم لا. هل الحديث عن الله في المسيحية مخيف إلى هذه الدرجةعند أدونيس، مع أنه ثالوث ضد العقل والفلسفة والمنطق، ولا يمكن الوصول إليه عن الطريق العقل أو البرهان، بل ولا عن طريق الكون أو الاستدلال، والباباوات والقساوسة يطالبون أتباعهم بتعطيل عقولهم تماما عند الحديث عن الثالوث المقدس والاكتفاء بالإيمان وزم الشفاه. هل الحديث عنه مخيف لأنه حديث عن الإله المسيحي، وداخل بلدان الصليب الاستعمارية ومانحة الأمان والكراسي العلمية، وراعية الدراسات التشكيكية؟

ثم يمضي أدونيس في تعصبه وثنائيته الإيدلوجية المعلبة قائلا: (هكذا ينتج أن العالم بالنسبة إلى العقلانية غير النبوية هو الموجود الواضح، وأن الله هو الملتبس الفرضي لذلك تلجأ دائما إلى إثباته أو نفيه بالأدلة والبراهين، أما بالنسبة إلى الإسلام فإن العالم هو الملتبس الفرضي والدليل على وجوده هو الله، لا يمكن السير نحو الله في الإسلام انطلاقا من العالم، بل انطلاقا من الله. وفي هذا تتجلى أهم جوانب الخصوصية في الثقافة الإسلامية – العربية ، وهي أنها صدور عن الغيب، والمعرفة هنا ليست إذن علمية أو اكتشافا، وإنما هي وحي وتذكر، وليست

بالأحرى تساؤلا حول الله، بل هي تمجيد له، ولعل في هذا ما يضيء الحدس اللغوي الإسلامي – العربي ويوضح مكانة اللغة العربية: التي نطق الله بها، وبها سمى الأشياء)

مرة أخرى يتكرر الموقف الإيديولوجي ضد الإسلام، ويتكرر الحديث عن إسلام في جهة وكل أديان العالم في جهة مضادة، لكن هذه المرة بإسفاف لا مثيل له، هكذا وبسحر الكلمات يمكن تمرير الزائف على مستوى العقل وحتى الشعر: (الوثنية تلجأ دائما إلى إثبات إلهها بالأدلة والبراهين)

أجل هذا الرجل المتعصب يقول ذلك بكل صفاقة: الإله الوثني يثبته العقل والبرهان والمنطق؟ لو قال أدونيس: أن الوثنية تخلق إلهها عن طريق الطبيعة مثلا، لكان الأمر منطقيا، فالحوادث المتعددة المحيطة بالبشر جعلت اليوناني يعتقد أن لكل شيء إله، البحار لها إله والمطر له إله والزواج له إله وحتى الطلاق يمكن أن يكون له إله.. وهكذا، نظرا لسذاجة عقولهم وعدم تصورهم لإله قادر على كل شيء، لكن أن يكون إثبات وجود هذا الإله عن طريق الدليل والبرهان والمنطق، فهذا قول سخيف ممتلىء بالكراهية للإسلام والتوحيد، وهو واستغباء للقارىء بشكل مفضوح.. منطق سطحي لا يمكن أن يصدر عن مفكر ناهيك عن منظر، بل إن الفلاسفة اليونانيين وفي مقدمتهم أرسطو سخروا من العقيدة الوثنية اليونانية، وشكلوا ثورة عقلية ضدها، وقد توصلوا إلى التوحيد عن طريق استخدام العقل، ونسفوا الوثنية بالعقل، والفيلسوف اليوناني فرفريوس وهو من أواخر فلاسفة اليونان، سخر من الكتاب المقدس والقساوسة وفند حججهم وسخر من عقولهم.

وفي المقابل فالكل يعلم أن بوذا كان رجلا مميزا، تحول إلى إله بالتقادم، ومثله عيسى بن مريم، وعلي بن أبي طالب، وقبلهم ود وسواع ويعوق... بل والشيطان أيضا، ناهيك عن بقر الهندوس ونار المجوس، فهل من يعبدون تلك المخلوقات ومنهم طائفة أدونيس.. هل هؤلاء أثبتوا ألوهية هذه المخلوقات بالدليل والمنطق والبرهان العلمي. ليس أنا من يقول هذا. أدونيس يقول بالحرف الوحد: (العالم بالنسبة إلى العقلانية غير النبوية هو الموجود الواضح وأن الله هو الملتبس الفرضي، لذلك تلجأ دائما إلى إثباته أو نفيه بالأدلة والبراهين)

شيء مخجل أن يصدر هذا الكلام عن أحد أبرز رموز الحداثة العربية، أما ما يثير الدهشة والغرابة فهو الحديث برومانسية مغرقة حول الإله الوثني، وأنه جزء من العالم يعيش في أعماقه ويتفاعل معه، إنه إله لطيف غير متعال ولا متكبر ولا وراء العالم ولا قبله. قمة التناقض!

عندما نتخلى عن الرومانسية متجهين إلى شخوص هذا الإله وأشكاله سنجد أنه يتجسد في تلك البقرة الهندوسية العجفاء، التي تتسكع في شوارع دلهي وبومبي بين أطنان المزابل والأوساخ، إنها بقرة لطيفة ليست قبل العالم ولا بعده ولا خارجه ولا متعالية عنه، إنها إله ملتبس فرضي يتم إثبات ألوهيته عن طريق العقل وبالأدلة والبراهين، هي أدلة جمعها مليار هندوسي، ولما أتموا جمعها وجدوا أن

ذلك الإله لا يمكن الاقتراب منه، لأنه قد مات وتعفن والرائحة المنبعثة منه لا تسمح بالاقتراب، وربما عبدوا تلك الرائحة.
الإله الذي يقول عنه أستاذ الحداثة بأن العلم يؤدي إليه.. هو تلك الفئران والأوزاغ التي يلاحقها عابدوها، أو تلك الحجارة التي ينحتونها.
يالها من أدلة وبراهين تلك التي أثبتت بها قريش ألوهية هبل واللات والعزى.
وثنية تخاف من النهر فتعبده، وتحترق بالشمس فتعبدها، وتعجب بقمة الجبل فتعبده، وتتشاءم من طير فتعبده، وتتفاءل بطير فتعبده، وتظن أن الكوكب الفلاني يحيي والكوكب الفلاني يميت. كيف أمكنه وضع هذا الهراء في خانة الكلام العلمي؟!!! إنني أشك في جيب كاتبه كلما قرأته، إن كاتبه ليس مخترعا ولا مكتشفا ولا تجريبيا- طبيبا أو جيولوجيا أو فلكيا.. هو ليس محسوبا على أصحاب التخصصات العلمية التجريبية، التي يتحدث عن قدرتها على إثبات الألوهية بالأدلة والبراهين العلمية. هو باختصار أديب ولا اعتراض في ذلك، لكنه يتحدث هنا بلغة علمية بحتة لا علاقة لها بالأدب، إنه يقول: (غير النبوية تلجأ دائما إلى إثباته أو نفيه بالأدلة والبراهين.... لا يمكن السير نحو الله في الإسلام انطلاقا من العالم ، بل انطلاقا من الله)
بتبسيط شديد هو يقول أن الإله الوثني غير واضح، أما الكون فهو واضح، لذلك فعن طريق التأمل بالكون واكتشافه يتم اكتشاف هذا الإله الوثني واختراعه.
أما الدين الإسلامي فالكون بالنسبة لأتباعه – كما يقول أدونيس – مجهول، أما الله فهو معلوم، ولا يمكن إثبات الكون إلا عن طريق الله، يعني أن العقل مقتول في الإسلام، وبدلا منه جاء القرآن ليقول للإنسان: لا داعي لأن تفكر في الكون، لأنك لن تصل إلى الأيمان بالله عن طريق التفكر بالكون واكتشافه، بل لا داعي لأن تفكر في الكون، دع المهمة للقرآن هو الذي سيخبرك عن علم الفلك والطب والبحار وغيرها من العلوم التجريبية.
هذا الكلام ليس له علاقة بالشعر والحدس والأدب، لا علاقة له بالرومانسية والرمزية ولا حتى بالسوريالية، هو كلام علمي، ويحتاج إثباته إلى أدلة علمية وعلماء تجريبيين متخصصين في الكون واكتشاف الكون، عن طريق الأجهزة والمعامل والمركبات والتلسكوبات والميكروسكوبات، ولا يمكن اكتشافه بأدوات هذا الكاتب، لأن أدواته هي: الموسيقى الهادئة مع فنجان قهوة وسيجارة أو كأس خمر وأكداس من الأوراق، وسلة كبيرة للمهملات، وأوراق رخيصة كي يتم ملؤها بهذا الهراء.
تلك عبارات علمية تم حشرها بين كلمات أدبية ساحرة لا أكثر، وما دام الأمر كذلك فلا يمكن للأديب أن يتحدث باسم العلم، ولا للعالم باسم الأدب، وهذا الحداثي العلماني انتقل إلى ساحات العلم ليمارس أساليبه الأدبية بين المعامل والمختبرات، محاولا ممارسة تغيير النتائج العلمية وقلبها فهل سينجح.
لقد قال ما قال وهاهم العلماء الغربيون التجريبيون يحدقون به، وهو يمارس سطوا على منجزاتهم، ويحاول تزييف الحقائق التي توصلوا إليها، لو سألناهم هل صحيح

ما يقوله هذا المشعوذ أنه: (لا يمكن السير نحو الله في الإسلام انطلاقا من العالم، بل انطلاقا من الله)؟

سنجد هؤلاء العلماء – كما سأنقل أقوالهم لاحقا – يقولون: إن الدين الوحيد اليوم الذي يقودك إلى الله انطلاقا من العالم هو الدين الإسلامي. هؤلاء العلماء التجريبيون يقولون أيضا: إن الكون نفسه لا يمكن أن يقودك إلى أي دين على الأرض اليوم، إلا إلى دين واحد هو الإسلام فقط، بل لو افترضنا أن الإسلام غير موجود، لما أمكن ترجيح دين على دين في علاقتها بالكون. الشيء المدهش في الإسلام أنه يقودك مرة أخرى إلى الكون.

أما المحير والسيء فهو في أن أدونيس أراد أن يكحلها فأعماها، أراد أن ينأى بالعقيدتين- اليهودية والمسيحية عن تهم ابتكرها للإسلام، فحشر – من حيث لا يعلم – هاتين الديانتين ضمن الديانات الوثنية البشرية، ولم يدرك أنه أساء إليهما إساءة قد تغضب فرنسا (أم الكنيسة) وإسرائيل (أم السامية وراعية السلام) فليتنبه في المرات القادمة. وبعيدا عن إنشائية أدونيس وألعابه اللفظية، تشتد الحاجة إلى العلم والعلماء التجريبيين.. حيث العلمانية الحقيقية، التي تمكنت لوحدها من إسقاط الكنيسة ورجال الدين، فما هي تجربة العلمانية الغربية مع المسجد ولمن حسمت نتيجة المعركة – إن وجدت – بينهما؟

عندما يتحدث العلماء والعلمانيون الحقيقيون

هناك كون، وهناك أديان، وهناك علم يستند إلى التجربة والعقل والبرهان، والعلمانيون الذين يحترمون عقولهم في الغرب ينحازون إلى العلم والعقل، فهما اللذان أسقطا الإنجيل والكنيسة وهمشا الوثنية. لنتأمل هذه الأسماء وهذه العناوين لندرك سطحية الطرح الأدونيسي:

البروفسور (كيث.ل.مور) أستاذ علم الأجنة في جامعة تورنتو. كندا. يكتب رسالتين: (نظرة في تاريخية علم لأجنة – مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق البشري).

الطبيب الفرنسي الشهير الدكتور (موريس بوكاي). يؤلف كتابه الأشهر (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف العلمية الحديثة).

البروفسور (أ.مارشال جونسون) كلية جيفرسون الطبية. فيلادلفيا. الولايات المتحدة الأمريكية يؤلف رسالة علمية بعنوان (وصف التخلق البشري، مرحلة النطفة)

البروفسور (ت.ف.ن.برسود) جامعة مانيتوبا وينتج مانيتوبا يؤلف رسالة بعنوان: (توافق المعلومات الجنينية مع ما ورد في الآيات القرآنية)

وقائمة بيضاء من العلماء التجريبيين منهم:

البرفسور (جولي سمسون) أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية.

البروفيسور (ج. س. جورنجر) أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن.
البروفيسو (برسود) رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا.
البروفيسور (تاجات تاجاسون) رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة شاينج ماي بتايلاند وعميد كلية الطب بها.
البروفيسور (ألفريد كرونر) من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا اشتهر بين العلماء بنقده لنظريات أكابر علماء العالم في علم الجيولوجيا.
البروفيسور (يوشيودي كوزان) مدير مرصد طوكيو.
البروفيسور (بالمار) من أشهر علماء الجيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، كان رئيس اللجنة التي أشرفت على الاحتفال المئوي للجمعية الجيولوجية الأمريكية.
البروفيسور (سياويدا) من أشهر علماء جيولوجيا البحار في اليابان، وهو من العلماء المشاهير كذلك في العالم.
البروفيسور درجا (برساد راو) أستاذ في علم جيولوجيا البحار، جامعة الملك عبد العزيز بجدة.
البروفيسور (شرويدر) من علماء البحار في ألمانيا الغربية.
البروفيسور (هاي) من أشهر علماء البحار في أمريكا.

هذه نخبة من أبرز رجالات العلم التجريبي في آخر وأزهى عصوره، علماء غير مسلمين يجمعون على أن النص الديني الوحيد في هذا العالم، الذي يستحق صفة النص الإلهي هو (القرآن) استنادا إلى ما قدمه من معلومات خارقة، لا يمكن للعقل البشري أن يصل إليها في فترة نزوله على محمد.
فمن هو أدونيس أمام هؤلاء العمالقة ليتحدث عن علاقة العلم بالدين، وما هو أدونيس أمام كشوفاتهم التي يتلهف العالم ويتسابق للحصول عليها.. أترك الإجابة للقاريء، أما هؤلاء العلماء فستكون لنا وقفة تفصيلة معهم ومع كشوفاتهم المذهلة لاحقا.

أدونيس سياسياً

في الشأن السياسي.. لم يتمكن أدونيس من التخلص من باطنيته الغنوصية وأيديلوجيته الطائفية، ففي أول أسطر كتابه (الثابت والمتحول) يقول كلاما خطيرا يؤسس عليه رؤيته لفهم التاريخ السياسي الإسلامي فيقول ص١: (في الخلافة ومسأليتها مفتاح أول لفهم التاريخ العربي، فهي ليست نقطة اللقاء بين الدين والدنيا فحسب، وإنما هي كذلك رمز لسيادة الدين على الدنيا ولممارسة هذه السيادة، أن يتولى المسلم منصب الخلافة هو أن يكون خلفا للنبي بمعنى ما، وأن يكون قائما بأمر الله، مؤتمنا على تنفيذ أحكامه، ثم يقول أدونيس: لكن المفارقة أن

النبوة/الملك تأسست والنبي يحتضر في مناخ اقتتال، بل يمكن القول أنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف: الأقوى لا الأحق هو وارث النبوة/الملك، أو هو الخليفة) وهنا لا نجد إيدلوجية أدونيس مكشوفة كما هي أمامنا.. في هذه العبارات التي بدأ بها أهم كتبه (رسالته لنيل الدكتوراه).

أدونيس هنا طائفي حتى النخاع، ومتحيز إلى مستوى التعصب، بل وجاهل في التاريخ لدرجة مزعجة، إنه يقول (المفارقة أن النبوة/الملك تأسست والنبي يحتضر في مناخ اقتتال، بل يمكن القول أنها تأسست بمبادرة شبه انقلابية، أي بشكل من أشكال العنف: الأقوى لا الأحق هو وارث النبوة/الملك، أو هو الخليفة) هذه الكلمات التي يطلقها بفوضوية، ودون أدنى مسئولية تجعلني في حيرة من أمر هذا الرجل، هل قرأ هذا الرجل التاريخ أم لا؟

ألا يدرك صاحب الأحكام الطائفية الجاهزة هذا، أن الخلافة تأسست في مناخ بشري، أي مناخ اختلاف واجتهاد، والاجتهاد لا يولد إلا في فضاء من الحرية، تطرح فيه وجهات النظر المتعددة والمختلفة، فالصحابة ليسوا ملائكة، كما أنه ليس هناك نص قاطع في اختيار الخليفة أو تحديده، فالأمر منوط بالأمة، وقد جرت الأحداث بشكل راق جدا ومتحضر، إذا ما قورن بالعصر الجاهلي الذي لم يعرف العرب فيه مفهوم الخلافة، ولا حتى الدولة، بل هو متحضر جدا إذا ما قورن باختيار الزعيم في النظام العربي العلماني، بل هو من جهات أخرى متفوق على النموذج الغربي كما سيتبين لاحقا. وهذه هي القصة التي وصفها أدونيس بمناخ اقتتال، أنقلها مخرجة من كتابي (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة – قراءة جديدة) مع بعض التصرف:

عمر يرفض التصديق بوفاة النبي ﷺ

قام عمر بن الخطاب يخطب غاضباً فيمن حوله ومهدداً من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات، فطلبوا من رجل من أهل الصفة اسمه سالم بن عبيد أن ينادي أبا بكر، فقد اشتد غضب عمر حتى لقد قال من شدة الصدمة (لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. فسكتوا وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله. قالوا: يا سالم.. اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه.

قال سالم: فخرجت فوجدت أبا بكر قائماً في المسجد. قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. فوضع يده على ساعدي ثم أقبل يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد مات فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون)[1]. وصل أبو بكر من بيته الذي يقع في مكان شرقي المدينة يقال له (السنح) (أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد. ونبيط بن شريط صحابي ونعيم بن أبي هند تابعي ثقة: التقريب ٢-٣٠٦ وتلميذه تابعي ثقة التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة: التقريب ١-٢٠٣ وقتيبة ثقة ثبت.

يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها)[٢] ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذه الجموع المفجوعة بنبيها فشاهد عمر يهدد من يقول أنه مات، ويهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم، فرجع بعضهم عن النفاق، لكن كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم، كان ظرفاً ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ وأكثرهم صحبة له، خرج أبو بكر بهدوئه المعروف ليزيل عن العقول كلمات عمر وتخاريف الفاجعة، أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله فأفاقت العقول ورضيت بقضاء الله، لم ينههم عن الحزن والبكاء ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف والانجراف في تيارها فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة.

تقول عائشة: (فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً. ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك [خرج وعمر رضي الله عنه يكلم الناس فقال: اجلس. فأبى، فقال: اجلس. فأبى، فتشهد أبو بكر رضي الله عنه، فمال إليه الناس وتركوا عمر][٣] فلما تكلم أبو بكر جلس عمر فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال: (إنك ميت وإنهم ميتون) وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) فنشج الناس يبكون)[٤] بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة وأفاق مما هو فيه من صدمة، كان ابن عباس هناك وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر فقال: «والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[٥] كان أبو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة والأزمات، أعاد الأمة إلى صوابها وقال لها في غياب نبيها المفجع، إن هذا النبي الحبيب مازال بشراً، وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، فلم يبق سوى الصلاة عليه واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله)[٦] أما عمر رضي الله عنه فكان أكثر المتأثرين بتلك الآيات وبخطبة أبي بكر لدرجة أنه سقط

---

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

(٣) صحيح البخاري ١-٤١٩.

(٤) صحيح البخاري ٣-١٣٤١.

(٥) صحيح البخاري ٤ – ١٦١٨ .

(٦) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.

على الأرض من شدة التأثر. يقول عمر: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات)(٧)

كانت تلك اللحظات شديدة الدقة والخطورة، فقد فارق النبي ﷺ الدنيا وهي مصيبة ما بعدها مصيبة، كما كان هناك أيضاً الفراغ السياسي الرهيب الذي تركه من بعده، حيث إن الأمة اليوم دون قائد. هذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائداً عظيماً، فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب، بل نبي يأتيه الوحي من السماء وتحمله الأمة كلها في قلوبها.

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ، بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام إلى بيت فاطمة، في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولاً بالأمة، والأمة مشغولة بحزنها على نبيها، لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة، فقد انطلق إلى حيث أخوانه الأنصار المجتمعين، بعد أن سمع باجتماعهم خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها، أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً، ولما وصل أبو بكر وجدهم قد التفوا حول رجل مريض وقد غطوه، كان ذلك الرجل هو الصحابي الأنصاري سعد بن عبادة، أحد قادة الأنصار، وهم يريدون مبايعته بالخلافة، لكن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر في ذلك المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون، والمسمى بـ:

سقيفة بني ساعدة

توجه مع أبي بكر وعمر شاب من أهل بيت النبي ﷺ هو عبد الله بن عباس، الذي يقول إن عمر بن الخطاب قال: «كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر.. انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار [فاجتمع المهاجرون يتشاورون، فبينا هم كذلك يتشاورن إذ قالوا: فانطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار فإن لهم في هذا الحق نصيباً] فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار. فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك. فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم وكنت قد

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

زورت مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك. فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت. فقال: ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش.. هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن. فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف. [قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: [سيفان في غمد واحد إذاً لا يصطلحا] يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه](8). [قلت: يا معشر الأنصار.. يا معشر المسلمين.. إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار أبو بكر السباق المتين [من هذا الذي له هذه الثلاث:

إذ هما في الغار. من هما؟

إذ يقول لصاحبه. من صاحبه؟

لا تحزن إن الله معنا. مع من هو؟

فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما فقال: بايعوه فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها] ثم أخذت بيده وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده](9) فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. فقلت: قتل الله سعد بن عبادة. قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذي بايعه)(10)

---

(8) سند الزيادة حسن رواه أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن ابن مسعود وعاصم بن أبي النجود إمام حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث ابن عبيد السابق.

(9) سند الزيادة صحيح رواها ابن إسحاق ومن طريقه الضياء في المختارة ٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر. عبد الله بن حزم الأنصاري تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين: التقريب ١-٤٠٥ وبقية السند سند البخاري والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

(10) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

كل هذه الأحداث جرت بسرعة ، وبدقائق معدودة في يوم الاثنين الذي مر بحزن وسلام، فقد أصبح للدولة الإسلامية قائد جديد وللمسلمين إمام كفوء لقيادتها. تقبل الأنصار قيادة أبي بكر المهاجر إلى أرضهم لأنهم رجال تثقفوا بالكتاب والسنة وآمنوا بالله ورسوله، ورضوا أن يؤمهم رجل ارتضاه لهم النبي ﷺ وهو حي بين أظهرهم، فيكف لا يرضونه بعد مماته،

وهنا أطرح سؤالا ملحاً: هل كان الأنصار أهل الأرض والمال والسلاح والعدد والعدة ليقبلوا رجلاً من غيرهم لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة؟

بل هل كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيماً من الخزرج أو العكس، لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم الخشبية الوثنية التي يحتفي بها أدونيس، ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة، ثقافة الأصنام التي جعلتهم يقتتلون عشرين عاما من أجل حصان.

أما أبو بكر فلم يشغله حزنه على نبيه عن مسؤوليته الضخمة تجاه أمته، فهذا الرجل العظيم هو الذي أعاد للمفجوعين رشدهم، وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه عليه السلام إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعاً، فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات بعد أن استقر الوضع السياسي ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ. وتمضي شمس الإثنين تحمل الفتنة جثة هامدة.

وجاء يوم الثلاثاء

وقبل أن يصلي أبو بكر في الناس صلاة الصبح قام عمر فتوجه إلى المنبر مخاطباً الصحابة، ومعتذراً عما بدر منه بالأمس من أقوال، وداعياً بقية الصحابة لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه: يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ، فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم، قال عمر: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا – يريد بذلك أن يكون آخرهم – فإن يك محمد ﷺ قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين فإنه أولى المسلمين بأموركم فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر)(١١) وبعد أن انتهى عمر من خطبته نزل عن المنبر وطلب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض فلم يزل عمر يلح عليه حتى صعد، يقول أنس: (سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة)(١٢) (فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة [فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً رضي الله عنه، فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسول

(١١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(١٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

الله ﷺ وختنه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ. ثم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه فسأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله. فبايعاه] فتكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال:

أما بعد أيها الناس.. فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله رسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[(١٣)] فنهض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر في يوم امتزج فيه الأسى بالطمأنينة. فرسول الله ﷺ مازال مسجى لم يدفن بعد، والأمة قد اجتمع أمرها على خليفة لرسول الله.

هذه الأحداث وتلك الخطبة القصيرة جدا تبين تميز النموذج الإسلامي السياسي الراقي الذي يتهمه أدونيس بأنه انقلاب، وأن الذي حكم فيه هو الأقوى لا الأحق.

وقبل الحديث عن الخطبة لا بد من كشف تعصب أدونيس ضد انتخاب أبي بكر، فهو يقصد أن أبا بكر هو الأقوى لا الأحق، ولا أدري من يقصد بالأحق.

بالتأكيد كان يقصد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أهل لها كما كان أبو بكر وعمر وعثمان أهل لها. فلنعد للقصة بأسانيدها الصحيحة، ووثائقها لا لتخاريف القصاصين أمثال الأصفهاني وابن عبد ربه، أو المؤرخين أمثال السيوطي في تاريخ الخلفاء وابن قتيبة في الإمامة والسياسة، حيث لا يوجد سند لتلك الروايات المحشورة فيهما ولا ذكر فيها للمصادر.

يقول أدونيس أن الخلافة تمت بمؤامرة، ولا أدري أين المؤامرة وعمر كان يتوعد ويهدد من يقول: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قد مات، لو كان عمر متآمرا لكان أول من أعلن وفاة النبي ﷺ، لتنفيذ تلك المؤامرة.

أين المؤامرة وأبو بكر كان في بيته البعيد بدلا من المرابطة في بيت ابنته إذا كان يخطط لمؤامرة.

أما أكذوبة أدونيس وفضيحته، والتي تبين مدى تصحره المعلوماتي والتحليلي عما جرى في السقيفة، فهي في قوله أن الذي تولى هو الأقوى.

فأي قوة لأبي بكر يزعمها أدونيس، وعلى أي مستوى؟

---

(١٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٨٢ حدثني الزهري حدثني أنس. الزهري رأس طبقته ومابين المعقوفين سند صحيح رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ والاعتقاد ١-٣٥٠ من طرق وهيب ثنا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سعيد. أبو نضرة اسمه المنذر بن مالك تابعي ثقة: التقريب ٢-٢٧٥ وداود تابعي صغير وثقة متقن: التقريب ١-٢٣٥ وتلميذه ابن خالد بن عجلان ثقة ثبت التقريب ٢-٣٣٩.

أعلى مستوى قريش؟ عائلة أبي بكر هي الأضعف على الإطلاق بين عائلات قريش، فهو ينتمي إلى تيم، وتيم هي الأضعف بين بيوتات قريش. أما عمر فبيته ضعيف أيضا، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ عندما أراد أن يبعث عمر إلى قريش، لكي يسمحوا له بأداء العمرة، أخبره عمر أن عثمان بن عفان أعز منه بيتا وأكثر منعة وقوة، حيث ينتمي إلى البيت الأموي الذي يتزعمه أبو سفيان.

وهذا هو نص الخبر: (دعا ﷺ عمر ليبعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله.. إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان، فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته، فخرج عثمان بن عفان حتى أتى مكة، ولقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن دابته، وحمله بين يديه، وردف خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش)(١٤).

العباس وعلي أيضا كانا ينتميان إلى البيت الأقوى في قريش بعد بني أمية (عائلة أبي سفيان)، إذاً فقد سقط ادعاء أدونيس على مستوى قريش، بأن الذي تولى هو الأقوى لا الأحق. ولو أحلنا ادعاءه على مستوى عاصمة الدولة باعتبار أن قريشا تمثل كتلة واحدة رأسها – افتراضا – أبو بكر الصديق، وهي – جدلا - الأقوى لكان هذا الافتراض أكثر هزالا من الأول، للأسباب التالية:

قريش لم تبادر إلى إعلان مرشحها، بل كانت مشغولة بوفاته ﷺ.

قريش كانوا ضيوفا على أهل المدينة الأصليين (الأنصار).

الأنصار هم الأقوى عددا وعدة بحكم أنهم من ناصر النبي ﷺ واحتضنوه وآووه لا العكس.

الأنصار على أرضهم بعكس قريش.

الأنصار فرضوا مرشحهم فرضا وليس اختيارا.

بعض الأنصار أعلن استعداده لشن الحرب وفرض المرشح بالقوة.

أبو بكر استخدم أسلوب الوعظ والعاطفة، فنجح في تخفيف حدة التوتر فقط، ورضي الأنصار بمرشح يمثل المهاجرين مع مرشح الأنصار.

عمر استخدم اسلوب الإلزام والحجة، ولم يتحدث عن القوة إطلاقا، فتنازل الأنصار عن مرشحهم مباشرة.

كل هذا جرى دون أن يحدد المهاجرون مرشحهم.

لم يقدم أحد من المهاجرين نفسه زعيما، بل تنازل كل واحد عن ترشيح نفسه.

ومما يفضح تعصب أدونيس واحتقانه للكراهية للسنة وأهلها، تغاضيه (وهو الذي أزعجنا بمقولة البحث عن الجدة والحداثة) عن الجدة في طريقة انتخاب أبي بكر، فهي حداثة على مستوى الدنيا، ولم تسبق إليها أي أمة من الأمم، فالتاريخ لم يعرف أمة قبل الخلفاء الراشدين قامت باختيار زعيمها بناء على إنجازاته وتميزه

---

(١٤) حديث حسن وهو جزء من حديث أحمد وهو حسن وقد مر معنا (٣٢٣/٤).

ومعاناته في مصلحة الأمة، والتاريخ لم يعرف انتخابا لزعيم بناء على تفوقه في الصلاح على بقية الأمة، وبناء على خطاب إلهي لم يقله بشر حتى يتهم بالتحيز لطرف على طرف.
مما سبق يتبين أن أدونيس مثقل بإيدلوجية طائفية متطرفة.. تجعله يلقي أحكامه الجاهزة جزافا ودون توثيق، وكأنه يسوق تلك الإيديلوجية ويروجها من خلال اسمه في عالم الأدب، فهو يمارس سلطة الدراويش على مريديهم. أو سلطة الآيات على مقلديهم، ومما يكشف تحيزه عدم تناوله لخطبة الصديق تحديدا وللعهد الراشدي، وهو تطبيق عملي للتشريع الإسلامي مكتنز باجتهادات لم يرتق أي علماني عربي للاقتراب من مستواها، كما لم يتطرق لاختلاف النموذج الإسلامي النبوي والراشدي عن النهج الغربي بشقيه العلماني والثيوقراطي، ولو تطرق لكشف مدى تخلف النموذج العلماني العربي، الذي يعاني من التيه والضياع والتمزق بين شعاراته ونزواته.
بدأ أبو بكر خطبته بقوله: (أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم)
أبو بكر يبين موقعه لا تواضعا ولكن كما يؤمن هو به، وكما يضعه فيه الإسلام، فهو لم يتول الحكم بل ولاه الناس وانتخبوه، وهو لم يقم بانقلاب عسكري، ولم يرثه عن والده، ولم يزعم أن له حقا في هذا المنصب دون غيره، ولم يزعم أن له حقا إلهيا فيه، ولم يزعم أنه ثمن لصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، بل إنه رفضه في بادئ الأمر. لقد تولى الحكم رغم شعوره الذاتي الذي غرسه الإسلام في أعماقه، بأنه ليس خير من في هذه الدولة، رغم شعور الأمة بعكس ذلك، والخيرية هنا ليست للقيادة العسكرية أو السياسية فقط بل تشمل الخيرية في القرب من الله.
ثانيا : يقول أبوبكر: (فإن أحسنت فأعينوني)
وهنا نجد استثمارا لكل مجهود أو مشروع ناجح، وإيقاظا لكل طاقة تفعل الحياة وتدفعها نحو الأمام، نجد أن أبا بكر ليس عودة للوراء بل نقلة للأمام.
ثالثا : قال أبو بكر: (وإن أسأت فقوموني)
خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يعيش في القرون الوسطى يفوض الأمة جميعا أن تقوم بمهمة لا تتوفر في الديموقراطية الغربية، ولا تعرف عنها العلمانية العربية شيئا، فالتقويم هنا لا يعني المعارضة للمعارضة كما يحدث بين الأحزاب المتصارعة داخل الفضاء الديموقراطي، ولا التربص للثورة بانقلاب أحمر كما تجيده العلمانية العربية. إنه العودة للخط البياني المتصاعد، إنه احتساب بكل الصور موجه لرأس الدولة مهما كان اسمه ورسمه، وهو يعني تلاشي الأكذوبة العلمانية العربية التي تحاول إلصاقها بكل توجه إسلامي للحكم، بدعوى أن الحكم بالإسلام اختطاف للدين وحكم باسم الرب، أبو بكر هنا لا يحكم باسم الرب، بل يحاكمه الفقير قبل الغني، والمواطن العادي قبل المسؤول، تحاكمه الأمة كلها بنص الرب، وتقومه بنص الرب، النص هنا لا يقدس الزعيم ولا يؤلهه ولا يخدمه، النص بيد كل الشعب لمحاسبة قائد الشعب وتقويمه.

ثم يقول: (الصدق أمانة والكذب خيانة): وهذه المفاهيم الأربعة التي أكدها أبو بكر سياسيا ودينيا واجتماعيا في القرون الوسطى، هي معضلة العلماني العربي في العصر الحديث، تأملوها جيدا .. أفركوا عقولكم وأعينكم جيدا: الصدق والأمانة والكذب والخيانة. لندرك سبب وصول الأمور بنا إلى هذا الحضيض.
أما قوله: (والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله) فقد تمكن العلماني من تحقيقها في هذا العصر، بل تفوق على أبي بكر فيها، ولكن على مستوى الشعارات والخطابات الرنانة المصحوبة بالتصفيق الحاد من الجماهير، التي لم تجن سوى احمرار الكفوف وبحة الحناجر.
بل إن العلماني العربي كان أكثر جزما بتحقيقها، لأن أبا بكر كان في القرون الوسطى يعتمد في تحقيق ذلك على الله أولا، ثم مجهوده الإداري واجتهاده واستشاراته للأمة، أما العلماني العربي فهو واثق لدرجة أنه لا يحتاج إلى الله عز وجل، بل يرى أن كلمة إن شاء الله تأخذ وقتا يمكن استغلاله في الإصلاح والاستثمار والإبداع.. العلماني العربي لا يحتاج إلى أن يقول إن شاء الله فهو ليس بحاجة إلى الله.
ثم يقول أبو بكر: (لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل)
في تلك القرون الوسطى وبين أعظم دولتين في العالم آنذاك بشريا وعسكريا: الدولة الرومانية والتي تبلغ مساحتها وقوتها عشرات أضعاف دولة أبي بكر، بالإضافة إلى دولة فارس التي تمكنت أكثر من مرة من هزيمة دولة الروم.
بين هاتين الدولتين وغيرهما يقول أبو بكر كلماته تلك: لا ليعلن أنه جبهة صمود وتصدي في وجه تلك الإمبراطوريات، ولا ليهدد برمي الروم في البحر، أو ليحرق نصف فارس بالغازات السامة كما خدرنا العلماني العربي الفصيح في هذا العصر، حيث حولت دولة اليهود عتاد الأول إلى مجمع للخردة والنفايات، وقسمت دولة الآخر إلى أثلاث ثم اجتاحت بلاده واحتلتها وأجاعتها ودمرنها وحولتها إلى دولة طائفية تسر عيني أدونيس.
وقد فعلت العلمانية الغربية ما فعلت من جرائم في استعمارها لبلادنا العربية تحت شعار نشر الديموقراطية وحقوق الإنسان.
لم تكن كلمات أبي بكر شعارات، ولم تكن موجهة إلى عدو محدد بل لم يكن هناك عداء لأحد، كان أبو بكر صاحب رسالة، وكان هناك أشياء ووسائل يؤمن بها لإيصال تلك الرسالة أحدها الجهاد، ولم يكن الجهاد موجها ضد أحد، بل كان موجها لحماية تدفق الرسالة الإسلامية، التي هي حق لكل إنسان يدب على هذه الأرض، وليس من حق أي دولة في العالم منع تدفقها أو إيقافها، لا سيما والعالم لا يعرف في تلك العصور مفهوما للسيادة والحدود الجغرافية، فهي خاضعة للمد والجزر حسب قوة الدولة أو ضعفها.
كانت الأمة الإسلامية آنذاك لا تملك أن تقدم للعالم تقنية ولا صناعة ولا زراعة، ولم تبن مدرجات أو أهرامات، أو تقدم للعالم كتابا في الفلسفة، هي كحالنا اليوم.. لا

تملك سوى رسالة الإسلام، لكنها في هذا العصر الحديث وتحت قيادة العلماني العربي لم تفشل في إيصال هذه الرسالة، بل نجحت في تشويهها بممارسته. أما أبو بكر فنجح في القرون الوسطى في نشر هذه الرسالة، بل وفي محو ظلم الدولة الفارسية الوثنية وإزاحة طغيان الدولة الرومانية عن نصف مساحاتها.

كان أبو بكر صادقا أمينا، لذلك فإن أمتنا في عصره – القرون الوسطى – عاشت عزيزة أبية يحسب لها ألف حساب، أما في هذا العصر والذي تلاشى فيه الصدق والأمانة والجهاد على يد العلماني العربي، فقد تحققت كلمات أبي بكر عندما قال: (لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل) وأي ذل أشد من احتلال أفغانستان والعراق وفلسطين والشيشان والصومال والبقية قد تكون في الطريق.

ثم يقول أبو بكر في القرون الوسطى: (ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء) أما العلماني العربي فقد تفنن في إشاعة ذلك، لأنه تخصصه الوحيد الذي برع فيه وأبدع وتألق.. إنه الشيء الوحيد الذي ينافس به العلماني العربي أستاذه الغربي، فقد أقام المراقص والخمارات و الحانات ومصانع الخمر، كما أبدع في تلويث فضاء الأمة بمحطاته التي لا تجيد سوى تسويق ثقافة واحدة (ثقافة الجسد الأنثوي)، أما كلمات أبي بكر فقد كذبها العلماني العربي، وصدقها العلماني الغربي الذي كان صادقا مع نفسه ومع الآخرين، فأخرج لنا إحصائيات تقول أن إشاعة الفاحشة تتسبب يوميا باغتصاب فتاة كل ثلاث دقائق تقريبا في أقوى و(أرقى) دول العالم، أما قوائم المصابين بالإيدز فأصبحت مخيفة لدرجة أن هناك دولا تقدم المليارات لمحاربة ذلك المرض وعلاجه، أسوة بدول أخرى اجتاحتها الحروب الأهلية أو المجاعة أو الكوارث، ولدرجة أن يعلن الأمين العام للأمم المتحدة أن الإيدز أسرع فتكا من جهود العالم المتحضر في محاصرته.

أما أحد رموز العلمانية العربية فيعلن أمام القمة الأفريقية أن الإيدز مجرد صديق لا مبرر للخوف منه، فليستمتع الجميع بفواحشهم.

وأخيرا يقول أبو بكر كلمات قد يقولها الجن، وقد ينطق بها الحجر والشجر إلا العلماني العربي، يقول أبو بكر : (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)

وقد نفذ أبو بكر في حروب الردة وفي إرسال جيش أسامة كلا الأمرين، فقد أرسل جيش أسامة لصد الروم رغم ردة الكثيرين من الجهلة والمتعصبين عن الإسلام، ورغم كثرة جيش الروم، لأن هذا الجيش كان معدا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن ينقض بناءا بناه النبي عليه السلام، وقد تحققت لدولة الإسلام مصلحة كبيرة من إرسال هذا الجيش، وقد احتج البعض على إرساله لجيش أسامة وحرب المرتدين، لكن الخلاف تم حسمه في نقاش ساخن وفي أجواء من الحرية، وعرض الأدلة والنصوص والمقارنة بين المصالح والخسائر، كان ذلك الخلاف موجها لمصلحة الأمة لا لمصلحة شخصية أو إقليمية أو عنصرية أو مادية حقيرة، أما العلماني العربي فواقعه في العصر الحديث: عصر الديموقراطية والشفافية

وحقوق الإنسان والانتخابات والأحزاب يقول: أطيعوني ولا تطيعوا أحدا غيري حتى ولو كان الله، وأعتقد أنه لا يوجد علماني واحد ينكر ذلك.
إذا فالطاعة للحاكم المسلم تكون ضمن إطار صارم هو عدم معصية الله عز وجل، فإن حاول الحاكم تجاوز ذلك الحد متسلطا على شعبه قاهرا إياهم، فارضا عليهم أمرا فيه معصية الله، فإن المعصية تنتقل آليا على الحاكم، حيث يجب على أفراد الشعب رفض ذلك الأمر، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
أبو بكر يحطم بالنهج الإسلامي النظرية المسيحية الثيوقراطية التي تعني الحكم باسم الرب، والفرق بين الحكم الإسلامي وبين الثيوقراطي هو أن الحكم الثيوقراطي يعني حلول الحاكم محل الله أمرا ونهيا وتشريعا، حيث لا تجوز مخالفة الحاكم الثيوقراطي مهما كان ذلك الحكم، لأنه في حالة اتحاد وتماه مع الله عز وجل، وبإمكانه نقض أحكام الله ومخالفتها ونسخها.
أما الحكم الإسلامي فالحاكم وكيل عن الأمة.. الأمة هي التي أنابته ووضعته لتسيير دفة الحكم، بل وهي التي حددت دخله المالي، فأبو بكر الصديق اشترط على الأمة أن تدفع له راتباً، وما كان له أن يشترط لولا أن هناك عقداً بينه وبين الأمة.
روى ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣ ـ ١٨٤ وغيره روايات عن مرتب أبي بكر وأن الأمة فرضته:
قال عمير بن إسحاق: أن رجلا رأى على عنق أبي بكر الصديق عباءة، فقال: ما هذا؟ هاتها أكفيكها. فقال إليك عني لا تغرني أنت وابن الخطاب من عيالي.
وقال حميد بن هلال: أن أبا بكر لما استخلف راح إلى السوق يحمل ابرادا له وقال: لا تغروني من عيالي.
ثم جاء دور الأمة لتقرر مرتبه: قال عطاء بن السائب: لما استخلف أبو بكر أصبح غاديا إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق. قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئا، فانطلق معهما، ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن. فقال عمر: إلى القضاء. وقال أبو عبيدة وإلي الفيء. قال: عمر: فلقد كان يأتي علي الشهر ما يختصم إلي فيه اثنان.
وقال حميد بن هلال: لما ولي أبو بكر قال أصحاب رسول الله: افرضوا لخليفة رسول الله ما يغنيه. قالوا: نعم.. برداه إذا أخلقهما وضعهما، وأخذ مثلهما، وظهره إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف. قال أبو بكر: رضيت.
وتقول عائشة: لما ولي أبو بكر قال: قد علم قومي أن حرفتي لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلي، وقد شغلت بأمر المسلمين، وسأحترف للمسلمين في مالهم، وسيأكل آل أبي بكر من هذا المال.
مما يدل على أن أبابكر لم يكن من حقه أكثر مما فرضته له الأمة، كما أن الخليفة يظل مجرد مجتهد في تنفيذ أحكام الله عز وجل، وهي أحكام منحت الحاكم مساحة شاسعة من الحرية في الاجتهاد لتحقيق التطور المادي والرخاء، والبحث عن

الآليات التي يتم من خلالها تحقيق مقاصد الشريعة وأهمها العدل والأمن وحماية الشعب والأمة، وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص، ومحاربة الظلم والغش والاستغلال، وغيرها من المقاصد العظيمة التي تحقق المصالح وتحارب الفساد، ولا يجوز للحاكم مخالفة تلك الأحكام، أو التشريع من عنده تشريعا يناقض أحكام الله، أو الاستقلال برأيه دون مشاورة الأمة، أو إرغام الناس على أحكام فيها ظلم أو معصية لله ولذلك لما (قيل لأبي بكر رضي الله عنه: يا خليفة الله. قال: أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا راض به وأنا راض به وأنا راض به – مسند أحمد ١ – ١٠)

وبعد أن انتهى أبو بكر من خطبته قال لمن حوله : (قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) فهو لم يكن قائدا سياسيا فقط، بل لم يكن يهتم بالسياسة فقط، ولم يكن يكذب للبقاء على الكرسي، ولم يقم باقتراف المحرم شرعا من باب المجاملة الدبلوماسية أوالإيتيكيت، كما يفعل العلماني العربي في العصر الحديث، أبو بكر في القرون الوسطى كان قائدا سياسيا، ومحاربا عسكريا، وأبا حنونا، وتاجرا ناجحا، وإمام مسجد يؤدي الصلاة خمس مرات ويبكي في صلاته.

وأخيرا أود أن أورد هذه القصة الموثقة عند وفاة أبي بكر في القرون الوسطى، لا ليقارنها القاريء، بل ليرى مدى الوقاحة التي يتمتع بها أمثال أدونيس عند حديثه عن الخلافة الراشدة.

تقول عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما: (لما ثقل أبو بكر قال: أي يوم هذا؟ فقلنا: يوم الاثنين. قال: فأي يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلنا: يوم الاثنين. قال: فإني أرجو فيما بيني وبين الليل. ثم قال: إذا أنا مت فكفنوني في ثوبي هذا، واغسلوه وضموا إليه ثوبين جديدين. فقلنا له: ألا نجعلها كلها جددا؟ فقال: إن الحي أحوج إلى الجديد من الميت، وإنما هو للمهلة. فتوفي ليلة الثلاثاء رضي الله عنه – مسند إسحاق بن راهويه. ٢ – ٣٠٦)

حقد أدونيس على أبي بكر

هذا المتعصب الذي يكتب خمس قصائد في الحسين عليه السلام، والذي كان مجرد طفل بريء في حياة جده عليه السلام.. يتجاهل شخصية محورية في تاريخ الأمة، قبل الهجرة، وبعدها، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.. بل يتطاول عليها بطائفية مقيتة..

هذه الشخصية في نظر أدونيس هي الأقوى لا الأحق، وطريقة انتخابه الرائعة والتي لم تستغرق سوى دقائق على أرض قوم خاضوا في الجاهلية حربا رعناء أكلت عشرين عاماً من أجل حصان، كل ذلك يعتبره أدونيس انقلابا ومؤامرة.

ولئن اختزل العلمانيون طاعة الله بقطع يد السارق، وبقية الحدود، فإنهم ينسون أن تلك الحدود لم تذكر إلا مرة واحدة في القرآن، ولا يمكن أن يكون تطبيقها ناجعا إلا إذا قامت على أركان الحكم في الإسلام وأهمها على الإطلاق: العدل، وإلا فما الذي

يعني ذكر تلك الحدود مرة واحدة، وذكر العدل مرارا وتكرارا، لتحاصر الحاكم محاصرة لا يمكنه معها من النجاة أو الاعتذار

يقول تعالى: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا)

و(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)

ويجعل العدل أحد أهم رسائل القرآن فيقول: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا)

(الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب)

ويجعل العدل رسالة كل الأنبياء بعد التوحيد (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون)

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)

والعدل رسالة محمد عليه السلام: (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير)

ويقول تعالى لنبيه (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون)

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا)

العدل رسالة النخبة والخليفة منهم: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)

العدل رسالة كل مسلم: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)

العدل واجب حتى مع الخارجين عن القانون (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)

العدل دليل على رقي المسلم وتحضره، ورقي الحاكم المسلم وتحضره: (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)

العدل واجب حتى مع من نبغضهم ويبغضوننا أو من نعاديهم ويعادوننا (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون)
العدل واجب حتى مع من يكذبون ويسرقون ويلفقون للمسلمين التهم ويشوهون دين الإسلام ممن هم (سماعون للكذب أكالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين)
العدل واجب في تعاملات المسلم والحاكم بالدرجة الأولى مع غير المسلمين (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)
العدل شيء مقدس (والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)
الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجعل عقوبة من يقتل نبيا مساوية لعقوبة من يقتل دعاة العدل، بل جعلها مساوية لعقوبة الكافر، يقول تعالى: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم)
أما ما يثير السخرية والضحك كثيرا، فلقاء مع كاتب سطحي متأثر بمقولة أدونيس، ومحتجا بحجة سخيفة هي: أن الصحابة اختلفوا على الحكم وجنازة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال حارة، ولا أدري هل يعي هذا المقلد ما يقول أم أنه يردد ما يسمع.. هل الصحابة بشر أم ملائكة، وهل يريد من الصحابة أن يكونوا ملائكة لا يختلفون، وما قيمة عقول الصحابة إن لم يفكروا ويختلفوا ويتفقوا، أما التناقض لديه فهو عندما سأله مقدم البرنامج أن الغرب تيارات متصارعة ومختلفة قال: هذا هو جمال الديموقراطية. شيء محير: الاختلاف عندنا قبح، وعندهم جمال. بعد سماعي لتلك المقابلة أدركت حجم تأثير أدونيس على القراء السطحيين الذين يقرأون تراثهم داخل عباءة أدونيس وأركون وبين جدران حوزاتهم.
وبعد فأدونيس عندما يقفز مثل هذه الحقائق والإنجازات ويتجاهلها، يقدم مبررا مقنعا لعدم الثقة بما يطرح، فهو مثقل بالمواقف التي تعيقه عن استيعاب تلك الإنجازات على كل المستويات، حولته تلك المواقف إلى كاتب منحاز لا يمكن تصنيفه ضمن المفكرين الذين يقرأون العقل العربي قراءة جادة وجديدة ومنصفة، هو أشبه بسنوك وأمثاله من لصوص الاستشراق المحتقنين، الذين يعانون حالة من الثأر غير المبرر ضد التراث والتاريخ والدين الإسلامي.
في المجال السياسي الفكري أيضا يتحدث أدونيس بباطنية عميقة عن صدمة الحداثة والتعارض بين بين القديم والحداثة في رسالته (الثابت والمتحول، وفي أول صفحة) فيصف الخلافة الإسلامية بأنها الحقل الأول المعيق في وجه التجديد السياسي والفكري قائلا: (وكانت الخلافة في مستواها الدين – السياسي على الأخص الحقل المباشر الأول لهذا التعارض، فالمعنى التقليدي أي الأصلي للخلافة

هو أن يتبع الخلف السلف في فكره وعمله، فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله، وليست أي نوع من أنواع التغيير أو الخروج، فالأساس فيها الاتباع لا الاجتهاد أو الإبداع. واذا كان ثمة اجتهاد أو إبداع فلكي يؤكد ثبات الأصل وإطلاقه، وليس لكي يزيد عليه شيئا يشكك في أصليته او يؤدي إلى تجاوزه. ومبدأ الحداثة من هذه الناحية هو الصراع بين النظام القائم على السلفية، والرغبة العاملة لتغيير هذا النظام، وقد تأسس هذا الصراع في أثناء العهدين الأموي والعباسي حيث نرى تيارين للحداثة: الأول سياسي فكري ويتمثل من جهة في الحركات الثورية ضد النظام القائم، بدءا من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مرورا بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة، ويتمثل من جهة ثانية في الاعتزال والعقلانية الإلحادية، وفي الصوفية على الأخص، وتلتقي هذه الحركات الثورية – الفكرية حول هدف أساسي هو الوحدة بين الحاكم والمحكوم في نظام يساوي بين الناس اقتصاديا وسياسيا ولا يفرق بين الواحد والآخر على أساس من جنس أو لون)

ولا أدري كيف توصل بعقله الخارق إلى أن الخلافة تعني "أن يتبع الخلف السلف في فكره وعمله؟!! فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله" فمن هو سلف الأمة في اختيار أبي بكر، وما هو سلف الأمة في اختيار عمر، وما هو سلف الأمة في اختيار عثمان، وما هو سلف الأمة في اختيار علي. ألا يقرأ هذا الكاتب التاريخ!! ألا يعرف شيئا عن الاجتهاد والعقل وأنتم أعلم بأمور دنياكم؟!

ثم يناقض نفسه ناسفا كل ما قاله، ويرد على نفسه عندما يقول: أن هدف هذه الحركات الثورية وهذا الإتجاه أن (يلغي الأرستقراطية – الوراثية في الحكم) ولا أدري ما علاقة الخلافة بالأورستقراطية الوراثية في الحكم، كان حديث أدونيس منصبا على الخلافة وعرفها بقوله: (المعنى التقليدي أي الأصلي للخلافة هو: أن يتبع الخلف السلف في فكره وعمله، فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله، وليست أي نوع من أنواع التغيير أو الخروج، فالأساس فيها الاتباع لا الاجتهاد أو الإبداع. واذا كان ثمة اجتهاد أو إبداع فلكي يؤكد ثبات الأصل وإطلاقه ،وليس لكي يزيد عليه شيئا يشكك في أصليته او يؤدي إلى تجاوزه)

ثم يزعم أن القرامطة والخوارج قدموا مفهوما جديدا للحكم ساعين فيه إلى تغيير القديم ممثلا بالخلافة، بحكم يتساوى فيه الحاكم بالمحكوم، ويتناقض ثالثة في السطر الرابع من كتابه بقوله٣ – ٩: (أن الحداثة بدأت سياسيا بتأسيس الدولة الأموية)

أمام هذه التناقضات أشعر بأن الكاتب لا يدري ما يخرج من رأسه، فالخلافة في نظره قديمة، واستمرارها يعني قتلا للإبداع، ثم يقول أن الخوارج يمثلون تيارا حداثيا لثورتهم على النظام القائم على السلفية، ثم يزعم أن تيار الحداثة تأسس في أثناء العهدين الأموي والعباسي، وهذا يعني أن تيار الخوارج الحداثي قام ضد نظام سلفي هو الدولة الأموية والعباسي، ثم يعود ليفضح نفسه فيقول: أن الحداثة بدأت سياسيا بتأسيس الدولة الأموية.

هذا الركام التنظيري، والخلط التاريخي لا يعني سوى أن أدونيس يكتب بميوله الطائفية لا بعقله، إنه كمن يعتقد أن الحداثة هبة يمتلكها هو وحده، يهبها لمن يشاء وينزعها عمن يشاء، بل ويفصلها كما يشاء. يقول أن الحداثة بدأت بالدولة الأموية، ثم يقول أن الحداثة تأسست على يد الخوارج، ولا أدري هل قرأ هذا الرجل التاريخ ولو لمرة، فالخوارج لم يخرجوا على الدولة الأموية، بل كانوا ضمن جيش الخلافة الراشدة بقيادة الخليفة (علي بن أبي طالب) الذي كان يقاتل أول خلفاء الدولة الأموية (معاوية بن أبي سفيان).. الخوارج ظهروا قبل تلك المعركة وقبل تأسيس الدولة الأموية، وبعد توقف المعركة في حادثة التحكيم خرج الخوارج يكفرون عليا ومعاوية وعثمان ويتولون أبا بكر وعمر.

إذا فلا علاقة للأمويين بنشأة الخوارج، فكيف بدور للعباسيين في ذلك. ثم يأتي أدونيس ليوزع الحداثة هنا وهناك بطريقة مزاجية غريبة.

أما تعريفه السابق للخلافة، وادعاؤه أن الخوارج تيار حداثي قام في وجه الخلافة فادعاء ينقصه الكثير من الذكاء، فالخوارج كانوا ضمن الخلافة الراشدة، ثم خرجوا على علي داعينه – بزعمهم – إلى الرجوع إلى نهج أبي بكر وعمر، مما يعني أنهم لم يشكلوا يوما، بل لم يدعوا يوما أنهم خروج على الخلافة، بل يرون أنفسهم – حسب ادعائهم - أكثر التصاقا بالخلافة، وأكثر إلحاحا في الرجوع إلى عصر الخليفتين الأولين، فأين هذه الوقائع من هراء أدونيس وتلاعبه بالألفاظ من أجل مواقفه الإيديلوجية من الخلافة نفسها.

أما لو تخلينا عن عقولنا وسايرناه في أن الخوارج خرجوا على الخلافة – حسب تعريفه – والتي يمثلها الحكمان الأموي والعباسي، فإننا نقع في تناقض آخر، ذلك أنه يقول أن الخلافة في معناها التقليدي الأصلي (هو: أن يتبع الخلف السلف في فكره وعمله، فالخلافة استمرار للأصل يزيد في تأصيله، وليست أي نوع من أنواع التغيير أو الخروج، فالأساس فيها الاتباع لا الاجتهاد أو الإبداع) فلا أدري أي سلف لمعاوية في توريث ابنه، وأي سلف لاستئثار الأمويين بالحكم، وأي سلف للحجاج وأبي العباس السفاح في سفك دماء المعارضين، وأي سلف للمأمون (زعيم الحداثة المعتزلية) في التنكيل بالعلماء المخالفين له في الرأي وسجنهم، مع أن هؤلاء العلماء لم يحملوا السلاح عليه.

صحيح أن هؤلاء الحكام كانوا ينشرون الإسلام، ويجاهدون في مشارق الأرض ومغاربها لنشر ثقافة الإسلام والتوحيد، لكنهم لا يمثلون الإسلام في جانب صغير جدا من تصرفاتهم في الحكم، وهذا لا يعني خروجهم من الإسلام أو تجاهل إنجازاتهم، لكن أن يلصق أدونيس أخطاءهم بالخلافة، فهذا سلوك طائفي بغيض، فالخلافة خيار للأمة، وقد تمت بيعتهم بطريقة لا تمت للخلافة الراشدة بصلة.

أما تسويقه للقرامطة – وهو ينتمي إلى هذه الطائفة – فشيء لا يمكن استغرابه، وحديثه عن القرامطة برومانسية يهيم بها القلب، وقوله أن هدف القرامطة كان هدفا ساميا، حيث قال: (بدءا من الخوارج وانتهاء بثورة الزنج مرورا بالقرامطة والحركات الثورية المتطرفة... وتلتقي هذه الحركات الثورية – الفكرية حول هدف

أساسي هو الوحدة بين الحاكم والمحكوم، في نظام يساوي بين الناس اقتصاديا وسياسيا ولا يفرق بين الواحد والآخر على أساس من جنس أو لون)، فلن أجهد نفسي في الرد عليه، سأترك الحديث للتاريخ وحده ليكشف لنا إنجازات القرامطة التي يهيم بها أدونيس، ويريدنا أن نهيم معه بها.. التاريخ يقدم الإجابة في هذه الوثائق المرعبة التي تكشف سر احتفاء أدونيس بهم:

يقول صاحب كتاب : (تاريخ الخلفاء ١ – ٣٩٢) : (وفي سنة سبع وعشرين كتب أبو على عمر بن يحيى العلوى إلى القرمطي وكان يحبه: أن يطلق طريق الحاج ويعطيه عن كل جمل خمسة دنانير، فأذن وحج الناس وهى أول سنة أخذ فيها المكس)

وفي كتاب (مآثر الإنافة ١ – ٢٧٠): (وتفاقم أمر القرامطة في كل جهة، ونهبوا طبرية، وساروا إلى جهة الكوفة وقطعوا الطريق على الحجاج من طريق العراق، وفتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا منهم أموالا جمة، وبلغ عدة القتلى من الحجاج فيما يقال عشرين ألفا)

ويقول قال ابن كثير في كتابه التاريخي (البداية والنهاية ١١ – ١٠١): (ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين، في المحرم من هذه السنة اعترض زكرويه في أصحابه الحجاج – حجاج بيت الله الحرام – من أهل خراسان وهم قافلون من مكة، فقتلهم عن آخرهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم فكان قيمة ما أخذه منهم ألفي ألف دينار، وعدة من قتل عشرين ألف إنسان، وكانت نساء القرامطة يطفن بين القتلى من الحجاج وفي أيديهم الآنية من الماء يزعمن أنهن يسقين الجريح العطشان، فمن كلمهن من الجرحى قتلنه وأجهزن عليه)

ويقول صاحب كتاب (معجم البلدان ٢ – ٢٢٤) عن الحجر الأسود الموضوع في ركن الكعبة : ولم يزل هذا الحجر في الجاهلية والإسلام محترما معظما مكرما يتبركون به ويقبلونه إلى أن دخل القرامطة لعنهم الله في سنة (٣١٧) إلى مكة عنوة، فنهبوها وقتلوا الحجاج وسلبوا البيت وقلعوا الحجر الأسود، وحملوه معهم إلى بلادهم بالأحساء من أرض البحرين) مع ملاحظة أن الحجر ليس للتبرك، وتقبيله مجرد اتباع لسنة النبي صلى الله عليه وسلم لا أقل ولا أكثر كما بين ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد روى البخاري ٢ – ٥٧٩ أن عمر (جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك)

وفي كتاب (البداية والنهاية ١١ – ١٥٤): (وفيها قدم الحجاج من خراسان إلى بغداد فاعتذر إليهم مؤنس الخادم بأن القرامطة قد قصدوا مكة فرجعوا ولم يتهيأ الحج في هذه السنة)

وجاء في ترجمة العالم الحنفي الكبير – البردعي في كتاب (طبقات الحنفية ١ – ٦٦): أحمد بن الحسين أبو سعيد البردعي سكن بغداد أحد الفقهاء الكبار وأحد المتقدمين من مشائخنا ببغداد... وأقام أبو سعيد ببغداد سنين كثيرة يدرس، ثم خرج إلى الحج فقتل فى وقعة القرامطة مع الحجاج سنة سبع عشرة)

وفي (البدء والتاريخ ٥ – ١٣٢) : (وأما القرامطة فأصحاب القرمط وهو رجل من سواد الكوفة أباح لهم قتل من خالفهم فلذلك خرجت القرامطة على الحجاج)
وجاء في كتاب: (وفيات الأعيان ٢ – ١٤٨) حول أبي طاهر القرمطي وجيشه الهمجي: (وفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة في شهر ربيع الآخر منها قصد أبو طاهر (القرمطي) وعسكره البصرة وملكوها بغير قتال، بل صعدوا إليها ليلا بسلالم الشعر، فلما حصلوا بها وأحسوا بهم ثاروا إليهم فقتلوا متولي البلاد ووضعوا السيف في الناس فهربوا منهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوما يحمل منها الأموال ثم عاد إلى بلده ولم يزالوا يعيشون في البلاد ويكثرون فيها الفساد من القتل والسبي والنهب والحريق إلى سنة سبع عشرة وثلثمائة، فحج الناس فيها وسلموا في طريقهم ثم وافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية (٨ من شهر ذي الحجة) فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب الكعبة وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام من غير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة)
هؤلاء هم المجددون الخارجون على المألوف والسائد والموروث عند أدونيس، لا عجب أن يعجب أدونيس بأجداده ويبشر بهم المستقبل، فهم مشروعه القادم للأمة، ومن يقرأ كتابه الجديد (المحيط الأسود) الطافح بالطائفية، وكأنه كان ينتظر سقوط صدام حسين كل هذه السنين لينفس عما يغلي في أعماقه.
لدى القرامطة طرح مختلف لاشك، لكنه ليس بجديد ولا بتجديد، هو انتكاسة نحو الوثنية المتخلفة، التي كبلت الإنسان في الخرافة والهمجية والتخلف قرونا طويلة، كما يحاول أدونيس الترويج لها على استحياء.. لدى القرامطة انطلاق ومحاولة لكن في الضياع والتيه والتخلف، والعبارات التي يحاول أن يروج فيها الشرك والخرافة والسحر والشعوذة جميلة وأخاذة، وهي مقنعة عندما يتجرد الإنسان من عقله وتفكيره، كما يقتنع الإنسان بأن ذبح الشاة من أجل أكلها كذبح سنور بريء، لأنه مجرد تمرير السكين على قطعة من اللحم، وكذلك من يبرر تعاطي المخدرات بتشبيهه باستنشاق الضباب، والأمر يسري على الزنا وكذلك الشذوذ بل القتل، كل ذلك مشروع ومبرر إذا كان المتحدث له قدرة أدونيس على توظيف الكلمات.. الكلمات لا أكثر.
مثل هذه الكلمات التي يقول فيها: (في الثقافة الوثنية القديمة كانت السماء موصولة بالأرض، وكان الكون بيتا واحدا. أما الثقافة الحديثة التي رفضت الوثنية فإنها لم تفصل السماء عن الأرض وحسب، بل جعلت الأرض موضع ازدراء سمتها دار الشقاء والفناء وسمت السماء بالمقابل دار الهناء والبقاء)
عالم من الكلمات لا أجد أبلغ في التعبير عنها من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا) فتقلب الحق باطلا والعكس، كلمات تروج للقتل وللوثنية

وعبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر، والتخاطب معها وبث الشكوى إليها وطلب الرزق والحياة والإلهام منها، كل هذه الضروب من التخلف تجعل الكون في نظر أدونيس بيتا واحدا.
الوثنية التي عاش معها الإنسان آلاف السنوات دون أن تقدم علما.. دون أن تصنع له قلما.. أبقته الوثنية محاصرا في جهله وثاراته وتخلفه.
أما التوحيد الذي حمل العربي إلى العالمية.. وحمل العلم للعالم.. وجعل أدونيس نفسه عربياً.. التوحيد النقي الذي نزل به القرآن والذي يعيد للإنسان رشده ويربطه بخالق كل هذا الكون العظيم، فهو في نظر أدونيس ليس فصلا للسموات عن الأرض فقط بل ازدراءا للأرض. التوحيد الذي نزل ليقدم الأرض هدية للإنسان، بل ويقيم مراسم تتويجه خليفة عليها.. هو في نظر أدونيس توحيد يفصل السماء عن الأرض ويزدري الأرض..
التوحيد الذي نزل ليقدم الكون بأقطاره هدية طرية طيعة بين يدي هذا الإنسان، وبعبارات كلها تبجيل واحترام لهذا الإنسان، بعبارات كلها استفزاز لطاقاته وإبداعه، عبارات تقول:
(ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)
(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)
(ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره)
(أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير)
(وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون)
(وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصر وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)
وغيرها من الآيات التي تجعل الكون كله فضاء بكرا لإبداعات الإنسان، وما على الإنسان سوى استثمار هذا الكون، فليس في تضاريس الكون شيء عصي بعد أن سخره الله.. آيات تشرع الكون معملا ومختبرا.. تحثه الإنسان إلى دخوله كما تحثه على دخول المسجد.. تدفعه بكلمات كلها تحريض وتشويق: سخر، سيروا، انظروا، أفلا تبصرون، تتفكروا.. هنا يصبح الكون وساكنه في تناغم بهي، تناغم خال من الدجل الذي يروجه أدونيس بأن الوثنية هي التناغم.
هذا المنهج التجريبي الذي نهض بالعالم، والذي كانت الثقافة الأوروبية واليونانية خاصة تحتقره.

أما أن تكون عبادة الأخشاب والقبور والصخور والشمس والقمر والبقر تعني اتصالا بين الأرض والسماء، فهذا نوع من أنواع الترويج للإسفاف، والانحطاط الفكري والعقائدي تحت وابل من الكلمات الجميلة والخادعة، إنه مشروع خطير يجتر الماضي المتخلف ويعيد إنتاجه بطريقة فيها الكثير من الاستغفال، فهل سيقنعنا أدونيس بمجرد أن يضع أفكارا بالية داخل علب جميلة ومزركشة من العبارات، أنها استحالت أفكارا جديدة تحملنا نحو المستقبل، هل الأصباغ تغير من حقيقة الداخل.. إن تحول السطح في فكر أدونيس إلى أعماق، شيء طالما حاربه أدونيس فكيف يسوقه الآن.

وأخيرا لا أجد أكثر عمقا في قراءة ذلك الزيف من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابن حبان بسند صحيح ١-٢٨١): (أخوف ما أخاف عليكم جدال منافق عليم اللسان) اللسان فقط لا أكثر.. الإنشاء فقط لا أكثر.. التنظير فقط لا أكثر.. الكلام فقط لا أكثر، ولذلك نكبت ثقافتنا وأمتنا بهؤلاء، كما نكبت من قبل بالقرامطة فكرا وتطبيقا. إذا كان هذا هو أستاذ الحداثة والعلمانية في عالمنا العربي، فلا غرابة أن بلغت الأمة العربية هذا المستوى من التخلف والقادم أسوأ.

وليس أدل من سطحية أدونيس والتفافه على تلك الآيات من قوله (الدين يفسر العالم عقليا بالكلام، وهو كلام إلهي وخاتم الكلام. وليس للفرد أن يقول ما يضيف أو يغير وبهذا أغلق العقل وحددت قدرات الإنسان وطاقاته - ٤٥)

أليس هذا الإنشاء سوى افتئات على القرآن وإغلاق للعقل، هل كلام الله يغلق عقل الإنسان ويحدد قدراته وطاقاته وهو يخاطبه فيقول: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) وهل ما يفعله العلماني الغربي وما أنجزه سوى الامتثال لهذه الآية؟

أليس ما أبدعه العلماني الغربي سوى السير في الأرض واكتشاف قوانين الله في الكون وتطويعها؟ هل أتى العلماني الغربي بقانون أو إبداع خارج عن قانون الكون الذي يحرض القرآن أتباعه على اكتشافه؟

أم أن أدونيس وأضرابه من العلمانيين (النسخ) الذين هم سبب تخلفنا وانحطاطنا ينتظرون الغرب حتى يكل ويتوقف، ليكتشفوا أن هناك قوانينا لا يعرفها الغرب ولا الشرق، أولم يقل أدونيس أنه لا يختار لا الله ولا الشيطان وأن كلاهما جدار، ماذا يقدم حفيد القرامطة هذا سوى الهراء! هذا الطائفي يشتم الصحابة وإنجازاتهم والقرآن والأنبياء، لكنه يمدح الحسين في أربعة قصائد، ويثني على ثورة الخميني الطائفية بقصيدة.

لقد سخر الله الكون للإنسان وطلبه أن يسير فيه، فما ذنب الإسلام إذا ارتضى هو وأمثاله كهفا صغيرا في هذا الكون، ورفضوا مغادرته والسير في الكون واكتشافه؟

وما ذنب الإسلام إذا بدأوا يطلقون الشتائم من داخل ذلك الكهف على الظلمة والعتمة التي يعيشونها، في الوقت الذي يرفضون فيه نداءات الخروج نحو الشمس والنهار؟

هذا النموذج من العلمانيين العرب غير مؤهل لقراءة العقل العربي، لأنه مثقل بالإيديلوجيا الطائفية، وثقافة الكراهية والتحيز بل والكذب لدرجة مزعجة.

لماذا يتجاهل أدونيس العصر الإسلامي

هذا الرجل كغيره من العلمانيين العرب، لكنه أقدرهم على الالتواء والتلون والمراوغة، فهو لا يسقط نفسه كأركون والعظم.. بالتهور في ضرب أمثلة علمية محددة، لأنه يدرك أن سيسقط نفسه لا محالة، بل هو أكثر النقاد تشبثا بالبقاء، لأنه لا يطرح نفسه من خلال نظرة واحدة تحتمل السقوط، كما فعل مروة مثلا، إنه يطرح نفسه من خلالها كلها، وكأنه يوازي عملته النقدية بسلة العملات النقدية، فهو أقرب للشيوعية عندما كانت في أوجها، وأقرب لليبرالية وهي في أوجها، بل إنه عندما قاد الخميني ثورته هتف له بقصيدة كانت مثار استهجان الحداثيين، وهو وثيق الصلة بالباطنية، وهي تعتبر جوهر رؤيته للنص والحداثة، وهي خلفيته التراثية التي لا يستطيع التخلص منها.

لذلك كله.. يبحث عن منطقة ضبابية معتمة، يختلط فيها الجاد بالهازل والعلم بالسحر والشعوذة، وهي منطقة التي يلجأ إليها أصحاب التوجه الغنوصي الباطني، وهو يفتخر بخروجه من رحم الغنوصية، فهو ابن هذه الطائفة البار التي تقترب من كل المذاهب والديانات أكثر من اقترابها من إسلام (القرآن والسنة)، فهي من جهة تنتسب للإسلام ظاهرا، وللغنوصية حقيقة، كما تتضمن عقيدة تنسف التوحيد الإسلامي من أساسه، أعني عقيدة الحلول (الله حل في علي بن أبي طالب)، وبالتالي مع وحدة الوجود، وهذا ما يفسر حماس أدونيس لمن يحملون هذا التوجه من الشعراء كالنفري وابن الفارض وغيرهم.

الرجل كما قلت يمجد كل شيء إلا الإسلام، ويمجد كل شيء على النقيض من الإسلام لدرجة تمجيد الوثنية التي لو بقيت عليها قريش والعرب معها مليار عام ما تقدمت شبرا واحدا، أين العلم والاكتشاف في وثنية تسفك الدماء أربعين عام من أجل بعير أو حمار؟ أين العلم والاكتشاف لدى وثنية تئد المرأة وتستعيذ بالجن، وترحل عن الديار إذا رأت بومة أو غرابا.

حديثه عن الجاهلية في واد، وحديث العلمانيين الغربيين عنها في واد آخر، إنه كالحديث عن آخر اكتشافات العالم التجريبي التي تقول أن التدخين يسبب ضررا لكل أجهزة الجسم البشري. والعالم التجريبي يقول أن المخدرات تتلف الدماغ وتدمر أجهزة الإنسان وتضعف شهيته، وتدفعه للسرقة والقتل والاغتصاب، وتدفعه للجنون والانتحار حسب إحصاءات ودراسات مخبرية ومعملية دقيقة.

أما السجائر والمخدرات بالنسبة لمنهج هذا الكاتب فهي نوع من التألق والشفافية الروحية والانعتاق من الجسد، والتماهي بالكون، والوصول إلى تلك المنطقة الضبابية بين الشعور واللاشعور، حيث تتداعى الكلمات وتنساب دون تصنع أو افتعال، هذا هو الفرق بين العالم والأديب المتهور، العالم التجريبي يصدمنا بالحقيقة لأنه لا يستطيع تزييفها إلا إذا انتقل إلى مساحات الأدب، حيث يستطيع

ممارسة ما شاء من ألاعيب أو أكاذيب، أو لنقل خيال وأساطير تحت مساحيق التجليات ودعوى الإبداع، كذلك لا يمكن للأديب أن ينتقل لمساحات العلم ليمارس أساليبه هناك.
وعلى المستوى السياسي والفكري أيضا يرفض أدونيس ويسفه أسلوب الجابري في الحديث عن الديمواقراطية، ويصفه بالسطحية والسذاجة، لأن الجابري صاحب نظرة تتسم بالعقلانية، وتتسم أيضاً بالموضوعية – إلى حد ما – وتوظيف التراث من أجل المستقبل، بعكس أدونيس الذي يستدعي قمع التراث واستئصاله رغم كلامه الطوفاني حول قراءة التراث، وأعني بالتراث هنا بالتحديد (النص الإسلامي).
أدونيس يقول في كتابه (النظام والكلام – ١١٤): (يتحدث بعض الكتاب والمفكرين العرب عن الديموقراطية في المجتمع العربي بشكل يوحي بأنها كانت موجودة فيه، غير أنه فقدها اليوم وعليه أن يسترجعها، وتوحي أحياناً طريقه الحديث بأن استعادة الديموقراطية المفقودة مسألة سياسية تتم من فوق – تغيير حكم بحكم آخر مثلا، وفي معزل عن تغيير بنية المجتمع التقليدية – ثقافياً واجتماعياً. إن مجرد الحديث عن الديموقراطية في المجتمع العربي بهذه التبسيطية وبهذه اليقينية ظاهرة تستدعي – في حد ذاتها – دراسة خاصة.
من البداهة القول أن الديموقراطية هي أساسياً مفهوم يوناني – غربي، فذلك مما يعرفه الجميع، ويعرف الجميع أيضاً أن الحكم في المجتمع العربي مورس منذ تأسيس الدولة العربية الأولى بطرق لا تتصل نظرياً وعمليا بذلك المفهوم.
بل إن نظرية الحكم العربية تعتز بخصوصيتها التي تميزها كلياً عن نظرية الحكم الديموقراطية، وهي خصوصية لا تجئ من المدينة العربية، بل من الدين العربي وتقوم على أساسين:
الأول: مبدأ المجتمع العربي وقوامه الدين لا المدينة، المدينة نفسها لا تقوم إلا بالدين.
الثاني: وهو نتيجة طبيعية للأول: الآخر غير المسلم، أو المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي: الفرقة أو الانشقاق أو الكف، هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات المدينية كلها، وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق). هذان الأساسان لا يزالان قوام الحكم العربي، بشكل أو آخر قليلاً أو كثيراً – مما يتناقض جوهرياً مع الديموقراطية. آخذ مثلاً على التبسيطية واليقنية ما يقوله محمد عابد الجابري وأمثل به لأن فكره يمثل الآن النموذج الأبرز في تفقيه (من فقه الحداثة العربية) وهو نموذج يكاد أن يصبح زياً.
يقول (ندوة مجلة الهلال : الأخيرة ،في القاهرة) عازياً غياب الديموقراطية في المجتمع العربي إلى ثلاثة أسباب:

(دولة العسكر ونخبتها) و(الدولة التقليدية ونخبتها) و(الدولة شبه الليبرالية ونخبتها)

ووافقته في ذلك بالتبسيطية نفسها واليقينية نفسها (النخبة) التي ناقشته، وأما لماذا قامت هذه (الدول)، لماذا أنتج المجتمع العربي هذه (الثمار) (وأضرب صفحاً عن الكيف) فأمر محجوب، أو غيره داخل في مدار التفكير، إنهم جميعاً مأخوذون من النبع بـ(مجراه)، ولا يطرحون أي سؤال حول النبع ذاته وحول الماء نفسه، هكذا يبقى فكرهم في مستوى السطح وملصقا من خارج، ويبقى تنظيرهم للديموقراطية في المجتمع العربي أمرا متناقضا ومضحكا في الوقت ذاته، كأنهم يحاولون أن يركبوا قرني غزال على رأس دجاجة، لا أريد أن أقول لهؤلاء النخبة من الكتاب والمفكرين أنكم تتكلمون على مفهوم ليس موجودا إلا في الغرب الذي تصفونه دائما بأنه عدو وهذا صحيح، والذي لا تكفون عن الكلام على غزوه الثقافي الاقتصادي السياسي الآخذ في القضاء على هويتكم، ولا أريد أن أذكرهم بأن الديموقراطية ليست وصفة جاهزة، وأنها لا تنهض إلا في مجتمع مدني بالمعنى الكامل والشامل والجذري، وأنها بناء متواصل وأن ذلك الغرب العدو لم يقطع هو نفسه على طريق هذا البناء إلا أشواطا، وضمن أطر محددة خصوصا في كل ما يتصل بعلاقاته مع الآخر غير الغربي، وأن الديموقراطية كممارسة ليست موجودة مع هذا كله إلا في هذا الغرب العدو، ولا أريد أن أقول لهم إن العربي غير ديموقراطي بطبعه وثقافته وحياته، وأن تحقيق الديموقراطية في المجتمع العربي من المحالات، فالعربي كمثل غيره قادر بالطبع والثقافة والحياة أن يكون ديموقراطيا وأن يحقق الديموقراطية، إن ما أريد قوله هو أنهم لا يستطيعون أن يجمعوا الماء والنار في يد واحدة، وأن عليهم قبل أن يطالبوا الحكم العربي بتحقيق الديمقراطية أن يطالبوا المجتمع نفسه بأن يتخلص مما يحول دون تحقيقها، وأن هذا الذي يحول يتمثل في أصول ليس الحكم إلا نتيجة لها، وأنه لا يمكن بناء الديموقراطية إلا بأصول أخرى. وأريد أن أقول لهم أخيرا : لن تكون مهمتكم هذه سهلة وستكون طويلة طويلة)

كلمات أدونيس هذه قوية وواعية جدا، ويبدو أنه قد كتبها في لحظة نهوض وتصميم على المضي بعد فترة طويلة من الإحباط من التغيير عبر القمة بالانقلابات العربية، وعبر عقود من التبشير الفاشل قضاها هو ورفاقه في محاولة لزرع تلك الأصول الأخرى التي يحملها، ومن حقه ومن حق رفاقه خوض تلك المعركة، ومن حقه تسطيح من شاء من رفاق النضال والنهضة والحداثة إذا ظن أنهم يعيقون تلك المهمة التي آمنوا بها، أو أنهم يتنازلون عنها أو يحاولون التملص منها، لكن ليس من حق أدونيس تسفيه خصمه وتبسيطه واختزاله بكلمات حماسية وتقريرية.

فالديموقراطية خيار غربي وهي قابلة للتطبيق على أي أرض إذا توفرت شروط قيامها، والشريعة الإسلامية خيار شعوب أخرى، وهي قابلة للتطبيق على أي أرض إذا توفرت شروط قيامها، وهي الحل الملح أكثر من أي وقت مضى لأزماتنا وانحطاطنا وتخلفنا، وانتشالنا من هذا القاع الآسن الذي قذفنا فيه العلمانيون العرب

بكافة تفرعاتهم وتخصصاتهم، وهو الخيار الذي يلح أدونيس على وجوب اجتثاثه بأسلوب غير ديموقراطي وغير حضاري.. أسلوب ينضح بالوقاحة ومصادرة حرية الأغلبية الكاسحة وخياراتها.

وإذا كنا لا نرى كلا الخيارين اليوم يطبق بنقاء، فإن العيب ليس في الشريعة ولا في الديموقراطية، بل في العلمانيين العرب أمثال أدونيس، وأمثال الذي وصفهم بأنهم يريدون أن يركبوا قرني وعل على رأس دجاجة، والعيب كذلك ليس في الشريعة ولا في الديموقراطية، بل في العلمانيين العرب ومنهم أدونيس، الذين حاولوا طمس الديموقراطية والشريعة معا، ليبقوا لنا شريعة الغاب وفوضى العلمانية العربية، أما الدولة الديموقراطية التي ينشدها أدونيس ورفاقه فهي لن ترى النور مادام العلماني العربي على سدة الحكم والتثقيف مهما طال الزمن، ولن تتحقق ما دامت تلك الأصول الإسلامية المتمثلة بـ(القرآن والسنة الصحيحة) باقية، وذلك لأسباب يجهل أدونيس أو يتعامى عن أبرزها وأكثرها عمقا.

أسباب امتناع الديموقراطية

الدولة الديموقراطية يونانية – غربية، ولدت في اليونان.. في بيئة وثنية كانت الآلهة فيها تزاحم الإنسان لكثرتها، وهي آلهة سخيفة صنعها الإنسان في ظل غياب الوحي السماوي النقي، فلا غرابة أن يصنع الإنسان ديموقراطيته – وهو الذي صنع آلهته – لحفظ مكتسباته الحضارية، ثم اختفت الديموقراطية عن الغرب لأسباب يعرفها أدونيس ويرتجف خوفا عند الاقتراب منها، وسأكشف سبب ارتجافه لا حقاً.

ثم عاد الغربي إلى الديموقراطية مرة أخرى بعد أن تسلطت عليه آلهة أخرى من البشر لكن بأسماء جديدة ومختلفة: فالبابا والأسقف والمطران والحاخام والقمص ورجل الدين، وقائمة طويلة من الآلهة وأنصاف الآلهة وأرباعها وأثمانها.. الذين باعوا الإنسان والأرض، وتطاولوا على بيع صكوك الغفران وآلاف الأمتار من الجنات في الأسواق والمزادات، حتى احتدم الصراع بين السلطتين: الزمنية ممثلة بالدولة، والسلطة الروحية ممثلة بالكنيسة، فكان لابد من عودة الإنسان للديموقراطية كي يوقف تلك الردة الشنيعة وتلك المهازل المرتكبة – إلصاقا – باسم الرب، ولكي يصنع عالمه الخاص به بعد أن تلاشت أمامه القدرة على الوصول إلى العالم الذي يريده الله، بل تلاشى أمامه كل طريق نظيف يوصل إلى الله.

الديموقراطية تعني حكم الإنسان مع غياب تام لتعاليم الدين، وهي ضرورية إذا كان الدين مزيفا أو محرفا، أو كانت الأمة تعيش دون دين أو تعتنق الوثنية وخرافاتها، لكنها انتهاك لحقوق الإنسان وحقوق الله متى ما توفر الدين النقي والصحيح، الدين الحي القابل للتحدي والمواجهة والإقناع كما هو حال الإسلام، لا الدين الذي ينهار من أول خدش كما في الغرب، الديموقراطية خيار شعبي لا يأتي عن طريق الدبابة أو المعتقل أو الإرهاب السلطوي، وهو مستحيل في ظل العقلية التي يحكم بها العلمانيون العرب اليوم.

الديموقراطية تحتوي الكثير من الثقوب والثغرات التي يتسرب من خلالها التزوير المقنن في الانتخابات، كشراء الأصوات وضغط رأس المال على إرادة صاحب الصوت، وحشره في خيارات محددة بلقمة العيش مثلا، وذلك لغياب البعد الآخر – الروحي في الرؤية الديموقراطية، وإلغائه تماما من أي تأثير على الناخب والمنتخَب معا، مما يعني قتل كثير من الضمائر والمبادىء والقيم من أجل الوصول إلى السلطة، كما يعني أيضا غياب الجانب الإنساني في البعد الديموقراطي، مما يؤدي إلى ارتكاب أقسى الممارسات الوحشية واللا إنسانية في التعامل خارج قانون اللعبة الديموقراطية، ولعل الضحايا الذين فاقوا الخمسين مليونا في الحربين العالميتين، وضحايا هيروشيما وناجازاكي وفيتنام، ومئات الملايين التي تمت إبادتها من المسلمين والعرب وغيرهم.. في هجمات الاستعمار في الجزائر والعراق وليبيا وفلسطين ومصر والهند وأفغانستان وأندونيسيا وغيرها، والفضائع التي ارتكبت في سجون من احتلوا أفغانستان وفلسطين والعراق وغوانتناموا وغيرها.. كل هذا وأكثر كانت تمارسه دول ديموقراطية، ويتم على أيدي أناس ديموقراطيين، مما يدل على أن الديموقراطية سجن كبير مريح ومنضبط، لكن الإنسان الديموقراطي – في داخله – يتحول إلى وحش كاسر حالما ينفلت من سجنه ذلك، وهذا ما عنيته باللا إنسانية في العملية الديموقراطية، لكنها لا شك لا تقارن بالديكتاتورية.

وهذا ما يجعل العالم أمام خيارين :

إما أن ينتظم العالم كله في ديموقراطية شاملة – وهو أمر مستحيل – لضمان فرض الرقابة على تلك الحيوانات المتوحشة المنفلتة.

أو أن يفسح المجال لثقافة قادرة على إقناع العقل الإنساني واختراق أعماقه، بعد فشل الثقافة المسيحية التي أضحى الانتماء إليها نوعا من (التعصب لا الاعتناق)، والثقافة اليهودية التي سيجت بشكل محكم على قبيلة واحدة تسمى (بنو إسرائيل).

وهناك تجربة – رغم محدوديتها – تدعو للدراسة والتأمل، ففي الوقت الذي تلاحق فيه الجمعيات الخيرية الإسلامية، ويتم إلصاق تهمة الإرهاب بالدعاة للإسلام، تسمح بل وتشجع الولايات الأمريكية الدعاة الإسلاميين كي يمارسوا دعوتهم مع أعتى المجرمين من القتلة واللصوص ومروجي المخدرات، استنادا إلى إحصاءات مؤداها أن من يعتنقون الإسلام في السجون لا يعودون إلى ارتكاب جرائمهم إلا فيما ندر، بعكس من يبقون على دياناتهم السابقة.

هذا المثال يكشف عن خواء رهيب داخل المجتمعات الديموقراطية يجعلها في صراع حول استخدام القانون لا تطبيقه. ورغم ذلك كله فالديموقراطية النظيفة تعني – أيضا – الاختيار، ومؤداه أن يترك الناس في الهواء الطلق، وتفتح لهم أبواب انتقاء ما يريدون من نظام حكم، فإذا ارتضوا الشريعة الإسلامية فلهم ذلك، وإن اختاروا القانون الوضعي فلهم ذلك، وإن تمسكوا بالطواغيت والمستبدين أو حتى عبدة الشيطان فلهم ذلك، وقد تمت عدة عمليات انتخابية تعتبر الأنزه في العالم الإسلامي والعربي اليوم، فكان الخيار الإسلامي هو المنتصر فماذا كانت النتيجة ؟

لقد قام العلماني العربي بذبح الحريات ووأد النتائج، ثم أشرع أبواب السجون والمعتقلات، وأطلق قوائم التهم الجاهزة سلفا للفائزين، وصادر حق الشعوب والمنتخِبين والمنتخَبين، وتفرد العلماني العربي كالعادة باحتكار السلطة والكرسي ووسائل التثقيف والإعلام، وقذف بصناديق الاقتراع والأصوات الحرة إلى المعتقلات والجحيم.

كانت أكثر التهم الموجهة للفائزين دون أدلة، دون مستمسكات، هي تهم موجهة في الهواء، ونحو النوايا والمقاصد التي لا يعلمها إلا الله، ويبدو أن العلماني العربي سطا ضمن ما سطا عليه على عالم الغيب كما عالم الشهادة.

كانت تهما سخيفة: أنتم الإسلاميون إذا حكمتم ستصادرون الحريات وتلغون التعددية وحرية الكلمة، وستمنعون الأحزاب وتنفردون بالسلطة.

تهم تصدر من تلاميذ يتجاهلون مقولة أستاذهم عبد الله بن أبي بن سلول ومعارضته، ومؤامراته، وخياناته التي نقلها القرآن ولم ينقلوها، وحرية رأيه ومعارضته المكفولة التي نقلها القرآن ولم ينقلوها هم.. ابن سلول كان يقول: (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله)

(لإن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)

وسجل ممارساتهم بمنتهى الدقة: (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون)

(ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون)

فهل هناك معارضة في الشرق والغرب تقول مثل هذا القول ويسمح لها بالبقاء، ناهيك عن سعة صدر العلماني العربي الذي لا يضيق بشيء أكثر من ضيقه بشيء اسمه معارضة؟ إن كلمات ابن سلول ليست مجرد معارضة، ولا اختلاف في وجهات النظر، ولا حتى شتائم، إنها إعلان حرب على دولة الإسلام من داخل أقلية هم مواطنون داخل تلك الدولة، ومع ذلك تجد لها في أفق الدولة الإسلامية متسعاً ومكاناً، فلم تمس منهم شعرة، ولم يساقوا للمعتقلات بتهمة الشروع في جريمة أو خيانة أو الانتماء إلى تنظيم إرهابي.

وبعد ذلك يأتي العلماني العربي ليطلق تهما يخيل لمن يستمع إليها أن من يتفوه بها علماني من سويسرا، أو من كندا أو فينزويلا أو ألمانيا أو اليابان.. يخيل لمن يستمعها أن من يطلقها جاء للحكم عن طريق صناديق الاقتراع، أو أن حزبه يحكم بالإئتلاف مع أحزاب أخرى كي يشكلوا أغلبية، يخيل لمن يستمع لتلك التهم، أن الأحزاب العلمانية العربية تتعاقب على كراسي الحكم كما تتعاقب أحزاب الغرب.

إن من يبصق تلك التهم علماني جاء للسلطة عن طريق انقلاب أحمر، وأن الجمهوريات تحولت في عصره إلى ملكيات، وأن المعارضة قد أبيدت أو فرت خارج البلاد، ومن لم يستطع فإن الزنازين بانتظاره.. من يتفوه بهذه التهم علمانيون عرب ليسوا كلهم من العسكر، بل أكاديميون وأساتذة جامعات ومثقفون.. منهم من بلغ منصب وزير ورئيس وزراء، بل ورئيس وأخ قائد وزعيم أوحد، لكن

حزبهم يحكم منذ أربعين عاما، والشعب يفديهم بالروح والدم، بل يبصمون بالدم من أجله في انتخابات الـ ٩٩,٩ %.

يتناسى هؤلاء أن من بدهيات الإسلام أنه أكبر داعم للإجرآت الديموقراطية التي تسهم في الرقابة والاحتساب على السلطة، فمع صعوبة إيجاد شخص له ضمير أبي بكر أو عمر مثلا، أو تضحية عثمان بنفسه حتى لا تراق قطرة دم من أمته، أو حكمة علي في التعامل مع خصومه.. تبرز الحاجة الملحة لإجرآتها من أجل خلق آلية تراقب السلطة وتحتسب عليها، وترفع من مستوى الأداء الوظيفي للحاكم والمحكوم، أي التعويض عن النقص في رقابة الداخل برقابة صارمة من الخارج الديموقراطي، أو لنقل: تعويض بعض نقص رقابة الداخل برقابة صارمة من الخارج، عن طريق ما يعرف بالشفافية، أما أن تكون الديموقراطية الغربية الكاملة قابلة للعيش على الرقعة العربية فهذا من المستحيلات إلا في الحالات التالية:

أن تكون تلك الرقعة مسكونة باليهود أو النصارى كأغلبية، فهؤلاء من السهل عليهم أن يقضوا على ثوابتهم وتعاليم دينهم والتشكيك في مصداقية كتبهم المقدسة، وبالتالي تجاوزها والتخلص منها والعيش كمجتمع لا ديني تماما.

أن يستطيع العلماني العربي أن ينتزع التأثير (القرآني – السني) على المسلم في عالم الواقع أو عالم الضمير، وليس هناك من وسيلة سوى التوجه نحو سر قوة ذلك التأثير – المصداقية، وهذا يعني أن يقوم العلماني العربي بتزييف القرآن والسنة كي يفقدا مصداقيتهما، وبالتالي يسهل التخلص منهما كما تخلص العلماني الغربي من الكتاب المقدس وكنيسته إلى غير رجعة: أما التشكيك فقد انتهى وتلاشى زمنه وضاعت محاولات العظم وأركون وغيرهما أدراج الرياح والفشل.

أن يتحول العلماني العربي إلى علماني حقيقي يقبل الرأي الآخر ويرضى بمشاركته، ويتقبل الخسائر ويقبل الهزيمة بروح عالية، كما تمتع بالانتصارات، أقصد الانقلابات.

أما تلك النقطة التي ألقى أدونيس عليها الضوء زاعما أنها تحسب للتوجه الديموقراطي على التوجه الإسلامي في قوله: (أن الديموقراطية هي أساسياً مفهوم يوناني – غربي، فذلك مما يعرفه الجميع، ويعرف الجميع أيضاً أن الحكم في المجتمع العربي مورس منذ تأسيس الدولة العربية الأولى بطرق لا تتصل نظرياً وعمليا بذلك المفهوم، بل إن نظرية الحكم العربية تعتز بخصوصيتها التي تميزها كلياً عن نظرية الحكم الديموقراطية، وهي خصوصية لا تجئ من المدينة العربية، بل من الدين العربي، وتقوم على أساسين:

الأول: مبدأ المجتمع العربي وقوامه الدين لا المدينة ، المدينة نفسها لا تقوم إلا بالدين.

الثاني: وهو نتيجة طبيعية للأول: الآخر غير المسلم، أو المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي: الفرقة أو الانشقاق أو الكفر، هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات

المدينية كلها، وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق). هذان الأساسان لا يزالان قوام الحكم العربي، بشكل أو آخر، قليلاً أو كثيراً – مما يتناقض جوهرياً مع الديموقراطية)

وقبل مناقشة أدونيس أجد أنه لا ينفك من عقدة الطائفية والأقلية، ومحاولة التشويش على عقلية القارىء بأسلوبه الإنشائي الساحر، لكنه كغيره من العلمانيين.. هم بارعون في إطلاق الكلمات فاشلون في تقديم الأدلة.

وأول فشل له هو في قوله: (مبدأ المجتمع العربي وقوامه الدين لا المدينة، المدينة نفسها لا تقوم إلا بالدين)

عندما نتأمل قوله نجده لا يقول المجتمع المسلم بل يقول المجتمع العربي، وهذا التعريف يقابله مجموعة من المجتمعات الأخرى غير العربية، كالمجتمع الإنجليزي والألماني والإيطالي والفرنسي والصيني والياباني والكوري والتركي والإيراني والباكستاني والماليزي والأندونيسي والأفغاني والبنغالي والشيشاني والبسنوي والألباني وغيرها، ولعل أدونيس في تحديده لتأثير الدين على العرب فقط في إقامة نظام محدد من الحكم هو نوع من الاستغباء غير المسبوق في تسويق الأكاذيب الثقافية، واستثناء العقلية العربية المتلقية من حق الحصول على الحقيقة، ولبيان هذا التحامل المفضوح أحب أن ألفت نظر هذا الرجل إلى أن:

التاريخ القريب يكشف زيف أدونيس

يحدثنا التاريخ أن أكبر دولة إسلامية، وأطولها عمرا كانت دولة إسلامية غير عربية.. كانت حسب اصطلاح أدونيس دولة تركية، وهي الدولة العثمانية، وقد بقيت مهيمنة على هرم دول العالم قرونا هي أطول من مدة دولة الخلافة الراشدة والدولتين: الأموية والعباسية مجتمعة، مما يعني أن دعوى أن هذا الدين عربي دعوى تفتقر إلى العمق والذكاء والموضوعية، وأن مقولة أن المجتمع العربي فقط هو المجتمع الديني لا المديني نوع من التزييف الثقافي.

أما المفاجأة التي لا أدري أيحتملها عقل أدونيس أم لا، فهي أن هذه الأمة التركية ليست تركية.. سميت بالتركية مجازا، فالترك أمة شرقية آسيوية، أما ما اصطلح عليه بتركيا، فأمة رومية – يونانية، أي أنها أمة أوروبية.

المفاجأة الثانية: هي أن هذه الأمة الأوروبية "تركيا" كانت مهد الفلسفة والفلاسفة وبالتالي الديموقراطية كأثينا تماما، يقول طرابيشي في كتاب (مصائر الفلسفة – ١٥): (الفلسفة اليونانية نفسها ما كانت يونانية بالمعنى الإثني للكلمة بقدر ما كانت مكتوبة باليونانية... ثم يقول: إننا نستطيع أن نلاحظ بدورنا أن أكثر الفلاسفة والعلماء الموصوفين بأنهم يونانيين ما كانوا يونانيون، ولا من أهالي أثينا وشبه جزيرة الأتيكي، وأن أثينا نفسها لم تنجب سوى فيلسوفين اثنين (سقراط وأفلاطون) وأن معظم الفلاسفة (الأثينيين) كانوا على حد تعبير نيتشه من (الأغراب) ثم يقول: فكيف يمكن أن يصنف عشرات الفلاسفة من ذوي الأصول السورية أو المصرية الذين كتبوا باليونانية في عداد الجنس الآري)

المفاجأة الثالثة: والتي تبين تكدس المواقف وعشعشتها داخل رأس أدونيس فهي: أن عاصمة الخلافة العثمانية هي استانبول، واستنانبول هي القسطنطينية، والقسطنطينية هي عاصمة المسيحية الرسمية الأولى .. عاصمة سميت باسم قسطنطين الذي عن طريقه دخلت المسيحية أوروبا، فقضت على الفلسفة والفلاسفة فيها، وفي تركيا أيضاً عقد مجمع (نيقية) وهو أول مجمع مسكوني مسيحي يقرر رسمية الديانة المسيحية (البولسية القسطنطينية).

إذا فتركيا أوروبية يونانية، وهي أيضاً مهد الفلسفة والديموقراطية والمسيحية الرسمية، وهي في الوقت نفسه أطول الدول الإسلامية عمرا، وهي الدولة التي خاض شعبها مرارة التغريب على يد أتاتورك أكثر من سبعين عاما، وكلما قامت فيها انتخابات ديموقراطية فاز التيار الإسلامي، ثم يؤخذ الفائزون لا إلى مقاعد الحكم بل إلى زنازين السجن وأروقة المحاكم بالتهمة التي يروج لها أدونيس، وهي أنهم خطر على الديموقراطية، ولا أدري هل هم الذين أقاموا تلك الانتخابات، أم هم الذين فرزوا الأصوات، أم هم الذين أشرفوا عليها، أم أنهم أرغموا الشعب التركي بالسلاح على انتخابهم.

ومن الطرائف التي تدل على مدى شراسة العلماني المنتسب للعروبة أو للإسلام في مواجهة الإسلام نفسه، أن النائبة الإسلامية مروة قاوجي التركية فازت بمقعد برلماني وهي ترتدي الحجاب، ولما دخلت قبة البرلمان بحجابها لم يكتف هؤلاء العلمانيون بمطالبتها بنزع الحجاب، بل تطرفوا فطردوها من البرلمان، وتفاقم هياجهم وسخفهم العلماني وتطرفهم السافر لدرجة سحب الجنسية التركية منها.

ولا يبعد عنه القرار الذي اتخذ في أشرس دولة علمانية عربية تتبنى كل آراء العلمانيين، قرار بفصل أي موظفة أو طالبة ترتدي الحجاب، لدرجة أن ما يسمى كلية الشريعة في تلك البلاد تحتوي مسبحا مختلطا للجنسين. وتطرف العلمانيون هناك فأصدروا قرارا تلاحق بموجبه الشرطة كل محجبة في الشارع وتنزع الحجاب من على رأسها.

ولما غير الإسلاميون فيها أسماء أحزابهم ورضوا بالتسلط العلماني على برامجهم، فازوا مرة أخرى، ولما جاء ترشيح الرئيس من قبل البرلمان، وتم ترشيح إسلامي للمنصب، هاج العسكر العلمانيون وماجوا ورفضوا، ووعدوا بالتدخل، وطالبوا بانتخابات جديدة، فرضخ الإسلاميون وأعيدت الانتخابات وفازوا بنصف المقاعد، أي أن نسبتهم زادت وإقبال الناخبين عليهم تضاعف، نظرا لنزاهتهم واعتدالهم، لدرجة أن تركيا الدولة المثقلة بالديون سددت آخر ديونها لصندوق النقد عام ٢٠٠٧م.

أما أكبر دولة علمانية عربية فيتم فيها الاحتفاء بالراقصات وطرد أي مذيعة ترتدي الحجاب، بل تطرفوا وفصلوا امرأة بوظيفة كابتن طيار لأنها ترتدي الحجاب. أو ليست العلمانية العربية أشبه بالرجال مفتولي العضلات الذين يقفون على أبواب الكباريهات.

نكتة "الديموقراطية ثقافة وليست صندوق انتخاب"

من النكت التي يرددها المحتقنون والمعادون لكل ماهو إسلامي، لجوؤهم إلى آخر المعاقل الآيلة للسقوط. فبعد تكرار تزوير الانتخابات، واعتقال الفائزين، الانقلاب على النتائج بطريقة غدت سخيفة ومفضوحة، لجأ هؤلاء إلى بيت العنكبوت.. طرفة سخيفة تقول: الديموقراطية ثقافة وليست صندوق اقتراع، وهم يقصدون بذلك أن المجتمع يجب أن يقمع حتى يغير قناعاته وثوابته وثقافته الإسلاميه. حسنا، فلنساير هؤلاء إلى بيت العنكبوت ونقول لهم: لقد كنتم تقدمون ثقافة علمانية على مدى قرن وأكثر، فما هي النتيجة؟ الإفلاس.

لماذا صمدت الثقافة الإسلامية بثوابتها ومتغيراتها ومظاهرها، على عكس كل الديانات الأخرى. لماذا تنقرض الثقافة العلمانية العربية كل يوم، ويزداد إقبال الناس على الإسلام كل يوم، بل إن أوروبا تدق ناقوس الخطر بإحصائية ترصد تنامي الإسلام في أوروبا، وتقول إن الإسلام سيشكل الدين الأول في أوروبا بعد خمسين عاماً. بل إن الفاتيكان حذر في ١٣-٧-١٤٢٨ من أسلمة أوروبا.

إن ثقافة تكتسح الثقافات الأوربية، لا يمكن أن يوقفها هراء علماني عربي لا رصيد له حتى بين العرب أنفسهم.

أما الواقع: ففي الوقت الحاضر الذي يعيش فيه أدونيس نرى أن هناك دولا ليست عربية قامت بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتقترب منه أكثر من أي دولة حكمها العلماني العربي، الذي لم يبق من الشريعة فيها سوى بعض نصوص تتعلق بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق، وهي أمور تسمح بها وتقرها كل دول العالم، حتى تلك الدول التي فضحت الكتاب المقدس وألغته من تسيير مناشطها، فإذا اتجهنا إلى ماليزيا – مثلا – وهي دولة غير عربية، والعرب لا يمثلون شيئا في مجتمعها، هذه الدولة تعتبر متقدمة جداً بالنسبة للدول العربية العلمانية المتخلفة مجتمعة، على مستوى الحريات والتعليم وحقوق الإنسان والانتخابات والتقنية والحداثة والاقتصاد ونظام الحكم، وحتى على المستوى الأمني ورغم تعدد الأجهزة الأمنية العربية وبطشها، رغم ذلك فماليزيا هي الدولة الأكثر أمنا على مستوى العالم.

في هذه الدولة الراقية نجد بعض ولاياتها تطبق الشريعة الإسلامية لدرجة أن مفهوم الجزية يطبق هناك على الآخر – غير المسلم – الذي يتحدث عنه أدونيس في النقطة الثانية، ويتقبل هذا الآخر دفع الجزية بكل تفهم ورحابة صدر ويدافع عنه، بل إن حاكم هذه الولاية رجل تخرج من جامعة إسلامية في الدولة السعودية ولم يتخرج من السوربون، وهذا المثال الماليزي الصارخ يلغي كل محاولات تعليق الفشل العلماني العربي في نظام الحكم على مشجب الديننة، الذي يتندر به أدونيس وأمثاله، بل إن المثال الماليزي هو ضربة في وجه العلمانية الحقيقية الغربية التي لم تتخلص حتى اليوم من عقد التاريخ مع الإسلام، ففرنسا التي تغدق على أدونيس وأركون وتقدم لهما الجوائز لقدحهما في الإسلام، هذه الدولة التي تعتبر أم الحريات يخيفها المد الإسلامي المتنامي سلماً في أوروبا، لدرجة أن حريتها – المثال اتسعت

للملاحدة والإباحيين والوثنيين واليهود الصهاينة والعنصريين والمثليين وكل أشكال الانحراف، وضاقت بحجاب فتاتين مسلمتين ففصلتهما من مدرستهما لارتدائهما إياه، وها هي اليوم تفرض قانونا يمنع الحجاب رسميا، وعندما يبحث رئيسها عن اسم مسلم يمكن تمرير القانون من خلال تبريراته، لا يجد أنسب من الكاتب العلماني محمد أركون، والذي يصف أحد العلمانيين اختياره بقوله: أن شيراك لو بحث عن أكثر الناس عداء وتعصبا ضد الإسلام من غير المسلمين فلن يجد من يصل إلى مستوى العلماني محمد أركون. فرنسا أم الحرية تسمح لأدونيس وأركون بالتشكيك في القرآن وشتم العرب والمسلمين وتمنحهما الجوائز وهما من دول عربية، بينما تحاكم المثقف الفرنسي الأصل والجنسية: روجيه جارودي بعد اعتناقه الإسلام، وبعد أن كتب كتابات علمية عن اليهود والصهاينة، بل إن فرنسا هددت الجزائر بالتدخل العسكري إن وصل الإسلاميون إلى الحكم.

أدونيس فرنسي أكثر من الفرنسيين ضد الحجاب

رب كلمة قالت لصاحبها دعني.. كلمات فضحت أدونيس الحر.. الحداثي.. المنفتح على الآخر.. كلمات أراد أن يتقرب إلى فرنسا بها، وقربان ينافس به قرابين أركون لبلاط فرنسا..

لم يتخلف أدونيس عن أركون في تقديم فروض الولاء لفرنسا، فهو يريد أن يقول لفرنسا أنا أكثر ولاءً من أركون.. أنا أكثر فرنسية منكم أيها الفرنسيون.. أنا أكثر تعصبا لكم من سلفي طه حسين.. أدونيس قال كلاما بذيئا في كتابه الأسود (المحيط الأسود – ٩٢).. قال كلاما لا يمت للفكر ولا للحرية ولا للديموقراطية ولا للعلمانية الحقيقية بصلة، لقد وصف تمسك الشابات الفرنسيات المسلمات بحجابهن عن اقتناع ورغم مخالفة أهاليهن لهن، وصف حرية هؤلاء الفتيات في اختيار لباسهن بأنه وقاحة وفوضى وجريمة وتسيب وضد الديموقراطية، بل تطرف ووصفه بكلمة غاية في الشناعة عندما قال: إن لبس الحجاب هو غزو لفرنسا.

قد لا يصدق أحد ما أقول لكن، هذا كلامه أنقله حرفيا، حيث يقول: (لا بد من أن يعرف المسلمون الذين يتمسكون بالحجاب أن تمسكهم هذا يعني أنهم لا يحترمون مشاعر الناس الذين يعيشون معهم في وطن واحد، ولا يؤمنون بقيمهم، وأنهم ينتهكون أصول حياتهم ، ويسخرون من قوانينهم التي ناضلوا طويلا من أجل إرسائها، ويرفضون المبادئ الديموقراطية الجمهورية في البلاد التي تحتضنهم، وتوفر لهم العمل والحرية. إن عليهم أن يدركوا أن مثل هذا التمسك يتخطى الانتهاك إلى نوع من السلوك يتيح لكثير من الغربيين أن يروا فيه شكلا آخر من أشكال (الغزو))

أستاذ الحداثة السوداء يكتب كلامه هذا من فرنسا أم الحريات، وصانعة تمثال الحرية، إنه يحاول تلقين فرنسا وأوروبا بكلمات غاية في القمعية الاستئصالية حول الحجاب، قاموس من الشتائم في أربعة أسطر: (من يتمسكون بالحجاب لا يحترمون مشاعر الناس.. لا يؤمنون بقيم الناس.. ينتهكون أصول حياة الناس..

يسخرون من قوانينهم التي ناضلوا طويلا من أجل إرسائها.. يرفضون المبادئ الديموقراطية الجمهورية.. هذا التمسك يتخطى الانتهاك إلى شكل آخر من أشكال ((الغزو)) يا الله ماذا بقي يا أدونيس من شتائم؟ ألا ترى في الإسلام شيئا جميلا أبداً!!

ما رأيك لو اعتنقت فرنسية بيضاء من الفرنسيين الأصليين الإسلام وتحجبت؟ أتنطبق عليها تلك الشتائم؟ ماذا تقول عن سبعين ألف فرنسي يعتنقون الإسلام سنوياً، أغلبهم نساء، وأغلبهن يتحجبن.. ماذا ستقول لو عشت في المستقبل القريب حيث تقول الإحصائيات أنه في عام ٢٠٥٠ سيعتنق نصف سكان أوروبا الإسلام.

أستاذ الحداثة السوداء هذا كان يعيش في غيبوبة وسبات لعقود عن قلنسوات اليهود وعمائم السيخ وصلبان النصارى وحجاب الراهبات.. لم يعتبر هذه الملابس الدينية غزوا للديموقراطية ولا حتى خرقا، لكنه تحول إلى وحش يحطم ما أمامه للوصول إلى رقاب فتيات وضعن قطعة قماش على رؤوسهن، لسبب بسيط هو أنهن مسلمات.

إذا كان هذا فكر علماني عربي يعيش في الغرب الحر، فكيف سيكون موقفه إذا حكم، أعتقد أن القرامطة لم ينقرضوا، بل تحولوا إلى حداثيين.

ألم يسأل نفسه: أين الوزراء المسلمون في الحكومات الأوروبية، أوليس المسلمون هم أكثر الأقليات عددا بعد المسيحين في أوروبا وأمريكا وأعدادهم بالملايين، لماذا يتولى اليهود الذين يعدون بمئات الآلاف الوازارت تلو الوزارات، أولم يكن في الولايات المتحدة وحدها وفي إحدى الحكومات الديموقراطية أكثر من ستة وزراء يهود؟

وإذا كان أدونيس يدقق في مسألة الآخر وتهمه كثيرا فهل يتسع أفقه لحقيقة تقول: أن الكثير من أرقى الديموقراطيات في العالم تشترط المسيحية لرئاسة الدولة، بل إن هناك أصوات ديموقراطية كثيرة داخل البرلمان الأوروبي يطالب بجعل المسيحية حجر الزاوية للإتحاد الأوروبي، ناهيك عن عرقلة دخول تركيا ضمن الاتحاد. أين أدونيس عن كلام البابا المعصوم ورأس الكنيسة حول النبي محمد عليه السلام، لو قال هذا أحد علماء المسلمين عن المسيح لألف أدونيس كتابا عن الآخر غير المسلم.

سأضرب له مثلا باليهود مرة أخرى، هؤلاء اليهود الذين تمت إبادة الآلاف منهم على مر العصور لدناءتهم ومؤامراتهم.. هؤلاء اليهود الذين يقول عنهم رئيس الولايات المتحدة الشهير (فرانكلين بنجامين) محذرا أمته الأمريكية منهم، وأن إيصالهم لمراكز النفوذ السياسي والمال سيحول أبناء الأمة الأمريكية إلى عبيد.. وقد صدق.

هؤلاء اليهود يعترفون، والتاريخ يعترف أنهم لم يعرفوا الراحة والسلام إلا في ظل الحكومات الإسلامية، ولكي يعرف أدونيس شيئا عن الآخر عليه أن يقرأ تاريخ اليهود في الأندلس أثناء الدولة الإسلامية، ثم معاناتهم مع المسيحيين بعد

سقوطها، وكيف أبيدوا وأرغموا على تغيير ديانتهم إلى المسيحية أو الرحيل، ومن يرفض كانت محاكم التفتيش الكنسية الفظيعة بانتظاره.
وسأضرب له مثلا باليهود أيضاً، وبدولتهم الديموقراطية المدينية التي يعشق التماهي بها، ليقدم هذا المفكر حقوق الآخر (المسلم) الذي يحمل الجنسية الإسرائيلية فضلا عن حقوق من لا يحملها.
وليجبني على سؤال يحيرني كثيرا: لماذا يحظى أبناء طائفته بامتيازات لا يمتاز بها العربي المسلم داخل تلك الدولة الديموقراطية المدينية؟ ولو واصلت طرح الأسئلة عن ديموقراطية إسرائيل لعجزت عن التوقف والتعجب.
ولعل أدونيس من خلال ذلك يريد من المسلمين أن يولوا على الدول الإسلامية رجلا يعبد حجرا أو نارا أو بوذا كي يرضى، وكي تكون دولة ديموقراطية في نظره.
أولم يضطر كارلوس منعم إلى تغيير عقيدته كي يكون رئيسا للأرجنتين، وعندما توفيت ابنته دفنها في مقابر المسلمين ووضع على جثمانها مصحفا.
أما قوله: (الآخر غير المسلم، أو المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي: الفرقة أو الانشقاق أو الكف، هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات المدينية كلها، وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق))
هذا الفارق يكشف جهل أدونيس بتراث الإسلام وانتقائيته في اختيار النصوص، مع أنه لم يضرب مثالا ولم يستدل بنص يمرر به طائفيته التي أكدها بقوله (المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي : الفرقة أو الانشقاق أو الكف)
هذه الطائفية هي التي أعني بها تثقيف الهدف.
أدونيس الإيديلوجي يظهر مرة أخرى، فهو يصف غير المسلم بأنه آخر في الدولة العربية، وهذا اعتراف منه بأنه يستهدف الإسلام والدولة الإسلامية لا الدولة العربية، وعدم التصريح بنقده للدولة الإسلامية يوقعه في تناقضات لا يستطيع الفكاك منها، من هذه التناقضات :
أولا : الرجل كان يتحدث عن المجتمع العربي والدولة العربية، فكيف حشر الإسلام حشرا عند التفصيل؟!
ثانيا : هناك تزييف للتاريخ، فليس في التاريخ شيء اسمه الدولة العربية قبل الإسلام، هناك قبائل وأنساب محفوظة، وسلالات وثنية المعتقد والنادر منها تنصر، وهناك أفراد تهودوا وأفراد قليلون بقوا على التوحيد.
ثالثا : العرب لم يكن لهم يوما من الأيام دولة.. الإسلام صهرهم وصهر بقية أتباعه من غير العرب في دولة لا تعرف القومية ولا الإقليمية ولا العنصرية.. دولة إسلامية وحسب.
رابعا : دولة الإسلام لا تعني أن كل من يسكن حدودها من المسلمين بالضرورة أو القهر، فلقد أوحى الله إلى نبيه وقائد دولة الإسلام عليه السلام كلاما غاية في

الوضوح حيث يقول تعالى: (ولو شآء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)
وعندما أسس عليه السلام دولته كتب بينه وبين الأقلية اليهودية عهدا بالدفاع عن المدينة ضد أي معتد، وهذا يتضمن الدفاع عن اليهود ضد أي معتد عليهم، مع أنهم كانوا أشبه بدول مسلحة داخل دولة الإسلام.. كانوا ميليشيات كاملة التسليح داخل دولة الإسلام، بل إن تسليحهم يفوق تسليح المسلمين بمراحل.
هذا على مستوى الجماعات، ولا أظن أن دولة ديموقراطية مهما بلغت ديموقراطيتها وقوتها تسمح لمثل الميليشيات اليهودية تلك بالتواجد دون نزع أسلحتها، وفرض الضرائب على ممتلكاتها وتقييد تحركاتها، لاسيما وهي تشكل حركية إثنية موجهة في أهدافها نحو تقويض الدولة الأم، لقد كان الآخر هو الذي يسهم سلبيا في مشاركته للدولة الإسلامية حيث كان يمثل جيبا للأعداء وكهفا للمتآمرين، فليقدم أدونيس مثالا واحدا لديموقراطية غربية تسمح بميليشيات مسلمة داخل أراضيها.. إن الديموقراطية الغربية، والإسرائيلية لا تسمح بذلك، بل تجمع كلها على أنه إذا ما سمحوا يوما للفلسطينيين بتكوين دولة، فيجب أن تكون دولة منزوعة السلاح.. وربما تكرموا واستثنوا سكاكين الفاكهة لا اللحم..
أما الكارثة الأخيرة التي تنسف ادعاءات أدونيس، وافتراءاته على دولة النبي والخلافة الراشدة، والتي حلت بالديموقراطية الغربية فهي طامة لا يجرؤ أدونيس على الكتابة عنها، ألا وهي دعم الغرب الديموقراطي كله للاعتراف بإسرائيل (دولة يهودية).. أجل دولة يهودية.. أي دينية.. أي توراتية.. شعبها وحكوماتها لا يقبلون الآخر المسيحي، ولا المسلم أو الوثني.. بينما تقوم آخر الدول العربية تطبيقا للشريعة (السودان) بجعل نائب الرئيس ووزير الخارجية من مسيحي الجنوب!!
وأعتقد بعد ذلك أن المقارنة بين الموقفين نوع من الدجل.
خامسا : الآخر على مستوى الأفراد.
يقول أدونيس أن: (هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات المدينية كلها، وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق))، ولا أدري أي جنون يهذي به، هل هناك دولة تجعل من نفسها تابعة للأقليات، تابعة للآخر الذي يعيش داخله، ومن كلامه يبدو أنه يرى أن الدولة الإسلامية تستخدم الآخر ولا تخدمه، وتستنزف قواه وتطلب منه القيام بالواجبات المدينية كلها.. كل هذا مقابل ماذا؟ مقابل شيء من أبسط حقوقه الإنسان هو: السماح له بالعيش بسلام في الدولة الإسلامية، مجرد السماح بالعيش. ثم تلك الكلمة التي تنضح بأشياء غريبة وهي قوله: (لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفه (تابعاً))
هذا هو ما تفتقت عنه عقلية أدونيس – العميق – عن الآخر داخل الدولة الإسلامية، والسؤال الذي يطرح نفسه هو: أي نص تراثي قرأه أدونيس عن دولة الإسلام، وهل مر على ذاكرة هذا المثقف الطائفي شيئ اسمه السيرة النبوية التي هي الفصل عند الاختلاف.

ذات يوم وبينما كان الآخر – غير المسلم الذي يدافع عنه أدونيس – يلحق بالنبي صلى الله عليه وسلم في إحدى الغزوات ليقوم بدوره المديني الملح في الدفاع عن دولته الإسلامية، ولا أعتقد أن هناك دورا أرقى وأعظم من تقديم الروح فداءا للوطن، ولا أظن أن هناك فرصة أشهى لاستغلال الآخر واستنفاذ قواه من استخدامه في المعارك، ومع ذلك كله يرفض النبي صلى الله عليه وسلم مشاركته واستغلاله، رغم أن هذا الآخر ليس جيبا كأدونيس أو ابن سبأ أو ابن سلول، بل كان شهما وشجاعا وصاحب نجدة وحمية، لكن دولة الإسلام ليست بحاجة إلى تضحيات الشجعان الذين لم يرتقوا إلى المستوى الفكري، الذي يحملهم حملا إلى ذلك الجهاد، دون دافع عنصري أو قبلي أو حماسة طائشة، أو حتى طمع مادي، الجهاد ليس سطوا والمجاهدون ليسوا مجموعة من المرتزقة وقطاع الطرق، وإلا لتفتت الجهاد على أول صخرة، ولم يتوغل في القارات الثلاث بسرعة لم تسبق. الجهاد ذروة سنام الإسلام ولا يمكن تلويثه بالشره، الجهاد فتح لأقفال التخلف واحتكار الحقيقة، ومن يحملون هذا الهدف لا يمكن أن يحملوه مزحوما بالجشع أو حب الشهرة.

الإسلام يرفض أن يسمى مجاهدا من يفعل تلك الأمور – ولوكلن مسلماً.. لقد (سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن [الرجل يقاتل غضبا و] يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله – صحيح مسلم ٣ – ١٥١٣)

لنعد إلى الآخر الذي يريد أن يقدم روحه لهذه الدولة في وقت هي بأمس الحاجة إليه، (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: فارجع فلن أستعين بمشرك. ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة. قال: فارجع فلن أستعين بمشرك. ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله. قال: نعم. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق – صحيح مسلم ٣ - ١٤٤٩)

رُد هذا الرجل لأنه لا يحمل أهداف الجيش ولا ثقافته، والتي بدونها قد يرتكب هذا الآخر مذابح ومجازر وينتهك من الحرمات ما يلوث بها الرسالة التي من أجلها بعث ﷺ وأوحي إليه.

لماذا لم تستغل الدولة الإسلامية إمكانيات هذا الرجل التي فرح باستثمارها جميع الصحابة، مع أن هذه المعركة قامت دفاعا عن أرضه وعرضه ودولته؟

قد يطرح أدونيس سؤالا ساذجا فيقول: أن هذا الرجل لا يمكن أن يكون يوما من الأيام رئيسا لدولة الإسلام، على العكس لو كان يعيش في دولة مدينية ديموقراطية فلربما تحقق له ذلك. وهذه الإجابة تدفع بأسئلة كلها إجابة :

هل يحلم مسلم – مجرد حلم – أن يكون رئيسا لأمريكا أو روسيا أو بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو صربيا ... بل هل يحلم رجاء جارودي الأوربي الفرنسي الأصل واللغة المسيحي سابقا، المسلم حاليا، أن يحظى بالمعاملة نفسها التي ينعم بها أدونيس أو أركون العربيان اللا إسلاميان، ليس على أرض إسلامية أو عربية، بل على أرض فرنسا مسقط رأس جارودي وبين أهله وأصدقائه وداخل وطنه؟ بل هل يحلم المسلمون الذين يعيشون في الغرب – وهم بالملايين – أن تتم مساواتهم باليهود وهم بالآلاف فما بالك بالمسيحيين ؟ ناهيك عن حلم الفلسطيني المسلم الذي يحمل الجنسية الإسرائيلية في أن يكون رئيساً لإسرائيل الديموقراطية المدينية؟

إن تاريخ الدولة الإسلامية – التي يتجنى أدونيس عليها – لقمة يلوكها الغرب يوميا، لكنهم لن يتمكنوا من ابتلاعها ولن يستطيعوا نسيان طعمها؟

وحتى يدرك القاريء تعصب أدونيس وعداءه الإيديلوجي ضد كل ما هو إسلامي، أسوق هذه النقاط التي تبين أن المواطنة في الدولة الإسلامية تختلف عن الأخوة الدينية، وأن الآخر على عكس ما يقول أدونيس يأخذ كل الحقوق ويعفى من معظم الواجبات، بل إنه عليه السلام يسقط الجنسية عن بعض المسلمين، في الوقت الذي يتمتع المنافقون واليهود والوثنيون بكامل الحماية منه عليه السلام:

١- هاجر عليه السلام وفي المدينة وثنيون مساوون للمسلمين في العدد، ومع ذلك احتواهم حتى دخل أغلبهم الإسلام، وتحول البقية القليلة إلى منافقين.. كانوا يعادونه ويعلنون رفضهم، كما في قصة ابن سلول عندما قال للنبي عليه السلام (رأس الدولة) مستفزا: (لا تغبروا علينا... وقال أيضا: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه - البخاري ٤ - ١٦٦٣) ومع ذلك احتواهم.

٢- وجد النبي عليه السلام اليهود يشكلون ميليشيات معارضة مسلحة ومدربة ومحصنة جداً، فتغاضى عن ذلك وشكل معهم وطنا واحداً، لهم فيه ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين بوثيقة وقع عليها الجميع، ومع ذلك استفزوه، وشتموه، وحرضوا عليه، فلم يحرك ساكنا حتى تحركوا عسكريا وشكلوا خطرا فعليا، لا محتملا على الدولة ومواطنيها مسلمهم ووثنيهم...

٣- ينسف النبي عليه السلام مقولة (أدونيس) السابقة فيقوم عليه السلام بأخذ الزكاة من المسلمين، في الوقت الذي يعفي اليهود من كل شيء حتى الجزية، ويثري سلوكيات أمته مع الآخر فيعفي اليهود من واجب الدفاع عن المدينة رغم الاتفاق المبرم بينهم.

٤- يؤكد عليه السلام مفهوم الوطنية بأرقى صوره، عندما يقوم بإسقاط الجنسية الوطنية - لا الأخوة الإسلامية ولا الرابطة العقائدية- عن صاحبيه (أبي بصير) و(أبي دجانة) رغم ثنائه على دينهما وإخلاصهما وشجاعتهما في انتزاع

حقوقهما بأنفسهما بعد صلح الحديبية.. يرفض صلى الله عليه وسلم إدخالهما في دولته، أو حمايتهما، أو الدفاع عنهما، أو حتى إمدادهما بالسلاح، ويطلب منهما أن يتقبلا وضعهما ويحلا مشاكلهما مع جرائم قريش بأنفسهما، ويديرا أمورهما بأنفسهما بعيدا عن دولته الإسلامية. ماذا يسمى ذلك إن لم يكن إسقاطا للوطنية، والتي تعتبر أول أوليات الحكومة فيها الدفاع عن المنتمين لها؟! فعل عليه السلام ذلك بينما كان اليهود وعبد الله بن سلول وفريق عمله من المنافقين والوثنيين.. يتمتعون بحماية الدولة الإسلامية في المدينة، التزاما ببنود صلح الحديبية الجائرة. هذا التمايز بين الوطنية والأخوة الإسلامية التي لها حقوق أخرى عظيمة، تمايز يسبق الإسلام به ويسمو حتى على الأنظمة الديموقراطية. على سبيل المثال: (الفرق بين المواطن الفلسطيني المسلم واليهودي المهاجر في واحة الديمواقراطية "إسرائيل") ومع ذلك فإن الغرب الآن وليس الأمس.. الغرب بديمواقراطياته وفي آخر نسخها، يقف خلف إسرائيل كي تكون دولة يهودية (دينية) فقط، تمهيدا لطرد ما تبقى من الفلسطينيين من المسلمين، وربما المسيحيين.

سادسا: وفيها تفوح طائفية أدونيس من جديد عندما يتحدث عن الآخر من الطوائف التي لا يريد أن يقول إنها خرجت على الإسلام بل يقول (المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي: الفرقة أو الانشقاق أو الكف، هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات المدينية كلها، وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق))
عند تأمل كلماته: (المسلم الذي يخالف بالرأي رأي الجماعة) نجد أنه لا يجرؤ على التفصيل، لأن الجميع داخل دولة الإسلام لهم آراء مختلفة وإلا فما تفسيره لتعدد المذاهب والفتاوى والآراء؟
لكن يبدو أن كلمة (يخالفه الرأي) تعني شيئا خطيرا جداً هو لب العقيدة الإسلامية التي نزل القرآن من أجلها (التوحيد) الذي هو الإسلام.. أدونيس يريد ركن التوحيد داخل الدولة الإسلامية كرأي ضمن عدة آراء، وقد ارتأت الأغلبية أحد هذه الآراء لكن هناك أقليات أخذت بالآراء الأخرى. هكذا وبهذه التبسيطية والتسطيحية يلقننا أدونيس كيف تتعامل دولة الإسلام مع الآخر – المسلم، وهو يرفض أن يسمى هذا الآخر منشقا أو خارجا عن دائرة الإسلام، يريد أن توصف الإثنيه بعدم الخروج عن الإسلام، وكأن الإسلام سلة للمهملات يلقى فيها أي شيء، ولا أدري هل يعلم هذا الرجل شيئا عن حقيقة الرسالة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم أم لا؟
إذا كانت طائفته تقول أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الله، وبدلا من أن تقول تلك الطائفة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. تقول: أشهد ألا إله إلا حيدرة الأنزع البطين (أي أن علي الملقب بحيدرة هو الله)

ولا نور عليه إلا محمد الصادق الأمين (أي أن محمدا ما هو إلا نور لعلي)
ولا حجاب عليه إلا سلمان ذو القوة المتين (أي أن جبريل هو سلمان الفرسي)
فهل هذا هو الآخر (بالرأي) الذي يدافع عنه أدونيس ويريدنا أن نقتنع أنه مسلم، إذا لم يكن هذا هو الانشقاق فما الانشقاق؟
ألم يقرأ هذا المفكر العميق قول الله تعالى في القرآن:
(قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)
هذه السورة موجودة في التراث الإسلامي الذي لم يقرأه أدونيس، أم أن له قراءة جديدة لهذه السورة تعني أن لله والد ومولود وولد!
ألم يقرأ قوله تعالى: (قرآنا عجبا يهدي إلى لرشد فآمنا به ولن نشرك بربنآ أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا)
ألم يقرأ: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشآء والله على كل شيء قدير)
ما الفرق بين نسبة الألوهية لعلي أو لعيسى أو حتى لمحمد صلى الله عليهم جميعا؟! مالخروج عن الإسلام إذا لم يكن ادعاء أن عليا أو عيسى أو غيرهم من البشر آلهة؟!
ما الفرق بين عبادة هبل أو اللات أو العزى أو بوذا أو كنفوشوس أو براهما أو شيفا أو الحاكم بأمر الله؟
كلها خارج الإسلام حتى لو سموا أنفسهم بأسماء إسلامية وصاموا وصلوا، كلها كفر وشرك بالله الذي يقول : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ماهم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار)
هل يريد هذا الكاتب أن يعتبر اللاإسلام إثنية تعددية إيجابية في العقيدة الإسلامية، وخلاف في الرأي (داخل الإسلام نفسه) لا أكثر؟
له الحق في ذلك لكن التاريخ لا يعرف الرحمة، وهو متعام محترف عن أحداثه التي تؤلمه، وحتى أنعش ذاكرته حول تاريخ الآخر (المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) والذي كان يحتفي به بل وينتمي إليه، وهل هو كما قال يقول: (الآخر غير المسلم، أو المسلم الذي يخالف رأيه (رأي الجماعة) هو آخر(مختلف) لا بالمعنى التعددي الإيجابي، بل بالمعنى السلبي: الفرقة أو الانشقاق أو الكفء، هذا (الآخر) الشريك في المدينة الواحدة لا يشارك مع ذلك في بناء (الأمة) إلا بوصفة (تابعاً) وفي إطار (التسامح) أن يقوم بالواجبات المدينية كلها وأن يرضى – في الوقت نفسه – حرمانه من بعض (الحقوق))
ومع هذا كله فدولة الإسلام اتسعت طوال تاريخها لغير المسلمين مهما كانت ديانتهم، لأن هؤلاء هم رسالتها، والبر بهم وتأليف قلوبهم أحد أهدافها. وحتى لو

رفضوا فإن احترام آدميتهم وخصوصيتهم لا يمكن التشكيك فيها، لا سيما والإسلام يبشر من يسقي كلبا عطشا بالجنة فكيف بإنسان.
ومع هذا أيضاٍ فإن هذا الآخر الذي يتحدث عنه أدونيس وُجد، وبشكل أكثر خروجا وانشقاقا وخيانة، فقد كان يعيش في الدولة الإسلامية طائفة يقودها عبد الله بن أبي بن سلول، وهي طائفة جمعت صفات العلمانية العربية وأكثر، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرفها ويعرف أفرادها فردا فردا، ويعرف دورهم ومؤامراتهم، وقد قاموا بعدة خيانات وحملات تشويه وإشاعات وتخذيل داخل الدولة الإسلامية، وتمادوا فهددوا بطرد رأس الدولة الإسلامية، وتعاظم وضعهم إلى التحالف مع أعداء الدولة ليصل بهم الأمر بهم أخيرا إلى محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم الذي يمثل رأس الدولة.
لو كان هذا الآخر في دولة مدينية لربما حكم عليه بالإعدام، أو السجن مدى الحياة عند تلك الدول التي تمنع الإعدام على أرضها، ومع ذلك كله عوملوا معاملة المواطنين تماما دون تمييز، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل أعذارهم مباشرة ودون نقاش عندما يعتذرون عن المشاركة في معركة أو حتى سفر، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتشدد في أعذار المؤمنين. هذا الآخر الخارج الذي يتحدث عنه أدونيس له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، إلا إذا ظهرت خيانته أو أعلن خروجه.إذا فمالإشكالية التي يعيشها:

أدونيس والدين الإسلامي

لم استغرب كثيرا عدم إجابة أدونيس على الأسئلة التي طرحها عليه الأستاذان (لوك باربولسكو، وفيليب كاردينال) في كتاب (رأيهم في الإسلام) وعدم استغرابي نابع من قراءتي لكتب هذا الرجل الذي لا يريد إحراق نفسه في مواجهة أسئلة حادة ومباشرة، وقد أفلح الرجل بترويج مسحة الغموض الجذابة على فكره، ولكي نرى هذا المفكر واضحا علينا أن لا نبرئه من صفة البشرية، وصفة البشرية تعني أن للرجل – مثل ما لغيره – خلفية تراثية وثقافية كما أن له رؤية وفكر، وأن هناك على مر العصور مفكرون يفوقون أدونيس فكرا ورؤية وشهرة، كانت خلفيتهم التراثية والثقافية الموجه الأكبر لما يطرحونه ويكتبونه، ولعل في كبار المستشرقين أكبر مثل على ذلك.
إذاً فأدونيس ليس استثناءا وليس طفرة ثقافية موسومة بالموضوعية، أدونيس فكر قديم مكرر مكتوب بلغة جديدة ورائعة ومدهشة، لكنه يظل فكرا قديما متراكما شكله كل من كذبوا النص الإسلامي أو خرجوا عليه، كأبي جهل وأبي لهب وبقية كفار قريش، ومن بعدهم السبأية والقرامطة والصوفية الحلولية كابن عربي والحلاج وغيرهم، وليست الخطورة هنا في الخروج، بل في خلطه العجيب بين تلك الرموز التي تبنت الخروج على القديم، هذا الخلط أكسبه شيئا من الوهج والتأثير والفاعلية على من يقرأون له، فهو ينطلق بهم من نقض مسلمات التراث الأدبي اللذيذ والمثير والمقنع، ليدفع بهم دفعا نحو نقض مسلمات التراث الإسلامي، وتحت

ذلك المخدر اللذيذ يغيب عن هؤلاء المحمولين حملا الوعي بحجمهم، وحجم من وما يواجهون، وتغيب عنهم سطحيتهم وعمق من يواجهون وما يواجهون.
أدونيس لا يمكن أن ينادي بتلك المواجهة إلا لأن غيره سيتكفل بدفع فاتورتها، فهو لن يخسر شيئا، وأدونيس يفعل ذلك لأن خلفيته الثقافية والتراثية لا ترتبط بتلك المسلمات الإسلامية بصلة، كما أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين خروج أبي نواس على القصيدة الطللية وخروج (القرامطة) على الفكر الإسلامي، أبو نواس قد يقدم رؤية شكلية جديدة وحداثية ويتجاوز التقليد إلى التجديد، و قد يرتقي فيستبدل كتابة ما يسمعه بكتابة ما يعايشه ويعانيه، وهو إبداع مدفوع بحس ثقافي متصاعد، أما شهواته التي يمجدها ويحتفي بها فتظل في دائرة ضيقة هي الانحلال الأخلاقي، وهي ليست تجديدا ولا كشفا ولا تقدم رؤية جديدة أو تضيف شيئا للعالم، فالشهوات هي الشهوات والانحلال هو الانحلال، وهو موجود من أيام قوم لوط.. قبل أبي نواس وقبل امريء القيس، وهي حالة تنتعش في ظل الترف والدعة وعدم الإنجاز، وحياة التبطل وعدم الالتزام الأخلاقي والعقائدي، وعندما حرم الإسلام الخمر كان بسبب أنها تنفي حدود العقل واللياقة والأدب، فيقول الإنسان بذاءة، ويرتكب جرما، وقد ينزو على أمه وأخته وابنته، أولم يقل أبو محجن الثقفي وهو في حالة الدعة معاقرا للخمر (الأغاني ١٩ ـ ١٤):

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفــلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقــها

قد يحتفي أدونيس بهذه الأبيات التي هي مباشرة في معظمها، لأنها تحتوي على ذكر الخمر، لكنه لن يحتفي بأبيات رائعة قالها أبو محجن لما سجنه سعد بن أبي وقاص، وحرمه من المشاركة في معركة القادسية لشربه الخمر. توسل أبو محجن لزوجة سعد ليس لتسقيه خمرا كما يفعل أبو نواس وأمثاله، بل رجاها أن لا تفوت عليه إنجازا عظيما كهذا، وأن تفكه ووعدها أن يعود لقيده بعد المعركة، وأن لا يعود لشرب الخمر. فقال شعرا الأغاني ١٩ ـ ٨ أرقى مما قاله سابقا:

كفى حزنا أن تردي الخيل بالقنا وأترك مشدودا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحدا لا أخاليا
وقد شف جسمي أنني كل شارق أعالج كبلا مصمتا قد برانيا
فلله دري يوم أترك موثقا وتذهل عني أسرتي ورجاليا
حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيري يوم ذاك العواليا
ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

أدونيس يبتهج ويبشر بأبياته الأولى، لكنه يتعامى عن الأخرى. إنها شهوات وانحرافات سرعان ما تتطاير عندما يرتفع الوعي، فلم يجعل منها أدونيس رؤية جديدة وخروجا على النص وتجديدا في عالم الإبداع.

أما القرامطة فيكفينا من إبداعاتهم تجاه الآخر وطرحهم المختلف ما قاله صاحب (البدء والتاريخ ٥ – ١٣٢) : (وأما القرامطة فأصحاب القرمط وهو رجل من سواد الكوفة أباح لهم قتل من خالفهم، فلذلك خرجت القرامطة على الحجاج)
هؤلاء هم القرامطة (خلفية أدونيس العقائدية) أما منطلقاتهم وإنجازاتهم وعلى من خرجوا؟ وما سر احتفاء أدونيس بهم، فالإجابة في تلك الوثائق المرعبة التي مرت معنا عندما قطعوا الطريق على (حجاج بيت الله الحرام من أهل خراسان وهم قافلون من مكة، فقتلهم عن آخرهم وأخذ أموالهم وسبى نساءهم فكان قيمة ما أخذه منهم ألفي ألف دينار، وعدة من قتل عشرين ألف إنسان، وكانت نساء القرامطة يطفن بين القتلى من الحجاج وفي أيديهم الآنية من الماء يزعمن أنهن يسقين الجريح العطشان، فمن كلمهن من الجرحى قتلنه وأجهزن عليه – البداية والنهاية ١١ – ١٠١):)
وفي قول صاحب كتاب معجم البلدان ٢ – ٢٢٤ عن الحجر الأسود الموضوع في ركن الكعبة: (ولم يزل هذا الحجر في الجاهلية والإسلام محترما معظما مكرما يتبركون به ويقبلونه إلى أن دخل القرامطة لعنهم الله في سنة (٣١٧) إلى مكة عنوة، فنهبوها وقتلوا الحجاج وسلبوا البيت وقلعوا الحجر الأسود، وحملوه معهم إلى بلادهم بالأحساء من أرض البحرين)
و(تفاقم أمر القرامطة في كل جهة، ونهبوا طبرية، وساروا إلى جهة الكوفة وقطعوا الطريق على الحجاج من طريق العراق، وفتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا منهم أموالا جمة، وبلغ عدة القتلى من الحجاج فيما يقال عشرين ألفا – البداية والنهاية ١١ – ١٥٤):
وجاء في كتاب: (وفيات الأعيان ٢ – ١٤٨)(في سنة إحدى عشرة وثلثمائة في شهر ربيع الآخر منها قصد أبو طاهر (القرمطي) وعسكره البصرة وملكوها بغير قتال، بل صعدوا إليها ليلا بسلالم الشعر، فلما حصلوا بها وأحسوا بهم ثاروا إليهم فقتلوا متولي البلاد ووضعوا السيف في الناس فهربوا منهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوما يحمل منها الأموال ثم عاد إلى بلده ولم يزالوا يعيشون في البلاد ويكثرون فيها الفساد من القتل والسبي والنهب والحريق إلى سنة سبع عشرة وثلثمائة، فحج الناس فيها وسلموا في طريقهم ثم وافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية ٨ من شهر ذي الحجة) فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب الكعبة وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام من غير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة)
هؤلاء هم المجددون الخارجون على المألوف والسائد، هؤلاء هم من يحتفي بهم أدونيس ويراهم رموزا حداثية مبدعة.

نماذج أخرى ولكن مسطحة

هناك نماذج أخرى للعلمانية العربية التي قرأت العقل العربي، نماذج تفتقد أسلوبه الأدبي الجميل والمراوغ.. نماذج ذات لغة خشبية وضعيفة أدبيا، حشر ورصف للمصطلحات لإضفاء – كما يقول المفكر الوهيبي- وهم بالعمق.. مما ورطها في التهور والمجازفة التي أثارت الضحك عليها والسخرية منها، في الوقت الذي كانت تستمطر الإعجاب من وراء ذلك، وهو الأمر الذي عجل بسقوطها نظرا لسطحيتها وسذاجة طرحها، ولم تسعفها تلك الكلمات المتورمة والمصطلحات المرصوفة، ولعل أبرز نموذج لهذا التعالم والتهور العلماني يتجلى في شخصيتين كوميديتين: أحدهما الشيوعي الملحد (صادق جلال العظم) والآخر (محمد أركون)

هذان الرجلان بلغا من الإسفاف في الطرح حد الفضيحة، فهما لا يتورعان عن الحديث باسم العلم والجديد في تعاطيهما مع الشأن الفكري العربي والإسلامي بالتحديد، كما أنهما قد حددا سلفا الوظيفة والإيديلوجيا التي تؤطر كتابتهما..

النص الإسلامي "القرآن والسنة" بالدرجة الأولى، ومن ينضوي تحت لوائهما ثانياً، وهما لا يترفعان عن توظيف أي شيء في مهاجمة النص الإسلامي، ولكن بمحاولة إضفاء سمة العلم على مقالاتهما الإنشائية والسطحية.

يقول العظم في كتابه "نقد الفكر الديني ٢١": (يجب أن لايغيب عن بالنا أنه مرت على أوروبا فترة تتجاوز القرنين ونصف القرن، قبل أن يتمكن العلم من الانتصار انتصاراً حاسماً في حربه الطويلة ضد العقلية الدينية التي كانت سائدة في تلك القارة، وقبل أن يثبت نفسه تثبيتاً نهائياً في تراثها الحضاري، ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية بما فيها الوطن العربي)

إنه يعترف سلفاً أن العلم التجريبي هو من خاض الحرب الحاسمة والحقيقية ضد الكنيسة والكتاب المقدس في أوروبا، وهو من استطاع إسقاط الكنيسة الكتاب المقدس لتنهض أوروبا نهضتها الحديثة، وهو كذلك يعترف أيضاً أن المعركة كانت قائمة على أساس المفاصلة والتناقض الصريح بين العلم والمسيحية وكنيستها في أوروبا.

فلنكمل معه قوله: (ولا يزال العلم يحارب معركة مماثلة في معظم البلدان النامية بما فيها الوطن العربي) في كلماته هذه يقرر ويجزم بكلمات لا يجرؤ عليها أدونيس، على وجود معركة أخرى بين العلم والكتاب المقدس في العالم العربي، وبما أن العلم قد اسقط الكتاب المقدس والكنيسة في الغرب، فبالتالي هو قد أسقطهما في العالم العربي، لكن العظم لا يتعرض للكتاب المقدس والكنيسة في العالم العربي من قريب ولا بعيد، هو يقصد بالمعركة.. معركة أخرى يخوضها العلم التجريبي الحديث ضد القرآن.

سنواصل معه كشوفاته الخارقة في هذا الموضوع بالذات، لنكتشف حقيقة المعركة ونتيجتها، والأمر لن يأخذ منا وقتا طويلا، فالعظم ليس له قدرة أدونيس على الالتفاف والمراوغة، فالعظم واضح ساذج وتقريري ومباشر بعكس أدونيس، كما أن العلم الحديث الذي نسف الكنيسة وهزمها وكشف زيفها وهو في بداياته،

سيحقق في نظره اليوم – وهو في أزهى عصوره – نصراً ساحقا لامثيل له على القرآن والسنة، نظراً لأن الأمر اتضح بشكل حاد وجلي:
علم تجريبي حديث ومذهل في جانب... وقرآن وسنة قديمين نزلا في القرون الوسطى في الجانب الآخر. المعركة بالنسبة للعظم محسومة سلفاً، كما أن أحكامه معدة سلفاً
يقول العظم- ٩ في ثقة لا حدود لها: (تبين بعد هزيمة ١٩٦٧ أن الإيدلوجية الدينية على مستوييها الواعي والعفوي هي السلاح (النظري) الأساس والصريح بيد الرجعية العربية في حربها المفتوحة، ومناوراتها على القوى الثورية والتقدمية) ويقصد بالطبع الرجعية العربية "أي توجه إسلامي، وأي دولة عربية تحكم بنظام أميري أوملكي أو وراثي" وهو يعني بالتحديد دول الخليج العربي، أما تلك الدول الثورية، فهي معروفة
ثم يبين مايعنيه بالسلاح (النظري) فيقول: (يلعب الفكر الديني دور السلاح (النظري) المذكور عن طريق تزييف الواقع وتزوير الوعي لحقائقه: تزييف حقيقة العلاقة بين الدين الإسلامي – مثلا – والعلم الحديث)
لن أدخل في جدل مع العظم حول مصطلح (الدول التقدمية) و(الدول الرجعية)، فالواقع يشهد إفراز العقل العربي، الذي أوصل الدول التقدمية والثورية إلى الموت أو الاحتلال، أو إلى التسول على أبواب الدول الرجعية المتخلفة، أما نسبة الأمية ومن يعيشون تحت خط الفقر، والملايين الهاربة من جحيم وسجون القوى الثورية التقدمية، والمدن التي تم دكها، والمقابر الجماعية فكفيلة بالإجابة.
يهمني هنا هذا الهدر الكلامي والظاهرة التعالمية، والادعائية التي ينفرد بها المفكر العربي السطحي أمثال العظم، الرجل إنشائي في زمن العلم، فهو يصف المسلمين بأنهم يزيفون الوعي والواقع، بل ويفترون على العلم عندما يدعون أن الدين الإسلامي، وبالتحديد القرآن له علاقة بالعلم الحديث، لقد أجهد عقله الجبار بحثا عن دليل على موقفه ذلك، وأخيرا وجدها وليته لم يجدها.
العظم يقول فاضحا العلاقة المزورة – في نظره – بين الإسلام والعلم الحديث: (من الآيات القرآنية التي يحب الموفقون ترديدها في معرض كلامهم عن انسجام الإسلام والعلم الحديث: الوصف القرآني التالي لأصل الإنسان وتكويته: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين"
ثم يقول: (من الجلي أن عملية نمو الخلية البشرية، بالنسبة إلى هذا الوصف القرآني تعتمد على التدخل المباشر والمستمر من قبل الله لنقلها من طور لآخر، أي أن نقلها من نطفة إلى علقة يحتاج إلى عملية خلق جديدة، كما أن نقلها من طور العلقة إلى طور المضغة يحتاج كذلك إلى عملية خلق أخرى.. الخ. وخلاصة القول هو أن نمو الخلية البشرية مثل معجزة إلهية – ساخراً – لا تعليل لها سوى قدرته المطلقة على الخلق، وتدخله المباشر في سير أمور الكون) ثم يتنفس الصعداء

ويسحب الهواء كله عن الإسلاميين قائلا: (هل يتفق هذا الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى؟)
ثم يجهز على الفكر الإسلامي قائلا: (الجواب حتما بالنفي، لأن علم الأجنة لا يدع مجالا للشك في أن الخلية تنمو بالتطور العضوي من طور لآخر، وفقاً لقوانين طبيعية معينة بحيث تنمو المرحلة المتأخرة من صلب المرحلة السابقة عليها، وعلى أساس معطياتها الأولية، كل ذلك بصورة تسمح لنا بالتنبؤ بتطور الخلية) ثم يقول موجها ضربة قاضية لمعتنقي القرآن: (وكم كنت أود لو لم يكتف الموفقون الدينيون العلميون بمجرد الاستشهاد بالوصف القرآني لنمو الخلية، وتعدوا ذلك لإيضاح رأيهم في كيفية انسجام هذا الوصف مع معارفنا العلمية الثابتة عن هذه الظاهرة الطبيعية)
هذر العظم هذا هو بعض ما يعنيه أدونيس بالقراءة الجديدة والخاصة والمختلفة لقراءة الأسلاف، لكن أدونيس لا يورط نفسه كثيرا في الولوغ داخل التخصصات العلمية لنسف النص الإسلامي، بل يكتفي بالإنشاء والأسلوب الأدبي المطاط، أما أركون والعظم وأمثالهم فمتهورون، يحشرون أنفسهم في أي شيء وهم مستعدون لفعل أي شيء، وقول أي شيء من أجل إسقاط النص، ولو تأملنا عبارات العظم السابقة، والمحتقنة بوهم (الثقة) لأدركنا مدى التورط الذي أوقع نفسه فيه، فلو تأملنا الكلمات السابقة:
(هل يتفق هذا الوصف والتعليل مع معارفنا العلمية عن الموضوع، ومع ما يبينه لنا علم الأجنة حول تطور الخلية البشرية في مراحلها الأولى؟) (الجواب حتما بالنفي) (علم الأجنة لا يدع مجالا للشك) (انسجام هذا الوصف مع معارفنا العلمية الثابتة عن هذه الظاهرة)
إن من يقرأ هذه الكلمات يظن لفرط ثقة صاحبها بنفسه وبعلمه، أنها صادرة عن أحد جهابذة العلم التجريبي، أو أحد مراجع علم الأجنة في العالم، فكلمات مثل (معارفنا) (يبينه لنا علم الأجنة) (الجواب حتما بالنفي) (علم الأجنة لا يدع مجالا للشك) (انسجام هذا الوصف مع معارفنا العلمية الثابتة) لا تصدر إلا من متخصص، ومن تحدث في غير فنه أتى بالعجائب، والعظم لا يأتي بالعجائب، إنه يأتي بالطوام.
وماذا نتوقع من أستاذ في العلوم الأدبية يتحدث في علم تجريبي دقيق كعلم الأجنة.
الرجل ترك تلك التفاصيل الدقيقة التي يتوجب صب الجهد عليها في الآيات، أعني صحة المعلومات ودقة الوصف المراحل الجنينية – تجريبيا – ليتجه إلى ناحية لغوية بحتة يجهلها هي الأخرى.
فقوله تعالى: (ثم خلقنا النطفة) .. لا تعني كما فهم هذا الأبله (أوجدناها من العدم) فالآية تقول أنه خلق النطفة علقة، أي حول النطفة إلى علقة، وأوجدها منها، كما يقول تعالى: (خلقناكم من ذكر وأنثى) (خلقناكم من تراب وهكذا..) (خلقناكم من تراب ثم من نطفة)

هذا ليس هو المهم، ففهم اللغة لا يشكل عائقا عن الإيمان بالنص، بل يثري الإيمان ويعززه، كما يقول ابن عمر: (قال النبي صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحدا منهم ـ صحيح البخاري ١ ـ ٣٢١) فبعض الصحابة فهم أن المراد العجلة، والآخرون فهموا النص حرفيا، هذا هو إثراء النص، أما فهم العظم فلا يعرف الإثراء، إنه يشبه هيام بعض الحشرات الطائرة بالبحث عن المزابل، مما يجعلها ناقلة للأمراض والعدوى. فهو لتخلفه ولجهله بعلم الأجنة، لا يناقش دقة القرآن في وصف تلك المراحل، وهل حقا هناك نطفة، وهل حقاً هناك علقة ومضغة وعظام وكساء العظام باللحم..

إنه لا يسأل هل هذه الأشياء موجودة حقاً، وهل مررنا بها في زمن تخلقنا في بطون أمهاتنا.. هو لا يسأل هذه الأسئلة، لأنه لا يهدف إلى الوصول إلى المعلومة، بل يهدف إلى تحطيم المعلومة وتشويهها وبالتالي التشكيك بمصداقيتها، ومصداقية من نقلها، ومن نقلت عنه، ومن أوحيت إليه.

العظم وأركون لا يسألان هذه الأسئلة المفصلية الحاسمة، لأنهما سيضطران إلى مواجهة سؤال يدمر كل إيديلوجيتهما وأحكامهما المعلبة والجاهزة.. سيظطران إلى الهروب من سؤال لم يهرب منه العلماني الغربي التجريبي، بل واجهه، وتصدى له، هذا السؤال الخطير جداً.. جداً هو:

إذا كانت تلك الأشياء (النطفة.. العلقة.. المضغة..) بهذا التراتب وبهذا الوصف موجودة حقاً في رحم المرأة الحامل كما وصفها القرآن، فمن أين لمحمد الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، من أين لمحمد راعي الغنم، الذي عاش في أحلك قرون العالم جهلا وظلاماً.. من أين له تلك المعلومات الدقيقة التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين.. قرن الاكتشافات المذهلة، والأجهزة الفائقة الدقة.. لذا يفضل العظم وأركون الهرب إلى حيث لا مكان للعلم ولا للتجربة..

إن العظم لا يعرف عن هذه الأشياء المذكورة في القرآن شيئا لأنها تحتاج إلى أجهزة بالغة الدقة، وعلماء تجريبيين مفتونين بالبحث عن الجديد والمفيد، أما العظم فما زال مفتونا بأسلوب الملاحدة القدماء أمثال الرازي وابن الراوندي وحديثهم عن عسل الجنة ولبنها وكيف يعذب إبليس بالنار، وهو مخلوق من النار وبقية الأسئلة التافهة، وكيف يقول ابن الراوندي أن الاغتسال مناف للفطرة، وأن الكتاب المقدس أصح من القرآن لأن أتباعه أكثر. لذلك ترك العظم كل الآيات التي تتحدث عن تسلسل عملية الخلق، مثل قوله تعالى في خطابه لأمثال العظم: (ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا)، وانكفأ على معنى واحد للخلق وهو الإيجاد من العدم، مع أنه لو قرأ القرآن لوجد فيه آيات تعني أن الخلق لا يعني من العدم دائما، كقوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) فكم هي المسافة بين التراب والنطفة؟

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وغيرها من الآيات.
وبعيدا عن انتقائية العظم في فهم اللغة.. نتجه إلى أرض المعركة التي طلب منا العظم نفسه أن نتجه لها، لنعرف النتيجة، سنتجه لأهل الاختصاص في علم الأجنة، سنتجه لأهل المعركة الحقيقية بين المقدس والعلم الحديث، للرجال الذين كسبوا معركتهم مع الكنيسة والكتاب المقدس، للمكتشفين والمخترعين الذين أذهلوا العالم بكشوفاتهم، لا بهرائهم، ليحدثونا عن مدى تطابق ما جاء في القرآن مع حقائق العلم التجريبي الحديثة، فهؤلاء التجريبيون المأخوذون بصحة المعلومة ودقتها ومدى تطابقها مع الخلق الموجود، ليكشفوا لنا حجم التزوير الذي يدعيه العظم وأركون وهما اللذان لم يمسكا يوما بمجهر، أو يدخلا معملا.
العظم يناقش قضية لغوية داخل معمل، لذا سأترك الكلمة لأهل التخصص العلمي، سأترك الكلمة لأعظم مراجع العالم في علم الأجنة – ولا أظن العظم دارس الفلسفة منهم – سأتركهم ليبينوا موقفهم من جرأته في الحديث نيابة عنهم، وليكشفوا بأنفسهم سطوه على مختبراتهم وتزويره للنتائج التي حصلوا عليها، بل وجهله بلغته هو، وليقولوا كلمتهم وكلمة العلم في هذه الآية، ها هو أحد مراجع علم الأجنة.

البروفيسور (كيث. ل. مور)

صاحب كتاب (أطوار خلق الإنسان) (The Developing Human) وهو مرجع علمي عالمي مترجم بثمان لغات، بل إنه عندما كونت لجنة أمريكية لاختيار أحسن كتاب في العالم ألفه مؤلف واحد، كان هذا الكتاب هو الفائز بتلك اللجنة، أما المؤلف فهو أستاذ علم التشريح والأجنة في جامعة تورنتو بكندا، وقد تدرج فيها حتى وصل إلى هذه المرتبة في جامعات عديدة منها: جامعة توينابك في الغرب الكندي، حيث كان هناك لمدة ١١ سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، ومنها على سبيل المثال: (جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا) و (مجلس اتحاد العلوم الحيوية) كما انتخب عضواً بالجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وعضواً في إتحاد الأمريكتين في التشريح أيضاً، وقد ألف العديد من الكتب، بعض هذه الكتب في مجال التشريح الأكلينكي وعلم الأجنة، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعاً لطلاب كليات الطب، وقد ترجمت إلى ثمان لغات: الروسية، واليابانية، والألمانية، والصينية، والإيطالية، والبرتغالية، والإنجليزية، واليوغوسلافية.
أعتقد بعد هذا أنه لا مجال للمقارنة بين (كيث مور) وبين الكاتب الملحد (صادق جلال العظم) في علم الأجنة إلا لدى المجانين.
هذا العالم التجريبي المسيحي قام بتناول النص القرآني تناولا علمياً تجريبياً بحتاً، لا علاقة له بقراءة الأسلاف (فهو لا ينتمي لأسلافنا)، ولا بقراءة أدعياء العمق والمعرفة (أركون والعظم) قرأه وهو غير مسلم، ووضعه تحت مجهر علم الأجنة، فخرج من مختبره يعلن دقة الوصف القرآني وإعجازه، ولم يتوقف عند ذلك، لقد أخذه النص القرآني في سياحة بين دفتيه، فلم يجد من أثر لتلك المعركة، لقد وجد

العلم التجريبي بحقائقه يشهد لكل معلومة وردت في القرآن، فلم يملك الرجل سوى أعلان استسلامه للقرآن وأعلان إسلامه، ولم يتم ذلك عاطفيا وإيديلوجيا، بل بعد تسليمه بالتطابق المعجز بين علم الأجنة وما جاء في القرآن، المذهل هنا، والذي يثير الضحك على العظم وأركون معا، هو أن هذا العالم الكندي التجريبي قام بتأليف مجموعة من الكتب العلمية، ليس بمشاركة علماني عربي، بمشاركة شيخ معمم يصبغ لحيته بالحناء، هو الشيخ (عبد المجيد الزنداني) المتخصص في الإعجاز العلمي للقرآن، ومكتشف علاج الإيدز مع فريق طبي وصيدلي، والدكتور (مصطفى أحمد) مندوب الإعجاز العلمي في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هذه الكتب:

(وصف التخلق البشري – طورا العلقة والمضغة)

(مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق البشري)

وقد ألقى محاضرة بالمشاركة مع الشيخ الزنداني والدكتور عمر نصيف، يقول عنها الشيخ الزنداني في موقعه على الإنترنت (إنه الحق): (هذا هو البروفيسور "كيث ل. مور" أحد كبار العلماء في العالم في مجال التشريح وعلم الأجنة، طلب منه أن يكون مستشاراً علمياً لإبداء رأيه من الجانب العلمي حول بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه، هذا الأستاذ مؤلف لكتاب (The Developing Human) (أطوار خلق الإنسان) وهذا الكتاب مترجم لثمان لغات، وعندما طلبنا منه أن يبدي رأيه فيما سمع من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية اندهش وأعلن دهشته هذه، كيف يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم قبل ١٤٠٠ عام أن يصف الجنين وأطواره هذا الوصف الدقيق الذي لم يتمكن العلماء من معرفته إلا منذ ثلاثين عاماً؟! وسرعان ما تحولت دهشته إلى إعجاب بهذا البيان وهذا الهدي، فتبنى هذه الآراء في المجامع العلمية وقدم محاضرة بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة) ....

وتحدث الدكتور (مور) فقال: (لقد أسعدني جداً أن أشارك في توضيح هذه الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله، لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثاً وبعد قرون عدة، وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله)

وقد عقب الشيخ الزنداني. بقوله: تأمل ما قاله هذا الأستاذ الكبير من مشاهير علماء العالم في الأجنة عندما درس الآيات المتعلقة بمجال اختصاصه في هذا الكتاب قال: إنه لا بد أن يكون محمد رسولاً من عند الله، وعندما شاهد البروفيسور كيث مور العلقة التي توجد في البرك وقارن بينها وبين الجنين في مرحلة العلقة، وجد تشابها كبيراً بين الاثنين، ثم قال بعد ذلك: إن الجنين في مرحلة العلقة يشبه هذه العلقة تماماً. وتبنى هذه القضية وجاء بعد ذلك بصورة لهذه العلقة التي تعيش في البرك، ووضعها بجوار صورة أخرى للجنين، وجمع بينهما في شكل توضيحي وعرضه على الأطباء في عدد من المؤتمرات، وبين البروفيسور (كيث مور) أيضاً أن الجنين في مرحلة العلقة يكون معلقاً في رحم أمه، وكذلك فإن العلقة في لغة العرب تعني الدم المتجمد، وقد ذكر البروفيسور (مور) أن الجنين في مرحلة العلقة

تكون الدماء فيه محبوسة في العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة، فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجمد، وهكذا تشمل كلمة (العلقة) جميع أوصاف الجنين فمن أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم بهذا؟
ثم تحدث البروفيسور مور عن المضغة وجاء بقطعة من الطين الصلصال ومضغها بفمه، ثم جاء بصورة من جنين وقارن بين الاثنين وقال: إن الجنين يشبه المضغة، ولقد نشرت بعض الصحف الكندية كثيراً من تصريحات البروفيسور كيث مور، وأخيراً قدم (مور) ثلاث حلقات في التلفزيون الكندي عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل ١٤٠٠ عام وما كشف عنه العلم في هذا الزمان، وعلى أثر ذلك وجه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنى ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لم أجد صعوبة في قبول هذا.
وفي محاضرة أخرى يقول الزنداني عن البرفيسور كيث مور: التقينا به وعرضنا عليه كثيراً من الآيات والأحاديث المتعلقة بمجال تخصصه في علم الأجنة، فاقتنع بما عرضنا عليه وقلنا له: إنك ذكرت في كتابك القرون الوسطى وقلت: إن هذه القرون لم يكن فيها تقدم لعلم الأجنة، بل لم يعلم فيها إلا الشيء القليل، وفي هذه العصور عندكم كان القرآن ينزل عندنا، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يعلم الناس الهدي الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وفيه الوصف الدقيق لخلق الإنسان ولأطوار خلق الإنسان، وأنت رجل عالمي فلماذا لم تنصف وتضع في كتابك هذه الحقائق؟ فقال: الحجة عندكم وليست عندي، قدموها لنا. ففعلنا، فكان هو كذلك عالماً شجاعاً، فوضع إضافة في الطبعة الثالثة وهي الآن منتشرة في العالم بثمان لغات، يقرؤها أكابر العلماء في العالم الذين ينطقون باللغة الإنجليزية والروسية والصينية واليابانية والألمانية والإيطالية واليوغوسلافية والبرتغالية.
أكابر العلماء في العالم الناطقين بهذه اللغات يقرؤون ما أضافه البروفيسور كيث مور في هذا الباب. يقول مور في كتابه تحت عنوان (العصور الوسطى) وكأنه يهيل التراب على جهالات العلماني العربي أمثال (العظم) وهو يهرف بما لا يعرف عن مفهوم الخلق بعد الخلق في الآية:
كان تقدم العلوم في العصور الوسطى بطيئاً ولم نعلم عن علم الأجنة إلا الشيء القليل، وفي القرآن الكريم الكتاب المقدس لدى المسلمين ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات من الذكر والأنثى، وقد وردت عدة إشارات بأن الإنسان يخلق من نطفة من المني، وبين أيضاً أن النطفة الناتجة تستقر في المرأة كبذرة بعد ستة أيام، والمعروف أن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام تبدأ في النمو بعد ستة أيام من الإخصاب، ويقول القرآن الكريم أيضاً: إن النطفة تتطور لتصبح قطعة من دم جامد (علقة)، وأن البُييضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام، أو أن البُييضة الملقحة التي بدأت بالانقسام أو الحمل المجهض تلقائياً يمكن أن تشبه العلقة، ويمكن رؤية مظهر الجنين في تلك المرحلة يشبه العلقة كما هو موضح (الشكل): فإن الرسم لا يختلف عن شكل العلقة أو ماص الدماء، ويكون مظهر الجنين في هذه المرحلة يشبه شيئاً ممضوغاً كاللبان أو الخشب، ويظهر في

(الشكل) وكأن فيها آثار الأسنان التي مضغتها، ولقد اعتبر الجنين في الشكل الإنساني بعد مضي أربعين أو اثنين وأربعين يوماً، ولا يشبه بعدها جنين الحيوان. لأن الجنين البشري يبدأ باكتساب مميزات الإنسان في هذه المرحلة، كما هو مبين في (الشكل الذي أمام الحضور): قال تعالى: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث) سورة الزمر ٦.

إن الجنين يتطور داخل ثلاثة حجب مظلمة. وهذا قد يشير إلى:

١- جدار البطن الخارجي للمرأة.

٢- جدار الرحم.

٣- الغشاء الداخلي الذي يحيط بالجنين مباشرة.

ولا يتسع المجال لمناقشة موضوعات هامة أخرى مشوقة وردت في القرآن الكريم، وتتعلق بتطور الإنسان في مرحلة ما قبل ولادته. هذا الذي كتبه د. كيث مور وأصبح منتشراً في العالم اليوم ولله الحمد وهو ما أملاه عليه البحث العلمي.

لقد اقتنع الأستاذ كيث مور أيضاً بأن التقسيم الذي تقسم إليه أطوار الجنين في بطن أمه الآن في العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم، ولا ينفع في فهم مراحل تطور الجنين، ذلك لأنه يقسم المراحل تقسيماً رقمياً أي المرحلة١، ٢ ،٣ ، ٤ أو المرحلة رقم ٥ وهكذا...

والتقسيم الذي جاء به القرآن لا يعتمد على الأرقام بل يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية، فكانت التقسيمات في كتاب الله "نطفة، علقة، مضغة، عظام، كساء العظام باللحم، النشأة خلقاً آخر"

وهناك تفاصيل متفاوتة في كل منها، وعن هذه التقسيمات القرآنية التي تعتمد على الشكل المحدد المتميز عن الشكل الآخر قال البروفيسور كيث مور: هي تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة ومفهومة ونافعة.

ووقف في أحد المؤتمرات يعلن هذا فقال: "يحمي الجنين في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات موضحة في الشريحة التالية: (الجدار البطني. الجدار الرحمي. الغشاء.) لأن مراحل تطور الجنين البشري معقدة وذلك بسبب التغيرات المستمرة التي تطرأ عليه، فإنه يصبح بالإمكان تبني نظام جديد في التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن والسنة، ويتميز النظام الجديد بالبساطة والشمولية إضافة إلى انسجام مع علم الأجنة الحالي.

لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربعة الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشاً، حيث إنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد – وقت نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم – فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة، لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع!!

الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد صلى الله عليه وسلم من الله، إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أمياً، ولهذا لم يكن قد نال تدريباً علمياً.

يقول الشيخ الزنداني: وقلنا للدكتور مور: إن هذا الذي قلته صحيح، ولكنه أقل مما عرض عليك من حقائق الكتاب والسنة في مجال علم الأجنة، فلم لا تكون منصفاً وتفسح المجال لبيان جميع الآيات والأحاديث التي وردت في القرآن المتعلقة بمجال اختصاصك؟

قال (مور): لقد كتبت القدر المناسب في المكان المناسب في كتاب علمي متخصص، ولكني أسمح لك أن تضيف إلى كتابي إضافات إسلامية تجمع فيها جميع الآيات والأحاديث التي تحدثنا عنها وناقشناها، وتضعها في مواضعها المناسبة من كتابي هذا، وبعد ذلك تقدم وتبين أوجه الإعجاز في هذا الكتاب. ففعلت ذلك. ثم بعد ذلك وضع الدكتور كيث مور مقدمة هذه الإضافات الإسلامية، فكان هذا الكتاب هو الذي اقترحه البروفيسور كيث مور مع الإضافات الإسلامية كما يراه القارئ بين يديه. لقد رجعنا إلى كل صفحة من الصفحات التي فيها حقائق من علم الأجنة فوضعنا في مقابلها الآيات والأحاديث النبوية التي تبين وجه الإعجاز، إننا اليوم بإذن الله تعالى على موعد مع الإسلام في فتح جديد للعقول البشرية المنصفة.

(ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيزالحميد) سورة سبأ، الآية: ٦)

عند مقارنة ما توصل إليه أحد مراجع علم الأجنة (كيث مور) مع ما يهذي به (صادق جلال العظم) يتضح الفارق الكبير بين العلماني الحقيقي والعلماني المقلد، بين العلماني الغربي المنجز والعلماني الفاشل، ففي الوقت الذي يطالب فيه العظم بالكفر بالقرآن تقليد لأوروبا التي كفرت بـ(الكتاب المقدس: الإنجيل والتوراة) هكذا ودون تمحيص أو دراسة أو اكتشاف لحقيقة علمية تناقض القرآن، نجد علمانيا غير مسلم وعالما تجريبيا ومرجعا كبيرا يغير مصطلحات العلم حول تطور الجنين إلى مصطلحات القرآن لأنها أدق، مقارنة دراسات وبحوث ونتائج هذا البروفيسور مع انتفاخات (العظم) وادعاءاته الفارغة من المضمون شيء مخجل، ناهيك عن كلماته الثورية التي يلقيها دون وعي مثل قوله:

(حتماً، قطعاً، لا شك..) كلمات لا يخجل العظم وأمثاله من العلمانيين النسخ من التلفظ بها مع أنه لم يجر تجربة واحدة، وربما لم يمسك بمجهر في حياته. إنني أشعر بالشفقة على هذا الملحد المتعالم وهو يقول: (لأن علم الأجنة لا يدع مجالا للشك) (انسجام هذا الوصف مع معارفنا العلمية الثابتة عن هذه الظاهرة)

ترى ما هي معارف (العظم) العلمية التي لا تنسجم مع الآية؟

لقد كشف قول الله تعالى في القرآن: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين

ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) عن جهل هذه النوعية من المفكرين العرب بالقرآن وبالعلم التجريبي معا.

هذه الآية البالغة الدقة والتي يتحدث فيها الله عن خلق الجنين، هي أحد الأدلة على حدوث يوم القيامة والبعث بعد الموت، إنها تربط المبدأ بالمعاد والعلم بالإيمان، وكأنها تعيد عصر المعجزات والأنبياء.

إن مقارنة كلمات (العظم) الثورية الجوفاء بوثائق كيث مور وبحوثه، تؤكد أن المفكرين العرب ما هم إلا ظاهرة صوتية مرتفعة الضجيج، وادعائية لدرجة الوسوسة، وإلا فما الذي يدعو أساتذة في علوم أدبية كالأدب والشعر والسياسة والفلسفة وعلم النفس، وهي علوم مطاطة وغير منضبطة إلى أن يهرفوا بما لا يعرفوا؟ ما الذي يدعوهم إلى إحراج أنفسهم بالتحدث باسم كل التخصصات نيابة عن مراجعها؟ فهم يدعون فهم النص القرآني أكثر ممن أفنوا أعمارهم في دراسته من المسلمين!! وهم يفهمون الطب والفلك والعلوم التجريبية أكثر ممن أفنوا أعمارهم في غماره من الغربيين!! وليت الأمر اقتصر على الحديث والتعالم فقط، لقد تفاقمت هذه الظاهرة لدى علماني آخر فأصبح يعيش حالة مرضية هي أشبه بحالة السكران الذي يترنح ويطلب ممن حوله أن يتزنوا.

محمد أركون

لست وحدي من يقول أن هناك اتفاقا بين محمد أركون والبابا في التبشير بمشروع ثقافي واحد، ففي (اجتماع سري عقد في مدينة "كاستيل جوندولوفو" الإيطالية بحضور البابا في سبتمبر من عام ٢٠٠٥م .. صرح الأسقف "جوزيف فيسيو" أن البابا يرى إمكانية تغير الإسلام فقط، إن أمكن إعادة تفسير القرآن بشكل جذري وكامل، وإعادة النظر بالكامل في مبدأ عصمة الوحي) ليس مستغربا أن تصدر هذه الكلمات من البابا، فالرجل على قمة الهرم الكنسي، ولا أتوقع منه إلا أشد من ذلك، لكن أن يلتقي معه أدونيس ومحمد أركون في المشروع نفسه، ثم يقوم مترجم أركون (هاشم صالح) بالتغطية على ذلك المشروع ونفيه فتلك فضيحة ثقافية أخرى.

ليس أنا من يقول ذلك بل علماني جلد، ومن المعجبين بأركون، إنه الكاتب "علي حرب" الذي ينتقد بشدة نفاق هاشم صالح في حيدته عن التعريف بمشروع أستاذه أركون، ذلك المشروع الذي يهدف إلى نزع العصمة عن القرآن ومحاولة إثبات أنه ليس وحيا، ولا كلام الله.

يقول حرب: (المشروع الأركوني أو الاستراتيجية الأركونية في القراءة تقوم بتفكيك "لا مثيل له" على حد تعبير هاشم صالح للتراث والذات والمعنى، أي بنزع الهالة الاسطورية وتعرية الهيبة القدسية عما في التراث من التعالي، ولكنها تزعم مع ذلك بأنها "لاتهدف إلى نزع صفة الوحي عن النصوص" إنها تتحدث عن "العصر الأسطوري المؤسس"، أي تقوم بنزع الأسطرة والقداسة، وتريد مع ذلك أن لا تلغي الشحنة التقديسية. فكأنها تمزق الستار وتدعي مع ذلك الحفاظ على السر. وبالفعل كيف نبقي على الصفة المتعالية للنصوص ونحن لا نفعل شيئا آخر سوى تبيان تاريخية المتعالي ودنيوية المقدس؟ وباختصار كيف يمكن ان نجدد في الفكر والمعنى والروح ونحن نحلل ونفكك؟ هذا هو مأزق القرءة العلمية أو التفكيكية للتراث - نقد النص٨٦)

ويقوم علي حرب بالمزيد من التعرية لهذا النوع من النفاق فيقول: (ولكن إذا كان هاشم صالح ينجح في تعريب أركون، فإنه يتنكب الطريق إلى شرحه، على الأقل فهو يتخبط على هذا الصعيد، كما يبدو من مقدمته لدراسته أركون الآنفة الذكر: من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي. وبالفعل فإن صالح يذهب في مقدمته تلك إلى أن النقد الأركوني "لا يعني المس بالتجربة الروحية الكبرى للإسلام الحنيف ... وإنما يعني التجسيد التاريخي والتطبيقي للمبادئ المثالية الروحية")

ثم يواصل تعريته قائلا: (إن صالح يبدو في شرحه أكثر سلفية من كثير من العلماء الذي ينتقدهم. وعلى كل حال ليس هذه هو المهم. وإنما المهم أن تفسير صالح يقوض مشروع أركون من أساسه وينسف مهمته النقدية. ذلك أن رهان أركون الأساسي فيما يبذله من جهود فكرية متواصلة هو "إدخال التاريخية إلى ساحة الفكر العربي الإسلامي" بكل مراحله وأطواره، وبمختلف نصوصه وخطاباته، بما في ذلك النص القرآني نفسه. فهل يعقل أن يكتب أركون كل ما كتبه عن تاريخية

الوحي ودنيويته، ثم يأتي شارحه ليقول لنا بأن الوحي يقع خارج التاريخ ويعلو عليه؟ هل يعقل أن يطالب أركون بتنشيط العلاقة بين الوحي والحقيقة والتاريخ، ثم يأتي هاشم صالح مطالبا بالفصل بين المثال والتطبيق، وبين الوحي والتاريخ ، داعيا الى تنزيه التجربة الاسلامية التي هي تجربة تاريخية أرضية عن "أوصاب التاريخ وأوشابه وعن لوثة المصالح والماديات"؟)

ثم يصرح حرب بنفاق المترجم بكلمات صريحة فيقول: (أليس ذلك من قبيل الخداع والمخاتلة، خداع الغير ومخاتلة الذات؟ لا شك أن قراءة صالح للنص الأركوني تشكل حجباً للواقع والحقيقة، وهو حجب مضاعف، لأنه حجب لما أراد أركون معرفته والكشف عنه)

ثم يتهكم حرب بسخرية لاذعة: (فهنيئاً لهاشم صالح "مشيخته" العلمانية التي يستحقها بجدارة، ولكنها أقل علمية بل أدنى عقلانية من مشيخة علماء الإسلام في عصره الكلاسيكي التنويري، لأن هؤلاء قد تناولوا ظاهرة الوحي في ضوء شروطه الدنيوية الأناسية، ضمن الامكانات العقلية التي كانت متاحة لهم. وأعني بذلك أنهم لم ينزهوا هذه التجربة عن الماديات ولم يضعوها خارج التاريخ)

وإذا كان "علي حرب" يُشكر على فضحه لهذا النفاق الخطير الذي يحاول ستر الهدف الحقيقي والبعيد لمشروع أركون، إلا أن "حرب" نفسه يلتقي مع أركون والبابا وهاشم وكبار العلمانيين العرب، في نفاق ثقافي أخطر بكثير مما ارتكبه صالح وأستاذه أركون، يتلخص ذلك النفاق في التغاضي عن المسكوت عنه في العقل العربي، وذلك بتجاوز مكون هام من مكوناته، ألا وهو التراث والمقدس المسيحيين لا بالسكوت عنه وعدم تناوله فقط، بل بتمجيده. فهذا المكون الهام يملك صك براءة من حرب ومن البابا ومن هؤلاء المثقفين العرب.

عندما قرأت كلام البابا ظننته لأدونيس في تعقيبه على "الجابري" فيقول: (إن ما أريد قوله هو أنهم لا يستطيعون أن يجمعوا الماء والنار في يد واحدة، وأن عليهم قبل أن يطالبوا الحكم العربي بتحقيق الديمقراطية أن يطالبوا المجتمع نفسه بأن يتخلص مما يحول دون تحقيقها، وأن هذا الذي يحول يتمثل في أصول ليس الحكم إلا نتيجة لها، وأنه لا يمكن بناء الديموقراطية إلا بأصول أخرى. وأريد أن أقول لهم أخيرا: لن تكون مهمتكم هذه سهلة وستكون طويلة طويلة)

لقد صدمت وأنا أجد هذا الكم الهائل من المسكوت عنه، واللا مفكر فيه.. صدمت وأنا أقرأ كتب هؤلاء الذين طالما أدهشونا بكلمات غاية في الجمال: البحث عن الحقيقة، اكتشاف المجهول، كشف الزيف في المقدس واللا مفكر فيه...

أدهشونا بهالات إنشائية يكتبون بها مقدمات كتبهم، خيل لي معها أنها تسعى لمشاريع لا تعرف التحيز ولا الزيف ولا المواقف المسبقة، حتى صدمت بالتفاصيل المخيبة لتطلعات القاريء الشغوف بالحياد والبحث عن الحقيقة والموضوعية في الطرح. عندها أدركت سر قول الجابري: (إن الواقع الكئيب الذي افتتح به العرب ثمانينات هذا القرن ليطرح بجد مسألة ما إذا كان العرب يتقدمون بخطوات (سريعة

أو بطيئة) إلى الأمام، أم أنهم، بالعكس من ذلك، يغالبون، بدون أمل، الخطى التي تنزلق بهم إلى الوراء)
وأدرك كذلك أن هذا البحث سيشكل صدمة لهؤلاء وإحراجا لهم أمام قرائهم ومريديهم، فهو يحتوي على الكثير من الوثائق التي تكشف أي تزييف للوعي يرتكبه هؤلاء الكتاب في حق العقل العربي، وأي طرح موضوعي فاتهم، وأي مسكوت عنه في العقل العربي أوالإسلامي سكتوا عنه أو تجاهلوه.
حتى الآن أعجز عن تصديق، بل تصور أن كتابا بهذه الألقاب والكراسي العلمية يخفون، أو يخفى عليهم تناول العقل العربي بكل مكوناته، "في كتابات أركون وأمثاله حول العقل العربي لا نكاد نرى العقل المسيحي إلا على استحياء ورعب شديدين، نراه في سطر أو جزء من سطر، بينما يتم التهجم بإسفاف من الغلاف إلى الغلاف على كل ما هو إسلامي بدءا من القرآن وانتهاءً بمن بدأ للتو اعتناقه للإسلام وممارسته للصلاة" أعجز ،عن تصور رجال شككوا في كل حرف من القرآن والسنة يمرون على الكتاب المقدس بهالة من التبجيل، وكأنه نزل اليوم نقيا من السماء وأمام أعينهم.
كيف يمارس المثقفون العرب نفاقهم الثقافي تجاه تراثهم العربي – أعني التراث المسيحي الإسلامي معا – بشكل لا يزال حتى الآن محيراً وغامضاً؟!
ففي حين تغرقنا دور النشر ذات التوجهات الإيديلوجية "الحداثية مجازا" بكتب أركون وأدونيس وعلي حرب والعظم وغيرهم، والتي تنصب هجوما على الجانب الإسلامي فقط في العقل العربي، ثم يخيم على تلك الأقلام ليل طويل ومريب من الصمت والسكوت، بل والرعب دون مقاربتها للجانب المسيحي، بصفته مكونا من مكونات العقل العربي لا بصفته الدينية، لا سيما وهم يَسِمون مؤلفاتهم بالتعاطي مع العربي عقلا وفكرا.
إذا وصلت الأمور إلى هذا المستوى أجدني مضطرا إلى الكشف عن الممنوع الكتابة والتفكير فيه.. أجدني مضطرا إلى تفكيك اللامفكر فيه لدى العلماني العربي "المكون الإسلامي" الذي يتم جلده ليل نهار سواء بسواء مع "المكون المسيحي" المسكوت عنه وشطبه – مجاملة – من بنية العقل العربي، هذا هو السبيل الوحيد للخروج بدراسة متزنة وموضوعية ومتوازنة مع أهم مكونات العقل العربي... وإلا فما معنى أن يكتب علي حرب مجلدين عن (نقد النص) و(نقدالحقيقة) وعند قراءة الكتاب لا تجد سوى النص الإسلامي، والحقيقة الإسلامية، وكل ما ذكره حرب عن العقل المسيحي جاء في نصف سطر، وبأسلوب تمجيدي ونقلا عن أحد القساوسة... ياله من نقد!!!
يقول حرب: (يفقد القرآن فرادته إذن وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها – نقد النص ٨٨)
وبحكم اطلاعي على الكتاب المقدس (ككتاب يتقاطع مع القرآن في تكوين العقل العربي) لا أعرف أجهل من علي حرب به، ولا أكثر تحيزا منه نحو شيء يجهله،

فقد تفوق على هاشم صالح بمراحل، إن عبارته (يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها) تنم عن جهل بالغ بالكتاب المقدس بفرعيه كما سيمر معنا، وجهل بمكونات العقل العربي، وهو جهل لا يليق بمثقف يدعي التنوير ولا يخيفه المقدس، وأركون ليس ببعيد عن حرب في ذلك، بل هو أشرس من يكتب عن القرآن والسنة فقط. ففي كتبه الكثيرة التي يزعم فيها الحفر في طبقات المقدس وصولا للنص – الوحي زاعما نزع صفة التعالي عنه وإثبات تاريخيته، يكتفي في كل كتاب بسطر أو سطرين عن الكتاب المقدس.

وحتى عند كاتب رزين ومفكر بارز مثل "محمد عابد الجابري" والذي لا يتورط فيما تورط فيه غيره من المؤدلجين، والذي يصف الحالة الفكرية التي وصل إليها العرب بأنها تنزلق بهم إلى الوراء.. حتى عند هذا المفكر الجاد لا نجد أي إشارة إلى الكتاب المقدس، لا من قريب ولا من بعيد، بل حتى عند تناوله للعقل العربي يتم التعامل معه بانتقائية عجيبة لا تليق بمفكر بحجم الجابري، وهو وإن كان بعيدا عن النفاقية السابقة، إلا أن مؤدى انتقائيته خطير جداً، وهو يؤثر سلبيا على سمعة الجابري العلمية ومنهجية دراساته.

لا اعتراض لدي أن يلتقي بابا الفاتيكان مع محمد أركون (أستاذ التاريخ في جامعة السوربون) وأدونيس والعظم في سعيهم الدؤوب في محاولة نزع صفة الوحي عن القرآن، ولا على أن يلتقوا جميعا في الإبقاء على المسكوت عنه في العقل المسيحي نفسه، في فضيحة علمانية كبرى، وتواطؤ إيدلوجي مع مقدس ضد مقدس دون أدنى سند موضوعي.

لكن عندما أجد بعض كتابنا يقول أنه لا يؤمن بالقرآن والسنة فقط، بل يؤمن بثوابت الأمة الواردة فيهما أيضاً، ثم يثني على أطروحات أركون وأدونيس وجهودهما دون تفصيل، ويصف أمتنا بأنها تقصيهم وأمثالهم، لأنهم يشخصون وينقدون "بموضوعية" عقلنا العربي، أقول في نفسي هل يعي أصحاب الثقافة التلقينية هؤلاء ما يقولون، أم أنهم يمارسون نفاقا ثقافيا وإيديلوجيا تمليه المرحلة؟

مشروع أركون كما يلخصه البابا عام ٢٠٠٥م:

أحد الأساقفة من (فلوريدا) بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو الأسقف (جوزيف فيسيو)، نقل أن البابا أعرب في اجتماع مغلق عن الإسلام، أن الإسلام: "بخلاف كل الأديان الأخرى لا يمكن إصلاحه، ولذلك فهو لن يتوافق أبدا مع الديموقراطية، لأن حدوث ذلك يقتضي إعادة تفسير جذرية للإسلام، وهذا مستحيل بسبب طبيعة القرآن نفسه وعلاقة المسلمين به. وعندما ناقشه أحد الأساقفة أن ذلك ما يزال ممكنا، اعترض البابا بوضوح كما ينقل عنه الأسقف (جوزيف فيسيو) قائلا: إن البابا علق على ذلك بهدوء ووضوح قائلا: هناك مشكلة أساسية في هذا الرأي. إن الرؤية التاريخية الإسلامية تؤمن أن الله قد أنزل كلماته على محمد، وأنها كلمات باقية إلى نهاية الزمان، وهي ليست كلمات محمد، وبالمقابل فإن هناك منطقا داخليا

للإنجيل المسيحي تسمح له وتطالبه أن يتغير ويتأقلم مع المواقف المتجددة. وفي تعليق آخر قال البابا، أنه يرى إمكانية تغير الإسلام فقط إن أمكن إعادة تفسير القرآن بشكل جذري وكامل، وإعادة النظر بالكامل في مبدأ عصمة الوحي)

لم يقتصر نفاق صالح وأركون على التنصل والمخاتلة، بل مارسه أركون حتى في العناوين، فهو يكتب للفرنسيين كتابا يسميه: (نقد العقل الإسلامي) وعندما ترجمه هاشم صالح سماه (تاريخية الفكر العربي الإسلامي)، وأظن أن الفارق بين العنوانين كبير جدا.

وبادعائية بالغة السخف وبجرأة بالغة التطرف يسفه أركون كل الأعمال العلمية التي تناولت النص القرآني والحديثي، من كتب علوم القرآن مرورا بكتب أسباب النزول والتفاسير والأحكام والفقه وغيرها من العلوم التي قام بها العلماء المسلمون، ويعتبرها كتبا غير علمية، بل يعتبرها جدرانا حالت بيننا وبين التعرف إلى النص القرآني. وهذا ما جعل حرب يطالب أركون بالتخفيف من الهالة التي يحيط بها هراءه فيقول له: (هل هذا يسوغ لنا ادعاء الصفة العلمية لقراءتنا ونفيها على الغير؟ وهل ان قراءتنا هي علمية لأننا نستخدم عدة معرفية تختلف عن العدة التي استخدمها المفسرون الكلاسيكيون؟ هذا ما لا نسلم به. لأننا نرى أن كل مفسر يفسر القرآن إنما يفسره بحسب النظام المعرفي السائد في عصره ـ نقد النص ٧٩) وحرب إذ يطالبه بالتخفيف من تعالمه، يذكره أن كتاباته ليست بمنأى عن المواقف والإيديلوجيا اللا علمية فيقول: (ومن يدري لعل قائلا يأتي ويقول في قراءة أركون ما قاله أركون، أو يقوله عن القراءات السابقة أو المختلفة عن قراءته، أي لعلها تكون وهما من أوهام الإيديلوجيا – نقد النص ٨٢)

ومن سمات المنهج الأركوني تلفيق التهم الجاهزة، فهو يحشر الكلمات حشرا في أفواه أولئك العلماء العظماء، مدعيا أنهم والمسلمين ينظرون إلى تلك المؤلفات على أنها نصوص مقدسة، إنه تماما مثل جحا الذي حاصره الأطفال للضحك منه والعبث بثيابه، فقال لهم: إن في الحي القريب رجلا يوزع المال والحلوى، فلما رأى انصراف الأطفال عنه جميعا، لحق بهم ليشاركهم المال والحلوى.

انتكاسة النقد الأركوني

يعتبر النقد الأركوني للثقافة الإسلامية ونصوصها انتكاسة مروعة في النقد، فالنقد بدأ قبل طه حسين وقبيله نقدا أدبيا للتشكيك بصحة القرآن والسنة، استنادا إلى مقولات في الهواء، وقياسا للشاهد القرآن، على الغائب (الكتاب المقدس) دون الإلمام بالغائب والدراسات العلمانية حوله، لذا صدرت كلماته غير العلمية في (الشعر الجاهلي ٢٦): (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة)

ثم حاول الملحدون العرب رفع مستوى النقد من الإنشائية إلى العلمية، فحاولوا إثبات تعارض بين العلم التجريبي والقرآن والسنة كما فعل العظم وأضرابه، فكانت خيبتهم أكبر ممن سبقهم، فعاد النقد منتكسا إلى العلوم الإنسانية مع أركون وأشباهه، لذا فسقوط هذا النوع من النقد في المواقف والإنشائية والتحيز لا يحتاج إلى عناء، لكن من باب (ليطمئن قلبي) سأسوق بعض الأمثلة على ذلك في ثنايا الحديث عنه وعن وغيره. أركون في تعاطيه مع المقدس الوهمي – أي الذي يدعي أن المسلمين يقدسونه ككتب التفسير والفقه - يزعم القيام بمهمتين:

الأولى: نزع القداسة عن (مقدس) يعيش في رأسه، متمثلا بكتب التفسير والفقه وما يتفرع عنهما.

الثانية: وهي تمثل الهدف البعيد للمهمة الأولى، وتتلخص بمحاولة نزع القدسية عن القرآن نفسه، وإنكار كونه وحي من الله، ومحاولة تحويله إلى كتاب تاريخي ألفه محمد عليه السلام.

هذا هو ملخص فكر محمد أركون في تعاطيه مع (العقل الإسلامي)، لست أنا من يقوله، هو من يقوله، ومن تناولوا كتبه من العلمانيين العرب يقولون ذلك، كما فعل (علي حرب، نقد النص- ٦١) ولا أظن أحدا يدعي أن علي حرب إسلامي أو يتعاطف مع الإسلاميين.. كما يقول علي حرب: (أركون لا يقتصر على نقد الأحاديث والتفاسير، ولا يكتفي بتفكيك الأنساق الفقهية والمنظومات العقائدية، بل يتوغل في نقده وتفكيكه وصولا إلى الأصل الأول، أي الوحي القرآني)

ويقول حرب ص٦٥: (لا يستبعد أركون خطاب الوحي من مجال النقد التاريخي، وهذا بين في تضاعيف أقواله، وفي سياق مباحثه، وفي كل كتبه)

وعندما يلجأ أركون إلى ممارسة النفاق هو ومترجمه هاشم صالح دفعاً لغضب المسلمين، ويتنصلان من كفرهما بالقرآن كوحي وإيمانهما أن القرآن كلام بشري من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتذران عن محاولتهما نزع القدسية عن القرآن يهاجمهما علي حرب ويهاجم نفاقهما، الذي يشبه كثيرا نفاق عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله، الذين يقولون أيام نزول الوحي كما يحكي القرآن: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)

يقول حرب عن نفاق أركون ومترجمه هاشم صالح ص٦٧: (صحيح أن أركون يصرح في حديث جرى بينه وبين أدونيس أن مشروعه الفكري يقوم على تحرير النص الأول أي الوحي القرآني، من النص الثاني أي تأويله وشروحاته، لأن هذا الأخير حجب النص الأول وأسره ، مشكلا بذلك حجابا كثيفا حال بين المسلم وبين الوصول إلى الظاهرة الأولى التي هي (الظاهرة المعجزة) على حد تعبير أركون (مواقف عدد٥٤) . ولكن ليس المهم مايصرح به هذا الباحث الناقد، وإنما المهم منطق بحثه وبنية تفكيره. ليس المهم ما يقوله عن نفسه أو مايعترف به، بل المهم معنى أقواله، والأهم مايحجبه ويسكت عنه وعلى كل فإن أركون يتعامل مع

الخطاب القرآني على هذا النحو، أي ليس بحسب منطوقه الصريح، بل هو يبحث عن منطقه الضمني ويهتم بما يحجبه أو يسكت عنه)
وقد نقلت عن (حرب) تلك النقودات لأنها صادرة من علماني جلد، وليست من إسلامي أو إسلاموي كما يحلو لأركون، كما أن (حرب) نفسه لم يسلم من الإيديلوجية والنفاق الثقافي كما سيمر معنا عند الحديث عن نقد النص المسيحي المقدس، وكيف تعامل معه (علي حرب) بتبجيل بالغ المجاملة والسطحية، وهو الذي يطالب هاشم بالمضي مع شيخه في "نقد ما يعنيه الفكر الإسلامي من التحجر والتأخر والقصور" وسأسوق من عبارات حرب ما يثبت سطحية هؤلاء النقاد المثيرة للاستغراب. إذا فلا داعي لاتهام كاتب السطور بتقديم أحكام جاهزة ومسبقة حول أركون في تعاطيه مع القرآن، وإلا فإن المتهم سيكون أركونياً أكثر من أركون نفسه، وسيكون إيديلوجيا متعصباً يرمي غيره بصفاته.

إشاعة الرعب قبل المعركة

نظرا لخطورة ما يخطط له أركون، وخوفا من ردود الفعل القوية من مشروعه متى ما قام بتدشينه بصراحة ووضوح، نظرا لذلك كله يستخدم العامل النفسي كقنبلة الدخان، إنه يجيد إلقاء الرعب في روع القاريء الساذج والسطحي، كي يتسنى له تمرير ما يريد من خلال ذلك الدخان، وبذا يحتفظ بمسافة بينه وبين المتلقي.. مسافة طويلة ومنهكة، كي يستلم قارئا منهكا ينتظر الخروج من تلك الدوامة، بل إن أركون سيشعر بالنشوة إذا ما أبقي قارئه في تلك الداومة ولم يخرجه منها، حينها يكون قد حقق معظم أهدافه.. متى ما شعر القاريء – نفسيا – أن أركون كاتب عملاق وعميق وتحتاج قراءته إلى عمق وتروٍ كبيرين، كاتب لا تفهمه إلا نخبة النخبة. لكنني أرى أركون أبسط وأكثر سطحية من غيره، ذلك أن هذا الأسلوب قد ولى زمانه، والتلويح بادعاء العلم واحتكار الحداثة والعمق في مواجهة القرآن والفكر الإسلامي، أصبح من مخلفات الماضي الذي يستعد للرحيل إلى غير رجعة.

كيف يمارس أركون لعبته النفسية

أولا: يضع هدفا ضخما للغاية لا يجرؤ عليه إلا متهور لا يدرك عواقبه، موهما قراءه أنه الوحيد الذي يتصدى لتلك المهمة والقادر على إنجازها، تحت ثقل قائمة مخيفة من مصطلحات العلوم الحديثة، وهنا يبدأ القاريء الاستعداد للسير مادامت تلك العلوم الحديثة مستعدة للأخذ بيده، لكن أركون لا يترك للعلوم الحديثة ولا للقديمة أن تأخذ بيد المتلقي، لا شيء سوى حبل أركون الذي يجر به القارىء عبر طريق وعر من المصطلحات والمناهج.. طريق طويل وشاق، هو في حقيقته ليس سوى إلتفافات ودوران دون نهاية، إنهاك للقاريء، وهذا الطريق لا يوصله إلى ذلك الهدف بالطبع، إنما هو ممارسة إشغال من يشتغلون به في معارك جانبية تنسيهم مع طول الطريق ومشاقه ذلك الهدف، إنه لا يوصل إلى نتيجة، ولا إلى كشف جديد، لكنه يُشعر القاريء المصاب بالإعياء أن أركون عقلية جبارة لا

تطاول، وعمق لا يغاص إليه، وهذا ما تفصح عنه مقدمات من كتبوا عنه أمثال نصر ومختار الفجاري وعلي حرب.

أما أنا فأرى عقلية أركون العلمية باهتة مترنحة، بين تلك الدروب والمصطلحات التي يستخدمها قناعا يخفي نفسية مريضة، لا عقلية تطرح الأسئلة وتجد في البحث عن إجابات مقنعة.

ولعل (علي حرب) أدرك بعض هذا عندما قال: (لا يتوقف أركون عن حشد أكبر عدد ممكن من المفهومات والأدوات، والإحالة إلى أعلام الفكر المعاصر ومراجعه، وهذا شأنه في كل مباحثه، إنه يعتد بعدته العلمية الحديثة في مواجهة غيره أو خصومه من دارسي التراث، وليس في ذلك ما يقدح شيىء، فالعالم يعتد بعلمه ويحتج به، ولكن ما يعتد به أركون وما يعتبره ميزة قراءته أو مصدر مشروعيتها، قد يكون هو الشيء الذي يؤخذ عليه، ذلك أن قاريء أركون يكاد لا يتبين خطابه المستقل الذي يتميز به بين الخطابات الأخرى، لكثرة اللغات التي يتحدث بها والمناهج التي يستخدمها والأعلام الذين يتقمصهم من فرط مل يحشده من المفاهيم والأدوات، وبالفعل نجد أنفسنا مع نص أركون إزاء سيل لا يتوقف من الإحالات إلى مختلف المراجع والمناهج والاستشهاد بمعظم أعلام الفكر المعاصروالاحتجاج بمختلف مجالاته)

ويقول حرب مباشرة وكأني به يكشف نفسية أركون التائهة المتآكلة: (لاشك أن التأليف هو محصلة، فالكاتب هو من يقرأ كتب الغير والباحث يستخدم مقولات الآخرين ويتوكأ على مناهجهم، فلا ابتداء من الصفر... ولكن الكاتب المجدد في أسلوبه ومنحاه يلتهم كتب الغير ولا تلتهمه، وينسخ غيره ولا يتلاشى فيه، والباحث المجدد في رؤيته أو في منهجه لا يقع أسير مناهج الغير ورؤاهم، بل يزحزح الرؤية ويبدل من زاوية النظركما يعلمنا أركون..)

ثم يقول: (هناك فعلا آلية مفهومية جبارة، ولكن ذلك يتم على حساب لغة أركون وخطابه، ذلك أن لغته تكاد تضيع بين اللغات الأخرى) ثم يواصل (حرب) وكأنه يتمنى من أركون أن يخفف من هذه القنابل الدخانية، والهالة الزائفة رغم احتفائه بأركون، فقد يأتي يوم من الأيام فيكتشف المفكرون زيفها.. قائلا أن أركون علق ذات يوم على قراءات حسين مروة ذات الإيديلوجية الماركسية للتراث العربي بأنها: (تعبيرات سيكيلوجية أو إيديلوجية تدل على عصرها، أي لا قيمة فكرية لها) ويواجه (حرب) أركون بمقولته تلك بسؤال حاد: (فما هو المعيار يا ترى؟ وهل ينجو أركون نفسه مما أخذه على الغير...؟) (ومن يدري لعل قائلا يأتي ويقول في قراءة أركون ما قاله أركون أو يقوله عن القراءات السابقة أو المختلفة عن قراءته، أي لعلها تكون وهما من أوهام الإيديلوجيا. نقد النص ٨٢)

ومن مؤشرات هذا الوهم الإيديلوجي الذي يسكن أركون في قراءاته للعقل الإسلامي، اعتقاده أن الجرأة وحدها تكفي لإقناع المسلم بالتخلي عن قناعاته، وكأنه يستلهم الشجاعة كرمز يدهش المسلم والعربي في زمن الانكسار الحالي، بالإضافة إلى تلك الأسلحة المصطلحية الغربية، لكن هذه الجرأة سرعان ما تستحيل

إلى نفاق جبان عند أول مواجهة، فالرجل يتخلى عن مشروعه كله بكلمة واحدة قائلا: (أنه لا يهدف إلى نزع صفة الوحي عن النصوص)
وأتساءل كما تساءل حرب قائلا: (نلمس هنا وجها من وجوه إشكالية القراءة عند أركون، فالمشروع الأركوني أو الاستراتيجية الأركونية في القراءة تقوم بتفكيك "لا مثيل له" على حد تعبير هاشم صالح للتراث والذات والمعنى، أي بنزع الهالة الاسطورية وتعرية الهيبة القدسية عما في التراث من التعالي ، ولكنها تزعم مع ذلك بأنها "لاتهدف إلى نزع صفة الوحي عن النصوص". إنها تتحدث عن "العصر الأسطوري المؤسس"، أي تقوم بنزع الأسطرة والقداسة وتريد مع ذلك أن لا تلغي الشحنة التقديسية. فكأنها تمزق الستار وتدعي مع ذلك الحفاظ على السر. وبالفعل كيف نبقي على الصفة المتعالية للنصوص ونحن لا نفعل شيئا آخر سوى تبيان تاريخية المتعالي ودنيوية المقدس؟ وباختصار كيف يمكن ان نجدد في الفكر والمعنى والروح ونحن نحلل ونفكك؟ هذا هو مأزق القرءة العلمية أو التفكيكية للتراث – نقد النص٨٦)
ومع هذا كله فأركون لم يتضح حتى الآن، وفضح سطحيته لا تتم هكذا بكلمات مجردة في الهواء، إنها في فضح دروبه الالتفافية، وفي نفخ ذلك الزبد الهائل الذي يراكمه في كتبه. لابد من الخروج من غابة المصطلحات والمناهج تلك، لا بد من تجاوز منطقة الضباب الهائل، نحو منطقة الوضوح الموضوعي، والتطبيق العملي والنظر إلى أحداثيات التفافاته ودورانه حول نفسه، فنحن لا نتعاطى مع شاعر أو خطيب يزيده الغموض روعة وإبداعا، ويشرق بالإيحاء بقدر ما يتلاشى بالمباشر.. نحن نتعاطى مع رجل يدعي أنه يكشف بالعلم الحديث تاريخية النص القرآني وبشريته.

دعوى امتلاك العلمية

إنه وبإسفاف لا مثيل له يعتبر كل ما مضى من قراءات للقرآن غير علمية لدرجة أغضبت معجبه (حرب) وهو يفند قول أركون بقوله: (فالقدماء من المفسرين قد تعاملوا مع الوحي تعاملا تاريخيا ، فنظروا إليه بوصفه خطابا عربيا، والفرق بيننا وبينهم أنهم مارسوا القراءة التاريخية له دون أن يقولوا ذلك. فهم نسوا ذلك أو تناسوه على حد تعبير أركون، في حين نحن نمارس القراءة التاريخية وننظر لها) أي بـ(ونزع صفة القداسة أو الأسطرة عنها بحسب تعابير أركون) (وهو إذ يقوم بقراءة القرآن ينظر إليه بصفته خطابا "أسطوري البنية") ثم يقول: (وهنا نختلف مع الاستاذ أركون كل الإختلاف. ولننظر فيما يعنيه عنوان كتابه. فماذا تعني "القراءة العلمية" للفكر الاسلامي سوى أن القراءات السابقة لم تكن علمية؟) (ولا معنى لذلك سوى نفي الصفة العلمية عن القراءات القديمة. وهذا ما نعارضه به) (هل هذا يسوغ لنا ادعاء الصفة العلمية لقراءتنا ونفيها على الغير؟ وهل ان قراءتنا هي علمية لأننا نستخدم عدة معرفية تختلف عن العدة التي استخدمها المفسرون الكلاسيكيون؟ هذا ما لا نسلم به . لأننا نرى أن كل مفسر يفسر القرآن

إنما يفسره بحسب النظام المعرفي السائد في عصره. كل قارئ له يجرب فيه لغته ويمتحن مفهوماته، وكل واحد يحمل عليه معناه ويقرأه بحسب استراتيجيته. والكل سواء في ذلك أكانوا قدماء أم معاصرين - نقد النص ٨٠،٧٩)

أعتقد أن كلام (حرب) رغم تماسكه نسبياً، يظل جدلا مادام تجريدا دون ضرب أمثلة، وهو بالتجريد يمنح شعوذات أركون مساحات أكبر، وهنا أجد أنه لا بد من التوجه مباشرة إلى تطبيقات أركون وأمثلته، وأخذ عينات من دراساته وفحص نتائجها، وعرضها على المنهج العلمي الدقيق الذي يتهرب أركون من التعاطي معه، ثم المقارنة بين المنهجين والنتيجتين حتى ينكشف مدى استحقاق دراسته للوصف بالعلمية.

فالقرآن وبموضوعية لا مثيل لها يتحدث عن طريقة الحوار مع أمثال أركون، وعدم التقدم بالنتيجة قبل الحوار، فيقول: (قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) ثم تأتي الآية فتخاطب أمثال أركون بأسلوب مدهش للغاية، فتصف رأي المخالف بأنه عمل ووجهة نظر، وتصف قول المسلمين إن كان خطأ بأنه جريمة، فيقول القرآن: (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون)

ثم ترتقي الآية بالمسلم ومخالفه من أمثال أركون الذين يكفرون بأن القرآن كلام الله ووحيه إلى مستوى المفاصلة دون عنف أو إكراه، فليقولوا ما شاءوا، وليعتنقوا ما شاءوا، فلا إكراه فالدين. حيث يقول تعالى في الآية التالية: (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)

إذا فإن كنا واثقين بما لدينا من حق نؤمن به، فلم لا ندخل في حوار لا جدال، وفي نقاش لا عراك، وبمنهج علمي رصين، لا بمناهج مطاطة قابلة للتطويع والتوظيف والأدلجة.

لكن أركون لا يتيح لمحاوره ولا لقارئه أن يتمتع بنقاش علمي هادىء ومحترم، فهو يخوض حرب إبادة لا أخلاق فيها ولا قيم ولا عقل، لقد حمل أحكامه معه وانتهى الأمر، ولن يتخلى عنها إلا إذا أجهز على خصمه.

نماذج تفضح إدعاء أركون للمنهج العلمي

انتقائيته في طرحه للتاريخ

يتضح ذلك في تزييفه للتاريخ بشكل مقزز، فهو يحتفي بالجدل الذي حصل بين المنهج السلفي والمنهج الاعتزالي في التعاطي مع العقيدة الإسلامية، لكن عداءه للمنهج السلفي جعله يصفه بالجلاد، ويتهمه بكونه السبب فيما وصلت الأمور إليه بين الطرفين، ويتهم العقيدة السلفية بالإقصاء وعدم الا ستعداد للمناظرة والحوار، بل للقمع.

وقبل أن أسوق أقوال أركون، أود التعريف بالمنهج السلفي الذي يتخبط المفكرون العرب بشكل مزر في وصفه، فهو في نظرهم سلة كبيرة يلقى فيها كل من يغلق عقله.

المنهج السلفي له سماته المتميزة والنقية في:
في العقيدة: إيمان بكل ما جاءت في القرآن والحيث النبوي الصحيح فقط، من أسماء الله وصفاته والملائكة والكتب السماوية والرسل والقدر والبعث يوم القيامة، دون إعمال العقل فيها لأنها أمور إخبارية بحتة، ولا يمكن للعقل مهما كان الوصول إليها، لذا انصبت جهود العلماء على الناحية التوثيقية، وهي عملية مضنية وفريدة كما سيمر معنا.
في الفقه: لا تنظر السلفية إلى التقليد، فلا تقليد لأي عالم ولو كان صحابيا في حالة وجود نص من القرآن والسنة الصحيحة، والسلفية بذلك تمثل الإسلام الأنقى، نظرا لرجوعها لمنبع الإسلام "القرآن والحديث الصحيح" فالفقيه المتمذهب وهو عند المفكرين العرب سلفي بحت، لا يعتبر سلفيا في الحقيقة، لأن تقليد فقه أي إمام ليس سلفية بل مذهبية، كما هي حال ابن الجوزي رحمه الله، لذا فالسلفية لم تعرف يوما إغلاقا لباب الاجتهاد، لإنها اجتهاد دائم.
سلفية حديثية: وهي اشتغال لا ينقطع، ونقد متواصل لمرويات الحديث والسنة والتاريخ، بآليات غاية في الدقة والمنهجية، وقد خصصت لها فصلا كاملا، وهذه السلفية مجهولة لدى كثير من الفقهاء والوعاظ وحتى المؤرخين، ناهيك عن المفكرين العرب الذين يتندورن عليها دون أن يعرفوا أبجدياتها، وهذه السلفية هي ما تتميز به الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم، والمفارقة المأساوية هنا، أن المفكرين العرب يجهلون أهم ما تتميز بهم أمتهم بين الأمم.
السلفية في علاقة النص بالعقل: وهي تؤمن أن النقل الصحيح من الله، وما يتوصل إليه العلم التجريبي من حقائق هو كشف لخلق الله وإبداعه، وأنه لا يمكن أن يتناقض نص صحيح صريح مع عقل توصل إلى حقيقة، وأنه في حالة الاختلاف بين الاثنين، فلا بد أن يكون النقل ضعيفا أو مزورا أو مكذوباً، أو أن العقل لم يتمكن من كشف المعلومة، ولم يصل إلى درجة القطع والحقيقة، وسأضرب أمثلة مدعومة بشهادات العلم التجريبي الحديث على دقة هذه السلفية.
السلفية في التعاطي مع الدنيوي: وهي منطلقة دون حدود نحو الكشف، مأخوذة بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنتم أعلم بأمر دنياكم) فقد قال صاحبه (أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح. قال: فخرج شيصا {أي أن تمرهم خرج سيئا}. فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم - صحيح مسلم ٤ - ١٨٣٦)
النبي صلى الله عليه وسلم اجتهد في عمل دنيوي لا وحي فيه، وهو من أمور الدنيا وتقنيات البشر، فأخطأ، وخرج الثمر سيئا، فأطلق قاعدة إسلامية هي: أن الإنسان أعلم بما يصلح له في أمور دنياه كالصناعة والزراعة والتجارة والتقنية وسائر العلوم المادية، مالم يرتكب محرما نص عليه الكتاب والسنة، وهذه السلفية قبل ذلك منطلقة من الآيات الكثيرة، التي تدعوا لا إلى الدهشة كما يدعي أركون، بل إلى التعقل والتفكر والسياحة في الأرض لاكتناه أسراره والبحث فيه.

هذه هي السلفية باختصار، احترام للعقل، وعدم تهور بالرجم بالغيب في أمور لا يمكن إدراكها، فأفلاطون قادته فلسفته إلى أن يعتبر وجودنا الحقيقي هناك في عالم آخر سماه عالم المثل، أما وجودنا المادي في الدنيا فهو مجرد ظلال أو عدم إن شئت. أما أرسطوا قمة الفلسفة اليونانية فقادته فلسفته إلى التهور في إطلاق أحكام غاية في التخلف والسخف، مثل قوله أن الشمس والقمر أجسام إلهية أرقى من الإنسان، وعالمها لا يعرف الموت ولا الفساد، وهي متفوقة على العالم الأرضي باحتوائها على عنصر خامس وهو الأثير. أما العالم الأرضي فيتكون من أربعة عناصر: الماء والتراب والنار والهواء.. وأعتقد أن وكالة "ناسا" ستسفيد كثيرا من وكالة أرسطو للفضاء كثيرا.

أركون يزور التاريخ

لنعد إلى أركون وأمثلته التي عرت نزاهته العلمية والأخلاقية تجاه تاريخ الأمة الإسلامية والمنهج السلفي تحديداً حيث نراه يقول: (لو استمرت المناظرات بين العقل القائل بخلق القرآن، والعقل الخادم الخاضع للقرآن غير المخلوق، لكان الوضع المعرفي للعقل الإسلامي اليوم على غير ما هو عليه، أعني أن الفسحة العقلية ما كانت لتصبح ضيقة محدودة تسودها الأرثوذكسية العقائدية إلى الدرجة المعروفة اليوم. إلا أن سياسة المتوكل بعد استلامه الخلافة "٢٣٤هـ-٨٤٨هـ" وتأييده أهل الحديث ضد المعتزلة، ثم الخليفة القادر الذي أعلن في مساجد بغداد بالعقيدة القادرية ضد الشيعة والمعتزلة عام "٤٠٨هـ/١٠١٨هـ" فرضا أرثوذكسية رسمية على جميع المسلمين الذين أصبحوا أهل السنة والجماعة)

إن كاتبا بلغ هذه الدرجة من الصفاقة، والافتقار للأمانة العلمية في رواية التاريخ ونقده، لا يمكن أن يوثق بأي طرح يقدمه مهما حشد من مصطلحات علمية وغربية، ويبدوا أن أركون يمارس التزييف تجاه قرائه الفرنسيين مستغلا ثقتهم بالمعلومات التي يقدمها لهم حول تاريخ العالم الإسلامي، بصفته أحد المنتمين للعالم الإسلامي والعربي، ولأنه يحمل اسما إسلاميا جدا، لذا سيتلقفون مقولاته دون تعقيب عليه، وكأنه يقول لهم: انظروا كيف يتعامل التيار الساحق من المسلمين وحكامهم السابقين مع الآخر ومع الأفكار الفلسفية الأوروبية، وكيف يقمعون بقوة السلطة أية محاولة للتنوير. ويبدوا أن مترجمه لم يتنبه لهذه السقطة عند الترجمة، لأنه – قد - لا يعي ما يترجم.

إن أركون هذا يزور التاريخ على طريقة أساتذته المستشرقين المتعصبين، فيقول: (أن سياسة المتوكل بعد استلامه الخلافة "٢٣٤هـ-٨٤٨هـ" وتأييده أهل الحديث ضد المعتزلة، ثم الخليفة القادر الذي أعلن في مساجد بغداد بالعقيدة القادرية ضد الشيعة والمعتزلة عام "٤٠٨هـ/١٠١٨هـ" فرضا أرثوذكسية رسمية على جميع المسلمين الذين أصبحوا أهل السنة والجماعة)

إذا فالمتوكل الإيديلوجي السلفي الإقصائي أيد أهل الحديث ضد المعتزلة الأبرياء الأنقياء، أصحاب التوجهات التنويرية، والذين يتعاملون مع الآخر تعاملا حضاريا

غاية في الرقي واحترام المخالف، بل إن أركون يصور التيار المعتزلي على أنه الأصل الذي يمثل فكر الأمة وطموحها المعرفي، لكن السلفيين المتعصبين انقلبوا على المعتزلة الطيبين ودارسي الفلسفة التنويريين، الذين تتسع صدورهم وقلوبهم للآخر والحوار معه، بعكس أهل السنة والجماعة المتعصبين، أو كما يسميهم أركون الأرثوذكسيين.

من هنا يبدأ التاريخ الإسلامي عند المستشرقين المتعصبين والعلمانيين العرب كلهم، من هنا يبدأون كتابة التاريخ هم والشيعة ومعتنقي آراء الفلاسفة، من خلافة المتوكل لا قبلها!!! أسلوب أنتقائي يناسب ويتناسب مع مواقفهم لا مع الحقيقة والأحداث، فمراجع التاريخ كلها تذكر كيف بدأت الأحداث، عندما أمر الخليفة المأمون الذي هو (زعيم التنويريين) بترجمة كتب الفلاسفة وأعجب بها، ثم اعتنق بعدها آراء المعتزلة، وهي آراء قوبلت برد متعقل من قبل أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم أحمد بن حنبل.

ضاق التنويريون برد الآخر، بل ضاقوا بصمته، فبدأ التهديد والوعيد، والإكراه على التنازل عن القناعات، ثم قطع الأرزاق والحصار المعيشي الخانق، ثم الطرد من حلقات العلم والتدريس، ثم بدأت الاعتقالات وبدأ كيل التهم، وفتحت الزنازين، وجرجر العلماء مقيدين بالسلاسل، وضربوا بالسياط حتى سلخت جلودهم، وتفاقم غضب المعتزلة التنويريين، فتحولوا إلى وحوش كاسرة لا علاقة لها بالفكر ولا بالثقافة ولا بالعلم ولا بالعقيدة، ووصل الهيجان والتعصب بالمعتزلة التنويريين حد القتل وقطع الرؤوس والصلب. أين عقل أركون وأمانته مما حدث.

إن أجهل الناس بالتاريخ يعرف أن الإقصاء كان ثقافة تنويرية للمعتزلة ودارسي الفلسفة بامتياز، لا ثقافة السلفيين وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل كما يكذب أركون.

بدأ القمع الفكري على يد زعيم التنويريين المحتفي بترجمة كتب الفلسفة وهو المأمون رحمه الله أولا. يقول الذهبي في كتاب العلو للعلي الغفار ١٦٢: (فولي المأمون وكان متكلما عربت له كتب الأوائل فدعا الناس إلى القول بخلق القرآن وتهددهم وخوفهم فأجابه خلق كثير رغبة ورهبة وامتنع من إجابته مثل أبي مسهر عالم دمشق ونعيم بن حماد عالم مصر والبويطي فقيه مصر وعفان محدث العراق وأحمد بن حنبل الإمام وطائفة سواهم فسجنهم)

وكان من أساليب أمير التنويريين (المأمون) قطع المرتب الذي هو حق من حقوق المسلم في بيت المال عن أي عالم، فقد نقل ابن حجر في التهذيب ٧ – ٢٠٦: (أمر المأمون إسحاق بن إبراهيم الطاهري أن يدعو عفان إلى القول بخلق القرآن، فإن لم يجب فاقطع عنه رزقه وهو خمسمائة درهم في الشهر، فاستدعاه فقرأ قل هو الله أحد حتى ختمها، فقال: مخلوق هذا؟ قال: يا شيخ إن أمير المؤمنين يقول: إن لم يجب أقطع رزقه. فقال: وفي السماء رزقكم وما توعدون. وخرج ولم يجب)

استجاب بعض العلماء تحت التهديد والوعيد والتعذيب الذي بدأ المعتزلة التنويريون بتنفيذه، وفر بعضهم حفاظا على دينه وقناعاته، واختبأ آخرون، وتحولت البلاد بوحشية التنويريين إلى بلاد موحشة، خلت فيها المساجد وحلقات

العلم من الحرية من العلماء الأحرار، وتحول المثقفون التنويريون إلى رجال مخابرات يوظفون البسطاء للتجسس على حلقات العلم ويحسبون ألفاظ العلماء، ولم يصمد من مئات العلماء أمام هذا البطش إلا أربعة

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥ – ١٧٧: أن أبا العباس بن سعيد المروزي قال: (لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من أهل مرو: أحمد بن حنبل أبو عبد الله، وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد وقد مات في السجن مقيدا)

يقول المزي في تهذيب الكمال: ١ – ٤٦٠: (يقول أبو جعفر الأنباري: لما حمل أحمد بن حنبل يراد به المأمون أخبرت، فعبرت الفرات إليه فإذا هو في الخان فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر تعنيت؟ فقلت: ليس هذا عناء. فقلت له: يا هذا.. أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله إن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولا بد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي وهو يقول: ما شاء الله ما شاء الله. ثم قال لي أحمد: يا أبا جعفر أعد علي ما قلت. فأعدت عليه. فجعل يقول: ما شاء الله ما شاء الله)

ويواصل أحباب أركون (المعتزلة) إبداعاتهم في الحوار على طريقتهم، فيبطشون بالآخر، ويرغمون كل العلماء بالسوط أو السيف، وتمتلىء السجون بالعلماء بدلا من المجرمين، فلا يستطيع مقاومة الزنازن التنويرية إلا أربعة علماء، ويسحب أحدهم وهو الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون المعتزلي ومستشاريه من مفكري المعتزلة ابن أبي دؤاد وغيره، فيقول (أحمد بن غسان: حملت أنا وأحمد بن حنبل في محمل على جمل يراد بنا المأمون، فلما صرنا قريب قال لي أحمد: قلبي يحس أن "رجاء الحصار" يأتي في هذه الليلة، فإن أتى وأنا نائم فأيقظني، وإن أتي وأنت نائم أيقظتك. فبينا نحن نسير إذ قرع المحمل قارع، فأشرف أحمد، فإذا برجل يعرفه بالصفة، وكان لا يأوي المدائن والقرى، وعليه عباءة قد شدها على عنقه، فقال يا أبا عبدالله إن الله قد رضيك له وافدا، فانظر لا يكون وفودك على المسلمين وفودا مشؤما، واعلم أن الناس إنما ينتظرونك لأن تقول، فيقولوا، واعلم إنما هو الموت والجنة. فلما أشرفنا على البذيذون قال لي: يا أحمد بن غسان.. إني موصيك بوصية فاحفظها عني، راقب الله في السراء والضراء، واشكره على الشدة والرخاء، وإن دعانا هذا الرجل أن نقول القرآن مخلوق فلا تقل، وإن أنا قلت، فلا تركن إلي، وتأول قول الله تعالى "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار".

فتعجبت من حداثة سنه وثبات قلبه، فلم يكن بأسرع أن خرج خادم وهو يمسح عن وجهه بكمه وهو يقول: عز علي يا أبا عبدالله أن جرد أمير المؤمنين سيفا لم يجرده قط، وبسط نطعا لم يبسطه قط.

ثم قال المأمون: وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لارفعت عن أحمد وصاحبه حتى يقولا: القرآن مخلوق. فنظرت إلى أحمد وقد برك على ركبتيه ولحظ

السماء بعينيه، ثم قال: سيدي غر هذا الفاجر حلمك حتى يتجرأ على أوليائك بالقتل والضرب، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته.
قال: فوالله ما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة، وإذا "رجاء الحصار" قد أقبل علينا فقال: صدقت يا أبا عبدالله القرآن كلام الله غير مخلوق، قد مات والله أمير المؤمنين - حلية الأولياء ٩ - ١٩٥)
وبويع المعتصم رحمه الله، فاعتنق التوجه المعتزلي التنويري، وبدأ فصلٌ جديدٌ من الاضطهاد للعلماء على يد التنويريين.
قال ابن كثير في البداية والنهاية ١٠ – ٣٣٢: (فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الاخير من الليل، قال أحمد: ففرحنا، ثم جاء الخبر بأن المعتصم قد ولي الخلافة وقد انضم إليه أحمد بن أبي دؤاد، وأن الأمر شديد، فردونا إلى بغداد في سفينة مع بعض الاسارى، ونالني منهم أذى كثير.
وكان في رجليه القيود ومات صاحبه محمد بن نوح في الطريق، وصلى عليه أحمد، فلما رجع أحمد إلى بغداد دخلها في رمضان، فأودع في السجن نحوا من ثمانية وعشرين شهرا، وقيل نيفا وثلاثين شهرا، ثم أخرج إلى الضرب بين يدي المعتصم، وقد كان أحمد وهو في السجن هو الذي يصلي في أهل السجن والقيود في رجليه) ثم ذكر ابن كثير فصلا في: (ذكر ضربه أحمد بن حنبل بين يدي المعتصم) فقال: (لما أحضره المعتصم من السجن زاد في قيوده. قال أحمد: فلم استطع أن أمشي بها فربطتها في السكة، وحملتها بيدي، ثم جاءوني بدابة فحملت عليها فكدت أن أسقط على وجهي من ثقل القيود، وليس معي أحد يمسكني فسلم الله حتى جئنا دار المعتصم ....
ثم دعيت فأدخلت على المعتصم فلما نظر إلي وعنده ابن دؤاد قال: أليس قد زعمتم أنه حدث السن، وهذا شيخ مكهل!؟ فلما دنوت منه وسلمت قال لي: ادنه. فلم يزل يدنيني حتى قربت منه، ثم قال: اجلس. فجلست وقد أثقلني الحديد، فمكثت ساعة ثم قلت: يا أمير المؤمنين إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: إلى شهادة أن لا اله الا الله.
قلت: فإني أشهد أن لاإله إلا الله. ثم ذكرت له حديث ابن عباس في وفد عبد القيس، ثم قلت: فهذا الذي دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ثم تكلم ابن أبي دؤاد بكلام لم أفهمه، وذلك أني لم أتفقه كلامه، ثم قال المعتصم: لولا أنك كنت في يد من قبلي لم أتعرض إليك، ثم قال: يا عبد الرحمن.. ألم آمرك أن ترفع المحنة. قال أحمد: فقلت: الله أكبر، هذا فرج المسلمين. ثم قال: ناظره يا عبد الرحمن.. كلمه. فقال لي عبد الرحمن: ما تقول في القرآن؟ فلم أجبه. فقال: المعتصم: أجبه. فقلت: ما تقول في العلم؟ فسكت. فقلت: القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله. فسكت. فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا. فلم يلتفت إلى ذلك، فقال عبد الرحمن: كان الله ولا قرآن. فقلت: كان الله ولا علم؟ فسكت. فجعلوا يتكلمون من ههنا وههنا، فقلت: يا أمير المؤمنين

أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله حتى أقول به. فقال ابن دؤاد: وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا. فقلت: وهل يقوم الاسلام إلا بهما؟
وجرت مناظرات طويلة واحتجوا عليه بقوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وبقوله الله خالق كل شيء، وأجاب بما حاصله أنه عام مخصوص بقوله تدمر كل شيء بأمر ربها، فقال ابن ابي دؤاد: هو والله يا أمير المؤمنين ضال مضل مبتدع، وهنا قضاتك والفقهاء فسلهم. فقال لهم: ما تقولون؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دؤاد. ثم أحضروه في اليوم الثاني وناظروه أيضا، ثم في اليوم الثالث وفي ذلك كله كان يعلو صوته عليهم، وتغلب حجته حججهم، فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دؤاد، وكان من أجهلهم بالعلم والكلام، وقد تنوعت بهم المسائل في المجادلة، ولا علم لهم بالنقل، فجعلوا ينكرون الآثار ويردون الاحتجاج بها، وسمعت منهم مقالات لم أكن أظن أن أحدا يقولها، وقد تكلم معي ابن غوث بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلت :لا أدرى ما تقول، إلا إني أعلم أن الله أحد صمد، وليس كمثله شيء، فسكت عني وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة، فحاولوا أن يضعفوا إسناده، ويلفقوا عن بعض المحدثين الحدثين كلاما يتساقون به إلى الطعن فيه، وهيهات وأني لهم التناوش من مكان بعيد، وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة ويقول: يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي، وممن يطأ بساطي. فأقول: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب الله، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجبهم إليها. واحتج أحمد عليهم حين أنكروا الآثار بقوله تعالى: "يا أبة لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا" وبقوله: "وكلم الله موسى تكليما" وبقوله: "إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني" وبقوله: "إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون" ونحو ذلك من الآيات، فلما لم يقم لهم معه حجة عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة، فقالوا: يا أمير المؤمنين: هذا كافر ضال مضل. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد: يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله، ويغلب خليفتين.
فعند ذلك حمى واشتد غضبه، وكان ألينهم عريكة، وهو يظن أنهم على شيء. قال أحمد: فعند ذلك قال لي: لعنك الله.. طمعت فيك أن تجيبني فلم تجبني. ثم قال: خذوه واخلعوه واسحبوه. قال أحمد: فأخذت، وسحبت وخلعت، وجيء بي بالعاقبين والسياط وأنا أنظر، وكان معي شعرات من شعر النبي صلى الله عليه وسلم مصرورة في ثوبي، فجردوني منه وصرت بين العقابين فقلت: يا أمير المؤمنين الله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بأحدى ثلاث) وتلوت الحديث وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم) فبم تستحل دمي ولم آت شيئا من هذا، يا أمير المؤمنين؟ اذكر وقوفك بين الله كوقوفي بين يديك؟ فكأنه أمسك، ثم لا يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضل كافر، فأمر بي فقمت بين العقابين وجيء بكرسي، فأقمت عليه وأمرني بعضهم أن آخذ بيدي بأي الخشبتين فلم أفهم، فتخلعت يداي وجيء

بالضرابين ومعهم السياط، فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول له يعني المعتصم: شد قطع الله يدك، ويجيء الآخر فيضربني سوطين، ثم الآخر كذلك، فضربني أسواطا فأغمي علي، وذهب عقلي مرارا، فإذا سكن الضرب يعود علي عقلي، وقام المعتصم إلى يدعوني إلى قولهم فلم أجبه، وجعلوا يقولون: ويحك الخليفة على رأسك. فلم أقبل، وأعادوا الضرب ثم عاد إلى فلم أجبه، فأعادوا الضرب ثم جاء إلى الثالثة فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس بالضرب وأرعبه ذلك من أمري، وأمر بي فأطلقت ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين، ثم أمر الخليفة بإطلاقه إلى أهله، وكان جملة ما ضرب نيفا وثلاثين سوطا، وقيل ثمانين سوطا لكن كان ضربا مبرحا شديدا جدا، وقد كان الامام أحمد رجلا طوالا رقيقا أسمر اللون كثير التواضع رحمه الله، ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم وهو صائم أتوه بسويق ليفطر من الضعف فامتنع من ذلك، وأتم صومه، وحين حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال ابن سماعة القاضي وصليت في دمك؟ فقال له أحمد: قد صلى عمر وجرحه يثعب دما. فسكت.. ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحي فقطع لحما ميتا من جسده، وجعل يداويه والنائب في كل وقت يسأل عنه، وذلك أن المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندما كثيرا، وجعل يسأل النائب عنه، والنائب يستعلم خبره، فلما عوفي فرح المعتصم والمسلمون بذلك، ولما شفاه الله بالعافية بقي مده وإبهاماه يؤذيهما البرد، وجعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى "وليعفوا وليصفحوا.. الآية" ويقول: ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك، وقد قال تعالى: "فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين" وينادي المنادي يوم القيامة: "ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا"

وكان الذين ثبتوا على الفتنة فلم يجيبوا بالكلية أربعة: أحمد بن حنبل وهو رئيسهم، ومحمد بن نوح بن ميمون الجند يسابوري ومات في الطريق، ونعيم بن حماد الخزاعي، وقد مات في السجن، وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن، وكان مثقلا بالحديد، وأحمد بن نصر الخزاعي) قال أبو العباس بن سعيد المروزي: (لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من أهل مرو: أحمد بن حنبل أبو عبد الله، وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد وقد مات في السجن مقيدا فأما أحمد بن نصر فضربت عنقه، وهذه نسخة الرقعة المعلقة في إذن أحمد بن نصر بن مالك "بسم الله الرحمن الرحيم هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك، دعاه عبد الله الإمام هارون وهو "الواثق بالله" أمير المؤمنين إلى القول بخلق القرآن، ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة فجعله الله إلى ناره - تاريخ بغداد ٥ – ١٧٧)

ويتولى الواثق ويصل مستوى الحوار عند المعتزلة التنويريين إلى مستوى قد يعجب أركون، ألا هو هو قطع رؤوس وإزهاق أرواح المخالف في الرأي عندما لا

يجدون ردا. قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥ ـ ١٧٧ : (ومات محمد بن نوح في فتنة المأمون، والمعتصم ضرب أحمد بن حنبل، والواثق قتل أحمد بن نصر، وكذلك نعيم بن حماد)

وقال صاحب تاريخ الإسلام ١ ـ ١٨٧٥ : (قال حنبل : سمعت أبا عبد الله يقول: ذهب عقلي مرارا، فكان إذا رفع عني الضرب رجعت إلى نفسي، وإذا استرخيت وسقطت رفع الضرب. أصابني ذلك مرارا ورأيته يعني المعتصم قاعدا في الشمس بغير مظلة، فسمعته وقد أفقت يقول لابن دؤآد: لقد ارتكبت في أمر هذا الرجل. فقال : يا أمير المؤمنين إنه والله كافر مشرك قد أشرك من غير وجه. فلا يزال به حتى يصرفه عما يريد، وقد كان أراد تخليتي بغير ضرب، فلم يدعه ولا إسحاق بن إبراهيم عزم حينئذ على ضربي. قال حنبل: وبلغني أن المعتصم قال لابن أبي دؤاد بعدما ضرب أبو عبد الله: كم ضرب؟ فقال ابن أبي دؤاد: نيف وثلاثين أو أربعة وثلاثين سوطا.

وقال أبو عبد الله: قال لي إنسان ممن كان: ثم آلقينا على صدرك بارية، أكببناك على وجهك ودسناك. قال أبو الفضل عبيد الله الزهري: قال المروذي: قلت وأحمد بين الهنبادين: يا أستاذ، قال الله تعالى: "ولا تقتلوا أنفسكم" قال: يا مروذي أخرج انظر. فخرجت إلى رحبة دار الخليفة، فرأيت خلقا لا يحصيهم إلا الله تعالى والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر، فقال لهم المروذي: أي شيء تعملون؟ قالوا : ننتظر ما يقول أحمد فنكتبه. فدخل إلى أحمد فأخبره فقال: يا مروذي أضل هؤلاء كلهم؟)

هذا هو موقف التنويريين من المخالف، وهو موقف لا يختلف عن موقف أركون الذي تقرب من البلاط الفرنسي بدافع الحقد على كل ما هو إسلامي، فاستجاب لإيديلوجية لرئيس الفرنسي "شيراك" وتعصبه ضد الحجاب، وبدلا من أن ينأى أركون بنفسه عن هذا الفعل الإقصائي كمفكر يدعي الحياد والموضوعية والمنهجية العلمية، حشر نفسه ضمن السياسيين المؤدلجين المطالبين بنزع حجاب الفتيات الفرنسيات المسلمات، ورجح كفة المعارضين لحرية المرأة في ارتداء ما تشاء في فرنسا أم الحرية، وقد حاول أدونيس منافسته في فعله الإقصائي، فكتب فصلا ـ كما مر معنا ـ يطالب فيه فرنسا أن تعتبر الحجاب الإسلامي نوعا من الغزو العسكري لا الفكري.

وأنا أتعجب من هذه النوعية من المفكرين الذين يرحبون بالغزو الفكري والتفاعل معه، لم لا يعتبرون انتشار الحجاب غزوا فكريا فقط، أوليسوا على ثقة مما ينظرون له، أم أنهم يرون الجيل القادم من الشباب بدأ بتنظيف العالم من أفكارهم التي أرجعتنا قرونا من التخلف. ولا أجد أجمل من قول الإمام الذهبي كرد على تعالم أركون وإدعائيته الفارغة وكذبه، حيث يقول في كتاب العلو ـ ١٦٢ : (فولي المأمون وكان متكلما عربت له كتب الأوائل، فدعا الناس إلى القول بخلق القرآن وتهددهم وخوفهم، فأجابه خلق كثير رغبة ورهبة، وامتنع من إجابته مثل أبي مسهر عالم دمشق، ونعيم بن حماد عالم مصر، والبويطي فقيه مصر، وعفان

محدث العراق، وأحمد بن حنبل الإمام، وطائفة سواهم فسجنهم. ثم لم ينشب أن مات بطرسوس ودفن بها ثم استخلف بعده أخوه المعتصم، فامتحن الناس، ونهض بأعباء المحنة قاضيه أحمد بن دؤاد، وضربوا الإمام أحمد ضربا مبرحا فلم يجبهم، وناظروه وجرت أمور صعبة.. من أراد أن يتأملها ويدري ما ثم كما ينبغي، فليطالع الكتب والتواريخ ،وإلا فليجلس في بيته ويدع الناس من شره، وليسكت بحلم، أو لينطق بعلم، فلكل مقام مقال، ولكل نزال رجال، وإن من العلم أن تقول لما لا تعلم: الله ورسوله أعلم)

وبعد فأي أمانة علمية يتمتع بها أركون في نقله من التاريخ، لا سيما وأن كل هذه المصائب جرت قبل تولي المتوكل بثلاثة خلفاء، وأي عقل يتحدث عنه المعتزلة ويقدمونه على النقل مهما كان قطعيا، وهم الذين يفقدون عقولهم عندما يفحمهم الخصم ويقارعهم الحجة بالحجة، وأي احتفاء بالآخر وقد قطعوا رؤوس العلماء وسجنوهم وسلخوا جلودهم بالسياط وأرغموهم على قول ما لايؤمنون به، بل منعوهم حتى من السكوت، وأرغموهم على النطق بغير ما يؤمنون به، وهو أمر لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم مع المنافقين في المدينة، رغم أن القرآن فضح المنافقين وفضح عقيدتهم وكفرهم ونواياهم في سورة كاملة سماها سورة (المنافقين)، فقال فاضحاً أساليبهم التي تشبه أساليب أركون وأمثاله:

(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون"١" اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون"٢" ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون "٣" وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون "٤" وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون "٥" سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين "٦" هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون "٧"...)

آيات تفضح المنافقين، لكنها لا تأمر بإقصائهم ولا بتعذيبهم ولا بسجنهم، بل تم التعامل معهم كمسلمين، لهم كل الحقوق، ولا يطالبون بكل الواجبات، رغم هول ما يقولون وشناعة مؤامراتهم مع الأجنبي والعدو.

وها هو أركون وبعد أن عجزت ألمانيا والمستشرقون والعلمانيون والليبراليون من إثبات تزوير القرآن.. هاهو أركون يتقدم بمشروع مضحك يعوض فيه خسارة من سبقوه، وكأنه يقول لهم: لا تيأسوا ياسادتي، إذا كنا قد فشلنا في إيجاد نسخة أخرى للقرآن، وإذا كنا عجزنا عن إيجاد مصاحف مثل أناجيل (متى ومرقص ولوق ويوحنا وغيرها) و(التواراة السامرية والتوراة العبرية وغيرهما)، وإذا كان القرآن نجح في الوصول إلينا مصحفا عربيا واحدا، فلم لا نجعل هذه الميزة هي العيب، لم لا نقول إن هذا التفرد في القرآن هو دليل على عدم الثراء، وهو أسلوب المناكفة الذي يستخدمه من أراد الحط من صفات خصمه الإيجابية، وتحويلها إلى سلبية،

كمن يصف كرم خصمه بالتبذير والبلاهة، والشجاعة بالتهور والغباء، والصدق بالسذاجة والسطحية، والذكاء بالخبث... وهكذا، وفي الجانب الآخر يضفي الإيجابية على كل صفة سلبية، فالبخل اقتصاد وتدبير، والجبن ذكاء وحيطة، والكذب دهاء وبعد نظر، وهكذا..

أركون من هذه النوعية، فهو يدعي أن الله لم يفترض أبدا وجود وحي مدون، بل يدعي إن تدوين القرآن أضر بالأمة، هكذا جعل التدوين والتوثيق العلمي لأهم نص في الدنيا، والحفاظ عليه لمدة أربعة عشر قرنا عملا غير شرعي، بل تطرف فوصفه بأنه أضر بالأمة.

نماذج من خوارق أركون العلمية

من أراد أن يكشف عمق أي مفكر عربي فليتجاوز تنظيراته وافتراضاته، فليس هناك أكثر تنظيرا وثرثرة من هذا النوع من الكتاب، لكنهم عند ضرب الأمثلة ينكشفون.. ضرب الأمثلة من واقعهم والواقع أو الماضي الذي يتناولونه، كما مر معنا عند الحديث عن طرابيشي وأدونيس والعظم، أما المستقبل فأعتقد أن لا أحد سيعرض مستقبله للخطر بالإنصات إلى كُتاب ليس لديهم مثال واحد يؤيد وجهات نظرهم.

ذات يوم تحدث أحد تلامذة العلمانيين عن ممانعة المؤسسة الدينية في إحدى البلدان العربية مع العلم الحديث وكشوفاتها وتقنيتها، ولما طلب المذيع الذي يجري المقابلة معه أن يضرب مثلا على ما يقول.. ذهل وتلفت وتنحنح، وبعد تردد أخرج كلمات تدينه.. قال: رؤية هلال رمضان بالعين المجردة بدلا من التلسكوب. كنت أظنه سيقول أن المؤسسة الدينية تحرم التعاطي مع الطائرات والسيارات والكومبيوتر، أو أنها تحرم الاختراع والاكتشاف، وإذا به يتحدث عن شيء ليس من هموم العلمانيين ولا اهتماماتهم، وهي سخافات طالما أثارها هذا النوع من الكتاب، مثل مناداتهم بإمامة المرأة للرجال في الصلاة مع أنهم يتمنون إقفال المساجد. وهذا أحدهم (أركون) يقدم (دليلا مبهراً) يليق بالأغبياء والمجانين على أن القرآن ليس من كلام الله:

الكلالة

أراد أركون أن يستغفل عقول قرائه بلعبة غبية تتلخص بالتالي: أخذ آية من الآيات وجردها من الحركات والتشكيل، ثم طلب ممن لا يتعاطى مع القرآن قراءتها، معتبرا قراءتهم هي القراءة الصحيحة للوحي، أما من يحفظ الآية أو من سبق له قراءتها، فإنه يقرأها كما في المصحف... وهذه الآية هي قوله تعالى: (وإن كان رجل يُورَث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس)

يقول أركون كما جاء في النقد ١٢٥: (فعرضت هذه الآية غير مشكولة على الناطقين بالعربية. فاكتشفت أن الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب، يتلون كما فرضت في المصحف الرسمي منذ الطبري على الأقل. ولكن أولئك الذين لا

يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويخضعون فقط للكفاءة القواعدية للغة العربية، يختارون دائماً القراءات المرفوضة في التفسير الأرثوذكسيه")
ويقول أركون أن العقل الفطري الذي يعتمد على اللغة اختار المبني للمعلوم أي (يُورث) وأن العقل التفسيري قرأه بالمبني للمجهول كما في القرآن.
هذا الهراء الأركوني يجعلني أجزم أن عقلية هذا الرجل مأخوذة بالتفاهات، ألا يفهم هذا الكاتب التعيس أن أي فعل مبني للمجهول إذا قرِيء دون تشكيل، سوف يقرأ مبنيا للمعلوم، ما هذه الدرر يا أركون!! ما الذي تحويه جمجمتك..!!!
من من العرب يقرأ كلمات كـ: يشرب، يرسم، يركض، يدفع، وغيرها.. مبنية للمجهول عند مشاهدتها لأول مرة. إن الأخذ بمقولة أركون يعني أن كل الأفعال المبنية للمجهول في الكتب السابقة ودووابن الشعر مبنية للمعلوم.
ثانيا: أليس من الهراء ادعاء اتفاق من أنتقاهم على قراءة واحدة، فهناك من سيقرأ: يورَّث، وهناك من سيقرأها: يورِّث، وهناك من سيقرأها: يورث، وهناك من سيقرأها كما في القرآن. لقد أوقعته ثرثرته البلهاء حول هذه الآية الكريمة في تناقضات وإشكالات، فضحت إيديلوجيته ومواقفه التي تكتبه وتملي عليه، فهو يتهم الطبري رحمه الله بأنه هو من حرف قراءته الأركونية، بل يتطرف ويدعي أن الطبري لا يريد أن يكون للكلالة معنى محددا بإبقائها سرا دون تحديد، ولا أدري ماذا يريد هذا الرجل! فمرة يقول أن الطبري تفسيري القراءة، أي انه مفسر للقرآن، وهذا يناقض عدم بحثه عن تفسير محدد للآية، ومرة يقول: إنه يريد التعتيم على معناها لتكون حجة لتدعيم الإيمان، وهذا يناقض كونه تفسيري القراءة، ثم يعود ليناقض سفسطاته ويقر "أن المرء إذ يموت دون أن يخلف وراءه طفلاً، فذلك يمثل حالة من حالات الكلالة"، ثم يعود مرة أخرى بعد فشله ليفسرها بما فسره الإمام الطبري، أي بتفسير القرآن بالقرآن، فأي عقلية مختلة تكتب هذا الرجل.
يقول د."الفجاري" في كتاب " نقد العقل الإسلامي عند أركون- ١٢٧: (والطبري يلح في نظر أركون على القراءة المتعارضة مع الذوق اللغوي السليم، معتمداً الإجماع الذي "لايكلف نفسه عناء تقييم الرهانات اللاهوتية والقانونية والاقتصادية المترتبة على حذف قراءة معينة تبدو أكثر صحة ومنطقية من الناحية اللغوية". كما يلح الطبري على عدم توضيح معنى "كلالة"، فهو يريد أن يعقد المسألة ليجعل كلمة "كلالة" من أسرار الوحي. ولذلك كان يورد أحاديث تقر غموضها ويتجاهل الأحاديث التي تقر شرحها، وغايته التعتيم على المعنى القرآني الواضح المنفتح. إذ إن "البديهة الأولى التي نستخلصها من هذه الأحاديث التي أوردها الطبري هي محاولته المستبسلة لإبقاء كلمة "كلالة" دون معنى(...) لأن مكانة الكلالة تبدو محدثة لوضع جديد يؤدي إلى تغيير نظام الإرث العربي السابق تغييراً جذرياً".

ويدلل أركون على ذلك فيثبت ثلاثة عشر خبراً من التراث تقدم تفسيراً مختلفاً لكلمة "كلالـة". ولكن الطبري يهملها جميعاً، لأنها تخالف التفسير الذي يريد فرضه. ولذلك فهو يحرص على تثبيت التفسير على خط واحد.
فالطبري، إذن، من الذين لم يفهموا تاريخية الوحي. كما لم يفهموا حقيقية ارتباطه بالواقع والإنسان، بل فهمه خطاباً متعالياً وحقيقة مرتبطة بالمطلق. ولكن أركون يرى أن الوحي خطاب تاريخي في جوهره. وقد سعى إلى تغيير نظام الإرث، والدليل أن الرسول نفسه أكد على تفسير معنى الكلالة وإزالة غموضها.
وإذا كان العقل التفسيري "أراد لكلمة "كلالـة" أن تظل غير محددة، وأن تظل مرتبطة بمجال الأسرار والغيب التي لم يشأ الله أن يكشفها للإنسان لأن غموضها يصبح حجة لتدعيم الإيمان والثقة بمقاصد الله"، فإن أركون يقر، بعد استعراض الأحاديث التي تشرح الكلالة وكذلك الآيات، "أن المرء إذ يموت دون أن يخلف وراءه طفلاً، فذلك يمثل حالة من حالات الكلالة".
وقد تناول بالتحليل عدداً من الآيات التي تشرح ذلك "الآيات ١٨١، ١٨٠، ١٨٢، ٢٤٠ من سورة النساء"، إلا أن الآية التي يرى أن الرسول يرجع إليها أكثر إذا سئل عن الكلالة هي: " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم" "الآية١٧٦ من سورة النساء")انتهى.
في العبارات السابقة تعرية لعقلية أركون ودارسه الفجاري في نقاط منها:
- تحامل أركون على الإمام الطبري رحمه الله، وهو تحامل على عبقرية هذا الرجل الفذ وأمانته العلمية، فالطبري ليس كأركون في انتقائيته وبحثه عما يوافق ميوله وأهواءه، إنه موسوعة التفاسير الأولى، ينقل أقوال العلماء بالسند، لا بالتعليق، فهو لا يقول: قال ابن مسعود، أو قال ابن عباس، أو حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم... هكذا ودون ذكر لمصدر نقله، بل لا يقول: قال مجاهد وقتادة وغيرهم من العلماء. إنه يذكر مصادره ووثائقه بالسند، أي أن مهمته توثيقية بالدرجة الأولى، ومهمة نقاد الروايات والحديث وعلماء الجرح والتعديل هي النقد، وأركون من خلال قراءتي له من أجهل الناس بعلم الجرح والتعديل، ومناهجه وطرق اكتشاف علله، وهي مناهج سنتعرف على عظمتها ودقتها التي تشبه فيها العلوم التجريبية تماما في فصل (نقد النص الإسلامي الثاني) والذي يجهله كل العلمانيين دون استثناء، مما ورطهم في مجازفات ومغامرات غير علمية بالغة السخف.
أعود للطبري وما نقله حول هذه الآية، فهو أولا: يأتي بمعنى من المعاني كعنوان، ثم يدرج تحته من قال بذلك، سواء من قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة أو حتى من العلماء، وهو ما يسمى بالتفسير بالمأثور.
قال الطبري في معنى الآية السابقة (تفسير الطبري ٣ – ٦٢٤) واضعاً الرأي الأول كعنوان فيقول: فقال بعضهم: هي ما خلا الوالد والولد.
ثم يضع الطبري عنوانا آخر هو من قال ذلك فيقول: ذكر من قال ذلك.

ثم يبدأ بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والمدهش في عملية توثيق التي يفعلها رواة السنة ومنهم الطبري عدم الاكتفاء بـ(تعليق الخبر)، بل يتجاوزونه إلى عملية توثيقية فريدة على مستوى العالم، وهي ميزة يقفز عليها أركون وأمثاله. يقفزونها لأنها تدينهم وتفضح مواقفهم المسبقة ودوافعهم المبيتة، فالطبري لا يقول: قال أبو بكر وقال عمر، بل يذكر وثائقه ومصادر أخباره مهما كانت قوية أو تالفة متهالكة، إنه لا يكتفي بالقوي ويطمس الضعيف، ولا يورد ما يميل إليه ويتغاضى عما يخالفه، تاركا لنقاد الجرح والتعديل مهمة فحص تلك الأسانيد والمتون. وهذه هي مصادره عن أبي بكر وعمر:

١- حدثنا الوليد بن شجاع السكوني قال حدثني علي بن مسهر عن عاصم عن الشعبي قال: قال أبو بكر رحمة الله عليه: إني قد رأيت في الكلالة رأيا فإن كان صوابا فمن الله وحده لا شريك له، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء: أن الكلالة ما خلا الولد والوالد، فلما استخلف عمر رحمة الله عليه قال: إني لأستحيي من الله تبارك وتعالى أن أخالف أبا بكر في رأي رآه.

٢- حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هشيم قال أخبرنا عاصم الأحول قال حدثنا الشعبي: أن أبا بكر رحمه الله قال في الكلالة : أقول فيها برأيي فإن كان صوابا فمن الله : هو ما دون الولد والوالد قال : فلما كان عمر رحمه الله قال : إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر.

٣- حدثنا يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا سفيان عن عاصم الأحول عن الشعبي: أن أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما قالا : الكلالة من لا ولد له ولا والد.

٤- حدثنا ابن وكيع قال حدثني أبي عن عمران بن حدير عن السميط قال: كان عمر رجلا أيسر فخرج يوما وهو يقول بيده هكذا يديرها إلا أنه قال: أتى علي حين ولست أدري ما الكلالة ألا وإن الكلالة ما خلا الولد والوالد.

٥- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن سفيان عن جابر عن عامر عن أبي بكر قال: الكلالة ما خلا الولد والوالد.

ثم يذكر الطبري أقوال ابن عباس من مصادرها عنه، فيقول:

١- حدثني يونس قال أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن الحسن بن محمد عن ابن عباس قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد.

٢- حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال سمعت ابن جريج يحدث عن عمرو بن دينار عن الحسن بن محمد عن ابن عباس قال : الكلالة من لا ولد له ولا والد.

٣- حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا مؤمل قال حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن الحسن بن محمد ابن الحنفية عن ابن عباس قال : الكلالة ما خلا الولد والوالد.

٤- حدثنا ابن بشار و ابن وكيع قالا حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا أبي عن إسرائيل عن أبي إسحق عن سليم بن عبد عن ابن عباس بمثله.

٥- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي عن إسرائيل عن أبي إسحق عن سليم بن عبد السلولي عن ابن عباس قال : الكلالة ما خلا الولد والوالد.

٦- حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : { وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة } قال : الكلالة من لم يترك ولدا ولا والدا.

ثم يذكر الطبري أقوال التابعي سليم بن عبد موردا مصادره عنه، فيقول:

١- حدثني محمد بن عبيد المحاربي قال حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحق عن سليم بن عبد قال : ما رأيتهم إلا قد اتفقوا أن من مات ولم يدع ولدا ولا والدا أنه كلالة.

٢- حدثنا تميم بن المنتصر قال حدثنا إسحاق بن يوسف عن شريك عن أبي إسحاق عن سليم بن عبد قال : ما رأيتهم إلا قد أجمعوا أن الكلالة الذي ليس له ولد ولا والد.

٣- حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن سليم بن عبد قال : الكلالة ما خلا الولد والوالد.

٤- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن فضيل عن أشعث عن أبي إسحاق عن سليم بن عبد قال : أدركتهم وهم يقولون : إذا لم يدع الرجل ولدا ولا والدا ورث كلالة.

ثم يذكر قول التابعي قتادة مع مصادره عنه فيقول:

١- حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا سعيد عن قتادة قوله : { وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة } والكلالة الذي لا ولد له ولا والد لا أب ولا جد ولا ابن ولا ابنة فهؤلاء الإخوة من الأم.

ثم قول التابعي الصغير الحكم بن عتيبة فيقول:

١- حدثني محمد بن المثنى قال حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن الحكم قال في الكلالة : ما دون الولد والوالد.

ثم قول التابعي ابن زيد:

١- حدثنا يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد : الكلالة كل من لا يرثه والد ولا ولد وكل من لا ولد له ولا والد فهو يورث كلالة من رجالهم ونسائهم.

ثم قول مجموعة من التابعين ومصداره عنهم فيقول:

١- حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة و الزهري و أبي إسحاق قال : الكلالة من ليس له ولد ولا والد.

٢- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا محمد بن محمد عن معمر عن الزهري و قتادة و أبي إسحاق مثله.

ثم يضع الطبري عنوانا يحمل رأيا آخر فيقول: وقال آخرون الكلالة ما دون الولد وهذا قول ابن عباس، وهو الخبر الذي ذكرناه قبل من رواية طاوس عنه : أنه ورث الإخوة من الأم السدس مع الأبوين

وقال آخرون : الكلالة ما خلا الوالد. ثم يذكر الطبري اسم من قال بهذا الرأي، مع توثيق ذلك القول بذكر مصدره عنه فيقول: ذكر من قال ذلك.

١- حدثنا ابن المثنى قال حدثنا سهل بن يوسف عن شعبة قال : سألت الحكم عن الكلالة قال : فهو ما دون الأب.

ثم ينتقل الطبري إلى أقوال أهل اللغة، ليمارس التفسير اللغوي المباشر، وهي درجة تأتي بعد التفسير التوقيفي من النبي صلى الله عليه وسلم وأيضا بعد أسباب النزول، والتفسير باللغة هو التفسير الطبيعي للقرآن في حال غياب أي تأويل توقيفي معتمد على الوحي، وهو في الحقيقة تفسير الصحابة والتابعين ومن بعدهم عند التدقيق، وإذا كان ابن جرير يروي بالسند أقوالهم، فإنه يمارس عملا توثيقيا غير مسبوق في أي أمة من الأمم، لذا فتحميل الطبري هذه التهم من قبل أركون تدل على ضيق أفقه والمواقف التي يحملها لهذا الإنجاز التوثيقي الإسلامي غير المسبوق، كما أن إيراد التفسير اللغوي يعد صفعة في وجه التحامل والجهل الأركوني، فهاهم اللغويون قبل الطبري يبدون

أعود لابن جرير الطبري الذي يضع عنوانا للتفسير اللغوي فيقول: واختلف أهل العربية في الناصب للكلالة. فقال بعض البصريين: إن شئت نصبت {كلالة} على خبر {كان} وجعلت {يورث} من صفة الرجل، وإن شئت جعلت {كان} تستغني عن الخبر نحو وقع وجعلت نصب {كلالة} على الحال أي : يورث كلالة كما يقال: يضرب قائما.

وقال بعضهم قوله: {كلالة} خبر {كان} لا يكون الموروث كلالة وإنما الوارث الكلالة. ثم يبين الطبري رأيه قائلا: والصواب من القول في ذلك عندي أن الكلالة منصوب على الخروج من قوله : {يورث} وخبر {كان} {يورث} و الكلالة وإن كانت منصوبة بالخروج من {يورث} فليست منصوبة على الحال ولكن على المصدر من معنى الكلام لأن معنى الكلام: وإن كان رجل يورث متكلله النسب كلالة ثم ترك ذكر متكلله اكتفاء بدلالة قوله {يورث} عليه.

ثم يتعمق الطبري ويأتي بتفسيرات كلمة كلالة فقط، واضعا عنوانا، ومدرجا تحته قوائم من يقول بذلك كما فعل سابقا، فيقول: واختلف أهل العلم في المسمى {كلالة} فقال بعضهم: الكلالة الموروث وهو الميت نفسه يسمى بذلك إذا ورثه غير والده وولده. ذكر من قال ذلك :

١- حدثنا محمد بن الحسين قال حدثنا أحمد بن المفضل قال حدثنا أسباط عن السدي قولي في الكلالة قال: الذي لا يدع والدا ولا ولدا.

٢- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن عيينة عن سليمان الأحول عن طاوس عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهدا بعمر رحمه الله، فسمعته يقول: القول ما قلت. قلت: وما قلت؟ قال: الكلالة من لا ولد له.

٣- حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبي و يحيى بن آدم عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سليم بن عبد عن ابن عباس قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد.

وقال آخرون: الكلالة هي الورثة الذين يرثون الميت، إذا كانوا إخوة أو أخوات أو غيرهم إذا لم يكونوا ولدا ولا والدا على ما قد ذكرنا من اختلافهم في ذلك.

وقال آخرون: بل الكلالة الميت والحي جميعا. ذكر من قال ذلك:

١- حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد: الكلالة الميت الذي لا ولد له ولا والد، أو الحي كلهم كلالة، هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة.

ثم يبين رأيه في معنى الكلالة داعما قوله بأدلة من قول النبي صلى الله عليه وسلم وتطبيقه العملي، فيقول: قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله هؤلاء، وهو أن الكلالة الذين يرثون الميت من عدا ولده ووالده، وذلك:

١- لصحة الخبر الذي ذكرناه عن جابر بن عبد الله أنه قال: قلت يا رسول الله ! إنما يرثني كلالة فكيف بالميراث ؟

٢- وبما: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن ابن عون عن عمرو بن سعيد قال: كنا مع حميد بن عبد الرحمن في سوق الرقيق، قال: فقام من عندنا ثم رجع فقال: هذا آخر ثلاثة من بني سعد حدثوني هذا الحديث قالوا: مرض سعد بمكة مرضا شديدا،: فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوده فقال: يا رسول الله لي مال كثير وليس لي وارث إلا كلالة فأوصي بمالي كله ؟ فقال : لا .

٣- حدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية قال حدثنا إسحاق بن سويد عن العلاء بن زياد قال: جاء شيخ إلى عمر رضي الله عنه فقال: إني شيخ وليس لي وارث إلا كلالة أعراب متراخ نسبهم، أفأوصي بثلث مالي؟ قال: لا.

فقد أنبات هذه الأخبار عن صحة ما قلنا في معنى الكلالة وأنها ورثة الميت دون الميت ممن عدا والده وولده.

إذا فالطبري مأخوذ بتفسير القرآن بالقرآن والسنة واللغة، وعندما يورد أقوالا أخرى، فإنه يوثقها ويحاول ما أمكن استقراءها، لكنه لا يلزم نفسه بها، بل يرجح ما يفسره القرآن وتفصله السنة وتؤيده اللغة، وقد قدم أخيرا تفسيره وترجيحه لمعنى الكلالة، لأنه يؤمن أن القرآن كلام الله المنزل على نبيه، وليس كأركون الذي يكفر بذلك وبرفضه، كما أن جهود الطبري ومنهجه العلمي يكشف كذب أركون عليه بقوله أن (الطبري يلح على عدم توضيح معنى "كلالة"، فهو يريد أن يعقد المسألة ليجعل كلمة "كلالة" من أسرار الوحي. ولذلك كان يورد أحاديث تقر غموضها ويتجاهل الأحاديث التي تقر شرحها، وغايته التعتيم على المعنى القرآني الواضح المنفتح. إذ إن "البديهة الأولى التي نستخلصها من هذه الأحاديث التي أوردها الطبري هي محاولته المستبسلة لإبقاء كلمة "كلالة" دون معنى)

لا أدري كيف بلغت الوقاحة بأركون هذه الدرجة، والدليل أمامنا كما نقلته من تفسيره. فالطبري لا يخطيء المخالف حتى مجرد التخطئة.

التلاعب ليس حكرا على أركون

أما الأدهى من ذلك فهو غباء مترجمي أركون ودارسيه من العلمانيين، إنهم ممسوخون لدرجة مزعجة، فهذا "د.مختار الفجاري" مؤلف كتاب (نقد العقل الإسلامي عند أركون) يقول معقبا ومؤيدا كذب أركون السابق حول الطبري، وبغباء يفوق غباء هاشم صالح ص١٢٦: (ويدلل أركون على ذلك فيثبت ثلاثة عشر خبراً من التراث تقدم تفسيراً مختلفاً لكلمة "كلالة". ولكن الطبري يهملها جميعاً، لأنها تخالف التفسير الذي يريد فرضه)

ولا أدري أيهما أكذب وأغبى، فأركون يقول إن الطبري لا يريد تفسيرا لـ"الكلالة" بل يريد تركها مبهمة غامضة كي تضفي على القرآن مزيدا من التعالي والعظمة، ودارسه يقول إن الطبري يهمل كل التعاريف لكلمة "الكلالة" لأنه يريد فرض تفسير محدد. وأعتقد أن ما مر معنا من نقولات الطبري، ثم ترجيحه، والدليل الذي يؤيد ترجيحه به كفيل بكشف حجم الادعاء والكذب والتعالم عند هذين الرجلين.

الشيء المقيت في شعوذات أركون الإيديلوجية هو قفزه على الجميل في قراءة الطبري للنص، فقد كان أحرى بأركون أن يتساءل عن ناحية لغوية ملفتة للنظر، وهي لفتة لم يقفزها الطبري، بل وقف عندها وطرحها دون تردد، مع أن الأولى بأركون الذي يدعي المعرفة باللغة الفطرية أن يطرحها.

قال الطبري في تفسيره ٣ – ٦٢٤: (فإن قال قائل : وكيف قيل : "وله أخ أو أخت" ولم يقل : لهما أخ أو أخت، وقد ذكر قبل ذلك رجل أو امرأة فقيل : "وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة"؟ قيل : إن من شان العرب إذا قدمت ذكر اسمين قبل الخبر، فعطفت أحدهما على الآخر بـ "أو"، ثم أتت بالخبر، أضافت الخبر إليهما أحيانا، وأحيانا إلى أحدهما، وإذا أضافت إلى أحدهما كان سواء عندها إضافة ذلك إلى أي الاسمين اللذين ذكرتهما أضافته. فتقول: من كان عنده غلام أو جارية فليحسن إليه. يعني: فليحسن إلى الغلام – وفليحسن إليها. يعني: فليحسن إلى الجارية – وفليحسن إليهما) هذه اللفتة اللغوية، وتلك النقولات الدقيقة التي قام بها الطبري ليست علميه عند أركون، أما هراؤه فعلم لا يدانى.

المزيد من التلاعب والتزوير لدى أركون

ويواصل أركون ودارسه كذبهما على الطبري، لنكتشف المزيد من التناقضات، والتخبط والجهل الذي لا يحسدان عليه. فيقول "الفجاري": (وقد تناول – أركون– بالتحليل عدداً من الآيات التي تشرح ذلك (الآيات ١٨١،١٨٠، ١٨٢، ٢٤٠ من سورة النساء) إلا أن الآية التي يرى أن الرسول يرجع إليها أكثر إذا سئل عن الكلالة هي: " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم" "الآية١٧٦ من سورة النساء")

وأقول لهذا العلماني المغفل: لا يوجد في سورة النساء آيات رقمها: (١٨١،١٨٠، ١٨٢، ٢٤٠) فآية الكلالة رقمها (١٧٦)، وبالمناسبة فهي آخر آية في سورة النساء.!!! أما قوله: (أن الآية التي يرى أن الرسول يرجع إليها أكثر إذا سئل عن الكلالة هي: " يستفتونك....) فمزيد من الجهل والتعالم، لأن سعد بن أبي وقاص وهو الرجل الذي نزلت في مرضه إحدى الآيتين قال كما في (تفسير الطبري ٣ – ٦٢٤: حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا شعبة عن يعلى بن عطاء قال : سمعت القاسم بن ربيعة يقول : قرأت على سعد : { وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت } قال سعد: لأمه) أما الآية الأخرى فتعني الأخ أو الأخت الشقيقة.

أركون يكذب على عثمان ويزور تاريخه

أركون يكذب صراحة ويصدق كذبته، فيقوده ذلك إلى المزيد من التورط، ويتطرف بعد اتهامه للطبري، فيصل إلى مستوى من الدناءة لا مثيل لها، ليتهم الخليفة عثمان بن عفان بأنه هو من قام بكتابة القرآن لأول مرة وزاد وحذف ما يريد، كما ينقل عنه دارسه "د.الفجاري" فيقول: (ويؤكد أركون أن النص القرآني، كما نقله الرسول، بريء مما ألحقه به العقل التفسيري فيما بعد أو العقل الكتابي منذ عثمان. ويرى أن كل هذه الآيات التي ذكر " تكمن أهميتها في كونها تعترف، بشكل صريح، بحق كل مؤمن، ليس فقط في حرية التوريث لمن يشاء، وإنما بواجب التوريث عن طريق وصية بأملاكه للأبوين وللأقارب وللزوجات، أي لكل من لهم الحق في ورثته والذي يريد توريثهم أو حرمانهم. لكن المشكلة هي أن هذه الآيات قد أبطلت ونسخت من قبل الآيتين اللتين درسناهما سابقاً"الآيتان ١١و١٢ من سورة النساء") وهذا القول هو أبلغ رد على من يدافع عن أركون كهاشم صالح، أو البسطاء الذين يقولون أننا نقصي أركون ونهمه زورا وبهتاناً.

أركون يتهم عثمان بن عفان بتحريف المصحف

تلك الكلمات تعني دون أدنى شك أن أركون يقول أن القرآن تم التلاعب به من قبل عثمان رضي الله عنه، وهذا القول يحرج المعجبين بأركون كثيرا ويلجمهم، خاصة السذج الذين يريدون جمع الإيمان بالقرآن والإيمان بمقولات أركون الماضية، وموقف أركون (لا رأيه) ينم عن حقد كبير على بقاء القرآن على حاله منذ أن نزل، وبلغته العربية التي نزل بها دون ترجمة، وأركون هنا لا ينكشف بأقواله فقط، بل بحجم ما يقفزه ويخفيه من الحقائق والوثائق التي سأذكرها بالتفصيل، والتي أذهلت العالم، كما سيمر معنا عند الحديث عن "نقد النص القرآني" وظروف تدوينه. فالرجل يحمله حقده على قفز كتبة الوحي ووثائقهم، وكتابة أبي بكر للنسخة الرسمية المكتوبة للقرآن الكريم، والطريقة الرائعة التي تمت بها، في محيط يُتداول (مبني للمجهول) فيه القرآن بشكل كثيف للغاية في الصلوات الخمس، وقيام الليل، وحلقات تدارس القرآن، لدرجة نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن المبالغة في قراءته، وكره لهم أن يقرأوه في أقل من ثلاثة أيام حتى لا يفوتهم التدبر والتأمل في معانيه ومضامينه، يتجاوز أركون ذلك وأكثر منه مما سيمر معنا، ليقف عند كتابة عثمان التي لم تكن أكثر من قرار بنسخ المصحف الرسمي لأقاليم الدولة الإسلامية حتى لا يقع للقرآن ما وقع من التحريف الذي أصاب الكتاب المقدس، والذي أقرت به الكنيسة نفسها كما سيمر معنا عند الحديث عن النص المسيحي المقدس.

أركون يقول ذلك دون أن يأتي برواية واحدة ولو مكذوبة تؤيد قوله، في الوقت الذي يقفز فيه روايات غاية في الصحة تحكي تحرز عثمان من أي تغيير أو تبديل عند النقل من النسخة الرسمية التي قام بها أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، وأركون يقفزها لأنها ستفضح جهله في كلامه الأخير، وإذا كان لديه نص تاريخي

فلم لا يعرضه، ويذكر مصدره، ولم يقفز أهم مرجع إسلامي يوثق عملية تدوين القرآن (صحيح البخاري)
إنه يقفز رواية البخاري ٤ ـ ١٦٤٦ والتي يوثقها عن أحد الرجال الذين كتبوا تلك النسخ عن المصحف الرسمي، وهو عبد الله بن الزبير، والذي طرح أسئلة أركون قبل ألف وأربعمائة عام على الخليفة عثمان بن عفان متسائلا: لم يكتب عثمان آيات تم نسخ العمل بها وألغي حكمها؟ (قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا}. قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ أو تدعها ! قال عثمان: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه)
هذه الأسئلة ووأسئلة أخرى أخطر منها، ستذهل أركون – كما سنأتي عليها – طرحت بشفافية ووضوح أيام عثمان وأيام عمر وأيام أبي بكر رضي الله عنهم، بل وأيام النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت الإجابة عليها مما لا يريد أركون وأمثاله أن تظهر، لذا قفزوها وحشوا كتبهم بأكاذيب مخجلة بالغة السخف، ربما نقلوها من كتاب ألف ليلة وليلة أو الأغاني.

المزيد من أكاذيب وعدم أمانة أركون العلمية

لم يتوقف أركون عند هذا الحد وهو يتحدث عن آية بل كلمة واحدة من القرآن، بل أمعن بالكذب والتزوير، وفقد صوابه وعقله وهو يهاجم الطبري، فاتهمه بأن خطابه التفسيري خطاب تلاعب بالقرآن. ولا أدري كيف يمكن تصور هذه المعادلة: الطبري الذي أفنى عمره في تفسير القرآن وجمع الوثائق التي تتحدث عنه وعن تفسيره، متلاعب!! وأركون الذي يكفر بالقرآن ويكذب المصحف، أصبح أشد الناس حرصا على نقائه – حقا إذا لم تستح فاصنع ما شئت. أركون لم يتوقف عند ذلك بل بدأ يكيل التهم للطبري، وقد فضحه الله فوقع في شر أعماله قولا وعملا، لقد اتهم أركون الطبري بأنه ينافق السلطة في كتاباته مرة أخرى، خاصة في كتابة التاريخ، لكنه عندما ساق الدليل الذي يؤكد به اتهامه انفضح فضيحة أدونيس السابقة.
يقول أركون كما ينقل عنه الفجاري: (يعرف أركون النسخ في هذا السياق التفسيري التشريعي "نظام التوريث" بأنه خطاب " التلاعب بالأيات القرآنية من أجل تشكيل "علم للتوريث" يتطابق والإكراهات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالمجتمعات. وبعبارة أدق، يتطابق ومصالح الفئات الاجتماعية التي تكون فيها الفقهاء الأوائل". وهذا يعني أن النسخ هو إجراء لاهوتي لم يساعد على تأصيل تاريخية الوحي، بل عمل على تعاليه وانغلاقه وإطلاقيته فتعارضه مع التاريخ والتطور من أجل مصالح الفئات الماسكة بزمام السلطة والثروة. هذا يصبح مؤكداً عندما ننظر جيداً في علاقة الطبري بالسلطة في جل كتاباته ومواضيعه. ففي التاريخ كان متحاملاً إلى أبعد الحدود على مختلف الحركات الاجتماعية التي خرجت على الخلافة العباسية وأعلنت العصيان والصراع المسلح. وبالرغم من أن هذه الحركات كانت منظمة عسكرياً وسياسياً وحتى فكرياً ومذهبياً، كالقرامطة مثلاً،

فإنه يصر دائماً على أنها مجرد تمرد وشغب ولصوصية. وأما في التفسير فقد كان حريصاً على تأسيس الأرثوذكسية السنية باعتبارها فكرانية السلطة الحاكمة)
كنا قبل قليل مع فضيحة أركون مع المأمون وقفزه على عصره، أما الأن فالفضيحة طامة كبرى. إنه يقول أن الطبري (في التاريخ كان متحاملاً إلى أبعد الحدود على مختلف الحركات الاجتماعية التي خرجت على الخلافة العباسية وأعلنت العصيان والصراع المسلح. وبالرغم من أن هذه الحركات كانت منظمة عسكرياً وسياسياً وحتى فكرياً ومذهبياً، كالقرامطة مثلاً، فإنه يصر دائماً على أنها مجرد تمرد وشغب ولصوصية) وحتى نعرف حجم الكارثة التي جلبها أركون على نفسه، وكيف أن كلمة واحدة من القرآن (الكلالة) أنهت شيئا اسمه (المفكر البربري محمد أركون)
دعونا نتأمل النقاط التالية:
أركون يقول أن الطبري كان يتحامل على القرامطة المفكرين المنظمين المتحضرين، فلنقرأ مرة أخرى ما يقوله مؤرخون غير مؤدلجين عن القرامطة، وأرجو من القاريء أن يعذرني للتكرار، فبلادة هؤلاء المفكرين ترغمني على ذلك.
يقول صاحب كتاب (معجم البلدان ٢ – ٢٢٤) عن الحجر الأسود الموضوع في ركن الكعبة : ولم يزل هذا الحجر في الجاهلية والإسلام محترما معظما مكرما يتبركون به ويقبلونه، إلى أن دخل القرامطة لعنهم الله في سنة (٣١٧) إلى مكة عنوة، فنهبوها وقتلوا الحجاج وسلبوا البيت وقلعوا الحجر الأسود، وحملوه معهم إلى بلادهم بالأحساء من أرض البحرين)
يقول صاحب كتاب : (تاريخ الخلفاء ١ – ٣٩٢): (وفي سنة سبع وعشرين كتب أبو على عمر بن يحيى العلوى إلى القرمطي وكان يحبه: أن يطلق طريق الحاج ويعطيه عن كل جمل خمسة دنانير، فأذن وحج الناس وهى أول سنة أخذ فيها المكس). وفي كتاب (مآثر الإنافة ١ – ٢٧٠): (وتفاقم أمر القرامطة في كل جهة، ونهبوا طبرية، وساروا إلى جهة الكوفة وقطعوا الطريق على الحجاج من طريق العراق، وفتكوا بهم عن آخرهم وأخذوا منهم أموالا جمة، وبلغ عدة القتلى من الحجاج فيما يقال عشرين ألفا)
وجاء في كتاب (البدء والتاريخ ٥ – ١٣٢) : (وأما القرامطة فأصحاب القرمط وهو رجل من سواد الكوفة أباح لهم قتل من خالفهم فلذلك خرجت القرامطة على الحجاج). وجاء في كتاب: (وفيات الأعيان ٢ – ١٤٨) حول أبي طاهر القرمطي وجيشه الهمجي: (وفي سنة إحدى عشرة وثلثمائة في شهر ربيع الآخر منها قصد أبو طاهر (القرمطي) وعسكره البصرة وملكوها بغير قتال، بل صعدوا إليها ليلا بسلالم الشعر، فلما حصلوا بها وأحسوا بهم ثاروا إليهم فقتلوا متولي البلاد ووضعوا السيف في الناس فهربوا منهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوما يحمل منها الأموال ثم عاد إلى بلده ولم يزالوا يعيشون في البلاد ويكثرون فيها الفساد من القتل والسبي والنهب والحريق إلى سنة سبع عشرة وثلثمائة، فحج الناس فيها وسلموا في طريقهم ثم وافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية (٨ من شهر ذي الحجة) فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت

نفسه، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر، فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فقاتلوه فقتلهم أجمعين، وقلع باب الكعبة وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط فمات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام من غير كفن ولا غسل ولا صلاة على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة)

أي حقد يحمله أركون وهو يدافع عن هؤلاء المجرمين، وأي ضغينة يحملها ضد القرآن وأهل السنة الذين يسميهم (الأرثوذكس) لكي يتعاطف مع قطاع الطريق والإرهابيين القرامطة، وإذا كان أركون يعتبر القرامطة ومجازرهم عملا اجتماعيا راقيا، ومعارضة منظمة فكريا وسياسيا ومذهبيا وعسكريا، فلم يجن جنونه عندما يسمع بالحركات الإسلامية السلمية المنظمة، ولم يسميها اتهاما لها وإقصاءا لأصالتها بـ(الإسلاموية)؟ ولم يجعلها سلة تلقى فيها كل تهم الإرهاب والتخريب والتخلف والإفساد؟ لم لا يحترم أركون نفسه وعقله وقراءه ويعامل تلك الحركات بما يعامل به القرامطة، الذين نهبوا وقتلوا واغتصبوا دون هدف سوى الحقد؟

لمَ يسمح له حقده بالتعاطف مع المعارضة القرمطية التي قتلت الحجيج وقطعت الطرق وأخافت العباد والبلاد؟ ولا يسمح له منهجه التنويري التقدمي العلمي الفكراني بقبول (الإسلامويين) الذين يكتسحون الانتخابات البلدية والتشريعية والنقابات بنزاهة، والناس هي التي تختارهم وترفض أركون وأمثاله؟!!!

وإذا كان أركون نزيها إلى هذه الدرجة في التعامل مع السلطة، ويتهم الطبري بالبحث عن رضاها، فلم يستجيب للسلطات الفرنسية التي دعته إلى تأييد منع الحجاب على المسلمات الفرنسيات وغير الفرنسيات في مدارس فرنسا (أم الحرية)، وصانعة (تمثال الحرية)؟! لماذا يهب لمساندة السلطة في إقصاء الآخر (المسلم) ومنعه من ممارسة حق من حقوقه التي تكفلها الديكتاتوريات فضلا عن الديموقراطيات؟

وقبل أن أختم الحديث عن أركون أريد المرور على مجموعة من التورطات والفضائح التي وقع فيها نتيجة تصديه لكلمة واحدة من كلمات القرآن، وسأترك الباقي لكتاب أخصصه إن شاء الله لكشف تورطات وتزوير هذا المتعالم، لأن الحديث سيطول بنا لو استقصيناها، وهذا الكتاب، ليس مخصصاً له، بل للعقل العربي والإسلامي، وأركون كاتب أسقط نفسه وقلمه بهذه الشعوذات، لذا مررت به مرور الكرام.

فزاعة كبار المؤلفين والمعلمين

إذا وصف أركون أحداً بأنه من كبار المؤلفين أو المعلمين، فثق أن هذا الموصوف من ألد أعداء الإسلام والقرآن، سواء من الملاحدة الأقدمين كابن الراوندي، أو المستشرقين المجرمين الدمويين أمثال "سنوك"، وهو يُدخل في هذا الوصف الملاحدة الذين عارضوا القرآن بحجج بالغة السخف والتخلف، وقد كشف العلم الحديث مدى تخلفهم ذلك، فهو يقول عن الرازي وأمثاله من الملاحدة: (كبار

المؤلفين وخصوصا فخر الدين الرازي) لماذا ؟ لأنهم يقولون أن القول بالنسخ يعني أن في الوحي تعارضا.

وهذا السؤال طرحه قبل هؤلاء الملاحدة أعرابي بكل تلقائية وعفوية على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو يطلب منها أن تملي عليه بعض السور من مصحفها، فأجابته بكل شفافية حيث روى البخاري ٤-١٩١٠ وعبد الرزاق ٣ - ٣٥٢: عن ابن جريج قال: (أخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ فقالت: ويحك وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين فأريني مصحفك لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنا نقرؤه غير مؤلف.

قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل! إنما أنزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لاندع الخمر أبدا. ولو نزل: لا تقربوا النساء. لقالوا: لا ندع أبداً. لقد نزل بمكة - وإني لجارية ألعب - على محمد صلى الله عليه وسلم: (الساعة أدهى وأمر) وما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده. قال: فأخرجت له المصحف، فأملت عليه آي السور)

إن ما يفعله أركون من تمجيد لهؤلاء لا يختلف عما يفعله أدونيس، فهذا يرمي سباطته من النافذة، وذاك يرميها من الباب، إنها محاولة لإعادة إنتاج أبي جهل وابن سلول والرزي وابن الراوندي، ولكن من خلال استعارة مسميات جديدة كالحداثة، أو الألسنية الجديدة أو غيرها من المسميات، إنه الكفر ولكن بلغة أخرى، وهي الحجج القديمة البالية، ولكن بعلب أكثر جذبا وأكثر أصباغا. أما سنوك وأمثاله فلنا وقفة مثيرة مع مقولاتهم المخجلة لكل باحث جاد يحترم عقله وقراءه.

مفارقة بين المناهج الرصينة والمطاطة

لا أحد يقارن على الإطلاق بين المنهج العلمي التجريبي ونتائجه، ومناهج الدراسات الإنسانية كالبنيوية والألسنية وعلم الاجتماع وأمثالها، فالتطور الهائل في العلوم التجريبية كالطب والهندسة والكيمياء والفيزياء والأحياء والجيولوجيا والفلك والبحار لا تدع مجالا للمقارنة على الإطلاق، فما يشهده الغرب من تطور في شتى العلوم المادية، ليس سوى ثمرة للعلوم التجريبية، فالقفزات الهائلة في علوم كالطب والهندسة والحاسب الآلي والجيولوجيا والفلك والبحاروغيرها مكنت الإنسان من صنع السيارات والطائرات والغواصات والسفن، ومكنته من النزول على سطح القمر، ووضع المسبار على أرض المريخ، وغوص أعماق البحار واكتشاف عوالمه، واختراع التلفاز والأقمار الصناعية والهاتف ووسائل الاتصال المدهشة، حتى حول العالم كله إلى مدينة صغيرة، وقد يرى من في آسيا ما يحدث في أفريقيا ويشاهده قبل من يفصلهم عنه طريق أو جدار، كما مكنت الإنسان من القضاء على أمراض كانت فتاكة وعلاج أمراض فتاكة كانت تقضي على أجيال ومدن بل وأمم، ومكنته من زرع الأعضاء والاستنساخ وملايين الاكتشافات التي تحملها الأيام ولا أقول الأعوام القادمة، لأن التقدم المذهل والمدهش في هذا العلم

التجريبي صار في سباق مع الزمن نفسه. ويكفي للدلالة على الثقة بالعلم التجريبي أن الإنسان يسلم جسده لمبضع الجراح المتخصص ثقة بعلمه التجريبي، ويركب طائرة تحلق به في الهواء، ثقة بالعلم التجريبي وليس ثقة بوعد الطبيب أو الطيار، ويودع أمواله في بنوك العالم مقابل مجموعة من الأرقام، ثقة بتقنية العلم التجريبي لا بمصداقية موظفي البنوك... والأمثلة تطول. وأركون ينتمي لتلك العلوم الإنسانية، بشهادة أحد دارسيه وهو الفجاري الذي يقول:(ينهل مفهوم العقل في مدونة أركون من مرجعية العلوم الإنسانية المعاصرة التي بتجاوزها لنظرية المتضادات الثنائية قد فتحت جسور التواصل بين العقل ونقائضه كالجنون والهوى والقلب والعاطفة)

التقدم في هذه العلوم الإنسانية يعد مضحكا إذا ما قارناه بما سبق، ونتائج دراساتها ليست موضوعية بل تخضع للقبلي والمرتب والإيديلوجي، وهي نتائج تثير الضحك عند مقارنتها بنتائج العلم التجريبي، بل إنك لو أعطيت مجموعة من المتخصصين بالبنيوية والألسنية نصا واحدا لدراسته لخرجوا بنتائج قد تفوق أعدادهم. وهنا قد يطرح السؤال التالي حول

منهجين لحقلين مختلفين

فيقال: كيف تقارن بين منهجين يتستهدف كل منهما حقلا مختلفاً عن الآخر، لا سيما وأن منهجا كالبنيوية مثلا لا يتفق دارسوه على نتيجة لنص شعري واحد، فكيف بمنهجين لحقلين مختلفين، فالبنيوية وعلم الاجتماع وغيرها تتناول الفكر والنصوص والأدب والإنسان في بعده الآخر، بينما الطب والتكنولوجيا والكيمياء والفيزياء تتناول الكون والإنسان في بعده المادي. إنك كمن يفاضل بين ركوب البحر على السفينة أو على جمل. بل إنك كمن يستخدم الجمل لركوب البحر والسفينة لعبور الصحراء، فلم لا تستخدم مفهوم الحقيقتين الذي قال به ابن رشد لحل هذه الإشكالية.

والإجابة عندي هي لب الموضوع وعمقه وسره الذي يخشى منه أركون، وهو الذي ينسف كل دراساته رأسا على عقب، ويكشف أي سطحية كنا ننعم عليها بأعماق لا تمت لها بصلة.. الإجابة هي في العنوان التالي:

القرآن نص مفتوح على كل المناهج

القرآن الكريم يقدم نفسه من جديد لهذا العصر، كما قدم نفسه لزمن نزوله وما بعده، ويتحدى من جديد.. القرآن مازال يقول لمن يقرأه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) ويقول أيضاً: (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين)

القرآن في هذا العصر يكسر تلك المقولة الرشدية التي أسست العلمانية الغربية، (نظرية الحقيقتين) ويسقط القرآن أيضاً المقولة التي سببها الكتاب المقدس: (لا أحد يملك الحقيقة).

القرآن الذي بدل عقائد العرب بعقيدته، ووحد شتاتهم وشتات غيرهم في دولته وأمته، ووحد لغتهم الرسمية بلغته، وأذاب لغات الغير بلغته، وحول غير المسلمين من الروم والأقباط والسرياليين والفينيقيين والبربر والنوبيين وغيرهم إلى مسلمين، ولم يكتف بذلك، بل حول لغتهم إلى لغته بعد أن غير عقائدهم إلى عقيدته، ولولا القرآن لما كنا ننطق العربية الفصحى اليوم، هذا بالإضافة إلى أنه مازال مكتوبا مقروءا باللغة العربية التي نزل بها منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام. ساحت جيوشه بعد غزوة الخندق التي حاصره فيها كل العرب من الوثنيين واليهود والمنافقين، ساحت جيوشه من المدينة المحاصرة شرقا حتى وصلت حدود الصين، وغربا حتى لم يبق بينها وبين باريس إلا عشرات الأميال، وشمالا حتى وصلت عاصمة المسيحية السياسية (القسطنطينية).

كل هذا حدث في أقل من مائة عام، القرآن الذي حول العرب من قوم يمارسون السلب والنهب ووأد البنات إلى أنظف شعوب الأرض،وحولهم من شعب أمي إلى شعب ينقسم إلى قسمين عالم ومتعلم، القرآن الذي نظم أوقاتهم وما زال بصلواته الخمس. القرآن من أجل فهمه نشأت علوم النحو والبلاغة والفقه وأصول الفقه والتفسير وأصول التفسير، وعلوم أخرى.. إنه كتاب لا تعد إنجازاته ولا تحصى، وباعتراف العلمانيين غربيين وعربا هو أعظم الكتب تقديسا على مر التاريخ وحتى اليوم.

إن كتابا بهذه المقاييس لا يمكن التعاطي معه هكذا بأسلوب محتقن بالمواقف كما يفعل أبو جهل والرازي وابن الراوندي والعظم وأركون.. إن كتابا بمقاييس كهذه لا يمكن تعاطيه بمناهج لم تفلح في قراءة نص شعري. فمتى ما أردنا أن ننقد نصا بهذا المستوى من الإعجاز والإنجاز، فعلينا استخدام مناهج بالغة الدقة، أي أننا سنضطر لاستبعاد البنيوية والألسنية وعلوم النفس والاجتماع، لأنها غنية بالاضطرابات وتضارب النتائج، وهي قابلة للتحيز والتوظيف.

لذا فإن المؤهل لتلك المهمة هو المنهج التجريبي؟ وهنا أعيد السؤال السابق: أليس استخدام المنهج التجريبي في فحص نص ديني توظيف لمنهج في غير ميدانه ؟

والإجابة هي بالعكس، فالقرآن (كتاب الله) كما نؤمن، وهو كما قلت يقتحم هذا العصر كما اقتحم العصور السابقة، وفي مخاطبته لهذا العصر يقدم في ثنايا الآيات العقدية وآيات الأحكام والتشريع والدعوة، معلومات مادية غريبة جدا على عصره الذي نزل فيه، ولا يمكن التأكد منها إلا في عصرنا هذا.. عصر التقدم العلمي والكشفي الهائل، وبالتالي فلا يمكن - والكلام كلام الله، والكون من خلق الله - أن يكون كلام الله مناقضا لخلقه. نحن هنا نتحدث عن معلومات وصل العلم فيها إلى درجة حقيقة مسلم بها، وليس إلى درجة نظرية قابلة للتغير.

المعجز في الأسلوب القرآني أنه يقدمها بأسلوب لاتنفر منه أسماع من كان في ذلك العصر، وهو أسلوب إعجازي جديد – سيمر معنا عند الحديث عند نقد النص الإسلامي الأول. أما ما جاء في القرآن من غيبيات كأركان الإيمان التي تلي الإيمان بالله، وهي: (الرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر) فالإيمان بها لا يؤخذ من العلم

التجريبي ولا من غيره، لأن العلم التجريبي لا يملك من الأدوات ما يمكنه من كشف تلك الأشياء، أو حتى نفيها.. هذه العقائد لا سبيل لها سوى الخبر. أي أن الإيمان بها إيمان خبري، عن طريق فحص الخبر صحة أو كذبا، فعالم الغيب غير خاضع للتجربة ولا للتخرصات، ولا لأوهام الفلاسفة كهراء أرسطو أن القمر يتحكم في أرواح البشر، وأن الأفلاك الكبرى عشرة، وغيرها من الهراء اليوناني. كما أننا إزاء إشكالية لم يدرسها المفكر العربي ولا يعرف عنها شيئا، وهي من المناطق البكر حتى الآن على المستوى العربي، وإن جرى التعامل معها بسطحية لدى بعض المستشرقين أمثال الأمير "كايتي" و"شبرنجر" و"شاخت".
وأركون في حديثه عن السيرة والحديث النبوي يستنسخ تلك الدراسات، خاصة دراسات شاخت تماما دون تعديل، ودون أن ينسبها لأصحابها، ولكنه يقوم بحذف تلك الأسماء ويحشد بدلا منها العشرات من المصطلحات العلمية، حتى لا يقال عنه أنه مقلد للمستشرقين، ولكن باحث علمي رصين، وقد أفردت لسرقات أركون كتابا أسأل الله أن يرى النور قريبا، أبين فيه سرقاته لأفكار هؤلاء، وهي أفكار إيديلوجية في معظمها تتساوق مع هوى أركون، كما أكشف فيه سخريته من المناهج العلمية الرصينة التي لا تقبل الجدل، وقد جعلته في كتاب مستقل نظرا لحجم التهورات التي ورط أركون فيها نفسه، لأن إيرادها هنا سيزيد من حجم الكتاب زيادة كبيرة.

كيف يقدم القرآن معلوماته العلمية

إنه لا يقدمها باردة مستقلة لا علاقة لها بما قبلها ولا بما بعدها، بل يأتي بها في غضون الحديث عن أمر عقدي، أو خبري أو أمر أو نهي، أو وعد أو وعيد، فبدونها تصبح الآية مزورة، وبها وحدها يصبح ما عداها ناقصا مبتورا. فالمعلومة تأتي وكأنها شاهد على، أو ضد صحة ذلك الخبر أو ذاك التشريع وهكذا، ونظرا لأنني سأسوق العديد من الأمثلة العلمية في القرآن مع النقد الموجه لها من قبل علمانيين غربيين غير مسلمين، لا يهابون المقدس، ولا يغيرون لغاتهم وعناوين بحوثهم نفاقا لأتباعه كما يفعل أركون.. نظرا لذلك كله، سأورد بعض دراسات ونتائج أركون أولا، وأترك نتائج العلم التجريبي في تعاطيه مع القرآن إلى مواضعه عند الحديث عن نقد النص القرآني.

القرآن ليس ما في المصحف!!

من مقولات أركون السخيفة: أن القرآن الذي نزل ليس هو ما في المصحف اليوم، وهو يحتج على ذلك بحجج هي: الفاتحة ليست أول ما نزل من القرآن، بينما هي في المصحف السورة الأولى، وأن المؤمنين يتجاهلون فترة طويلة ما بين نزول القرآن وكتابته على عهد عثمان، وكأن أركون يقول إنها فترة كافية لإدخال أشياء من غير القرآن على القرآن. ويقول أن الله لم يفترض أبدا وجود وحي مدون، بل إن تدوين القرآن أضر بالأمة

يقول أركون في كلام يفضح جهله الموحش بتدوين القرآن في كتابه تاريخية الفكر العربى الإسلامى-٨٥ كما يكشف كفره بالقرآن الموجود بين أظهرنا أن التيولوجي والمؤرخ من أصحاب الحديث لا يعيران (أي انتباه للتلاعب المبطن أو الضمني الذي يقوم به في كل مرة يستشهد فيها بآية من القرآن أو حديث الرسول) ثم يأتي أركون بأدلته الغبية التي تثبت أنه أكثر من كتب عن العقل العربي والإسلامي تحيزا وإيديلوجية وكرها لبقاء القرآن على صورته حتى اليوم فيقول: (إن أولى هذه التلاعبات التي تتمثل في المرور من حالة الكلام الشفوى إلى حالة الكلام المكتوب) أي من نزول الوحي إلى كتابته، وكلمات أركون تجعلني أتساءل، كيف يسمى هذا الرجل مفكرا وهو بهذا الجهل، ثم يعمم جهله لينتقل إلى تدوين السيرة النبوية، فيقول: (وهذا ما فعله أيضا ناشرو السيرة النبوية كابن هشام (مات عام ٢١٣ أو ٢١٨هـ/ ٨٢٨ أو ٨٣٣م)" ، هذه أجرأ أطروحات أركون تجاه القرآن، والتخبط فيها لا يحتاج إلى عناء لمعرفته:

تخبطات أركون

من ناحية المنهج، الرجل متخبط إلى درجة العته، فهو ينكر أسباب النزول، ويتجاوز حقيقتها والحكمة من التدرج في الأحكام لأسباب دعوية، وهو بذلك ينكر عقله، لأنه دائما ما يستدل بأخبار نقلت من الطرق نفسها التي نقلت لنا أسباب النزول.

إذا كان أركون ينكر أسباب النزول، ويكذب ناقليها، فما أدراه أن الفاتحة ليست هي أول سورة نزلت من القرآن!

إذا كان أركون ينكر أسباب النزول، وأن القرآن نزل منجما فلم يتحدث عن ترتيب السور؟ وما أهمية ترتيب السور إذا كان القرآن نزل جملة واحدة؟ فالقرآن مهما كان ترتيبه لن يتغير أسلوبا أو محتوى، وما أهمية ترتيب السور إذا كانت كل سورة مستقلة بحد ذاتها؟!!

إذا كان أركون ينكر أسباب النزول فهو بالنتيجة ينكر السنة جملة وتفصيلا، لأن أسباب النزول نقل بالأسانيد تماما كالسنة.

إذا كان أركون ينكر أسباب النزول وهي كما مر معنا منقولة بالأسانيد، فإنه يناقض نفسه مباشرة، فيدعي أن القرآن كتب في عصر الخليفة عثمان بن عفان، وجزمه بذلك دليل على احتجاجه بالنقل بالأسانيد، فالقول بأن عثمان هو أول من كتب القرآن منقول بأسانيد. وحتى إذا احتج أركون بالنقل السندي للنصوص فإنه إيديلوجي انتقائي، ينتقي من المرويات ما يصلح له ويغض الطرف عما يدينه ويضعف حجته، وأقول كما قال حرب: أين المعيارية عند أركون!!

يكذب أركون في ادعائه حول عثمان بن عفان ويتناقض أيضاً، فهو ودون أي سند تاريخي يخترع مقولة لم يقلها أحد قبله، ولا توجد في كتب الحديث أوالتاريخ، بل يضعها كما يضع الكذابون مروياتهم، مستحقا لقب "وضاع" ، ثم ناقض مقولته الثانية بمقولة أسخف منها. مما أثار سخرية الدكتور إبراهيم عوض المريرة من أركون، فقال: (يزعم أركون أنه لم يحدث "إجماع، بعد فترة طويلة من الاحتجاج

والاختلاف، على شكل ومضمون النص القرآنى، الذى انضم إليه مؤخرا الحديث النبوى المُنْجَز من قِبَل البخارى ومسلم بالنسبة للسنيين، ومن قِبَل الكلينى بالنسبة للشيعيين" إلا فى القرن الرابع الهجرى. وبالمثل نراه يدّعى "أن المسلمين يرضون منذ القرن العاشر الميلادى (أى منذ القرن الرابع الهجرى الذى قال إنهم قد أجمعوا فيه أخيرا على نص واحد للقرآن كما رأينا) أن يفتحوا تلك الإضبارة الشائكة المتعلقة بتاريخ تشكل المصحف الرسمى، أو بكيفية تشكل هذا المصحف الرسمى تاريخيا" – "الإسلام، أوربا، الغرب – ٧٩". ولكن أية تلاعبات تلك التى تعرَّض لها النص القرآنى؟ كنا نحب لو أفصح الدكتور حتى نكون على بينة مما يقول ومما ينبغى أن نناقشه، لكنه للأسف لم يحاول أن يبصرنا بما يقصد! وأنا، فى الواقع، لا أستطيع إلا أن أرى فى هذا حيلة ماكرة (حسبما قدَّر، وإن كانت مكشوفة بل مفضوحة عندنا) لإيهام القارئ المسلم أن المسألة من الوضوح والبيان بحيث لا تحتاج لأى تحديد أو تفصيل! والعجيب أنه يحدد القرن الرابع الهجرى، ولا أدرى على أى أساس ما دام قد أقر قبل ذلك بعدة أسطر بأن عثمان، رضى الله عنه وأرضاه، قد استطاع أن يضع حدا للخلاف فى قراءة القرآن فى فترة خلافته، أى بعد الهجرة بسنوات لا بقرون أربعة كما يحاول الكاتب الأمين أن يلقى فى رُوع قرائه! – من مقالة المهزلة الأركونية د. إبراهيم عوض)

لا أدري ما الإجماع الذي يتحدث عنه أركون حول القرآن في القرن الرابع الهجري، إلا إذا كان إجماعا للجن والعفاريت – إن كان يؤمن بوجودهم، إنه لم يذكر اسم عالم واحد يقول بذلك، فأي فكر يحمله هذا الرجل، وأي عقل يقبع في جمجمته، أما قمة الكذب والسفالة الكتابة فتتجلى في هراء الببغاء (هاشم صالح) عندما يقول: ("القرآن لم يُثَبَّت كليا أو نهائيا فى عهد عثمان على عكس ما نظن، وإنما ظل الصراع حوله محتدما حتى القرن الرابع الهجرى حين أُغْلِق نهائيا باتفاق ضمنى بين السنة والشيعة، وذلك لأن استمرارية الصراع كانت ستضر بكلا الطرفين. بعدئذ أصبح معتَبَرًا كنَصٍّ نهائى لا يمكن أن نضيف إليه أى شىء أو نحذف منه أى شىء، وأصبحوا يعاملونه كعمل متكامل على الرغم من تنوع سوره واختلافها فيما بينها من حيث الموضوعات والأساليب -هامش ١١٤- القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى) لقد بلغ هاشم من قلة الحياء والكذب مالم يبلغه ملحد مقلد غيره، أين اجتمع السنة والشيعة أيها العبقري، وأين اتفقا ومتى بالتحديد، وما هو المجمع المسكوني – على غرار المسيحية – الذي تم ذلك الاجتماع، حقا إن هذين الرجلين يقبعان في قاع من الانحطاط والكذب وقلة الحياء غير مسبوق. والذي يتبين لي من تعالم هذا الرجل أن كل المعلومات التي سكت عنها وقفزها تدينه وتفضحه، وإلا فأي مفكر يدعي الكتابة بعمق عن القرآن وهو يغفل معلومات غاية في الأهمية:

إغفال أركون وقفزه لمعلومات تدينه

قفز معلومات منقولة بوثائق صحيحة وأسانيد قوية، ولم يتطرق لها، واخترع بدلا منها أكاذيب مخجلة للمفكرين العرب، ومحرجة للبلهاء المصفقين له.

أغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم هو من أمر بكتابة الوحي.
أغفل أركون أنه كان للنبي أكثر من أربعين كاتبا للوحي.
أغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يراجع القرآن كاملا كل عام.
أغفل أركون أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يتداولون القرآن في صلاتهم أكثر من عشر مرات يوميا على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.
أغفل أركون حلقات العلم التي يتدارس فيها المسلمون القرآن أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم.
أغفل أركون أن لكل صحابي ورده اليومي من القرآن.
أغفل أركون أن هناك أناسا يقال لهم القراء كانوا يحفظون القرآن ويعلمونه قتل منهم غدار في موقعة واحدة فقط وفي حياته عليه السلام أكثر من سبعين.
أغفل أركون نهي النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه أن يقرأوا القرآن في أقل من ثلاثة أيام، كما قال عبد الله بن عمرو بن العص: (يا رسول الله في كم اقرأ القرآن؟ قال: أقرأه في كل شهر. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: اقرأه في خمس وعشرين. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: أقرأه في عشرين. قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك. قال اقرأه في خمس عشرة. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: اقرأه في سبع. قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك. قال صلى الله عليه وسلم: لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث – مسند أحمد ٢ - ١٦٥) فهل هناك كتاب في الدنيا لقي من العناية والقراءة هذا القدر حتى اليوم؟
أغفل أركون كما سيمر معنا الروايات الموثقة بأن أبا بكر هو أول من جمع القرآن من النسخ الموجودة عند كتاب الوحي، وجعلها في مصحف رسمي واحد، وبطريقة بالغة الدقة في التوثيق، لتكون النسخة الرسمية للأمة، في زمن مماثل تماما لزمن النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أن الكتاب هم من كتبة الوحي، والمُمْلُون هم من كتبة الوحي أيضاً، والشهود من كتبة الوحي وحفاظه، واللغة هي العربية، واللهجة هي لهجة النبي صلى الله عليه وسلم العربية، في المدينة التي اكتمل فيها الوحي وتلي وكتب ومات فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا وجود لتابعين في ذلك الزمن، كما أنه لا وجود لفرق ولا لطوائف ولمذاهب.
أغفل أركون أن مهمة أبي بكر كانت الجمع فقط في مصحف واحد.
أغفل أركون أن مصحف عثمان هو مصحف أبي بكر لا غير، وأن عثمان رفض أي تقديم أو تأخير أو إضافة أو حذف فيه، ولكن كان دور عثمان هو تعميم المصحف الرسمي وتزويد الأقاليم الإسلامية بنسخ رسمية، حتى لا يحدث للقرآن ما حدث للكتاب المقدس، كما مر معنا في البخاري قول ابن الزبير: (قلت لعثمان بن عفان {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا}. قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها ؟ أو تدعها ؟ قال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه – البخاري ٤ – ١٦٤٦)

أغفل أركون ذلك وغيره، وأفرز لنا أكاذيب لا يستحي هو ومقلده من افترائها، متوهما أنه إذا غلف أكاذيبه بعشرات المصطلحات العلمية خاصة الحديثة منها، فسوف يقوم بتنويمنا مغناطيسيا ليملي علينا كالبله هراءه.

د. إبراهيم عوض يفضح المزيد من هراء أركون

قرأت مقالة الدكتور "إبراهيم عوض" حول أكاذيب أركون وتعالمه، وقد عذرت سخريته اللاذعة، فالنقد العلمي المحترم، كما هو أسلوب الجابري يقابل بنقد علمي مماثل، أما الهراء والتقليد والترديد لأقوال المستشرقين، فلا يستحق أكثر من السخرية، ومع ذلك فالدكتور "عوض" قام بتفنيد علمي، لكن أركون لم يتح له مجالا للمنهج العلمي فقط، فأركون يصر على أن يكون أضحوكة الفكر العربي الحديث، لذا وعلى طريقة المثل السوري الدارج "هيك معاملة بدها هيك ختم" سأترك القارىء الكريم، للاسترخاء مع فاصل من "السحل" لهراء محمد أركون الذي يخيف قراءه بمقدماته المرعبة، وبأسلحته البلاستيكية "كبيرة الحجم وعديمة التأثير" التي ترعب من يكتفي بالمشاهدة والهرب، وتصيب من يتصدى لها بالضحك الذي لا ينقطع، سأترك القارىء مع فاصل ممتع، وأعتذر عن الإطالة، لكن أهمية المقالة واختصارها لعقلية أركون تجعلني أنقلها كاملة تقريباً.

يقول د. إبراهيم عن أركون: (فى مقارنته بين طريقته فى تناول النص القرآنى التى يسميها: "بروتوكول القراءة الألسنى النقدى" وبين الطريقة التى يتبعها المفسرون المسلمون والتى يُطلِق عليها سعادته: "البروتوكول التفسيرى" يبدأ بتعداد المبادئ التى تقوم عليها القراءة التفسيرية كما يراها والتى ينظر إليها بترفع بوصفها أثرا من مخلفات الماضى التى ينبغى أن تُزَال، ذاكرا من بينها أن الحقيقة التى يتضمنها القرآن، والتى هى الحقيقة الوحيدة حسب الرؤية التقليدية للمسلمين، لا يمكن أحدا أن يحددها أو يعرفها إلا "عن طريق الاستعانة بأقوال الجيل الشاهد عليها، أقصد جيل المؤمنين الأوائل الذين تَلَقَّوُا الوحى من فم النبى مباشرة، والذين طبقوه عمليا فيما بعد" (المرجع السابق ١٢٢).

ومن الواضح الذى لا يحتاج إلى فضل بيان أن ذلك يتناقض تناقضا أبلق مع ما سماه: "الوضعية العامة أو الظرف العام للخطاب"، ومع ما شرح به تابعُه معنى هذا "الظرف العام للخطاب" مثلما رأينا قبل أسطر قلائل. فماذا ينبغى أن نسمى هذا أيضا؟ أما أنا فأسميه: "فرقعات خنفشارية". إنها قد تلقى الرعب فى قلوب العامة والصغار فيبصق الواحد منهم فى عُبّه وهو يبسمل لإزالة الخوف من قلبه، أما الذين ودَّكتهم الحياة فإنهم يبصقون، ولكن ليس فى عُبّهم!

هذا، ولم نغادر بَعْدُ "الظرف العام للخطاب"، الذى يحدده البروفيسير (على عادته فى المبالغات والفرقعات الخنفشارية التى تأخذ ذيلها فى أسنانها وتطلق ساقيها للريح عند أول عقبة) بأنه "مجمل الظروف التى جرى فى داخلها فعلٌ كلامىٌّ، سواء أكان مكتوبا أم شفهيا. ويخص ذلك فى آن معا المحيط الفيزيائى- المادى والاجتماعى الذى نُطِق فيه الكلام، كَمَا ويخصّ الصورة التى شكلها المستمعون عن

الناطق لحظة تفوهه بالخطاب، ويخص هوية هؤلاء، والفكرة التى يشكّلها كل واحد منهم عن رأى الآخر فيه. كما ويخصّ الأحداث التى سبقت مباشرةً عملية التلفظ بالقول، وبخاصة العلاقات التى كان المخاطبون يتعاطوْنها فيما بينهم، ثم بشكل أخصّ التبادلات التى اندرج فيها الخطاب المعنِىّ" (السابق/ ١١٤).
كل هذا يا دكتور أركون؟ لقد سببتَ لى الدُّوَار يا رجل! بالله عليك متى يمكننا أن ننتهى من فَهْمِ بَلْهَ شَرْحَ أىّ شىء فى القرآن إذا كان علينا أن نحيط بذلك كله قبل البدء فى عملية الفهم؟ إن هذا أمر أخشى، لو بدأنا فيه، أن يأخذنا هبوطا إلى آدم، وصعودا إلى يوم القيامة. ذلك أن الدنيا متشابكة بعضها مع بعض على نحو لا يكاد يُتَصَوَّر! ومع الفرقعات الخنفشارية نمضى خطوة أخرى لنرى إلامَ يأخذنا هذا التنطع الحداثى وعَمّ ينجلى فى نهاية المطاف!
إن الرجل لا يكتفى بهذا على ما فيه من استحالة التطبيق، بل يشترط قراءة كل ما كُتِب فى تفسير سورة "الفاتحة" من تفاسير منذ بداية التفسير القرآنى حتى اليوم ثم التقفية بما يحتاجه ذلك من جرد وفرز. إلا أنه سرعان ما يحيص قائلا إن هذا العمل "لا يمكن أن يقوم به شخص واحد، وإنما فريق كامل من فرق البحوث". وبالمناسبة فما "الفاتحة" إلا مجرد مثال لأية سورة أخرى نريد تحليلها طبقًا لبروتوكوله الألسنى النقدى. إننا لو رُمْنا ذلك فلن ننتهى أبدا من تحليل القرآن كما هو واضح!
ثم فلنفترض أننا قد استطعناه، فمن ذا الذى يا ترى يمكنه الزعم بأنه سيكون التحليلَ المثالى الذى لا يخرّ الماء؟ إن هذا أيضا بدوره مستحيل! خلاصة الكلام أن البروفيسير قد انتهى إلى أنْ طامَنَ من غُلَوائه المتنطعة الفارغة وقنع من الغنيمة بالإياب فأخبرنا أنه سيكتفى بتفسير الرازى، الذى زعم أنه "قد جمع فى تفسيره أهم ما أنتجه الجهد التفسيرى خلال القرون الهجرية الستة الأولى السابقة له". لكنه ، ككل معّارٍ مُغْرَمٍ بالمطاوى (و"المطاوى" فى العامية المصرية هى الكلام الواسع الذى لا يصدقه ولا حتى صاحبه كما سبق القول)، قد عزَّ عليه أن ينهزم هكذا على الملإ أمام أول تجربة، بينما لا تزال ترن فى الآذان أصداء فرقعاته الألسنية المأمآنية، فأخذ يؤكد لنا أنه يزمع أن يقدم لتفسير الرازى طبعة محققة مصحوبة بقراءة تهدف للإجابة عما لا أدرى ماذا (السابق ١٣٥و ١٣٧).
وليس لدىّ من تعليق على هذا إلا قول الرسول الكريم الذى يبدو وكأنه قد قاله خصيصا فى هذا الوعد: "أفلَحَ إنْ صَدَق"! ثم إنه بعد ذلك كله لم يرجع إلى الرازى إلا مرتين اثنتين لا غير نَقَلَ فى الأولى منهما ثلاثة أسطر ونصفا (ص ١٢٧)، وفى الثانية فقرةً لا تزيد على ثلاثة عشر سطرا (ص ١٣٩- ١٤٠)، ولشديد الأسى والأسف لم يحسن الاستفادة من أى النصين. وهكذا ينبغى أن تكون الفرقعات الخنفشارية، وإلا فلا! كذلك فإن تفسير الرازى، الذى تغلب عليه الصبغة الفلسفية، هو مجرد لون واحد من التفاسير لا يغنى عن غيره ولا يغنى غيره عنه، فهناك التفسير بالمأثور والتفسير الاعتزالى والتفسير الصوفى والتفسير الخارجى والتفسير الشيعى والتفسير اللغوى والتفسير الفقهى والتفسير العلمى...وهلم جرا.

وحتى لو وافقنا المؤلفَ على ما يقوله عن قيمة تفسير الرازى وأنه يغنى عن التفاسير السابقة عليه، فماذا نحن فاعلون فى التفاسير التى جاءت بعده؟)
ثم يواصل د. عوض قائلا: (وعلى أية حال فلو تحوَّلنا بعد ذلك كله لنرى ماذا أنجز الأستاذ الدكتور فى التحليل الفعلى لسورة "الفاتحة من هذا كله، راعَنا كثرة العناوين وتعمد الكاتب انتقاء الكلمات الضخمة التى تسبب الدوار للرأس، دون أن يكون وراءها شىء بالمرة، أو على الأقل دون أن تقدِّم لنا ثمرة تستحق كل هذه الطنطنات والفرقعات. كيف ذلك؟
لنأخذ أولا العناوين، وسوف أوردها بالترتيب التى أتت به فى التحليل المذكور:
"اللحظة الألسنية أو اللغوية: عملية القول أو عملية النطق.
المحدِّدات أو المعرِّفات، الضمائر فى سورة "الفاتحة".
الأفعال فى سورة "الفاتحة".
الأسماء أو التحويل إلى اسم فى سورة "الفاتحة".
البِنْيات النحوية فى سورة "الفاتحة".
النظم والإيقاع.
العلاقة النقدية- الفاتحة كمنطوقة أو عبارة: اللحظة التاريخية.
النسق اللغوى أو الشيفرة اللغوية.
النسق الدينى أو الشيفرة الدينية.
النسق الثقافى أو الشيفرة الثقافية.
النسق التأويلى أو الباطنى.
اللحظة الأنثربولوجية".
وهى، كما ترى، عناوين مخيفة تجعل قلب الواحد منا يسقط فى قدميه كما كنا نعتقد ونحن صغار، ثم ظننّا بعد أن كبرنا ونضجنا واتسع أفقنا الثقافى أن سقوط القلب فى الرجلين أمر خرافى ومستحيل...إلى أن وقعتُ على هذا الكلام الذى يقوله الدكتور أركون، فتبين لى أن ما كنا نقوله ونحن صغار هو أمر صحيح لا وهم فيه ولا تخريف، فها هو ذا قلبى قد سقط فعلا فى رجلىّ. والتجربة، كما يقولون، خير برهان. ومن لا يرد أن يصدّق فليأت ولْيَرَ بنفسه! إلا أن المسألة لا تخلو مع هذا من الجانب الفكاهى، فهذه العناوين التى تخلع القلوب من أماكنها لا تساوى ثمن الحبر الذى كُتِبت به، إذ لا شىء وراءها، أو إذا كان وراءها شىء فإنه لا يستحق كل هذه "الزيطة والزنبليطة". أى لحظات تاريخية؟ وأى بروتوكولات؟ وأى شفرات؟ أنحن داخلون حربا عالمية؟
المهم: لننظر مثلا تحت عنوان "النظم والإيقاع"، وهو، كما ترى معى أيها القارئ، مما يمكن فهمه. فماذا نجد تحته؟
لقد كتب المؤلف العبقرى تحت هذا العنوان أربعة عشر سطرا فى فقرتين:
فأما فى الفقرة الأولى فقد أشار سيادته (مجرد إشارة عابرة ع الماشى) إلى أهمية الدور الذى يلعبه التشديد والإيقاع والنغم والمدة وارتفاع الصوت والكثافة فى عملية القول والعلاقة بين علم النحو والنبرة، وأننا فى اللغة العربية، والنص

القرآنى بالذات، نمتلك أدبياتٍ (يعنى بلغتنا نحن عباد الله المتواضعى العقل والفهم: كتاباتٍ) غنيةً وغزيرةً خاصةً بالنظم والإيقاع، ولا تزال تنتظر من يدرسها طبقا للمناهج الحديثة فى التحليل العلمى، وأنه "من غير الممكن (فى الحالة الراهنة) المخاطرة بتفسيرٍ مُرْضٍ لنصٍّ قصيرٍ كـ"الفاتحة"". صحيح أن بروتوكول القراءة الشعائرية (يقصد الطريقة القديمة فى تفسير القرآن، وإن كان كلامه يوحى بأن المقصود هو قراءة القرآن على الجبّانات وفى المآتم، وإلا فما معنى مصطلح "الشعائرية" هنا بالله عليكم؟) وتقنين التجويد يقدمان لنا بعض التعليمات التى لم يُدْرَس تأويلها الصوتى والفونيمى والنظمى- الإيقاعى بشكل جاد حتى الآن" (بالمناسبة: الدكتور أركون دائما ما يقول عن أى شىء فى تراثنا إنه لم يُدْرَس بشكل جاد حتى الآن، أو لم يدرس أصلا لا بشكل جاد أو هازل. هذه شِنْشِنته على الدوام، وتحتاج إلى دراسة نفسية، لا ألسنية ولا شعائرية، ولا مارشات عسكرية، من التى تصاحب المراسم البروتوكولية، فى اللحظات التاريخية! فقط دراسة نفسية. أكرر: "فقط دراسة نفسية"! ويا بخته أنه لم يتقدم به الزمن كم عِقْدًا من السنين أو تأخر الزمن بالشدياق كم عِقْدا، وإلا لكان الكاتب اللبنانى الذى لم يكن يعجبه هذا التنطع الفارغ قد وضعه على السَّفُّود كما فعل مع المستشرقين الذين قُدِّر له أن يعمل معهم فى أواسط القرن التاسع عشر فى ترجمة الكتاب المقدس!). لكن حين جد الجِدّ أخذ ذيله فى أسنانه وولّى هاربا ولم يعقب! وإليك كل ما قاله البروفيسير بعد هذه الطبول والزُّمُور المزعجة التى أصمَّت لنا الآذان وخلعتْ منا القلوب: قال لا فُضَّ فوه، ولا برئ من تباريح ألم الحقد شانئوه:

"ولهذا السبب فإننا سنكتفى فقط بالتنبيه إلى الملاحظة البسيطة التالية، وهى وجود قافية "إيم" متناوبة مع قافية "إين" فى سورة "الفاتحة". أما فيما يخص الوحدات الصوتية الصغرى (الفونيمات) فإننا نلاحظ هيمنة الوحدات التالية: "ميم" ١٥ مرة، و"لام" ١٢ مرة، و"نون" ١٢ مرة، و"هاء" ٥ مرات. نحن نعلم أن التفسير التقليدى يضفى قيمة رمزية على كل وحدة صوتية وعلى عدد التكرارات، وبالتالى فإن الدراسة النظمية أو الإيقاعية للعلامات أو الكلمات ينبغى أن تتلوها الدراسة الرمزية، أو ينبغى أن تستطيل عن طريق الدراسة الرمزية" (ص ١٣٤).

أرأيت؟ إن الرجل لم يقدم شيئا على الإطلاق رغم كل الوعود الجبارة التى لا أظن إلا أنه سينجزها يوما ما، عندما تقوم القيامة بإذن الله، وتكون فى يد الواحد منا فسيلة فيغرسها طبقا لنصيحة الرسول عليه السلام ولا يتعلل بأن القيامة ستقوم.

وعَوْدًا إلى ما قاله د. أركون عن مبادئ البروتوكول التقليدى فى تفسير القرآن وما توجبه من الاستعانة بالنحو وعلم اللغة التاريخى والبلاغة والمنطق للوصول إلى معنى النص القرآنى، والفرق بينها وبين مبادئ بروتوكوله هو، التى لا تعرف هذه الاستعانة ولا تبالى بها، نلفت نظر القارئ إلى أنه أمضى الصفحات التى خصصها لسورة "الفاتحة" فى الكلام عما تشتمل عليه السورة الكريمة من ضمائر وأسماء وأفعال وبنيات نحوية، محاولا الوصول إلى شىء من المعنى من وراء هذه

الإحصاءات عبثا، ومتخبطا فى أثناء ذلك تخبطا لا يليق بمن يتصدى لتفسير كتاب الله العظيم، حتى لو كان من طائفة "البسبسانيين المأمآنيين!"
فمثلا يرى سيادته بعلمه العبقرى أن السورة تحتوى على فعلين مضارعين (هما: "نعبد، ونستعين") أُسْنِدا إلى البشر (جماعة المؤمنين)، وفعلٍ واحدٍ ماضٍ مسند إلى الله (هو: "أنعمتَ")، وأن السبب فى هذا أن الفعل المضارع يدل على استمرار المحاولة وديمومة التوتر، فهو يناسب البشر، بخلاف الماضى الذى يدل على أن الأمر قد تم وانتهى الأمر ولا مرجوع عنه، وهو ما يناسب القدرة الإلهية (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى ١٣٠- ١٣١).
وهذا كلامٌ خديجٌ لا نضج فيه، إذ كثيرا ما تُسْنَد الأفعال المضارعة إلى الله، والماضية إلى البشر، والعبرة بالسياق والمعنى لا بصيغة الفعل كما فى الشواهد التالية، وكلها من القرآن الكريم ذاته:
"الله يستهزئ بهم ويَمُدّهم فى طغيانهم يعمهون"،
"قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا فارض ولا بكْر"،
"قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء"،
"والله يرزق من يشاء بغير حساب"،
"يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم"، "الله ولىّ الذين آمنوا يُخْرِجهم من الظلمات إلى النور"،
"قل: إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء"،
"ولله ما فى السماوات وما فى الأرض، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء"،
"يُوصِيكم الله فى أولادكم: للذَّكَر مثل حظ الأُنْثَيَيْن"،
"فأولئك يتوب الله عليهم"،
"يريد الله أن يخفف عنكم"،
"أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم"،
"ويستفتونك فى النساء. قل: الله يفتيكم فيهن"،
"لكن اللهُ يشهد بما أنزل إليك"،
"يَهْدِى به الله من اتَّبع رضوانه سُبُل السلام"،
"قد نعلم إنه لَيَحْزُنك الذى يقولون"-
"لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم"،
"فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه"،
"وقالت اليهود: يد الله مغلولة"،
"فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم"،
"انظر كيف كذبوا على أنفسهم"،
"وَذَر الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولَعِبًا وغرَّتْهم الحياة الدنيا"،
"وما قدَروا الله حَقَّ قدْره"،
"وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ"...إلخ إن كان لذلك من آخر.

لكنك، يا بروفيسير، لا بضاعة علمية لديك ذات قيمة. إنما هى الحذلقة والانتفاش بما تظن أنه عندك من العلم الخطير العميق، وما هو بعميق ولا خطير.

ومما قاله سيادته أيضا فى تحليله للسورة إن أداة التعريف "أل" التى تكررت فى قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" تدل على أن "هذه التراكيب هى عبارة عن مفاهيم أو أصناف أشخاص محدَّدين بدقة من قِبَل المتكلم وقابلين للتحديد من قِبَل المخاطب عندما يصبح بدوره قائلا أو متكلما" (ص ١٢٧). ويزيد تابعُه "يقصد الببغاء هاشم" الأمرَ بيانا فيعلّق فى الهامش قائلا إن "المقصود بذلك أن كلمة "المغضوب عليهم" أو "الضالين" تدل على أشخاص محدَّدين بدقة فى مكة، وكانوا معادين للرسالة الجديدة، ولذلك دُعُوا بـ"المغضوب عليهم" و"الضالين". ولكن القرآن لا يحدد أسماءهم، وإنما يترك الصياغة عامة شمولية تنطبق على أعداء هذا الدين فى كل زمان ومكان"، مع أن المفسرين لا يذكرون أبدا أن المقصود أحد من أهل مكة ، فضلا عن أن يحددوا هذا "الأحد"، بل الموجود عادة فى كتب التفسير أنهم اليهود والنصارى ، وإن كنت أفهم الكلام فى الآية على أنه عام لا يختص بقوم دون غيرهم.

ولو كان القرآن يقصد أشخاصا بأعيانهم كما يزعم بروفيسيرنا لجاء تعبيره مختلفا مثلما هو الحال فى قوله تعالى: "عبس وتولَّى* أنْ جاءه الأعمى"، "أفرأيتَ الذى تولَّى* وأعطى قليلا وأكدَى؟* أعنده علم الغيب فهو يرى؟"،

"ذرنى ومن خلقتُ وحيدا* وجعلت له مالا ممدودا* ومهَّدت له تمهيدا* ثم يطمع أن أزيد". حيث يدل السياق الحكائى والتعبير اللغوى على أن الكلام يدور على شخص بعينه وليس كلاما عاما. أى أنه ليس فى أسباب النزول الخاصة بالسورة ولا فى طريقة التعبير فيها ما يمكن أن يفهم منه أن المقصود بـ"الضالين" و"المغضوب عليهم" أشخاص معينون من أهل مكة، وبخاصة أن "فاتحة الكتاب" هى النص القرآنى الوحيد الذى يجب الصلاة به، وفى كل ركعة منها لا فى واحدة وكفى، ولا تصحّ الصلاة من دونه، فلا يعقل أن يكون مدارها على شخص أو أشخاص بأعيانهم.

وهكذا تروْن، أيها القراء، كيف أن الرجل الذى يقلل من شأن النحو واللغة فى عملية التفسير القرآنى كما رأينا، لم يستطع أن يتجاهل فيما يسميه: "تحليل الخطاب القرآنى" اللغة ولا النحو، لكن دون أن يستطيع الاستفادة منهما للأسف. ليس هذا فحسب، بل ثمة ارتباك واضطراب فى استعمال المصطلحات النحوية واضحان، وهو ما يؤكد ما قلناه مرارا عن قلة بضاعة البروفيسير من العلم بالموضوع الذى تصدى له رغم أنه هو الميدان الذى تخصص فيه وأصبح أستاذا.

وهذا كل ما يقدمه لنا الدكتور أركون من خلال ما يسميه: "تحليل الخطاب الدينى"، وهو لا يشفى غليلا ولا يزيد القارئ علما بشىء فى السورة، فلا رجوع لأسباب النزول ولا تعمق فى تحليل دلالات الاختيارات المعجمية أو الصيغ الصرفية، أو التراكيب النحوية التى رُوعِيَتْ فى كلمات السورة وبناء جملها، وما فيها من تقديم

وتأخير وحذف وذكر وتكرير وما إلى ذلك، ولا التفات لما تريد السورة أن تغرسه فى عقل المسلم وقلبه من عقائد ومشاعر ومفاهيم مما تعج به كتب التفسير، التى لا تعرف هذه البهلوانيات الألسنية الضحلة، ويعمل الأستاذ الدكتور عبثا على التقليل من شأنها. إن ما نطالبه به هو من الأمور الصعبة التى تحتاج إلى صبر وجِدّ، ولا يصلح فيها التنفج الكاذب، ومن هنا ينصرف عنها النابتة الجديدة ممن يُسَمَّوْن بـ"الكتاب الحداثيين" ممن يقبلون بغَشْم على نصوص الأدب والقرآن فيعيثون فيها فسادا كما يفعل الثور الهائج حين يقتحم محلا لبيع تحف الخزف، فهو يدوسها بأظلافه وينطحها بقرونه لأنه لا يدرك قيمتها!)

وأنا أتساءل إضافة إلى ما قاله "د. عوض": لا أدري لم لم يضطر العلمانيون الغربيون إلى اللف والكذب والدوران كأركون! لم لم يضطروا إلى استخدام كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم من المناهج في المواجهة مع الكتاب المقدس!؟

لم قضوا عليه بضربة تجريبية واحدة!؟ بينما يحاول أركون – بغباء – استغلال كل علم جديد يسمع به للتشكيك بالقرآن ومع ذلك يزداد فشله مع كل محاولة جديد، أولم يدعي أركون – تقليدا لأساتذته المستشرقين المتعصبين – أن القرآن منقول عن الكتاب المقدس، فلم نجح العلم التجريبي في نسف الأصل "الكتاب المقدس" وشهد للقرآن، ولم فشلت كل المناهج الأركونية في نسف التقليد "في نظر أركون وأساتذته" !!!

أركون وسورة الكهف

ثم يواصل الدكتور "إبراهيم عوض" سخريته اللاذعة من تطبيق أركون لمناهجه "العلمية" العبثية مع القرآن، وأنا أصر دائما على تجاوز الثرثرة التي يقدمها المفكرون العرب في التنظير، وعدم الالتفات إلى إنشائياتهم، بل مطالبتهم بالتفاصيل والتطبيق، لأنهم غالبا ما يتهافتون مع أول الأمثلة التي يضربونها، كما سقط صاحب "رؤية الهلال" وقد طبق د. عوض هذه الطريقة فأبدع في كشف هذا الهراء الأركوني، ولست ألومه على قسوته، فأركون تهجم على القرآن بطريقة تآمرية لا تمت للعلم ولا للأخلاق ولا للموضوعية بصلة، لكنها تمت للتعصب والاستشراق المتعصب وللعداء لكل ما هو إسلامي بأوثق الصلات، فهو ينقل عن المستشرقين حذو القذة بالقذة، ثم يضفي تلك الهالات والمنمنمات من مصطلحات حديثة، على ادعاءات بليت من قدمها، ولا أدري ما موقع هاشم صالح إذا اكتشفنا أن أركون هو مجرد مقلد للمستشرقين في أقوالهم المتهافتة؟

لذا فأنا أرى أن الدكتور "عوض" عامل أركون بكثير من الحلم الذي يشكر عليه.

يقول د. عوض: ({وهذا المتنطس الذى لا يعجبه المنهج الذى يتبعه المفسرون المسلمون والذى يستعينون فيه، ضمن ما يستعينون، بالنحو والصرف والبلاغة، يغرق فى شبر ماء أمام كلمة "أمْ" الواردة فى الآية التاسعة من السورة الثانية التى يريد تحليلها على منهجه (أو "بروتوكوله" حسب تعبيره، وكأننا بصدد تشريفات ملكية)، وهى سورة "الكهف" فلا يجد إلا ما يقوله الجاهل ريجى بلاشير

(الذى أعماه الله سبحانه فى أخريات حياته حتى يكون عَمَاه من العَمَى الحيسى ويجمع بين عمى البصيرة والبصر)، فيردده فرحا به كأنه وقع على كنزٍ شماتةً منه بالقرآن، وكان الأحرى به بدلا من هذا أن يشعر بالخجل لأنه دائم التنفج فى كتاباته بأن منهجه الجديد (الذى هو آخر صيحة فى عالم الأزياء التحليلية) يختلف عن منهج المستشرقين السابقين البالى. إلا أن الكيد للإسلام يستحق أن يلحس أركون كلامه وتنفجاته وينسى ما صدع رؤوسنا به فى كثير من كتاباته ويجرى وراء المستشرقين الذين كانوا لا يعجبونه مرددا كلامهم.

فماذا قال بلاشير ورد ده وراءه أركون دون أن يتمعن فيه؟

قال بلاشير إن "أَمْ" هذه لا تستعمل إلا للتناوب أو المفاضلة بين شيئين، لكن الملاحَظ أنها فى آيتنا هذه لا يسبقها شىء يمكن أن يشكّل الطرف الآخر فى عملية التناوب، ومن ثم فإن الآيات قد تعرضت لعملية تلاعب، وهذا التلاعب يدل عليه غياب الطرف الآخر للتناوب (ص ١٤٨).

يقصد أن "أم" فى قولنا مثلا: "أتأكل تفاحا أم كمثرى؟" هى للمناوبة بين هاتين الفاكهتين اللتين ينبغى أن تختار واحدة منهما فقط. لكن فات بلاشير ومقلده أن "أم" لا تنحصر فى هذه الوظيفة، بل لها عدة وظائف:

ففى قوله تعالى: "سواء عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنْذِرهم: لا يؤمنون" نراها تدل على أنه لا فائدة فى هذا أو ذاك، فالنتيجة واحدة فى الحالتين.

أما فى قولنا: "أزيد عندك أم عمرو؟" فتدل على الرغبة فى تحديد الموجود من الشخصين. وتسمى "أم" فى هذين التركيبين: "أم المتصلة"، لأنها متصلة بما قبلها، وهذا ما ظن بلاشير ومقلده أنه كل مهمتها.

لكنهما قد فاتهما (أو بالأحرى: "فات بلاشير وحده" لأن أركون هنا إنما هو مجرد مردِّد لما قاله بلاشير دون تمعن، فينبغى ألا يُحْسَب له حساب) فات بلاشير أن هناك "أم" أخرى هى "أم المنقطعة" التى ليس للاسم الذى بعدها مناوبٌ قبلها، بل تنشئ كلاما جديدا كما هو الحال فى الآية محور الكلام، ونصها :

"أم حَسِبْتَ أن أصحاب الكهف والرَّقِيم كانوا من آياتنا عَجَبا؟"، والتى يقول المفسرون إن معناها هنا "بل أ...؟"،

وإن كانت تأتى أحيانا بمعنى "بل" فقط دون همزة كما فى قوله تعالى: "فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا؟" (النساء ١٠٩).

وأنا أضيف – والكلام لـ د. عوض – حالتين أُخْرَيَيْن: أولاهما تأتى فيها "أم" للمناوبة بين طرفين، لكن الطرف الأول لا يُذْكَر، بل يُفْهَم ضمنيا من الكلام السابق، كما فى قول أحدنا مثلا: "رأيى أن تأخذ فلانا باللين والهوادة وأن تصبر عليه طويلا، ولسوف يَصْلُح حاله بهذا الأسلوب إن شاء الله. أم لك رأى آخر؟". والمعنى: "أتوافقنى على رأيى هذا أم إن لك رأيا آخر؟"، إلا أن عبارة "أتوافقنى على رأيى هذا" ليست مذكورة فى الكلام كما هو واضح، بل تُفْهَم فهمًا من السياق. والأخرى بمعنى: "أتُراك...؟"، وهذا المعنى الأخير لا يكون إلا فى بعض حالاتِ مجيئها منقطعة، وأنا أفهم الآية على هذا المعنى. ومع ذلك كله لقد كان ينبغى على

بلاشير ومقلده ألاّ يُطنْطِنا بهذا الذى طنْطنَا به، فالنبى الذى جاء بالقرآن (أو "اخترعه" كما يقول من لا يؤمنون بنبوته عليه السلام) عربى، ومن ثم فإن ما يقوله هو الصواب، لا ما يُرْجِف به هؤلاء الأعاجم. وحتى لو قلنا إن المسلمين قد غيَّروا فى القرآن من بعده صلى الله عليه وسلم، فالذين غيروا فيه هم أيضا عرب، ومن ثم فما يقولونه هو الصواب. أليس هذا ما يمليه المنطق؟
لكن القوم، حين يتعلق الأمر بالإسلام والقرآن، لا يهتمون بمنطق ولا عقل، بل تشغلهم أحقادهم وتُذْهِلهم عن كل شىء! وهذا الاستعمال قد تكرر فى القرآن كثيرا جدا بحيث لا يمكن، مهما تسامحنا مع الببغاوات، أن نظن أنه خطأ فى كل هذه المواضع! اللهم إلا أن يكون العرب والمسلمون من الجهل والبلادة فى لغتهم بدرجة ليس لها نظير فى التاريخ!
وقد رجعتُ إلى كتاب النحو الذى وضعه بلاشير (بمشاركة جودفروا ديمومبين) لطلاب الاستشراق فوجدتهما لا يذكران من "أم" إلا المتصلة، وهى التى سبقتها همزة، سواء كانت همزة استفهام أو همزة تسوية، كما فى المثالين اللذين ضربتهما قبل قليل (Grammaire de L Arabe Classique, (Maisonneuve et Larose, Paris, 1966, PP. 218, 469،
فهذه كل بضاعة النحو عند هذا المستشرق، وذلك هو السر فى الخبط الجاهل الذى تناول به الآية وزعم أنه قد سقط قبلها كلامٌ جرّاءَ العَبَث الذى وقع فى القرآن بعد وفاة النبى عليه السلام.
وعلى أية حال هأنذا أورد العينة التالية من الشواهد القرآنية على ذلك الاستعمال لمن يريد أن يطمئن على هذا الذى نقول:
(أم حسِبْتم أن تدخلوا الجنة ولَمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم) (البقرة٢١٤، ومثلها كل الآيات التى تبتدئ بعبارة "أم حس/بـتَ/ تم)
(أم يقولون: افتراه) (يونس ٣٨، وهود ٣٥ مرتين، والسجدة ٣، والأحقاف ٨)
(أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصْفاكم بالبنين) (الزخرف ١٦)،
(ما لكم؟ كيف تحكمون؟ أم لكم كتاب فيه تَدْرُسون) (القلم ٣٧).
ومن يُردْ شواهد أخرى من القرآن فبمكنته أن يراجع المواضع التالية: البقرة ١٣٣، والنساء ٥٣، والرعد٣٣، والأنبياء٢١، ٢٤، ٤٣، والنمل ٢٠، وفاطر٤٠، والصافات ١٥٦، وص ٩، والزمر ٤٣، والشورى ٩، ٢١، ٢٤، والأحقاف ٤، ومحمد ٢٩، والطور ٣٠، والملك ٢٠، والقلم ٣٧.
ومثلُ (أم) فى هذا استخدامُ القرآن للظرف (إذ) فى أول الكثير من قصصه دون أن يسبقه كلام، وهو ما لا أذكر أنى رأيته خارج القرآن شعرًا أو نثرا. وهذه الـ(إذ) يقابلها قولنا حين نريد أن نحكى لأحدٍ حكاية: "كان يا ما كان" أو "يحكى أن" أو "حدث ذات مرة" أو ما إلى ذلك. ويقول المفسرون بأن معناها: "اذكر"، وهو معنى لا يذهب بعيدا عما قلناه. فهل يصح أن يأتى من يتحامق قائلا إن هذا استعمال خاطئ، وإنه يدل على أنه كان ههنا كلام، ثم حُذِف؟ لكن أين ذهب؟ ألعله أكلته القطة؟

كذلك يقف أركون يفرك يديه ابتهاجا ساذجا إزاء قوله تعالى فى الآية الخامسة والعشرين من السورة ذاتها، عن المدة التى بقيها أصحاب الكهف فى كهفهم: "ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تسعا"، وَهْمًا منه، وممن يردد كلامهم بعَبَله دون أن يتوقف ليتثبت منه قبل ترديده، أن فيها شذوذا لغويا، إذ كان ينبغى أن يكون الكلام فى رأيهم هكذا: "ثلاثمائة ِسنةٍ" لا "ثلاثمائةٍ سنين"، وهو ما يرتبون عليه افتراض "العديد من الافتراضات حول شروط أو ظروف تثبيت النص" كما يقول بلاشير (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى ١٤٨).

ثم يضيف الدرويش "هاشم صالح" فى الهامش قائلا إن "النقد الفيلولوجى يكشف عن أشياء مذهلة ويطرح تساؤلات عديدة، ولكن من دون أن يستطيع القطع بشىء". يقصد أن منهج المستشرقين السابقين لم يكن يساعدهم على الاستفادة من النتائج التى يتوصلون إليها، بخلاف أركون ومنهجه الذى يسوِّل له أن يطير بكل شبهة سخيفة مطنطنا بها ومخطِّئا القرآن دون تبصر أو مراجعة!

ترى هل من المنهج العلمى أن يطير الباحث مع أوهامه دون أن يراجع نفسه، لعله قد أخطأ أو تسرَّع أو سَهَا أو فاتته أشياء يجهلها؟ لماذا كلما كان الأمر ينصبّ فى ناحية الإساءة للقرآن والتشكيك فيه نرى أستاذك يفقد حذره ووسوساته التى يفلقنا بها دائما عندما تكون الوقائع كلها فى صف النص القرآنى؟

فمثلا معروف بين العالمين جميعا أن حرص المسلمين على قراءة القرآن فى الصلاة وخارج الصلاة يتعبدون به ويتقربون إلى الله منذ بداية نزوله حتى الآن كان له دور عظيم فى الحفاظ على النص القرآنى فى الذاكرة المسلمة، والدكتور محمد أركون لا يمارى فى ذلك، إذ يقول: "إن الاستخدام الطقسى أو الشعائرى للنص القرآنى ساهم بالتأكيد وبشكل مبكر فى تثبيته" (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى/ ١٥٥/ هـ١).

ويحسب القارئ المسكين أنه لا خلاف إذن بينه وبين الكاتب، بيد أن البروفيسير لا يعطيه فرصة للاستمتاع بهذا الوهم، إذ سرعان ما يسدد ضربة غير قانونية إلى فكه قائلا: "لكن لهذا الاستخدام بالذات تاريخ لا نعرفه، بمعنى أننا لا نعرف متى بدأ المسلمون يستخدمون النص القرآنى كنص عبادى فى الصلوات والطقوس، ولا كيف تطور ذلك على مدار التاريخ" (نفس المرجع والصفحة والهامش).

ترى هل يُعْقَل أن أركون يجهل منذ متى شرع المسلمون فى قراءة القرآن فى صلواتهم وعبادتهم؟ إن قراءة القرآن هى فى حد ذاتها عبادة وقربى إلى الله، وهو ما يعنى، لهذا السبب على الأقل، أنها قد بدأت منذ اللحظة الأولى لنزوله. لكن الدكتور أركون لا يستطيع إلا أن يكون تلميذا وفيًّا لذلك الصنف من المستشرقين الذين لا يتركون أى شىء فى الإسلام إلا ويشككون فيه: هكذا "لله فى لله". ولنعد الآن لما كنا بسبيله، ولسوف أطرح عليه وعلى من ينقاد لهم دون تبصر أو تفكير عدة أسئلة لعلهم يحاولون الإجابة عليها فتتضح لهم على ضوء هذه المحاولة حقيقة الأمر، وإن كنت أشك فى ذلك كثيرا:

هل يظن المستشرقون أن من حقهم، وهم الأعاجم، وبعد كل هذه القرون المتطاولة، أن يخطّئوا أسلوب القرآن حتى لو قلنا معهم إن صاحبه هو محمد بن عبد الله؟
أليس ما يقوله محمد هو الصواب الذى يُحْتَجّ به لا الخطأ الذى يُستَدْرَك على صاحبه؟ إن محمدا لا يختلف فى هذه الحالة عن أى شاعر أو خطيب جاهلى، فضلا عن أي أعرابى ممن كان العلماء يسعَوْن إلى البادية للالتقاء بهم وأخذ اللغة عنهم، فلماذا هو من دون العرب جميعا الذى ينبغى أن يكون مخطئا؟
الأن هذا التركيب وأمثاله لم ترد فى كتب النحو التى تُدْرَس فى المدارس؟ لكن متى كانت هذه الكتب تستوعب كل إمكانات اللغة العربية فى الجاهلية قبل أن تُقَنَّن القواعد على النحو الذى نعرفه فى كتب النحو والصرف الخاصة بتلاميذ المدارس؟
إن القرآن نفسه رغم كونه المثال الأعلى فى الفصاحة العربية لا يستوعب هذه الإمكانات، فكيف يفكر أحد فى محاكمته إلى كتب الطلاب الصغار الذين أريد الابتعاد بهم عن كل ما يخرج عن القوالب البسيطة المباشرة ولا يعرفون من هذه الإمكانات إلا أقل القليل؟ إن هذا لأشبه بمن يريد نَطْل البحر بكستبان إبرة!
على أن ليس معنى كلامى هذا أننى أغضّ الطرف على التشكيك فى مصدر القرآن الإلهى، بل كل ما أريد قوله أن الحجة التى يستند إليها من يقصد التشكيك فى هذا المصدر هى حجة داحضة لا تثبت على محكّ النقد على الإطلاق، ومن ثم فالاستناد إليها للتشكيك فى إلاهية المصدر القرآنى استناد إلى حائط مائل كما نقول فى مصر.
أما إيمان أمثال هؤلاء أو كفرهم فلا يعنينى، فلست موكلا بالقلوب أهديها. إنما أنا واحد من أهل العلم مقتنع بأن هذا القرآن هو من عند الله، ولهذا أرى أنه لا بد من وقف هذه الهجمات الجَراديّة الحمقاء، بالمنطق طبعا والحجة والتدقيق فى الكلام والاستشهاد بالنصوص على الوجه المستقيم...إلخ.
ولقد عَبَرَ علىّ زمان كنت أسارع فيه إلى تخطئة أىّ أسلوب لا يجرى على القواعد كما درسناها فى المدارس، والاعتراض على أية كلمة لا أجدها فى المعجم الصغير الذى لم أكن أملك غيره فى شبابى الأول. لكنى كلما كَبِرْتُ واستَحْصَدَتْ معارفى واتسع أفقى اللغوى تبين لى أن الأمور ليست كما كنت أظن، وأن اللغة بحرٌ هدّارٌ لا يستطيع السباحة فيه كل من هب ودب، وإلا فعلينا أن نخطّئ معظم الشعراء العرب الأقدمين، إن لم يكن كلهم، لأنهم لا يجرون دائما على قواعد النحو والصرف كما ندرسها فى المدارس، وهو ما لا يقول به أى عاقل، بل الحاقدون الموتورون وحدهم! وفى الكتب التى تُعْنَى بالصحة اللغوية كثير من الأقاويل التى شاعت وذاعت على غير أساس، ومع هذا يرددها الخلف عن السلف كأنها "قرآن منزل" (أكاد أضحك الآن على هذا التشبيه بعد أن ظهر لنا أمثال بلاشير وأركون وجماعات المبشرين الذين يتطاولون على القرآن ويخطّئونه).
لنأخذ مثلا تأكيدهم أن تكرار كلمةِ "بين" مع اسمين ظاهرين خطأ، فلا يصح أن نقول: "بين عمر وبين أحمد" بل لا بد أن نقول: "بين عمر وأحمد"، بخلاف ما لو كان أحد طرفى البينيّة أو كلاهما ضميرا مثل: "بين محمد وبينى" أو "بينى

وبينه"، مع أن العبد لله قد استطاع أن يضع يده قبل عدة أعوام على نحو ثلاثين شاهدا من عصور الاحتجاج اللغوى لتكرار "بين" مع اسمين ظاهرين أوردتُها فى كتابى "من ذخائر المكتبة العربية" فى آخر الفصل الخاص بكتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموى، غير ماعثرت عليه بعد ذلك. كما ثارت بينى وبين زميل لى أحبه وأقدر علمه مناقشةٌ منذ وقت ليس بالبعيد حول مدى الصحة فى مجىء فعلِ "كلما" أو جوابها مضارعا، وأردت أن أتثبت بنفسى من صواب رأى من يرفضون هذا ويلحّون على أنه لا بد أن يكون فعل هذه الأداة وجوابها كلاهما ماضيا، فإذا بى أجد نحو اثنى عشر شاهدا من الشعر القديم يستعمل فيها أصحابها فعلَ "كلما" وجوابَها مضارعا، وفى الحال تراجع الزميل الكريم عن موقفه الذى كنت فى البداية أكثر ميلا إليه تبعا لما كننت أسمع من تخطئة من يخالفونه.
ومثل ذلك ما كنت قد قرأته فى مطلع شبابى عند بنت الشاطئ من أنه لا يصح أن نقول: "قد لا يأتى محمد"، بإدخال "لا" على "قد"، بل لا بد من استعمال "ربما" بدلا من "قد" فى حالة النفى، وإبقاء "قد" للإثبات فقط. ثم تبين لى فيما بعد أن من العرب القدماء من كان يجمع بين "لا" و"قد". إن السبب فى هذه المسارعة إلى التخطئة هو الظن بأننا قد أحطنا باللغة خُبْرا، على حين أن معرفتنا بها ليست بهذه الإحاطة التى يتصورها بعضنا، وقد كنت أنا من هؤلاء البعض يوما.
أما الآن، وبعد انتشار الموسوعات والمعاجم الألكترونية، فقد أصبح من السهل علينا أن نعرف فى ثوانٍ قلائل ما كان أجدادنا ينفقون فى تحصيله الشهور، وربما السنين أيضا، وإن لم ينقص هذا من قدرهم، فقد كانوا عباقرة رغم ذلك!
هل هذا كل شىء؟ لا، فما زلنا فى بداية الكلام، فالصَّبْرَ الصَّبْرَ أيها القارئ لترى بنفسك السخف الشيطانى الصبيانى الذى يتعامل به أعداء القرآن مع هذا الكتاب العظيم يظنون أنهم قادرون على أن يطفئوا نور الشمس بنَفَسٍ من أنفاسهم الواهنة المنتنة. معروف أن اللغة العربية، بسبب من إعرابها الذى يحاربه هذه الأيام بعض من يكرهونها ولا يستطيعون أن يرَوْا بهاء محاسنها للرَّمَد الذى فى عيونهم، يعطيها مرونة عالية فى تركيب العبارة، إذ مهما قدّمنا أو أخرنا أو حذفنا فإن الإعراب يُسَهِّل التعرف على وظيفة الكلمة رغم ذلك فى معظم الأحيان، وهو ما لا يتوفر للّغات الأخرى بوجه عام. إن بلاشير، وأركون من ورائه، يتصوران أن اللغة العربية لا تعرف إلا وضعا واحدا لكل حالة من حالات التمييز، ومن هنا فإنهم لا يتخيلون أن من الممكن أن يجىء تركيب الكلام فى تمييز "ثلاثمائة" وأمثالها إلا هكذا: "ثلاثمائةِ سنةٍ، ستمائةِ امرأةٍ، تسعمائةِ كتابٍ" بإفراد التمييز وخفضه على الإضافة كما ترى.
لكن هذا، وإن كان هو ما يعرف التلاميذ، ليس كل شىء، إذ كان العرب أيضا يجمعون المعدود فى هذه الحالة مع الإضافة أو قطعها، وإن لم يشتهر الجمعُ اشتهار الإفراد. وما دام هذا الاستعمال قد ورد فى القرآن فمعنى ذلك أنه صحيح، حتى لو كان محمد هو مؤلف القرآن، بل حتى لو قلنا إن القرآن قد تعرض لتدخل

من العرب بعد وفاة الرسول حسبما يزعم الزاعمون السخفاء مثلما سبق أن شرحنا.
إن القول بغير هذا هو العَتَه بعينه لأنه لا يحدث فى أية لغة فى العالم، إلا أن الحقد المجنون يريد أن يلغى لنا عقولنا فنردد حماقاته دون تبصر، والعياذ بالله! وفى المثال الذى نحن بصدده من سورة "الكهف" يمكننا أن نركِّب الكلام على أكثر من وضع فنقول: "ثلاثمائةِ سنةٍ، ثلاثمائةٍ من السنين، سنين ثلاثمائة، ثلاثمائةٍ سنين، ثلاث مئاتٍ من السنين"، ولكلٍّ نكهتها وظلالها الإيحائية، وأحب أن أقف عند التركيب الذى ظن بلاشير ومقلّده أركون أنه هو وحده لا سواه التركيب الصحيح.
ثم أُقَفِّىَ بالكلام عن التركيب الذى اعترضا عليه، أو بالأحرى اعترض عليه بلاشير فاعترض معه آليا د. أركون.
فأما التركيب المعتاد فهو يشير إلى "عدد الثلاثمائة" وأنه سنون، والخطاب فيه موجَّه إلى من لا يرى فى العدد ولا فى تمييزه ما يدعو إلى الاستغراب أو الاستنكار. ولذلك فنحن نستخدم هذا التركيب عادة عندما لا نريد أن نعبر عن أى شىء آخر غير هذا المعنى العام.
أما إن كان المخاطب متشككا فيما نقوله له أو يستهوله، كأن يستبعد أن يكون العدد ثلاثمائة أو أن يكون التمييز سنوات لا أياما مثلا، فعندئذ يكون هناك موضع للتركيب القرآنى، فكأن المتكلم يريد أن يقول: نعم، العدد ثلاثمائة، وهذه الثلاثمائة هى سنوات لا أيام ولا أسابيع ولا حتى شهور. إنها سنوات " كلّ سنةٍ تنطح الأخرى" بالتعبير المصرى الدارج. فـ"سنين" فى هذا التركيب الأخير هى بدل من "الثلاثمائة". أى أن السنين ليست مجرد تمييز لها، بل هى الثلاثمائة نفسها عدًّا وإحصاءً.
إن المفسرين ومُعْربى القرآن لا يتوقفون طويلا أمام هذا التركيب لأنهم ببساطة لا يجدون فيه شيئا، بخلاف الذين لا علم لديهم ويعترضون على ما يجهلون، فهم يعملون من الحبة قبة! أما أنا – والكلام لـ (عوض) فلم أشأ أن أردد فقط ما قاله النحويون فى إعراب الآية، بل أردت أن أضيف لما يقولون ما لعله يكشف شيئا مما وراء ظاهر التعبير من أسرار النفس وأغراض البلاغة. ومثل هذا القلب الذى يقابلنا فى هذه الجملة (إذ هى فى الواقع محولة عن "سنين ثلاثمائة" لا عن "ثلاثمائة سنة") له نظائر فى اللغة كثيرة..
فنحن نقول مثلا: "ضُرُوبًا من المنى، وأفانينَ من اللذات" على حين يقول ابن زيدون فى نونيته العبقرية: "مُنًى ضُروبًا ولذّاتٍ أفانينا" فيضفى على العبارة العادية حيوية مدهشة لم تكن لها.
كما أننا نقول: "عدة سنوات" و"سنواتٍ عدة"، وفى هذه ما ليس فى تلك: فالأولى تعنى "عددا من السنوات"، أما الأخرى فتعنى "عددا كبيرا من هذه السنين"...وهكذا. ومرة أخرى هل هذا كل شىء؟
والجواب: كلا، فما زال هناك ما يقال مما يمكن أن يتعلم منه المستشرقون وصبيانهم، لا لأنى أذكى منهم أو أكثر علما، وإن كان هذا جائزا، فلست بالذى يعمل

فى هذا المقام على أن يبخس نفسه حقها، ولكن لأنى أبذل كل ما لدىّ من جهد رغم أنى فى الظروف التى أنا فيها الآن لا أملك من المراجع ولا أدوات البحث ما يجده هؤلاء تحت أيديهم، فضلا عما أُحِسُّه فى أعماق ضميرى من الرغبة الحارقة المخلصة للوصول إلى برد اليقين. وعلى هذا فقد أخذت أنقّب بحثًا عن شواهد من خارج القرآن توضح ما أقول، لا لأنى أرى أن القرآن يحتاج لما يعضده (فقد شرحت كيف أن القرآن، حتى لو قلنا إن محمدا هو مؤلفه...إلخ، لا يمكن أن يكون محل شك عند من له مُسْكة من عقل)، بل لمزيد من التوضيح ونزولا إلى مستوى من نناقشهم. فقد قرأنا مثلا أن والدة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان لم تكن تطمئن إلى ما يفتيها به، إذ كانت رغم كل شىء تنظر إليه على أنه ابنها، لا ذلك العالم العملاق، فكانت تقصد أحد تلاميذه ممن تظن أن عنده من العلم ما ليس عند ابنها، وكان هذا يحرج التلميذ إحراجا شديدا. وهو نفسه ما يقاسيه بعضنا عندما يسألنا أحد أولادنا فى المرحلة الابتدائية أو الإعدادية مثلا عن شىء فى تخصصنا فنجيبه بما لم يسمع به فى المدرسة، فينظر إلينا فى تشكك ويأبى أن يقتنع ظنًّا منه أن الكتاب المدرسى والمدرس الذى يدخل عليهم الفصل فيقومون قياما على أمشاط أرجلهم وهم صامتون، لدرجة أنك لو رميت الإبرة لَرَنَّتْ لا يمكن أن يخطئا، بل المخطئ هو بابا الذى يراه فى مباذله فى البيت أمامه ليلا ونهارا، ولا يوجب له نظامُ المنزل أن ينتصب له عند دخوله عليه واقفا أو يصمت فلا يتكلم.

وعلى ذلك فإننى أسوق الشواهد الشعرية التالية التى جاء فيها المعدود مجموعا لا مفردا، أو مقطوعا لا متصلا، أو الاثنين كليهما، فمن ذلك قول علقمة الفحل:

فكان فيها ما أتاك وفى * تسعين أسرى مقرنين وصفد

وقول عمرو بن كلثوم:

رددت على عمرو بن قيس قلادة ثمانين سُودًا من ذُرَى جبل الهضب

وقول ربيعة بن ضبع الفزارى:

إذا عاش الفتى مائتين عامًا فقد ذهب اللذاذة والفتاءُ

وقول عمر بن أبى ربيعة:

أبْرَزُوها مثلَ المهاة تَهَادَى بين خمسٍ كواعبٍ أترابِ

وقول السيد الحِمْيَرى:

ثلاثةَ آلافٍ ملائك سلّموا عليه فأدناهم وحَيّا ورحَّبا

وقول الوليد بن يزيد:

بَينَ خَمسٍ كَواعِبٍ أكرَمُ الجِنس جِنسُها

وقول أبان اللاحقى:

يُجْرى على أولاده خمسة أرغفة كالريش طيارة

وقول ابن المعتز:

وأجّلونى خمسةً أياما وطوّقونى مثلكم إنعاما

وقول ابن أبى الحديد:

عام ثلاث ثم أربعينا من بعد ستمائةٍ سنينا

وقول إبراهيم الحضرمى:

وخمس مئين بعد خمسين درهما

وقول أحمد بن مأمون البلغشى:

من عام خمسة وأربعينا بعد ثلاث عشرةٍ مئينا

وقول أحمد بن على بن مشرف:

إلى ثلاثمائةٍ سنينا يخادعون الله والذينا

ومضِيًّا فى سياستى فى النزول على شرط الخصم وعقليته أُضِيفُ، إلى ما سبق، الشواهد التالية مما يسمَّى: "الكتاب المقدس"، وقد يبدو ذلك غريبا، فلهذا أكرر هنا ما قلته من قبل من أننى أربأ بالقرآن أن يكون أى شىء آخر حاكما عليه، إلا أن المسألة لا تتعلق بى، بل بخصوم سخفاء لا يعجبهم العجب. لهذا رأيت أن أستشهد بالكتاب المقدس، فهو كتاب نصرانى كتبه نصارى، ومن ثم لا يمكن أن يقال إنهم يقلدون أسلوب القرآن أو يريدون الدفاع عنه.

جاء فى الترجمة الكاثوليكية التى راجعها ونقّح أسلوبها الأديب والعالم اللغوى الشهير الشيخ إبراهيم اليازجى، الذى كان يتشدد فى مسألة السلامة اللغوية تشددا مرهقا: "هذه عشائر القهاتيين بإحصاء كل ذكرٍ من ابن شهر فصاعدا ثمانية آلافٍ وستمائةٍ قائمون بحراسة القدس" (العدد/ ٤/ ٢٨)،

"وإخوتهم ورؤوس بيوت آبائهم ألفٌ وسبعمائةٍ وستون جبابرةُ بأسٍ لعمل خدمة بيت الله" (أخبار الأيام الأول/ ٩/ ١٣)، "ومن الحبرونيين حَشَبْيا وإخوتُه ألفٌ وسبعمائةٍ ذوو بأس" (أخبار الأيام الأول/ ٢٦/ ٣٠)، "وإخوته ألفان وسبعمائةٍ ذوو بأس" (أخبار الأيام الأول/ ٣٢/٢٦)،

وفى الترجمة اليسوعية: "فجعل منهم سبعين ألف حمّالٍ وثمانين ألف قطّاع على الجبل وثلاثة آلافٍ وكلاءَ لتشغيل الشعب" (أخبار الأيام الثانى/ ٢/ ١٨).

والآن ماذا يا ترى يمكن أن يقول د. أركون؟

أيرى أنه يتبع فعلا منهجا علميا صارما ومتقشفا كما يلحّ ويكرر دون أن يمل، حتى مللنا مللا شديدا من هذا التنفج الكاذب؟ إن الرجل لا يكلف نفسه أن يتعب قليلا للتثبت مما يرمينا به من كل مصيبة علمية وأختها.

إنه ما إن يقع على أى شىء يحسب أن فيه إساءة للإسلام حتى يطير به فرحا، ولا أحب أن أصادر حقه فى هذا الفرح، فكل إنسان وما اختار لنفسه، لكنى أحب أن أُسِرّ إليه بنصيحة لعلها تنفعه إن أراد أن ينتصح وينتفع: ألا وهى التثبت مما يقول، ثم فليؤمن بعد ذلك بالقرآن ومحمد عليه السلام أو لا يؤمن، فهذه مسؤوليته هو. والذى أغضبنى هنا ليس أنه لا يؤمن بإلاهية المصدر القرآنى، بل عدوانه الأثيم على الحقيقة العلمية دون أن يطرف له جفن!

على أن د. أركون لا يقف عند هذه النقطة، بل يضيف شيئا آخر يظن أنه يستطيع به أن يسىء إلى النص القرآنى، وهو الابتهاج بما صنعه بلاشير بالآيات من ٩ إلى ٢٥، إذ زعم هذا الـ"بلاشير" أن السورة قد خضعت لتحويرات أخرى بعد أن اكتشف أن الآيات المذكورة ينبغى أن يعاد النظر فى ترتيبها، بل إنه رتبها فعلا،

فجعل مجموعة الآيات من ٩ إلى ١٦ مضافًا إليها الآيتان ٢٤- ٢٥، ومجموعة الآيات من ١٣ إلى ١٦ عبارة عن روايتين لشيء واحد، أى أنهما نصٌّ واحد أُورِدَ بروايتين مختلفتين.
وهو ما يعنى أن إحدى المجموعتين زائدة لا لزوم لها (Blachere, Le Coran, Librairie Orientale et Americaine, Paris, 1957, PP. 318- 319.
وهذه النسخة التى معى الآن من تلك الترجمة كانت تخص المستشرق البريطانى هاملتون جب، ثم انتقلت ملكيتها إلىّ فى يوليه ١٩٨٢م. وقد وصلتنى اليوم صورة من صفحاتها التى تحتوى على نص ترجمة سورة "الكهف". ويجد القارئ كلام أركون فى ص ١٤٨ من كتابه "القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى"). من الذى أفتى لبلاشير بهذا؟
لا أحد بالطبع إلا شيطان السخف الاستشراقى الأثيم! وهَبْه كان مقتنعا فعلا بهذا الذى يزعم، أولم يكن ينبغى أن يورد النص القرآنى كما هو بما وقع فيه من عبث أو اضطراب على حسب أوهامه، ثم فَلْيُعَلِّقْ فى الهامش بما يعنّ له؟ لكن هذا ليس هو المراد، ولن يحقق له أهدافه الإبليسية، فالمقصود هو إيقاع الشك والارتياب فى النص القرآنى لإفقاده قدسيته وجلاله فيتعود القارئ على أن يتعامل معه على أنه نص عادى من النصوص التى يصنعها البشر بما يمكن أن يصيبه ما يصيب أى نص بشرى من عبث ونسيان وإضافة وحذف وتقديم وتأخير...إلخ. وهذا الهدف لا يتم على الوجه الناجع إلا إذا تقدم أحدهم ونفذه على أرض الواقع، ولم يكتف بالكلام النظرى الذى لا يمكن أن يكون فى قوة التطبيق العملى.
إن هذا الصنف من المستشرقين ليس له من عمل إلا التشكيك فى كل ما يتعلق بالإسلام والقرآن، حتى إنهم ليشككون مثلا فى نسب الرسول عليه السلام زاعمين أن "عبد الله" ليس أباه، بل هو مجرد اسم معناه: "إنسان" على اعتبار أن كل إنسان هو "عبد الله". أى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له أب معروف، فلذلك قيل إنه ابن عبد من عباد الله، بما يعنى أنه "ابن رجل"، والسلام. أما مَنْ هذا الرجل؟ فلا أحد يعرف! تالله إن من يقول هذا عن رسول الله إنما هو "مَرَة مِنْ ظَهْرِ مَرَة"! (مع احترامى الشديد للجنس اللطيف الذى لايمكن أن يدور فى بالى الإساءة إليه بحال، بل هو مجرد تعبير مجازى مغروس فى "المخيال" الشعبى أستعين به لغرض فنى ولإتاحة الفرصة لنفسى كى أتفيهق أنا أيضا، ولو مرةً فى العمر، بكلمة "مخيال").
ومن هذا الوادى أيضا قول مستشرق آخر إن خطبة الجمعة كانت بعد ركعتَى الصلاة كما هو الحال فى صلاة العيدين، ثم أصبحتْ فى العصر الأموى قبلهما. ومنه كذلك زَعْمُ ثالثٍ أن عبد الملك بن مروان قد بنى قبة الصخرة كى يستعيض بها الحجاج الأمويون عن الحج، الذى يستلزم الذهاب إلى الحجاز حيث يبسط ابن الزبير نفوذه، ومن ثم يمكنه أن يؤثر فى ولاء حجاج الشام إذا ذهبوا إلى هناك.

ومنـه زَعْـم هـذا الأعمـى البـصر والبـصيرة، متابعـة منـه لكايتـانى، أن "سـدرة المنتهى" ليست شجرة سماوية، بل شجرة فى أطراف مكة، وأن "جنـة المـأوى" دارةٌ (فيلا) هناك.

ألا مـا أعجـب هـذا العلـم الخـارج مـن أستاه المستـشرقين! هل مـن المعقـول أن أى مستشرق تنبض فى أسته فكرة ما تنغّص عليه توازنـه وراحة بالـه، لا يجد لهـا مـن حل إلا الافتراء على القرآن، والزعم بأن هذه الآية أو تلك كـان مكانهـا هنـاك، لكنهـا نُقِلت إلى هنا؟ وبالمناسبة فإن ما يقولـه بلاشير، ويردده خلفـه أركـون، لـيس لـه أى أسـاس مـن الـصحة، لكنهـا الـسخافة الاستـشراقية التـى يـدَّعى أركـون أن منهجـه يتخطاها، ثم يتضح أنه ليس إلا تقليدا لها! وهاتان هما المجموعتـان المشار إليهمـا من آيات سورة "الكهف"، أضعهما تحت بصر القـارئ كـى يـرى بنفسه الرقاعـة الاستشراقية: (أم حسبتَ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ٩ إذ أوى الفتيـة إلـى الكهـف فقـالوا: ربنـا، آتنـا مـن لـدك رحمـة وهَـيِّئْ لنـا مـن أمرنـا رشـدا ١٠ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ١١ ثم بعثناهم لنعلم أىُّ الحزبين أَحْصَى لما لبثوا أمدا ١٢ ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائةٍ سنين وازدادوا تـسعا ٢٤ قل الله أعلم بما لبثوا. لـه غيب السماوات والأرض. أَبْصِرْ بـه وأَسْمِعْ ما لهم من دونـه مـن ولـىٍّ، ولا يشرك فى حكمه أحدا ٢٥)

(مج ١) – (نحن نقصّ عليك نبـأهم بـالحق. إنهـم فتيـة آمنـوا بـربهم وزدنـاهم هـدى ١٣ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربُّنا ربُّ السماوات والأرض. لن ندعو من دونـه إلهـا. لقد قلنا إذن شططا ١٤ هؤلاء قومنا اتخذوا مـن دونـه آلهـة. لـولا يـأتون عليهم بسلطانٍ بيِّن؟ فمن أظلَمُ ممن افترى علـى الله كـذبا ١٥ وإذ اعتزلتمـوهم ومـا يعبدون إلا الله فَأْوُوا إلـى الكهـف ينـشر لكـم ربكـم مـن رحمتـه ويهـيِّئ لكـم مـن أمـركم مِرْفَقا ١٦ (مج٢).

والآن أيمكن أن يكون لهذا الكلام "أي ادعاء المستشرق" التافه أية قيمة؟ أويمكـن أن المجمـوعتين كانتـا، كمـا يفتـرى هـذا الأعجمـى الخبيـث، نـصّاً واحـداً، لكنـه ورد بروايتين مختلفتين؟ ومع ذلك فإن أركون يبتهج به ويشمت رافعا ذيله تيهًا وعُجْبًا! إن كلا من النصين يتناول الموضوع من زاوية مختلفة ويورد تفاصيل مختلفـة عمـا ينظر منه ويورده الآخر، وهذا من الوضوح بمكان إلا بالنسبة لمـن أعمـى الله قلبـه وجعل على بصره غشاوة، فهو لا يهتدى للحق سبيلا!)

وأضيف إلى قول د. عوض، أن أركون وهو يقلد شيخه المتعصب "بلاشير" ينقل الكلام نقلا أعمـى دون مراجعة أو ربمـا وعي، وإلا لـو كلـف نفسه عنـاء الرجـوع للآيـة ٢١ لعلم سخف قول بلاشير، فالآيـة ٢٤ و٢٥ هي جواب وإكمال لما في الآيـة ٢١ حيث يقول تعالى: (وكذلك أعثرنـا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنـازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانـا ربهم أعلم بهم قـال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا ٢١ سيقولون ثلاثـة رابعهم كلـبهم ويقولـون خمسة سادسـهم كلبهم رجمـا بـالغيب ويقولـون سبعة وثـامنهم كلـبهم قـل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مـراء ظـاهرا ولا تـستفت فيهم

منهم أحدا ٢٢ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ٢٣ إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ٢٤ ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ٢٥)

ثم يورد "د. عوض" ما يثبت به تقليد أركون لأساتذته المستشرقين المتعصبين، وأنه ليس صاحب قراءة جديدة ولا علمية ولا حتى أدبيه، وإنما هو رجل طافح بالغل على القرآن ومن يؤمنون به، أما لماذا... فالجواب تعرفه فرنسا التي وهبته كرسيا لايستحقه في السوربون.

يقول د. عوض: (أما قول أركون إن هذه الحكايات الثلاث – أي القصص الثلاث الموجودة في سورة الكهف – كانت مغروسة بعمق فى الذاكرة الجماعية العتيقة لشعوب الشرق الأوسط، فهو كلام فارغٌ أفرغُ من فؤاد أم موسى!

لو كان ما يزعمه أركون صحيحاً ما فكر أحبار اليهود الخبثاء أن يحرّضوا قريشا على تحدى الرسول بهذا السؤال، فالإنسان لا يقدم على مثل هذا التحدى الخطير إلا وهو موقن أن الخصم لن ينجح فى الجواب. أليس ذلك كذلك يا بروفيسير؟ وهب أن هذه النقطة قد فاتت اليهود، وهم أخبث أهل الأرض فلا يمكن أن تفوتهم، أفكانت تفوت مشركى قريش؟ وعندنا أيضا الشعر الجاهلى، وهو يخلو من الإشارة إلى أى من الحكايات الثلاث.

ثم كيف نفسر تحير المفسرين فى شرح معنى "الرقيم"، وفى تحديد مكان الكهف، وفى معرفة الشخصية الحقيقية للعبد الصالح بل لموسى نفسه، وفى التعرف على مواضع البلاد التى بلغها ذو القرنين والأقوام الذين قابلهم... إلخ؟

كل هذا يجعلنا نلقى بنظرية "المخيال الجماعى" أو "الذاكرة الجماعية لشعوب الشرق الأوسط" فى القُمَامة، وضمائرنا مطمئنة. على أن د. أركون، عندما يدَّعِى أن محمدا قد استمد هذه القصص الثلاث من تراث البيئة التى ينتمى إليها، إنما يردد هنا أيضا ما يقوله المستشرقون، الذين لا يكفّ أبدا عن التنفج بأن منهجه يتجاوز مناهجهم ويصل إلى نتائج لا يستطيعون أن يتوصلوا إليها بهذه المناهج. فهذا هو كاتب مادة "Ashab al-Kahf: أصحاب الكهف"، فى الطبعة الثانية من "Encyclopaedia of Islam"، يقول إن "محمدا قد ألمَّ بهذه الحكاية وكثير غيرها من الحكايات ذات الأصول اليهودية والنصرانية، ثم تمثَّلها واتخذ منها فى القرآن أداة للتربية الأخلاقية") انتهى كلام الدكتور عوض

وبعد فإن أركون بتعصبه وتجاوزاته الإيديلوجية تلك وغيرها يشطب من التاريخ ما يريد، وينتقي ما يريد، وهو يتضح فيما يسكت عنه كما سيتضح في مقاربتنا للنص القرآني والنبوي... هذه المنهجية المتهورة ورطت أركون في فضائح علمية لا تغتفر، فهو كثيرا ما يردد كلمة تلاعبات على تدوين المصحف وعلى توزيع عثمان رضي الله عنه للمصحف، وعلى من تناولوا القرآن تفسيرا ودراسة، حتى أوقعه تهوره ذلك في شر أعماله – فضيحة علمية كبرى لا يستطيع الفكاك منها.

فضيحة أركون العلمية

هذه الفضيحة عرته وفضحت نقولاته الببغائية عن أساتذته الكبار، واتهامه تقليداً لهم بأن القرآن خليط عن نقل من الكتاب المقدس، مع إفرازات للمخيال الجماعي لشعوب الشرق الأوسط، مع تلاعبات في التدوين. هذه الفضيحة كشفت عن السطحية التي ينعم بها أركون وجوقته المصفقة له، يكشفها لنا علماني مسيحي غربي تجريبي، لا يعتمد على إيديلوجيا وأكاذيب المستشرقين، ولا على أحكام معدة سلفا في رأسه، ولا على عداء سياسي مع الإسلامويين، فهو علماني لا يأبه بالمقدس، ولا تخيفه الكتب المقدسة، ولا رجال الدين، ولا المخيال الجماعي لأي شعب.. عالم لا يأبه سوى بالعلم والأرقام والمختبرات والتحاليل المخبرية الدقيقة، وهو من العلمانيين الحقيقيين الذين أسقطوا الكنيسة والكتاب المقدس بالعلم والتجربة، والحقائق المبرهنة، لا بالأكاذيب والتعالم وحشر المصطلحات للإيهام بالعمق والموضوعية. إنه الطبيب والعالم الفرنسي الشهير (موريس بوكاي).

أركون في كتاب (الفكر الإسلامي قراءة علمية - ٢٦٠) مع وضع ألف خط تحت كلمة "قراءة علمية" يهاجم هذا العالم التجريبي الموازي لكيث مور.. يهاجمه ويسفه عمله العلمي وبحوثه التجريبية الرائعة، ونتائجه الدقيقة التي لا تقبل الشك بأسلوب تهريجي بالغ الإسفاف، ودون أن يجري تجربة واحدة تثبت ما يقول. وقبل أن أذكر هجوم أركون على بحوث موريس بوكاي التجريبية الدقيقة، أود أن أكشف للقارىء العربي من، وما هو موريس بوكاي، مستعينا بما كتبه الدكتور يحيى الغوثاني مدير منتدى البحوث القرآنية، ليدرك القارىء علاقة موريس بوكاي الفرنسي وأركون الجزائري بالعلم وبفرنسا وبزعيمي فرنسا ميتران وشيراك.

(عندما تسلم الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران زمام الحكم في فرنسا عام ١٩٨١، طلبت فرنسا من مصر في نهاية الثمانينات استضافة مومياء فرعون لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية، فتم نقل جثمان أشهر طاغوت عرفته الأرض، وهناك عند سلم الطائرة اصطف الرئيس الفرنسي منحنياً هو ووزراؤه وكبار المسؤولين الفرنسيين ليستقبلوا فرعون، وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون على أرض فرنسا حُملت مومياء الطاغوت بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام موريس هو محاولة أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني، وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت النتائج النهائية، لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقا، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه. لكن أمراً غريباً مازال يحيره وهو كيف بقيت هذه الجثة أكثر سلامة من غيرها رغم

أنها استُخرجت من البحر؟ ! كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائيا عما كان يعتقده اكتشافاً جديداً في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة.
علم بعدها أن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء ونجاتها، ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر واستغربه، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة، وأخذ يتساءل: كيف هذا، وهذه المومياء لم تُكتشف إلا في عام ١٨٩٨، أي قبل مائتي عام تقريبا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟ وكيف يمكن قبول هذا والبشرية جمعاء وليس العرب فقط، لم يكونوا يعلمون شيئا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث الفراعنة إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟
قرأ بوكاي الكتاب المسيحي المقدس الذي يقول: (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد) فازداد حيرة، ولم يبادر إلى التكذيب (كالعلمانيين العرب)، وبعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه، أعادت فرنسا لمصر المومياء، ولكن موريس لم يهنأ له قرار، ولم يهدأ له بال منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجثة، فحزم أمتعته وقرر السفر لبلاد المسلمين لمقابلة عدد من علماء التشريح المسلمين، وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق، فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله تعالى :(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) (يونس:٩٢)
لقد كان وقع الآية عليه شديدا. رجع موريس بوكاي إلى فرنسا بغير القلب الذى ذهب به، وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن، ليخرج بعدها بنتيجة قوله تعالى : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)
كان من نتيجة هذه السنوات التي قضاها الفرنسي موريس بوكاي أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة، ورج علماءها رجاً، لقد كان عنوان الكتاب: (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم – دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) فماذا فعل هذا الكتاب؟ من أول طبعة له نفد من جميع المكتبات، ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية إلى العربية والإنجليزية والأندونيسية والفارسية والصربكرواتية والتركية والأردية والكجوراتية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب. اهـ) هذا المجهود العلمي التجريبي الجبار الفريد، الذي قام به عالم علماني غربي مسيحي غير متعصب، كيف يثمنه علماني عربي إنشائي متعصب اسمه (محمد أركون)
كالعادة كلمات مخجلة تصيب المرء بالغثيان، وتفسر تخلف الفكر العربي اليوم إذا كان أمثال أركون والعظم هم المنظرون لهذا الفكر. يتحدث أركون عن الكتب التي تناولت النص القرآني تفسيرا وشرحا بسخرية واصفا إياها بأنها: (سلسلة مفتوحة من التعليقات والشروح بدءا من الطبري وجعفر الصادق مرورا بعشرات

المفسرين، وانتهاء بتلاعبات موريس بوكاي الوهمية التي تبرهن على أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن)
لا أدري ما علاقة الطبري بموريس بوكاي، فالرجل مسيحي فرنسي، قاده المختبر والمعمل إلى القرآن، فأعاده القرآن إلى المختبر والمعمل مرة أخرى، ليمضى حياته مستمتعا مندهشا بالتوافق المعجز والمذهل بينهما.
أما محمد أركون الذي لم يدخل مختبرا في حياته، فموريس بوكاي وتجاربه المخبرية ونتائج تلك التجارب، واختيار فرنسا له من بين كل علمائها كي يتولى تشريح ودراسة مومياء فرعون، كل هذا في نظر أركون (الخارق) تلاعبات وأوهام وخزعبلات... فهنيئا للفكر العربي بهذه الخيبة، وهنيئا للسوربون بهذا المهرج.
وحتى يدرك القارىء حجم غضبي من إسفاف أركون.. أدعوه إلى كلمات بوكاي نفسه وهو يلقي محاضرة عن إنجازه العلمي، ويتحدث عنه، وبإمكان القارىء الكريم أن يحكم على مستوى العقليتين التي يحملها كل من أركون الجزائري وبوكاي الفرنسي، ليكتشف موت نظرية الحقيقتين التي سقط فيها ابن رشد، وموت مقولة (لا أحد يملك الحقيقة).

بوكاي يحاضر عن العلم والقرآن

سأقتصر على ما يهمنا هنا لأن المحاضرة طويلة، ومن الممكن الرجوع إليها مطبوعة، وقد ترجمها الأستاذ الدكتور عبد السلام هارون بالعنوان نفسه.
يقول العلماني المسيحي الفرنسي موريس بوكاي:(في التاسع من نوفمبر سنة١٩٧٦م أتيح لى أن أقدم للأكاديمية الفرنسية محاضرة فريدة في موضوعها حول (علوم الأجنة ووظائف الأعضاء في القرآن الكريم) تناولت فيها : بعض ما جاء بالقرآن الكريم من (إشارات) تتصل بالتكاثر والفسيولوجيا البشرية.
الدافع إلى إعداد هذه المحاضرة:
وقد دفعنى إلى إعداد هذه المحاضرة انبهارى بما جاء في القرآن الكريم من إشارات إلى معارف ومفاهيم لم يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث، والقرآن هو الكتاب الوحيد من نوعه بين أيدينا الذي جاء بمعارف تسبق عصر تدوينه بقرون، وقد دفعني ذلك أيضاً إلى مقارنة النص القرآني بنصوص الكتاب المقدس: (العهد القديم والجديد) المتعلقة بمثل هذه المعارف وتمخضت هذه الدراسة عن إصدار كتابي: (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) الذي صدرت طبعته الأولى باللغة الفرنسية في مايو سنة ١٩٧٦ عن دار سيجلير بباريس ، ثم تولى ظهور طبعات إنجليزية وعربية مترجمة.

العلم والدين توأمان في الإسلام:

إن الدارس للإسلام يعرف أن العلم والدين فيه توأمان، حتى في هذا العصر الذي قطع العلم فيه أشواطاً تبدو مذهلة !
لم يصطدم الإسلام أبداً مع العلم؛ بل على العكس ألقت المعارف الحديثة أضواء جلت لنا معاني القرآن، وما فيه من روعة!

وفي هذا القرن الذي بدأ فيه للغرب والعالم غير المسلم أن الحقائق والأفكار العلمية قد أجهزت على بقايا الفكر الديني. كان الأمر في العالم الإسلامي مختلفاً تماماً، فقد ساعدت هذه الكشوف والحقائق العلمية ذاتها على إثبات ما في رسالة الإسلام، والنص القرآني من إعجاز علمي يؤكد صدوره من قوى خارقة للطبيعة، أي من وحي الخالق الأعظم!

وعلى رغم كل التيارات والدعاوى الفكرية التي تخبطت فيها عقول البشر؛ فإن المعارف العلمية لابد أن تدفع العقل المحايد المتحرر من الأهواء إلى التأمل في قضية الإيمان؛ فكثير من البحوث في ظواهر الطبيعة والحياة تؤدي بشكل تلقائي إلى تدبر المفاهيم الدينية!

مثال على ذلك:

ونضرب مثلاً لذلك بدراسات النظم الدقيقة التي تحكم بداية الحياة ونشأتها وتطورها: فكلما تعمقت الدراسة ، واتسعت المعارف أصبح من العسير علمياً أن نتقبل فكرة (الصدفة) كتعليل لتلك النظم!

ومما يبعث على الأسى والإشفاق - معاً- أن ينادي عالم فرنسي حاصل على جائزة نوبل بأن الخلايا الحية قدكونت نفسها ! فجأة باتحاد عناصرها الكيميائية في ظروف ما مواتية ، ثم تطورت هذه المادة الحية، بنفسها أيضاً حتى وصلت إلى الإنسان بكل ما فيه من أنظمة معقدة، وتلك آراء لا يقرها أي تفكير سليم، لأن الدراسة العلمية الجادة لبيولوجيا الإنسان، وغيره من الكائنات العليا، إنما تؤدي إلى النقيض من هذا الادعاء تماماً؛ وتؤكد وجود إرادة أسمى خارقة للطبيعة وراء خلق ونشأة وترتيب نظم الحياة وخصائصها وسلوكها. وسنرى في هذه المحاضرة كيف تثبت لنا دراسة القرآن هذه المفاهيم ، وبوضوح شديد! كما سأركز – بصفة خاصة – على ما جاء في القرآن من حقائق علمية تتفق بمنتهى الدقة مع العلوم الحديثة! وهو موضوع يشكل نقطة جذب كبير للدراسات العلمية المعاصرة !)

وبعد. لنتتأمل عبارات هذا العالم التجريبي المدهشة:

- أصارحكم القول أنني عندما بدأت الدراسة لم يكن لدي أدنى اقتناع بالإسلام، وكلما مضيت في الدراسة ازداد اقتناعي حتى أتاني اليقين في النهاية (أن هذا القرآن إن هو إلا وحي أوحاه الله إلى نبيه)

- دفعني انبهاري بما جاء بالقرآن الكريم من إشارات إلى معارف ومفاهيم لم يكتشفها العلم إلا في العصر الحديث.

- القرآن هو الكتاب الوحيد الذي من نوعه بين أيدينا الذي جاء بمعارف تسبق تدوينه بقرون.

- العلم والدين في الإسلام توأمان.

- لم يصطدم الإسلام أبدا مع العلم بل على العكس ألقت المعارف الحديثة أضواء جلت لنا معاني القرآن وما فيه من روعة.

- حاولت خلال دراستي هذه – وأظنني قد نجحت – التزام الأسلوب الموضوعي المجرد الذي يتبعه الطبيب عند فحص مريض جديد، إذ يمحص كل أعراض المرض بعناية حتى يصل إلى التشخيص السليم.
- إن مفكرا مرموقا مثل ديكارت في القرن السابع عشر وغيره من المفكرين – حتى القرن التاسع عشر – مافتيء يردد نظرية أرسطو التي تفترض أن المياه تتكثف في مغارات باردة داخل الجبال، ثم تتجمع في بحيرات جوفيه تنطلق منها العيون، وقد أثبت علم الهيدرولوجيا أن دورة المياه الجوفية إنما تتم خلال عمليات تشرب التربة المسامية بالمياه، ثم تتسرب منها إلى باطن الأرض، وهو ما ينطبق تماما على التعبير القرآني (ألم تر أن الله أنزل من السمآء مآء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب)
- ظهر بجلاء مدى تطابق النص القرآني مع المعارف الحديثة، على عكس مقولات الكتاب المقدس.
ثم يكشف بوكاي معلومة تلقي بأركون وأفكاره وأفكار أساتذته المتخلفة إلى مزبلة التاريخ، ويفضح ادعاءاتهم بالنقل القرآني عن الكتاب المقدس أو عن أي مخيال جماعي للإنس أو حتى للجن بقوله:
- ترجع التناقضات بين الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد في جانب، وبين القرآن والعلم الحديث في الجانب الآخر إلى التباين في المصدر، وملابسات التدوين لكلا الكتابين: فبينما يضم العهد القديم مجموعات من تراث الأدب الشعبي والديني والتاريخي لبني إسرائيل، وضعه وعدله البشر طوال تسعة قرون، كما يضم العهد الجديد الأناجيل الأربعة التي وضعها متى ولوقا ومرقس ويوحنا إلى جانب رسائل بولس وغيرها، فإن القرآن قد سلم – منذ نزوله – من تدخلات البشر، فمن بداية نزول الوحي كان النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه يحفظون ماينزل منه آيه آيه – قبل جمعه وترتيبه – في حياة محمد عليه السلام حتى وصل إلينا اليوم كيوم نزل بلا تحريف ولا تعديل.
- إن مقارنة القرآن الكريم بمستوى المعارف السائدة في القرن السابع الميلادي – عصر نزول القرآن – ليدفع أي عالم منصف إلى القطع باستحالة أن يكون القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ويؤكد المكانة الفريدة للقرآن بين سائر النصوص ككتاب تلقته البشرية نصاً يفوق مستوى معارف عصره لم يأت بشر فيه بحرف أو كلمة أو عبارة من صنعه.
ثم يلخص هذا العلماني المسيحي الغربي التجريبي المنصف:
السمات التي تؤكد أن القرآن وحي من الله.
المنطقية: فقد أنعم الله علينا بنعمة العقل والحكمة التي نميز بها بين ما هو معقول وبين ما يتعارض مع مبادئ المنطق ، ولا يصدر عن الله تعالى إلا الكلام المعقول الذي يتقبله كل عقلٍ سليم مجرد عن الهوى.

الكمال: لما كان الله الخالق الأعظم هو الكمال فلا بد أن يتسم كلامة وحده بالكمال والدقة وبالسلامة من الخطأ...
العقلانية: فلا يمكن لوحي الله أن تشوبه الخرافات والأساطير التي لاتليق بعظمة الله أو تنحط بعقل الإنسان.
العلمية: لما كان الله هو الخالق العليم فلا بد للوحي أن يكون قبسا من علم الله وأن لايناقض العلم والمعارف الصحيحة الثابتة في أي زمان ومكان.
علم الغيب : استأثر الله وحده بعلم الماضي والحاضر والمستقبل معا لذا فكل ماجاء به من أنباء الماضي ونبوءات المستقبل لابد أن يثبت صدقها.
استحالة التقليد: الوحي الصادق من الله تعالى، لا يحاكيه بل ولا يدانيه كلام بشر، وهو معجزة حية باقية، وكتاب مفتوح لكل البشر يقرأونه ويمحصون صدقة على امتداد الزمان والمكان)
قارن هذه النتائج التجريبية مع تخلف الرازي وابن الراوندي التي يدعي أدونيس تقديمهما لقراءة علمية.
هذا هو موريس بوكاي العلماني التجريبي المسيحي لا الإسلاموي، الذي اختارته فرنسا المتقدمة من بين كل علمائها التجريبيين، وذلك هو بحثه التجريبي الدقيق، فماذا سيقول عنه أستاذ لا علاقة له بالعلم التجريبي ولا بالطب، أستاذ في تخصص أدبي.. اسمه "محمد أركون". إنه يصف مقارنة بوكاي العلمية التجريبية الدقيقة بكلام غاية في التفاهة والتخلف، فيقول وهو يتحدث عن النصوص التي فسرت النص الأول (القرآن): (إن التحليل السيميائي يعري آليات هذه القرآءة التي تفصل النص التأسيسي أو الأصلي = القرآن .. كما هو الحال فيما يخص التوراة والإنجيل، عن العملية الاجتماعية التاريخية لإنجازه النصي، وذلك من أجل إنتاج نصوص أخرى = أقصد السلسلة المفتوحة من التعليقات والشروح بدءا من الطبري وجعفر الصادق مرورا بعشرات المفسرين، وانتهاء بتلاعبات موريس بوكاي الوهمية التي تبرهن على أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن) وليس بعيدا عنه (علي حرب) والذي يتعامل مع العلم التجريبي بإيديلوجية فيها الكثير من السخرية عندما يرد على أركون قائلا: (هل هذا يسوغ لنا ادعاء الصفة العلمية لقراءتنا ونفيها على الغير؟ وهل ان قراءتنا هي علمية لأننا نستخدم عدة معرفية تختلف عن العدة التي استخدمها المفسرون الكلاسيكيون؟ هذا ما لا نسلم به . لأننا نرى أن كل مفسر يفسر القرآن إنما يفسره بحسب النظام المعرفي السائد في عصره. كل قارئ له يجرب فيه لغته ويمتحن مفهوماته، وكل واحد يحمل عليه معناه وبقرأه بحسب استراتيجيته. والكل سواء في ذلك أكانوا قدماء أم معاصرين) ثم يهوي (علي حرب) في فخ الأيدلوجيا والانتقائية، مصادراً كشوفات العلم الحديث، وساخرا من تطابق ما جاء في القرآن والسنة تحديداً من معلومات معها فيقول عن القرآن: (كل قارئ له يجرب فيه لغته ويمتحن مفهوماته، وكل واحد يحمل عليه معناه وبقرأه بحسب استراتيجيته. والكل سواء في ذلك أكانوا قدماء أم معاصرين. لاشك أننا نستثني من ذلك تلك القراءات التي تتعسف في تفسير وتأويله

فتسقط عليه مفاهيم لا تحتملها بنيته وتقحم عليه معاني لا يقتضيها سياقه، كما هو شأن تلك القراءات التي يمكن ان تسمى "علمية" أيضا، لأنها تستنبط من القرآن على نحو بعدي وبصورة ارتجاعية كل ما أقره العلم في مجالاته المختلفة، فتجعل منه معرضا للنظريات العلمية في الطب والفلك، وفي الاقتصاد والسياسة، وفي اللغة والنفس، الخ .. فليس ذلك هو المقصود . ذلك ان كل قراءة ينبغي أن تثبت جدارتها بانطوائها على قدر من المعقولية – ٨٠ نقد النص)

هكذا يتعامل العلماني العربي – بحجم أركون والعظم بل وحرب – مع منجزات العلم الحديث عندما تخالف تلك المنجزات إيديلوجيته وآماله، يدهشك في الإنشاء لكنه ينكشف مع أول مثل يضربه، فتنهار جبال الثلج، مع أول التفاصيل ينكشف حجم الغباء. إنها فضيحة للعلمانية العربية ما بعدها ولا قبلها، فضيحة تكشف سطحية التناول وافتعال العمق، وجاهزية الأحكام واقتحام النوايا وإفلاس الطرح، تلك الكلمات التي قالها أركون أصابت أركون والمترجم التابع له هاشم صالح في مقاتل عديدة منها:

أن أركون لم يقرأ لموريس بوكاي.

أن أركون لم يقرأ التوراة ولا الإنجيل.

أن أركون كذب على بوكاي، فبوكاي لم يقل على الإطلاق أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن.

أن بوكاي لم يقرأ القرآن لكي يبرهن على ذلك.

أن بوكاي لم يجامل أحدا من المسلمين عندما قرأ القرآن على حساب العلم.

أن بوكاي في البداية كان يرى أن القرآن مجرد مؤلف بشري، بل إنه يذهب أبعد من هذا فيقول: (أصارحكم القول أنني عندما بدأت الدراسة لم يكن لدي أدنى اقتناع بالإسلام، وكلما مضيت في الدراسة ازداد اقتناعي، حتى أتاني اليقين في النهاية أن هذا القرآن إن هو إلا وحي أوحاه الله إلى نبيه)

أن كتاب بوكاي وبحثه لا يندرج ضمن سلسلة التفاسير التي ذكرها، فبوكاي لم يؤلف كتاب تفسير أو تمجيد، بل كتاب نقد وقراءة جديدة لكتاب كان يعتبره بشريا مزيفاً، حتى تأكد من عكس ذلك بعد أن فحص كل المعلومات الكونية التي وردت فيه، والتي وضع العلم التجريبي الحديث يده عليها.

أن العلم التجريبي الحديث الذي أسقط الكنيسة والكتاب المقدس هو الذي اتجه ببوكاي للقرآن، وهو ما يفسد على أدونيس أيضا مقولته المكررة المملة: بأن الحقيقة في الإسلام تتجه من النص نحو الكون لا العكس، وهي ناتجة عن تجاهل أو قصور معرفته بالكون وبالنص معا وبعلاقتهما – إسلاميا على الأقل.

أن أركون أساء لنفسه كثيرا عندما وصف دراسة موريس العلمية بأنها (تلاعبات تبرهن على أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن)

أن أركون بهجومه على كتاب بوكاي لم يتخل عن الصفة الملازمة له، ألا وهي الكذب، فبوكاي لم يقل أن القرآن فيه كل الاكتشافات، إنما قال: أن كل ما في القرآن

من معلومات لا تتصادم مع حقائق العلم الحديث، بل إن تلك المعلومات تحديدا تسجل سبقا للقرآن على العلم في كشفها.
أن أركون في هجومه على كتب بوكاي كان يدافع عن الكتاب المقدس، لأن بوكاي لم يؤلف تفسيرا للقرآن، إنما وضع معلومات تلك الكتب المقدسة التجريبية تحت المجهر، أي بإزاء العلم التجريبي القطعي، فاكتشف الحقيقة التي نسفت هراء أركون وأساتذته المستشرقين.
أن أركون لا يجرؤ على تناول الكتاب المقدس بالنقد وما فيه من أساطير واضحة كوضوح الشمس للعلم التجريبي، بل للإنسان البسيط، وبإمكانه القيام بها واكتشاف زيفها وأسطوريتها، يترك أركون كتابا يغص بالخرافات كما سيمر معنا دون أي نقد، ويتجه إلى إلى الصراع الخاسر مع كلمة "أم" في سورة الكهف!!!
أن أركون كما مر معنا مولع بالتفاصيل ودراسة ما قبل وما بعد وحيثيات اللفظ القرآني، ومع ذلك، لم نجده قارن بين نصين من الكتاب المقدس ومن القرآن، ليكشف لنا بعبقريته الأدلة التي تثبت نقل القرآن عن الكتاب المقدس، إنه يكتفي بكلمة نقل القرآن هكذا، ولكن العلم الحديث يعد لأركون فضيحة أكبر كما سيأتي إن شاء الله، فضيحة تواري ما تبقى من تخلف أركون.
هكذا يظن العلماني العربي أنه وبجرة قلم قد يطمس الحقيقة العلمية ويحولها إلى عبث، بتهور وتطفل على العلم، فيصف دراسات الطب الغربية العلمية التجريبية المخبرية بأنها تلاعبات، وأن نتائجها المدونة في مختبرات العالم مجرد أوهام، بينما يصف هراءه الذي يصيبنا بالصداع، وهوامشه التي تصيبنا بالغثيان والإرهاق بأنها قراءة علمية.
العالم كله يشهد أن فرنسا التي تغص بالعلماء والباحثين لم تجد أفضل من العالم العلماني المسيحي موريس بوكاي، الذي لا يعرف عن الإسلام شيئا مرشحاً ليقوم بتحليل مومياء فرعون، ولم تختر محمد أركون لأنه لا يعرف عن هذا العلم شيئا.
والعالم كله يشهد أن فرنسا اختارت محمد أركون، لكن ليس للإفادة من علمه وتجاربه، فليس لديه ما يضيفه لفرنسا، ولكنها اختارته بل لتمرير مشروع سياسي إيديلوجي متعصب، أصبح كالعار على فرنسا الحرة، والتي لفرط حريتها تسمح بالتعري على الشواطىء وتفرش جوانب الأنهار بالرمال حتى يتعرى ساكني المدن عليها، بينما تضيق بمنديل تضعه فتاة مسلمة على رأسها.
والعالم كله يدرك أن ثقته بآخر ما توصل إليه الطب وعلم التشريح والجيولوجيا، وعلوم البحار والكيمياء والفيزياء، وغيرها تعادل عشرات أضعاف ثقته بما توصلت إليه علوم إنسانية أدبية كالألسنية والبنيوية، والتي لا يتفق فيها ناقدان على دراسة نص واحد.
ولعل "موريس بوكاي" و"كيث. إل. مور" وهما يكشفان هراء أركون، كشفا بالتالي سطحية علي حرب، وأنه يهرف بما لا يعرف، ويردد كلمات لا يفقه معناها عندما يقول: (ما أردنا إيضاحه ان المفسرين الكلاسيكيين إذ نظروا إلى القرآن بوصفه خطاباً عربيا، وإذ بحثوا عن أسباب نزول آياته في الزمان وفي المكان قد

قرأوه قراءة تاريخية. ونحن لا نختلف عنهم في هذه الناحية سوى أنهم قد فسروه بحدود إمكاناتهم المعرفية وبحسب ما أتاحته لهم أدواتهم المنهجية. بينما نحن نفعل ذلك أي نفسره ونقرأه بحسب ما تتيحه لنا إمكاناتنا المعرفية، أي تقنياتنا المنهجية وأجهزتنا المفهومية. فهم استخدموا في تفاسيرهم مصطلحات كالعموم والخصوص، والمحكم والمتشابه، والظاهر والباطن، والناسخ والمنسوخ وغيرها من المفاهيم الإجرائية التي كانت متداولة في الحقل المعرفي للعلوم العربية الاسلامية، في حين نحن نستخدم اليوم المفاهيم التي تزودنا بها علومنا الحديثة، والتي تتداول بشك خاص في الحقل المعرفي الغربي. وهذا ما يفعله أركون بالتحديدعلى نحو بارع وكاشف لا يضاهيه فيه أحد من المعاصرين، مستخدما بذلك جملة من المفاهيم الإجرائية التي تبلورت على نحو خاص في الألسية والإناسة والسيمياء وعلم أصول المعرفة كالدلالة والرمز والمجاز والمخيال والأسطورة والبنية وشبكة العلاقات – نقد النص ٧٨)

فهل بعد الذي مر معنا من أدلة، وهل بعد الذي مر معنا من أقوال للعلماء الغربيين التجريبيين يمكن اعتبار "علي حرب" مفكرا أو كاتبا وهو الذي يقول: (وهذا ما يفعله أركون بالتحديدعلى نحو بارع وكاشف لا يضاهيه فيه أحد من المعاصرين) فأي نحو بارع، وأي كشف ينجزه أركون سوى أكاذيب وإيديلوجيا ونقولات ومتح لأقوال استشراقية وملحدة قديمة عفى عليها الزمن؟!!

ومما يدل على الفرق الهائل بين الثقة بتخصص بوكاي التجريبي، وعدم الثقة بقراءات أركون، أن العالم كله يثق بالطبيب الجراح ليجري عمليات جراحية في الرأس والقلب والرئتين وغيرها، ويثق بعلوم الفيزياء والميكانيكا فيركب الطائرة والتي يعد تحليقها نتيجة دراسة سنن الله في الأرض والفضاء واكتشافها من قبل العلم التجريبي، ولولا دقة هذا العلم لما صعد الإنسان إلى القمر، ولما وضع مسبارا على المريخ، ولما غاص في أعماق البحور اللجية، في الوقت الذي لا يثق النقاد ولا القراء ولا الناس بـ(هراء لوجيا) أركون في قراءته لبيت شعر، فضلا عن تناول القرآن، الذي لولاه، لما نطق بالعربية ولا عرفها، ولظل بربريا وثنيا يركع ويسجد لخشبة كما كان يفعل ابن سلول.

ولعل رئيس فرنسا يدرك مهمة أركون جيدا ووظيفته عندما أراد إصدار قرار عنصري ومتعصب، وهو منع الحجاب الإسلامي في مدارس (فرنسا أم الحرية).. بحث شيراك عن كاتب مؤدلج معاد للحجاب وللنص الإسلامي يحمل إسماً إسلامياً، فلم يجد لتأييده أنسب من محمد أركون. قد يغضب البعض لكن الفقرات التالية ستجعلني في نظرهم متسامحا.

أما الببغاء هاشم صالح، فيكرر البلاهة نفسها، ولكن بدرجات مضاعفة، حيث يقول عن بوكاي في حاشية الكتاب: (هناك تلاميذ عديدون لموريس بوكاي الفرنسي الذي يجامل المسلمين المحافظين من أجل أهداف شخصية ومصالح معينة، من أهم هؤلاء التلاميذ مصطفى محمود المصري الذي يعتقد بوجود كل المخترعات الحديثة في القرآن) فالمقلد هاشم صالح فضيحته أسوأ من فضيحة أركون، لأنه مقلد

المقلد، والمقلد يحمل عيوبه وعيوب من قلده، كما تحمل الببغاء عيوب الألفاظ وسوء النطق بها معا، وهاشم يحمل عيوبه وعيوب أركون وعيوب المستشرقين المتعصبين، وقد أحرج نفسه وكشف سطحيته ومواقفه المعدة وتهمه الجاهزة في النقاط التالية:

- هاشم صالح لم يقرأ لبوكاي ولا لمصطفى محمود، ولا يعرف عن أي شيء يتحدثان.

- مصطفى محمود لم يكن يوماً من تلاميذ بوكاي.

- يقلد هاشم أستاذه حتى في الكذب، فيفتري على الدكتور مصطفى محمود، فمحمود لم يقل يوما ولم يعتقد أبداً بوجود كل المخترعات الحديثة في القرآن.

مصطفى محمود طبيب بنى مسجدا وبنى فوقه مرصدا فلكيا، فهو تلميذ التجربة، وهو طبيب وعلماني سابق، لكن العلم التجريبي قاده للنص القرآني، بينما طموح هاشم صالح أوصله إلى أن يكون مترجما لأركون.

- أراد هاشم التصفيق لشيخه أركون وهو مغمض العينين، فإذا به يصفعه بحماس أذهله عن الألم الذي سببه لشيخه، إنه يقول بالحرف الواحد: (هناك تلاميذ عديدون لموريس بوكاي الفرنسي الذي يجامل المسلمين المحافظين من أجل أهداف شخصية ومصالح معينة)

- ليس عيبا أن يكون للعالم التجريبي تلاميذ يقلدونه، إنما العيب على مسار التاريخ أن يكون للأديب تلاميذ يقلدونه لأنهم مجرد نسخ أقل جودة، وهاشم صالح مثال ولا أروع.

- العلمانيون العرب بارعون في مهنة الاستبصار وهم أبرع ما يكونون في اقتحام النوايا، وهاشم صالح يقتحم كرجل مخابرات نوايا الدكتور بوكاي، ويجعل له أهدافا شخصية ومصالح لم يكشف عنها لأنها من صنع خياله المخابراتي. الغريب أن هؤلاء يدعون الحرب على الفكر الغيبي؟!

- ليس عيبا أن تكون طبيبا ناجحا ولك أهدافك ومطامحك، لأن طبك وتجاربك ستظل بمنأى عن عيوبك، إنما العيب أن تدعي الكتابة في المسائل الدينية والفكرية والأدبية، وتدعي العمق والموضوعية في التحليل وأنت مثقل بالطموحات من وراء هذه البحوث والدراسات التي تستطيع تطويعها لتلك الأهداف وبسهولة.

- أراد هاشم صالح أن يطيح بموريس فقام بفضح شيخه أركون عندما قال مدعيا أن موريس بوكاي الفرنسي (يجامل المسلمين المحافظين من أجل أهداف شخصية ومصالح معينة) ولا أدري أين يقبع هاشم صالح؟ أهو في فرنسا التي تقع خارطتها على الكرة الأرضية، أم على فرنسا أخرى على سطح كوكب آخر؟

كيف تبلغ الوقاحة به هذه الدرجة، فيتهم الرجل بأنه يجامل المسلمين المحافظين من أجل أهداف شخصية ومصالح معينة؟ أي مصالح وأهداف حصل عليها موريس بوكاي من المسلمين المحافظين؟ بل ماذا يملك المسلمون المحافظون يقدمونها لموريس بوكاي وهم المهمشون في العالم العربي والإسلامي الذي يقبع على كراسي السلطة فيه حفنة من العلمانيين المتطرفين؟ أحدهم يمنع الحجاب، والآخر

لا يؤمن بالنص الثاني – السنة، وثالث يمنع تلاوة آيات تتحدث عن اليهود والنصارى، ورابع يدخل الفائزين في الانتخابات في الزنازين، وخامس يحول الجمهورية إلى ملكية طائفية، وسلسلة من الهموم الثقيلة؟ ثم ماذا فعل العالم الإسلامي والمحافظون المسلمون لموريس بوكاي سوى التجاهل؟

إننا لا نعرف صورة للرجل في جرائدنا ومجلاتنا، ولا نعرف محطة واحدة قامت باستضافته وتكريمه، أو حتى محاورته والاحتجاج عليه، أو تحدثت عنه ولو كطبيب... كم جامعة دعته لإلقاء محاضرة ؟ ما الشهادات التقديرية والجوائز التشجيعية التي حظي بها من قبل تلك الدول الإسلامية أو جامعاتها، أو حتى ممن يسمون بالمسلمين المحافظين ؟ ما الأوسمة والألقاب التي أسبغناها عليه؟ بل كم عدد العلماء المحافظين الذين يعرفون بوكاي؟

لقد رحل الرجل والناس لا تعرف عن رحيله شيئا، رحل بصمت يشبه صمته وهو داخل معمله ومختبراته.. مات ولم تنشر وسائل إعلامنا خبراً عن فاته، مات ولم يكتب حرف واحد بنعيه، ولم ينع بعشر عشر ما ينعى به فنان أو مطرب أو حتى راقصة، رحل إلى ربه دون كلمة وداع أو خطاب شكر، رحل دون أن تسمى مدرسة أو مستشفى أو مستوصف أوحتى صيدلية باسمه، كفنه المسلمون المحافظون بالتجاهل، وافترى عليه العلمانيون العرب فاتهموه بالتلاعب والوهم والوصولية، فليقارن هاشم صالح ما حصل عليه أركون مقابل خدماته لفرنسا في الهجوم على القرآن والإسلام والهجوم على من يحملون هم الإسلام في أفعالهم وأقوالهم، مقابل ما حصل عليه بوكاي من أي جهة في العالم العربي والإسلامي، ولعل فرنسا متخصصة في تبني أمثال أركون، لدرجة أن الرئيس شيراك قال مخاطبا الرئيس المصري: لوكان لدينا كاتباً مثل (محمد سعيد العشماوي) لطبعت كتبه على نفقة الدولة ووزعتها على المواطنين.

لم يخجل هاشم صالح من إطلاق تلك الفرية كي يستر بها عورة شيخه، لقد كانت أكذوبة لطخت هاشم وأركون وأسفرت عن مدى التخلف الذي يقذفانه في طريق العلم والتجربة، وفي وجه الإسلام والباحثين الجادين عن الحقيقة، أسفرت عن المستوى الأخلاقي الذي يمكن أن يسفل إليه العلماني العربي في حالة خصومته، إنه مستوى ذكره النبي صلى الله عليه وسلم قبل ألف عام فقال: (إذا خاصم فجر).

لكن ما هي عورة شيخه التي أراد سترها بتلك الكذبة ؟

إنه يقول: (هناك تلاميذ عديدون لموريس بوكاي الفرنسي الذي يجامل المسلمين المحافظين من أجل أهداف شخصية ومصالح معينة) ولا أدري من يجامل من؟ بوكاي الذي لم يحصل ولن يحصل على شيء سوى خدمة العلم؟ أم أركون الذي يتقرب إلى فرنسا بالحط من القرآن والسنة تحت لافتة البحث العلمي؟

أركون يحصل على المرتبات والجوائز السخية، ويعين في مناصب علمية يستطيع من خلالها تبرير تلك الشتائم، لذلك عينته فرنسا أم الحرية مديرا لمعهد الدراسات العربية والإسلامية في السوربون، في الوقت الذي تحاكم فيه ابنها المفكر الكبير والاشتراكي السابق روجيه جارودي، وتحكم عليه بالسجن لمجرد أنه أبدى وجهة

نظر حول مسألة علمية تتعلق باليهود؟ وحتى جارودي لم يسلم من أركون، فبعد أن قرأ جارودي القرآن وتعرف إليه بعد عمر مديد من التجارب العلمية والحزبية والمعارك الثقافية والسياسية، اعتنقه وأسلم وألف كتابا سماه (وعود الإسلام) ليغضب أركون غضبة بربرية واصفا كتابه بأنه كتاب (هزيل) وهو وصف أطلقه على كتاب موريس بوكاي السابق.

وبالطبع فإن فرنسا أم الحرية ليست أم الغباء، فهي لم تحتضن أركون مجانا، لابد من خدمات يقدمها ليس في إثراء الثقافة الفرنسية فهي غنية عنه، إنما في مهاجمة الثقافة التي ينتسب إليها بيلوجيا (القرآن وأتباعه)، إنه يقول ما لا يجرؤ الفرنسيون على قوله تجاه الإسلام، والمفكر العربي عبد الله بن أبي بن سلول يؤدي تحت غطاء الإسلام مهمة أخطر بكثير مما يؤديها لو أخرج الأصنام من جلبابه وأبرزها، وها هو أركون يؤديها ويدفع القسط الثاني من ثمن الحضن الفرنسي الدافىء. وكأن شيراك يقول: هاكم أيها المسلمون أحد أبنائكم وأحد مفكريكم "أركون" يؤيد منع الحجاب، لا حجة لكم بعد اليوم.

وهنا أقول لعلي حرب: إن المعيارية التي تسأل أركون عنها كي يكون البحث غير هزيل هي (التشكيك في القرآن)، ولعل في العنوان التالي ما يثبت ذلك، ويؤكد سطحية فكر هذا الرجل مقارنة بفكر بوكاي:

مرجعية الرجلين

بوكاي له مرجعية واحدة درس بها كتابه المقدس (التوراة والإنجيل) الذي ورث الإيمان به عن والديه، فأثبت بالمنهج العلمي التجريبي لا الألسني أو البنيوي أنه منتج ثقافي بشري متراكم، ولا يمكن تقبل فكرة الصحة تاريخيا له، فضلا عن نسبته لله أو لقوة خارقة غير بشرية. كما استخدم المرجعية نفسها في فحصه للقرآن، وهو كتاب يعتبر بالنسبة له وللفرنسيين وللمسيحيين في أوروبا كتاب الخصوم التاريخي، وهو أيضا كتاب الأمة المتخلفة التي كانت بلاده تستعمر ثلث بلادها، وقتلت الملايين منهم أثناء فترة الاستعمار تلك، وما زالت ترفض حتى مجرد الاعتذار عن مجازرها فضلا عن تعويضها ماديا، مما يعني أن القرآن سيتعرض لفحص أدق لا مجال فيه للمجاملة والتغاضي عن أي خطأ علمي مهما كان صغيرا.

تلك هي مرجعية (موريس بوكاي) وقد توصل من خلالها إلى نتائج مذهلة.. مرجعيته هذه هي المرجعية التي أسقطت الكتاب المقدس، وشيدت العلمانية الغربية، إنها المرجعية العلمية التجريبية لا المرجعية الفلسفية، ولا التاريخية ولا الأدبية ولا السياسية ولا الفنية، فقد صمدت الكنيسة قرونا أمام تلك المرجعيات، بل دجنت الكثير منها وطوعتها وأدلجتها، وشكلت صليبها الضخم منها، لكنها انهارت عندما اصطدمت بالمرجعية التجريبية التي لا مجال للمحاورة والمداورة معها: الأرض كروية، والأيام الستة ليست هي أيام الأسبوع، والنهار لم يخلق قبل الشمس، وليس هناك حوت يحمل الأرض ولا حتى دلفين.

أما مرجعية أركون: فهي حشد من المصطلحات مع الاحتفاء بحفنة من أساتذة علم التاريخ والاجتماع والفلسفة والألسنيات والأدب والاستشراق. وحتى نتعرف على حيادية هذه المرجعية ومدى دقتها ومستواها، مقارنة بالمرجعية التجريبية التي لا دين لها سوى الحقيقة، سأنقل بعض مقولات هؤلاء المرجعيات – مع مرور بعضهم في نقد د. عوض السابق – الذين يسميهم تلميذهم ومريدهم أركون بـ (المعلمين الكبار) الذين نجحوا – في نظره - في قراءة القرآن قراءة أخرى، وقدموا نقدا علمياً في جو من العلمانية الثقافية التي يتمتعون بها بعيدا عن رهبة المقدس، وهو يأمرنا باحتذاء خطواتهم والسير في الأفق الذي فتحوه والمنهج الذي اختطوه، إنهم حفنة من المستشرقين، ذكر منهم في كتابه الآنف: (نولدكة ودوسلان ودوغوج وسنوك هرغوبوخ وبروكلمان وماسينيون ومارسيه) وهو يسمي كل الذين شككوا بالقرآن من السابقين واللاحقين حتى ولو كانوا رجال مخابرات وعسكريين بالكتاب الكبار كما وصف الرازي.

بل إنه وفي تحيز واضح ضد القرآن يتحدث فيه عن إيمان المسلمين بأن القرآن كلام الله، وإيمان اليهود والنصارى بأنه نقل كاذب ومحرف عن كتابهم المقدس، ثم يكذب بكل صفاقة واصفاً اساتذته الكبار"المستشرقين" بأنهم يقفون على الحياد بين هؤلاء وهؤلاء، أي بين المسلمين والمسيحيين واليهود، فيقول: (وأما في الأوساط العلمانية الحديثة، فإن "العلماء" المستشرقين يكتفون بنقل التحديدات الإسلامية والمسيحية واليهودية إلى لغاتهم الأجنبية كالإنكليزية والفرنسية والألمانية دون أن يتعرضوا أبدا للمشاكل النظرية العديدة والصعبة التي تنطوي عليها ضمنيا كل التحديدات اللاهوتية الموروثة "بمعنى أن المستشرقين يتبعون الطريقة الوصفية والحيادية الباردة وينقلون الأشياء كما هي دون انخراط ابستمولوجي حقيقي – كتاب أين هو الفكر الإسلامي ٨٧)

لو قال أركون أن القليل من المستشرقين أو بعضهم محايدون لأمكن قول ذلك، أما التعميم هكذا فأشبه بأقوال المعتوهين، ولا أدري كيف نسي أركون إحضار عدته وشحن مصطلحاته لكي نقبل بهذا الهراء.

سنتعرف – بإيجاز – على هذا الحياد وعلى بعض هؤلاء المعلمين الكبار الذين كانوا موضوعيين في تناولهم للقرآن لنرى نزاهة تلميذهم أركون، لكن قبل ذلك أود إيراد بعض مقولات المستشرقين المحايدة في نظر أركون.

يقول المستشرق سبرنجر في كتابه "حياة محمد وعمله": (إن الإسلام مجموعة إلحاد من عمل الشيطان، وإن نبي الإسلام العربي الماكر الوسخ أفاق وخادع ولص نياق خليع وساحر، كان رئيس عصابة من قطاع الطرق، وكان مصابا بالهيستيريا والجنون، مات في نوبة سكر وأكلت جثته الخنازير، وإن المسلمين مجموعة من الوحوش- انظر كتاب الاستشراق في السيرة النبوية ٢٩)

ويقول مونتغمري وات في حياد يعجب أركون: (لا شك أن محمدا أخذ من حماسة "ورقة" وآرائه... ويقول أيضاً من المحتمل أنه تحدث في المسائل الدينية مع المسيحيين العرب أو الأحباش من اليمن والقبائل البدوية المسيحية القادمة إلى مكة

للتجارة، وهناك يهود المدينة والأماكن الأخرى، ولا شك أنه تحادث مع ورقة بن نوفل المسيحي ابن عم خديجة) وينفي تعبد محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء بكلام مضحك فيقول: أنه كان يهرب من حر مكة. ياله من تحليل.

ومن أشهر المستشرقين الكبار الذين يحتفي بهم أركون كارل بروكلمان الذي يقول أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم (انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية، فكيفه محمد تكييفا بارعا وفقا لحاجات شعبه ودينه – السابق ٥١) وبروكلمان ينكر وجود أهل الصفة في موضع، ثم يتناقض ويصفهم في موضع آخر أنهم حرس خاص للنبي عليه السلام - السابق ٥١. وهو يرفض الحديث النبوي جملة وتفصيلا بقوله: لسنا نملك وثيقة بينة موثوقا بها عن النبي عليه السلام الأولى إلا الآيات القرآنية من سورة الضحى. ثم يناقض نفسه فيعرض عن الروايات الصحيحة حسب المصطلح العلمي لعلم الحديث ويستشهد بالروايات الضعيفة والمكذوبة والمختلقة. ياله من منهج محايد.

معظم هؤلاء المستشرقين – أساتذة أركون الكبار- أذكياء جدا، فهم يتبادلون الأدوار بشكل رائع، إنهم لا يتفقون على رفض الإسلام جملة حتى لا ينكشف مدى التواطؤ. في تناولهم للإسلام يتقاسمونه إلى أشياء صغيرة، وكل مستشرق يوظف كل ما يملك من قوة لتدمير ما بين يديه، هذا يثني على الإسلام بشكل عام لكنه يوظف طاقاته النقدية في النيل من قانون الأحوال الشخصية في الإسلام، وثان يثني على الإسلام لكنه يوظف كل طاقاته للطعن في السنة النبوية، وثالث يفعل الأمر نفسه ثم يوظف مجهوده العلمي لإثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم استفاد من التوراة، ورابع يجعل همه التشكيك بالقرآن نفسه.. وهكذا، فإذا صففت دراسات هؤلاء المستشرقين المتعصبين وجدتهم يشكلون فريقا يقدم إسلاماً مهلهلاً مليئاً بالثقوب، ليس فيه ما يستحق الاعتناق، وأنه لا يختلف عن اليهودية والمسيحية بل هو أسوأ منها، بل إنهم ومن منطلق تعصبي مقيت حولوا كل صفات الغدر والخيانة لدى اليهود والمنافقين تجاهه صلى الله عليه وسلم إلى أعمال مبررة ومنطقية ومقبولة، وحولوا كل صفات الكرم والعدل والرحمة والإيثار إلى صفات معاكسة تماما، كالخبث والطمع والتظاهر وغيرها.

وفي السطور التالية بعض النماذج المحببة لأركون من المستشرقين المتعصبين، والذين يحاول أركون تقليدهم والكتابة بعقليتهم وإن اختلف الأسلوب، فهم بالنسبة له معلمون كبار وهو يكمل ما بدأوه، حيث أن كتاباته تدور على النيل من أمرين طالما طعن المستشرقون بهما:

الأول: القرآن وأنه ليس وحيا بل هو منتج بشري.

الثاني: الصحوة الإسلامية، وهي التي يعنيها بقوله الخطاب الإسلاموي، وهو بذلك يحاول هدم أخطر سببين في إعادة الحياة الإسلامية التي يبغضها: التشكيك بالنص وبمن يتبنون النص.

لنعد إلى أقوال بعض معلمي أركون الكبار حتى ينكشف عمق منهجه:

ثيودور نولدكة ١٨٣٦ ـ ١٩٣٠

مستشرق ألماني تعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والعربية، وعمل أستاذا للتاريخ الإسلامي في جامعة جوتنجن ومن أهم مؤلفاته (أصل وتركيب القرآن، هل لمحمد معلمون نصارى) تأمل العناوين.

يقول أركون عنه ص٢٦٤: (كانت لنولدكة الميزة الكبرى في أنه أدخل للمرة الأولى منذ القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، السؤال الذي لا مفر منه والخاص بالتاريخ النقدي للنص القرآني) كلمات كالجبال لكنها ليست سوى رغوة هائلة تملأ الحفرة العلمانية. لنتفحص هذه الرغوة، وما قاله نولدكة عن الإسلام حتى نتعرف على سر إعجاب أركون به.

ثناء نولدكة على الإسلام ونبيه

يقول نولدكه في كتابه (حياة النبي محمد) : (إننا لكي نصدر حكما صحيحا وعادلا على محمد يجب ألا نتأمله قط في حياته كنبي وداع وحاكم، بل نتأمله أيضا في حياته ومعاملاته مع أتباعه وأصدقائه وفي حياته اليومية، فإن عددا لا يحصى من الشواهد والأدلة الصادقة يبرز صورته في ضوء بهيج، وأنه يملك أنبل الخلق والإيمان برسالته في العودة بالناس إلى الدين الصحيح، ينجيهم من العذاب المقيم، ويمكنهم من نعيم السماء ـ التبشير والاستشراق ٨٠)

هذا أفضل ما قاله نولدكة عن النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام، لكن لو استمر ثناؤه طيلة حياته على هذه الطريقة فلن يساوي شيئا أمام الكلمات المتعصبة التالية والتي لا تتجاوز سطرا. إنه يقول: (إن سبب الوحي النازل على محمد هو ما كان ينتابه من داء الصرع)

هذا هو نولدكة الذي يمجده أركون، والذي يراه ضمن المعلمين الكبار الذين تميزوا بالموضوعية. الموضوعية العلمية التي توصلت إلى أن داء الصرع ينتج عنه أعظم كتاب قرأه الإنسان، الكتاب الذي غير وجه العالم هو إفراز مرضي، والإعجاز العلمي الذي أذهل العلماء التجريبيين ناتج عن داء الصرع، فلنتجه إلى مستشفيات الأمراض العصبية والنفسية علنا نجد رجلا يخرج هذا العالم مما هو فيه.

سنوك هجروينية ١٨٥٧ـ ١٩٣٦م

المستشرق (سنوك) هو أحد المعلمين الكبار الذين ـ في نظر أركون ـ استطاعوا قراءة القرآن قراءة علمية وجديدة، دون أن يكون مدفوعا بخلفية ثقافية تؤثر على نتائج قراءته التي يفضلها أركون، هكذا يصفه تلميذه الوفي، ولأن سنوك موضوعي في نقده ومحايد في حكمه، فمن الضروري إلقاء نظرة على علمية هذا الرجل وحياديته وموضوعيته.

خلفية سنوك الثقافية

كان أبوه قسيسا ودرس اللاهوت المسيحي في كلية أنشئت خصيصا لإعداد رجال الدين والقساوسة، ثم درس اللغة العربية والإسلام، وكانت رسالة تخرجه عن الحج سنة ١٨٨٠، ولمعرفة أثر خلفية هذا الرجل الثقافية وأخلاقه العلمية لن نجد أفضل ممن تعاملوا مع هذا الرجل مباشرة. من أندونيسيا حيث وصل سنوك ليعمل موجها

للحملة التبشيرية التنصيرية والاستعمارية الهولندية، يتحدث رئيس مجلس علماء الإسلام في إندونيسيا الشيخ عمر شهاب في حواره لمجلة (الوعي الإسلامي) عندما سئل : تعرَّضت إندونيسيا للكثير من مؤامرات تشويه صورة الإسلام، فكيف تصديتم لهذه المؤامرات وحميتم الشعب الإندونيسي من أخطارها؟
فأجاب قائلا : هناك مؤامرات معادية بدأت في عهد الاستعمار الهولندي، حيث تكوَّنت نخبة هولندية برئاسة المستشرق (سنوك هور خورنيه) لدراسة علوم الإسلام، وقد اتضح لهذه اللجنة أن الإسلام يقوم على مصدرين أساسيين هما القرآن الكريم والسنَّة النبوية، فدرسوا اللغة العربية دراسة جيدة، وكتبوا الكثير من المؤلفات والدراسات والمقالات التي تحتوي على كثير من المغالطات عن الدين الإسلامي الحنيف. وأضاف: في العام ١٨٨٤م تنكَّر (سنوك هورخورنية) في ملابس رجل مسلم مُحرم، وأطلق على نفسه اسم (الدكتور عبد الغفار)، وذهب إلى الحجاز للمزيد من الدراسات عن الإسلام، وكان منهج بحثه هو الوقوف على مواطن الضعف بين المسلمين، ولما عاد من رحلته قدَّم إلى حكومته تقريراً يهدف إلى بث الفرقة بين المسلمين الذين يمثِّلون الأغلبية الساحقة في إندونيسيا، وزرع بذور الفتنة والمنازعات بين المسلمين، ثم تشويه الإسلام لدى الشباب المسلم، وذلك بدسّ المغالطات في تعاليمه وأحكامه، ومسخ تاريخ الإسلام حتى يُعرض عنه الشباب المسلم. واستطرد: وقد بدأت هولندا في تنفيذ مخططها وذلك بوضع مناهج دراسية جديدة للمعاهد والمدارس في إندونيسيا تحقق أهدافهم، وكان هذا بناء على توصية من المستشرق الهولندي (سنوك هور خورنيه) التي جاء بها: (في مواجهتنا للإسلام من الضروري:
- فصل الأمة الإسلامية عن دينها، وذلك بوضع منهج تعليمي مخطط.
- وأي صحوة إسلامية يجب تحطيمها)
أليست هذه هموم أركون؟! لقد تظاهر هذا المستشرق (القس) بالإسلام وبرع في دور المنافق، لدرجة أن أحد أمراء إندونيسيا انخدع فزوجه ابنته، وتوطدت علاقته مع بعض علماء مكة، وقد قام بعمل تجسسي لجمع المعلومات عن المسلمين في إقليم آتشيه، الذين ثاروا على هولندا حيث أولوه احترامهم وثقتهم، لكنه خانهم وأوصى الحكومة الهولندية باتباع سياسة العنف معهم وإبادة علمائهم، ومن خلال تقاريره قدم المبررات لإبادة المسلمين في آتشيه، لدرجة أن القائد العسكري الذي أباد قرى كاملة برجالها ونسائها وأطفالها وبهائمها، حتى تجاوز عدد المسلمين الذين أبيدوا مائة ألف مسلم ومسلمة، هذا القائد الجزار منح لقبا قد يريح نفسية أركون المريضة هو: (سيف سنوك الضارب).
إن رجلا بهذه العقلية المريضة لا يمكن أن ينجح إلا نجاح اللصوص.. إنهم يثيرون الضحك عند تقديمهم لنتائج دراساتهم، مثل هذه النتيجة المضحكة التي يقول فيها أن محمدًا كان يظن أن يعقوب كان ابنا لإبراهيم في قوله تعالى : (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ). ولن نتحدث عن جهله بلغة العرب التي يقول عنها الطبري ١٢ – ٧٤: (والوراء في كلام العرب ولد الولد) وهي تبين أن

إبراهيم سيبقى عقبه فهو سيولد له ويولد لولده أيضاً، لكن جهل أو تجاهل سنوك المدفوع بحقده الصليبي تبين عندما لمح إلى وجود تناقض بين آيات القرآن الكريم، وخصوصاً بين الآيات المكية والمدنية مدعيا أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان أول الأمر يعتبر يعقوب ابناً لإبراهيم في الآيات المكيّة، ثم عدلها في المدنية حيث جعل يعقوب ابنا لإسحاق، وسنوك لم يكلف نفسه مواصلة البحث، لأن مهمته ليست الاستقصاء والبحث الجاد، بل إلقاء الشبهات والتشكيك فقط، لأنه لو تحدث عن الآيات الأخرى لنسف كل كلامه السابق، فالآيات التي زعم أنها مدنية لم تكن كذلك بل هي مكية، فقوله تعالى (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) هو في آية مكية رقمها "٦" من سورة يوسف المكيّة.

وأيضاً في الآية "٣٩" من سورة إبراهيم المكيّة ورد: (الحَمدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) ولم يقل إسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وكذلك الآية المكية "٢٨" من سورة الذاريات المكية ذكر لولد واحد فقط: (فَأَوْجَسَ مِنهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ).

لا يخجل سنوك من إيراد تلك الترهات في الوقت الذي يبشر بكتابه المقدس الذي يغص بكوراث لا يمكن أن يقبلها حتى المعتوهين، كما سيمر معنا. ألا يخجل أركون من سيرة هذا الرجل المنحطة وأسلوبه السافل في التعامل مع الإسلام، كي يجعله ضمن معلميه الكبار، ألا يخجل أركون من وصف هؤلاء المنصرين الحاقدين بالناقدين؟ أي رؤية يحملها رجل جاء ليسطو على ممتلكات الشعوب ونهب ثرواتهم؟ جاء، لا ليبشر بدينه ولكن ليشوه دين غيره، ألا يخجل أركون من تحيزه للمنصرين على حساب الحقيقة والموضوعية؟ ألا يخجل أركون من كلمات أستاذه الذي يقول: (في مواجهتنا للإسلام من الضروري فصل الأمة الإسلامية عن دينها، وذلك بوضع منهج تعليمي مخطط، وأي صحوة إسلامية يجب تحطيمها) لو تأملنا كلماته العلمية الموضوعية المحايدة في قراءته للإسلام: (مواجهتنا للإسلام - فصل الأمة الإسلامية عن دينها - أي صحوة إسلامية يجب تحطيمها)

إن هذه الكلمة (تحطيمها)، ليست لمفكر، إنها لمجرم أو طاغية. إنني عندما أقرأ تلك الكلمات أحس بأنها لأركون لا لسنوك، فأركون تطوع لمواجهة الأمة الإسلامية وليس أدل على ذلك من كتاباته وممارساته خاصة في مسألة الحجاب. وأركون يحاول فصل الأمة عن دينها بمحاولاته المستميتة لإثبات أن القرآن نص بشري لا وحي من السماء، وأخيرا فهو يكتب لضرب الصحوة الإسلامية التي يحاول عزلها عن الإسلام بتسميتها إسلاموية، فضرب الصحوة ضرب للإسلام لأنه ضرب لمن يتبنون الإسلام. وأخير فإن أركون لا يخجل من جعل هذا القرصان الجزار والمستشرق المزور ضمن أساتذته الكبار؟

يقول الدكتور السيد (أحمد فرج) عن تورط سنوك في حرب آتشيه: (إن أفكار سنوك لم تستطع أن تتخلص من المضمون السياسي الذي كانت تحمله دولة

استعمارية مثل هولندا، ومهما حاول أن يظهر بمظهر المتعاطف مع الإسلام كدين عالمي له ثقافة جديرة بالنظر، ولكن كشف تورطه في حرب آتشيه التي شارك في مسئوليتها بوصفه جاسوسا استعماريا لهولندا، وقد أثبت تورطه أن السياسة الاستعمارية وأخلاقياتها تتناقض في مدلولها، كما خاب سعيه في صبغ الحكم الاستعماري بصبغة إنسانية أخلاقية.

ثم ينقل عن (ف. شرودر) قوله في كتابه: (الدراسات العربية في هولندا): (كان سنوك في هذا الخصوص يشبع شخصية طالما أعلن احتقاره لها لاحترافها السياسة غير الأخلاقية، هي شخصية الجاسوس البريطاني (لورانس العرب) الذي كان يحلم بالشيء نفسه بين العرب والبريطانيين)

إن سنوك الهولندي أو على الأصح (جيمس بوند الهولندي) هو رجل مخابرات ومباحث لا باحث، وقس يرتدي ملابس المستشرقين، ولص يرتدي ثياب الزهاد، هؤلاء هم أساتذة أركون الكبار وهذا هو حيادهم عند الحديث عن الإسلام وقرآنه ونبيه، وهذا هو موقفهم من الذين يدينون به، فلا عجب أن يحتذي خطا سنوك، فيصف كتاب بوكاي العلمي التجريبي بأنه هزيل جداً، ويصف كتاب جارودي بالهزيل، ولا عجب أن يحذو أركون خطى سنوك في محاولة تحطيم الصحوة الإسلامية التي يسميها إسلاموية، ولا عجب أن يختاره شيراك رئيس فرنسا لدعم قرار منع الطالبات المسلمات من لبس الحجاب في فرنسا، وقد طار أركون فرحا ولم يتردد لحظة واحدة في تأييد منع الحجاب (أحد مظاهر الإسلاموية)، وكيف يتردد وهي فرصته التي لا تعوض لإثبات أنه يسدد ما عليه من فواتير بانتظام، وأنه أهل لثقة فرنسا التي لم تمنحه كرسي مدير معهد الدراسات العربية والإسلامية في السوربون عبثًا أو إعجابا بعبقريته، وكيف يتردد وهي فرصته في إعاقة مظهر من مظاهر الإسلاموية التي تثير عصبيته، وتجعله يهرب مما هو فيه إلى الغياب المدمن الذي لا يصحو منه إلا لتشويه الإسلام والهجوم عليه، اقتداء بأساتذته الكبار نولدكة وسنوك. وإن كان أركون – وهو لاشك سيفعل – لن يتحدث عن تلك العملية المخابراتيه لمعلمه سنوك.

إن نموذج العظم – أركون يجسد ظاهرة عصابية لا علاقة لها بالعلم ولا بالفكر، ومهما حاول أركون أن يحشر مئات المصطلحات الغربية، ويخترع مئات المصطلحات العربية الغامضة مثل: الإسلاموية والتاريخوية أو التاريخانية، فلن يجعل منه مفكراً، ومهما رسم من دوائر وخطوط ومثلثات فلن يكون عالماً تجريبياً، ولن ينقص من قدر كيث مور وبوكاي وجورنجر وبرسود ومارشال جونسون وغيرهم من العلماء التجريبيين، لن ينقص من قدرهم ولا من نتائج بحوثهم العلمية أن يشتمها أركون، أو يدعي العظم معرفتها وهو جالس على طاولة يصفق لمومياء الشيوعية. ولن تجدي تلك الترسانة من الإرهاب الفكري الذي يمارسه العلمانيون العرب للسيطرة على عقول قرائهم، وتخويفهم من التخلي عنهم والإنصات إلى صوت العقل الذي يحاولون اختطافه.

قد يقول أركون أن هذا الطرح سياسي أو إيديلوجي تجاه معلميه الكبار، والإجابة هي: متى كان معلموه الكبار أبرياء في سلوكياتهم وتنظيرهم وكتاباتهم عن الإسلام لا من الإيديلوجيا فقط، بل من الإجرام والمذابح والشتم.

فضيحة اكتشاف أركون للعقل التأسيسي للإسلام

من اكتشافات أركون المخجلة أن القرآن لا يقود للعلم بل للدهشة. وهو يعتبر القرآن والسنة هما العقل التأسيسي الإسلامي، ومفهوم العقل الإسلامي التأسيسي كما يقول د.الفجاري هو (العقل المؤسس لمختلف العقول الفرعية داخل الفضاء الإسلامي، كما نقصد به أيضاً العقل المؤسس في القرآن والحديث لأول مرة، باعتبارهما النصين المؤسسين لكل تجليات الفعل الحضاري الإسلامي ثقافياً وعلمياً وأدبياً وأخلاقياً ولاهوتياً...الخ. فالعقل الإسلامي التأسيسي هو إذن النواة الأولى التي انبجست عنها كل العقول الإسلامية، ولذلك يعتبر البحث في طبيعة العقل القرآني عند أركون أهم المنطلقات للإمساك بناصية العقل الإسلامي كله)

لكن الذي وجده أركون في هذا العقل التأسيسي: إنه عقل لا يقود للعلم واكتشاف الكون، يقول د.الفجاري: (كثيراً ما يكرر أركون أن العقل القرآني هو عقل لا يفسر العالم، وإنما هو عقل ينبهر بالخلق وهو يعكس دهشة المؤمن وعجبه من معجزة "كن فيكون"..... ويرى تبعاً لذلك أن العقل الإسلامي التأسيسي هو عقل عاجز عن اكتناه العالم بذاته، ولذلك يتحول الى تذوقه بدل تحليله، فهو عقل الدهشة أمام "عجائب المخلوقات") وهو أمر يتفق معه فيها أدونيس كما مر معنا.

هذا الاكتشاف الخارق لأركون مدعوم بأدلة خارقة أيضاً، ولا تقل هراءا عما سبق، فالفجاري يقول: (ولإثبات ذلك قام "أركون" بدراسة أدبية ولغوية إحصائية لمفردات القرآن. ففي إطار الدراسة اللغوية الإحصائية درس مفردات المكان والزمان فبين أن تردد مفردات مثل:

الأرض (٤٥١ مرة) والسماء (٣١٠) والعالمين (٧٣)

والبحر(٤٢) والشمس(٣٣)...الخ،

وأن مفردات مثل قبل (٢٤٢مرة) وبعد (١٩٩)

سنة (١٩) وعام (٩) وشهر (٢١)...الخ

هي كلها مفردات تبدو مجسدة لمعرفة واقعية وضعية إيجابية "وهي تتلقى في القرآن معاملة دقيقة بسبب ضرورة تنظيم أمور العبادة"، ولكن كل هذه المفردات "لا تستخدم في القرآن لذاتها وإنما كنوع من العلامات والرموز الدالة الى أشياء أخرى تتجاوزها"، وهذه الأشياء تجتمع كلها في الحكمة الإلهية الخارقة في خلقه للكون)

هذه المعلومات والإحصاءات المزيفة!!! يتم تسويقها للفرنسيين لثقته أنهم لن يقوموا بالتعقيب عليها ومراجعتها. وأركون نفسه يدرك قبل غيره أن هذه الأرقام البالغة الدقة مجرد أكاذيب لا يستطيع هو ولا المعجبون به إنكارها، فالحديث عن الكون ومفردات الزمان والمكان في القرآن يرمي إلى أهداف وحكم كثيرة وليست لهدف واحد بعينه.

مفردة (الجبال) على سبيل المثال مفردة جغرافية جيولوجية، يتحدث عنها القرآن لأهداف عدة، وليست للدهشة فقط كما يقول أركون، ومن هذه الأهداف:
هناك حديث عن الجبال من أجل أمور العبادة، مثل قوله تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم)
وهناك حديث عن الجبال في أمور العقيدة، مثل قوله تعالى: (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا) وقوله: (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) حيث تتحدث الآيات عن أحداث يوم القيامة، وهي من أمور الغيب.
وهناك حديث عن حركة الجبال ودورانها تبعا لدوران الكرة الأرضية، وحديث عن وظيفة الجبال الجيولوجية، وهو حديث ينسف هراء أركون الذي يقول: (كلها مفردات تبدو مجسدة لمعرفة واقعية وضعية إيجابية "وهي تتلقى في القرآن معاملة دقيقة بسبب ضرورة تنظيم أمور العبادة"، ولكن كل هذه المفردات لا تستخدم في القرآن لذاتها وإنما كنوع من العلامات والرموز الدالة الى أشياء أخرى تتجاوزها) فقوله تعالى: (ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا) فالمفهوم المتداول حتى القرن العشرين عن الجبال هو أن الأرض جزء مرتفع من الأرض.
أما القرآن فجاء بحقيقة "وتدية الأرض"، وأن الجزء الأكبر من الجبل هو المغروز في الأرض، كالوتد تماما، وليست مهمة القرآن أن يتحول إلى كتاب تقني، فعلى الإنسان أن يكتشف بما آتاه الله من قدرات تلك الحقيقة، ففي قوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) هذه الآية توحي بدوران الأرض، فالسحاب يتحرك دائريا حول الأرض، والجبال في الآية تتحدث عن مرور الجبال مر السحاب، مع التنبيه أن الآية في ظاهرها لا تتحدث عن يوم القيامة، لأن الجبال يوم القيامة لا تجمد أمام الناظر، بل يرى الإنسان نسفها نسفا بعينيه، ويراها تتطاير كالقطن المنفوش، لكنه الأسلوب القرآني المعجز، والذي يناسب كل زمان، ويتنزل لكل العقول، والذي يجعلني أرجح ذلك هو أن بقية الآية تقول: (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وهو يتناسب مع قوله تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت) وهذا الحديث القرآني يحث العقل المسلم على مزيد من الكشف في ذات الجبال ووظائفها، ولا أدل على ذلك من براءات الاختراع التي توصلت إليها أخيرا ثلاث طبيبات حول الإبل، واكتشاف الشيخ الزنداني لعلاج الإيدز، وبراءة الاختراع التي حصل عليها الكيميائي عبد الباسط بدر مستوحاة من سورة "يوسف"، كل تلك وغيرها الكثير كان مأخوذا بتحريض من نص القرآن، لا بالدهشة منه ومن الكون فقط، إن هذه السطحية الأركونية مقارنة بالعمق في تناول القرآن عند العلماء التجريبيين منهم يدعونا إلى التساؤل عن الإيديلوجيا السوداء التي تحرك هذا الرجل، وهذا العصاب الذي يصيبه عند تناول القرآن يذكرني بقول الله: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون (٤٥))

وبقولـه: (وإذا قـرأت القـرآن جعلنـا بينـك وبـين الـذين لا يؤمنـون بـالآخرة حجابـا مستورا (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنـة أن يفقهوه وفـي آذانهم وقـرا وإذا ذكـرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا)
وتفنيدا لمقولـة أركون المتهافتـة عن اقتصار القرآن والسنة على تقديم الدهشة لمعتنقيهما، يقدم ابن حزم قبل ألف عـام درساً لأركـون والمعجبين بمواقفـه، فهذا المحدث الفقيه يستنبط من القرآن والسنة برهانـا سـاطعا علـى كرويـة الأرض، فـي الوقت الـذي تحـرق الكنيسة مـن يقـول ذلـك، المـدهش فـي ابـن حـزم أنـه يـستنبط المعلومة من أحكام العبادة، ففي كتابه (الفصل في الملل ٢ ـ ٧٨) تحت عنوان:

مطلب بيان كروية الأرض

يقـول ابـن حـزم: (وجوابنـا وبـالله تعـالى التوفيـق أن أحـد مـن أئمـة المـسلمين المستحقين لاسم الإمامة بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسنة قد جـاءت بتكويرهـا، قـال الله عز وجل [يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل] وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذ من كـور العمامـة وهـو إدارتهـا، وهذا نـص علـى تكوير الأرض ودوران الشمس، كذلك وهي التي منها يكون ضوء النهـار بإشراقها وظلمة الليل بمغيبها، وهي آيـة النهـار بنص القرآن قـال تعالى [وجعلنـا آيـة النهـار مبصرة] فيقال لمن أنكر مـا جهل مـن ذلك مـن العامـة: أليس إنمـا افترض الله عز وجل علينا أن نصلي الظهر إذا زالت الشمس؟ فلا بد من نعم.
فيسألون عن معنى زوال الشمس؟ فلا بـد مـن أنـه إنمـا هـو "انتقـال الـشمس عن مقابلة من قابل بوجهه القرص، واستقبل بوجهـه وأنفـه وسط المسافة التـي بـين موضع طلوع الشمس وبين موضع غروبها في كل زمـان وكل مكـان، وأخذها إلـى جهـة حاجبـه الـذي يلـي موضـع غـروب الـشمس" وذلـك إنمـا هـو فـي أول النـصف الثاني من النهار، وقد علمنا أن المداين مـن معمـور الأرض آخذة علـى أديمهـا مـن مشرق إلى مغرب، ومن جنوب إلى شمال.
فيلزم من قال أن الأرض منتصبة إلا على غير مكورة، أن كل مـن كـان سـاكنا فـي أول المـشرق، أن يصلي الظهر فـي أول النهـار ضرورة ولا بـد، أثـر صـلاة الـصبح بيسير، لأن الشمس بلا شك تزول عن مقابلة ما بين حاجبي كل واحد منهم في أول النهار ضرورة ولا بد أن كان الأمر علـى مـا تقولـون، ولا يحل لمسلم أن يقول: أن صلاة الظهر تجوز أن تصلى قبل نصف النهار، ويلزمهم أيضا أن من كان ساكنا في آخر المغرب، أن الشمس لا تزول عن مقابلة ما بين حـاجبي كـل واحـد منـهم إلا فـي آخـر النهـار فـلا يـصلون الظهـر إلا فـي وقـت لا يتـسع لـصلاة العـصر حتـى تغـرب الشمس، وهذا خارج عن حكم دين الإسلام، وأما من قال بتكويرها فإن كل من على ظهر الأرض لا يصلي الظهر إلا أثـر انتصاف نهـاره أبـدا، علـى كـل حـال وفـي كـل زمان وفي كل مكان وهذا بين لا خفـاء فيـه وقـال عز وجل: [سبع سموات طباقـا] وقال تعالى: [ولقد خلقنـا فوقكم سبع طرائـق] وهكذا قـام البرهـان مـن قبـل كـسوف

الشمس والقمر بعض الدرارى لبعض على أنها سبع سموات، وعلى أنها طرائق، وقوله تعالى طرائق يقتضي متطرقا فيه وقال تعالى: [وسع كرسيه السموات والأرض] وهذا نص ما قام عليه البرهان من انطباق بعضها على بعض، وإحاطة الكرسي بالسموات السبع وبالأرض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [فأسالوا الله الفردوس الأعلى فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوق ذلك عرش الرحمن] وقال تعالى: [الرحمن على العرش استوى] وأخبر هذان النصان بأن ما على العرش هو منتهي الخلق ونهاية العلم) ثم ساق ابن حزم كلاما طويلا في إثبات كروية الأرض من القرآن الكريم.
قال الفقيه ابن حزم هذا القول في القرون الوسطى، تلك القرون التي كانت فيها الكنيسة تعدم من يقول بكروية الأرض، وتمارس بيع أراض في الجنة نقدا وبالتقسيط ودون كفيل، حيث كان القس يغفر لمن يشاء ويحرق من يشاء.
بهذا الفكر كانت الأمة الإسلامية تعيش، وبهذه الطاقة كان القرآن يشحن أتباعه، ولما غيب العلماني العربي هذه الطاقة تحولنا إلى عالة ثقيلة على العالم الغربي والشرقي معا، وتحولت الأرض التي نعيش عليها إلى مساحة جغرافية للتخلف.
وقبل أن أختم الحديث عن أركون أود أن أورد فضيحته مع الأرقام، وهي تهم المهتمين بالرياضيات أكثر من غيرهم، لذا بإمكان القارىء تجاوزها إلى المبحث التالي، وقد كتبتها وما فيها من نقولات مدهشة، فقط لأبين مدى إلصاق أركون نفسه بلغة الأرقام من أجل توظيفها في الطعن في القرآن الكريم، ثم أبين أقوال المتخصصين بهذه اللغة وذهولهم مما اكتشفوه.

فضيحة أركون مع الأرقام

أرقام تحرك عقول الرياضيين لكنها لا تحرك عقل أركون الخشبي
إذا كانت إيديلوجية أركون توظف الأرقام توظيفا مكشوفا وسطحياً، فلا أظن عقليته المسطحة تستطيع تفسير هذه الظاهرة الرقمية في القرآن، إنها ظاهرة بالنسبة لنا، لكنها بالنسبة لعلماء الرياضيات إعجاز.
يقول أركون: ذكرت كلمة شهر (٢١) مرة. والصواب أنها تكررت (١٢) مرة.
وعلى ذلك فقس من الأخطاء. لكن الملاحظ أن (١٢) تساوي عدد أشهر السنة، وما لا يعرفه أركون أن كلمة (يوم) ترددت في القرآن (٣٦٥) أي عدد أيام السنة. هذا التوافق المذهل لا يعجب أركون، لكن لو وظفناه توظيف أركون، لما أعجب أركون أيضا، فتكرار اليوم أكثر من غيره يؤكد ربط المسلم بواقعه اليومي، وأن أهمية اليوم تعني أهمية الإنجاز اليومي واستغلاله وعدم التفريط بساعاته ودقائقه.
يقول أركون أن كلمة بحر ترددت (٤٢) مرة. والصواب هو أنها تكررت (٣٢) مرة. أما الذي يجهله أركون فهو أن كلمة (البر) قد وردت (١٢) في القرآن مرة، وبضمنها كلمة يبسا (بمعنى البر)، ونسبة تكرار كلمة البر لكلمة لبحر (١٢/٢٣) هي تماما نسبة مساحة البر إلى البحر على سطح الأرض الذي أي (١٢ / ٣٢)

فكيف يفسر أركون هذا التوافق العددي العجيب؟ ربما كان لدى عثمان أقمارا صناعية قاس بها تلك النسبة، وقام بعدها بتلاعباته الرقمية، سيأتي يوم يقول فيه أركون ذلك..! كل شيء جائز مادام الكاتب هو أركون. ولعل من التلاعبات التي تثير جنون أركون هذه المعلومة:

علمياً للحديد وزن ذري ومعه خمسة أوزان ذرية، الوزن الذري الأوسط ٥٧، المدهش رقميا أن ترتيب سورة (الحديد) في المصحف هو الرقم (٥٧)... كما أن العدد الذري للحديد هو (٢٦)، والمدهش أن رقم الآية التي ذكر فيها الحديد في السورة نفسها باعتبار البسملة هو (٢٦)

وإذا كان أركون يتلاعب بالأرقام ويزيفها ليوظفها توظيفا إيديلوجيا، متوهماً أن لا أحد سيعقب عليه ثقة به، فإنني سأسوق بعض المعلومات الرياضية من بعض المتخصصين، لكشف الفضيحة الأركونية الرقمية، وبإمكان القارىء تجاوزها، فهي مجرد إشارات لا أكثر.

علم الرياضيات لا إيديلوجية له. الباحث الرياضي المتخصص "عبد الله جلغوم" قام بدراسة رياضية تكشف تلاعبات أركون حول ترتيب القرآن، ليس بالأحاديث والمرويات، بل بشيء عجيب ومذهل، بالرياضيات الحديثة. يقول "جلغوم" في مقدمة بحثه: (اهتم المسلمون ومنذ القرون الأولى بالعدد القرآني، وقد ذكر الدكتور غانم الحمد محقق كتاب "البيان في عد آي القرآن" لأبي عمرو الداني، ذكر ٣٦ كتاباً في علم العدد القرآني، ابتداء من كتاب العدد لعطاء بن يسار المتوفى سنة ١٠٣ هجرية، وانتهاء بكتاب زهر الغرر في عدد آيات السور لأحمد السلمي الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٧ هجرية، إلا أن هذا الاهتمام لم يتطور عبر العصور ليعطي النتائج المرجوة، فالقرآن كلام الله العظيم الذي خلق الكون وأبدعه، وأحصى كل شيء عدداً، فالمتوقع أن يكون هذا الكتاب على خلاف ما يعهد من كتب البشر القاصرين. من هنا فقد آن الأوان لنتعامل مع القرآن الكريم بما يليق بجلال مُنَـزِّله، وعظيم إعجازه. فهو المعجزة الفكرية المتصاعدة بتصاعد الوعي البشري، فالناس اليوم هم أقدر على النقد والتقييم بما أوتوا من العلوم الحديثة والوسائل المعاصرة)

ثم يقول جلغوم: (اختلف العلماء في ترتيب السور القرآنية، فذهب الجمهور إلى أن ترتيب السور توقيفي، أي من فعل الرسول عليه السلام وحياً. وذهب البعض إلى أنه من اجتهاد الصحابة، وذهب السيوطي إلى أن الترتيب هو توقيفي باستثناء سورة التوبة والأنفال، ومن يتتبع الأدلة التي جاء بها من قال أن الترتيب من اجتهاد الصحابة يجد أنها لا تقوم بها حجة، ولا يستقيم على أساسها دليل، وليس هذا مقام التفصيل، ولكننا لاحظنا أن القول بعدم توقيفية الترتيب يقوم على أدلة غير صريحة، في حين يقوم القول بتوقيفيّة الترتيب على أدلة صريحة)

ثم يكشف جلغوم عن أسرار عددية وترتيب مذهل لا يمكن أن يصدر عن بشر قبل ١٤٠٠ عام، ولا يمكن أن يتوفر لكتاب هدفه الأول هداية الناس إلى التوحيد، إلا إذا كان هذا الكتاب صادر عن الله العزيز الحكيم. يقول الأستاذ جلغموم: (القرآن الكريم ١١٤ سورة، إذا قمنا بجمع الأعداد الخاصة بترتيب السور هكذا نجد العدد التالي:

١+٢+٣+......+١١٤ = ٦٥٥٥

وهنالك قاعدة في الرياضيات لحساب هذا المجموع وهي:

العدد مضافاً إليه ١ مضروباً في نصف العدد الأصلي، أي:

(١١٤ + ١) × ١١٤ ÷ ٢ =

١١٥ × ٥٧ = ٦٥٥٥

والسؤال هنا :

هل لـهذا المجموع ٦٥٥٥ علاقة بمجموع آيات القرآن، والذي هو ٦٢٣٦ آية؟

هناك ٦٠ سورة زوجية الآيات، مثل: البقرة ٢٨٦ آية، والنساء ١٧٦ آية....إلخ؛ بالتالي يكون عدد السور فردية الآيات هو ٥٤ سورة مثل الفاتحة ٧ ، التوبة ١٢٩ ....إلخ.

السور الزوجية الـ ٦٠ تنقسم إلى ٣٠ سورة رقمها في ترتيب المصحف زوجي، و ٣٠ سورة ترتيبها فردي.

أما السور الـ ٥٤ الفردية فتنقسم إلى ٢٧ سورة رقمها في ترتيب المصحف فردي، و ٢٧ ترتيبها زوجي، وهذه نتيجة للتوازن السابق. كما يلي:

عدد سور القرآن الكريم هو: ١١٤ سورة

سور عدد آياتها زوجي	سور عدد آياتها فردي
٦٠	٥٤

سور ترتيبها زوجي	ترتيبها فردي	ترتيبها زوجي	سور ترتيبها فردي
٣٠	٣٠	٢٧	٢٧

يترتب على ما سلف أن يكون هناك ٥٧ سورة متجانسة، أي زوجية الآيات زوجية الترتيب، وفردية الآيات فردية الترتيب، مما يعني أن هناك أيضاً ٥٧ سورة غير متجانسة.

والآن: إذا قمنا بجمع أرقام السور المتجانسة، وأضفنا إليها عدد آيات كل منها، فسنجد أن حاصل الجمع هو ٦٢٣٦ وهذا هو مجموع آيات القرآن الكريم. وإذا قمنا بجمع أرقام السور ال ٥٧ غير المتجانسة، مع عدد آيات كل منها، فسنجد أن حاصل الجمع هو ٦٥٥٥ وهذا هو مجموع أرقام سور القرآن الكريم من ١-١١٤

بهذا يثبت أن هناك علاقة بين رقم كل سورة وعدد آياتها، بحيث يكون لدينا إحداثية تقتضي ارتباط رقم السورة بعدد آياتها، وارتباط هذا بكل سور القرآن الكريم.

هذا ينطبق على كل سورة من السور الـ ١١٤

وعلى ضوء ذلك إذا قمنا بحساب احتمال المصادفة وفق نظرية الاحتمالات، فسوف نجد أنفسنا أمام عجيبة من عجائب القرآن الكريم، تُثبت أن ترتيب السور وعدد الآيات هو وحيٌ من الله العزيز الحكيم:

(١١٤+١) × ٦٠ ÷ ٢ = ٣٤٥٠

(١١٤+١) × ٥٤ ÷ ٢ = ٣١٠٥

المجموع = ٦٥٥٥

من الأمور المدهشة أن نجد مجموع أرقام السور ٦٠ الزوجية في القرآن الكريم هو ٣٤٥٠ ، وبالتالي يكون مجموع ترتيب ال ٥٤ الفردية هو ٣١٠٥ ، لأن المجموع الكلي لا بد أن يكون ٦٥٥٥ لأن:

(١١٤+١) × ١١٤ ÷ ٢ هو في حقيقته (١١٤+١) × ٦٠ + ٥٤ ÷ ٢

نقسم سور القرآن الـ ١١٤ إلى قسمين:

١-٥٧ * ٥٨-١١٤.

إن الأرقام الفردية في النصف الأول هي ٢٩ رقما، وبالتالي تكون الزوجية ٢٨ أما في النصف الثاني فتكون الأرقام الفردية ٢٨ وبالتالي تكون الزوجية ٢٩.

السور المتجانسة في النصف الأول هي ٢٨ سورة، وغير المتجانسة ٢٩ سورة. وفي النصف الثاني يكون عدد السور المتجانسة ٢٩ وغير المتجانسة ٢٨.

إن السور زوجية الآيات في النصف الأول من القرآن الكريم هي ٢٧ سورة، وبالتالي تكون السور الزوجية في النصف الثاني ٣٣ سورة، وأن مجموع آيات السور الزوجية ال ٢٧ في النصف الأول هو ٢٦٩٠ وهو مجموع أرقام ترتيب السور الزوجية ال ٣٣ في النصف الثاني.

١١٤ = ١٩ × ٦ = ٦٠+٥٤

٥٧ = ١٩ × ٣ = ٣٠+٢٧

وعلق المهندس عبد الدائم على ذلك بقوله: (لابدّ أيها القارئ أنك تأثرت كما تأثرتُ أنا بعظمة هذا الإحكام وعظمة هذه التناسقات العددية، التي لم تكن لتأتي بالمصادفة العمياء. فتأمل معي كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل التوازن في كل شيء في كتابه المجيد. فكما نعلم لا يوجد نظام لعدد آيات كل سورة من سور القرآن، وهذا ما يظنه البعض، بسبب عدم وجود ترتيب ظاهر في عدد آيات كل سورة. فمثلاً عدد آيات أول سورة في القرآن هو ٧ آيات ثم تأتي السورة الثانية وعدد آياتها ٢٨٦ ثم السورة الثالثة وعدد آياتها ٢٠٠ وهكذا لا نرى نظاماً ظاهراً. ولكن الشيء الجديد الذي يقدمه هذا البحث هو إثبات وجود نظام عددي لعدد آيات كل سورة من سور القرآن، وأن هذا النظام سيختل لو تغير ترتيب السور أو عدد آياتها، مما يدل على أن الله حفظ كتابه رسماً ولفظاً وتلاوة وترتيباً. ولاحظ معي كيف أن السور ذات الآيات الزوجية جاءت منقسمة إلى قسمين متساويين، لنجد أن عدد السور ذات الترتيب الزوجي هو ٣٠ وعدد السور ذات الترتيب الفردي هو نفس الرقم أي ٣٠. فتأمل هذا التوازن العددي، هل هي المصادفة أم الترتيب الإلهي؟! ولاحظ معي أيضاً العلاقة بين عدد آيات القرآن ٦٢٣٦ ومجموع أرقام سور القرآن ٦٥٥٥، وعلاقة كل ذلك بالسور المتجانسة (أي التي عدد آياتها ورقمها متجانس: فردي- فردي، أو زوجي- زوجي) وغير المتجانسة (أي التي عدد آياتها ورقمها غير متجانس: فردي- زوجي، وزوجي- فردي).

أركون بالطبع لا تعجبه هذه الأرقام الرياضية الدقيقة، ولا يريد فهمها لأنها تنسف هراءه وإيديلوجيته، وتتطاير معها تلك الأكوام من المصطلحات التي يوهمنا معها بعمقه، وهي ستحرج علميته المفتعلة، ولن أطيل في ذكر المزيد من الإضاءات الرقمية الرياضية حول القرآن، لأن مكانها ليس هنا، بل عند نقد النص الإسلامي الذي يأتي لاحقا.

وبعد لنتجاوز هذا المستوى من الطرح الساذج والبليد إلى طرح أكثر جدية وعقلانية، حيث المفكر الكبير محمد عابد الجابري، والذي أراه – رغم جديته ورصانته – قد اضطرب كثيراً في منهجيته عند نقده للعقل العربي.

لدي أسئلة تمثل عمق الإشكالية في هذا الموضوع أهمها:

ماذا نعني بالعقل لعربي

الجابري حفر في المكان الخطأ وهروب لا مبرر له

لم يقدم الجابري تعريفا مقنعا للعقل العربي، لا على مستوى التنظير ولا على المستوى التطبيقي، بل هو في الحقيقة لم يتطرق إلى ما سماه بـ(العقل العربي)، فالعقل الذي يتحدث عنه الجابري هو في حقيقته ليس عقلا عربيا، إنه عقل إسلامي، فالمنظومات الثلاث التي قدمها الجابري كمشكل لبنيته وتكوينه: (البيانية، والعرفانية، والبرهانية) لم تقدم على أنها منظومات عربية، وعلماؤها ومفكروها ومنظروها لا يقدمون أنفسهم كمفكرين عرب، تلك المنظومات نتاج إسلامي صرف، فالبيانية بشقيها اللغوي والنقلي والنقدي هي إسلامية اللحمة والسدى، لدرجة أن علوم العربية التي من المفترض أن تكون ألصق العلوم بالعقل العربي، لم تكن لولا النص الإسلامي قرآنا وسنة.
فالنحو ما كان ليوجد في مجتمع شفهي أمي لولا تحوله إلى مجتمع مثقف، ولولا الحرص على فهم القرآن والسنة وتفسيرهما، حتى النقط على الأحرف ابتكر لتمييز الحروف المتشابهة للقرآن كالباء والتاء والعين والغين، ثم تم استعماله في الكتابة العربية. الشعر نفسه خاصة الجاهلي والمخضرم منه، تم الحفاظ عليه لا لذاته، بل للاستفادة منه كشواهد تفسيرية لألفاظ القرآن، وهذا الهدف أنتج علما هو علم العروض، وهو علم الأوزان الشعرية التي استخرجها الخليل بن أحمد، وقد جعل هذا العبقري الشعر الجاهلي هو النموذج الكامل والمحتذى للشعر بناء، كل ذلك من أجل المحافظة على تفسير النص القرآني.
شيء آخر يتعلق بالشعر نفسه، حيث حدد علماء اللغة زمنا ينطلق من الجاهلية وينتهي بالشاعر (إبراهيم بن هرمة)، فكل شعر داخل هذه المسافة يمكن الاعتراف به كشاهد لغوي وقاموس يفسر به النصين: القرآن والسنة.. البلاغة نفسها نشأت لبيان إعجاز القرآن والسنة اللغوي. إذا كانت ألصق الأشياء بالعقل العربي مخلوقات إسلامية، فكيف بعلوم كالتفسير والفقه والحديث وعلوم العقيدة.

أما إذا إذا اتجهنا إلى الضلع الثاني من أضلاع تلك المنظومة وهو الضلع العرفاني، فإن ذلك الضلع منتج إسلامي أيضا، وهو جنوح بشري مدفوع بميل عاطفي وروحاني يوظف آيات وأحاديث تتناول الجانب الروحي، وقد استغل من الغنوصية المشرقية استغلالا متطرفاً لدرجة الكشف والاتحاد ووحدة الوجود، وماكانت الغنوصية لتطرق أبواب العقل العربي، لولا تلك الجاذبية الروحية التي خلقها النص الإسلامي، ومنظروها يقاتلون فكريا وعقائديا لكي لا تنتفي عنهم صفة الإسلامية، لكنهم لم ينافحوا يوما لإثبات عروبتهم.

أما الضلع الثالث: البرهاني الفلسفي فهو وإن كان يونانيا صرفا تم استحضاره من قبل المأمون ومن بعده لمواجهة الغنوصية اللاعقلانية، إلا أنه قد تم تحويره ليكون إسلاميا متوافقا مع النصوص الإسلامية الكثيرة، التي تمجد العقل وتجعله مناط التكليف وقبول العمل ابتداءً، لقد استمات المتفلسفة المسلمون وقاتلوا قتالا فكريا مريرا كي يجعلوا من فلسفتهم جزءا من أفق النص الإسلامي، ولعل كتاب (فصل المقال فيما بين الحكمة "الفلسفة" والشريعة من اتصال) لابن رشد أقوى الأدلة على ذلك، فهل من طبيعة الفيلسوف التصالح أوالترقيع أو المجاملة، بينما فلسفته تضج بالبحث عن أفق آخر غير معهود، هل صالح الفيلسوف اليوناني "فرفريوس" الكتاب المقدس ورجال الكنيسة الذين سماهم بالمخترعين للدين لا الناقلين، وسمى كتابهم المقدس بالخرافي. أين فرفريوس من ابن رشد وغيره، الذين استماتوا ليثبتوا أنهم على وفاق مع القرآن، وأنهم لا يخرجون عن معناه قيد أنملة. إن أحدا من هذه المنظومات الثلاث لم يزعم الانتماء إلى عقل عربي، حتى ألصق تلك المنظومات بالعربية كانت خلقا إسلاميا فـ:

هل هناك عقل عربي

لا أجد فيما مضى أي وجود لعقل عربي، ما تحدث عنه الجابري ونظّر له كان عقلا إسلاميا فقط، ليس للعربية فيه سوى أن تكون وعاءً جميلا. ولذا وجد طرابيشي أن هذا الوعاء قد خلا من أشياء تمنى وجودها، كالتأثير المسيحي مثلا، وهو محق في ذلك، لأن العقل الذي يتحدث عنه الجابري عقل إسلامي، وبالتالي فمن المفترض بالعقل العربي أن يتسع لأكثر من الإسلامي.. أن يحوي الإسلامي والمسيحي واليهودي والوثني أيضا، بل وكل فكر انتمت إليه فئة أو قبيلة أو إقليم عربي. قد يكون الجابري محقا في أن تلك الأطياف الأخرى داخل العربي كانت باهتة وهامشية، إذا ما قورنت بالزلزال الذي أحدثه النص الإسلامي داخل المحيط العربي والعالم أجمع، وعملية البناء التي شيدها بامتياز غير مسبوق، ولذا فإن تساؤلا يفرض نفسه.. طالما تعامى عنه المفكرون العرب، بل هم يتهربون من طرحه: إذا كان ما مضى منذ عصر البعثة النبوية وحتى الآن عقلا إسلاميا، فأين يكمن ذلك العقل العربي و:

متى تشكل العقل العربي

يتردد العلمانيون العرب - إن لم أقل يخجلوا - من تحديد بدايات تشكل العقل العربي، حتى لا يفقدوا احترامهم داخل الوسط الإسلامي، والذي يمثل الغالبية الساحقة داخل

العالم العربي.. يتحاشى العلمانيون ذلك كي لا يتهموا بالانتكاسة نحو الوثنية، لأن بدايات تشكل العقل العربي بدأت قبل الإسلام مع منظومات عقدية ثلاث: المسيحية واليهودية والوثنية، حيث كانت تلك المنظومات الثلاث تكرس الجهل والتخلف والاقتتال داخل المحيط العربي الذي تنتمي إليه وتشكل جزءا من نسيجه، فاليهودية كانت كالعادة عبارات عن غيتو عنصري يعيش حالة من العزلة المريبة، وأما المسيحية فكانت تنشر الرهبانية والجهل في كل أرض تطؤها، نظرا لحربها الشعواء على العلم والعلماء، لا سيما وأنها كانت تعيش أحلك عصورها استبدادا وظلامية، وقد مارست ذلك كما مر معنا عند الحديث عن المجازر التي ارتكبتها الكنيسة في حق الفلسفة والفلاسفة والعلماء، وكما سيأتي موثقا من مؤرخين مسيحيين حول دور الكنيسة في صنع عصور الظلام في أوروبا، التي طمست وقضت على العقل الفلسفي، خاصة عصور الفلسفة اليونانية، مرورا بقوانين المحرمات التي كانت تصدرها الكنيسة، وهي عبارة عن قوائم بأسماء علماء وفلاسفة تمنع كتبهم وتحرق ويعاقب من يقتنيها إن لم يحرق، ولما دخلت المسيحية بلاد العرب كانت بلادا أمية فزادت في تخلفها وجهلها، وأما الوثنية داخل الجزيرة العربية، فكانت أحط أنواع الوثنيات بأميتها وصراعاتها فكانت هي سمة العقل العربي.

هذا هو العقل العربي الذي أغرق الجزيرة العربية بالدماء دون أفق أو هدف، أو حتى مبرر معقول، آلاف السنوات من الحروب الهمجية المتخلفة بداعي الثأر، ومن أجل بعير أو حصان أو دجاجة أو حتى صحن. كان التمزق والأمية والخرافة عنوانا للعقل العربي كما هو اليوم تماما، وتلك هي الوثنية التي يمجدها أدونيس ويحتفي بها على حساب التوحيد الإسلامي.

فتقرير التنمية العربي يظهر بالأرقام كل عام، أن العالم العربي هو أسوأ من على وجه الأرض في نسبة الأمية والفقر والتخلف الصناعي والزراعي والتقني، فمصر أكبر دولة عربية وأقدمها التصاقا بالحضارات.. عندما كانت جزءا من الدولة العثمانية الإسلامية كانت تستقبل البعثات اليابانية العلمية، وكانت أفضل بكثير من كوريا والصين، واليوم وحسب تقرير التنمية وحسب أقوال علمائها يهرب منها سنويا عشرة آلاف طبيب، وهي أكثر الدول العربية في أعداد الأميين، وكلما قدمت براءة اختراع واحدة، قدمت كوريا (١٦٠٠٠) براءة اختراع كما يقوله الدكتور فاروق الباز نفسه. والعالم العربي بعمومه أقل دول العالم نموا وحرية وديموقراطية وحقوق إنسان، وهو كذلك أكثر دول العالم ولاءً للغرب، كذلك كانت الجزيرة العربية سلة كبيرة يلقي فيها الفرس والروم سخريتهم وتندرهم، كما يفعل الغرب اليوم عبر أفلامه السينمائية ومسلسلاته التلفزيونية وصحفه ومجلاته ورسوم فنانيه، وكانت أجزاءا من أطراف الجزيرة العربية شبه محتلة من قبل الفرس والروم، كما هي اليوم، وكان هناك من العرب من يتقرب للفرس والروم بكل شيء على حساب عروبته، وكان من العرب من يمثل جيبا للفرس والروم، وأداة لتأديب المعادين لهما وحماية حدودهما من بقية العرب كما هو اليوم. إذا

فهناك إعادة إنتاج للعقل العربي (ما قبل الإسلام) اليوم، وإعادة لمرارات ذلك العقل، لا تشهد بذلك العواطف والادعاءات، بل التقارير والأرقام والحالة المزرية التي يعيشها العالم العربي اليوم، فما من مرحلة مر بها العالم العربي مقارنة بمن حوله سياسيا واقتصاديا وعلميا أشبه بحاله اليوم مع حالته قبل الإسلام. ثم جاء الإسلام لا ليكون ضمن نسيج العقل العربي، بل ليغير ذلك النسيج، ليفككه ويعيد خلق هذا العقل العربي من جديد، ويعيد ترتيب أولوياته، وليجعل العقل العربي ضمن طيف النسيج العقلي الإسلامي وتابعا له لا العكس.

جاء القرآن بـ(اقرأ) و(القلم) لينسف الجهل والتخلف بين معتنقيه، وجاء بالتوحيد ليعلن إزاحة ما تراكم من عادات وتقاليد وميول تم إلصاقها به، وبالتالي تشويهه، وجاء بأحكام النظافة وآداب الطعام والشراب والسلوك والتعامل مع الوالدين والجيران والإنسان والحيوان، ليتحول مجتمعه إلى أنظف مجتمع على وجه الأرض حتى اليوم، وجاء بالدولة الإسلامية ليقدم مجتمعا وأنظمة وعلاقات غيرت وجه العالم كله، وأصبح العقل العربي متبوعا بعد أن كان تابعا، ومعلما بعد أن كان ليس متعلما بل أميا، وفاتحا بعد أن كان محتلا، ومبدعا بعد أن كان مخرفا.. كل هذا حدث فجأة، ودون مقدمات أو تراكمات، أو إرهاصات تم توظيفها، ودون خطط عشرية أو خمسية أو دراسات استرتيجية مسبقة.. كل ذلك حدث فجأة وبعد نزول القرآن مباشرة.

كان العقل العربي أمام خيارين لا ثالث لهما: محمد نبي، أم مجنون وكاذب ومفتر وساحر و.... لم يكن محمد بالنسبة للوثنية ومن قبله كأرسطو بالنسبة لأفلاطون، ولا كقيصر وكسرى بالنسبة لأسلافهما.. كان أميا مثل قومه، لا يقرأ ولا يكتب، كان رصيده الصدق والأمانة، وإلا فهناك من هو أكثر منه مالا وولدا وجاها وسلطة. وحتى رسالته.. لم ينسب محمد لنفسه شيئا منها على الإطلاق، إلا أشياء بينها وكشفهاوأبعدها عن الوحي الذي جاء به كحادثة تلقيح النخل.

إذا فتجاوز الجابري وغيره للمرحلة العربية السابقة للإسلام، هو نوع من الهروب من الحقيقة والموضوعية، خجل من التاريخ الحقيقي للعقل العربي، وهروب من سمة التخلف التي صاحبت هذا العقل وتصاحبه متى ما اقتصر على الانتساب للعربي فقط، أو جعل هذا الانتساب حجر الزاوية في انتمائه. قد أجد له عذرا في أن العرب قبل الإسلام لم يكوّنوا دولة، ولم يفتحوا بلاداً، ولم يقدموا فلسفة، ولم يؤلفوا كتابا، ولم ينشئوا مدرسة، لكن من عدم الأمانة العلمية قفز هذه الحقبة، وإلا فإننا نمسح خارطة مهمة من التاريخ، بمسحها لا يمكن فهم التاريخ وبالتالي ماهية العقل العربي.

ما الهدف من معرفة العقل العربي

من يحاول التنظير للعقل العربي، يهدف إلى سبر تكوينه وبنيته وتفكيكها لفرز ما يمكن استبعاده مما يعيق هذا العقل عن الاستمرار في الحياة، وتحرير ما يمكن أن يكون ملائما لمنجزات هذا العصر العلمية والسياسية والاقتصادية، مما يضمن للعقل العربي استمراريته وحضوره، ويمنحه أملا في التقدم، بدلا من هذا التخلف

الذي يعيشه. وبالنسبة لي، فإن هدفا آخر لم يشر إليه أحد ممن تناول العقل العربي بالدراسة والنقد والتحليل، أو حتى الهجوم، رغم أن كل هؤلاء يستشعرونه ويشيرون إليه من بعيد، لكنهم لم يجرؤوا على تناوله، أعني بذلك الكشف عن السر الكامن في عمق التراث في العقل العربي، والذي يمثل الثقل الضاغط، والحضوره اللافت خلال كل العصور منذ عصر النبوة حتى اليوم، لأن مقاربات التراث في نظري كانت هروبية لا تمس القلب النابض للتراث ولا تتناوله – عدا عبثيات وضغائن أركون – التي مرت معنا، بل تكتفي بركنه جانبا ضمن أكداس التراث العالمي ثم تتجاهله، باحثة عن تداعيات قلب التراث من هنا وهناك، مطاردة آثاره التي لا يمكن حصرها، لكن يمكن الاستمتاع بتناول شظية منها والتلهي بها.

لماذا تم الهروب إلى الأمام والخلف

أقصد بالهروب ما مارسه الجابري إلى الأمام ، وما مارسه طرابيشي إلى الخلف، مع استبعاد ما كتبه أركون لأنه لا يعدو مستوى العبثية، فهو لم يكتب شيئا عن قلب التراث، وهو ينفضح فيما سكت عنه لا فيما كتبه، لتبقى منطقة القلب التراثي العربي ضبابية متجاهلة، يتم تناسيها بأسلوب غامض الدوافع والأسباب، فهروب الجابري إلى عصر التدوين كعصر تشكلت فيه ونضجت المنظومات المعرفية الثلاث، هو نوع من ملاحقة التداعيات تماما، وهي عملية ناتجة عن حمل الجابري لواقعه المرير، ثم السير به عبر دهاليز التاريخ بحثا عن عصر مشابه لهذا الواقع، حتى يسهل إقناع القارىء به، وهي عملية يحاول الجابر إقناع نفسه قبل القارىء بها.. لذا وجد أن عصر التدوين كان العصر الأنسب والأكثر شبها بالواقع العربي اليوم حسب ما تخيله هو، لكن ما فعله أستاذ العقل العربي أوقعه في إحراجات علمية وتاريخية صعب عليه التخلص منها، فعصر التدوين كان عصر نتائج ولم يكن عصر إنتاج، كان عصر تداعيات لا خلق، كما أن عصر التدوين يفتقد إلى السمة الملصقة إلصاقا به وهي "العربية" فهو عصر إسلامي صرف. وما يؤكد الحرج الذي وقع فيه الجابري، وما يؤكد أيضا خلل منهجيته، ما فعله بشكل مفاجىء، حيث صدمنا الرجل عند كتابته لـ(العقل العربي السياسي) فقد انتقل فجأة ودون مقدمات نحوالوراء إلى عصر الوحي والنبوة وبشكل مفصل، وتخليه تماما عن عصر التدوين – كعصر بنية وتكوين وخلق، متخليا تماما عن تلك المنظومات الثلاث وعصرها، مما أوقع قراءه في حيرة بالغة.

من أين نبدأ قراءة العقل العربي؟ من عصر التدوين أم من عصر نزول الوحي؟

الجابري بدأ العقل السياسي من عصر النبوة متخليا عن تنظيره السابق، مع أن هذا العصر النبوي لم يدخل في أي منظومة من المنظومات الثلاث التي زعم الجابري أنها شكلت العقل العربي، هذه الانتقائية في التعامل مع مراحل التاريخ تطرح أكثر من تساؤل عن جدوى "نقد العقل العربي" برمته، مع اعتقادي أن انتقال الجابري لم يكن مدفوعا بانتقائية بغيضة كأركون، بل بانتقائية مشاكلة بين التراث والواقع لا أكثر والله أعلم.

الجابري أوقع نفسه بأزمة في التنظير، رغم مجهوده الكبير، فهو يتحاشى الولوج إلى العصر النبوي كمشكل للعقل العربي، لكنه يجعله مرتكز تشكيل للعقل السياسي، وهنا أراه وغيره في حالة ذعر غير مبرر لعدم تناول العهد النبوي، فهو بذلك يقفز المشكّل الأهم في العقل العربي، والأثقل في التأثير على المسيرة التاريخية والحاضرة والمستقبلية للأمة العربية، وكأنه أدونيس في تجاهله لشعر البعثة النبوية حداثيا، مع اختلاف في العقليتين بالتأكيد، فأدونيس مسف جاهز الأحكام إيديلوجي محمل بالمواقف المسبقة، بينما اكتفى الجابري بالتجاوز في صمت محير، ولعل لهذا الذعر ما يبرره إيديلوجيا لا موضوعيا، ومن المبررات الإيديلوجية:

- عدم الوقوع في إحراج مع المفكر العربي غير المسلم.
- الحفاظ على التقمص للغربي الذي يتناول الأديان كلها كمنتج بشري، أو كحد أعلى كرسالة سماوية تم تزويرها بشكل كبير.
- الجهل بمنطقة العمق التراثية.
- التعالي في التعامل مع علم النقل، والشعور بخلوه تماما من أي عملية نقدية أو عقلية. وهذا التعالي والسخرية المصاحبة له أوجد ركاما زائفا حال دون المفكر العربي وقلب تراثه، وأوجد قطيعة أفشلته في إنجاز أي حركة نحو الأمام.
- التخوف من تناول النص الأول خشية الصدام مع الرأي العام والخاص المتبني لهذا النص.
- عدم إدراك سر تغلغل قلب التراث في أعماق الرأي العام وأعماق الغالبية من النخبة المثقفة.
- لم يكن من بين المفكرين العرب تجريبي واحد، وإذا وجد فإنه لا يقدم نفسه كناقد إلا من خلال دراسات أدبية لا علاقة لها بتخصصه مما يفقده صفة التجريبي، ويفقدهم جميعا صفة الدقة في الأحكام وبالتالي الإقناع.

هذا يقودنا إلى أن العلماني العربي لا يملك ابتداءا المؤهل التجريبي لعملية نقد مقدس كالقرآن، وهو المؤهل الفعال الوحيد الذي حمله العلماني الغربي في مواجهة تراثه الكنسي، ونقده لكتابه المقدس ومن ثم إسقاطه.

العلماني العربي يتنازل كل يوم عن نقد من نقوده التي وجهها للتراث العربي، ففي حين كان العلماني الغربي يواجه الكنيسة بأنظمتها ومحاكم تفتيشها ومسالخها ومجازرها، تجاوزها لنقد مرجعها الأول (الكتاب المقدس) وبالتالي أسقطهما معا، وجعل الانتماء إليهما نوعا من الإيديلوجية والتعصب، لا مجال فيه للعقل والاقناع، بل مساحات شاسعة من العواطف لا غير.

على عكس ذلك يتراجع العلماني العربي إلى الوراء، وكأنه شخص يولي هاربا مسقطا أمتعته خلفه قطعة قطعة، فبعد مطالبته بإسقاط الدين والقرآن والسنة من الحياة كما طالب طه حسين في بداياته، تنازل لإيجاد مضامين إسلامية تتوافق والعلمانية، ثم انتهى به المطاف إلى ادعاء الولوج إلى النص نفسه، لتقديم قراءة ورؤية جديدة له، كما يحاول مستميتا أبو زيد وأضرابه.

إن لدى المفكر العربي إشكالية ضخمة مع الموروث العربي، وما دام يعيشها فلن يتمكن من التقدم إلى الأمام، ولن يعرف يوما ما هو الأمام، سيظل في حركة ارتداد نحو التخلف وممارسة التخلف وتكريس التخلف، ولا أدل على ذلك من قرن كامل سيطر فيه العقل العربي على كل شيء، فأفسد كل شيء.

عصر الإبداع الإسلامي

لا يمكن حصر عصر الإبداع بالنسبة للنص الإسلامي بعصر النبوة (زمن نزول الوحي)، ولا بعهد الخلافة الراشدة ولا بأي عصر آخر، بل لا يمكن حصره بين قوسين مكانا وزمانا، إلا بالنسبة لمن توقف وشُل عن الحركة، إنه أشبه بشروق الشمس، مستمر لا يتوقف ولا يمكن تحديد تاريخ له، إلا بالنسبة للواقف المتجمد في مكانه، لكنه مستمر ومتدفق مادام الإنسان متحركا ومتجددا ومواكبا للشمس، هذا هو الفرق بين العقل العربي والعقل الإسلامي، فالعربي يقيس الأمور بمدى بعدها عنه، فهو يرى الغرب بعيدا جدا بإنجازاته المادية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، ويتمنى – دون أن يمارس شيئا غير التمني – أن يكون يوما مثله، وهو ينظر إلى إنجاز الماضي الإسلامي المجيد بعين الحسرة، دون أن يمارس غير الحسرة، دون أن يحاول التعرف على سر الطاقة التي حولت عالما متخلفا أميا وثنيا ضعيفا يعيش في عالم النسيان، فجأة ودون مقدمات أو تراكمات ماضية إلى أرقى حضارة عرفها التاريخ، لم تكن هذه الحضارة تمتد على شكل احتلال يمارس التعامل مع الآخر من الخارج فقط، وينظر إليه كمحتل بغيض وبالتالي يبدأ التحضير والإعداد لمقاومته على المدى الطويل.

عندها كانت كل حضارة وأمة تستجمع قوتها من خلال الرجوع إلى تراثها الروحي والثقافي كحصن أخير، وكنقطة ارتكاز تبدأ منه لطرد المحتل، لكن المفارقة هنا، والتي لم تحدث من قبل وإلى الآن مع غير حضارة النص القرآني: أنه وحالما تضع الحرب أوزارها تغرب الأسلحة ليشرق النص القرآني والسنة النبوية بثقافتهما الجديدة، وبرجالهما الذين يحملون القرآن والسنة سلوكا والتزاما، ليتحول ذلك المخطط لطرد المسلمين إلى تخطيط للتماهي بهم.

المعجزة هنا هي في جذب القرآن والسنة الهائل لتلك الأمم والشعوب، لدرجة تحير كل باحث لا ينظر إلا من خلال الموازين المادية والحسابات العددية، لقد قام القرآن بتغيير عقائد وعقول تلك الشعوب والأمم وأعاد تشكيلها، لقد اعتنقته وتماهت به، ويتصاعد الإعجاز في مشهد مذهل لا يمكن أن يحدثه كتاب غير القرآن، مشهد ردة فعل تلك الشعوب بعد تعاملها مع النص القرآني، لقد انفعلت به إلى مستوى تخلت معه عن لغاتها الأصلية لتعتنق لغته العربية، ولتمارس الدور نفسه الذي قام به وثنيو قريش بعد اعتناقهم له، ليواصل الأقباط والبربر والروم والفرس والترك صفا واحدا مع العربي إنجاز حضارة النص القرآني – السني.

إن من لا يقرأ هذه الحقيقة ولا يعيها بعمق يمارس تزويرا تاريخيا وفكريا وأخلاقيا دون أن يشعر، والقراءة التي قدمها الجابري تفتقر إلى هذا العمق، لا لأنه أخطأ في قراءتها، ولا لأنه يضمر شيئا مسبقا كأركون، ولا لأنه يردد أقوال المستشرقين

كالأبله أركون. ولا أتهمه كما يتهمه علي حرب بقوله أن (الجابري يستبعد خطاب الوحي والنبوة من مجال النقد، لأنه يرى أن النقد اللاهوتي لم يحن أوانه بعد في العالم العربي. ولهذا فهو يقتصر في نقده على الخطابات التي نشأت وانتظمت حول نص الوحي والحدث القرآني) فكلام حرب هنا يتضمن اتهاما بمؤامرة خفية يمارسها الجابري تقوم على مخاتلة قرائه، والتقية مع خصومه.

أنا با ختصار أزعم أن الجابري لم يتعرض لها فقط، لأنه بحث عن حقبة تاريخية تتماهى مع واقعنا العربي اليوم، ظانا أنه بظفره بتلك الحقبة سيظفر بمكامن خلل والواقع من خلال تفكيك معرفي لأدوات التفكير في تلك المنظومات، لكن الجابري صدم، بل إنه قد أصيب بالفزع عندما قدم العلماني الغربي قراءته العلمية للنص القرآني – كما سيمر معنا– ذلك أنه أدرك تهافت أي عمل فكري يقفز حقيقة كالتي ذكرت، وهذا ما أسميه:

الإشكالية العربية مع الموروث

هناك إشكالية مفتعلة مع التراث العربي، والذي يفتعلها هم الكتاب العرب.. الفكر والنظام العربيان يعيشان أزمات عدة، وتجاهلها والقفز عليها وكأنها لم تكن، نوع من ممارسة الغياب وتناول المسكنات أو المخدرات على حد سواء، وهي عملية لا تؤدي إلا إلى المزيد من التورط، ومن ثم استحالة التعاطي معها، بل إن التراجع في معالجة الإشكاليات نحو الخلف أفضل من الهروب نحو الأمام، فهو – على الأقل – إدراك لحجم الإشكالية والإمكانية، والتمترس مؤقتا ريثما تتم عملية ترتيب الأوضاع والمواقف للانطلاق من جديد، وهذا ما يلاحظ على النظام والفكر العربيين، فالأمور تجري على المستويين بشكل اعتباطي وقسري، تعامل مع السطح مع تجاهل تام للعمق والأبعاد، فلا تعاطي للماضي بعقلانية واتزان، ولا رؤية واضحة للمستقبل، السمة الواضحة للفكر والنظام العربيين هو التعاطي مع الآثار لا مع المؤثرات، ومع التداعيات لا مع المسبب.

والجابري – كعروبي ملتزم بقضيته ومتوجها بخطابه إلى العرب، لأن هاجسه عربي وقضيته الأولى قومية، يقتصر في مباحثه على الثقافة العالمة، أي على الميادين العلمية والفكرية، ممثلة بالنحو والبلاغة والفقه والكلام والتصوف والفلسفة، أي أنه يتجه في تناوله للجانب الأهم من العقل العربي – إلى تداعيات قلب العقل العربي ليفك رموزها وألغازها، ويتجه إلى المزيد من الدراسات المطولة عن المنظومة البيانية والعرفانية والبرهانية، وكأنما هي فقط بنية ومكونات العقل العربي، وأن تفكيكها مفتاح لكل المعضلات التي يمر بها، وحتى من انتقد اطروحة المنظومات مثل علي حرب، لم يكن نقده عميقا بقدر ما كان جدلا بيزنطيا ومناكفة لا طائل من ورائها.

يقول علي حرب ١١٩: (يتركب العقل العربي، بحسب التحليل الذي يقوم به الجابري، من معقول عربي ومعقول يوناني ولا معقول قديم غير عربي. ومن الواضح، أن ما يقوله هذا التصنيف أن اللامعقول هو عنصر دخيل على العقل العربي. ومعنى هذا القول، أي ما لا يقوله وينبني عليه في الوقت نفسه، هو أن

العقل العربي عقل صاف لا ينطوي في الأصل على جانب لا معقول. هذا هو حقاً مآل الفرز الذي يجريه ناقدنا الكبير. إنه اقصاء اللامعقول إلى خارج الثقافة العربية. وفي رأيي إن مثل هذا الإقصاء يصدر عن نزعة اصطفائية، وإذا شئنا تعبيراً أكثر تداولاً نقول إنه يصدر عن نزعة عربية مركزية. والذات المتمركزة على ذاتها المؤمنة باصطفائها تتنزه نفسها عن السلب والنقص والخطأ وترد ذلك كله إلى الغير. وهذا ما يفعله الجابري: إنه يعزو اللا معقول إلى مصدر غير عربي، أي إلى ذلك العالم الغريب، عالم الشرق القديم الذي يجسد، برأي ناقد العقل العربي، الخرافة والسحر والنزعة الظلامية.

ولكن ناقدنا الكبير ينتهي به النقد على غير ما بدأ به. إنه يتراجع بل يقوض مهمته النقدية ويقع أسير موقف ايديولوجي يحجب الموضوع المراد فحصه وتحليله، أعني الجانب اللا معقول في الثقافة العربية الاسلامية. ذلك أن هذا الجانب لم يأت من خارج العقل العربي، بل هو ينبع من داخله. والعقل العربي شأنه في ذلك شأن سائر العقول ـ ١١٩)

إن نقد حرب للجابري ووصفه بأنه أسير موقف ينطبق تماما على حرب، فهو قد استبعد المنظمة البرهانية المغرقة في اللامعقول، فنظرية المثل الأفلاطونية، ونظرية الفيض وحتى قدم العالم وعدم علم الله بالجزئيات كلها نظريات تعوم في بحر من اللا معقول، بل إن الكشوفات الفلكية الحديثة والمذهلة بدأت بتحطيم نظرية المادة لا تفنى ولا تنشأ من العدم. أين العقل العربي في كل هذا، أين هو على مستوى المصطلح، هل هو العقل الذي ينضوي تحته الإسلامي والمسيحي واليهودي والوثني؟ هل هو المقابل للغربي – كل الغربي، أم المقابل اللغوي كاليوناني والفرنسي وغيرها؟

هناك أزمة تعريف وتوصيف، لكن الذي تم الإجماع عليه من قبل المفكرين العرب أن العقل العربي – من حيث أرادوا أو لم يريدوا – ينطلق من النص الإسلامي فقط، وما البيانية والعرفانية والبرهانية إلا انطلاق من النص أو محاولة للتصالح معه.

الجابري يتناول في نقد العقل وسائر كتبه علاقة الفكر الإسلامي بالنص، لكنه يسميه – مجازا بالعربي – وعندما تبحث عن هذا العربي لا تجد سوى الأسماء واللغة، وعندما تبحث عن غير الإسلام في هذا العقل لا تجد – حتى الهمس والإشارة – للمسيحي أو اليهودي أو الوثني، وعندما تبحث عن الخالق لهذا الفكر العربي والمؤسس له، والناقل له من الأمية العمياء والجاهلية الجهلاء التي كانت حدودها القبيلة والعشيرة، إلى العالمية بفترة قياسية مذهلة لا تجد سوى النص الإسلامي، وعندما تبحث عمن حول الفينيق إلى عرب، والفرس إلى عرب، والقبط إلى عرب، والبربر إلى عرب، والروم إلى عرب، بل والتتار المحتلين التتار إلى عرب، عندما تبحث عن هذا المذيب للشعوب الفارسية والفينيقية والرومية والقبطية والنوبية والبربرية الصاهر لها في بوتقة عربية، لن تجد البيانية ولا العرفانية ولا البرهانية، لن تجد سوى النص الإسلامي (القرآن) بسلاسته ووضوحه، و حتى عندما تبحث داخل المحيط العربي نفسه، فتتساءل عن الصاهر

للغات العربية نفسها – العاربة والمستعربة، وللهجاتها الكثيرة المنتشرة في الجزيرة العربية وخارجها، الموحد لها في لهجة واحدة هي اللهجة القرشية، وهي الفصحى اليوم، فلن تجد سوى النص الإسلامي، وعندما تبحث عن المنظومة البيانية بعلومها ومناهجها العلمية والنقدية: الفقه وأصوله، والتفسير وأصوله، والحديث وأصوله، والتجويد والنحو والصرف والبلاغة وغيرها فلن تجد لها خالقا سوى النص القرآني. وهو أمر أدركه أدونيس، وأدرك بعد عقود أنه عقبة في طريقه، والسبب في فشل مشروعه، لذلك وفي كل كتبه يلقي باللوم على الثقافة العربية، وعندما يكشف لقارئه عن تقاسيم تلك الثقافة (العربية) التي يعنيها، لن يجد فيها المسيحي أو اليهودي أو حتى الوثني، لن يجد فيها سوى النص الإسلامي (القرآن)، وفي انتقائية غريبة داخل الثقافة الإسلامية يشن هجوما على السني منها فقط، مما يجعله كاتبا بغيضاً، لأن الهجوم ليس نقدا، والإقصاء ليس تحليلا، لقد شن هجوما على الإسلام في لقاء نظمته اليونسكو وأدرجه في كتابه (النظام والكلام ٤٠) قائلا: (نشأت الثقافة العربية على أساس مزدوج: اللغة والدين، وبما أن الدين كتاب أوحاه الله باللغة العربية، فقد تماهت معه، هكذا يمكن القول أن الدين هو المرجع الأول، وربما المطلق للثقافة العربية) والكتاب الوحيد الذي أوحاه الله باللغة العربية هو القرآن.

أدونيس هنا يجبن عن التطرق لكتابي "التوراة والإنجيل"، ويتعامى عن ذكر تأثيرهما على الثقافة العربية، وهو اعتراف من جهة أخرى بأن الكتاب الذي أوحاه الله قبل القرآن، أي الكتاب المقدس فشل في اختراق الثقافة العربية والتماهي معها بل والتأثير عليها، بل وفشل في الصمود أمام القرآن، مما يعني أن الثقافة العربية ثقافة إسلامية صرفة، وأدونيس هنا أجرأ من غيره، لأنه ليس كالعصابيين أمثال أركون والعظم والذين ينكشفون من أول كلماتهم، وينكشف أن لاهدف لهم سوى إزاحة الإسلامي عن الحياة. وهو أكثر وعياً وإدراكا لخطورة هذا النوع من التهور لأنه يريد إقصاء النص، لا لأنه ليس نصا، بل لأنه لا يمكن لثقافة أخرى أن تتغلب في وجوده، فإما التعامل معه بشروطه، أو التخلص منه، أما أولئك العصابيون فقد جاءوا متأخرين.

أين العقل العربي هنا؟

لا وجود له على الإطلاق، ومهما حاول المفكر العربي إلصاق سمة العروبة – مقابل الفكر اليوناني مثلا – على ما مضى فلن يفلح – عند التفاصيل – سوى في نفي الفكر العربي (الحدي) نفسه. أجل.. هناك لغة عربية لكنها تظل مجرد أداة، مجرد وعاء جميل يحمل هذا الفكر، واللت والعجن من أجل تصوير الوعاء على أنه محتوى يساهم في تأكيد نفي سمة المحتوى عنه. عقل عربي غائب، يحاول المفكرون العرب استحضاره بالقوة، أو بمعنى أدق افتراض وجوده، ثم فرض تصديق وجوده (إكراها) مع أنه – ربما – مجرد وهم لا وجود له.

إن دراسة ظاهرة العقل العربي – بعد أن تم تحويلنا إلى أمة عربية – جزء من مشروع دراسة منظومة عربية مأزومة.. تحاصرنا على كل المستويات، منظومة

ذات سمة مشتركة هي التعامل السطحي والساذج والمدمر مع كل الإشكاليات التي تواجهنا، ووسم المخالف بالقصور والتخلف، بل والتخوين تمهيدا للتخلص منه، والنهاية انحدار قياسي على مستوى العالم.

اقتصاديا نكتفي بالسياسة الاستهلاكية، والتعمية على أي طريق للشفافية، ومحاولة استيراد كميات ضخمة من المبررات لانهيار الاقتصاد، فأعذار مهترئة كالانفجار السكاني والمنافسة العالمية وقلة الموارد، أصبحت زادا يوميا يحاول سد رمق الفاقة والتساؤل والمساءلة والاحتجاج، والنتيجة هي البقاء في قاع التراتب الاقتصادي العالمي.

في الجانب الاجتماعي والنفسي نقدم أطروحات باسم الانفتاح لا يمكن قبولها، ونستورد حلولا جاهزة لمشاكل – غير مشاكلنا – نشأت في بيئات مغايرة لبيئاتنا، ما نمارسه يعيدنا دوما إلى الخلف حضاريا لا زمنيا.. يعيدنا إلى قضية الصراع مع الماضي والمستقبل معا، فلا نحن – عربا – مدفوعين بمخزون تراثي يمنحنا طاقة نحن بأمس الحاجة إليها، وكيف نوظف مخزونا نقوم بتحطيمه وتدميره والسخرية منه، ولا نحن – عربا – نأخذ من الحاضر – غير العربي – آلياته التي تجعلنا نتخلص من هذا الفصام النكد مع الحاضر، والذي كان من المفترض أن يوظف نحو المستقبل بدلا من أن يكون عامل إحباط معيق، وبدلا من ذلك استعضنا عن الآليات العصرية بالتداعيات السلبية لتلك الآليات. نحن نتمحور حول الآثار السلبية للعصرانية، فالاهتمام – على المستوى الرسمي – بالتمثيل والرياضة والموسيقى والمهرجانات يفوق آلاف المرات اهتمامنا بالاكتشاف والإبداع في المجال العلمي والصناعي والزراعي، أما المستقبل فنحن لا نملك جسورا مع الحاضر، ليتحول المستقبل إلى معيق بدلا من جاذب ومحفز.

والسبب في ذلك هو تلك المنظومة التعريبية المأزومة التي أجبرتنا على تصديقها، كما أجبرتنا على سلوك منهجها المقتصر على أن نتعامل مع التداعيات والآثار، مما يجعلنا ندور في حلقة مفرغة لا نهاية لها سوى الخروج منها نحو أس الإشكالية وسببها المباشر، لكن يبدو أن هناك سباتا سيطول مادام العقل العربي غارقا في مطاراداته تلك.

السؤال الذي أطرحه محاولا الإجابة عليه: أين العقل العربي؟

هذا ما تؤدي إليه قراءة الجابري (أستاذ الفكر العربي)، التي لم تثر فزع الدكتور جورج طرابيشي فقط، بل أثارت باطنية أدونيس الذي اتهم فكر الجابري بأنه فكر تبسيطي ويقيني وسطحي ملصق، بل هو متناقض مضحك في كتابه (النظام والكلام – ١١٤) إذا ما العقل الرائع الذي سماه الجابري بـ(العقل العربي)، والذي كتب كثيرا في دراسته وتحليله إن لم يكن عقلا عربيا؟ ما العقل العربي الذي أزعج أدونيس وجعله يجزم أنه ببنيته الحالية لن يقبل الديموقراطية ولا حتى الحداثة؟

لم ينطلق الجابري وغيره من العربي حقا، وإلا لكان من الممكن القبول بتلك التسمية، لأن من أراد أن يحلل العقل العربي فلينطلق من مساحة أكبر، مساحة تحتوي على أكثر من الإسلامي، مساحة يختلط فيها العقل الوثني بالملحد باليهودي

بالمسيحي بالإسلامي، ليكون خليطا من تلك الروافد يمكن تسميته بالعقل العربي، لكن المفكرون العرب كالعادة يجيدون قفز الأشياء، ويبرعون في التعامي عن الإشكاليات التي تنغلق أمامهم أو لا يريدون التعامل معها.

أن تُقفز روافد (العقل العربي) كلها، ويتم تجاوزها ليتم الانطلاق من الإسلامي وخلال الإسلامي وانتهاءً بالإسلامي فقط، فهذا يعني – وإن لم يتم التصريح – أن ما يسمى بالعقل العربي ليس عقلا عربياً على الإطلاق. إنها الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها: لا وجود لما يسمى بالعقل العربي حسب التنظير الجابري، هناك عقل إسلامي ناطق بالعربية، والعربية مجرد أداة يمكن استبدالها بأداة، ومع أن النص الإسلامي عربي فقط، ولا يمكن أن يتحول إلى لغة أخرى إلا خلال بوابة التفسير لا الترجمة، إلا أن العقل الذي تناوله وشرحه وحلله عقل إسلامي أيضا، ومن الممكن أن يكون هذا العقل بأي لسان.

إذا فالعقل العربي (المعني هنا) إما شارح للنص الإسلامي، أو مستغل له، أو محاولا التوفيق بينه وبين غيره، النص هنا هو المنتج للعقل العربي، وهذه الحقيقة - التي يكشفها الجابري ويغطيها في الوقت نفسه، وهي التي يهاجمها أدونيس - من الوضوح بحيث لا يمكن القفز عليها مهما كان المفكر بارعا في انتقاء العبارات والمصادر، أما الأخطر في تناول ما يسمى بالعقل العربي فليس التسمية، بل فيما تم القفز عليه، إنه فيما قلته – الهروب إلى الأمام، حيث يتم القفز على منتج هذا العقل وخالقه (النص الإسلامي الأول) وتجاوزه دون هضمه أو اختراقه.

الجابري يقول عن أهم مكون للعقل العربي في كتابه (إشكاليات الفكر العربي المعاصر – ٣٣): (الاستعمار في البلاد العربية عموما، لم يستطع تدمير الثقافة الوطنية العربية الإسلامية ولا طمس معالمها، لأنها لم تكن مجرد بقايا وآثار لبنى ثقافية قديمة شعبية، بل كانت ولا تزال ثقافة عالمة حية لغة وأدبا ودينا وفكرا، متغلغلة في العقل والشعور في الفكر والسلوك، وأكثر من ذلك..

ثم يقول: وإذاً فخصوصية إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، كامنة في كون العرب يمتلكون تراثا ثقافيا حيا في نفوسهم وعواطفهم وعقولهم ورؤاهم وذاكرتهم وتطلعاتهم، في صدورهم وكتبهم، تراثا هو من الحضور وثقل الحضور على الوعي واللا وعي بصورة قد لا نجد لها نظيرا في العالم المعاصر)

على الجانب الآخر يمثل أدونيس الجانب الإقصائي المتطرف، فيقول وهو يعيب على كثير من الحداثيين تجاوزهم للتراث – ومن بينه القرآن والسنة – تجاوزاً دون المرور بمرحلة الاختراق، يقول في النظام والكلام – ١٥٣: (يكون المفكر أصيلا ومجددا بقدر ما يبتكر مفهوماته ومصطلحاته الخاصة، فمن يفكر حقا في الميدان الفلسفي لا يستعير المفهومات بل يخلقها، خلق المفهومات: تلك هي دائما مهمة الفكر وتلك هي علامة تجديده وتجدده. من يحمل تراثه ويتعامل معه بوصفه يقينا مطلقا أو بوصفه أصلا يحتضن اليقين يصعب القبول بتسميته مفكرا، إنه بالأحرى مؤمن وثوقي، أن تكون مفكرا هو أن تستخدم تراثك الثقافي: أن تحتضنه وأن

تخترقه وتتجاوزه، أميز هنا بين موقفين: طرد التراث، واختراقه، فهناك من يفكر طاردا تراثه من الحقل المعرفي، وهناك من يفكر مخترقا تراثه – في حركة من امتلاكه، معرفيا.
الطريقة الأولى تستبعده وتلغيه ، جهلا.
والطريقة الثانية تحاوره وتتجاوزه، بمعرفة.
الإبداع الفكري اختراق وليس طردا. أن تخترق الشيء هو أن تعترف به، وتعرفه، وتتخطاه، وأنت في هذه الحالة طالع منه: جزء تكمله. أن تطرده هو أن تجهله، وأن تنفصل عنه، وأنت في هذه الحالة غريب عنه، وخارجه)
نستطيع تقسيم – حسب رؤية أدونيس – المتعاطين مع التراث إلى ثلاثة أصناف:
قسم سماهم الوثوقيين، ويقصد بهم التراثيين، أي الفقهاء وينسحب الأمر على الإسلاميين، وقد سماهم وثوقيين لأنهم يحملون تراثهم ويتعاملون معه على أنه حقيقة، وهؤلاء من الصعب إطلاق صفة المفكرين عليهم.
وقسم ينبذ التراث، وهم في نظره أسوأ من الوثوقيين، لأنهم جهلة بالتراث، وعداؤهم له ونبذه دون مبرر دليل على جهلهم. وهي صفة تنطبق على أركون والعظم.
والقسم الثالث وهو الذي يدعي أدونيس تمثيله ويصفه بالمفكر، وهو الذي يقرأ التراث ويفهمه ثم يتجاوزه ليكمله، منطلقا منه وناقدا.
وهذا التقسيم رائع عند التزامه وتناوله بموضوعية، لكن الغريب أن من يطرح هذا التقسيم الرائع هو أول من يقوم بنسفه، فمؤلفات أدونيس بدءا من كتاب الثابت والمتحول – وهو كتاب مستثنى من الإنشائية التي تتسم بها بقية كتبه – مفعمة بالجميل والساحر خارج المنطق والمعقول، وليس خارج السائد والنمطي، فأدونيس يمثل السائد والنمطي في الفكر العربي المتهالك، والذي يعتمد على إقصاء التراث ونبذه لمجرد النبذ، أما ما يردده حول قراءة التراث واختراقه ثم تجاوزه انطلاقا منه، فلا وجود له في قاموسه ومشروعه الثقافي، الرجل إقصائي لدرجة مزعجة وبشكل محير، لم أجد في كتاب واحد من كتبه قراءة جادة لـ(قلب) التراث العربي على الإطلاق – القرآن والحديث النبوي. هو يكتفي بإطلاق عبارة سريعة في هذا الكتاب أو ذاك عن الوحيين، حتى عندما كتب كتابه عن القرآن، لم يقرأ القرآن قراءة ثقافية جادة، لم يخترقه كما يقول، تحدث عنه من الخارج، لم يلامس سوى السطح، وبأسلوب إنشائي تمكن من خلاله من تمرير إيدلوجيته بشكل جميل.
أدونيس لم يوفق في قراءة التراث كما يطالب.. هو أقرب إلى القسم الثاني الذي ينبذ تراثه فقط. والموضوع الذي يتناوله أدونيس ليس بالأمر السهل، هو لا يتناول الشاعرية العربية، أو الفن العربي، ولا يتحدث كشاعر أو متذوق، إنه يتناوله كمفكر. والموضوع الذي يتناوله هو صانع العقل العربي، وهي إشكالية لم يسلم منها كل المفكرين العرب وعلى رأسهم الجابري، وأزعم أن كل دراساته تظل ناقصة جدا – ولا أقول دون جدوى – مادام لم يبدأ بدراسة قلب التراث دراسة علمية وموضوعية جادة. أما أدونيس فليس بحاجة إلى دراسة قلب التراث، لقد

حكم عليه وانتهى الأمر، هو المعيق في نظره، هو العقبة أمام كل نهضة، إذاً فلا بد من استئصاله.
إنه يقول: (آخذ مثلاً على التبسيطية واليقنية ما يقوله محمد عابد الجابري وأمثل به لأن فكره يمثل الآن النموذج الأبرز في تفقيه (من فقه الحداثة العربية) وهو نموذج يكاد أن يصبح زياً.. يقول (ندوة مجلة الهلال : الأخيرة ،في القاهرة) عازياً غياب الديموقراطية في المجتمع العربي إلى ثلاثة أسباب:
(دولة العسكر ونخبتها) و(الدولة التقليدية ونخبتها) و(الدولة شبه الليبرالية ونخبتها) ووافقته في ذلك بالتبسيطية نفسها واليقينية نفسها (النخبة) التي ناقشته، وأما لماذا قامت هذه (الدول)، لماذا أنتج المجتمع العربي هذه (الثمار) (وأضرب صفحاً عن الكيف) فأمر محجوب، أو غيره داخل في مدار التفكير، إنهم جميعاً مأخوذون من النبع بـ(مجراه)، ولا يطرحون أي سؤال حول النبع ذاته وحول الماء نفسه، هكذا يبقى فكرهم في مستوى السطح وملصقا من خارج، ويبقى تنظيرهم للديموقراطية في المجتمع العربي أمرا متناقضا ومضحكا في الوقت ذاته، كأنهم يحاولون أن يركبوا قرني غزال على رأس دجاجة..ثم يقول: إن ما أريد قوله هو أنهم لا يستطيعون أن يجمعوا الماء والنار في يد واحدة، وأن عليهم قبل أن يطالبوا الحكم العربي بتحقيق الديمقراطية أن يطالبوا المجتمع نفسه بأن يتخلص مما يحول دون تحقيقها، وأن هذا الذي يحول يتمثل في أصول ليس الحكم إلا نتيجة لها، وأنه لا يمكن بناء الديموقراطية إلا بأصول أخرى. وأريد أن أقول لهم أخيرا : لن تكون مهمتكم هذه سهلة وستكون طويلة طويلة)
ما الأصول التي يتحدث عنها أدونيس، إنها ليست الأصول الأدبية، ولا العادات والتقاليد، ولا حتى كتب الفلسفة، فهي كتب بعيدة عن واقعنا؟ إنها بالتأكيد القرآن والسنة. أدونيس يطالب باجتثاث القرآن والسنة. هو نفسه يعترف بذلك في خطاب لقاء نظمته اليونسكو وأدرجه في كتابه (النظام والكلام ٤٠) قائلا:(نشأت الثقافة العربية على أساس مزدوج: اللغة والدين، وبما أن الدين كتاب أوحاه الله باللغة العربية، فقد تماهت معه، هكذا يمكن القول أن الدين هو المرجع الأول، وربما المطلق للثقافة العربية) فهل يمكن أن تفسر تلك الأصول التي دعا إلى اجتثاثها بأنها غير (الوحيين) القرآن والسنة. لقد وضع أدونيس نفسه دون أن يشعر مع الفئة التي يصفها بالجهل فيقول: (الطريقة الأولى تستبعده وتلغيه ، جهلا. والطريقة الثانية تحاوره وتتجاوزه، بمعرفة)
إن حديثه السابق عن الوحي الإسلامي، لا يمكن تصنيفه ضمن الطريقة الثانية التي تحاوره وتتجاوزه، بمعرفة، لا يمكن تصنيفها إلا ضمن الطريقة الأولى التي تستبعد الوحي وتلغيه، جهلا. فأي مفكر هذا الذي يتناقض عدة مرات في السطر الواحد، ثم يدعي أننا لا نفهم ما يقول، لقد حكم على الوحي – الأصل الأهم والأعمق في التراث العربي بأنه المعيق، وأنه لا بد من اجتثاثه.. هكذا دون تأمل أو دراسة أو نقد علمي مقنع، فقط بالكلمات المتراقصة والعبارات الجميلة الساحرة وادعاء الحداثة.. يطلب من قرائه أن يؤمنوا به، لا أدري كيف يمكن قبول قوله في الكتاب

نفسه ١٥٢: (الكتاب العرب إجمالا مأخوذون بمسألة الحقيقة، بمسألة أن يكون الكاتب دائما على حق، وبأن غيره المخطيء) في الوقت الذي يطالب هو بالتخلي عن الوحي الإسلامي هكذا دون مبررات، تقليدا للغربي الذي تخلى عن وحيه المسيحي بمبررات مقنعة وعلمية.

الفرق بين أدونيس والمفكر الغربي.. أن أدونيس يقدم إنشاءً وكلمات فقط، بينما قدم الغربي اكتشافات وعلوما وحقائقا لا تقبل الشك ولا الجدل، ولم يقل عند بدايات نقده لتراثه المسيحي: (الكتاب الغربيون إجمالا مأخوذون بمسألة الحقيقة، بمسألة أن يكون الكاتب دائما على حق، وبأن غيره المخطيء) لقد ترك العلماني الغربي التجريبي إنجازاته واكتشافاته العلمية تنسف الكنيسة وكتابها المقدس، إن من أزال أصول المسيحية الغربية لم يكن شاعرا إنشائيا كأدونيس، بل مبدعا تجريبيا كغاليلوا وبرونو وكوبرنيكوس وموريس بوكاي وكيث إل مور. المحبط في الأمر هو أن المفكرين العرب مثلهم مثل أدونيس دون استثناء، لم يقوموا بدراسة قلب التراث، لقد استبعدوه تقليدا لا نتيجة، تلقينا لا اقتناعا. المفكر الغربي استبعد تراثه نتيجة واقتناعا، أما المفكر العربي فاستبعد قلب تراثه تقليدا ومحاكاةً، بل إن معظمهم لا يعرفون شيئا عن هذا القلب النابض للتراث، فالكل ينظر ويحلل من الخارج، والثقافية السماعية طاغية على الجميع، والتحليل للجاهز والمعد سلفا يؤثر سلبا على لقب (المفكر).

قلب التراث

تناول التراث ككتلة واحدة له مستوى وعمق مشتركين نوع من تبسيط المسائل الضخمة وتسطيحها، والبدء من المنتصف كالذي مارسه الجابري الجاد، لا يختلف تماما مع البدء من الخارج – كالذي يمارسه أدونيس، والاثنان يلتقيان كثيرا مع الفكر الذي ينبذ التراث ابتداءً. إذا فكيف يقرأ التراث، كيف نتجنب الوثوقية والانتقائية والإقصائية معا؟

كيف نقرأ التراث العربي

الأمر يحتاج إلى عقلية ونفسية تسمو على المواقف – الإيديلوجية.. تسمو على الموروث وعلى عقد الأقلية والشعور بالاضطهاد، وعلى الشعور بالتفوق أيضا، وعلى التسليم بمقولة الآخر المتفوق، عندها فقط يمكن الوثوق بالدراسة والتحليل، أما ما تم إنجازه من أطروحات، وما تم تقديمه من دراسات للتراث على يد مفكرين عرب، فهو وإن كان يحتوي على بعض الجاد والعميق، إلا أنه مازال يحتوي فراغا كبيرا ومخلا.

قد أجد العذر للجابري وغيره في التخوف من القيام بهذا المشروع، نظرا لخطورة الموضوع وحساسيته، فالقرآن والحديث النبوي خطوط حمراء يصعب الاقتراب منها أو نقدها، وهذا ما يفسر الجهل المطبق الذي يتمتع به الطرفان – الإقصائي، والمتجاهل للقرآن، وهو ما عجل بسقوط الفكر الإلحادي العربي الهش المتمثل بالقصيمي والعظم ومن على شاكلتهم، فالقصيمي نموذج للقلق الفكري الذي يربط الفكر بالسلوك، والذي يعتري التراثي الوثوقي اللاواعي، فيجد نفسه فجأة ينتقل من

طرف إلى نقيضة كرد فعل لموقف أو تجربة فاشلة، أو نتيجة لإحباط ما، وهي نماذج قلقة تطفوا على السطح عند حدوث تغيرات سياسية كبيرة كما نعيشه اليوم، تجد أصحابها ينتقلون من الأقصى إلى الأقصى، وهي حالة عصابية تحتاج إلى الوقت فقط لتجاوزها.

أما العظم فنموذج للسطحي المندهش بما في الحداثة المادية فقط من إنجاز، مما يجعله يتناول التراث بفوقية لمجرد انتمائه للماضي، القصيمي والعظم ظواهر سلوكية ونفسية لا تنتمي لعالم الفكر الجاد، وهي نماذج إقصائية متآكلة سريعة العطب، لكنها تتمتع بالقدرة على جلب الأضواء كظاهرة تجيد الاستفزاز بامتياز.

هذه النماذج لا تتمتع بالجرأة العلمية لتجاوز الخطوط الحمراء – القرآن والحديث النبوي، بل تمتلك مخزونا كبيرا من الوقاحة والسب والشتم تحت لافتة الحرية أو النقد، وهو ما يسقط فيه أدونيس أحيانا، عندما يردد شعارات استفزازية مثل التخريب وموت... وتمجيد الوثنية، أما ما يقع فيه مفكر جاد كالجابري فلغز ما زال يحيرني، ربما هو كسل لا يليق بالجادين، أمثاله، لكن ماذا عن:

المنهج الوثوقي؟

نتيجة للتصورات المعلبة والأحكام الجاهزة، أو التناول المختل، يتم الحكم على الفكر الوثوقي والإجهاز عليه أيضاً داخل محكمة عسكرية وبمنتهى السرعة، فهو في نظر النموذجين السابقين مجرد ظل لقلب التراث (القرآن والحديث)، ولن يكون الظل أكثر من ظل، إنه في نظرهم ينتمي إلى عالم الذاكرة لا إلى عالم الفكر، لذلك فلا داعي للرفع من شأنه بإهدار الوقت على تناوله كفكر، فهو مجرد وعاء للتراث لا أكثر.. ذاكرة ضخمة ونسخ أخرى تنتمي للقراطيس. هذه النظرة المتهورة ألحقت ضررا كبيرا بالجادين والعابثين من جهة، وبالوثوقيين من جهة أخرى، حيث تحولت العلاقة بين الطرفين إلى معاناة سيزيفية لا تنقطع، وعداء مستحكم لا يهدأ.. تحول الطرفان إلى مشروع تصفية تجر الويلات تلو الويلات على الفكر والأمة بكاملها، ولو تخلى المفكرون العرب عن هذه النظرة الاستعلائية – الوهم.. لخصوم وهميين لتغيرت الدراسات والنتائج تماما.

لا يمكن تجاهل الدراسات الضخمة الوثوقية للتراث هكذا، وكأنها نوع من الورم السرطاني الذي لا بد من استئصاله، لأنه لا ينتج سوى الموت، الدراسات الوثوقية مشروع ضخم يحتوي قدرا هائلا من النقد بالتوازي مع النقل، بل هي مشاريع نقدية في البدء، ولم تتحول إلى وثوقية إلا بعد جهود مضنية جدا، بل إن الدراسات الوثوقية التي لا يتناولها الجابري ويشتمها أدونيس، إبداعات لم تنجزها أمة أخرى حتى الآن في التعامل مع تراثها، ولعل هؤلاء يتجاهلون أن ما يسمى بالأمة العربية، كانت أمة وثنية أمية متخلفة لا تملك من المؤلفات أكثر من سبع مطويات تحتوي على سبع قصائد معلقة على الكعبة. الأمة العربية لم تعرف الثقافة إلا من خلال التراث، ولم تعرف التراث إلا على يد الوثوقيين، ولم تعرف الوثوقيين إلا على يد النص – القرآن والسنة. إذا فلا بد عند دراسة التراث من فك الشفرة المشتركة بين النص وبين الوثوقيين، وقبل فك هذه الرموز لا بد من تناول أصول تراثية غاية

في الأهمية، هي من أهم مكونات العقل العربي وروافده، وهي الأهم بين النصوص التراثية، بل هي موازية للنص – القرآني الحديثي تماما، هذا إن كنا حقا نريد تناول فكر عربي، لأن ما يمارسه المفكرون العرب اليوم هروب من العمق خشية الاستلاب، وبدلا من الغوص في الأعماق يمارس هؤلاء الغرق في المواقف والإيديلوجيا المطلية بالموضوعية. ما التراث العربي المسكوت عنه، والذي يقفزه أو يقصيه المفكر العربي – كما أسلفت.. مع أن الموقف العلمي ابتداءً يحتم بيان الموقف تجاه النص بعد تناوله أو نتيجة لتناوله؟

ما التراث العربي المسكوت عنه

إنه أهم نص غير إسلامي في التراث العربي.. نص مواز للنص الإسلامي ومنافس له وله حضوره الكبير على الساحة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية، ذلك هو النص المسيحي، أي الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل)، ولعل الانتماء العاطفي لهذا النص دفع الدكتور جورج طرابيشي إلى ملاحقة الجابري في كل شاردة وواردة، ذلك أن الجابري استبعد تماما النص الديني المسيحي من روافد التأثير والتشكيل للعقل العربي، بل لم يقم بدراسة للنص الثاني – شروحات التوراة أو الإنجيل، مما يعني استبعادا لمفهوم الفكر العربي بداهة، وربما كان تجاوز غير النص الإسلامي وتجاهل دراسته نوعا من تلافي الإحراج أمام المفكر الغربي وغير المسلم، لا سيما وأن أشد المفكرين إقصاءً للنص الإسلامي يعيشون في بلاد غربية ينشدون الكثير منها، وليسوا بحاجة إلى إثارة الآخر عليهم، حتى لا يؤلبوا المزيد من الخصوم في البلاد – الحاضنة، إضافة إلى خصوم البلد الأم، وبدلا من (وجع الرأس) يؤثرون السلامة وادخار أسلحتهم للنص الإسلامي فقط.

جلت في معرض ضخم للكتاب، سألت فيه كل دور النشر عن كتاب نقدي موضوعي لأحد العلمانيين العرب للنص المسيحي (الكتاب المقدس) فلم أجد.. كانت كتاباتهم موجهة للنص القرآني فقط، حيرني الأمر كثيراً.. فقلت في نفسي ربما تكفل العلمانيون المسيحيون العرب بكتابهم المقدس، وتركوا للمنتسبين للإسلام الهجوم على القرآن. بحثت لكنني فشلت، فلا العلمانيون العرب المسيحيون أو المسلمون قاموا بتلك المهمة النقدية الهامة جداً والخطيرة، لكنني اكتشفت فضيحة قذرة.. الجميع توجه للطعن في القرآن وتحويله إلى خزانة للتهم.. ما الذي يحدث؟ أين الموضوعية..

أين مناهج النقد الحديث..؟ تبخر الجميع، وبقي القرآن والسنة وحدهما هدفاً لتلك الأقلام جميعا... حتى وهم ينتقدون نصوصا منقولة من الكتاب المقدس نفسها، يوجهون شتائمهم لمن نقلها من المؤلفين الإسلاميين، دون أدنى نقد أو تطرق لمصدرها (الكتاب المقدس) كما فعل نصر أبو زيد في أول فصول كتابه (دوائر الخوف) حيث يتحدث عن حواء بين الدين والأسطورة، وينقل نصاً من تفسير الطبري هو نص منقول من الكتاب المقدس ولا يزال موجوداً حتى اليوم، دون أن يتطرق للكتاب المقدس بأي التفاتة أو نقد.

أين الأمانة العلمية في نقد الناقل وتجاهل القائل.!! لقد بقيت الدراسات الجادة لنقد النصوص التراثية الأولى بعيدة عن اهتمامات المفكر العربي، وكأنه ينأى بنفسه عن ممارسة التفكير، بل إن هناك من يكتفي بشتم المنهج العلمي للنقاد الأوائل والتشكيك فيه، وغالبا ما يندرج المفكرون العرب ضمن ثلاثة نماذج:

النموذج الأول: وهو النموذج السطحي الذي مر معنا، يسطح العمق الذي يفتقده، ويعمق السطحية التي يمتلك الكثير منها.. نموذج غريب يستخف بالبحوث العلمية التجريبية الجادة التي أقصت الثابت والمقدس في الغرب، وأبرز رموز هذا النموذج صادق جلال العظم ومحمد أركون. الشيء الغريب أن هذا النموذج لا يجرؤ على تأليف حتى مجرد رسالة صغيرة تتناول النص المسيحي بصفته أحد مكونات العقل العربي.

النموذج الثاني: غنوصي إنشائي يستخدم الساحر والمدهش والعاطفي والجميل لا أكثر، ثم لا يقدم شيئا، وقد مر معنا أيضا، وأبرز من يمثلون هذا النموذج (أدونيس)

النموذج الثالث: نموذج جاد في كل شيء إلا في تناول النص الأول من التراث، وكأنه يخشى من أطراف متناقضة معا، والجابري هو أبرز من يمثل هذا الاتجاه، بل هو الأبرز، ومنهجه يمثل هروبية وتنصلا لا مبرر له، حيث يقول في كتابه (نقد العقل – ٣ – ١٦): (إن المشاكل التي تتعلق بمصداقية أو مشروعية المعتقدات الاجتماعية هي بكل بساطة لا معنى لها، إن الإيمان هو صورة قبلية – قالب سابق للتجربة.. لاجتماعية الإنسان.. أو الوجود السياسي، وليس عليه بوصفه كذلك أن يقدم مبرراته وبواعثه)

كلمات لا تليق بمفكر كالجابري، فلا غرابة بعد ذلك أن لا يقوم المفكرون العرب بدراسة جادة للنص الأول الإسلامي – القرآن والسنة، ولا حتى النص الأول المسيحي (الكتاب المقدس)، وبالتالي ظروف كتابتها ونقلها والآلية التي تمت بها، وهذا الفراغ الكارثي في العقلية العربية يجعل من أي دراسة يقوم بها أي مفكر عربي ناقصة ومختلة وغير ناضجة، بل ومعيبة، ولا يمكن نسبة إسفاف واستفزاز أركون للمنهج العلمي إطلاقا، فهو أسلوب تهريجي مسف كما مر معنا. وبعد فلا غرابة أن تخرج دراسات المفكرين العرب حول العقل العربي والسياسة العربية والمجتمع والأخلاق والنفسية العربية مشوهة لم تستكمل، ذلك أنها انطلقت من الخارج.. من السطح.. من المجاملة التي لا مكان لها في طرح علمي خطير كهذا.

ولئن كان الفكر العربي بعيدا جدا عن تناول أس مكونات العقل العربي (النص الأول للديانات) دراسة وتحليلا فإن:

هناك من قام بتناول النص الأول علمياً

تحدث المفكرون العرب عن ضرورة نقد النص الأول، كما فعل المفكر الغربي مع نصه المسيحي الأول، ومع ذلك لم ينجز المفكر العربي شيئا في هذا الاتجاه سوى ترديد هذه الأمنية، حتى أضحى العربي مجرد مجتر لأضخم قضاياه، فإذا تجاوزنا المفكر العربي إلى المفكر المنجز الذي اخترق نصه الأول وهضمه ثم تجاوزه، المفكر الذي نهض بأمته وأنجز لها ما هي فيه من تقدم ورخاء ماديين، وجدناه

وبمنهجية علمية تجريبية رصينة يتجه دون تردد نحو قلب التراث العربي – النص الإسلامي الأول، ويجعله تحت المجهر نفسه الذي درس به نصه "المقدس" ويقوم بتشريحه والحكم عليه، من أنجز هذا المشروع ليس مفكرا عربيا ممن أكثروا من ترديد كلماتهم المملة: نقد النص الأول وزحزحة الثوابت، وكسر الحواجز، وفضح الفكر الغيبي، والخروج بقراءة جديدة للتراث)

بل قام به المفكر الغربي الذي لم يكتف بتناول نصه الأول (التوراة والإنجيل) وقراءته وإسقاط كل مسلماته حتى أثبت – بالمنهج العلمي لا بالمنهج الإقصائي التعسفي – لمعتنقيه أنه لا يستحق كل هذه القدسية التي أضفيت عليه كل هذه القرون. قام بذلك مخترقا آلاف المقاصل والمحارق ومحاكم التفتيش، مسقطا – بالمنهج العلمي التجريبي لا بالشتائم – كل تهم التجديف والكفر ومعاداة الثوابت، وهذا يؤكد أن مبعث خوف المفكر العربي من تناول النص الإسلامي – علميا – ليس ناتجا عن الخوف من ردود الفعل المتوقعة، فبعض العلمانيين العرب الذين طالبوا بإسقاط النص كانوا زعماء دول وقادة ثورات عسكرية. مبعث خوف العلماني العربي في مهمته هو عدم أهليته للقيام بهذه المهمة، وتخلف آلياته، ولما تهور أركون للقيام بهذه المهمة وقدم أطنانا من التبجيل لمهمته وصعوبتها ودقتها أتى بالعجائب، وخرج علينا بنتائج مضحكة ومفعمة بالغباء.

المفكر الغربي وحده قدم دراسة جادة للنص اليهودي والمسيحي والإسلامي معا، أما الكارثة فهي أن هذه الدراسة الجادة والعلمية لم ترق للمفكر العربي، خاصة نتائج دراسته للنص الإسلامي، والسبب هو أنها لم تأت حسب رغبته، كان المفكر العربي يأمل بنتائج مماثلة للني حصل عليها الغربي مع كتابه المقدس.. كان يحلم بنتائج محددة ومسبقة التصميم.. لم يكن يبحث عن النتائج، لذلك تجاهل تلك الدراسات العلمية التجريبية الجادة والموثقة، ويمم نحو دراسات مطاطة ومتميعة تأتي حسب الميول والمواقف، وهي متوفرة بكثرة لدى المفكر الغربي – المستشرق الذي لا ينتمي للمنهج العلمي التجريبي: مؤرخ أديب.. فنان.. سياسي.. مبشر... إلخ، وهي نماذج قابلة للتطويع والالتواء والنكوص بالحجة نفسها، بل هي من أكبر أدوات الكتاب المقدس والكنيسة ورجال الدين، بها سخروا البشر وباعوا العقول وصكوك الغفران.

لقد نجحت الكنيسة في تطويع الشاعر والفيلسوف والمؤرخ وأصحاب الدراسات الأدبية والنفسية، لكنها سقطت أمام رجال العلم التجريبي الذين أطاحوها بعلمهم لا بإيديلوجيتهم ومواقفهم منها، قام المفكر الغربي التجريبي بدراسته للنص الإسلامي الأول بالآلية نفسها التي استخدمها مع نصه، وهو مؤهل لذلك لعدة أسباب منها:

- عدم الاكتراث لردات الفعل الإسلامية.
- الخبرة السابقة في التعامل مع المقدس والوثوقي.
- عدم الانتماء السابق للنص مما يعطي مساحة شاسعة للاستقلال.

- عدم الاطلاع على النصوص التالية (التفسيرية) والتي يسميه أدونيس تأويلات للنص الأول، وهذا ما منح المفكر الغربي انعتاقا من الضغط الذي تمثله تلك الدراسات.
- امتلاك الأدوات التجريبية للقيام بالدراسة.
- التخلص من العقدة الإيديلوجية تجاه النتيجة.
- الدخول للنص مع افتراض بشريته ابتداءً حتى يثبت العكس.
- الموضوعية الملازمة للتجربة والنتيجة.
- الصدق والثبات في النتيجة نظرا لموضوعية البحث.
- أخيرا وهو ما يعطي للنص الإسلامي أقصى درجات المصداقية: العداء التاريخي الذي يجعل من العلماني الغربي لا يتعاطف إطلاقا ابتداءا مع النص قبل دراسته وفحصه.

أجرى المفكر الغربي دراسته مصطحبا الشك، مفترضا أن النص الإسلامي نص بشري حتى يثبت العكس، فخرج بنتائج مذهلة وحقائق خارقة للمألوف، نتائج لم تستطع العقلية العلمانية العربية استيعابها، لأنها خارج قدراتها على المستويين: الموضوعية.. والإمكانات.

لذا لاذ بعض المفكرين العرب بالتجاهل واللامبالاة، بل وبتقديم النصائح بالتوقف عن تلك الدراسات تحت حجة أن تلك النتائج ربما تتغير، فتتغير معها النظرة للنص الإسلامي الأول، وهذا الموقف بالتحديد مثير للضحك إذا صدر من أمثال أدونيس أو العظم أو أركون، لأنه سيصيبهم في مقتل وينسف كل محاولاتهم السابقة لنسف النص، لكنه يثير الحيرة والاستغراب إذا صدر من مفكر بحجم الجابري، الذي يقول في احتجاج غريب وحجة غير منطقية، معترضا على هذا التناول للنص في مقالة له تحت عنوان: (القرآن والعلوم الكونية): (نسمع بين حين وآخر عن صدور بحث أو كتاب في موضوع "القرآن والعلوم الكونية" يضاف إلى سلسلة الكتب التي أخذت تظهر بين حين وآخر منذ القرن التاسع عشر والتي كان أشهرها وأعمها تفسير طنطاوي جوهري. ولا شك أن مقصود هؤلاء المؤلفين مقصود لا تشوبه شائبة إذ يهدفون إلى إبراز شمولية القرآن الكريم ببيان أنه سبق إلى الكشف، أو على الأقل إلى الإشارة، إلى كثير من الحقائق التي لم يستطع العلم الوصول إليها إلا حديثا، مما يشكل مظهرا جديدا من مظاهر إعجازه. ومع نبل هذا المقصد وشرفه فالمسألة في تقديري فيها نظر، وهذه بعض من وجوهه:

١- أن يقوم علماء الغرب بالكشف عن حقيقة علمية، في الأرض أو في السماء، انطلاقا من مبادئ فكرية وفرضيات منهجية لا علاقة لها إطلاقا لا بالقرآن ولا بالدين، أي دين – ومنهم من لا يؤمن بالله أو على الأقل لا ينطلق من إيمانه الديني في عملية البحث العلمي – أقول أن يكتشف علماء الغرب حقائق علمية ثم يأتي أحدنا، نحن الذين لم نكتشف شيئا، ويقول : هذا "موجود" عندنا في القرآن الكريم، ثم يعمد إلى تأويل آيات وألفاظ في القرآن بالصورة التي تخدم غرضه وبطريقة لا تخلو في أغلب الأحيان من تعسف، ضاربا صفحا عن آيات أخرى

يخالف ظاهرها ما يريد أن يثبته بالتأويل – أعود فأقول أن يفعل أحدنا هذا وأكثر، فهذا ما لا يخدم أية قضية من قضايانا، وهذا ما لسنا في حاجة إلى تكلفه؛ بل قد ينقلب الأمر علينا فيسألنا سائل ممن له قضية تناقض قضيتنا قائلا: "وأين كنتم؟ ولماذا لم تزيلوا الستار عن هذه الحقائق العلمية وهي لديكم في كتابكم كما تزعمون؟"، إلى غير ذلك من الاعتراضات والإحراجات التي تزرع الشكوك، والتي نحن أصلا في غنى عنها، لأن قضيتنا أصلا في غنى عن تأييد أو عدم تأييد "الحقائق" العلمية لكتابنا المقدس)

هذه أولى النقاط التي طرحها الجابري والتي أرى فيها صدق نظرتي الخاصة تجاه هذا المفكر، فهو يكن إجلالا واحتراما للنص، بعكس الوقاحة التي يتمتع بها أركون والعظم وأضرابهم. ولو تأملنا كلمات: قضيتنا.. يأتي أحدنا.. لم نكتشف.. نحن في غنى.. لكتابنا المقدس.. لوجدنا مفردات تحمل الإيمان بالقرآن بصورة أخاذة، لكنها تظل – مع كامل تقديري له – رومانسية وغير علمية، لا سيما وخصوم القرآن الذين ذكرهم كانوا وما زالوا يدعون تناقض النص – اعتباطا ودون بحث – مع معطيات العلم الحديث وحقائقه. أما تحفظ الجابري الذي يتضح من قوله: (أن يقوم علماء الغرب بالكشف عن حقيقة علمية، في الأرض أو في السماء، انطلاقا من مبادئ فكرية وفرضيات منهجية لا علاقة لها إطلاقا لا بالقرآن ولا بالدين، أي دين – ومنهم من لا يؤمن بالله أو على الأقل لا ينطلق من إيمانه الديني في عملية البحث العلمي)

فأقول: ليست مهمة العالم التجريبي أن يطلق في بحثه واكتشافه من منطلقات دينية، لأنه سيكون بذلك سيعتمد على الموقف وهو منهج غير تجريبي، بل على التجربة، والتجربة ليست خارجة على الدين بل هي أحد الطرق التي تثبت أو تنفي صحة الدين، فالأنبياء قد أيدهم الله بمعجزات تُرى وتحس وتسمع، فشفاء المرضى وتفجر الماء وانشقاق القمر، كلها أدلة حسية على صدق الرسول، بل إنها عزاء وطمأنينة للرسل عندما تضيق بهم الأرض ويخنقهم التكذيب، قال تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم جعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن لله عزيز حكيم)

وذات يوم جاء جبريل عليه السلام (وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: ما لك؟ فقال صلى الله عليه وسلم له: فعل بي هؤلاء .. وفعلوا، فقال جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع تلك الشجرة. فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. فقال جبريل: مرها فلترجع. فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله: حسبي)[١٥] ثم

(١٥) إسناد صحيح: رواه الإمام أحمد ٣-١١٣، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بـن مالك، والأعمش هو راوية شيخه التابعي الثقة: أبي سفيان،.

إن الحقيقة العلمية حسب العقيدة السلفية هي سنن الله في الكون، أو حسب المصطلح السلفي للقدر، (المشيئة الكونية) فالقرآن يتحدث عن مشيئتين لله:
مشيئة شرعية: وهي أحكامه، وقد منح فيها الإنسان حرية اختيار الإيمان بها أو الكفر، وتنفيذها أو رفضها، وهي التي يحاسب الإنسان عليها لأنه يفعلها بحرية ودون إكراه.
مشيئة كونية: وهي المقصودة في قوله تعالى: (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وهي ما نراه من أنظمة ومظاهر كونية لا يمكن تغييرها، فالإنسان لا يستطيع السماع بعينه ولا الرؤية بكفه، والكون في حركة دقيقة من أصغر من مكونات الذرة إلى أكبر المجرات، ومهمة الإنسان هنا – كما جاء في القرآن – أن يكتشف هذه المشيئة ويسخرها ويستفيد منها: (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)
أما قول الدكتور الجابري: (أقول: أن يكتشف علماء الغرب حقائق علمية ثم يأتي أحدنا، نحن الذين لم نكتشف شيئا، ويقول : هذا "موجود" عندنا في القرآن الكريم). فأقول هذا الكلام فيه مبالغة لسببين:
- الأول: من قال من علمائنا: هذا موجود عندنا، بل العبارة كانت: هذا موجود عندكم، والذي قالها هو العلماني الغربي، والذي اكتشفها هو العلماني الغربي، فموريس بوكاي أخذ القرآن ودرسه ثم أعلن نتائجه، وكيث إل مور أخذ القرآن فدرسه فأعلن نتائجه، وكذلك فعل مارشال جونسون وجولي سمسون وغيرهم من العلماء التجريبيين، هؤلاء الذين انتقدوا كتابهم المقدس (الإنجيل) لأنه يتناقض مع علومهم التجريبية، اكتشفوا أن القرآن ليس فقط غير متناقض مع حقائق العلوم التجريبية الحديثة، بل يقدم معلومات حسية دقيقة يستحيل على بشر على وجه الكرة الأرضية في ظل تلك الظروف والمعطيات التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يصل إليها أو يعلمها، ولم يكتف هؤلاء بتقديم شهادة المصداقية للقرآن، بل قدموا معها شهادة اعتناق هذا النص والإيمان به.
وأعود للجابري فأقول ما الضير في أن نقول ذلك عند اكتشافه، لا سيما بعد تحطيم النظام العلماني لكل ثرواتنا ومقدراتنا، وتسخيرها لحمايته الشخصية وحماية نظامه المتخلف، ما يضيرنا ونحن أصحاب حق أن نفرح باكتشاف الآخر لصدق ما عندنا، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفرح عندما يتحقق صدق قوله على يد مشرك بالله.
الثاني: أن الإعجاز العلمي أصبح اليوم ليس مقتصراً على علماء الغرب التجريبيين، لقد أصبحت المبادرة اليوم بيد علماء الأمة التجريبيين وعالماتها، فبراءات الاختراع والاكتشافات حول الآيات والأحاديث النبوية لا تكف عن التوقف، والكشوفات في تزايد وتنام، ولا ينكرها إلا أعداء الإبداع وجالدي الذات.
أما قول الجابري أن هناك من (يعمد إلى تأويل آيات وألفاظ في القرآن بالصورة التي تخدم غرضه، وبطريقة لا تخلو في أغلب الأحيان من تعسف، ضاربا صفحاً

عن آيات أخرى يخالف ظاهرها ما يريد أن يثبته بالتأويل) فالأمر لا يحتاج إلى تعسف، والمنهج السلفي واضح في التأويل، فالأمور الغيبية التي لم نرها لا تأويل فيها، لأننا لن ندركها ولم نرها، كأسماء الله وصفاته مثلا. أما الأشياء التي بين أيدينا فالتأويل فيها لا بد أن يكون بقرينة وإلا بقي على ظاهره. كما أدركت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، حيث تقول عائشة: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسرعكن لحاقا بي اطولكن يدا قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا. قالت: فكانت اطولنا يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق – صحيح مسلم ٤ – ١٩٠٧) أما الإعجاز العلمي فلا يكون إعجازاً إلا بشرطين:

- أن تكون الآية صريحة.
- أن تكون المعلومة المطابقة لها وصلت إلى مستوى (حقيقة) لا (نظرية).

وأضرب لذلك بمثال حول ذكر الحديد في القرآن، ففي القرآن سورة اسمها (الحديد) وفيها ذكر لتنزيل الحديد، وفيها ملمح إعجازي لا يمكن القفز عليه، لكن لا يمكن القطع به نظرا لعدم صراحة الآية المقصودة، هذ النوع من الآيات تدخل ضمن ما يخشاه الجابري من الجزم، لكن إخفاء ومضاتها والقفز على إشاراتها فيه الكثير من التجني.

سأنقل فحوى كلام الدكتور الزنداني حول هذا الموضوع وتأكيد أستاذ علم الجيلوجيا الدكتور زغلول النجار وهو: (في هذه السورة إعجاز علمي و إعجاز عددي في آية واحدة، أما الإعجاز العلمي فهو قول الله جل وعلا: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فكنت أقول الله يخبرنا عن أن الحديد نزل من السماء، لكن نحن نستخرج الحديد من الأرض، فكان المقدَّر أن يقال خلقنا الحديد لا (أنزلنا الحديد) ووجدنا بعض المفسرين – رضوان الله عليهم – يقولون : أنزلنا بمعنى خلقنا، فيرد عليهم آخرون من المفسرين قالوا: لا، لو أراد الله أن يقول خلقنا لقال خلقنا ولكنه قال: أنزلنا، فلما قابلت البروفيسور (أرمسترونج) من أميركا وهو أحد علماء وكالة الفضاء الأميركية (ناسا) وسألته هذا السؤال قلت له: أخبرني كيف خلق الحديد في الأرض؟ قال: الحديد يستحيل أن يكون خلق في الأرض، الحديد لابد أن يكون قد خلق في السماء ونزل إلى الأرض، قلت: لماذا؟ قال: لأن تكوين ذرة حديد واحدة لما حسبناها وجدنا أنها تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات، فالحديد عنصر وافد من الكون)

ثم يتحدث الزنداني عن شيء مدهش للغاية فيقول: (أما الإعجاز العددي فيقول بعض الباحثين: نحن عندنا معجزة في الحديد، لكن من الناحية الرقمية، وهي: أن الحديد له وزن ذري ومعه خمسة أوزان ذرية، الوزن الذري الأوسط ٥٧، وزن الذرة ٥٧، افتح المصحف.. إذا فتحت أي مصحف الآن ستجد ترتيب سورة الحديد في المصحف هو الرقم (٥٧)... ثم يقولون العدد الذري للحديد ٢٦ للحديد، وآية الحديد في سورة الحديد رقمها ٢٦: هل هذه مصادفة أن يكون رقم السورة هو الوزن الذري ورقم الآية هو العدد الذري؟! عن مقابلة للشيخ عبد المجيد الزنداني

في قناة الجزيرة بتصرف) ومع ذلك تظل هذه ومضة وإشارة، ولكن في الوقت نفسه لا يمكن قفزها أيضاً.
أما المؤاخذة الثانية للجابري فهي قوله: (وهذا يقودنا إلى وجه آخر من وجوه النظر في هذه المسألة: ذلك أن الحقائق العلمية، هي دائما وأبدا، حقائق نسبية، وفي الغالب مؤقتة، لأن العلم ينمو ويتجدد ويتجاوز نفسه باستمرار، بحيث أن كل حقيقة يكتشفها هي معرضة أصلا لأن يتجاوزها اكتشاف علمي آخر، يجعل منها نظرية باطلة أو "حقيقة" لم تعد نافعة ولا مفيدة لكون العلم لم يعد في حاجة إليها. وإذن فربط آية من آي الذكر الحكيم بكشف من الكشوف العلمية ينطوي على مجازفة خطيرة، لأنه لا أحد يضمن أن هذا الكشف العلمي سيظل يشكل بالنسبة إلى العلم والعلماء حقيقة علمية، حتى ولو كان واضحا وضوح النهار، ذلك لأن العلم لا يحترم وجهة النظر البيانية القائلة : "وهل يحتاج النهار إلى دليل؟". إن الشغل الشاغل للعلم هو إقامة الدليل باستمرار على أن "النهار" هو بالفعل "نهار"!)
فأقول أن الجابري لا يقرأ عن آخر حقائق الإعجاز العلمي كغيره من المفكرين المهتمين بهذا الجانب. هناك اليوم حقائق اكتشفها العلم لا يمكن أن تتغير، مثل مراحل النطفة والعلقة والمضغة.. وغيرها... والطريق ممهدة لا كتشاف المزيد من الحقائق والأسرار في الكون والإنسان، وهناك ما يمكن أن يعتبر في مستوى النظرية مثل تلك النظريات التي كنا نقرأها عن احتمال وجود حياة على المريخ وغيره، أو نظريات الثقوب السوداء، بل إن هناك نظريات علمية شبه مؤكدة اليوم تدحض مقولة قدم العالم التي أقضت مضاجع الفلاسفة. ما أريد قوله أن الإعجاز الذي نتحدث عنه ولا داعي لأن يتخوف منه الدكتور الجابري، هو ذلك الإعجاز الذي قاد مارشل جونسون وبوكاي وكيث مور وغيرهم، إلى نقد النص المسيحي اليهودي ككتاب سماوي، والدهشة ثم التسليم بالنص الإسلامي، وأخيرا التخلي عن الإيديلوجيا والموروث باعتناق الإسلام، فما اكتشفوه كان إعجازا لا يمكن القفز عليه أو التهرب منه، إلا عند من لديهم عقلية أركون، وهو ما يمثل خطرا داهما على العلمانية العربية ما لم تتصالح مع آخر كشوفات العلم الحديث.
المأخذ الثالث الذي يسوقه الجابري هو في قوله: (ونتأدى من هنا إلى وجه آخر من وجوه النظر في هذه المسألة: ذلك أن القرآن "بيان للناس". والناس الذين خاطبهم القرآن بلغتهم هم عرب الجزيرة العربية، وقد خاطبهم بطريقتهم البيانية وعلى معهودهم وقدرتهم على الفهم والمعرفة، فلفت نظرهم إلى ظواهر الكون التي تَبين بنفسها لمن تبَيَّن: لفت نظرهم "إلى الأرض كيف سطحت" كما تبدو في شكلها الظاهري للعين المجردة، والتي يراها الإنسان مسطحة سواء كان واقفا أو ماشيا أو راكبا دابة، متجها شمالا أو جنوبا، شرقا أو غربا، طال به السفر أو قصر. ولفت نظرهم إلى حركة الشمس الظاهرة، أي كما تبدو لهم كل يوم وهي "تجري لمستقر لها" وهو مكان غروبها حيث تبدو وكأنها قد استقرت بعد أن غربت... مثل هذا الفهم البياني الذي هو من نوع "وهل يحتاج النهار إلى دليل؟" هو الأنسب، لأنه في متناول الإنسان مهما كانت درجة تطوره الفكري، إنه فهم يقوم على

المشاهدة الظاهرية للشيء، وهو يفي بالغرض، في هذا الموضوع، غرض "الاعتبار" والانتقال من المشاهدة إلى طرح السؤال المطلوب. والسؤال المطلوب هنا ليس من قبيل "كيف يحدث هذا النظام الكوني؟"، بل السؤال المطلوب هو : "من خلق هذا؟")

فأقول: إن هذا هو بيت القصيد، وههنا ينكشف الرعب الذي يتملك الجابري من أن ينسف الإعجاز العلمي نظريته حول العقل العربي، والذي عنيته بقولي تتبع التداعيات بدلا من البحث عن أس الإشكالية. الجابري يرى في الإعجاز نسفا لنظريته البيانية التي أفنى فيها عمرا وجهدا كبيرين ومشكورين. أما حصر القرآن في عصر الصحابة رضي الله عنهم في أنه فقط (بيان للناس) فهو اختزال للقرآن وبخس لقدره، فالقرآن كما يتكلم عن نفسه: (بيان للناس) والناس ليسوا الصحابة فقط. وهو (تذكرة لمن يخشى) لكنه لا يعني خشية الوارث لدينه المقلد للمحيط الذي نشأ فيه، بل خشية العالم الذي يكتشف بعلمه المجهول: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، وإذا كان العلمانيون السطحيون يحاولون توجيه الآية نحو العلم الشرعي، فأود تنشيط ذاكرتهم المهترئة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف غير الأطباء بالجهلة فيه، واستفز طاقات الأمة قبل ألف وأربعمائة عام على اقتحام المجهول في عالم الطب، يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم واسمه: أسامة بن شريك: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كأنما على رءوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت فجاء الأعراب من ههنا وههنا فقالوا: يارسول الله أنتداوى ؟ فقال: تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم - سنن أبي داود ٢ - ٣٩٦) ويؤكد عليه السلام على أن الذي لا يعرف الطب جاهلا به فيقول: (ما أنزل الله داء الا قد أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله – مسند أحمد ١ - ٣٧٧) ولا أعتقد أن صفة الجهل محمودة... هذا الحديث قاد الدكتور الزنداني وفريقه الطبي إلى البحث عن علاج لمرض (الإيدز) الذي أعيى العالم، وقد ثبت نجاح وفاعلية هذا الدواء مخبرياً من مختبرات ألمانيا والأردن واليمن والسعودية وغيرها، ودون أي مضاعفات جانبية كتلك التي تحدثها الأدوية التقليدية. المفاجأة هنا أن الزنداني وفريقه الطبي استوحوا العقار من النص الإسلامي (القرآن والسنة)

لعل الجابري يدرك أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتحدث هنا عن علم التفسير أو التوحيد أو الفقه، إنه يقصد بالتحديد علما ماديا تجريبيا يتم تحصيله عن طريق البحث والتنقيب والتجربة مدفوعا بطموح لا متناه، ولا أظن أن أحدا يزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يمتدح من يرضى بحال الطب في زمنه، إلا إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتدح الجهل. إن حديثه عليه السلام يكشف عن أننا بالنسبة له أمة جاهلة في الطب في زمننا هذا، لأننا نكتفي بعلوم غيرنا دون أن نحرك ساكنا، ولا شك أن هذا الجهل إفراز طبيعي للسياسة العلمانية العربية القائمة على الاستهلاكية في كل شيء، وبقاء الأوضاع على ما هي عليه. والقرآن عندما يتحدث عن مظاهر كونية لا يقتصر كما يقول الجابري على مشاهدات الصحابة ومن يعيش

في زمنهم، كغروب الشمس ورسو الجبال عندما يقول في مقاله السابق أن القرآن: (خاطبهم بطريقتهم البيانية وعلى معهودهم وقدرتهم على الفهم والمعرفة، فلفت نظرهم إلى ظواهر الكون التي تَبين بنفسها لمن تبَيَّن: لفت نظرهم "إلى الأرض كيف سطحت" كما تبدو في شكلها الظاهري للعين المجردة، والتي يراها الإنسان مسطحة سواء كان واقفا أو ماشيا أو راكبا دابة، متجها شمالا أو جنوبا، شرقا أو غربا، طال به السفر أو قصر. ولفت نظرهم إلى حركة الشمس الظاهرة، أي كما تبدو لهم كل يوم وهي "تجري لمستقر لها" وهو مكان غروبها حيث تبدو وكأنها قد استقرت بعد أن غربت... مثل هذا الفهم البياني الذي هو من نوع "وهل يحتاج النهار إلى دليل؟" هو الأنسب، لأنه في متناول الإنسان مهما كانت درجة تطوره الفكري، إنه فهم يقوم على المشاهدة الظاهرية للشيء، وهو يفي بالغرض، في هذا الموضوع، غرض "الاعتبار" والانتقال من المشاهدة إلى طرح السؤال المطلوب. والسؤال المطلوب هنا ليس من قبيل "كيف يحدث هذا النظام الكوني؟"، بل السؤال المطلوب هو : "من خلق هذا؟)

فأقول لا يمكن لمفكر بحجم الجابري، أو لمهرج بحجم أركون والعظم.. لا يمكن لهم القفز على ألفاظ تبوح بها اللغة وتخرس أمامها مشاهدات الصحابة رضي الله عنهم وعلومهم التجريبية البدائية، هذه بعض الآيات التي من المستحيل لعربي أو غربي، مهما بلغت علومه في ذلك الزمن أن يأخذها على ظاهرها من خلال لغتها البيانية، هذه الآيات تنسف مقولته: (خاطبهم بطريقتهم البيانية وعلى معهودهم وقدرتهم على الفهم والمعرفة) والسبب في ذلك أنها تتحدث عن أشياء غائبة عن مشاهداتهم، بل هي عكس شكلها الظاهري للعين المجردة. وسأضرب على سبيل المثال بعض الآيات التي يستحيل لأي بشر قبل ألف وأربعمائة عام أن يتوصل إليها.

يقول تعالى واصفا أمثال أركون والعظم وأبو جهل في تعاميهم عن صحة القرآن، وكفرهم بكونه من عند الله، وإصرارهم على أنه أساطير الأولين: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

محمد عليه السلام ابن الجبال والأودية.. رعى الغنم وتسلق الجبال وتهادى خلال الصحاري، لكنه لا يعرف شيئا عن البحار، لم يركب البحر يوما وبالتالي فهو لا يعرف السباحة فضلا عن الغوص إلى أعماق البحر، والآية التي تلاها على أصحابه تتحدث عن شيء لا يعرفه أحد منهم، ولا يعرفه أحد من العرب ولا العجم ولا الروم ولا حتى من في بلاد الأسكيمو، ولا أهل الأرض من أقصاها إلى أقصاها، إنه لا يتحدث عن موج خرافي داخل بحيرة كما يفعل الإنجيل في قصة يسوع، بل يتحدث عن موجين ليسا في بحرين، بل في بحر واحد لجي عميق. موج سطحي وموج آخر تحته في أحشاء ذلك البحر.

يعرف الناس أن هناك أمواجا للبحار، لكن لو قلت لهم أن هناك أمواجا داخل البحر لسخروا منك، أما الحديث عن ظلمات تحت تلك الأمواج المزعومة فشيء لا يمكن احتماله. لكن الصحابة سلموا بالقرآن كله لأنهم شاهدوا معجزات وأخلاقاً تشهد بالصدق والأمانة للرجل الذي حمله وبلغه.. لمحمد صلى الله عليه وسلم، لذا فلن يضيرهم أن تغيب عن إدراكهم بعض المعلومات التي لا يستطيعون التوصل إليها.
ها هو الرجل الثاني في الإسلام يقرأ آية من القرآن، ثم يستعصي عليه فهم كلمة فيها، فماذا قال؟ يقول أنس بن مالك: (أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : قال الله {وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأباً} كل هذا قد علمناه فما الأب؟ ثم ضرب بيده ثم قال: لعمرك إن هذا لهو التكلف. واتبعوا ما يتبين لكم في هذا الكتاب قال عمر: وما يتبين فعليكم به وما لا، فدعوه - تفسير الطبري ١٢ ـ ٤٥١)
فإذا كان قد غاب عن عمر معنى الأب، فكيف لا تغيب عنه تلك المعلومات الدقيقة عن الأمواج داخل المحيطات، والتي لم تكتشف إلا في عصر العلم الحديث وبعد صنع الغواصات، ومن خلال أجهزة دقيقة للغاية، ليأتي العلماني الغربي بتلك الأجهزة مجهزا على تخرصات المفكر العربي، ومؤيدا عمر بأن للقرآن أعماق أكثر غورا من البحر.
والعلم الحديث يقول لنا: أن الآية الكريمة تشير إلي الظلمة التامة فوق قيعان البحار العميقة والمحيطات، مؤكدة أنها ظلمة مركبة، يلعب كل من السحب، والأمواج السطحية، والأمواج الداخلية دورا أساسيا في إحداثها، وهي حقيقة لم يدركها الانسان إلا في مطلع القرن العشرين. ولما كانت الشمس هي مصدر الحرارة والضوء ومختلف صور الطاقة الأخري (فيما عدا الطاقة النووية) علي سطح الأرض، وعلي أسطح غيرها من أجرام المجموعة الشمسية، كان لزاما علينا الرجوع إلي المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس، للتعرف علي الحواجز التي يمكن أن تعترض أشعة الشمس في طريق وصولها إلي الأرض ومن أهمها الغلاف الغازي للأرض، خاصة جزءه السفلي (نطاق المتغيرات المناخية أو نطاق الرجع) ومابه من سحب.
الظلمة الأولي تسببها السحب: تتكون الأشعة الصادرة من الشمس من كل الموجات الكهرومغناطيسية، ابتداء من الأشعة الراديوية إلي الأشعة السينية، إلا أن الغالب عليها هو الضوء المرئي وكل من الاشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية، بالاضافة إلي بعض الجسيمات الأولية المتسارعة مثل الإلكترونات، وأغلب الأشعة فوق البنفسجية يردها إلي الخارج نطاق الأوزون. وعند وصول بقية أشعة الشمس إلي الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض فإن السحب تعكس وتشتت نحو ٣٠% منها، وتمتص السحب وما بها من بخار الماء وجزيئات الهواء وهباءات الغبار وغيرها من نوي التكثيف الأخري حوالي١٩% من تلك الأشعة الشمسية المارة من خلالها، تحجب السحب بالانعكاس والتشتيت والامتصاص حوالي٤٩% من أشعة الشمس، فتحدث قدرا من الظلمة النسبية.

الأمواج السطحية في البحار والمحيطات تسبب الظلمة الثانية: عند وصول ماتبقي من أشعة الشمس إلي أسطح البحار والمحيطات فإن حوالي٣٥% من الأشعة تحت الحمراء فيها تستهلك في تبخير الماء، وتكوين السحب، وفي عمليات التمثيل الضوئي، التي تقوم بها النباتات البحرية. أما مايصل إلي سطح البحار والمحيطات مما تبقي من الأشعة المرئية(أو الضوء الأبيض) فان الأمواج السطحية للبحار تعكس٥% أخري منها، فتحدث قدرا أخر من الظلمة النسبية في البحار والمحيطات، توهن ضوء الشمس المرئي بمروره في ماء البحار والمحيطات وعن ذلك يتحدث أحد رجال العلم المتخصصين في هذا الشأن:

البروفيسور درجا برساد راو

أستاذ في علم جيولوجيا البحار، التقى به مجموعة من العلماء المسلمين، وعرضوا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فاندهش لما سمع ولما رأى، وهو يقرأ معاني آيات القرآن في بعض الكتب المخصصة لذلك. وكان مما تعرض لشرحه قول الله جل وعلا: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور-سورة النور-٤٠)
قال: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن، بعد أن استعملوا الغواصات وتمكنوا من الغوص في أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين متراً، والذين يغوصون من أجل اللؤلؤ في مناطق الخليج يغوصون في مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق، فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق ٢٠٠م لا يمكن أبداً أن يبقى حياً، وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد في البحار العميقة، ولذلك قال تعالى: (أو كظلمات في بحر لجي...) وليس في أي بحر.
وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق بعض، والظلمات المتراكمة، والتي تتراكم في البحار العميقة تنشأ بسببين.. السببان يكونان نتيجة اختفاء الألوان في طبقة بعد طبقة، فالشعاع الضوئي مكون من سبعة ألوان، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة.
نرى في هذا الشكل الذي أمامنا الشعاع في الماء، فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر في العشرة الأمتار السطحية العليا. فلو أن غواصاً يغوص على عمق ثلاثين متراً وجرح جسمه وخرج الدم، وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر، لأن الأشعة الحمراء غير موجودة. وبعده يُمتص اللون البرتقالي.
وكما نرى في هذا الشكل، الشعاع الضوئي وهو ينزل في أعماق الماء:

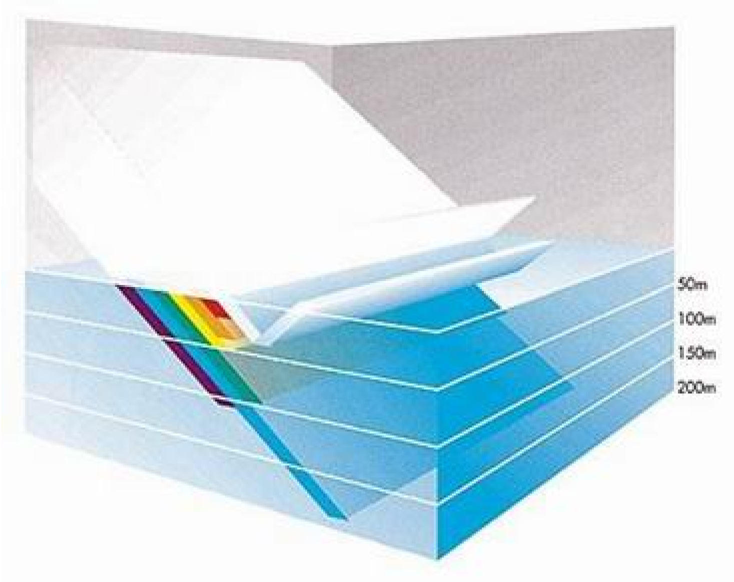

وعلى مسافة ٥٠ متراً يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق١٠٠ متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا. ونرى تحت مائتي متر يكون الامتصاص للون الأزرق.

فإذاً: ظلمة اللون الأخضر تحدث عند عمق ١٠٠ متر، وظلمة الأصفر تكون على عمق ٥٠ متراً، وقبلها ظلمة اللون البرتقالي، وظلمة اللون الأحمر.

فهي ظلمات بعضها فوق بعض، وأما السبب الثاني فيكون بسبب الحواجز التي تحجب الضوء، فالشعاع الضوئي الذي نراه هنا ينزل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه، فتنشأ ظلمة تحت السحب: هذه الظلمة الأولى.

فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى سطح البحر المتموج، انعكس على سطح الموج فأعطى لمعاناً. ولذلك نرى إذا حدث موج في البحر كان اللمعان شديداً على حسب ميل سطح الموج، فالموج إذاً يسبب عكساً للأشعة، أي يسبب ظلمة، ثم ينزل الشعاع الضوئي إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين: قسم سطحي، وقسم عميق.

أما السطحي فهو الذي يوجد فيه الظلام والبرودة، ويختلف البحران في خصائصهما وصفاتهما، ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحي والبحر العميق.

هذا الموج الداخلي لم يكتشف إلا عام ١٩٠٠م، وتحت الموج العميق الذي يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك في هذه المناطق لا ترى بأعينها، بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها في هذه الظلمات التي تراكمت بعضها فوق بعض، جاء ذكرها في قوله تعالى:(أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج..).

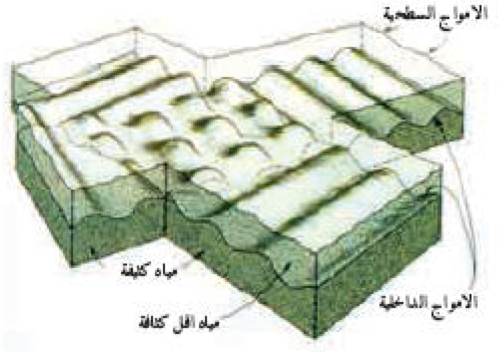

وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام، ونرى فوقه الموج الأول الذي يفصل بين البحر السطحي والبحر العميق (يغشاه موج من فوقه موج) أي من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذي يكون على سطح البحر (من فوقه سحاب) فوقهم (ظلمات بعضها فوق بعض) ظلمات هذه الحواجز، وظلمات الألوان في طبقات بعضها فوق بعض (إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) في هذه المناطق ظلام شديد، والغواصات تنزل إلى هذه المسافات فلا ترى شيئاً، وتستخدم مصادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها، فمن أخبر محمداً صلى الله عليه وسلم عن هذه الآيات؟ ثم قال العلماء المسلمون: كان هذا مما حدثنا عنه البروفيسور (راو) ثم استعرضنا معه كثيراً من الآيات المتعلقة بالبحار، وفي مجال تخصصه، ثم قلنا له: ما هو تفسيرك يا أستاذ راو لهذه الظاهرة؟ ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.. كيف أخبر محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق منذ ١٤٠٠ عام؟

فقال البروفيسور (راو): من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجوداً في ذلك الوقت منذ ١٤٠٠سنة هجرية، ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة، ولكن وصف هذه الأشياء بتفصيل كبير أمر صعب جداً، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علماً بشرياً بسيطاً، لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فقد فكرت في قوة خارقة الطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة.

ثم يعقب الشيخ الزنداني بقوله: نعم، لا بد أن يكون مصدر هذا العلم من جهة ليست في مستوى البشر، ولا في مستوى الطبيعة كما يقول الأستاذ (راو)، إنها، إنها فوق الطبيعة، فوق الطاقة البشرية... حقاً إنه كلام الذي يعلم هذه الطبيعة ويعلم هذا الكون ويعلم الأسرار فيه (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض) إنه من عند الله سبحانه وتعالى. وهكذا تتضافر شهادات العلماء شهادة بعد شهادة لبيان أن هذا الهدى وأن هذا النور يحمل برهان صدقه فيه فهو الهدى وهو الحجة وهو البينة المتجددة إلى قيام الساعة. (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) (سورة سبأ، الآية:٦). ويقول

الزنداني: (سألت عدداً من أساتذة علماء البحار من الشرق ومن الغرب عن هذه الظلمات وأسبابها فكانوا يجيبوني بأن أسباب هذه الظلمات في أعماق البحار ترجع إلى سببين رئيسيين:

الأول: العمق لأن الشعاع الضوئي يتكون من سبع ألوان والألوان عندما تخترق الماء لا تخترقه بقوة واحدة بحسب اختلاف طول الموجة ولذلك يمتص اللون الأحمر على مسافة العشرين متر الأولى، فلو أن غواصاً يغوص وجرح وخرج منه دم وأراد أن يرى الدم لا يراه باللون الأحمر بل يراه باللون الأسود، لماذا؟..... لأن اللون الأحمر انعدم فأصبحت هناك ظلمة اللون الأحمر. ثم بعد ذلك يمتص اللون البرتقالي على مسافة ٣٠ متر، ، كما في الصورة السابقة التي توضح امتصاص الألوان بحسب العمق. ثم يمتص اللون الأصفر على مسافة ٥٠ متر، ثم يمتص اللون الأخضر على مسافة ١٠٠ متر، وهكذا بقية الألوان السبعة. آخر لون يمتص الأزرق ولذلك نرى البحر أزرقاً لأنه آخر شعاع يعني يمتص، بعد هذا العمق.. بعد هذا العمق نصل إلى ٢٠٠ متر ثم نصل إلى منطقة الظلام الشديد، هذه الظلمات – كما ترى- ظلمات بعضها فوق بعض.

ثم النوع الثاني: ظلمات حواجز الأمواج الداخلية والخارجية والسحاب.

فالموج الداخلي، والموج السطحي، والسحاب، كلها حواجز تمنع مرور الإشعاع الضوئي إلى الأسفل.

أما السحاب: فمن المعروف أنه إذا وجد سحاب وجد له ظل، أي وجد له ظلمة.

والموج السطحي كما هو معروف مائل فعندما يسقط الإشعاع الضوئي فإنه ينعكس فإذا وقفت على شاطئ البحر فسترى الأمواج تنعكس منها الأشعة إلى عينيك وكأنها مرآة..

أما الموج الداخلي، فالموج الداخلي الذي يغطي البحر العميق الذي أكتشفه البحارة الاسكندنافيون في عام ١٩٠٠ ميلادية، ولم يتمكن الإنسان من أن يعرف الظلمات إلا بعد عام ١٩٣٣ ميلادية لما بدأت صناعة الغواصات فهو يعكس معظم ما بقي من أشعة، ولذلك تأتي بعد الموج الداخلي المنحدر الحراري، فهناك انحدار واسع في درجة حرارة الماء، إذن هذه الظلمات موجودة، سببها الأعماق، سببها الحواجز، تركيبها بعضها فوق بعض، انظر إلى هذا الوصف القرآني (أو كظلمات – ظلمات – في بحر لجي) فنسب الظلمات إلى عمق البحر (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات) ظلمات مرة ثانية ظلمات.. ظلمات جاء ذكرها بعد ذكر الحواجز، فكأنه يقول لنا: هذه الظلمات سببها الأعماق وسببها الحواجز، ثم يستعمل لفظ "ظلمات" الذي هو من جموع القلة وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، فأنت تقول ظلمة وظلمتان وثلاث هنا إشارة إلى عشر ظلمات.

فالآية تكلمنا (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات) فهي جموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، سبعة للألوان وثلاثة للحواجز، ثم يستعمل لفظاً آخر، فعل المقاربة قال: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من

فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)، (لم يكد يراها) و"كاد" من أفعال المقاربة، ونفيها يعني نفي وقوع الفعل البتة، أو مقاربة النفي، والمفسرون قالوا: هذا له معنيان.. قالوا: (لم يكد يراها) أي يراها بصعوبة وآخرون قالوا: لا.. لا يراها البتة، فاستعمل هذا التعبير الذي يدل على المعنيين، وهذا ما يحدث في البحر ففي الطبقات التي مازال فيها شيء من ضوء لا ترى يدك إلا بصعوبة لكن إذا نظرت لأسفل لا تراها البته أبداً)

ما قاله الزنداني، وما قاله العلماء التجريبيون، وما قدموه من كشوفات علمية، وتلك المعلومات القرآنية الخارقة والمعجزة في مصداقيتها.. كل ذلك بالنسبة للعلماني العربي: ماضوية وإسلاموية ورجعية، أما بالنسبة للعلماني الغربي المبدع، والمنجز، والمكتشف، والمخترع فتعني التسليم بأن القرآن وحي إلهي، وأن مصدره لا يمكن أن يكون بشريا على الإطلاق.

تلك الكشوفات وتماهيها مع النص القرآني المعجز فضحت المقولة المهترئة التي يلوكها العلماني العربي ببلاهة وهي مقولة: (لا أحد يملك الحقيقة).

ملخص قول العلماء

قال القرآن قبل ألف أربعمائة عام: (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور-النور ٤٠)

السؤال الملح هنا هو: من غير الله الخالق يمكنه ان يعطي كل نوع من أنواع تلك الأحياء البحرية العميقة، هذا النور الذاتي؟ ومن غيره يمكن أن يتطابق كلامه قبل ألف وأربعمائة عام مع العلم في أوج تقدمه، وما هو الكتاب الذي يتطابق بعد ألفاظه المادية مع بعده المعنوي الرفيع: (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

وإذا كان القرآن محرضا للعقل كما في قوله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)، فإنه لا يحرض قريشا فقط، ولا يحرض العرب فقط.. إنه يتجاوز قريشا والعرب والعصر النبوي في آيات عديدة تتخطى إمكانياتهم ومعطيات زمنهم، والتقنية البدائية التي كانت متوفرة في عصرهم.

الله يصف كلامه بأنه: (ذكر للعالمين) لكنه في الآية نفسها وبعد هذه الكلمة مباشرة يقول للمستقبل: (ولتعلمن نبأه بعد حين) (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فهل بلغ الصحابة آفاق الأرض والسماء؟

إنه يتحدث عن آيات ستثبت للمستقبل مهما كان متقدما علميا أنه الحق.. هذه الآيات منثورة في آفاق السماوات والأرض، وفي أعماق الإنسان وجسده.. آيات سيراها الناس إذا بحثوا عنها، فكيف يطلب الجابري عدم الاحتفال بالعثور عليها.. كائنا من كان ذلك الذي وضع يده عليها، لأن الهدف: هو أن (يتبين لهم الحق)، القرآن يفتح أفقا ليس بمقدور الجابري أن يستوعبه، فالجابري عروبي يحاول حصر القرآن بالعرب، وبالتحديد بما وصفه بالمنظومة البيانية، بينما القرآن يقول: (سنريهم آياتنا) إنه يقول: سنريهم. ولم يقل سنريكم، ويقول أن تلك الآيات (في الآفاق وفي أنفسهم) أي في هذا الكون الهائل، وفي تكوين الإنسان المعجز، وحدده

بأنفسهم، وكأنه يلمح إلى أن عملية الكشف ستتم هناك، حيث هم، لا حيث نحن، وكأنه يشير إلى تخلفنا اليوم وتقدمهم، وأنهم هم من يكتشف لا نحن، أما الهدف فهو الأسمى والأرقى: (حتى يتبين لهم أنه الحق)
يتبين لهم هم. قال: (يتبين) ولم يقل حتى يعتنقوه، فهم أحرار.. من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، لكن التبين هنا، هو كشف المجهول وإزالة اللبس والغموض، وهي مهمة يجيدها العلماني الغربي بامتياز.
هذه هي كلمات القرآن، فلم يضيق الجابري بكشوفات علمية، وهو الذي ما تناول العقل العربي إلا لمحاولة إخراجه من أزماته، التي أوصلته كما يشير إلى أن مشروع النهظة العربية يسير إلى الخلف بدلا من الأمام.
ليس عيبا أن يكتشف الإعجاز العلمي غربي أو شرقي، أو مسلم أو مسيحي أو حتى وثني أو ملحد.. العيب أن يقصي ويتطاول على هذه الكشوفات العلمية المذهلة كاتب ظلامي إنشائي مثل أركون، فيقول عن كتاب موريس بوكاي التجريبي الموثق علميا ومخبرياً بأنه من : (المؤلفات التي تستغل اليوم هذا الموضوع التبجيلي نجاحا ضخما لدى الجمهور، انظر الكتب التالية: التوراة والقرآن والعلم: الكتابات المقدسة ممتحنة على ضوء المعارف الحديثة، منشورات سيغرز ١٩٧٦، المؤلف موريس بوكاي (m.bucaille) كتاب تبجيلي هزيل جداً)
إن من يتأمل كلمة هزيل جداً يظن أن قائلها مرجع علمي حائز على جائزة نوبل في العلوم، أو منافس لبوكاي في المهام التي أسنتدتها إليه المراجع الفرنسية العلمية. لكنها في الحقيقة كلمات رجل مجنون بتسفيه كل نتيجة تصادم إيديلوجيته، حتى ولو خرجت هذه النتائج من أرقى المختبرات وأدق الأجهزة العلمية الحديثة. ويبدو أن الرجل موال لفرنسا السياسية المعادية للإسلام.. معاد للإسلام ولو اعتنقه الفرنسيون، لدرجة وصف كتاب: (وعود الإسلام) للكاتب الفرنسي روجيه جارودي، قائلا: (كتاب هزيل أيضا)، قال كلامه الغث هذا في كتابه (الفكر الإسلامي٨٣)
أعود فأقول لا يهم من يحصل على النتيجة، فالمهم هو النتيجة، والنتيجة هي: (هل يمكن أن تصدر هذه الكلمات عن بشر يعيش في ذلك العصر، هل هي كما قالت قريش: كلام شاعر وأساطير الأولين، أم كما قال المستشرقون وأركون أنها نتيجة صرع أو منتج بشري ونقل مشوه عن الكتاب المقدس، ويؤيدهم في هذا الاتجاه العلمانيون العرب، أم هو كما قال محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنون به والعلمانيون الغربيون التجريبيون: أنه من عند الله.
ثم يعقب الجابري قائلا: (وإذن، فالعمل الذي يقوم به المؤلفون المحدثون في موضوع "القرآن والعلوم الكونية"، والذي يعتمد كما قلنا على تأويلات وأحيانا على تحليلات غير ناجحة في الغالب، هو عمل فيه تكلف كبير ومظنة لإثارة الشكوك. نعم أنا أستثني من ذلك ما قام به طنطاوي جوهري في تفسيره، لأن الدافع الأساسي الذي كان وراء تفسيره القرآن بتوظيف العلوم الطبيعية إلى أبعد حد – كما كانت متداولة في عهده – هو في ما أعتقد دافع آخر مختلف تماما، ومشروع

تماما، وكانت نهضة المسلمين في حاجة إليه. لقد كان الرأي السائد آنذاك عند الجمهور وعند كثير من الفقهاء أن الاشتغال بالعلوم الطبيعية حرام. وهذا رأي كرسه الغزالي بكتابه "تهافت الفلاسفة". وبما أن "العلم الطبيعي" الذي أفتى الغزالي بتحريم بعض مسائله هو "العلم" الذي كان يوظفه الباطنيون (الإسماعيليون) في إثبات عقائدهم المخالفة لعقائد أهل السنة، والمبتعدة كثيرا عن منطوق القرآن ومفهومه البياني ابتعادها عن معهود العرب، وبما أن هذا "العلم" قد بقي هو كل ما يعرفه الفقهاء، فقد ظلوا ينظرون إلى العلوم الطبيعية الحديثة، بل إلى كل علم لا يدخل في دائرة علوم الدين وعلوم اللغة، نظرة ملؤها الحذر والحيطة، وبالتالي نهوا الناس عن الاشتغال بها. ومن هنا قام طنطاوي جوهري بتفسير "جديد" للقرآن الكريم مبينا أن العلوم الطبيعية الحديثة تختلف في طبيعتها ومقاصدها عما كان يتصوره الفقهاء من كونها قد تجر إلى "الكفر"، وأنها بالعكس من ذلك تشهد بصدق القرآن، والقرآن يشهد بصحتها. ومن السهل بعد هذا استنتاج ما كان يرمي إليه طنطاوي وهو أن تعلمها واجب ضروري، خصوصا وهي قد أصبحت سبيلا لاكتساب القوة والمنعة. كان هدف طنطاوي جوهري خدمة قضية كانت مطروحة في عصره. وقد نجح هو وأمثاله في إقناع من لم يكن مقتنعا بأن تعلم العلوم الطبيعية ليس مباحا فحسب بل هو فرض في العصر الحاضر. وبما أن هذه القضية أصبحت الآن منتهية فالمحاولات والاجتهادات في موضوع "القرآن والعلوم الكونية" قد صارت اليوم غير ذات موضوع)

لا أدري من أين يستقي الجابري معلوماته واستنتاجاته! من من العلماء والفقهاء وصف العلوم التجريبية بأنها علوم محرمة؟ الغزالي.. وفي موقف هو ردة فعل لا أكثر على تهورات علم الفلك المتخلف آنذاك، وتعاطي السحر وادعاء علم الغيب في عصره. ومن قال إن العلماء الذين يتحدثون عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة اليوم يعتمدون كما قال الجابري: (على تأويلات وأحيانا على تحليلات غير ناجحة في الغالب، هو عمل فيه تكلف كبير ومظنة لإثارة الشكوك)

هذه المغالطة تكمن في خلط أوراق عديدة وبشكل فوضوي للغاية، فعلماء الإعجاز العلمي لا يتكئون على تأويلات وتحليلات غير ناجحة، ولا يمارسون تكلفا كبيرا يثير الشكوك، لأنهم أنفسهم من العلماء التجريبيين وهم حذرون من المجازفة والتأويل والتهور كما يفعل العظم وأركون، ولديهم براءات اختراع على ما يقولون، وشهادات علمية معترف بها من أرقى جامعات العالم. أما خلط الأوراق فيتضح جليا في ذلك المزج الغريب بين عصور متناقضة تماما، فعصر الغزالي وإخوان الصفا، ثم عصر طنطاوي جوهري، ثم عصر موريس بوكاي والنجار وكيث مور، عصور ثلاثة لا رابط بينها علميا، فعصر الغزالي لا يختلف كثيرا عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك فلا قيمة لما يقوله هؤلاء حول علوم الطبيعة، بموازاة قول القرآن وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم حول النظر والسياحة والتفكر واكتشاف المجهول، أما عصر طنطاوي جوهري فيمثل سيطرة الغربي المتقدم على العربي المستلب المتخلف المُستعمر المسلوخ عن إسلاميته، العربي كان يعيش حالة تقزم

أمام الغربي على كافة المستويات، كما أن العلماني التجريبي كان في حالة جهل تام بالنص القرآني والسنة النبوية، بالإضافة إلى أن العلم التجريبي لم يبلغ من النضوج والرقي كما هو اليوم.
أما ما قاله حول حقائق العلم التي قدمها الإسماعيليون لعصرهم وأنكرها الغزالي، فلا أدري كيف سماها الجابري بالحقائق.. ومن غيره سماها حقائق؟ !
إنها خرافات مضحكة وتثير الاشمئزاز – سأذكر بعضها كمثال – فضلا عن كونها تخالف صريح القرآن، أما الغزالي ومن وافقه من العلماء فأنكروها لأنها تتعارض مع النص القرآني، كما أن إثباتها كان من المستحيلات علميا، وهو ما يناقض كلام الجابري نفسه الذي يقول: (أما أن يكون المؤلفون المعاصرون يهدفون إلى إثبات أن "العلم" يزكي القرآن، فهذا ما لسنا في حاجة إليه، ولا كان القرآن في يوم من الأيام في حاجة إليه. إنها عملية إيديولوجية، إذا قبلناها وسلمنا بفائدتها، كان علينا أن نقبل توظيفا إيديولوجيا مماثلا للقرآن الكريم عرفه التاريخ الإسلامي، وهو التأويل الإسماعيلي. وكما هو معروف فالمذهب الإسماعيلي يقوم كله على تأويل القرآن وفق،"الحقائق العلمية" التي كانت سائدة في ذلك العصر (القرون الثالث والرابع والخامس الهجري) "حقائق" الفلسفة الدينية الهرمسية. لقد بنوا عقيدتهم على "حقائق" يحكم العلم اليوم ببطلانها ثم عملوا على تأويل القرآن بالشكل الذي يزكي تلك الحقائق ثم قلبوا الأمر فقالوا إن مذهبهم هو وحده الصحيح لأنه "يشهد" له القرآن و"العلم" معا.
وقد رد أهل السنة عليهم ردودا... منها رد الغزالي المشار إليه. غير أن معظم تلك الردود كانت تستند إلى حجج "كلامية" وتعتمد أساليب المتكلمين، أساليب الجدل، وهي أساليب لا تحسم الموقف، وكل ما تستطيع فعله هو إثارة الشكوك في دعاوى الخصم بإفساد حججه. أما الرد الحاسم والقول الفصل، في نظري، فقد جاء في إطار محاولة جريئة ترمي حسب قول صاحبها إلى "تأصيل الأصول"، محاولة الفقيه الأصولي أبي اسحاق الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ الذي دعا إلى بناء أصول الشريعة على مقاصدها. فالشارع (الله) وضع الشريعة بقصد أن يفهمها الناس الذين خاطبتهم فجعلها على قدر أفهامهم. وبما أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم كانوا أمة أمية - يقول الشاطبي - فإن "هذه الشريعة المباركة أمية لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح"، أي أن "الشريعة التي بُعث بها النبي الأمي عليه السلام إلى العرب خصوصا وإلى من سواهم عموما" هي "على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية" وهو"معنى كونها أمية أي منسوبة إلى الأميين. وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما عهدوا، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد، وذلك خلافُ ما وقع عليه الأمر فيها، فلا بد أن تكون على ما يعهدون، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية، فالشريعة إذن أمية".
ثم يمضي الشاطبي في استعراض علوم العرب في الجاهلية ومنها "علم النجوم وما يختص به من الاهتداء في البر والبحر"، و"علم الأنواء وأوقات نزول المطر" الخ، ليقرر أن العلوم التي يجب أن يفهم بها القرآن هي هذه العلوم التي

كانت لدى العرب والتي خاطبهم القرآن في إطارها فأقر بعضها وأبطل بعضها الآخر (كالكهانة والسحر)... ثم يتعرض للحديث عن أناس "تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (= الرياضيات) والمنطق" ويقول: "وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح"، أي إذا نظرنا إليه من منظور مقاصد الشرع وجدناه عملا لا يدخل في إطارها وبالتالي فهو تجاوز على ا لقرآن. وبعد ألا يصدق هذا على عمل معاصرينا من مؤلفي الكتب في موضوع "القرآن والعلوم الكونية"؟ سؤال نطرحه للتأمل)

أقول للجابري: إن نظرية الشاطبي عميقة وعظيمة في الشأن التشريعي القائم على جلب المصالح للأمة ودرء المفاسد عنها، وليس لها علاقة بالإعجاز العلمي، فالحقيقة العلمية حقيقة لا مجال لإنكارها أوتأجيلها.. إنها أشبه بالمعجزة التي لا ينكرها إلا مناكف ومعاند، والإعجاز العلمي هو رسالة بحد ذاتها، لا تعني أن القرآن كتاب فلك أو طب أو جيولوجيا، بل تعني أن من أتى بها لا ينطق عن الهوى، وما في أعطافها من عقائد حقيقة مثلها، وما فيها من تشريعات فمن عند الله. أما بحوث طنطاوي، ورغم هدفه السامي في ذلك إلا أن فيه تكلف ومبالغاة ناتج عن قصور العلم التجريبي في عصره عن العلم التجريبي اليوم، خاصة مع تطور الأجهزة الحاسوبية الدقيقة، ودخولها إلى عالمنا العربي رغم حصار التخلف العلماني العربي المضروب حولنا، أما موقف الغزالي فخاطيء لا شك لو كان الإسماعيليون يعتمدون أجهزة حساسة ودقيقة، لكنهم يقدمون هراءا لا دليل عليه، وخزعبلات هي أقرب لكلام السحرة والمشعوذين،

فمثلا في إنجيل الإسماعيليين وكتابهم الشهير (إخوان الصفا ٢-٤٢١) نجد مؤلفوه يقولون كلاما أحط من كلام العجائز، ومن الأمثلة على ذلك قولهم: (أن النطفة يبتلعها دم الحيض ويكون حولها دائرة، ثم تتولى إدارتها قوى روحانية من كوكب زحل. ثم تنتقل النطفة إلى علقة لتنتقل خدماتها الروحانية إلى كوكب آخر وهلم جرا)

الغزالي يحرم الحديث عن الكون بهذه الطريقة الوثنية، التي لا تمت للتجربة والعلم بصلة. وأما قول الجابري أن الإسماعيلية كانوا يتحدثون عن حقائق العلم في عصورهم، فكلام غريب ويستغرب أن يصدر من شخص مثله، أي حقائق يتحدثون عنها؟! قد يقبل هذا الكلام من أدونيس نظرا لانتمائه الطائفي.

لنتأمل هذه العناوين في كتاب (إخوان الصفا) لنعرف أي خرافات كان الإسماعيليون يغرقون ويغرقون الناس فيها:

- مشاكلة جسم الإنسان للدوائر دون فلك القمر
- معرفة سن السارق
- المنجم لا يدعي علم الغيب
- صفة الربع المسكون من الأرض

وهناك معلومات تغلبوا فيها على الأقمار الصناعية وكافة الأجهزة الحديثة، بل على وكالة ناسا للفضاء، مثل قولهم ١- ١٦٣: (الأرض نصفها مغطى بالبحر الأعظم

المحيط، والنصف الآخر مكشوف مثلها مثل بيضة غائصة نصفها في الماء، والنصف ناتيء من الماء) أما تفاصيل الإسماعيلية فشيء لم تصل إليه وكالة ناسا نفسها حتى اليوم.

الإسماعيليون يعتمدون على السحر والتنجيم وبعض الرياضيات، وتوليفة من العقيدة الهرمسية ممزوجة ببعض الإسلاميات، فكيف يصف الجابري علمهم بالحقائق، أما كون علماء الإعجاز العلمي اليوم يؤولون الآيات لتتوافق مع حقائق العلم الحديث تماما كما فعل الإسماعيليون، فيدل على أن الجابري يعيش في التراث ولم يخرج منه حتى الآن، لم يخرج منه لقراءة علم الإعجاز بجدية كما فعل مع علوم عصر التدوين، ولا أدري كيف تغيب عنه أمثال تلك المواضيع، ومواقعها في الإنترنت أصبحت شهيرة جدا، مثل موقع: موقع: "موسوعة الإعجاز العلمي"، وموقع "هيئة الإعجاز"، و"إنه الحق" وموقع "هارون يحيى" و"زغلول النجار" ومواقع أخرى. ولو اطلع عليها وهو الذي لا يكل من القراءة لما قال ما قال، وسيمر معنا من الشواهد ما يكفي على ذلك.

أما تأكيده بالنقل عن الإمام الشاطبي على علوم العرب، فالأمر هنا يتعدى فهوم العرب وعلومهم، والشاطبي رحمه الله قدم رؤية خاصة به تتعلق بالعلوم الطبيعية، والأمر أوسع أفقا من أفق العرب، الأمر يتعلق بكتاب من عند الله للدنيا كلها، وليس لعرب أو أعراب عاشوا وماتوا، القرآن يقدم معلومات واضحة لا يمكن القفز عليها، وقد جاء العلم التجريبي الحديث الذي نسف الكنيسة والكتاب المقدس، وأوصل الإنسان إلى القمر ليؤكد صحة القرآن. العلم التجريبي الحديث ليس علما درزيا سريا، ولا نصيريا إسماعيليا هرمسيا، وليس فيه سحر أو شعوذة أو كهانة أو ضرب بالرمل، أو قراءة للفناجين أو القدور، هو علم بحت، يكشف عجائب صنع الله وقدرته، ويسخر الكون لرفاهية الإنسان، وما دام القرآن كلام الله، فلا يمكن أن يقدم كلام الله معلومات خاطئة عن خلقه.

كما أن الإعجاز العلمي لا يقتصر على الإعجاز في الفلك والبحار والأنهار والإنسان والحيوانات والحشرات والأشجار. هناك إعجاز آخر في التاريخ وعلم الآثار وأشياء مذهلة لكن المفكر العربي في غيبوبة عنها.

وأخيرا يقول الجابري أن: (هذا ما لا يخدم أية قضية من قضايانا، وهذا ما لسنا في حاجة إلى تكلفه؛ بل قد ينقلب الأمر علينا فيسألنا سائل ممن له قضية تناقض قضيتنا قائلا: "وأين كنتم؟ ولماذا لم تزيلوا الستار عن هذه الحقائق العلمية وهي لديكم في كتابكم كما تزعمون؟"، إلى غير ذلك من الاعتراضات والإحراجات التي تزرع الشكوك، والتي نحن أصلا في غنى عنها، لأن قضيتنا أصلا في غنى عن تأييد أو عدم تأييد "الحقائق" العلمية لكتابنا المقدس)

أقول لا داعي للحرج أبدا، ولن تتسرب أية شكوك، بل سيكون البديل للشكوك مزيدا من اليقين والتأكيد على سلامة القرآن من التحريف.

لقد استمعت إلى هراء الطبيبة السعداوي عن ختان الذكور وجزمها بخطورته على الصحة، حتى خيل إلي من قولها أنها تحمل وثائقها بيدها، لأنها طبيبة، وبعد

أسابيع من ثرثرتها وتخاريفها تخرج علينا مختبرات الولايات المتحدة الأمريكية العلمية بشهادات علمية تؤكد أهمية الختان وفوائده الصحية الطبية، فأدركت أن العلماني العربي ميؤوس منه ولو كان تجريبيا.

أعود للجابري فأقول: المدهش أن أحدا من العلماء التجريبيين الذين اكتشفوا تلك المعلومات لم يطرح هذا السؤال الذي افترض الجابري أن يطرح وهو: (وأين كنتم؟ ولماذا لم تزيلوا الستار عن هذه الحقائق العلمية وهي لديكم في كتابكم كما تزعمون)

كان كلام أولئك العلماء الغربيون الرواد هو: إن المعلومات التي تقولونها لا يمكن أن تصدر من بشر يعيش في زمن نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، فلا تفسير لها إلا أن تكون من عند الله، كان جوابهم هو اعتناق هذا النص والتبشير به، فهم لا يعيشون إيديلوجية التفكير الجابرية، أين أنتم؟ كانت المعادلة قبل اكتشاف الحقيقة من قبل العلماني الغربي هي: أنتم مقابل نحن – الجهل مقابل العلم، أما بعد اكتشافها فتحولت إلى: علم تجريبي مقابل الحقيقة.

كنت أتوقع أن غير الجابري يهون من شأن الإعجاز العلمي كما فعل أركون والعظم وغيرهم، لأن ذلك النوع من العلمانيين يشعر بانقراض أفكارهم، وهي أفكار تردد دون – وعي أو علم – أن النص الإسلامي في واد والعلم الحديث في واد آخر. وما دام الأمر كذلك فإنني أعتقد جازما، أن مبعث القلق على النص هو في العقلية العربية، التي وصفتها في البداية بأنها مأخوذة بالسطح لا بالعمق، وبالأفرع لا في النبع. لقد قام المفكر العربي بتجاهل النص كوثيقة لينشغل: إما بإعلان العداء للنص والدعوة لإقصائه، حالماً بالإنجاز الذي حققه العلماني الغربي على الكنيسة والإنجيل. أو بالقفز على النص ذاته والانشغال بتداعياته، وبالتالي محاكمة الإسلام من خلال تلك الجداول لا من خلال النبع. والجابري في قراءته للعقل العربي يقع في إشكالية أفضت به إلى نتائج غير دقيقة، ذلك أنه لم يستطع التخلي عن حضور الحاضر العربي وضغط أزماته وصراعاته في ذهنه، مما استدعاه إلى حمل هذا الحاضر متجها به إلى أبعد نقطة من الماضي تحمل تشابهاً في الصراعات الثقافية، بحيث يمكن إنزال الواقع العربي اليوم عليها، وتوظيفها كجذور لإشكاليات واقعنا، وهذا ما جعله يقع في مأزق الانتقائية والتناقض معا، لأنه تحول إلى باحث عن مشاكلة، لا عن جذور وأعماق، ويمكن الكشف عن ذلك الخلل من خلال النقاط التالية:

العصر العباسي الذي تبلورت فيه المنظومات المعرفية الثلاث: (البيانية، والعرفانية، والبرهانية) ليس عصرا عربيا، وإن كان يكتب بالعربية ويتكلم بالعربية، ويتحاور بالعربيو، إنه عصر إسلامي محض.

تلك المنظومات الثلاث لم تكن منظومات عربية، كانت منظومات إسلامية أو ملصقة بالإسلام، فالعروبة لم تكن موجودة آنذاك إلا كغلاف.

لم يعلن أحد من أئمة تلك المنظومات الثلاث تبنيه لمنهج فكري عربي.. كانوا كلهم إما مدافع عن منهجية الإسلام، أو مدافع عن علاقة منهجيته بالإسلام.

عندما كتب الجابري عن العقل السياسي عاد إلى نقطة أقصى من النقطة التاريخية السابقة.. عاد إلى أول سنة هجرية، بل إلى ما قبلها وهنا الانتقائية والتناقض.
تلك النقاط تفصح ان ما يسمى بـ(العقل العربي) كان معدوما تماما كما انعدمت الجاهلية، وأن محاولة حمل الواقع العربي المتهالك لتركيبه على سلف إسلامي، كمن يحاول تركيب رأس ديك على رقبة أسد، الجابري يتحدث عن مكونات عقل معدوم، فعليه أولا أن يثبت العرش ثم يبدأ النقش، ولو سلمنا له جدلا أن العقل العربي ثقافيا وفكريا بدأ يتشكل بعد ظهور المنظومات الثلاث، فلم عاد بالعقل السياسي إلى عصر البعثة النبوية، وهل تتكون الدولة العقائدية إلا بعد تشكل عقلها، إنها ليست انقلابا أحمر ولا أبيض، وليست غزوا واغتصابا، وليست ملكاً وراثيا ورثه محمد عن أسلافه، وليست انفصالا عن دولة، أو حتى بقية متشظية عن دولة سابقة أكبر. كانت دولة ذات بنية فكرية عقائدية وفكرية وسياسية واقتصادية وعسكرية وسلوكية جديدة وغير مسبوقة، ولم تنهض إلا بعد اكتمال تلك البنى الأولية، وبعد قاعدة تربوية وسلوكية صلبة.
إنني أجد هروبية فكرية ولا أجد مبررا مقنعا لهذه الهروبية سوى الامتلاء بالمواقف والإيدلوجيا تجاه تلك الفترة، أو محاولة إلصاق العروبة بكل إنجاز إسلامي حتى لا تكون المنادات بها نشازاً، أو خروجا على الإسلامية، وحتى لا يتم ربطها بالجاهلية التي تأنف النفس العربية من العودة إليها. مع أن ربط العقل العربي بالفترة الجاهلية أنسب وأكثر إنصافا من ربطه بالحقبة الإسلامية، وهذا ليس إنقاصا من العقل العربي، بل لوضعه في موضعه الصحيح، فالجاهلية كانت حقا تمثل حقبة عربية صرفة، وهي حقبة شبيهة بالواقع العربي تماما من حيث مقارنتها بمن حولها من الأمم في الأمور التالية:
احتواؤها على جميع الديانات.. سمة التخلف والضعف مقارنة بالدول العظمى وشعوبها.. استجداء الآخرين، وكثرة النزاعات والحروب فيما بينهم، حتى أحصى بعض المؤلفين أكثر من ألف ومائتين معركة فيما بينهم قبل الإسلام كانوا يسمونها بالأيام، كيوم داحس والغبراء وغيرها، كما يشبه الواقع العربي عروبة الجاهلية من حيث مقارنتها بمن حولها من الأمم في استخفاف العالم القوي بهم، وتصنيفهم في ذيل قائمة دول العالم علما وإبداعا وتصنيعا وزراعة، بالإضافة إلى الأشياء التي يفاخرون به الأمم تكاد تكون واحدة: الانتماء العرقي، والإقليمي واللغوي، وهذه الأمور ليست إنجازات، إنها توهب للإنسان دون جهد، هو لا ينتجها وليس له يد في الحصول عليها.. يولد في وسطها دون إرادة منه، وهي مفاخر قوض الإسلام التعالي بها، ورفض احتسابها كمنجز. والعربية اليوم ليس لها ما تفاخر به سوى ماض لا يد لها في إنجازه، ولا حيلة لها في اختياره. كما أنها اليوم تهاجم الإسلام باللغة والعنف نفسيهما، فهو بالنسبة للجاهلية أساطير الأولين ومفرق بين الرجل وابنه و.. وهو بالنسبة للعلمانية العربية اليوم رجعية وتخلف وتمزيق للوحدة.. وهذه الأمور المشتركة تؤكد أن الجاهلية والعربية اليوم ذات مكون ثقافي واحد،

وأن العقل العربي الذي كتب عنه الجابري ليس عقلا عربيا، بل إسلامي القلب والقالب.

العقل العربي الذي تحدث عنه الجابري ليس عقلا عربيا لأنه – ثقافياً واجتماعيا وأخلاقيا وسياسيا – لم يبدأ من العصر العباسي، بل بدأ بـ(بإقرأ) بدأ بالقرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأكبر خطأ وقع فيه الجابري في قراءته، هو استغناؤه، إن لم أقل تجاهله لقراءة مؤسس العقل العربي، قراءة (النص: القرآن والحديث النبوي)، فهي أهم من القراءة البيانية والعرفانية والبرهانية للنصين الأول والثاني، هذه القراءة تم الاستغناء عنها وطرحها جانبا من قبل المفكرين العرب، ولا بد من إعادتها للواجهة من جديد، لأنها ستكشف هل أن هناك عقلا عربيا أم لا، وستكشف أيضا أن جميع القراءات العربية العلمانية كانت – في حقيقتها وعند اختبارها – قراءة وثوقية صرفة، تعتمد على التلقي دون فحص أو دراسة أو استنتاج.

نحن بحاجة إلى قراءة تتوجه مباشرة للنص نفسه لا لآثاره وتداعياته، نقد النص نفسه علميا وتاريخيا، لا الاتكاء على النص – الظل (الشروح والتفاسير)، عندها فقط سنعرف ما العقل العربي حقا، وإعادة القراءة هذه أكثر من ضرورية لعدة أسباب:

كشف البيئة التي صاحبت ظهور النص الأول وجمعه وإخراجه في صورته النهائية، نظرا لأنه المكون الأول لموضوع هذا الكتاب – العقل العربي.

لأن النص الأول هو السبب لوجود الفكر العربي،

- فلولا النص الأول لما وجد ما يسمى بالفكر العربي.
- لولا النص الإسلامي لما وجد الفكر السلفي ولا الأشعري ولا المعتزلي بل ولا الفكر العرفاني ولا ما يسمى بالفكر الفلسفي الإسلامي.
- لولا النص الأول لما وجدت علوم غاية في الأهمية لها ارتباط وثيق بالحياة اليومية كالفقه والحديث والتفسير.
- لولا النص الأول لما وجدت مناهج بحث دقيقة كمصطلح الحديث وأصول الفقه وأصول التفسير.
- لولا النص الأول لما وجدت علوم اللغة: النحو والصرف والبلاغة والعروض وغيرها.
- لولا النص الأول لما وجد اليوم ما يسمى بالدول العربية.
- لولا النص الأول لما تحولت بلاد غير عربية إلى بلاد عربية، فمصر والسودان والصومال وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا وإريتريا وسوريا ولبنان وأجزاء من العراق لم تكن قبل القرآن بلاداً عربية، ولولا محاكم التفتيش التي أقامتها الكنيسة للمسلمين في الأندلس لكانت إسبانيا بلاداً عربية حتى الآن، لكن المجازر الرهيبة وطرق الأبواب بيتا بيتا، والإكراه على التخلي عن الإسلام أو المغادرة حولت الأندلس إلى إسبانيا.

طوع النص الخلافة العثمانية وهي أطول الدول الإسلامية عمرا (حكمت لثمانية قرون)، فلم تستطع خلال تلك الفترة المديدة أن تحول النص الإسلامي العربي إلى

نص إسلامي تركي، فاكتفت بوظيفة الحارس الشخصي للنص الإسلامي الأول، ولم يكتف النص بتطويع هذه الدولة العملاقة، بل تغلغل إلى أعماقها، فكتبت لغتها بأحرفه، وتجاوز ذلك بتحويل جزء كبير من أبنائها إلى عرب.

هناك من يقول أن القرآن حول تلك الأمم إلى عرب بالقوة، وهو قول غير علمي ومتهافت، فلم لم تستطع القوة التركية تتريك العربي.

دون وجود النص الأول لا يمكن للفكر العربي أن يتواجد، ولعل تجربة صدام الفاشلة في تعريب الأكراد تحت لافتة العروبة مع إقصاء النص الأول أكبر دليل، فبعد سقوط صدام تخلى الأكراد عن العروبة واحتفظوا بالنص الإسلامي الأول، ومن الأدلة الأخرى تلك التقارير والأرقام التي تتحدث عن ولع من يعتنق الإسلام بتعلم العربية، لا لأنها عربية بل لأنها لغة النص القرآني، يحدث هذا مع النظرة السائدة في العالم عن تخلف العالم العربي.

بقي أن أنوه إلى سبب خطير جدا يحول بين العلماني العربي وبين قراءته للنص الأول قراءة توثيقية، ذلك أنه سيقع في ورطة لا يستطيع الفكاك منها، لذلك آثر السلامة والهروب إلى الأمام، تلك الورطة هي أنه سيضطر تحت إلحاح الموضوعية والحياد أن يتطرق إلى النص الأول المسيحي (الكتاب المقدس)، وهذا التناول سيوقعه في رهاب لا يطيقه، خاصة من يكتبون خارج العالم العربي، فعليك إذا أردت أن تكون مثقفا مدللا بمهاجمة النص الإسلامي فقط، فأركون لن يكون مرحبا به لوكتب كتابا عن الإنجيل مماثلا لكتبه عن القرآن، أما لو تطرق للتوراة واليهودية فسيعتقل بتهمة العداء للسامية.

ما القراءات الحداثية والنقدية والحداثية للكتاب المقدس التي قدمها أدونيس وأركون وصادق جلال العظم وطرابيشي وصفدي وعلي حرب وأبو زيد، وفرج فوده والماركسيين والليبراليين وغيرهم؟ الإجابة: لا شيء.

شيء غريب! أوليسوا مأخوذين باختراق التراث واقتحام المقدس، وإعادة تقييم المسلمات والمحرمات.. شيء أغرب..!!

إن عدم قراءة النص المسيحي الأول (التوراة والإنجيل) تعني الخوف من الكشف عن أن هذا النص لم يقدم للعقل العربي أي إضافة علمية، أو تأثير على الحياة الثقافية والعلمية، بل ولم يأخذ العقل الأوروبي إلا باتجاه الأسوأ كما مر معنا، وكما سنرى ذلك موثقا من المفكرين الغربيين أنفسهم لا العرب، بل إن (الكتاب المقدس) تخلى عن لغته الأصل ليكون نهبا للترجمات، حتى ضاع النص الأصل، وأصبح لدينا كميات من النصوص المنقحة والمعدلة، والإضافات والمحذوفات، والطبعات المزيدة والمصححة والتجارية في كتاب يفترض أن يكون نقيا كما جاء، ومع ذلك يشيد به بجهل طافح رجل كعلي حرب بكلمات كالفضيحة عندما يقول أن الكتاب المقدس (يمكن ان يقرأ في أية لغة كانت دون ان يفقده ذلك خصوصيته وفرادته)

إن تجاوز المفكر العربي للنص اليهودي المسيحي الأول، وللنص الإسلامي الأول هو نوع من الانتحار الثقافي، فلا يستغرب – نتيجة لذلك – أن يتآكل الفكر العربي

رغم الدعم الرسمي اللا محدود له، ورغم أنه – حقيقة – الفكر الرسمي، لا غرابة في تآكله لأنه يتعامى عن أصعب إشكالياته.
وحتى لا يأخذ هذا الكتاب منحى تمجيديا وزاوية إيديلوجية، لا بد من دراسة وثائقية لتلك النصوص الأولى، والتعرض للمسكوت عنه فيهما، خاصة ذلك الذي سكت عنه أركون وتجاهله، ولن أكون المتحدث والناقد، سأترك الحديث والنقد للمنهج العلمي الغربي، ذلك المنهج الذي نهض بالغرب وصنع العلمانية الحقيقية، لن يتحدث في هذا الكتاب شاعر أو رسام أو موسيقي أو نحات أو سياسي، أو أديب أو رجل دين، فهؤلاء مع كامل الاحترام لهم ولتخصصاتهم، إلا أنه لا يمكن الوثوق بنتائجهم.
سيتحدث هنا أصحاب البحوث ذات النتائج القطعية فقط، النتائج التي لا تتدخل في صياغتها سوى الحقيقة، لا العواطف ولا الظنون ولا الموروث ولا السياسي ولا المواقف المسبقة، لكن قبل النقد لا بد من نبذة تاريخية وتوثيقية ترسم الطريق الذي سلكته النصوص الأولى إلينا. وقبل البدء لا بد من التنويه إلى أن الحديث هنا ليس عن وثيقة بشرية عادية، بل عن رسالة إلهية، وبالتحديد عن كلام الله، وهي وثائق يؤمن بها أكثر من ثلاثة مليارات من البشر، هذه الوثائق أو النصوص لا يمكن التسامح في نقلها أو ترجمتها، أو التعامل معها كتحفة تاريخية أو رواية رائعة، بل هي رسالة يجب أن تسلم للأجيال كما وصلت، كما يفترض أن لا يسمح بأدنى تقصير في فحصها، أو تمريرها بدافع الهوى أو الإيديلوجيا، بل من المفترض استخدام أقصى أنواع التشدد والتثبت في قبولها، بل وفي قبول من يحملها.
هذا الأمر يخيف المفكرين العرب ويصيبهم بالهلع نظرا لجهلهم بالسياق التاريخي لتلك الوثائق، ولخوفهم من ردود الأفعال، والخوف من ردود الأفعال مبعثه تلك النوايا المبيتة والأحكام المسبقة التي لا يستطيع المفكر العربي التنازل عنها ويصر على اصطحابها في ممارساته الثقافية. لا بد لنا من خوض تلك العملية تجاه تلك النصوص المقدسة، إن كنا حقا ننشد الكشف عن المسكوت عنه في دراسات العقل العربي.. لا بد من تعريف القارىء العربي بأقدس المقدسات حتى يدرك أي ثقافة انتقائية كانت تقدم له، وأي هالة زائفة كانت تحاط بها تلك الدراسات النقدية. لذا سأبدأ بتلك النصوص المقدسة تباعا كما عرفها الإنسان تاريخياً

أولا: الكتاب المقدس (نبذة تاريخية)

الكتاب المقدس يحتوي على كتابين هما: التوراة والإنجيل، التوراة كتاب يعتنقه اليهود والمسيحيين معا، والإنجيل يعتنقه المسيحيون فقط.

التوراة حتى الآن

ليس هناك وثائق أو معلومات، أو علماء عاصروا التوراة متخصصين فيها حفظا وتدوينا، ليسعفونا بالمعلومات حول الظروف التي نزلت فيها ودونت، أو الآلية التي تم بها نقلها، كما أننا نفتقد لعلم الرواة أو الطبقات التي تحدد أسماء الأشخاص الذين نزلت عليهم التوراة، والأشخاص الذين تلقوها عنهم. لا شيء يسعفنا هنا، لذلك فالمرجع الوحيد هنا هو التوراة نفسها، والأمر تماما ينطبق على الإنجيل. فلا وجود وجود لأسماء من كتبوا التوراة ولا من جمعوها، كما لا توجد أسماء للعلماء الذين قاموا بدراستها وتفسيرها، ولا توجد مرويات لأولئك الرجال الذين عاصروا موسى عندما نزلت عليه التوراة.

وعلى مستوى التابعين، أي الجيل الذي تلا جيل موسى عليه السلام، لا توجد مرويات تفسيرية تبين تعاطيهم مع النص التوراتي، ولا يوجد مؤشر على أي نشاط علمي يتداول التوراة بالنقل والنقد والتفسير، بل إن الأسماء مجهولة في هذه الطبقة تماماً.

الجيل الثالث أيضا غائب والرابع وكذلك الخامس. التوراة وهي الجزء الأكبر من (الكتاب المقدس) هي فقط المصدر الوحيد لكل ذلك.

وحتى تداول التوراة كان يتم بطريقة مغلقة تماما، وباحتكار يمارسه الكهنة في بيت المقدس لوحدهم، وهم رجال طالما اتهمهم الجزء الثاني من الكتاب المقدس بالغش والكذب والخداع والمراباة، بل وبالبيع والشراء داخل الهيكل المقدس.

أين أركون بمصطلحاته التي كان يحملها للقرآن كالأسلحة، أين هو عن كل ذلك؟! ولكن لا بأس. لنعش قصة وصول التوراة إلينا حسب رواية التوراة نفسها.

التوراة بقلم التوراة

نزلت التوراة على نبي الله موسى صلى الله عليه وسلم في سيناء بعد غرق فرعون مصر، وكانت في البداية عبارة عن لوحين كتبت عليهما عشر وصايا، وهي كما تقول التوراة اليوم:

- لا يكن لك آلهة سواي.
- لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة شيء مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في المياه، لا تسجد لها ولا تعبدها لأني أنا الرب إلهك.
- لا تحلف باسم الرب إلهك باطلاً.
- اذكر يوم السبت وكرسه لي، أي اجعل يوم السبت عطلة للعبادة فقط.
- أكرم أباك وأمك ليطول عمرك.
- لا تقتل.
- لا تزن.

- لا تسرق.
- لا تشهد على غيرك شهادة الزور.
- لا تشته بيت غيرك ولا تشته امرأة غيرك ولا عبده ولا جاريته، ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما له.

أخذ موسى الألواح وأمر بوضعها في تابوت – تقول التوراة أنه – من خشب، طوله ذراعان ونصف،وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع، ووضع للصندوق أربع حلقات: حلقتان من جهة وحلقتان من الجهة الأخرى، لكي يدخل في كل حلقتين عصا لحمل التابوت نحو أرض فلسطين، وفي سيناء نزلت بقية التوراة على موسى، وكلما نزل عليه شيء منها وضعه في التابوت.

بقي الأمر كذلك مع بعض التفاصيل الصغيرة مدة أربعين عاما.. خلالها مات موسى عليه السلام قبل أن يتمكن بنو إسرائيل من الدخول إلى أرض كنعان (الأرض المقدسة)، لكن تلميذ موسى (يوشع بن نون) تمكن من فتح الأرض المقدسة، وقيادة بني إسرائيل لدخولها، وكانت تلك الأحداث تجري قبل (١٤٠٠) سنة من ميلاد عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، حيث بقي التابوت هناك حتى جاء عهد النبي سليمان صلى الله عليه وسلم، حيث اختفت التوراة.

اختفاء التوراة

لم يجد بنو إسرائيل إلا اللوحين الحجريين فقط ،فأين ذهبت الشريعة والأحكام (التوراة)؟ لا أحد يعلم.. هذا ما حدث كما جاء في العهد القديم، لم يقله أحد غير اليهود أنفسهم، بل قالته التوراة نفسها. اختفت التوراة الحقيقية، ثم تم تأليف بديل لها، ولم تذكر لنا المصادر اليهودية من الذي أعادها، ما اسمه ما مكانته الثقافية والدينية والسلوكية بين اليهود، وما المراجع التي أخذ عنها، أو الوثائق التي اعتمد عليها، وما المنهج الذي اعتمد عليه في مقارنة النصوص وفحصها، واستبعاد ما يستحق الإبعاد منها؟ كل ذلك مجهول.. مما يعني أن التوراة فقدت صفة الوثيقة والرسالة، ليتم نقلها إلى الذاكرة الاجتماعية، حيث تختلط بالحكايات والأساطير المغرقة في الخيال والموروث الشعبي. وبعد سنوات تم تدمير التوراة البديلة، كما تم تدمير الألواح أيضا، وذلك في عهد الملك (رحبعام بن سليمان)، بعد حملة ملك مصر (شيشنك) وغزوه بيت المقدس (أورشليم) وتمكنه من هزيمة رحبعام، وسلب خزائن بيت الرب والتوراة والألواح وكل الذهب الذي كان عند سليمان عليه السلام، وذلك عام (٩٤٥ قبل الميلاد).

ترى هل يستطيع أركون مصطلحاته أن يتحفنا بدراسة حول هذا الموضوع؟

الإجابة: هو أجبن من ذلك.

الإعادة الثالثة

وبعد أكثر من (٣٢٠ سنة) ادعى حلقيا الكاهن أنه وجد جزءا من التوراة في بيت الرب (الهيكل الذي بناه سليمان)، ولا أحد يملك أدلة على قدرة حلقيا على فعل ذلك بعد مضي هذا الزمن الطويل، في وقت لم يولد هو ولا أبوه فيه، لا سيما أنه لم يكن

هناك سوى نسخة واحدة من التوراة المعادة أخذها (شيشنك) معه. وعلى فرض أنها منقولة عنها يتبادر سؤال مهم: من الذي نقلها من النسخة الأصلية، وكيف، ومن الذي رشحه؟ أسئلة نقدية كبيرة لم يجب عليها... ترى أين أركون عن هذه الإعادة!!!

الإعادة الرابعة

في عام (٥٩٧ ق م) أغار ملك بابل (بخت نصر) على أورشليم وهدم بيت الرب، وأزال جميع آثاره، ودمر وأحرق وعاث وأفنى، وساق معه إلى بابل أكثر من أربعين ألف أسير من اليهود، حيث أبقاهم هناك قريبا من سبعين عاما كعبيد، حتى قيل أن هؤلاء اليهود نسوا لغتهم الأصلية (العبرية)، وقد ظل اليهود في العراق حتى استولى الحاكم الفارسي (قورش)،فقام بإعطائهم الحرية في الحركة والعقيدة، فعاد كثير منهم إلى أورشليم، وبعد أربعين سنة من عودتهم – قيل – أن عزرا (عزير) أعاد بناء الهيكل وكتابة التوراة من جديد، وعزرا أو عزير هذا كان من علمائهم، وقد أختلف اليهود فيما بينهم حول كيفية إعادته للتوراة:

فقيل أنه أعادها من حفظه. وقيل: استعان ببعض الأنبياء.

وقيل: كون مجلسا كنسيا مكونا من (١٢٠) من الأحبار من أجل ذلك.

وهذا يعني أن باب الاحتمالات لا يمكن إقفاله أمام الاختلاق والمواقف والأهواء، وغيرها من الممارسات، فالعملية غير دقيقة وتعمها الفوضى. لكن يلاحظ من قراءة نصوص التوراة الحالية أنها صنعت لمواجهة هذه الضربات المتتالية على اليهود، ولحفظ كيانهم من الضياع والانصهار، فهي تتضمن نقاطا عنصرية حادة، وأحكاما لا تؤمن بالآخر على مستوى العقيدة والشريعة، أو حتى على مستوى الوصف والممارسة، هذه الأحكام مكنت اليهود من تحويل الدين اليهودي من دين للبشرية، إلى دين قبلي تم حصره في قبيلة تنتمي إلى يعقوب عليه السلام (إسرائيل) هي قبيلة (بني إسرائيل) مما عزز وحدة اليهود القبلية والعرقية، وساعد على انعزالهم العرقي والديني عن بقية العالم، والقبيلة لها تأثير كبير في جمع أبنائها شعوريا واجتماعيا، ومن يتأمل قبائل الجزيرة العربية ورابطها الشعوري يدرك ذلك، فكيف بقبيلة خرج منها عشرات الأنبياء، بل وينص كتابها المقدس على أنهم (شعب الله المختار)

قبيلة تحمل هذا الكم الهائل من الإرث المتميز لا بد أنها ستشعر بعزلة شعورية فوقية واجتماعية كبيرة، وهو ما عليه اليهود حتى اليوم.. وقد كان للتوراة الدور الأول في ذلك من خلال نصوص تم إدخالها في التوراة المعادة للمرة الرابعة، ومن أهم تلك النصوص:

- الله واحد لا شريك له وهو إله لبني إسرائيل.
- مهمة الله هي حفظ بنى إسرائيل من أعدائهم، وقد سموا ربهم هنا بـ(يهوه).
- شريعة موسى (التوراة) لبنى إسرائيل فقط.
- هناك نبي منتظر أخبر به موسى، ولا يكون إلا من آل إسحاق.
- الأمم كلها خدم لبنى إسرائيل (اليهود).

- يجب على الإسرائيليين ألا يختلطوا بغيرهم.
هكذا تم تحويل العقيدة اليهودية إلى عقيدة قبلية عنصرية مغلقة، لتتكفل التوراة بوضع السياج حولها دون الآخر، وما زال هذا الجدار قائما وبشكل ناجح، ولا أدل عليه من قلة أعداد اليهود رغم أنهم هم أصل المسيحية، بل إن عيسى عليه السلام يهودي ابن يهودية، لكن الطابع القومي الصارم والعنصري في التوراة، حال دون دخول غيرهم فيهم مقارنة بالمسيحية، التي حولت إلى عالمية على يد بولس الرسول، مع أنه من المفترض بها أن تكون قومية يهودية، كما قال اليسوع في الإنجيل (متى ١٥- ٢: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) أين أركون وأدونيس وأبو زيد عن ذلك كله..!!!

التدمير الخامس

تم تدمير نسخ التوراة المعادة على يد ملك أنطاكية (أنتنين – ١٧٠ ق م) الذي هاجم أورشليم فدمرها ودمر بيت الرب، وأحرق جميع ما فيه من كتب ومخطوطات، بل إن هذا الوثني السفاح وضع صنماً كي يعبد في الهيكل اليهودي، وتطرف فذبح الخنازير في المعبد، ومن شدة طغيان هذا الملك قيامه بإصدار قرارٍ بإعدام كل من وجد لديه شيء من التوراة، حيث انتشر جنوده في الطرقات.. يطرقون أبواب اليهود ويبحثون في بيوتهم، وكان الموت ثمنا لورقات التوراة إذا وجدت.

التدمير السادس

قام اليهود بكتابة توراة أخرى، ثم تم تدميرها للمرة الخامسة، وهو أول تدمير بعد ميلاد عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك عام (٥ م) عندما أباد الإمبراطور الروماني (تيتس) أكثر من مليون من اليهود (كما يقال، مع استحالة وجود مثل هذا العدد لقبيلة في ذلك الوقت) في هجوم شنه على أورشليم، وأحرق بذلك الهجوم بيت المقدس، وأخذ ما تبقى من اليهود أسرى وعبيد عنده.

التدمير السابع

حاول اليهود أن ينتقموا من الرومان عام (٧٠م) فشنوا هجوما فاشلا، حيث هزموا، ولاحقهم جيش الرومان حتى سحق كل آثار اليهود في أورشليم، وقتلوا أكثر من (٥٠٠) ألف يهودي، وهدموا الهيكل وبنوا مكانه معبدا لأحد آلهتهم، وغيروا اسم أورشليم إلى (إيليا) وذلك في عهد (بدرين).

التدمير الثامن

عام (٤٠٠م) حيث أزال الوثنيون الرومان جميع آثار الديانة اليهودية.

التدمير التاسع

عام (٦١٣م) وفيه قتل شاه إيران (برويز) أكثر من (٩٠) ألف يهودي وهدم جميع الأماكن المقدسة، وأحرق كل ما وجده من كتب مقدسة.
تلك هي أهم المراحل التي مرت بها التوراة، لذا فإن البحث العلمي والنقد الموضوعي لا يمكنه الإفلات من الإقرار بعبثية التمسك بمقولة بقاء التوراة ككتاب سماوي ونص نقي بعد تلك الكوارث التي حلت بها.. لقد تم تحويلها إلى نص بشري

يضم بين أسطره ومضات من الوحي هنا أو هناك. بينما يحتل التراث الشعبي اليهودي بقية نصوصها.

قد يقفز الناقد الإيديلوجي المتعاطف – جدا – مع التوراة على التدميرات: الرابع والخامس والسادس والسابع، ولكن من غير الممكن، بل من المستحيل أن يتجاوز تأثير التدمير الأول والثاني والثالث، وقبل ذلك يستحيل تجاهل ضياع التوراة من التابوت في العهد ما بين موسى وسليمان عليهما الصلاة والسلام.. لا يمكن أن يفعل الناقد ذلك إلا إذا تخلى عن عقله وضميره معا.

من خلال تلك المعطيات التاريخية والوثائقية يمكن إطلاق صفة الأسطورية والإنشائية على التوراة الموجودة اليوم، فأين ("بروتوكول القراءة الألسنى النقدى" الأركوني التي لا يمكن لأحد أن يحددها أو يعرفها إلا "عن طريق الاستعانة بأقوال الجيل الشاهد عليها، "جيل المؤمنين الأوائل الذين تَلَقّوُا الوحى من فم موسى مباشرة، والذين طبقوه عمليا فيما بعد"، وأين "الظرف العام للخطاب"، الذى يحدده أركون بأنه "مجمل الظروف التى جرى فى داخلها فعلٌ كلامىٌّ، سواء أكان مكتوبا أم شفهيا. ويخص ذلك فى آن معا المحيط الفيزيائى- المادى والاجتماعى الذى نُطِق فيه الكلام، كَمَا ويخصّ الصورة التى شكلها المستمعون عن الناطق لحظة تفوهه بالخطاب، ويخص هوية هؤلاء، والفكرة التى يشكّلها كل واحد منهم عن رأى الآخر فيه. كما ويخصّ الأحداث التى سبقت مباشرةً عملية التلفظ بالقول، وبخاصة العلاقات التى كان المخاطبون يتعاطوْنها فيما بينهم، ثم بشكل أخصّ التبادلات التى اندرج فيها الخطاب المعنِىّ) أين هذا الهراء الأركوني من الكتاب المقدس، لماذا لم يطبقه على التوراة فهي المجال الخصب لنجاح مثل هذا الهذر.

هذه الحقيقة لا يعرج عليها المفكر العربي، ولا يريد التعريج عليها، فهو يرتكب جريمة تجاهلها والتعامي عنها، حتى ذلك المفكر العربي الذي ينتمي للأقلية المسيحية أو حتى اليهودية يعيش في أمية في هذا الجانب، وهو استهلاكي يكرر – دون فحص ودون أن يمارس دوره الخاص – نتائج المفكر الغربي الذي أنجز مشروعه التنويري تجاه التوراة بنجاح، فمن المستحيل أن تجد علمانياً عربياً مسيحيا قام بدوره النقدي للتوراة، وهو أمر محير وغريب، وليت جورج طرابيشي يتصدى لهذه المهمة فهي أولى من تتبعه للجابري.

لغة التوراة

نزلت التوراة باللغة العبرية على موسى عليه السلام، والنص العبري الأول مفقود، والتوراة العبرية المتداولة اليوم هي إفراز ترجمة، وحصولها على الصفة الرسمية يقال أنه يعود إلى عام (٨٩٥م) أي بعد أكثر من ألفي عام على نزولها، والترجمات الأم لهذه التوراة الرسمية مجهولة وغير رسمية.

لا أتحدث عن النص كمحتوى، فله من الكوارث العلمية الكثير، والتي تم الاعتراف والتسليم بها من قبل رجال الدين أنفسهم، وكشفها رجال العلم التجريبي والتاريخي، وعلماء التاريخ والآثار كما سيمر معنا.

الحديث هنا عن النص كوثيقة لغوية، فعلاقة اللغة بالتوثيق ضرورية للغاية، والترجمة لا يمكن قبولها كنص أول عند فقدان الأصل (لغة)، لأن الترجمة ستغدو قراءة أخرى أو تفسيرا أو نصا رديفا، والخطورة هنا أن الترجمة تخضع لعوامل عديدة قد تقلب النص رأسا على عقب، وتوحي بعكس ما يهدف إليه. هناك عامل الثقافة باللغتين والتمكن منهما، وهناك عامل هوية المترجم الثقافية وموقفه العقائدي والإيديلوجي من النص ذاته، وهناك العامل الأخلاقي، لأن الترجمة في جانب منها عمل توثيقي، عمل علمي يحتاج إلى علماء يقومون به بكل موضوعية وحياد ونزاهة، وإلا تحول النص إلى تفسير مرادف للنص أو ضده. أولم تقم الدنيا ولم تقعد عندما وصف بوش معاركه في أفغانستان والعراق بالحرب الصليبية، فاضطرت الجهات الرسمية الأمريكية للاعتذار بداعي ورود خطأ في الترجمة. إنه إقرار بخطورة الترجمة وأن زلة منها تحول الأمور إلى كارثة. فإذا أضفنا إلى كارثة الترجمة كوارث التدمير السابقة أصبح الحديث عن التوراة كوثيقة، أو كرسالة سماوية نوعا من العبث.

الحديث هنا ليس بصدد تناول النص التالي (التفسير أو الشرح أو الفقه)، بل يستهدف النص الأول، وما دام الأمر كذلك فإن المعضلة التي لا يتحدث المفكر العربي ولا يريد الحديث عنها، هي تحديد هوية الجهة الرسمية المخولة بالترجمة، والكشف كذلك عن هوية المترجم أو المترجمين للتوراة، هناك صمت مطبق يخيم على العلمانيين العرب تجاه هذا الموضوع وكأنه لا يدخل ضمن اهتماماتهم النقدية تجاه تراثهم، كأنه لا يمس الثقافة من قريب ولا بعيد. الغريب أن الشعراء العلمانيين المتطرفين أمثال أدونيس وغيره قرأوا التوراة ومتحوا من مصطلحاتها ورموزها وأساطيرها التي تزخر بها أناشيدها وأغانيها ما يثري أشعارهم، ومع ذلك لا يجرؤون على الحديث عن التوراة كوثيقة. إنني لا أجد مبررا واحداً لعدم التساؤل والإلحاح في طلب إجابات تهم مليار إنسان يعتنقون هذا الكتاب، لا أعرف سبب مقنعا يمكن من خلاله تبرير ذلك السكوت، لكن ما دام هذا الكتاب يمثل عنصرا مساهماً – إلى حد ما – في إعادة قراءة المسكوت عنه في العقل العربي فمن حقه طرح المزيد من الأسئلة وعدم التوقف عند مقولة رجال الدين: آمن وتخل عن عقلك.

الإشكالية الكبرى هنا: أن الأسئلة التي أطرحها لا تجد إجابة، لا الوثائق تسعفنا ولا التاريخ، ولا الآثار، ولا حتى التوراة نفسها، هناك منطقة شديدة العتمة تحيط بعملية الترجمة، لا يعرف من المترجم، ولا من كلفه بالمهمة، ولا الدافع له على هذا المشروع، ولا مدى ثقافته باللغة العبرية واللغات المترجم لها، ولا حتى ديانته أو عصره، ولا مدى مصداقيته ونزاهته وحياده، ولا الآلية التي استخدمها، وهل كان معه فريق عمل، وهل جرت مراجعات لترجمته، لا يوجد لدينا حتى مجرد اسم يمكن الاتكاء عليه وتوظيفه، ولتقريب دور الترجمة في تغيير النص، أضرب مثالا بسيطاً:

خذ نصا عربيا ثم ترجمه إلى لغة أخرى، ثم أعطه لآخر ليعيد ترجمته إلى العربية مرة أخرى ثم قارن بين النسختين العربيتين، لنتخيل حجم التغيير في عشرات التراجم التي تعرضت لها التوراة، ثم نضيفها إلى مراحل التدمير والضياع التي تعرضت لها.

كل ذلك يسلمنا إلى الاعتراف: أن التوراة ماتت كلغة منذ ظهور الترجمة الأولى، يعني أنه لم يكن لها أي تأثير على لغات معتنقيها، ولم تمثل يوما – على المستوى اللغوي – عنصر جذب للآخرين، بل على العكس من ذلك هي التي ذابت في لغة الآخر ورؤاه، وتحولت إلى انجذاب وتحول. ولا أدري – علميا - كيف يمكن الادعاء أن هذه التوراة التي بين أيدينا هي توراة موسى.

أركون يدعي أن الوحي القرآني يحتاج إلى كشف المسافة بين اللفظ الوحي وتدوينه، مع أنه بلغة عربية واحدة، بينما يلوذ بالصمت عن هذه الكوارث اللغوية التي تعرضت لها التوراة، وتلك الترجمات المجهولة المصدر. شيء مخجل ومقزز ما يقوم به أركون. أما الأكثر تفاهة، فكلمات "علي حرب" الذي يتبرع بالدفاع عن التوراة بكل حماقة وصفاقة قائلا في "نقد النص ٨٨": (يفقد القرآن فرادته إذن وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها)

ألا يخجل هذا الكاتب من صفاقته وتناقض في نصف سطر، إنه يقر في البداية أن الترجمة تحول النص إلى مجرد تفسير بين التفاسير، ثم يعود ليجامل اليهود والمسيحيين ويربت على أكتافهم بعد فقدانهم للنص الأصلي، فيقول: لا تحزنوا، لا داعي للقلق، فإنه (يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها) الكتب المقدسة الأخرى حتى ولو كانت هندوسية أو بوذية يمكن ان تقرأ في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها!! يا الله.. هل يمكن أن يكون هذا الكاتب مفكراً أو حتى محترماً لقلمه، ما الفرق بينه وبين البابا الذي يمجد المقدس، وأدونيس الذي يمجد الوثنية، وأركون الذي يتجاهل كل الكتب الدينية ويتفرغ للطعن في القرآن.. ماذا يريد هؤلاء.. أي أمة تعيسة مفكروها على هذه الشاكلة. الترجمة تفسير.. شاء حرب أم أبى، الترجمة تفسير سواء كانت للقرآن أو لغيره، وهي تغير فرادة النص وخصوصيته، فلم يوزع "حرب" تأثيرها كالهبات والهدايا، هل يكتب بعقله أم بهواه!

التوراة متنا

المتن هو نص الكتاب أو محتواه، ونص التوراة يمدنا بالكثير من المعلومات حول تاريخية التوراة، وهي معلومات خطيرة وهامة في دلالاتها على ما سبق، ولو كانت ألفاظا تتحدث عن عالم الغيب والجنة والنار، وأشكال الملائكة والجن لكان بالإمكان تمريرها، باعتبارها خارج الإدراك البشري.

المعلومات التي أعنيها معلومات داخلة ضمن الإدراك البشري، وقابلة للفحص والدراسة، معلومات محسوسة رآها الإنسان وأدركها وحللها، وحكم عليها، وهي تقع ضمن نطاق إدراكه، وبالتالي يمكن تمييز المعطى البشري منها.

مثلا: تقول التوراة في سفر التثنية: (٣٤ ـ ٥: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب، مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم)

التوراة كتاب أنزل على موسى السلام ، وهذه الجملة التي هي امتداد لنص طويل قبلها وجزء منه، تكفي لتصور هول الفراغ ومساحة الجهالة حول النص التوراتي، وتجعلنا نطرح السؤال الضخم الذي لا يجرؤ أركون وأمثاله على طرحه ما دام يستطعم بكتبه في فرنسا: أين يمكن تمييز كلام الرب من كلام موسى من كلام بقية المشتركين في تأليف التوراة، ففي العبارة السابقة، ثلاث جمل ذات تواريخ وحقب متفاوتة تبين تاريخية التوراة وبشريتها. فلا رابط بينها، ولا مصادر لها يمكن تحديدها:

الجملة الأولى: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب.

وهذه الجملة تعني أن التوراة التي أمامنا ليست من كلام الرب، ولم توح إلى موسى، فالخطاب هنا ليس خطابا إلهيا، كما أنه ليس موجها إلى موسى. كما أنه ليس خطاب موسى نفسه، فهل هو خطاب من حول موسى؟ الجملة التالية تقدم إجابة كالأسئلة.

الجملة الثانية: فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب.

هذه الجملة يناقض أولها آخر، فكيف تكون توراة موسى وهي - حسب قول الرب - تصف مرحلة تلي موت موسى.

الجملة الثالثة: ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم.

هنا ينكشف التدخل البشري أكثر، وهنا تنكشف تاريخية التوراة، في جملة: (لا يعرف أحد قبره حتى اليوم) من المتحدث هنا؟ ما تاريخ ذلك اليوم؟ وفي أي عام؟ وإلى أي جيل يهودي ينتمي المتحدث؟

عند فحص هذه الجملة فحصا علميا، نجد أن كاتب التوراة وقائلها لا يمكن قبول فكرة أنه الله على الإطلاق، لأن الله أنزلها على موسى وموسى حي. وبالتأكيد ليس موسى، لأن موسى قد مات ودفن كما يتحدث الكاتب. وبالتأكيد أيضاً ليس أحدا من أصحاب موسى الذين كانوا معه، فالذين كانوا معه هم الذين دفنوه في سيناء في سنوات التيه، ولو كان من أصحاب موسى لقال: فقمنا بتغسيله ودفنه هناك؟ وبالتأكيد ليس من الجيل التالي لأصحاب موسى (التابعين) لأنهم قضوا سنوات ليست بالقليلة مع أهلهم في سيناء، وأهلهم قضوا أربعين عاماً هناك، ولا يمكن لجيل متصل بأصحاب موسى أن ينسى قبراً هاما جدا عند اليهود كقبر أعظم أنبيائهم (موسى). إذا كان الأمر كذلك فإلى أي جيل ينتمي كاتب التوراة؟

المنطق يقول إنه شخص لم ير موسى، ولم ير من رآه، ولم ير من بعدهم.. شخص ينفصل بزمكان سحيق عنهم، لدرجة أنه لا يعرف قبر نبي الله موسى عليه السلام.. لا يعرف مكان قبر أعظم شخصية عند اليهود، وهو مكان لا يمكن نسيانه إلا في حالة واحدة، هي الانقطاع الطويل زمانا ومكانا عن فترة دفن موسى، وبعد انقراض أجيال تلو أجيال بين موت موسى وكاتب التوراة.

هناك أكثر من جيل انقرض بعيدا عن قبر موسى مما أحدث هذا الجهل بقبره، وهذا الأمر يؤكد أن التوراة كتبت بعد حقبة الأسر البابلي، أي بعد عودة اليهود الذين لم يدركوا موسى من العراق، وهم جيل ولد بعيدا عن مقدساته وقبور أنبيائه.

إذا حدثت هذه الجهالة في أمر له أهميته الخاصة لدى كل يهودي كقبر موسى، حتى بلغت مستوى يتساوى فيه غير اليهودي مع اليهودي في الجهالة بقبر مقدس كهذا، فكيف بنص منقول عن طريق الذاكرة العشوائية والمتراكمة فقط، وخلال حقب مليئة بالتشرد والاضطهاد، والذوبان في مجتمعات غير يهودية بالقوة والبطش، كل ذلك جعل التوراة تتسع لقدر كبير من التدخل في الصياغة والإضافة والحذف، والاختلاط بالموروث الشعبي والخرافة والأسطورة. أين ألسنية أركون وحفرياته وهراءه عن كل هذا !!!!

الجانب الأسطوري في التوراة

تتدخل الأسطورة بقوة في تشكيل النص التوراتي، وتساهم في نحت العقيدة اليهودية والمسيحية بشكل كبير، وتبدأ بشكل مبكر في التدخل، وبالتحديد من أول أسطرها حيث تقول – وأرجوا المعذرة فهذه هي صياغة التوراة، وأنا مجرد ناقل:

(١- في البدء خلق الله السموات والارض.

٢- وكانت الارض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه.

٣ ـ وقال الله ليكن نور، فكان نور.

٤ ـ ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة.

٥ ـ ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلا، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا

٦ ـ وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه.

٧ ـ فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك.

٨ ـ ودعا الله الجلد سماءً، وكان مساءً وكان صباحا يوما ثانياً.

٩ ـ وقال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك.

١٠ ـ ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن.

١١ ـ وقال الله: لتنبت الارض عشبا وبقلا يبزر بزراً وشجر ذا ثمر، يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الارض، وكان كذلك.

١٢ ـ فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزراً كجنسه، وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن.
١٣ ـ وكان مساءً وكان صباح يوما ثالثا.
١٤ ـ وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء، لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين.
١٥ ـ وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الارض، وكان كذلك.
١٦ ـ فعمل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم.
١٧ ـ وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الارض.
١٨ ـ ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك انه حسن.
١٩ ـ وكان مساء وكان صباح يوما رابعا)
في الفقرات السابقة – وهي أول ألفاظ الكتاب المقدس – مغالطات علمية تعرض مصداقية الكتاب المقدس للغرق، وتتلخص تلك المغالطات بالتالي:
في الفقرة رقم (٥) بدأت الأيام بتسمية النور صباحا، والظلمة مساء هكذا، وكأن الكون كوكب واحد.
احتساب تلك الأيام الستة التي ذكرتها التوراة، كان حسب التقويم اليومي على سطح الأرض، وهذه مغالطة علمية لا يمكن قبولها، لأن الشمس لم تخلق بعد، فكيف يكون هناك صباح ومساء.
في الفقرة (١١) مغالطة علمية ثالثة لسنن الله الدقيقة في الكون، فالكتاب المقدس يقول أن بدء نمو النباتات على الأرض كان يوم الثلاثاء، بينما تم خلق الكواكب التي تنير الأرض ومن ضمنها الشمس يوم الإربعاء، ومن المعلوم كما يؤكد الدكتورالفرنسي موريس بوكاي أن النباتات تحتاج للشمس فكيف تنموا في الظلمة.
في الفقرة (١٦) خطأ علمي آخر، فالكتاب المقدس يصف الشمس والقمر وصفا غير دقيق حيث يقول: فعمل الله النورين العظيمين:
النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم.
والعبارة لا تفرق بين الشمس والقمر فكلاهما بالنسبة لها نوران، أي – حسب مصطلحات التوراة – أنهما مصدران للضوء، وهنا خطأ علمي لا يمكن أن يقع فيه كتاب يقول أنه من عند الله إلا إذا كان مزورا، فالشمس علميا مصدر للنور، أما نور القمر فمجرد انعكاس لضوء الشمس.
خطأ كارثي آخر هو: أن الشمس والقمر خلقا في اليوم التالي لخلق الصباح والمساء، ولا أدري كيف يتوافق هذا مع سنن الله في الكون، فالعلم والواقع يقولان لنا، أن النهار لا يكون إلا بعد طلوع الشمس، أي أن النهار ناتج عن الشمس، وليس شيئا يحدث قبلها. الأكثر حيرة هنا وتناقضا أن التوراة تصر على تعاقب الليل والنهار لأكثر من ثلاثة أيام، هكذا وقبل أن تخلق الشمس والقمر. تلك مغالطات

فلكية خطيرة جداً، تؤكد وتثبت وجود خلل في كتابة الجزء الأول من الكتاب المقدس (التوراة) وتؤكد تدخل يد العبث في نصوصه.
أما ما يناقض العلم إلى درجة فاضحة، فهو في ما يسميه الكتاب المقدس:
(شريعة الغيرة)
نص خطيرلا أدري ماذا يسميه من كتب الكتاب المقدس، ولا أدري أين عقول العلمانيين العرب وخاصة المسيحيين عنه.. أين مصطلحات أركون التي غصت بكلمة (أم حسبت) و(يورث كلالة) و(سنين)، أين (بروتوكول القراءة الألسنى النقدى" و"الوضعية العامة أو الظرف العام للخطاب") أين سخافات علي حرب حول أن التوراة لا تتأثر بالترجمة ولا تفقد فرادتها، أين أدونيس وأبو زيد وطرابيشي مما يلي:
أمر غاية في التخلف، وعبارات فيها من الاستخفاف بعقل المرأة والإنسان ما لا حدود له، وملخص شريعة الغيرة هو: أن الرجل إذا شعر بغيرة على زوجته وشك فيها مجرد شك، فعليه أن يأخذها إلى القس، وبصحبتها كمية من دقيق الشعير، ثم تقف أمام الكاهن ويكشف رأسها، ويسقيها شراب اللعنة، وهو عبارة عن ماء وضعت فيه ورقة مكتوب فيها لعنات، المضحك في هذا الأمر والذي لا يصدقه إلا المجانين هو: أن المرأة إذا كانت مذنبة وشربت من هذا الشراب، فإن مرارتها تتورم ويسقط فخذها. أما الأشد إضحاكا فهو أن المرأة إذا كانت بريئة وصادقة فإن هذا الماء سيتحول إلى جنين. ليس أنا من يقول ذلك، ولا الطبري.
التوراة تقول في سفر العدد :Nm١٥:٥: (إذا اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي نجسة، أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهي ليست نجسة، يأتي الرجل بامرأته إلى الكاهن، ويأتي بقربانها معها عشر الإيفة من طحين شعير لا يصبّ عليه زيتا، ولا يجعل عليه لبانا، لأنه تقدمة غيرة، تقدمة تذكار تذكّر ذنبا، فيقدّمها الكاهن ويوقفها أمام الرب، ويأخذ الكاهن ماء مقدسا في إناء خزف، ويأخذ الكاهن من الغبار الذي في أرض المسكن ويجعل في الماء، ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة، ويجعل في يديها تقدمة التذكار التي هي تقدمة الغيرة، وفي يد الكاهن يكون ماء اللعنة المرّ، ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها: إن كان لم يضطجع معك رجل، وإن كنت لم تزيغي الى نجاسة من تحت رجلك فكوني بريئة من ماء اللعنة هذا المرّ، ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجلك وتنجست ،وجعل معك رجل غير رجلك مضجعه، يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك، بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارما، ويدخل ماء اللعنة هذا في احشائك لورم البطن ولاسقاط الفخذ. فتقول المرأة: آمين آمين. ويدخل ماء اللعنة هذا في احشائك لورم البطن ولاسقاط الفخذ. فتقول: المرأة آمين آمين.
ويسقي المرأة ماء اللعنة المرّ، فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة، ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة، ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها الى المذبح، ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها، ويوقده على المذبح وبعد ذلك يسقي المرأة الماء.

ومتى سقاها الماء، فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها وتسقط فخذها، فتصير المرأة لعنة في وسط شعبها، وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ وتحبل بزرع، هذه شريعة الغيرة إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست.)

أين من يتصدون للتابوهات والمقدس، أين المفكرون العلمانيون العرب من هذا النص الخطير، أين كتاب دوائر الخوف لأبو زيد من استخفاف هذا النص بالمرأة، أين نوال السعداوي التي لا هم لها سوى الاحتجاج على الختان الذي أكدت فوائده الصحية آخر التقارير والدراسات العلمية الصادرة من الولايات المتحدة الأمريكية، أين هؤلاء من هذا النص. أليس سكوت هؤلاء مريباً!

ومن المغالطات التي لا يمكن حصرها في كتاب ينسب لله.. في كتاب يحتوي على الكثير من التبجيل لله الخالق الرازق المحيي المميت الجبار القادر، أن يقوم ذلك الكتاب المقدس بنسف ذلك التبجيل والمهابة بكلمات غاية في التحقير لله، والاستخفاف بمقام الألوهية، حيث يتخذ الحديث عن الذات الإلهية منحى آخر، منحى أسطوريا، لتتحول الذات الإلهية إلى لوحة يرسمها ويلونها القصاصون والكهنة والكتاب بمشاعرهم لا بوثائقهم، لتكون النتيجة تصادم صارخ بين معطيات العلم والعقل ونصوص التوراة.

الأسطورة هنا تخضع الخالق للخالق، تخضع الله الذي أرسل الرسل وأنزل الشرائع للمذهب والإيديلوجيا، مما أوقعها في إحراجات لم تستطع الهرب منها ولا القفز عليها. على سبيل المثال:

تحجيم الله وتجسيده في التوراة.

لتبرير تكريس السبت للعبادة فقط، والانقطاع التام عن كل مظهر من مظاهر الحياة. تقول التوراة مبررة كون العطلة الأسبوعية في يوم السبت: (اذكر يوم السبت وكرسه لي، في ستة أيام تعمل وتنجز جميع أعمالك، واليوم السابع سبت للرب إلهك لا تقم فيه بعمل ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وجاريتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك، لأن الرب في ستة أيام خلق السماوات والارض والبحر وجميع ما فيها، وفي اليوم السابع استراح، ولذلك بارك الرب يوم السبت وكرسه له)(الخروج -٢٠)

هذا النص بالإضافة إلى كونه وصفا مسفا للذات الإلهية، وتجسيما خارجا عن المعقول والأدب، هو وصف أسطوري إغريقي، حيث الآلهة التي تتعب وتلعب وتتزوج وتلد، وتتمتع بمشاغبة البشر وتعذيبهم داخل العقلية اليونانية الخرافية، هذا النص أوجد تناقضا حادا بين معطيات العلم الحديث وكلمات التوراة. العقلية اليهودية تدخلت في النص بإضافة كلمة (السبت) حتى تضفي على السبت قدسية توجب توقف الحياة تماما فيه، جعلت لله ذاته عطلة في يوم السبت، فمن باب أولى أن يجعلها شعبه المختار، فلا ركوب للدواب والسيارات والطائرات، ولا إيقاد للشموع أو المصابيح الكهربائية امتثالا وتأدبا وتعبدا لله. لكن كاتب هذا النص وفي غمرة حماسه الديني وعاطفته الجياشة يرتكب كارثة علمية تتسبب في إسقاط

النص وثائقيا، وتثبت أنه مناقض تماما لحقيقة علمية لا يمكن تجاهلها، تلك الحقيقة تتلخص في أنه لا وجود لأيام الأسبوع أثناء خلق السموات والأرض، لأن الشمس والأرض كانتا في حالة تشكل وخلق، وأيام الأسبوع لم توجد إلا بعد خلقهما. إنها أيام أخرى غير أيامنا هذه، وقد جاء النص القرآني حول خلق السموات والأرض مستدركا ومعقبا على النص التوراتي من جهتين:

أولا: نفي السمة الأسطورية عن الذات الإلهية ووصفها بالتعب.

ثانيا: أنه يتحدث عن أيام ذات مسافات غير أيام الأسبوع، بل إن الرقم سبعة غير موجود بتاتا، فالقرآن تحدث عن خلق السماوات والأرض، وعن أيام ستة لم يحدد ما هي فقال: (ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب - ق ٣٨) أي أن الله لم يصبه اللغوب الذي يصيب المخلوقات، واللغوب هو التعب، ففي النص القرآني لا نجد ذكرا للجمعة ولا للسبت ولا للأحد ولا لبقية أيام الأسبوع، هو يتحدث عن أيام ستة فقط ولم يحدد ماهيتها ولاطول تلك الأيام، مما يعني أنها ليست أيام الأسبوع، والقرآن يشير إلى أن أيامنا على هذا الكوكب ليست كغيرها، فهو يقول (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) كما يقول: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة). وهناك أيام أخرى فلكية لا نعرفها.

إذا هناك أيام مختلفة في هذا الكون وهو ما يثبته علم الفلك الحديث، فاليوم على القمر ليس كاليوم على المريخ وهكذا، أما التوراة فتبالغ في التفاصيل، والتفاصيل سمة القصص الخيالية والروايات والأحاديث الموضوعة والمكذوبة، فالتفاصيل الدقيقة التي في التوراة ليست من التوراة، ولذلك جاءت مناقضة للعقل والعلم التجريبي الحديث. أين أركون الذي يردد أقوال المستشرقين ويحتفي بها، ويقول أن القرآن ينقل عن الكتاب المقدس، هاهما النصان أمامه، لو كان القرآن نقلا عن الكتاب المقدس لزادت الأخطاء والتزوير والمغالطات. إنهم يرددون أن القرآن ينقل عن الكتاب المقدس لكنهم لا ينقلون النصين لنقارن، لأن النقل والتوثيق العلمي يفضحهم ويفضح إيديلوجيتهم ومواقفهم عند المقارنة.

في الجانب الأسطوري أيضا نجد هذه الرواية الخرافية التي تتناسب مع العقلية الرومانية والإغريقية الوثنيةالخرافية التي تتنافى مع تمجيد الله وصفاته التي لا تشبه صفات البشر، وتتنافى مع فكرة الفلاسفة عن الله. فتحت عنوان كبير هو:

صراع يعقوب مع الله

تقول التوراة: (وقام – يعقوب – في الليل فأخذ امرأتيه وجاريتيه وبنيه الأحد عشر وعبر مخاضة يبوق، أخذهم وأرسلهم عبر الوادي مع كل ما كان له، وبقي يعقوب وحده، فصارعه رجل حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوي على يعقوب في هذا الصراع ضرب حق وركه فانخلع، وقال ليعقوب: طلع الفجر فاتركني. فقال يعقوب: لا أتركك حتى تباركني. فقال الرجل: ما اسمك؟

قال: اسمي يعقوب. فقال: لا يدعي اسمك يعقوب بعد الآن، بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس وغلبت. وسأله يعقوب: أخبرني ما اسمك؟ فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. وسمى يعقوب ذلك الموضع فنوئيل، وقال: لأني رأيت الله

وجها إلى وجه ونجوت بحياتي. وأشرقت له الشمس وهو يعبر فنوئيل عارجا من وركه ، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذي في حق الورك إلى هذا اليوم، لأن الرجل ضرب حق ورك يعقوب على عرق النساء)

هذا النص الأسطوري الذي تمت إضافته إلى الكتاب المقدس، يثبت مدى تهور التدخل البشري السافر، ويدل على الجرأة الإيديلوجية التي حملت كاتب التوراة إلى درجة تطويع النص، كي يصل من خلاله إلى تشكيل آلهة خاصة باليهود.. آلهة خاضعة لهم، الغريب هنا أن المسيحيين قبلوا هذه الأسطورة، وما تلاها من أساطير. ولعل إعادة قراءة آخر أسطر القصة يعيدنا مرة أخرى إلى إشكالية تاريخ تدوين التوراة.

هذا السطر يقول: (لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء الذي في حق الورك إلى هذا اليوم) عندما نلاحظ كلمة (إلى هذا اليوم) قد نصل بهذا اليوم إلى القرن العشرين، نظرا إلى أن اليهود في شريحة منهم لا يتعاطون هذا الجزء من جسد الحيوان. كما أن النص يؤكد أن كاتبه ليس من بني إسرائيل، لأنه لو كان منهم لقال: لذلك لا يجوز أكل عرق النساء الذي في حق الورك إلى هذا اليوم، لكن الكاتب بالتأكيد غير يهودي يكتب كتابا لليهود.

هذه العبارة تؤكد مجددا أن التوراة تحولت إلى عالم الأساطير، وأنها أصبحت نصاً بشريا، وإلا فما الذي تعنيه هذه القصة السخيفة سوى تطويع كل شيء لبني إسرائيل.. ابتداء من الأرض الموعودة، وانتهاء بالذات الإلهية، فقد تمكن يعقوب (إسرائيل) من هزيمة الرب – تعالى عما يقولون – وحصل منه شخصيا على لقب إسرائيل، وأخذ منه تفويضا بأن يفعل بالعالم وبالناس ما يشاء، ولعل اليهود استلهموا هذا الإسم المنتصر لدولتهم الحالية.

إذا وصلت التوراة بالذات الإلهية إلى هذا المستوى، فما الذي تعده للأنبياء!

الأنبياء في التوراة

الأنبياء يقفون في الصدارة بين البشر، تم اصطفاؤهم من عند الله ليمثلوا النموذج والمثال.. التوراة اليوم تحطم هذا المفهوم، وتتناقض في تناول مفهوم النبي، فالتوراة التي رفعت يعقوب (إسرائيل) إلى رتبة أعلى من الله في القوة، تهوي بآخرين إلى الحضيض.. الكتاب المقدس يقدم أنبياءً لهم سلوكيات منحطة للغاية، تقدمهم كمجموعة من الإرهابيين والقتلة واللصوص وقطاع الطرق والإباحيين والكذابين والخونة، ولا أدري كيف يمكن قبول رؤية الكتاب المقدس لهذه النخبة من البشر، وكيف يسكت المفكر العربي على هذه الكوارث.. لا أدري كيف يمررون وصف أنبياء الله بهذه الوضاعة، وما الهدف من إرسال أنبياء مجرمين إلى أناس أقل ذنوبا وأخطاءاً؟! هذه معضلة لم يناقشها المفكر العربي ولا يستطيع طرحها، لإنها معاداة للسامية، ولا يستطيع المسيحيون تبريرها أو الإجابة عليها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، فالحصر يطول بنا تأتي هذه القصة لإسرائيل الذي قام بمصارعة الرب، لتصفه بصفة سافلة:

يعقوب وما ألصق به

يعقوب.. والد اليهود صلى الله عليه وسلم، هذا النبي العظيم، ابن إسحاق بن إبراهيم الذي يصفه نبي الإسلام بأنه : الكريم بن الكريم بن الكريم، يتهمه الكتاب المقدس بالإباحية، ويتهم ابنه رابين وهو نبي عندهم بالزنا بجارية أبيه وأم ابنيه: (دان ونفاتلي) أي أن رابين زنا بأم أخويه.

يقول الكتاب المقدس: (وبينما هو ساكن في تلك الأرض ذهب رابين فنام مع (بلهة) محظية أبيه فسمع بذلك يعقوب)

هكذا يتم وصف يعقوب وبنظرة عنصرية لم يبال كثيرا، لكن الكارثة هي في ردة فعل رابين نفسه وأخوته عندما علموا أن رجلاً اسمه (شكيم)، وهو أمير مدينة شكيم قد اغتصب أخت رابين واسمها (دينة)!!

لقد ارتكبوا مجزرة لا حدود لقسوتها، وجريمة لا يمكن وصفها، لقد دخلوا مدينة شكيم، فقتلوا كل الرجال، وأخذوا كل النساء والأطفال، ونهبوا مافي المدينة من أموال وغنم وبقر وحمير.. لقد غدروا برجال شكيم وكذبوا عليهم، بعد أن صالحوهم ووافقوا على مصاهرتهم بشرط أن يختتنوا وأعطوهم الأمان، ولما اطمأن الأمير إلى أصهاره الأنبياء (رابين وأخوته)، قام هؤلاء الأنبياء بجريمتهم، فغدروا وخانوا واغتصبوا وسرقوا وقتلوا.. بعد أن طلبوا من رجال قرية شكيم كلهم أن يختتنوا، قام هؤلاء الأنبياء بغدرهم مباشرة بعد الختان، حتى لايستطيع رجال القرية الدفاع عن أنفسهم.

هكذا يصور الكتاب المقدس أخلاق الأنبياء وممارساتهم، بل وعلاقاتهم الأسرية والاجتماعية، حيث انحدر الأمر إلى مستوى يقوم فيه أحد أنبيائهم بعمل لا أخلاقي، وفيه من الحط من آدمية المرأة وحريتها وإرادتها ومصيرها الشيء الكثير، واعتبارها مخلوقا أشبه بالمتاع و المقتنيات التي تباع وتشترى وتورث.. في قصة أخرى طويلة ملخصها: أن يهوذا كان له ثلاثة أبناء هم: (شيله) و(أونان)، و(عير)، وكان عير شريراً فمات، ولما مات طلب يهوذاً من ابنه أونان أن ينجب نسلاً لأخيه (عير) عن طريق الزنا بزوجته الأرملة المسماة (ثامار). ففعل أونان ماطلبه أبيه لكنه لم ينجب، فغضب الرب على أونان فأماته، وكان الابن الثالث صغيراً وهو شيله، فطلب الأب من زوجة ابنه أن تبقى عند أهلها حتى يكبر شيله، وكأن هذه المسكينة (ثامار) إناء منزلي أو قطعة أثاث لا يستعملها إلا أصحاب المنزل، وكأنها حيوان أليف يجره أصحابه من زريبة إلى أخرى. وبعد فترة من الزمن ماتت زوجة يهوذا وأم أبنائه، وبعد الحداد ذهب يهوذا لزيارة زوجة أبنه، فغيرت ملابسها ولبست برقعاً وجلست في طريقه، فحسبها من البغايا، فراودها عن نفسها فقبلت بعد أن قدم لها خاتمه وعمامته وعصاه، فزنا بها وهو لم يتعرف عليها حتى الآن، وبعد ثلاثة أشهر سمع يهوذا أن زوجة أبنه هذه قد زنت فأمر بإحراقها، وعند التنفيذ أرته الخاتم والعمامة والعصا فأحرجته فلم يستطع تنفيذ الحكم فيها..

هكذا يتحدث كتاب المسيحيين واليهود عن أنبيائه.. نبي يمارس الزنا ويحكم على من مارسه بالإعدام، ولايمنعه من تنفيذ هذا الحكم سوى الفضيحة التي ارتكبها هو مع تلك الفتاة التي حكم عليها بالإعدام.

أي أنبياء هؤلاء الذين صنعهم مؤلفوا الكتاب المقدس، وأي وحي يتلقونه!

أما البسطاء من كتابنا والذين أزعجونا بالثرثرة عن الآخر، فأعذرهم، لأنهم مجرد ببغاوات. وفي قصة شريرة وأكثر شناعة يتم:

تلويث تاريخ داود

يصف الكتاب المقدس نبي من أروع أنبياء بني إسرائيل هو (داود) عليه السلام، داود الذي يصفه المسلمون وقرآنهم بأنه نبي أواب، وأنه تقي نقي ، ويصف محمد صلى الله عليه وسلم صيامه بأنه أفضل الصيام، حيث كان يصوم يوما ويفطر يوما.. داود القائد الشهم الشجاع، داوود قائمة من الإنجازات والمزايا والصفات.. هذا النبي العظيم الكريم يتم تحويله في الكتاب المقدس إلى نبي يرتكب مالا يرتكبه أخس المجرمين.

داود عليه الصلاة والسلام يتهمه الكتاب المقدس بالاغتصاب والخيانة والنذالة والغدر والخسة. ومع من؟ مع جاره ومع زوجة جاره، وأي جار ذلك الجار! إنه قائد من قواد جيشه اسمه: (أوريا الحثي).

عن قصة داود مع جاره وقائد جيشه (أوريا)، يقول الكتاب المقدس: (عند المساء قام داود عليه السلام عن سريره وتمشى على سطح القص، فرأى على السطح امرأةً تستحم وكانت جميلة جداً، فسأل عنها، فقيل: هذه (بتشابع بنت اليحام) زوجة (أوريا الحثي). فأرسل إليها رسلاً عادوا بها، وكانت اغتسلت وتطهرت، فدخل عليها ونام معها، ثم رجعت إلى بيتها وحين أحست أنها حبلى أعلمته بذلك) وحتى يتمكن داود من الاحتفاظ بزوجة قائده الفاتنة، وحتى لا ينكشف ما فعله من جرم، دبر مكيدة خبيثة للقضاء على زوجها أثناء المعركة، مضحيا بجيشه من أجل شهوته. قال داود: (وجهوا (أوريا) إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه فيضربه العدو ويموت)

إن في هذه القصة من النذالة والخسة والجبن مالا يتوفر في قاطع طريق قذر، ومع ذلك يجعل المسيحيون وكتبة الكتاب المقدس هذا العمل الجبان منسوباً لنبي عظيم كريم كداود عليه السلام. تلك القصة السخيفة أدت إلى كوارث عديدة:

الكارثة الأولى: أن زوجة أوريا هذه قد أنجبت طفلا.

الكارثة الثانية: أن هذا الطفل المولود من سفاح في نظر التوراة هو نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم. أي أنها تحكم على سليمان بأنه ابن حرام.

الكارثة الثالثة: أن عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم هو من نسل سليمان، والمسيحية تنفي أن يكون النبي أو الملك من نسل محرم، وسليمان عليه السلام ملك ونبي وعيسى عليه السلام أكثر من نبي بالنسبة للمسيحية.

أين حفريات أركون عن هذه الفضائح، أين منهجه العلمي والنقدي، هل أصيب بالشلل، أم أن الرجل تملى عليه أفكاره.. أين الفرادة يا "علي حرب" في هذه

القصة، وأنت تكتب ثلاثة كتب عن نقد النص ونقد الحقيقة، ثم تسكت عن هذه الأساطير والفضائح.. هناك حقيقة واحدة لديك هي: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.
ليس الأنبياء فقط تم تلويثهم، بل إن أبناء الأنبياء لم ينجوا من ذلك.

أبناء الأنبياء.

ففي الوقت الذي عاش فيه إبراهيم عليه السلام، عاصره نبي آخر هو لوط عليه السلام، والذي عانى من قومه الكثير بسبب كفرهم وشذوذهم الجنسي، ماذا يقول الكتاب المقدس عن لوط؟ قصة غريبة يذكرها الكتاب المقدس بعد أن دمر الله قرية سدوم على أهلها وهي (قرية قوم لوط)، يقول الكتاب المقدس أن لوطا سكن مغارة في جبل هو وابنتيه (فقالت الكبرى للصغرى: شاخ أبونا وما في الأرض رجل يتزوجنا على عادة أهل الأرض كلهم، تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة، وجاءت الكبرى.....

وفي الغد قالت الكبرى للصغرى: فلنسقه خمراً الليلة أيضاً ونامي معه أنت، لنقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً وقامت الصغرى .....

وحملت أبنتا لوط من أبيهما، فولدت الكبرى أبنا وسمته (موأب)، وهو أب المؤبيين إلى اليوم، والصغرى أيضاً ولدت إبناً وسمته (بنعمي) وهو أبو بني عمون إلى اليوم)

هكذا يشوه كتاب الكتاب المقدس إبراهيم، هكذا يمزق الكتاب المقدس لوطاً وابنتيه الطاهرتين المؤمنتين، الهاربتين من قرية القذارة سدوم، الهاربتين مع أبوهما من تفشي جرائم الشرك والزنا والشذوذ، فتاتان قال عنهما أبوهما النبي قبل خروجه من قريته المنحلة: لي بنتان ما ضاجعتا رجلا.

هكذا وبجرة قلم ممن كتب الكتاب المقدس ينتهي تاريخ لوط النظيف، وجهوده الجبارة في نشر الإيمان والفضيلة ومحاربة الرذيلة، كل ذلك التاريخ المجيد ينتهي بدعارة، بليلة حمراء بالخمر والزنا، والزنا بمن ؟ بابنتيه.

ومما ينغص على حياد المفكر العربي، ويثير الريبة في سكوته وتجاهله لنقد مكون هام من مكونات العقل العربي، وتراث عربي يقدسه ملايين العرب، تلك العنصرية التي كتب بها هذا الجزء من التوراة، حيث أراد كاتب تلك السطور تشويه نسب الموآبين وبني عمون، وأنهم أبناء سفاح بغيض، وليسوا أبناء علاقة شرعية ونسب مشرف. لكن هل العنصرية تبلغ برجال الدين إلى درجة تشويه الأنبياء وأبنائهم وبناتهم، لا أعتقد أن عقلا يقبل هذا الهراء على أنه كلام صادر عن الله سبحانه.

أما القصة التالية فإدانة صريحة لأركون، ولكل من هاجم الفكر الإسلامي من العلمانيين العرب، فالأسطورة التالية، والتي عناها (د. بوكاي) وغيره من نقاد الغرب بالخيال الشعبي، لا تجد قلماً عربيا يسلط عليها عباراته ومصطلحاته ونقده للمقدس، كنت أتمنى بدلا من أن يحرق أركون نفسه بـ(أم حسبت) (وتزييفه للآرقام في القرآن) (واتهامه للعلم التجريبي الغربي) أن يشتغل بالأسطورة التالية في ليكشف لنا ما تقوله حفرياته في (المقدس)، كنت أتمنى أن يقدم (علي حرب) نقدا

للنص وللحقيقة بتناوله لهذه الأسطورة، فهي في نظر البابا وأتباع الكتاب المقدس (نص وحقيقة) بدلا من استغفال قرائه بالقول أن الكتاب المقدس يحافظ على فرادته حتى بعد ترجمته.. أسوق في الصفحات التالية قصة مقدسة ونصاً من الكتاب المقدس، لرجل اسمه شمشون

شمشون الجبار

إنه ليس بنبي، بل رجل اشتهر بالقوة الجسدية، وشهرته تلك جعلت كاتبي التوراة ينعمون عليه بقوى خارقة تضفي على الكتاب المقدس وعلى بني إسرائيل المزيد من الهيبة، لكن المصيبة أن التوراة تضفي عليه تلك القوة ككرامة مقدسة، بينما أعماله تدل على أنه كان شريراً لئيماً، يهلك الحرث والنسل، يحرق المزارع ويحرق حتى الحيوانات البريئة. سأورد القصة باختصار، ثم أترك الحكم للقارىء، وأترك للقارىء أيضاً أن يكتشف المزيد من تحيز المفكرين العرب، مع أن في هذه القصة من العداء للفلسطينيين الشيء الكثير.

تقول التوراة Jgs:14:1: (١. ونـزل شمشون الى "تمنة" ورأى امرأة في "تمنة" من بنات الفلسطينيين ٢ فصعد وأخبر اباه وامه وقال: قد رأيت امرأة في "تمنة" من بنات الفلسطينيين فالآن خذاها لي امرأة ٣ فقال له ابوه وامه: أليس في بنات اخوتك وفي كل شعبي امرأة حتى انك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغلف؟ فقال شمشون لابيه إياها خذ لي لأنها حسنت في عينيّ ٤ ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب، لانه كان يطلب علّة على الفلسطينيين، وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على اسرائيل ٥)

ثم تبدأ الأسطورة، ويبدع المخرج في الخدع السينمائية، وتتصاعد الأحداث بلقاء شمشون بشبل الأسد، لتتشقق الأساطير وتتشعب بشكل كرتوني.

تقول التوراة : (فنزل شمشون وأبوه وأمه الى "تمنة" وأتوا الى كروم "تمنة"، وإذا بشبل أسد يزمجر للقائه ٦ فحلّ عليه روح الرب، فشقه كشق الجدي وليس في يده شيء، ولم يخبر أباه وامه بما فعل ٧ فنزل وكلم المرأة فحسنت في عيني شمشون ٨ ولما رجع بعد ايام لكي ياخذها مال لكي يرى رمّة الاسد، وإذا دبر من النحل في جوف الأسد مع عسل ٩ فاشتار منه على كفيه وكان يمشي وياكل، وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ولم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل ١٠ ونزل أبوه الى المرأة، فعمل هناك شمشون وليمة لانه هكذا كان يفعل الفتيان ١١ فلما رأوه احضروا ثلاثين من الأصحاب فكانوا معه ١٢ فقال لهم شمشون: لأحاجينكم أحجية، فاذا حللتموها لي في سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلّة ثياب ١٣ وإن لم تقدروا أن تحلّوها لي، تعطوني أنتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلّة ثياب. فقالوا له: حاج أحجيتك فنسمعها ١٤ فقال لهم: من الآكل خرج أكل، ومن الجافي خرجت حلاوة. فلم يستطيعوا أن يحلّوا الأحجية في ثلاثة أيام ١٥ وكان في اليوم السابع أنهم قالوا لامرأة شمشون: تملقي رجلك لكي يظهر لنا الاحجية لئلا نحرقك وبيت أبيك بنار، ألتسلبونا دعوتمونا ام لا؟! ١٦ فبكت امرأة شمشون لديه، وقالت: إنما كرهتني ولا تحبني، قد حاجيت

بني شعبي أحجية وإياي لم تخبر؟! فقال لها: هوذا أبي وأمي لم اخبرهما فهل اياك اخبر ١٧ فبكت لديه السبعة الأيام التي فيها كانت لهم الوليمة، وكان في اليوم السابع أنه أخبرها لأنها ضايقته، فاظهرت الأحجية لبني شعبها ١٨ فقال له رجال المدينة في اليوم السابع قبل غروب الشمس: أي شيء أحلى من العسل وما أجفى من الأسد.

فقال لهم: لو لم تحرثوا على عجلتي لما وجدتم أحجيتي ١٩ وحلّ عليه روح الرب فنزل إلى "أشقلون" وقتل منهم ثلاثين رجلا، وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهري الأحجية. وحمي غضبه وصعد إلى بيت أبيه ٢٠ فصارت امرأة شمشون لصاحبه الذي كان يصاحبه

ثم تقول التوراة Jgs:15:1: (١ وكان بعد مدّة في أيام حصاد الحنطة أن شمشون قد افتقد امرأته بجدي معزى، وقال ادخل الى امرأتي إلى حجرتها. ولكن أباها لم يدعه أن يدخل ٢ وقال أبوها: إني قلت أنك قد كرهتها فأعطيتها لصاحبك، أليست أختها الصغيرة أحسن منها؟ فلتكن لك عوضا عنها ٣ فقال لهم شمشون: إني بريء الآن من الفلسطينيين إذا عملت بهم شرا ٤ وذهب شمشون وأمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخذ مشاعل، وجعل ذنبا إلى ذنب، ووضع مشعلا، بين كل ذنبين في الوسط، ٥ ثم أضرم المشاعل ناراً، وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون ٦ فقال الفلسطينيون: من فعل هذا؟ فقالوا: شمشون، صهر التمنّي، لأنه أخذ امرأته وأعطاها لصاحبه، فصعد الفلسطينيون وأحرقوها وأباها بالنار ٧ فقال لهم شمشون: ولو فعلتم هذا، فاني أنتقم منكم وبعد أكفّ ٨ وضربهم ساقا على فخذ ضربا عظيما، ثم نزل وأقام في شق صخر "عيطم" ٩ وصعد الفلسطينيون ونزلوا في يهوذا وتفرّقوا في لحي ١٠ فقال رجال يهوذا: لماذا صعدتم علينا؟ فقالوا: صعدنا لكي نوثق شمشون لنفعل به كما فعل بنا ١١ فنزل ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى شقّ صخر "عيطم" وقالوا لشمشون: أما علمت ان الفلسطينيين متسلطون علينا، فماذا فعلت بنا؟ فقال لهم: كما فعلوا بي هكذا فعلت بهم ١٢ فقالوا له: نزلنا لكي نوثقك ونسلمك الى يد الفلسطينيين. فقال لهم شمشون: احلفوا لي أنكم أنتم لا تقعون عليّ ١٣ فكلموه قائلين: كلا، ولكننا نوثقك ونسلمك الى يدهم، وقتلا لا نقتلك. فاوثقوه بحبلين جديدين واصعدوه من الصخرة ١٤ ولما جاء إلى "لحي" صاح الفلسطينيون للقائه. فحلّ عليه روح الرب، فكان الحبلان اللذان على ذراعيه ككتان احرق بالنار فانحلّ الوثاق عن يديه ١٥ ووجد لحي حمار طريّا، فمدّ يده وأخذه وضرب به الف رجل ١٦ فقال شمشون: بلحي حمار كومة كومتين، بلحي حمار قتلت الف رجل ١٧ ولما فرغ من الكلام رمى "اللحي" من يده ودعا ذلك المكان "رمت" ١٨ ثم عطش جدا فدعا الرب وقال: إنك قد جعلت بيد عبدك هذا الخلاص العظيم، والآن أموت من العطش وأسقط بيد الغلف ١٩ فشقّ الله الكفّة التي في "لحي" فخرج منها ماء، فشرب ورجعت روحه فانتعش، لذلك دعا اسمه عين هقّوري التي في "لحي" إلى هذا اليوم ٢٠ وقضى لإسرائيل في إيام الفلسطينيين عشرين سنة

١ثم تقول التوراة: (١ ثم ذهب شمشون الى غزّة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها ٢ فقيل للغزّيين: قد أتى شمشون إلى هنا، فأحاطوا به وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة، فهدأوا الليل كله قائلين: عند ضوء الصباح نقتله ٢ فقيل للغزّيين قد اتى شمشون الى هنا، فاحاطوا به وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة، فهدأوا الليل كله قائلين: عند ضوء الصباح نقتله ٤ وكان بعد ذلك أنه احب امرأة في وادي سورق اسمها "دليلة" ٥ فصعد إليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها: تملقيه وانظري بماذا قوته العظيمة، وبماذا نتمكن منه لكي نوثقه لإذلاله، فنعطيك كل واحد الفا ومئة شاقل فضة ٦ فقالت دليلة لشمشون: أخبرني بماذا قوتك العظيمة، وبماذا توثق لإذلالك؟ ٧ فقال لها شمشون: إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تجف، أضعف وأصير كواحد من الناس. ٨ فاصعد لها اقطاب الفلسطينيين سبعة اوتار طرية لم تجف فاوثقته بها ٩ والكمين لابث عندها في الحجرة، فقالت له: الفلسطينيون عليك يا شمشون. فقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة إذ شمّ النار ولم تعلم قوته ١٠ فقالت دليلة لشمشون: ها قد ختلتني وكلمتني بالكذب، فاخبرني الآن بماذا توثق ١١ فقال لها: إذا أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس ١٢ فأخذت دليلة حبالا جديدة، وأوثقته بها، وقالت له: الفلسطينيون عليك يا شمشون. والكمين لابث في الحجرة، فقطعها عن ذراعيه كخيط ١٣ فقالت دليلة لشمشون: حتى الآن ختلتني وكلمتني بالكذب، فأخبرني بماذا توثق. فقال لها: إذا ضفرت سبع خصل رأسي مع السدى ١٤ فمكنتها بالوتد. وقالت له: الفلسطينيون عليك يا شمشون.فانتبه من نومه وقلع وتد النسيج والسدى. ١٥ فقالت له: كيف تقول أحبك وقلبك ليس معي. هوذا ثلاث مرات قد ختلتني ولم تخبرني بماذا قوتك العظيمة ١٦ ولما كانت تضايقه بكلامها كل يوم، وألحّت عليه ضاقت نفسه إلى الموت ١٧ فكشف لها كل قلبه وقال لها: لم يعل موسى راسي لاني نذير الله من بطن أمي، فان حلقت تفارقني قوتي وأضعف وأصير كأحد الناس ١٨ ولما رأت دليلة انه قد اخبرها بكل ما بقلبه ارسلت فدعت اقطاب الفلسطينيين وقالت اصعدوا هذه المرة فانه قد كشف لي كل قلبه.فصعد اليها اقطاب الفلسطينيين واصعدوا الفضة بيدهم ١٩ وانامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأسه، وابتدأت باذلاله وفارقته قوته ٢٠ وقالت: الفلسطينيون عليك يا شمشون، فانتبه من نومه وقال: أخرج حسب كل مرة وأنتفض، ولم يعلم أن الرب قد فارقه ٢١ فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه، ونزلوا به الى غزّة، وأوثقوه بسلاسل نحاس، وكان يطحن في بيت السجن ٢٢ وابتدأ شعر راسه ينبت بعد أن حلق ٢٣ وأما اقطاب الفلسطينيين فاجتمعوا ليذبحوا ذبيحة عظيمة لداجون إلههم، ويفرحوا وقالوا: قد دفع إلهنا ليدنا شمشون عدونا ٢٤ ولما رآه الشعب مجدوا إلههم لأنهم قالوا: قد دفع إلهنا ليدنا عدونا الذي خرب أرضنا وكثر قتلانا ٢٥ وكان لما طابت قلوبهم أنهم قالوا: ادعوا شمشون ليلعب لنا، فدعوا شمشون من بيت السجن فلعب أمامهم وأوقفوه بين الأعمدة ٢٦ فقال شمشون للغلام الماسك بيده: دعني ألمس الأعمدة التي البيت قائم عليها لأستند عليها ٢٧ وكان

البيت مملوءا رجالا ونساء، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة ينظرون لعب شمشون ٢٨ فدعا شمشون الرب وقال: يا سيدي الرب اذكرني وشددني يا الله هذه المرة فقط، فانتقم نقمة واحدة عن عينيّ من الفلسطينيين ٢٩ وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائما عليهما واستند عليهما الواحد بيمينه واخر بيساره ٣٠ وقال شمشون: لتمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذي فيه، فكان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته)

هذه القصة ـ الخرافة لا تصلح حتى لمسلسل كرتوني للأطفال تنضح بالغباء، وإلا فكيف تعتبر التوراة شمشون زير النساء الغبي والقاتل والمفسد الحاقد الكاذب.. كيف تصوره على أنه قديس تحل عليه روح الرب متى ما شاء وأراد!!

أما ما يكشف اختلاق هذه القصة فهو قول الراوي يا سادة يا كرام: (فشقّ الله الكفة التي في "لحي" فخرج منها ماء، فشرب ورجعت روحه فانتعش، لذلك دعا اسمه عين هقّوري التي في "لحي" إلى هذا اليوم) إن كلمة "إلى هذا اليوم" تعني إمكانية إدخال عشرات القرون وآلاف السنوات بين الحدث والرواية، مما يعني تسرب الأسطورة الشعبية إلى وثائق التوراة، ثم اندماجها معها بحيث لا يمكن فرزها عن تلك الوثائق. ثم ما الهدف من تلك الرواية التي تنضح بالزنا والقتل والتخريب والمبالغات والغباء، لدرجة أن شمشون اليهودي يقتل ألف فلسطيني ربما كان بعضهم مسلحاً، المضحك هنا أنه لا يقتلهم بسيفه، أو رمحه أو حتى رشاشه الآلي، بل بعظم حمار، وأعتقد أنه عظم فكه، أما الأكثر إضحاكاً فتلك المهزلة التي تقول أنه استطاع لوحده وبيده اصطياد ثلاثمائة سبع في البرية، مما لا يمكن فعله ولو كانت داخل حضيرة مغلقة، ثم يتمكن من ربط أذيالها ببعض، ثم وضع المشاعل بين تلك الأذيال، ثم سير تلك السباع بخط مستقيم أو حتى متعرج نحو الأمام والنار تأكل أذيالها، وبدلا من أن تلتف حول نفسها محاولة التخلص من اللهب العالق بها، وبدلا من يتعثر بعضها بالحبال، ويتعثر بعضها الآخر ببعض، وبدلا من أن تتحول إلى كومة من اللهب تسير نحو الأمام بانضباط لتنفذ المهمة الخارقة، فتحرق زروع الفلسطينيين.

أنا أجزم أن من يقرأ هذه القصة يعتقد أن شمشون كان يمسك بجهاز التحكم عن بعد (الريموت كونترول) لضبط تلك الحيوانات وتنظيم سيرها بين حقول الفلسطينيين. يالظلم اليهود للفلسطينيين، حتى في الخرافات.

ألم تثر هذه الخرافة عقل مفكر عربي، لا بكونها دراسة لمكون من مكونات العقل العربي (الكتاب المقدس) ولكن من باب الحمية والدفاع عن الفلسطينيين، وتصويرهم كالمجرمين الذين لا يستحقون ذرف دمعة عليهم.

لا يكتفي الكتاب المقدس بتقويض الألوهية، وتدمير النماذج البشرية العظيمة، ولا بإعلاء النماذج السيئة والمنحطة كما مر معنا، بل يتمادى إلى تدمير الواقع. فعندما ننتقل تعاطي الكتاب المقدس مع المرأة، فإننا نخرج بنتائج كارثية لا يمكن معها للمرأة أن تعيش كإنسان سوي، ولا يمكن للرجل أن يتعامل معها باحترام، فالكتاب

المقدس يحول حياة المرأة إلى جحيم عليها وعلى من يحيطون بها. وهي أشياء محرجة وخطيرة لا أدري كيف تغاضى عنها المفكر العربي وأهملها، نتائج لا تقل في إحراجها لمن عمن يعتنقونه عن إحراجها لمن يتبجحون بادعاء قراءة العقل والتراث العربيين.

المرأة في الكتاب المقدس مصدر لا ينضب للشرور

المرأة.. الفوهة التي يستخدمها المفكرون العرب، لإطلاق قذائفهم في وجه النص الإسلامي والفقه والعلماء والمجتمع. المرأة.. عندما قرأتها في الكتاب المقدس شعرت بالأسى.. ليس على من كتب الكتاب المقدس، بل على المفكرين العرب الذين ملأوا عالمنا العربي ضجيجا عنها وعن حقوقها.. والذين يدعون أنهم اخترقوا التراث وقرأوه قراءة جديدة. أين أركون وأدونيس وطرابيشي وعلي حرب وأبو زيد وغيرهم من هذا التراث!! أليس تراثا عربيا، أولم ينتقد أبو زيد في دوائر خوفه من نقل من المفسرين قصة آدم وحواء من (الكتاب المقدس)

كيف يشير بسرعة الضوء للكتاب المقدس، بينما يلتف كالحية حول من نقلها من المفسرين؟!! أليس من الموضوعية نقد المصدر الأصلي وكشفه وتعرية مصداقيته، بدلا من تحميل (الناقل للكفر جرم الكافر) أوليسوا يقولون: (ناقل الكفر ليس بكافر)، أي فكر أسود هذا الذي يتجاهل المنبع لينشغل بالمجرى.

المرأة حيوان قذر، هكذا يقدمها (الكتاب المقدس).. المرأة حيوان من الدرجة العاشرة، لا أبالغ في ذلك، فهو يرسمها كالقذارة تماما، لكنها قذارة يصعب التخلص والتطهر منها، مما ألقى بظل ثقيل على كل ما يتعلق بالمرأة وكل من يتعلق بامرأة، وجعلها تعيش في ظل تلك النصوص آلاف السنوات حياة مليئة بالعقد والذنوب التي لم ترتكب منها شيئا، وهو ما ولد أيضا انعكاسا متطرفا لدى المرأة المسيحية في رفضها للمقدس، وفي ممارستها الواسعة للانحلال والتهتك، فهي تمارسها وما زالت بطريقة هيستيرية ودون تعقل، ولا يمكن تحميل المرأة أو المجتمع المسيحي ذنب تلك السلوكيات، فمن يقرأ نصوص (الكتاب المقدس) عن المرأة يصاب بالذهول والدهشة من تطرف الأحكام التي تجلد المرأة ليلا ونهارا آلاف السنوات.. إنني أجد للمرأة ألف عذر في كل ممارساتها المنحرفة، بل إن مجتمعا تسود فيه تلك النصوص ولا تسود فيه تلك الممارسات يعتبر – في نظري – مجتمعا مريضا.

أزعم أن كل العلمانيين العرب الذين أعمانا غبارهم، وأصمنا ضجيجهم حول قضايا إسلامية، كحجاب المرأة وقوامة الرجل، وميراث المرأة والولاية الكبرى، لا يعرفون شيئا عما جاء عن المرأة في الكتاب المسيحي المقدس من كوارث لا تليق حتى بالبهائم، أما إن كانوا يعلمون فهم يمارسون أحط أنواع التزييف والخيانة، تجاه تراثهم الذين يدعون قراءته قراءة جديدة، فـ(الكتاب المقدس) تراث عربي ومكون رئيس من مكونات العقل العربي اليوم وليس القرآن فقط.

لن أكون إنشائيا مثلهم سأنقل نصوص الكتاب المقدس، ليحكم القاريء العربي على سكوت أركون وأدونيس وطرابيشي وعلي حرب وأبو زيد وغيرهم العلمانيين

العرب، ومن يدعون قراءة التراث ليتبين أي تراث نذروا أنفسهم لقراءته، وأي تراث قرروا السكوت عنه، أو الخوف منه.
يقدم الكتاب المقدس المرأة على أنها مخلوق بشع وشرير للغاية، فالتوراة لاتكتفي بجعل المرأة هي السبب في ارتكاب الخطيئة الأولى، وسببا في الخروج من الجنة.
١ – المرأة هي أول من عصى الله ، وهي سبب خروج آدم من الجنة ، حيث تقول التوراة في سفر التكوين: Gn ٣:٦: (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهيّة للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل) لذلك حول حياتها إلى جحيم نتيجة ما ارتكبته في حق البشرية، وهي – قبل الشيطان – أول من نزل به عقاب الله بالاشتراك مع الحية، بسبب أكلها من الثمرة المحرمة ، وما الدورة الشهرية (الحيض) إلا عقاب من الله – في تصور من كتب الكتاب المقدس – على فعلها ، بل جعل ولادتها وحملها عقابا لها، بل إن سيادة الرجل وقوته ما هي إلا عقوبة ثالثة للمرأة في نظر الكتاب المقدس.
تقول التوراة في السفر السابق : Gn ٣:١٤ : (فقال الرب الاله للحيّة: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك)
ثم تقول التوراة: (وقال للمرأة تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك)
أما عندما نتحول إلى واقع المرأة كمخلوق مكلف يستحق التقدير والاحترام، ومدى تعاطي الكتاب المقدس مع يومياتها وما تمارسه من أنشطة، نجد أنه يتحول إلى سجن كريه للمرأة. المرأة لا تجد ما يبرر هذا السجن، فهو لا يضفي عليها الاحترام أو الرعاية، أو حتى الحماية في عالم يتسيد فيه الرجل، المرأة لاتجد داخل الكتاب المقدس عن أرض تصلح لحياة طبيعية كسائر المخلوقات، إنها نغم نشاز في هذا العالم المتناغم، لا تجد فيه حلولا لمشاكلها الاجتماعية والنفسية، فضلا عن العثور على واحة إيمانية تلقي فيها همومها اليومية، ستبحث المرأة كثيراً ومريراً، وفي النهاية ستكتشف أنها كانت تبحث عن وهم، عن حلم.. عن أمل تفحم على أرض الكتاب المقدس، ولعل هذا هو سر اعتناق المرأة للإسلام بأعداد تفوق أعداد الرجال.
أين تجد المرأة المسيحية نفسها، بين كلمات مقدسة تطالبها باقتلاع عينها عندما تنظر إلى فتى يعجبها، وكلمات تحكم بقتلها عندما يتم اغتصابها، وبين قصص تحرق الطهارة فيها والعفاف، وتحرق رموزها العظيمة من الأنبياء وبناتهم وأبنائهم؟ كلمات تقذف أعظم الرجال والنساء، الذين عاشوا على هذه الأرض بالخيانة والدعارة والاغتصاب والتحلل الخلقي، وتصف بنات الأنبياء الطاهرات المؤمنات بالشبق والخنا والانحطاط، وهن اللواتي عانين مثل معانات آبائهن في محاولات الرقي بالمجتمع وحمل رسالة الوعي والطهارة والتوحيد للعالم كله.
الفتاة المسيحية لن تترد في طرح تساؤلاتها وحيرتها أمام التناقضات التي تقذفها التوراة بين أمواجها، والحيرة التي تتجول في عقلها وروحها، لقد انهارت تلك

النماذج أمام عينيها، ومن حقها أن ترفض وتحتج دون حدود كلما طلب منها الحياء أو العفاف، أو حتى العقلانية في علاقاتها بالجنس الآخر، بل وعلاقاتها المثلية. الفتاة المسيحية اليوم، وفي كل يوم.. تطرح حقها في ممارسة عمل لم يتورع عنه أنبياء الكتاب المقدس وبناتهم، فعلى القس أن يكف عن التلويح بالفضيلة أو الخطيئة، فهي ليست بأفضل ولا أعظم عند الله وعند الناس من أنبياء كتابه المقدس وبناتهم.. إنها تحرجه بقولها: ألاترى ما يفعله هؤلاء الرجال المقدسون، وما تفعله بناتهم؟

إذا كان هؤلاء هم مصادر الإلهام والقدوة ومضرب الأمثال، إذا كان هؤلاء الأطهار لم يفكروا في مقاومة نزواتهم، فمن هي الفتاة المسيحية التي تعيش في محيط الإباحية الملتهب كي تقاوم ماعجز عنه نبي، وماعجزت عنه ابنة نبي؟!

سؤال يهوي كالصاعقة على رؤوس المفكرين العرب الخائفين والصامتين والمتآمرين، يصيبهم بالشلل، يقذف بهم في عين العاصفة وقلب الظلمة، أما السؤال الأكثر تدميرا لما بقي من قدسية للتوراة فهو في تساؤل المسيحية نفسها: هل يمكن أن يكون هذا النص إلهيا؟ والإجابة لا يمكن أن تنجوا من تقديم العزاء لما تبقى للكتاب المقدس من مصداقية.

إذا اجتمع هذا التساؤل العنيف والملح مع ما سأذكره من أحكام الكتاب المقدس التي صنفت المرأة منذ خلقها وحتى مماتها مخلوقا شريرا قذرا ومتخلفا للغاية، قد يقول المفكر العربي أن هذا كلام إيديلوجي سخيف لا يلتفت إليه. لكن النصوص التالية تبين جهل المفكر العربي بنصوص تعتبر أحد مكونات العقل العربي:

المرأة مصدر للنجاسات في الكتاب المقدس

في الفقرات السابقة حكمت التوراة أن دم الحيض هو عقاب من الله للمرأة، لأنها هي من أغوى زوجها وحرضه على الأكل من تلك الثمرة، لكن المصيبة هي أن العقاب لا يقتصر على نزول الدم، بل إن ما يحدث بعد النزول أشد وأقسى، حيث تتحول المرأة إلى قذارة لا يجوز لمسها، أو النوم معها، أو الأكل معها، أو مصافحتها، أو تقبيلها أو التعامل مع أدواتها ولو كانت أماً، كما لا يجوز لها أن تلمس أحدا أو تلمس أدواته، أو تأكل معه أو تقبله ولو كان طفلها وإلا...

أما من يلمسها فيصبح نجسا، ونجاسته ليست معنوية بل هي نجاسة معنوية ومادية معا، ومن نوع الحدث الأكبر، حيث لا تذهب تلك النجاسة ولا تزول إلا بالاستحمام وغسل الجسد كاملا، فمثلا لو لمست المرأة وهي فترة الحيض طفلها أو رضيعها، فإنه يصبح نجسا، ولا بد من غسل جسده بالماء كي يتطهر من نجاسة أمه، ولو قامت أمه بغسله لظل الطفل نجسا، لذلك فلا بد أن يقوم شخص آخر بتلك العملية، وحتى لو استحم فيبقى نجسا حتى تغيب الشمس. أما الزوج فهو يعيش مصيبة ما بعدها مصيبة حيث لا تسمح له التوراة بلمس زوجته أو النوم أو التعامل معها طوال تلك الفترة.!! ياله من كارثة.. أين العلمانيين العرب عن هذه الكوارث.

تقول التوراة : Lv:١٥:١٩ : (واذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسّها يكون نجسا الى المساء)

And if a woman have an issue, and her issue in her flesh be blood, she shall be put apart seven days: and whosoever toucheth her shall be unclean until the even

المرأة تنجس غير البشر

لا تكتفي التوراة بجعل المرأة المسيحية واليهودية تنجس الرجال والأطفال ، بل المرأة قادرة على جعل كل شيء نجس، فلو لمست عصفورا لصار نجسا، ولو لمست وردة لأصبحت تلك الوردة الجميلة نجسة، ولو ارتدت فستانا جميلا لأصبح فستانا من نجاسة، والشيء نفسه ينطبق على بقية الأشياء كالكراسي والطاولات والكوؤس والملاعق والسيارات والطائرات والقطارات و... و...

الكتاب المقدس يقول : Lv: ١٥:٢٠ : (وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجسا، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً)

And every thing that she lieth upon in her separation shall be unclean: every thing also that she sitteth upon shall be unclean

وللمفكر العربي المغرق في الجهل بهذه النصوص، أن يتصور وضع الأجهزة مع الطبيبة التي تمر بالدورة الشهرية في عيادتها، أو في غرفة الطواريء، أو غرفة العمليات، أو حتى في داخل بيتها.

المرأة جسم مشع بالنجاسة

لا يكتفي الكتاب المقدس بجعل المرأة نجسة منجسة، بل إن نجاستها ذات أثر بعدي، أي أن نجاستها لا تزول بالماء أو الصابون أو الشامبو، أو حتى المبيدات الحشرية، فالنجاسة التي تتركها المرأة المسيحية مركزة لدرجة أن لها آثاراً تمتد بالتلامس، حيث تنجس كل من لمسها، فلو جلس الزوج على سرير زوجته لأصبح نجسا، ولو أكل من الطبق نفسه أو ركب في السيارة نفسها لصار نجسا، أو استخدم الطبيب سماعات زميلته أو قلمها أو أمسك بالباب الذي أمسكت به، أو قدمت له تقريرا أو كتابا لأصبح نجسا. فبم يفسر العلماني العربي جهله بهذا البؤس الذي يخيم على المرأة المسيحية.

تقول التوراة ::Lv ١٥:٢١ : (وكل من مسّ فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا الى المساء، وكل من مسّ متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا الى المساء)

And whosoever toucheth her bed shall wash his clothes, and bathe himself in water, and be unclean until the even.

And whosoever toucheth any thing that she sat upon shall wash his clothes, and bathe himself in water, and be unclean until the even

أي أن الاستحمام لا يكفي، بل لا بد من شرط آخر هو غروب الشمس، فهل الشمس مقلب للنفايات! أما ما يتجاوز حدود العقل والمنطق، وما يسحق المرأة وينزل بها

إلى درجة أسفل من درجة النفايات فهو في قول التوراة :Lv ١٥:٢٣: (وإن كان على الفراش أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسّه يكون نجسا إلى المساء)

And if it be on her bed, or on any thing whereon she sitteth, when he toucheth it, he shall be unclean until the even

المرأة قادرة على تحويل الرجل إلى امرأة حائض

لا تكتفي التوراة بتحويل المرأة المسيحية إلى مأساو، بل إن المرأة تحول حياة الرجل إلى مأساة، فدم المرأة إذا أصاب الرجل يحول الرجل إلى حائض يعاني من النجاسات سبعة أيام.

تقول التوراة : Lv : ١٥:٢٤: (وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا)

And if any man lie with her at all, and her flowers be upon him, he shall be unclean seven days; and all the bed whereon he lieth shall be unclean

ثم ماذا لدى الكتاب المقدس بعد انقطاع الدم، هل تصبح المرأة طاهرة، وتعود لممارسة حياتها الطبيعية: ربة بيت أو معلمة أو طبيبة، أو حتى راهبة؟

التوراة تقول: لا، وتصر على اضطهاد المرأة بشكل لا يطاق، التوراة تقدم عرضا كالذي نشاهده في المحلات التجارية: (اشتر قطعة تأخذ أخرى مجانا)

التوراة تحكم على المرأة المسيحية بالنجاسة، وتتبرع لمن تحيض سبعة أيام بنجاسة قدرها سبعة أيام أخرى كهدية بعد انقطاع الحيض، ولا تكتفي أبدا بذلك بل تؤكد على أن ذنب حواء تتحمله بناتها، ولا بد أن تكفر عنه كلما طهرت من الحيض، والكفارة عبارة عن ذبح حمامتين عند الكاهن – ليس في المنزل – بل عند القس، وكأن القس بوابة وحيدة نحو الله والجنة، وكأن الله لا يعلم السر وأخفى!

تقول التوراة ::Lv ١٥:٢٨: (وإذا طهرت من سيلانها تحسب لنفسها سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تأخذ لنفسها يمامتين أو فرخي حمام، وتأتي بهما إلى الكاهن إلى باب خيمة الاجتماع، فيعمل الكاهن الواحد ذبيحة خطية والآخر محرقة، ويكفّر عنها الكاهن أمام الرب من سيل نجاستها)

But if she be cleansed of her issue, then she shall number to herself seven days, and after that she shall be clean.

And on the eighth day she shall take unto her two turtles, or two young pigeons, and bring them unto the priest, to the door of the tabernacle of the congregation

And the priest shall offer the one for a sin offering, and the other for a burnt offering; and the priest shall make an

atonement for her before the Lord for the issue of her uncleanness.

هذه التعاليم التي تنسب لله ولرسوله موسى صلى الله عليه وسلم، تعني أن المرأة تقضي نصف كل شهر في نجاسة وتنجيس، أي نصف كل عام، مما يعني أنها تقضي نصف شبابها وكهولتها في معاناة لا تطاق، فكيف إذا جمعنا معها أيام النزيف والولادة والنفاس، وكأن لسان حال من يردد ذلك يقول: اذهبوا بالمرأة إلى الزريبة، فلا حل لدى الكتاب المقدس سوى الزريبة.

هذه التعاليم ذات مساس خطير للغاية بحياة المرأة والرجل والأطفال والأسرة بكافة أفرادها، وبالتالي فلها مساس لا يقل خطورة على المجتمع ككل.

كيف يمكن تصور أسرة تؤمن وتطبق هذه التعاليم، والإجابة التي أحصل عليها من كل مسيحي أناقشه بهذه التعاليم هو: لا أحد يؤمن بهذه التعاليم أو يعمل بها. وهي إجابة تناقض مقولة الإيمان بالكتاب المقدس، لأن تلك العبارات ما هي إلا جزء منه، وما عدم تطبيق هذه التعاليم على الإطلاق إلا اعتراف ببشرية هذه النصوص واستحالة كونها إلهية المصدر، نظرا لتناقضها مع صفات منزلها وهو الرب، كصفة العدل والرحمة والحكمة والقوة وغيرها من الصفات العظيمة التي ينسفها الكتاب المسيحي المقدس.

أين أركون وعلي حرب وأدونيس وأبو زيد من هذه النصوص، أوليس الكتاب المقدس من أقدس مقدسات التراث العربي ومكونات عقله؟!!

ولذا سأنقل لأركون وأمثاله نصا عن عائشة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم تقول فيه: (كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع في فيشرب وأتعرق العرق – أي تأكل من العظم الذي عليه لحم – وأنا حائض ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع – صحيح مسلم ١ - ٢٤٥) وقولها: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن – صحيح مسلم ١ - ٢٤٦)

وقولها: (بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فقال: يا عائشة ناوليني الثوب. فقالت: إني حائض. فقال: إن حيضتك ليست في يدك. فناولته – صحيح مسلم - ١ - ٢٤٥)

وقولها: (كنت أغسل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حائض - صحيح مسلم ١ - ٢٤٤)

أين ما قررته التوراة من نجاسة الرجل سبعة أيام إذا أصاب ثوبه دم امرأة مما يرويه أبو داود ١ – ١٢٠ عن عائشة وهي تقول: (كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نبيت في الشعار الواحد وأنا حائض طامث، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه ولم يعده ثم صلى فيه وإن أصاب تعني ثوبه منه شيء غسل مكانه ولم يعده ثم صلى فيه) ومعنى "لم يعده" أي لم يغسل إلا موضع الدم، ثم يصلي فيه.

لننتقل إلى تناقض التوراة مع العلم التجريبي مرة أخرى، ومع الطب الحديث فيما يتعلق بالمرأة: هناك ما يسمى بنزيف المرأة، والطب الحديث يقول إن هذا يسمى

مجرد نزيف، ودمه غير دم الحيض، ولا علاقة له بالحيض، فمن المفترض أن تكون له أحكام تختلف عن أحكام الحيض، أحكام أخف وألطف، لكن التوراة تصر على مخالفة الطب والعلم الحديث والعقل، وتجعلهما دما واحدا، وهذا يفضح مدى تدخل الحاخامات والقساوسة والقمصان في نصوص التوراة التي تقول:
Lv:٢٥:١٥: (وإذا كانت امرأة يسيل سيل دمها أياما كثيرة في غير وقت طمثها، أو إذا سال بعد طمثها فتكون كل أيام سيلان نجاستها كما في أيام طمثها، أنها نجسة، كل فراش تضطجع عليه كل أيام سيلها يكون لها كفراش طمثها، وكل الأمتعة التي تجلس عليها تكون نجسة كنجاسة طمثها، وكل من مسّهنّ يكون نجسا، فيغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء)

And if a woman have an issue of her blood many days out of the time of her separation, or if it run beyond the time of her separation; all the days of the issue of her uncleanness shall be as the days of her separation: she shall be unclean Every bed whereon she lieth all the days of her issue shall be unto her as the bed of her separation: and whatsoever she sitteth upon shall be unclean, as the uncleanness of her separation.

And whosoever toucheth those things shall be unclean, and shall wash his clothes, and bathe himself in water, and be unclean until the even.

أما ما يثير السخرية في حق المرأة والعقل والعلم، فهو في هذه المقطوعة التي مرت معنا تحت عنوان:

شريعة الغيرة

 وملخص شريعة الغيرة كما مر هو: أن الرجل إذا شعر بغيرة على زوجته وشك فيها مجرد شك، فعليه أن يأخذها إلى القس، وبصحبتها كمية من دقيق الشعير، ثم تقف أمام الكاهن ويكشف رأسها، ويسقيها شراب اللعنة "ماء وضعت فيه ورقة مكتوب فيها لعنات" المضحك في هذا الأمر والذي لا يصدقه إلا المجانين هو: أن المرأة إذا كانت مذنبة فإن مرارتها تتورم ويسقط فخذها.

أما الأشد سخرية فهو في أن المرأة إذا كانت بريئة وصادقة فإن هذا الماء سيتحول إلى جنين.

لا أدري بعد هذا ماذا سيقول العلمانيون العرب عن جهلهم به، وبأي شيء يبررون ذلك الجهل وذلك الصمت، وهم يعيشون بين أجراس الكنائس ليل نهار كالتماثيل دون أن يتفوهوا بكلمة، مع أنهم يتمتعون بالرفاه داخل دول غربية ديموقراطية تكفل لهم حرية الكلمة وانتقاد المقدس؟

اضطهاد الأرملة في الكتاب المقدس

المرأة الأرملة تصنف في التوراة على أنها "شيء" يورث وراثة، فالمرأة التي مات زوجها يرثها أخوه الذي لم ينجب، فتصبح زوجته ويحرم عليها أن ترفض ذلك.. تقول التوراة : Dt:٢٥:٥: (إذا سكن أخوة معا ومات واحد منهم، وليس له ابن فلا تصر امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبي، أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج)

الأرملة لا يحق لها تسمية ابنها

تقول التوراة : Dt:٢٥:٦: (والبكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل)

الأرملة تتزوج رغما عن أنفها

الزوجة التي مات زوجها تفرض على شقيق زوجها فرضا، حتى لو كان يكرهها ولا يحبها . تقول التوراة : Dt:٢٥:٧: (وإن لم يرضى الرجل أن يأخذ امرأة أخيه، تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول: قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه إسما في إسرائيل، لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخي الزوج)

وتقول أيضا : Dt:٢٥:٩: (تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرخ وتقول: هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه)

الأرملة نجسة

الأرملة أيضا من النساء النجسات اللواتي لا ينبغي لرجل الدين الزواج بها. فتقول التوراة ::Lv ٢١:١٤: (أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ، بل يتخذ عذراء من قومه امرأة) .

قطع يد المرأة التي تدافع عن زوجها

عجائب الكتاب المقدس لا تنقضي، ومن هذه العجائب أن المرأة إذا حاولت الدفاع عن زوجها ضد أخيه الذي يحاول قتله أو ضربه، فإن يدها تقطع إذا مست شيئا محددا من جسد ذلك المعتدي. حيث تقول التوراة ::Dt ٢٥:١١: (إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضا رجل وأخوه وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلّص رجلها من يد ضاربه، ومدّت يدها وأمسكت بعورته فاقطع يدها ولا تشفق عينك)

When men strive together one with another, and the wife of the one draweth near for to deliver her husband out of the hand of him that smiteth him, and putteth forth her hand, and taketh him by the secrets:
Then thou shalt cut off her hand, thine eye shall not pity her.

تشريد ونفي من ينام مع حائض

تحكم التوراة على أن من ينام مع المرأة الحائض حتى لوكانت زوجته فإنه ينفى من شعبه. حيث تقول التوراة :Lv ١٨: ٢٠: (اذا اضطجع رجل مع امرأة طامث وكشف عورتها ..... يقطعان كلاهما من شعبهما)

And if a man shall lie with a woman having her sickness, and shall uncover her nakedness; he hath discovered her fountain, and she hath uncovered the fountain of her blood: and both of them shall be cut off from among their people.

اضطهاد المرأة المطلقة

الطلاق جائز في التوراة، لكن الضحية هي المرأة، فالمطلقة تحتل التصنيف نفسه الذي تقبع فيه الزانية، فلا يجوز للقساوسة والحاخامات أن يتزوجوا المطلقة، لأن المطلقة مدنسة لا تليق بالعبادة...؟ تقول التوراة : :Lv١ ٢١: (وقال الرب لموسى كلم الكهنة بني هرون وقل لهم.... امرأة زانية أو مدنّسة لا يأخذوا، ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها، لأنه مقدس لإلهه)

المطلقة نجسة ولا يجوز لها العودة إلى زوجها الأول

إذا طلق الرجل زوجته، ثم تزوجها رجل آخر ثم طلقها أو مات، فإنه يحرم عليها أن تعود لزوجها الأول لأنها أصبحت نجسة، ولا تليق به .
تقول التوراة : :Dt٢ ٢٤: (ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، فان أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الاخير الذي اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود ياخذها لتصير له زوجة بعد ان تنجست، لأن ذلك رجس لدى الرب، فلا تجلب خطية على الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبا)

الحالات التي ترجم فيها النساء

المرأة التي تعبد غير الله ترجم

هذا هو مفهوم الآخر داخل جماعة الكتاب المقدس، الآخر ضمن الجماعة نفسها والذي لم يتطرق له أدونيس، وهذا هو حكمه كما تقول التوراة : Dt ٢ :١٧: (إذا وجد في وسطك في أحد أبوابك التي يعطيك الرب إلهك رجل أو امرأة يفعل شرا في عيني الرب إلهك بتجاوز عهده) ثم تقول التوراة: (فاخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة الذي فعل ذلك الأمر الشرير إلى أبوابك، الرجل أو المرأة وارجمه بالحجارة حتى يموت)

إعدام الفتاة المغتصبة

الكتاب المقدس وبدلا من أن يمسح دمعة الفتاة العذراء المكلومة التي اعتدي عليها، ولوث شرفها واغتصبت .. بدلا من مواساتها وملاحقة مغتصبها يحكم بإعدامها، لماذا؟ لأنها لم تصرخ .ألا يمكن أن يخرس لسانها من الصدمة، ألا يمكن أن يغمى عليها ؟ التوراة تقول : لا .. بل تعدم. التوراة تقول: Dt ٢٣ :٢٢: (إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها،

فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا: الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة)

الحالات التي تحرق فيها النساء

الزنى من الحالات التي تحرق فيها المرأة. تقول التوراة : Gn:٢٤:٣٨: (ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا، وقيل له قد زنت ثامار كنتك، وها هي حبلى أيضا من الزنى. فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق)

الفتاة البكر ترجم إذا زنت

تقول التوراة :Lv٩:٢١: (وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست أباها.بالنار تحرق)

الشوي بالنار حتى الموت عقوبة خاصة بالمرأة

الشوي بالنار من العقوبات التي تهديها التوراة للمرأة ، فمثلا لو زنت الفتاة فإن عقوبتها الحرق، تقول التوراة : Lv٩:٢١: (واذا تدنست ابنة كاهن بالزنى فقد دنست اباها، بالنار تحرق)

اضطهاد النساء غير اليهوديات وإبادتهن مع أطفالهن

النساء المتزوجات غير اليهوديات يعدمن مع أطفالهن عند أسرهم أو في المعركة، فالتوراة تشرعن لجرائم الحرب وتبرر ارتكابها مع الآخر خاصة النساء. فتقول : Nm١٥:٣١: (وقال لهم موسى هل أبقيتم كل أنثى حيّة؟) ثم وتقول: (فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها)

اضطهاد الفتاة البكر وفضيحتها

إذا تزوج الرجل فتاة ثم ادعى أنها ليست بكرا، فإن التوراة تأمر الوالدين – تصور – بإزالة بكارة ابنتهم من أجل ذلك الرجل الكذاب، يزيلونها ويقدمونها لشيوخ البلاد كلهم، أي عقول هذه؟ تقول التوراة : Dt١٣:٢٢: (إذا اتخذ رجل امرأة وحين دخل عليها أبغضها، ونسب إليها أسباب كلام، وأشاع عنها اسما رديا، وقال: هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة. يأخذ الفتاة أبوها وأمها، ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة إلى الباب، ويقول أبو الفتاة للشيوخ: أعطيت هذا الرجل ابنتي زوجة فأبغضها، وها هو قد جعل أسباب كلام قائلا: لم أجد لبنتك عذرة. وهذه علامة عذرة ابنتي! ويبسطان الثوب أمام شيوخ المدينة، فيأخذ شيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه.

هل تنتهي المأساة عند هذا الحد ؟ لا.

التوراة تأمر بأن تسحب الفتاة رغم كل الذي جرى لها من شنائع إلى ذلك الوغد لتكون زوجته مدى الحياة؟ يالها من مكافأة، يالها من مأساة، كيف تعيش الفتاة مدى الحياة مع رجل لا يحبها، بل فضحها وافترى عليها.

تقول التوراة: (ويغرمونه بمائة من الفضة ويعطونها لأبي الفتاة، لأنه أشاع اسما رديا عن عذراء من إسرائيل، فتكون له زوجة لا يقدر أن يطلقها كل أيامه)

أما الكارثة الأخرى فهي إن كانت غير عذراء، عندها ترجم فورا، دون شهود، دون معرفة السبب، دون تحقيق، دون اعتراف. تقول التوراة : Dt: ٢٢:٢٠: (ولكن إن كان هذا الأمر صحيحا ولم توجد عذرة للفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت أبيها، فتنزع الشر من وسطك)

اضطهاد المرأة في الميراث

المرأة تورث وراثة كأي قطعة أرض أو قطعة أثاث ، وحتى لو ورثت ، فإنها ترث لكن ليس من أجلها بل من أجل زوجها ، المرأة التي ترث لا يجوز أن تتزوج رجلا من غير قومها لماذا ، حتى يكون رجال قومها أحق بالميراث.

تقول التوراة : Nm: ٣٦:٨:(وكل بنت ورثت نصيبا من أسباط بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها، لكي يرث بنو إسرائيل كل واحد نصيب آبائه)

منشور غير نظيف

في الوقت الذي يُنتظر من الكتاب المقدس أن يقدم نموذجاً قابلاً للتطبيق.. قابلاً للوجود وللتشكل، نموذجاً واقعياً معتدلاً، يشبع الغرائز ويسمو نحو الفضيلة في الوقت نفسه، كدوحة يأوى إليها كلما استعرت حمم المادية.. في الوقت الذي يُؤمل فيه أن يُرى فيه حلا لأزمات عاطفية ونفسية وروحية وفكرية متفاقمة.. يفشل الكتاب المقدس في تقديم ذلك كله، وأكثر من يفتقده هي المرأة الغربية، حيث كانت تنتظره في موعد كموعد العشاق، ولم يكتف بخذلانها، بل لقد ساهم في تصعيد أزماتها ومعاناتها، وبدلا من أن يرتقي بها و يقدم لها شيئا من عبق الفضيلة، ويمنحها ما يثري أنوثتها ويحترم وجودها وإنسانيتها.. شيئا لا يلغيها ولايغلوا فيها، ينظر إليها لا ملاكاً ولا شيطاناً، بين الجسد الأنثوي المحرم والجسد الدمية المبتذل.. إنسانة تسمو وترتقي وتتعرض للهبوط أحياناً، في الوقت هذا بالتحديد يفشل الكتاب المقدس فشلاً ذريعاً في تقديم ذلك النموذج، فإما أن تكون المرأة شيطاناً أو تكون متطرفةً.

الكتاب المقدس لا يسمح لها أن تحيا حياة بشرية معتدلة أبداً، إنه يخيرها بين التطرف أو التطرف، حتى وهو يطالبها بالعفاف، تجده يتتبع مواضع الطهارة والعفة داخلها ليقوم باغتيالها والقضاء عليها، وكأنها سرقت هذا العفاف، كأن هذه المرأة قد هوت من كوكب مليء بالشياطين واللعنات.

الكتاب المقدس – في بعض فقراته – يتحول إلى منشور إباحي، تخجل كل الكنائس من تلاوته في دور عبادتها، ولا أدري كيف تخجل تلك الكنائس من ذلك، وهي التي تقول أن هذا هو كلام الرب المقدس عن الخطأ والنقص.

هذا الشعور لا يوجد لدى المسلمين، فهم يتلون القرآن كاملا من الغلاف إلى الغلاف يوميا، ويتداولونه بأصوات جميلة متنافسة، ويبث طوال ليالي رمضان منقولا حيا مباشرا على الهواء عبر الفضائيات، فلا تجد قارئا أو مسلما يخجل من تلاوته أو سماعه، بل تجده – أحيانا – يتغلغل في وجدان القاريء والمستمع فترى الدموع

تنساب من عينيه خشية وخشوعا، وكثيراً ما توقف قارىء القرآن عن القراءة من شدة تأثره بالقرآن.

أما الكتاب المقدس فيحتوي على عبارات تخجل الكنيسة من تلاوتها أمام الناس.. عبارات لو كانت لكاتب إباحي أو قاص لا يملك من الأساليب سوى إثارة الغرائز الجنسية لتعويض عجزه الإبداعي، لتعرض لنقد الكنيسة ورجال الدين فيها، لكن أن تقول الكنيسة أن هذه الكلمات للرب ثم تخجل منها فهذا هو – في نظري – قمة التناقض، وسكوت العلمانيين العرب عن هذه الظاهرة محير للغاية.

تقول الكلمات :

ماأجمل خطواتك بالحذاء
يابنت الأمير
دوائر فخذيك حلي
صاغتها يد ماهرة
سرتك كأس مدورة
مزيج خمرها لاينقص
وبطنك عرمة حنطة
يسيجها السوسن
ثدياك توأما ظبية
صغيران بعد
عنقك برج من العاج
وعيناك كبركتي حشبون
عند باب بيت ربيم
أنفك كبرج لبنان
المشرف على دمشق
راسك مكلل كالكرمل
وشعر رأسك أرجوان
جدائله تأسر الملك
جميلة أنت يا حبيبة
ما أحلى دلالك
قامتك مثل النخلة
وثدياك كعناقيدها
قلت أصعد النخلة
وأتعلق بأغصانها
فيكون ثدياك لي كعناقيد الكرم
عبير أنفك كالتفاح
وريقك خمر طيبة

أن تنسب هذه الكلمات لكتاب الله، أن تنسب لدين سماوي فشيء أتركه للقاريء.

بعد هذه الكلمات التي تخدش حياء الكنيسة، ولا يمكن لأي قس أن يتلوها أمام العالم.. لنعد لمناقشة مزاعمي في عجز الكتاب المقدس عن إعداد فتاة سوية مستقيمة.

المرأة والعلم والعبادة

لا يعتبر الكتاب المقدس صوت المرأة في دار لعبادة عورة أو فتنة للرجال، بل هو لا يعتبرها أهلا للكلام داخل الكنيسة ابتداءً، فالقضية لا تتعلق بسحر صوتها وتأثر الرجال به وميلهم القلبي، بل بمنزلة المرأة الدونية، فالكنيسة هي دار العلم والعبادة، وهي من حق الرجل وحده، فلا يجوز للمرأة أن تتحدث في الكنيسة مطلقا، حتى ولو كانت تريد أن تسأل مجرد سؤال، أو تتعلم، بل عليها التوجه إلى بيتها ثم تطرح أسئلتها على رجلها، وهو يتولى بعد ذلك نقل سؤالها إلى القس الذي يتولى الإجابة عليها. حيث يقول الإنجيل: (رسالة كورونثس ١٤:٣٤: لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذونا لهنّ أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضا، ولكن إن كنّ يردن أن يتعلمن شيئا فليسألن رجالهنّ في البيت، لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة)

المرأة زوجة

أصعب العلاقات التي تمر بالمرأة هي العلاقات الزوجية، والمرأة المسيحية واليهودية كزوجة تعاني مشكلات لا حلول لها إطلاقا، هذه المشاكل تؤثر على أهم ما يربط الرجل بالمرأة: الحب، الرحمة، المشاركة، العلاقة الجسدية. الكتاب المقدس ينظر للمرأة على أنها مخلوقة من أجل الرجل كما سبق، أي أن مهمتها في الحياة هي خدمة الرجل فقط، لكن مقابل ماذا؟

لا شيء، بل إنها ستعاقب حتى ولو تفانت في خدمته، فعندما يأتيها الحيض يقوم الرجل بالتخلص منها خارج المنزل، فلا احتكاك ولا مشاركة ولا احترام، مما يعني القضاء على جوهر الحياة الزوجية، فهل – عقلا – تصدر مثل هذه الأحكام من عند الله، وما مصير الزوج الذي يحب زوجته ولا يستغني عن وجودها في حياته. أما ما يدل على الاستخفاف بعقل المرأة المسيحية إلى أقصى الحدود فهو ما جاء في التوراة تحت عنوان (شريعة الغيرة) الذي مر معنا.

الحكم على المرأة المطلقة أهم أسباب الإباحية الغربية

للمطلقة مشاكلها التي أدت إلى طلاقها وهي مؤلمة غالبا، لكن التوراة تضاعف آلامها مرات ومرات، فالمطلقة المسيحية لا تستطيع أن تحيى حياة تليق بالمرأة، إنها متهمة دائما، ومذنبة دائما، ونجسة دائما، وهذه هي الأسباب:

- لا يجوز للمرأة الطلاق وإذا طلبته فهي زانية.
- إذا حصلت على الطلاق فهي زانية.
- من يتزوج بها فهو زان مثلها.
- لا يجوز لرجل الدين الزواج بزانية أو مطلقة.

تقول التوراة: (سفر اللاويين ٢١:١٠: والكاهن الأعظم بين أخوته الذي صبّ على رأسه دهن المسحة، وملئت يده ليلبس الثياب لا يكشف رأسه ولا يشق ثيابه.. ثم

تقول التوراة متحدثة عن الكاهن: يأخذ امرأة عذراء أما الأرملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ، بل يتخذ عذراء من قومه امرأة) وفي حال الطلاق تقول التوراة في سفر التثنية ٢٤:٤: (لا يقدر زوجها الاول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست، لأن ذلك رجس لدى الرب) لكن الإنجيل يناقض أحكام الطلاق بمصيبة فيقول إنجيل متى ٣١:٥ (وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فانه يزني)
إذا فقد حكم الإنجيل على المطلقة بالزنى المؤبد لقد حول الكتاب المقدس المرأة المطلقة إلى زانية والنساء المطلقات جميعا إلى مجموعات من البغايا والمومسات حتى الموت.. وجعل الاقتران بهن نوعاً من أنواع الزنا.. بل لقد صرح في مكان آخر بأن المطلقات والبغايا في درجة واحدة من الإثم.. بل إن المرأة التي اعتدي عليها بإكراه واغتصبت هي من الفصيلة نفسها.
يقول الكتاب المقدس وهو يتحدث عن صفات رجال الدين الكهنة: (Lv:١٤:٢١: اما الارملة والمطلقة والمدنسة والزانية فمن هؤلاء لا يأخذ بل يتخذ عذراء من قومه امرأة ولا يدنس زرعه بين شعبه لاني انا الرب مقدسه) إذا فالتوراة تحكم على الأرملة التي مات زوجها وعلى المطلقة بأنها نجسة ومدنسة تماما كالبغايا.
ما الذنب الذي ارتكبته حتى تستحق هذا المستوى المنحط من التعامل والتقدير، إنني لا أستطيع تصور حجم الكراهية الذي يحتويه الكتاب المقدس المسيحي للمرأة، إنه لا شك هائل للغاية. كما أنني أعجز عن تصور حجم الجهل العلماني العربي بهذا الكتاب. أولم يخلقها الله طاهرة بريئة كالغيمة ما الذي لوثها؟ إن الكتاب المقدس بتعاليمه تلك يدفع الفتاة المسيحية واليهودية بكلتا يديه نحو الدعارة، فإذا رفضت رماها رمياً في عالم الخنا والزنا، وإلا فما ذنب المطلقة إذا كانت لا تحيا حياة مستقرة مع زوجها الذي طلقها؟ ما ذنب الفتاة إذا أرادت الفكاك من حياة زوج طاغية يذل المرأة ويستعبدها؟ لماذا يحرم الطلاق وهو باب من أبواب الحرية والانعتاق من الظلم أحياناً؟
إنها تعاليم تسحق فطرة المرأة وإنسانياتها وحريتها؟ ما ذنب المطلقة المسكينة؟ لماذا تحرم من حقها الطبيعي في التعفف والاقتران بشخص آخر تحبه وتجد حياتها وأحلامها معه؟ ما ذنب المطلقة المسكينة وهي تحاصر وتحاصر، ويمنع الرجال من الزواج بها، بل يمنعهم الكتاب المقدس حتى من مجرد التفكير بها؟ إنها في نظر الكتاب المقدس مجرمة لا يجوز الاقتراب منها ولا الاقتران بها، وكأنها بلا مشاعر ولا أحاسيس، إنه حكم بالإعدام على إنسانيتها وأنوثتها ومشاعرها وعفافها.
هل هذه هي المرأة التي يتغنى بها الشعراء ويهيم بها العشاق..؟ هل هذه هي المرأة رمز العطاء رمز الحياة والبذل والسخاء..؟ المرأة التي حملتنا وأرضعتنا واعتنت بطفولتنا وتراكضنا نحو أحضانها..؟ المرأة التي طالما اشتكينا لها وذرفنا الدموع على صدرها..؟ هل هذه هي المرأة التي تحمل عنا نصف الدنيا..؟ لأنها طلقت

تتحول إلى لعنة مؤبدة ؟ شيء لا يطاق. أما الأسوأ من ذلك فهو الاعتقاد أن ذلك النص، نص إلهي.

دموية مع الآخر

شاهدت في برنامج (الاتجاه المعاكس) الشهير إحدى الملحدات بالأجرة (وفاء سلطان) والتي جمعت القليل من الثقافة، ومخزون من الوقاحة لم أر له مثيلا.. كانت تهاجم القرآن بضراوة وحماس عجيبين، كانت تصفه بأنه المولد للعنف والإرهاب، وأيدها في ذلك كاتب سطحي يدعى فياض، ولما تلا عليها أحد المتداخلين بعض مقاطع العنف الشديد من التوراة، وسألها: لماذا لم تذكر تلك المقاطع من الكتاب المقدس أو حتى تشير إليها مجرد إشارة؟ أجابته إجابة هي في الحقيقة لب ما ذكرته وكررته عن العلمانيين العرب جميعا، قالت: (إنني لا أعرفها) بل إنها دافعت عن مجازر إسرائيل وهاجمت الضحايا الفلسطينيين، واستماتت في الدفاع عن المحرقة المزعومة. ودافعت عن صاحب الرسوم القذرة بحق نبينا عليه السلام واستقبلته في بيتها. لكنها لا تعرف حرفا واحدا عن التوراة والإنجيل.

هكذا هم العلمانيون العرب لا يعرفون شيئا عن تراثهم، إنهم دائما ما يكررون أن العرب لهم تراث مشترك من جميع الديانات وغيرها، وهم يردون أيضا أن هذا التراث يجب نقده وقراءته دون استثناء، هذا ما يقولونه، لكنه عكس ما يفعلونه، إنهم إيديلوجيون وانتقائيون فلا يوجهون التهم والنقد ولا الاحتجاج إلا على القرآن والحدث النبوي، بل إنهم لا يوجهونه داخل الإسلام إلا ضد القرآن والسنة بالتحديد، فالطوائف الأخرى يتم الدفاع عنها بشكل كبير كما يفعل أدونيس وأمثاله، وحتى السطحيين من العلمانيين أمثال الشخصين الأخيرين.

في الكتاب المقدس نصوص لا تتحدث عن القتال وأحكامه ودوافعه وضوابطه ومتى يشرع، وإلى من يوجه؟ لا شيء من ذلك. بل هناك نصوص مرعبة ومخيفة للغاية، ولعلها هي الدافع اللا شعوري داخل من ينتمون لهذا الكتاب في تهورهم في سفك دماء شعوبهم بطريقة غير مسبوقة، ففي القرن العشرين فقط قتلوا مئات الملايين في حربين دمويتين، وحروب استعمارية جشعة وبشعة.

هذه النصوص التي سأذكرها تنسب لله، وكأن الله خلق خلقه من أجل أن يتسلى المؤمنون بالكتاب المقدس بإبادتهم. هذه مجموعة من النصوص التوراتية المسيحية التي تطلق يد المؤمن بها في رقاب البشر ودمائهم وكأنهم قطيع من الغنم.

تقول التوراة في: (Ex١٢ : ٢١. من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلا) هكذا ودون شوط ودن بدائل.

تقول التوراة: (Ex١٥ : ٢١: ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا)

ليس ذلك فحسب بل تقول التوراة: (Ex١٧ : ٢١: ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا)

تقول التوراة: (Ex١٦ : ٢١:ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد في يده يقتل قتلا)

بل إن الإنسان ليتحمل أخطاء الثور ويدفع حياته ثمنا لهيجانه، وحتى الثور يعدم معه.

تقول التوراة: (Ex٢٩:٢١: إن كان ثورا نطّاحا من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل)

أما قمة التطرف فهي في الحكم بالإعدام على من يمارس تجارة أو رياضة أو أي نشاط في يوم السبت.. شيء لا يصدق.

تقول التوراة: (Ex١٥:٣١: ستة أيام يصنع عمل، وأما اليوم السابع ففيه سبت عطلة مقدّس للرب كل من صنع عملا في يوم السبت يقتل قتلا)

وقد طبق موسى ومن معه هذه العقوبة عمليا حيث تقول التوراة: (Nm٣٢:١٥: ولما كان بنو إسرائيل في البرية، وجدوا رجلا يحتطب حطبا في يوم السبت، فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهارون وكل الجماعة، فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به، فقال الرب لموسى: قتلا يقتل الرجل، يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلّة، فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلّة، ورجموه بحجارة، فمات كما أمر الرب موسى)

الإنسان المصاب بمس هو إنسان مريض، ويحتاج إلى رأفة ورحمة وعناية حتى يشفى، أما التوراة فتقول أنه يجب إعدامه: (Lv٢٧:٢٠: وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فانه يقتل بالحجارة يرجمونه دمه عليه)

في الحروب لدى التوراة فن واحد هو (فن المجازر). المجازر لكل شخص دون تفريق هو تنفيذ لأمر الرب.

تقول التوراة: (Ex٢٧:٣٢: هكذا قال الرب إله اسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه، ومرّوا وارجعوا من باب الى باب في المحلّة، واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه)

التوراة تقول أن موسى نفسه يأمر بذلك. (Nm٥:٢٥: فقال موسى لقضاة إسرائيل: اقتلوا كل واحد قومه المتعلّقين ببعل فغور)

النساء لا رحمة بهن ولا شفقة مهما كن ضعيفات، لقد نصت التوراة على ذبح النساء لأنهن سبب الشر (Nm:١٥:٣١: وقال لهم موسى: هل ابقيتم كل انثى حيّة؟! إن هؤلاء كنّ لبني اسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب في أمر فغور، فكان الوبأ في جماعة الرب)

الأطفال الأبرياء يذبحون من الوريد إلى الوريد، فالكتاب المقدس يأمر بذلك ويقول على لسان موسى: (فالآن اقتلوا كل ذكر من الاطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها) ويقول الكتاب المقدس: (Ez:٤:٩: وقال له الرب: اعبر في وسط المدينة في وسط أورشليم، وسم سمة على جباه الرجال الذين يئنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها ٥ وقال لاولئك: في سمعي اعبروا في المدينة وراءه واضربوا، لا تشفق أعينكم ولا تعفوا ٦ الشيخ والشاب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك، ولا تقربوا من إنسان عليه السمة، وابتدئوا من مقدسي، فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت ٧ وقال لهم: نجسوا البيت واملأوا الدور قتلى، اخرجوا. فخرجوا وقتلوا في المدينة)

أين أركون وأدونيس وعلي حرب وسائر جوقة العلمانيين العرب ودراساتهم النقدية من هذا التراث العربي، أم أنهم مشغولون بمحاربة الحجاب الإسلامي.
إن من يلوم العلمانيين الغربيين على كفرهم بهذه الأساطير، وتطرفهم في إقصاء الكنيسة والكفر بها بعد هذا الهراء المنسوب لله، إن من يلوم العلمانيين الغربيين يعتبر شريكا للفكر الخرافي الأسطوري، فلا غرابة في تأسيس علوم: النفس والاجتماع والتربية والأخلاق وغيرها من العلوم الإنسانية والأدبية والتجريبية كلها على أساس لا ديني؟ ولا عجب أن تنشأ في الغرب العلماني جماعات وجمعيات لحماية الإنسان والدفاع عن حقوقه، فلا وجود للإنسان في الكتاب المقدس المسيحي، الموجود هو إنسان يحمل سيفه ودمويته لينفذ تعاليم الكتاب المقدس.
ولا غرابة أن تنشأ عندهم جمعيات لحقوق الحيوانات وحماية البيئة، فهم بصدد دين يأمر جنوده بوضع علامات على جباه الملتزمين به فقط، حتى يتميزوا عن البقية، فالبقية كلهم لا بد أن يبادوا جميعا، سواء كانوا عجائز أم أطفالا أم نساء، بل وحتى الحيوانات.
إن من يقرأ هذه الأهوال سيؤمن أن العلمانية هي الطريق الوحيد للبحث عن الله والحقيقة، وهو طريق شاق وطويل، فلا أحد في الغرب يحمل الحقيقة أو يقدمها، إنهم في رحلة للبحث عن حقيقة تزداد بعدا كلما قطعوا نحوها مسافات أكثر، وتجاوزوا عقبات أشد، فالدين عندما ينحدر إلى هذه القيعان لا بد من إخضاعه نفسه للدراسة التجريبية.
الدين في الغرب بعد هذه النصوص هو أول عقبة في طريق الحب والسلام والعلم، لذا أطلقوا عبارتهم الشهيرة: لا أحد يدعي امتلاك الحقيقة. ولذا هاجم علماؤهم وفلاسفتهم الدين – كنص – بضراوة، لأنهم وجدوا أن النص الذي توارثوه يقتل الإبداع والعقل والمستقبل والآخر، ولا عجب أن قال قال اسبينوزا: أن رجال الدين أكثر الناس إلحادا.
هذه نماذج قليلة من آلاف الأمثلة التي يغص بها الكتاب المقدس بشقه التوراتي، والتي تمثل جزءا لا يتجزأ من التراث العربي، وهنا أتساءل أين من يدعون قراءة التراث العربي قراءة جادة ومغايرة لقراءة الأسلاف، أين أدونيس وأركون والعظم وأبو زيد وبقية العلمانيين العرب من هذا التراث، أو ليس هذا الكتاب يشكل أحد روافد العقل العربي، أوليس الشعراء العرب من العلمانيين يوظفون مصطلحاته ويفجرونها في قصائدهم، فأين شعرهم الثائر في وجه التقليد والظلامي والماضوي والظلم والقهر والتخلف من هذه النصوص. أين فكر هؤلاء؟ هل هم مستفيدون من سكوتهم؟ إن لم يكونوا كذلك فهم ليسوا بمنأى من تهمة الجهل والتجاهل، والرعب من المساس بالسيف السامي الحاد.
قد يقول المفكر العربي: إن الغرب قد تخلص كما تقول من الكتاب المقدس فلم التكرار؟ والسؤال هنا هو أنكم تدعون قراءة خاصة بكم للتراث أين هي؟ أرونا ماذا لديكم، كرروا ما قاله الغربي عن تراثه، كما تكررون ما قاله المستشرقون

الحاقدون أمثال سنوك عن تراثنا، لماذا تكررون هذا ولا تكررون ذاك، مع أن التراث تراثكم، فالكتاب المقدس أنزل في فلسطين ولم ينزل في روما أو باريس.
أين شروط أركون الجنونية التي اشترطها لقبول النص المقدس، أين دراساته الخارقة في كشف زيف المتعالي والغيبي والأسطوري، لماذا يصاب بالخرس أمام التوراة وهي الجزء الأهم من الكتاب المقدس، لماذا يهيج كالثور كلما سمع بالقرآن، ويفغر فاه كالأبله أمام خرافات الكتاب المقدس ودمويته وأحكامه الشرسة السابقة.
أي عقل وأي كتابة يمارسها علي حرب وهو يقول عما سبق أن نقلته من الكتاب المقدس أن هذا الكتاب يمكن ان يقرأ في أية لغة كانت دون ان يفقده ذلك خصوصيته وفرادته، أي فرادة وخصوصية يا علي حرب؟!! المصيبة أن هذا الرجل ألف ثلاثة كتب سماها النص والحقيقة، وسمى أولها (نقد النص) فأين النص وأين النقد وأين الحقيقة التي تنقدها!! فننتقل إلى نقد علمي آخر لمكون ثان وهام جداً من مكونات العقل العربي، هو الجزء الثاني من الكتاب المقدس، وهو مكون تجاهله المفكرون العرب جميعا، بل متحوا من رموزه ومصطلحاته الكثير ووظفوها إبداعيا، ولكن بعيدا عن العقل والعلم والفكر:

الإنجيل الجزء الثاني من الكتاب المقدس

يطلق عليه اسم (العهد الجديد).. كتاب يعتنقه المسيحيون، والمفكرون العرب شديدوا الجهل بهذا الكتاب رغم أنه أحد مكونات العقل العربي، بل إنهم يتجنبون الخوض فيه ونقده وتناوله، وفي مقدمتهم أولئك المفكرون الذين يصدرون في تنشئتهم الدينية عن هذا الكتاب، والشيء الذي لا أجد له تفسيراً.. إعراض أولئك المفكرين الذين يعيشون في الغرب كأدونيس وأركون عن تناوله وتحليله، وهي ظاهرة يمكن وصفها بأنها (محيرة)، وهي محيرة لأن هؤلاء يرون أن لاشيء فوق النقد، لاشيء مقدس، وأنهم جاءوا لمحاكمة المقدس والموروث والنمطي والسائد، ويقدمون أنفسهم طليعة علمانية تبشر بما أنجزه العلماني الغربي، لذلك أعتقد أن إخراج الإنجيل من طائلة هذه المصطلحات نوع من التحيز المؤدلج سلفا.

إشكالات الإنجيل الأساسية

ابتداءا يعاني الإنجيل إشكالات توثيقية معقدة جدا، فبمجرد اختفاء عيسى صلى الله عليه وسلم عن وجه الأرض اختفى الإنجيل تماما، مما يعني أن أصحاب عيسى لم يمارسوا أي توثيق كتابي أو استظهاري للإنجيل، ولم يمل عيسى عليهم شيئا، ولم يقوموا بالاحتفاظ بنسخ خاصة بهم، بل إن أصحاب عيسى الذين ذكروا في الإنجيل لم يتجاوزوا العشرات، وسيرتهم شبه مجهولة، ومما يؤكد اختفاء الإنجيل الأصل ظهور عدة أناجيل تجاوزت الخمسين، تعترضها إشكاليات ضخمة منها:

- أن أيا منها لم يكتب في فترة وجود عيسى على وجه الأرض
- أن عيسى عليه السلام – حسب الإنجيل نفسه – لم يكلف أحداً بكتابة الإنجيل أو تدوين تعاليمه.
- أن أحدا من تلاميذ عيسى لم يكتب أيا منها، لدرجة يقول معها الدكتور الفرنسي المسيحي (موريس بوكاي) الذي أخضع الإنجيل والتوراة والقرآن لحقائق العلم الحديث، في كتابه (ما أصل الإنسان – إجابات العلم والكتب المقدسة ١٥٥): (وإنه لعار كبير أن يتم تقديم كتاب إلى وقت قريب جدا على اعتبار أنهم شهود عيان للوقائع التي يروونها، وقد قدم المعلقون تفاصيل وافية عن هؤلاء المؤلفين – وكذلك عن مهنهم – لكي لا يكون لدينا أدنى شك بالنسبة لمنزلتهم كشهود عيان مباشرين، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا كذلك، وكما أوضح الكاردينال (دانييلو) في دراساته عن الأيام الأولى للمسيحية، كانت المنافسات المذهبية تعبر عن نفسها بالأساليب المختلفة التي كانت تروى ها الأحداث)
- إن بولس مؤسس المسيحية الحالية ألف رسائله قبل الأناجيل.
- أن تلك الأناجيل جميعا ليس فيها إنجيل واحد ينسب لله أو حتى لعيسى نفسه، فهي أناجيل منسوبة لأشخاص، وبينها فروق واختلافات كثيرة وتناقضات كثيرة، وهي في حقيقتها ليست إنجيلا، بل قصة أحداث الثلاث سنوات الأخيرة من حياة عيسى على الأرض، أي أنها سيرة لحياة عيس في آخر ثلاث سنوات من بقائه على الأرض ومنها أناجيل:

مرقص.. متى.. لوقا.. يوحنا.. برنابا.. توما.. بطرس.. المصريين.. العبريين.. الناصريين.. الاثني عشر.. الأبيونيين.. باسيليوس.. ماركيون.. ابللس.. ناسينيس.. فيليب.. ماثياس.. مريم.. برثولماوس.. نيقوديموس.. غمالائيل.. الكمال.. اندراوس.. الإنكراتيين.. هيثيوس.. يهوذا.. ثداوس.. الحق.. متى المكذوب.. التذكرة.. السبعين.. وغيرها كثير مما اختفى أو صودر.

وقد بقيت هذه الأناجيل بشكل أو بآخر دون تمييز أو تفاضل لمدة ثلاثمائة عام، وهي قرون كافية للإضافة والحذف والتحريف بشكل كبير، حتى اعتنق الإمبراطور الروماني (قسطنطين) المسيحية بتأثير من أمه (هيلانه)، فأمر بعقد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيه بآسيا الوسطى (تركيا حاليا) بعد ٣٢٤ عاما من غياب عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، وذلك لمناقشة العقيدة المسيحية في المسيح: هل هو ابن لله، أم بشر ونبي مرسل من عند الله؟

فأين أركون الذي يريد أن يعرف ما جرى من تلقي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي إلى أن أملاه على أصحابه من هذه المعلومات الخطيرة.

وقد كان حامل لواء التوحيد في ذلك المؤتمر المسكوني الأول هو العالم المسيحي (إريوس)، لكن السلطة السياسية ممثلة بالإمبراطور قسطنطين كانت تميل إلى عقيدة التثليث، حيث أمر الإمبراطور بمصادرة الرأي الآخر، بل وأصدر قرارا بتكفير وملاحقة إريوس وأتباعه، ومصادرة كل الأناجيل عدا الأربعة الموجودة اليوم. (للمزيد يراجع أوروبا والمسيحية الألفية الأولى ١ – ٦٦ ليان دوبراتشينسكي)... هكذا وبقرار سلطوي متعسف، يعد تدخلا في عملية من المفترض بها أن تكون علمية منهجية بعيدة كل البعد عن التأثير السياسي والإيديلوجي، تم إقصاء عشرات الأناجيل في مخالفة صريحة لما في الإنجيل نفسه الذي يقول أن عيسى يقول: (دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر).

لكن قيصر الوثني، والذي ظل وثنيا ولم يعمد إلا عند وفاته، هذا القيصر الوثني لم يدع ما لله لله، ولم يكتف بالتدخل فيما لله، بل حاول تشكيل وفرض الإله الذي يميل إليه، وهنا تبرز السلطة بوجهها الديكتاتوري الأشرس، فهي لا تستصدر فتوى تبرر لها أو تسوقها، بل تتجاوز ذلك إلى تحويل الدين إلى أداة، بل تقوم بتشكيل هذه الأداة في جوهرها، يتضح ذلك في ممارسات سلطوية منها:

- أن السلطة هنا – لا العلم – هو من يقرر الأصوب.
- السلطة هنا لا تخضع للعلم ولا للمنهج، بل تقصي العلم والمنهج وكل شيء، لتأمر وتقرر ما تراه وتميل إليه دون إبداء المبررات.

السلطة هنا تقمع وتعتقل وتقتل، مما يعني وجود آخر مخالف يملك وثائق قد تكون أكثر إقناعا ومصداقية مما تملكه السلطة، ومع ذلك تمت تصفيتها وقمعها، وملاحقة معتنقيها.

- السلطة هنا لا تبحث عن الحقيقة، بل تشكل الحقيقة، وهي من يفصلها ويصنعها.
- السلطة لا تقوم هنا بتفسير آخر للنص المسيحي، بل تنتقي النص الذي تريد وتصادر ما لاتريد.

الغريب أن هذه السلطة الرومانية ـ المسيحية تجهل تماما ظروف تدوين الإنجيل، وتعيش حيرة حول مصداقية النسخ وجدارتها بالبقاء والتداول، ولا تعرف شيئا عن النص الإنجيلي، فهي دخيلة عليه، فمن الناحية الزمنية تفصل هذه السلطة عن المسيح صلى الله عليه وسلم أكثر من ثلاثة قرون، ومن الناحية العقائدية نجد أن السلطة المسيحية ـ في حقيقتها ـ ليست مسيحية، بل هي وثنية اعتنقت نوعا من المسيحية بطريقة غير مفهومة، ودون قراءة أو نقاش أو جدال. أما عملية الاختيار والتي تمت بانتقائية محددة سلفا، فقد فشلت في تقديم إنجيل متفق عليه، حيث أبقت الباب مفتوحا على مزيد من الحيرة، عندما لم تحدد اختيارها في إنجيل واحد، مما جعل بقية الأناجيل تظل في حلبة المنافسة، لا في مجال التكامل ولكن في حلبة الصراع، نظرا لوفرة نقاط التناقض والاختلاف بينها، ووصل الأمر بعد اعتماد المطابع الحديثة والسريعة إلى إصدار طبعات منقحة ومجددة، وبدافع تجاري بحت، بحيث يتم القص واللزق والحذف والإضافة في كتاب يفترض أن يبقى نقيا كما نزل.

لغة الإنجيل

تمثل لغة الإنجيل الأصلية أكبر تحد للإنجيل، والتي من المفترض أن تكون هي لغة عيسى صلى الله عليه وسلم التي بها تحدث وبشر وهي ـ كما يقال ـ اللغة الآرامية، هذه اللغة نفسها انقرضت، والمصادر النصرانية تفيد أنه لا يوجد إنجيل بهذه اللغة، بل إن كل ما عرف من الأناجيل كان عبارة عن ترجمات لا أحد يعرف من ترجمها، ولا مدى ثقافته اللغوية باللغة المترجم عنها، ولا باللغة المترجم لها، ولا مدى سلامة ترجمته، وهل سلمت من الأخطاء، بل ولا مستوى أمانته الخلقية ومدى التزامه الأخلاقي والديني، وهل قام بهذا العمل تدينا أم تطوعا، أم كان عملا علميا بحتا، أم هو عمل مهني بحت، أم قام به بدافع تآمري؟

أسئلة خطيرة جداً مدفوعة بطموح التوصل إلى معلومات ضرورية للغاية، لكنها للأسف تغرق في بحر هائل من الجهالة، وتواجه بإجابات عاطفية لا طائل من ورائها، ولا أحد يستطيع أن يقول غير ذلك، فبعض هذه الأناجيل كتب باليونانية، وبعضها كتب بالعبرانية، وبعضها بلغات أخرى، وتستطيع أن تجد الإنجيل بأي لغة إلا لغة عيسى التي تحدث بها، وهذا العيب يسقط ـ علميا ـ مصداقيتها ، لاسيما إذا كان هذا الكتاب كتاب دين ينسب لله، ونقله رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام، ويؤمن به أكثر من مليار نصراني، وأزمة الإنجيل (لغويا) هي تماما أزمة التوراة من حيث الترجمة، وأنها حولت النص إلى نص آخر شارح أو مرادف أو حتى مناقض. أما ما يكفي لكشف تآمر أركون وأضرابه، وجهل علي حرب وأمثاله.. أما ما يكفي لمعرفة ما جرى للكتاب المقدس من كارثة على المستوى اللغوي أن تتعرف إلى:

ما هية أوثق النسخ المعتمدة للكتاب المقدس اليوم

وهي المشهورة بـ(نسخة الملك جيمس) أشهر وأوثق ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس وهي المعتمدة تقريبا اليوم لكل الترجمات، وهي ترجمة قام بها ملك يدعى (الملك جيمس)، والتي نشرت عام ١٦١١، أي بعد نزول الإنجيل بـ ١٦١١ عاما.

يالها من مسافة سحيقة جدا، إنها عند التأمل أطول بكثير من المسافة التي تفصلنا عن فترة نزول القرآن، فأي قيمة علمية للقرآن لو تخيلنا أن القرآن نزل بغير العربية، وأننا لم نعرف لفظه العربي إلا هذا العام، ولم نعرف من نقله ولا من ترجمه عن نصه الأصلي المفقود والمجهول. أما الأدهى من ذلك فهو أن ترجمة الملك جيمس للكتاب المقدس هي عملية انتقائية غير علمية، فهي عبارة عن ملخص لترجمات سبقتها هي: ترجمة كوفردال في عام ١٥٣٥، وتوماس متى في عام ١٥٣٧، وجنيف في عام ١٥٦٠... وغيرها. أما الفاجعة التوثيقية فهي في المعلومة التالية:

أن التراجم الانجليزية التي ذكرتها كلها اعتمدت على أول ترجمة انجليزية للكتاب المقدس، والتي عملت بصورة مباشرة عن نصين: عبري وإغريقي.

وهي كذلك كانت أول ترجمة مطبوعة، وقد قام بها رجل يدعى: (وليام تندال). وتتفاقم الفاجعة لتصل إلى حد لا يمكن تصوره ولا أستطيع وصفه.

المعلومة التي أقدمها لأركون وأدونيس وحرب وغيرهم هي أن ترجمة (وليام تندال) لم يتم الاعتراف بها من قبل الكنيسة ولا قبولها.

لقد تم رفض ترجمته، واتهمته الكنيسة الرسمية بالكذب والتزوير وتعمد افساد معنى الكتاب المقدس وتغيير ألفاظه ومعانيه والتجديف بحق الكتاب المقدس وكفره، ثم كانت الكارثة الكبرى فأصدرت أمراً بإحراق تراجمه للعهد الجديد من الكتاب المقدس (الإنجيل) لأنها مزيفة، ولم تقف الكنيسة عند هذا الحد، بل أصدرت حكما بإعدامة، وقد تم إعدامه فعلا أمام الحشود المسيحية بطريقة غاية في القسوة، ممايدل على عظم ذنبه، وذلك حرقا بعد الشد على الخازوق ، في اكتوبر عام ١٥٣٦. والخازوق هو أداة لها أداة مدببة الرأس كالعصا، يجلس عليه المذنب حتى يخرج من رأسه. أو يربط به. أيكفي هذا للحكم على مصداقية الكتاب المقدس؟

شيء آخر يهوي كالصاعقة على رؤوس عباقرة المفكرين العرب: فبعد مرور سنوات تعود الكنيسة فتجعل من عمل (تندال) المزيف أساسا لكل الترجمات الإنجليزية وأهمها نسخة الملك جيمس، والتي تعتبر اليوم هي النسخة المعتمدة للشعوب الناطقة بالانجليزية. حيث تقول مقدمة الترجمة القياسية المراجعة (ان الترجمة القياسية المراجعة للكتاب المقدس انما هى عملية تنقيح مرخص بها للترجمة القياسية الأمريكية التي نشرت عام ١٩٠١، والتي كانت هي الأخرى تنقيحا لترجمة الملك جيمس التي نشرت عام ١٦١١) وقد تبينت تناقضات وأخطاء نسخة الملك جيمس بعد اكتشاف كثير من المخطوطات الأكثر قدما من تلك النسخ والتراجم التى اعتمدت عليها ترجمة الملك جيمس، وهو ما يعني أن التراجم الإنجليزية بحاجة إلى إعادة نظر، لكن للأسف اعتمادا على ماذا؟

لا جواب... فالأصل مفقود، ليظل الكتاب المقدس عائما تائها، ونهبا للترجمات وللإيديلوجيا الموجهة لتلك الترجمات، وهذا ما دفع المهتمين بالكتاب المقدس إلى اصدار الترجمة الا نجليزية المراجعة في الاعوام ١٨٨١-١٨٨٥، ثم الترجمة القياسية الامريكية – في عام ١٩٠١، واستمرت عملية تنقيح التراجم ومراجعتها

– ولاتـزال – إلـى أن صـدرت الترجمـة القياسـية المراجعـة للكتـاب المقـدس عـام ١٩٥٢. وقس على ذلك الترجمات العربية التي تعتبر من أواخر الترجمات.
إن كتابا تتم مراجعته دون الرجوع إلى النص الأصلي لغة، هو ضرب من التنجيم والعبث، هو نـوع مـن الكتابـة علـى المـاء والزراعـة فـي الهـواء. فمـا بالـك بترجمـة مزورة.. ترجمة تم إعدام من قام بها عقابا لـه علـى تزويره بـأمر مـن الكنيسـة، هـذا ما أسميه بهوية المترجم وأمانته ومصداقيته ودقته العلمية، فكيف بمن كتب النص هل هو في درجة (ويليم تندال) أم أعلى أم أدنى. فهل من المعقول موضوعيا قبول الكتاب المقدس الموجود اليوم على أنه النص النقي؟
وبعد فـالأدهى مـن ذلـك أن يقفـز العلمـاني العربـي علـى كارثـة الترجمـة، للكتـاب المقـدس، ويـصف – فـي تنـاقض إيـديلوجي – الترجمـة لـو حـدثت للقـرآن بأنـهـا ستحوله إلى نص آخر، ويسكت عن كوارثها التي ألقتها على الكتاب المقدس، هل يمكن قبول علي حرب كناقد ومفكر وهو يقول (يفقد القرآن فرادته إذن وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتهـا – نقـد الـنص ٨٨) ولا أدري مـا جـواب علـي حـرب علـى إعـدام الكنيـسة لمترجم الكتاب المقدس، لأنه أفقدها شرعيتها وخصوصيتها وفرادتهـا، ثـم اعتمـاد تلك النسخة المزيفة. لا أدري أأصدق علي حرب أم الكنيسة.

من كتب الأناجيل

سؤال خطير ومهم للغاية، لكنه للأسف مجهول! فلا عيسى ولا أحد أصحابه كتب شيئا مـن تلـك الأناجيل، وهـذه الأسـماء التـي نـسبت إليهـا الأنـاجيل مجهولـة، ولعل الصدمة الأولى التي يفاجأ بها كل قاريء يحترم عقله هي في:

أول كلمة في الإنجيل

إن أول كلمة في إنجيل متى تقول: (Mt:١:١ : كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم) ثم يقوم المؤلف بسرد لقائمة بأسماء آباء لا علاقة لعيسى بهم.
يقـول إنجيـل متـى بعـد ذلـك العنـوان مباشـرة: (ابـراهيم ولـد اسـحق. واسـحق ولـد يعقوب.ويعقوب ولد يهوذا واخوته) ثم يتسلسل حتـى يقـول: (واليـود ولـد أليعـازر، وأليعازر ولد متان، ومتان ولـد يعقـوب، ويعقـوب ولـد يوسـف رجـل مـريم التـي ولـد منها يسوع الذي يدعى المسيح) ولا أدري أي إنسان يملك ذرة من العقل يستطيع ربط عيسى بن مريم عليـه السلام بهذا النسب، إنـه لـيس نـسبه، إنـه نـسب خطيـب والدته عليها السلام، فهل هذا كلام الله، أم كلام عيسى، أم كلام شخص لا يـدري مـا يخرج من رأسه، لقد كتب عنوانا عريضا هو:

(كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم)

ثم سرد نـسب رجـل لا صـلة لـه بـه. علميـاً هذا الكلام أقرب للجنـون والهـذيان، أمـا الأشد هذيانا فهو أن هذا الهذيان نفسه لم يسلم من التحريف والتبديل.
ففي إنجيل لوقا يـأتي نسب المسيح على أنه ابن ليوسف بن هالي، الشيء المضحك هنـا، هـو أن كاتـب الإنجيـل المجهـول نفسه لا يـدري حتـى كتابتـه هـل عيـسى ابـن

يوسف أم لا، إنه يقول: Lk:٣:٢٣: (ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي)

And Jesus himself began to be about thirty years of age, being (as was supposed) the son of Joseph, which was the son of Heli

ولاحظ القوسين في النص الإنجليزي اللذين تم طمسهما في النص العربي، وقد أشار المفكر أحمد ديدات المتخصص في الكتاب المقدس، أنه من السهل عليك أن تكتب في الإنجيل كلمة إضافية من عندك وتضعها بين قوسين، وبعد مدة احذف القوسين لتنسب كلماتك لله.

أعود إلى النقد العلمي لهذا النص.. لكتاب ينسب لله، ففي النقاط التالية سيتضح مدى الجهالة المحيطة بالشخصيات التي كتبت الإنجيل وعدلته.

متى كتبت الأناجيل

يطرح هذا السؤال دائما لكن حتى الآن لم يحصل على إجابة مقنعة، حيث يوجد اليوم أناجيل لا إنجيل، فالواحد أصبح متعدداً، وكأنه صار انعكاساً للعقيدة المسيحية نفسها بتحولها من التوحيد إلى التثليث، بدلا من أن تكون هي الانعكاس، ، وهنا لا بد من طرح التساؤل الخطير جداً: هل يمكن أن تكون الأناجيل اليوم عبارة عن روايات متعددة لكتاب واحد؟ هل يمكن قبولها كترجمات متعددة لنص واحد؟

إن الأناجيل الموجودة اليوم لم يملها عيسى صلى الله عليه وسلم، ولم يكتبها ولم يرها، ولم تكتب في حياته ولا بعد رحيله عن الأرض بزمن قليل، ولم يكتبها أحد من تلاميذه وأصحابه، ولا يمكن لأي مسيحي أن يقول غير هذا. فمن يقرأ الإنجيل لا يشعر أنه كلام الله، بل ولا أن عيسى هو الذي يتحدث .. بل ولا أحد تلاميذه، المشكلة نفسها الموجودة في التوراة:

قام عيسى.. ذهب عيسى.. أكل عيسى.. شرب عيسى.. سجن عيسى.. حوكم عيسى.. صلب عيسى.. مات عيسى... وهكذا إلى النهاية. وهنا سؤال لا مفر من الإجابة عليه: هل الله يقص حياة عيسى وعيسى حي؟ بالطبع لا. إذا فمن المتحدث؟ إنه ليس الله، بل ولا عيسى، بل ولا من عاش مع عيسى، فالذي يدون حياة شخص وهو يصاحبه أو يتتلمذ على يديه، أو يقتدي به وينفذ وصاياه يستخدم أسلوب المتكلم، ويروي كشاهد عيان مشاهداته ومحادثاته، ويحدد مصادر نقله.

علميا لا يمكن، بل من المستحيل أن تختفي كلمات مثل: قال لي عيسى، سمعت عيسى، حدثني عيسى، أمرني عيسى، سألت عيسى، شاهدت ما حدث، رأيت، قلت، حدثني من رأى ومن سمع، أملى علي، ناداني، كنا بصحبته، خطبنا، أمرنا، نهانا، حرم علينا، أوجب علينا، أكل معنا، شرب معنا، كنا نفعل ذلك وعيسى معنا .... وغيرها من العبارات التي تعني مماسة الحدث ومعايشته والشهادة عليه وأخيرا نقله، لقد اختفت كل تلك العبارات الضرورية وغيرها، ليحل مكانها أسلوب (الحكواتي).. أسلوب قصصي رائع محلق في الخيال والرومانسية والجمال والسحر والخرافة، حيث لا مكان لشهود العيان ولا للمراقبين ولا حتى للأسانيد.

أين أركون من اختفاء هذه العبارات وهو يغص بكلمة (أم حسبت) زعما أن هناك كلام محذوف قبلها؟!!

إذاً فمن كتب هذا الكلام، إن لم يكن الله ولا عيسى ولا أصحاب عيسى بل ولا حتى أعداء عيسى؟ لا أحد يعلم حتى اليوم؟ أما الإشكالية فهي في تصديق وجود شخص له هذه القدرة الخرافية على حضور تلك الأحداث كلها ورصدها وتدوين ونقل أقوال عيسى تلك، مما يعني أنه حاضر في كل مكان وزمان تحرك فيه عيسى، وهو أمر مستحيل وغير قابل للتصور، إلا إذا كانت الكاميرات الرقمية قد تم اختراعها في تلك الأيام، ولدى مؤلف الإنجيل فريق من المصورين جلبوا له الأفلام فقام بتفريغها في إنجيله، أما تلك الكلمات العاطفية التي يضفيها عشاق الأحلام، مثل قولهم أن فلانا الطبيب كتب الإنجيل فهو رجل علمي ومنظم ودقيق، هذا الكلام الإنشائي يخفي كارثة جهالة هذا الشخص، وقدرته ولو كان له ذكاء (إنشتاين) على الحضور في كل زمان ومكان وتدوين ذلك لوحده.

مرة أخرى.. متى كتبت؟

إن التوقعات المتفائلة – والتوقعات فقط دون جزم – تشير إلى أن أقرب كتابة للإنجيل كانت بعد (٧٠) سنه للميلاد، أي بعد رحيل عيسى صلى الله عليه وسلم بحوالي ٤٠ عاما، ثم توالى المؤلفون للأناجيل بإخراج أناجيلهم، فإذا اقتصرنا على الأناجيل المعترف بها حاليا، وهي: (متى ومرقص ولوقا ويوحنا) لوجدنا احتمال كتابة متى بين (٨٥-١٠٥م) ومرقص بين (٦٥-٧٥م) ولوقا بين (٨٠-٨٥م) ويوحنا لا يعرف بالضبط، لكن يقال أنه فيما بين (٩٥-١٠٠م) أو أقل أو أكثر.

كل هذه المعطيات احتمالات، وأنا أسميها أحلاما وأماني، فالصيغة التي تمت بها كتابة الأناجيل توحي بأن من كتبها تفصله مسافات زمنية كبيرة عن وقت الحدث، أضف إلى ذلك إشكالية الترجمة، والإملاء، فلا يعرف من أملاها وبأي لغة كان يتحدث، وهناك مصادر مجهولة لها لم تعرف إلى الآن، وقد اعتمد بعضها على بعض في النقل، وهذا يتضح جليا في تلك الصياغة القصصية للإنجيل، التي تؤكد تعدد مصادر الإنجيل المجهولة التي تم حذفها ليتحول الإنجيل إلى كتاب غامض ومحير ومجهول وجميل، ومما يلقي مزيدا من الغموض عليه عدم رؤية هؤلاء الأربعة لعيسى عليه الصلاة والسلام، وعدم إدراكه والسماع منه أو التتلمذ على يديه، أما تلك الأرقام التي ذكرتها حول تاريخ التدوين فهي أرقام متفائلة لا يمكن الأخذ بها إلا على سبيل المجاملة، وهذا يعني أنه لا وجود لسند للإنجيل، كما لم يوجد سند للتوراة من قبل. وأقصد بسند الإنجيل عدة أمور هامة جداً أبرزها:

١- أسماء أصحاب عيسى وحوارييه الذين ثبت عنهم تدوين وكتابة الأناجيل، وتمييزهم عمن لم يؤمن بعيسى عليه السلام.

٢- أسماء الرواة عنهم، وهل هم عدول وثقات أم لا.

٣- قدرة هؤلاء الرواة الذهنية، ومدى ضبطهم لمروياتهم وذلك بشهادة أهل عصرهم لهم أو عليهم.

٤- معرفة تلك الصفات في الجيل الثالث كما هي في الجيل الثاني.

٥- الآلية التي يتم بها ترجيح رواية على رواية، ووثيقة على وثيقة عند وجود اختلاف أو تناقض بين روايتين، والأساس العلمي الذي يعتمد عليه في الترجيح، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة لا مجال لاستقصائها هنا، ولو بدأنا بالأمر الأول:

أسماء أصحاب عيسى عليه السلام

المعطيات التاريخية تفيد بأنه لا توجد أسماء تحمل هذه الصفات، ولم يثبت أن هناك أناساً يمكن إثبات صحبتهم لعيسى عليه السلام علميا ووثائقيا، والمصدر الوحيد هو الإنجيل، وهو ما نحن بصدد نقده تاريخيا وعلمياً، هذا الفراغ يهدم مفهوم السند من أساسه، لأننا بجهالة الواسطة التي نقلت إلينا ذلك الكتاب المقدس، نفقد حلقة هي أهم الحلقات بعد أهمية النص ذاته، وهو ما يؤدي إلى تدميرٍ لنقاء النص، وفتحٍ لباب التطفل عليه وتحريفه وتحويره حسب المواقف والمشاعر والأهداف، النص بفقده للنقلة الأوائل المباشرين للأحداث يعني الطعن بنسبة النص ليس فقط لله، بل لعيسى صلى الله عليه وسلم، بل لأصحاب عيسى. أما الأمر الثاني فيتعلق بـ:

الجيل الثاني

يفترض أن كتبة الكتاب المقدس هم من الجيل الثاني، ومن الرواة الثقات المشهود لهم بذلك. الموقف الإيديلوجي والعاطفي فقط يرجح هذا، لكن النقد العلمي يتردد في ذلك، ويدعم شكه ذلك بمبررات مقنعة أهمها:

أنه لا يمكن الجزم بتحديد شخصيات أولئك الرجال الذين كتبوا تلك الأناجيل، وهذا ما يضيف عبئا كبيرا على من يتبنى طرح الإنجيل والتبشير به، فإذا كان الشخص الذي كتبه مجهولاً فكيف يحكم عليه بأنه ثقة معتمد الرواية، لأنه لا بد – ابتداءً – من تحديد الشخص وتحديد هويته، ثم البحث عن تاريخه وأمانته ونظافة نقله وسلامة عقله، وتلك أمور يفشل ناقلوا الإنجيل في إثباتها وتقديم الوثائق اللازمة لها، لأنه ليس كل من يدعي التدين متدينا، وليس كل متدين صادقا، وليس كل صادق ثقة، هناك متدينون غير ثقات، وهناك متدينون ثقات لا يمكن الاعتماد على رواياتهم نظرا لعوامل بيولوجية، كعدم القدرة على الحفظ، أو الغفلة، أو الإصابة بالخرف، وما يقال عن هذا الجيل يقال عن الجيل التالي والذي يليه.

الإنجيل متنا

يقدم الإنجيل متنا غير متماسك، ولا يمكنه الصمود أمام النقد العلمي ولا الأسئلة المطروحة عليه، فعند قراءة أبرز النقاط التي أتت في الإنجيل فإن حالة من الحيرة تصيب المتأمل لها. الإنجيل يقدم تفاصيل عن مولد عيسى بن مريم، ثم يهيل التراب على ثلاثين عاما من عمره، فلا أحد يعرف كيف قضاها، ولا يمكن تفسير تلك الجهالة البالغة العتمة على ثلاثين عاماً من سيرة إنسان غير عادي على الإطلاق من حيث المولد والنطق، وكونه آخر أنبياء بني إسرائيل، إنه نبي مميز عن بقية الأنبياء جميعا إلا آدم عليه السلام، فعيسى صلى الله عليه وسلم ولد بمعجزة من غير أب، ثم حدثت له معجزة أخرى عندما تكلم وهو في المهد، فتحدث عن نفسه وعن أمه، وقام بتبرئة أمه من تهمة الزنى، وأدرك الناس أن سيكون له شأن في

المستقبل، فمن المحير جداً أن نفقد أحداث تلك الفترة، لا سيما والناس في انتظار نبي مخلص.

نسب عيسى

تحت عنوان عريض في إنجيل متى هو (نسب يسوع) ينسب عيسى إلى آباء ليسوا آباءه، حيث تبدأ سلسلة النسب بقول متى Mt ١:١ : (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم) ثم يقوم بسرد النسب من الأعلى أي من إبراهيم صلى الله عليه وسلم، لكن عند التدقيق في تلك القائمة نجدها قائمة لا علاقة لعيسى بن مريم عليه السلام بها، حيث يقول بعد ذلك العنوان مباشرة: (ابراهيم ولد اسحق، واسحق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا واخوته) ثم يتسلسل حتى يقول: (واليود ولد أليعازر، وأليعازر ولد متان، ومتان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح). فأي إنسان يملك ذرة من العقل يستطيع ربط عيسى بن مريم عليه السلام بهذا النسب!! إنه ليس نسبه ولا نسب أمه ولا حتى عمته، بل نسب خطيب والدته عليها السلام.

بأي شيء تحكم على شخص تسأله عن نسبه، فيقوم بسرد نسب رجل قام بخطبة أمه قبل أن تتزوج بأبيه؟! هل يمكن اعتبار هذا التصرف والعبارات من الكلام الله، أم من كلام عيسى، أم أنه كلام كذاب غبي لا يدري ما يخرج من رأسه، لقد كتب عنوانا عريضا هو: (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم) ثم يسرد نسب رجل لا صلة له بعيسى. قد يكون الخطيب من أوروبا أو أفريقيا وقد يكون من الهنود الحمر، علميا هذا الكلام أقرب للجنون والهذيان.

ثم يأتي إنجيل لوقا بنسب آخر للمسيح على أنه ربما كان ابنا ليوسف بن هالي، الشيء المضحك هنا، هو أن كاتب الإنجيل المجهول نفسه لا يدري حتى تاريخ كتابته هل عيسى ابن يوسف أم لا، إنه يقول: (Lk:٣:٢٣: ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي.

نسب لابن سفاح

الإنجيل يجعل عيسى من نسل زنى، فهو ينسبه إلى داود عليه السلام، ثم يقول: (وداود ولد سليمان من امرأة أوريا)، وقد مر معنا في التوراة، أن داود اغتصب زوجة جاره أوريا وأنجبت منه سليمان بالسفاح والاغتصاب دون أن يطلقها زوجها "أوريا"، في تلك القصة الحقيرة المفتراة، والتي تنسب لداود عليه السلام، تلك القصة وتداعياتها تمثل حلقة في سلسلة آباء عيسى كما يقول إنجيل اليوم.

هناك معضلة حول المسيح عليه السلام نفسه، فهو في زعمهم ابن الله، أي أنه إله، وهذا الإله مر بمرحلة جنينية كالبشر تماما، ثم فترة للمخاض والولادة، بالإضافة إلى أنه أمر أن يبقى في البرية أربعين يوما لا يأكل شيئا، وذلك من أجل أن يخضع لاختبار الصمود أمام الشيطان.

السؤال هنا: كيف يمكن تقبل فكرة كهذه، إله عظيم خالق رازق قادر هو الأول والآخر والمحيي والمميت كان ولم يكن شيء منذ الأزل، يخضع لاختبار أمام

مخلوق ضعيف وغبي لا يملك من أمره شيئا، كيف يمكن أن يخضع الخالق للمخلوق، ويطرح عليه أسئلة تحرجه، فكيف إذا كان هذا المخلوق شيطاناً؟
هذه المعطيات تعني لاشك أن ألوهية المسيح ألوهية مبتكرة مخترعة، وإلا لو كان إلها لكان أعلم الناس بالشيطان، فهو الذي خلقه وشكله وأعطاه حرية الكفر والإيمان، فكيف يخضع لتجربته، كيف يخضع الخالق لمخلوق؟!
إذا كان الإنجيل يقصد أن الاختبار كان يجري على الجسد فقط، فإنه يقع في معضلة أشد من الأولى، فالجسد مجرد آلة لا عقل لها.
يقول الإنجيل (Mt:٤:١: ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس، فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا. فتقدم اليه المجرب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا. فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله)

إله يسجد

الإله لا يسجد لأحد، بل تسجد له كل المخلوقات، إلا من أعطاه الله حرية الاختيار فاختار الكفر، الإله لا يسجد أما الآلهة المزيفة فتسجد، لأنها مزيفة وليست آلهة.
الإنجيل يجعل من عيسى بن مريم عليه السلام ساجدا لله عابدا له، وهو اعتراف بأنه مخلوق وليس إله. فإن قيل: أن له رتبة من الألوهية أقل من رتبة الآب فقد وقعوا في الوثنية، فالوثنيون بعمومهم يرون آلهتهم أقل رتبة من رتبة الخالق.
يقول الإنجيل: (Mt:٤:٨: ثم أخذه أيضا إبليس الى جبل عال جدا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان.لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد)
وهنا يعترف المسيح بأن الله ربه، أما الدليل على أسطورية هذا النص وكذبه، فيكشفه العلم الحديث الذي يتساء باستخفاف: أي جبل عال في فلسطين، أو في غير فلسطين يمكن رؤية ممالك العالم من فوق.

المسيح شخصية حدية

شخصية المسيح عليه السلام في الإنجيل شخصية حدية إقصائية لا تقبل الآخر، أو كما يقال: (من ليس معي فهو ضدي)، وهي عكس ما يصور المسيحيون المعاصرون بأنه رسول سلام، بل هو يحمل سيفا لإجبار الآخر على متابعته.
إنه يقول (Mt٣٤:١٠: لا تظنوا اني جئت لألقي سلاما على الارض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفا، فاني جئت لأفرّق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها، وأعداء الانسان أهل بيته، من أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنا او ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، من وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها، من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني) والكلمات الأخيرة تعني أنه مجرد رسول

ولا يمكن فهم التسامح الذي يدعو إليه المسيح كما في الإنجيل: (Mt:٥:٤٤: واما أنا فأقول لكم أحبوا اعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم) إلا من خلال تفسيرين:
الأول: أن يكون موجها للتسامح داخل المحيط المسيحي فقط.
الآخر: وهو الأقرب، أن يكون ما في الإنجيل ناسفا لما في التوراة، لأن تلك الكلمات لم تأت في حديث عن الحب والسلام فقط، بل جاءت في سياق الحديث عن التوراة. فقد قال المسيح كما في الإنجيل: (Mt:٥:٣٨: سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا... إلخ)
والعين بالعين والسن بالسن من أحكام الرب كما في التوراة : (Dt:٢٠:١٩: ويسمع الباقون فيخافون ولا يعودون يفعلون مثل ذلك الأمر الخبيث في وسطك.. لا تشفق عينك: نفس بنفس.. عين بعين.. سن بسن.. يد بيد.. رجل برجل)
من يحاولون الدفاع عن تناقض الإنجيل مع التوراة، مدعين أن تلك الأقوال دعوة للتسامح عن الحقوق والتنازل لا أكثر، لايستطيعون الفرار من تناقض آخر وهو التالي: تقول التوراة: (Lv١٠:٢٠: وإذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبه فانه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة، فقد فعلا كلاهما رجسا.. أنهما يقتلان دمهما عليهما، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه، أنهما يقتلان كلاهما دمهما عليهما، وإذا اضطجع رجل مع كنّته فإنهما يقتلان، كلاهما قد فعلا فاحشة دمهما عليهما، وإذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً، أنهما يقتلان دمهما عليهما، وإذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة بالنار يحرقونه وإياهما، لكي لا يكون رذيلة بينكم، وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة تميتونها) بل إن التوراة تحكم على الفتاة بالإعدام لمجرد عدم وجود غشاء البكارة، تقول التوراة: (Dt:٢٠:٢٢: ولكن إن كان هذا الأمر صحيحا ولم توجد عذرة للفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في إسرائيل بزناها في بيت ابيها.فتنزع الشر من وسطك)
بل إن التوراة تتطرف فتحكم بالقتل على الفتاة المغتصبة المقهورة إذا لم تصرخ، مع أن بعض حالات الاغتصاب تصحب معها من الخوف والرعب ما يلجم الفتاة ويخرسها وربما يغمى عليها من هول الكارثة، ومع ذلك تحكم التوراة عليها بالإعدام. تقول التوراة: (Dt:٢٣:٢٢: إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا: الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك)
ثم ينقض الإنجيل كل ذلك بقوله عن المرأة الزانية التي أحضرت لعيسى ليأمر برجمها فقالوا: (Jn ٤:٨: يا معلّم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل،

وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم، فماذا تقول أنت؟ ... ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم: من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر)
هنا يلغي الإنجيل ما جاء في الناموس، ويؤكد خطأ التوراة التي ترجم الزاني، بل يعلن أن موسى وبقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا مخطئين في فعلهم ذلك، ويؤكد كذلك أن كل الحواريين والمؤمنين لهم أخطاء الزانية نفسها، أليس ذلك نسفا للتوراة وللناموس!؟
لو قال الإنجيل أن عيسى قال: لا ترجموها فقد ألغى الله حكم الرجم، لأمكن قبول الأمر، فالله يغير ما يشاء متى ما شاء، لكن أن يبطل الحكم والناموس بحجة أن الناس معرضون للخطأ، فهذا يجعل من الإيمان بالإنجيل نوعا من الغباء، لأن الإيمان بالإنجيل يلزم عنه تحريم تطبيق القوانين والأنظمة والعقوبات والجزآت في الدنيا، بحجة أن رجال القضاء والشرطة والمرور والرقابات البرلمانية وغيرهم كلهم يرتكبون الأخطاء، وبذلك تنهار منظومة الأنظمة والقوانين والمحاسبة والشفافية بحجة أن القائمين عليها من البشر، وكل البشر يخطئون.
لا بد أن الإنجيل ومن يؤمن به ينتظرون نزول ملائكة بسيارات مرور خاصة ليحلوا محل رجال المرور من البشر، وملائكة ثانية للشرطة، وثالثة للبلديات والضرائب وهكذا. ثم إن الاعتذار بهذا العذر الواهي وهو وجود خطايا من المستحيل قبوله ونسبته لعيسى، نظرا لأنه يتضمن شيئا غير معقول على الإطلاق هو: أن من يطبق تلك العقوبة لا بد أن يكون معصوما من الخطايا، وهو حكم على أن قوم موسى ومن بعده من أتباع الأنبياء إلى عصر المسيح عليه السلام كانوا معصومين وهو أمر مستحيل ومضحك.
الإنجيل كذلك ينسخ أحكام الطلاق المنطقية والمعقولة بأحكام بالغة الشراسة ومخالفة للطبيعة البشرية، أحكام يمكن وصفها بالمتطرفة حيث يقول إنجيل متى ٥:٣١ (وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعلّة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فانه يزني)
إن الإنجيل بحكمه المؤبد يقوم بتحويل المرأة المطلقة إلى زانية، والنساء المطلقات جميعا إلى مجموعات من البغايا والمومسات حتى الموت.. وجعل الزواج بالمطلقات نوعاً من أنواع الزنى.. بل لقد صرح في مكان آخر بأن المطلقات والبغايا في درجة واحدة من الإثم.. وتمادى فاعتبرالمرأة التي اعتدي عليها بإكراه واغتصبت هي من الفصيلة نفسها.

الإنجيل والأساطير

لم يخل الإنجيل من الأساطير، وهو كالتوراة تماما في هذه الإشكالية، فأسطورة البنوة لله لا يمكن أن يتخلص الإنجيل منها إلا بنقض الجزء الأول من الكتاب المقدس، فالتوراة تغص بالأنبياء وقصصهم وقصص أقوامهم ونبوءاتهم، والأهم من ذلك حديثهم الطويل عن الله عز وجل وتبجيله وأزليته ووحدانيته وقدرته وعظمته، فإذا كان لله ولد له صفات والده، فكيف خفي ذلك على آدم ومن بعده من الأنبياء، ولم يكشف عنه سوى بولس الذي كان بالأمس مجرما وعدوا للمسيح..

يتتبع أتباعه ويقتلهم وينكل بهم، لا يمكن تفسير ذلك إلا باتهام الأنبياء جميعا بالخيانة، حيث لم يخبروا أممهم بهذا الإبن الذي اخترعه رجل صاحب سوابق مهمته هي إبادة من كان على دين المسيح، ثم اكتشف أنه لا يمكن إبادة دين بإبادة شعبة، ولكن بنسف فكرته الأصلية، وذلك ما قام به تماما شاءول اليهودي، الذي سمى نفسه بـ(بولس). كما أن البنوة لله منتشرة وغير منضبطة في كل مكان في الكتاب المقدس، فالناس ابناء الله، وعيسى ابن لله، وهو أيضا ابن ليوسف بن هالي النجار، ومرة ابن ليوسف بن يعقوب.

أسطورة أخرى تتلخص في حادثة جرت في البحر الميت، والبحر الميت عبارة عن بحيرة صغيرة، علميا لا يمكن أن تحدث فيه أمواج عاتية كما في بقية البحار، ناهيك عن تلك الأمواج التي تحدث في المحيطات، ومع ذلك فالإنجيل يقول أن أمواجا كالتي تحدث في المحيطات جرت في البحر الميت. يقول الإنجيل أن عيسى: (Mt:٨:٢٣: لما دخل السفينة تبعه تلاميذه واذ اضطراب عظيم قد حدث في البحر حتى غطت الامواج السفينة.وكان هو نائما. فتقدم تلاميذه وايقظوه قائلين: يا سيد نجنا فاننا نهلك. فقال لهم: ما بالكم خائفين يا قليلي الايمان. ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم) لو قال الإنجيل أن عيسى أمر البحر فهاج ثم سكنه لكانت معجزة إلهية لا يمكن تكذيبها إذا صح مصدرها، لكن أن ترتفع أمواج بحيرة حتى تغطي السفينة فأسطورة استباقية أريد تركيب معجزة عليها.

أسطورة أخرى تقول أن الله "الأب" سلط الشيطان – وهو على صورة حية – على ابنه ليختبره، إن هذا النوع من الأساطير الملفقة فيه الكثير من الانتقاص لمعنى الألوهية، فكيف يخضع خالق لاختبار مخلوق شرير، وما حاجة الرب للصيام أربعين يوما، هل يريد التطهر من آثامه، هل الرب يأثم. إن أسطورة بنوة الله تمر بحقل من الألغام لا تستطيع عبوره إلا بعد أن تتحول إلى أشلاء متطايرة لايمكن التعرف عليها أو الربط بينها.

أسطورة الخنازير، وكيف أخرج عيسى الجن من الممسوس، وفي إنجيل آخر من ممسوسين اثنين وسمح للجن بالدخول في قطيع الخنازير.

يقول الإنجيل: (Mt:٨:٢٨: ولما جاء الى العبر الى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان جدا، حتى لم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق، وإذا هما قد صرخا قائلين: ما لنا ولك يا يسوع ابن الله.. أجئت الى هنا قبل الوقت لتعذبنا؟ وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى، فالشياطين طلبوا اليه قائلين: إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير. فقال لهم: امضوا. فخرجوا ومضوا الى قطيع الخنازير، وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات في المياه)

السؤال المحير هنا: كيف يسلط رسول السلام غضب الشياطين على الخنازير البريئة، ماذنبها وما الذي جنته، ولماذا لم يعاقب الشياطين بدلا منها. وأخير وليس آخراً فإن العلم التجريبي يقوم بفضح من زوروا الكتاب المقدس، ويكشف خطأ علمياً لا يمكن تمريره مهما كان المبرر.

يقول الإنجيل(Mt:٨: ٤: ثم أخذه أيضا إبليس الى جبل عال جدا، وأراه جميع ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد)
هذا النص يحمل خرافات لا يمكن السكوت عليها وهي:
- أن الأرض مسطحة الشكل وليست كروية.
- أن هناك جبل يمكن الصاعد إلى قمته من رؤية دول العالم.
- أن إبليس يقود كل دول العالم وبإمكانه تسليم أي دولة لمن يشاء.
- أن إبليس هو صاحب برنامج "جوجل إيرث".
وهنا أدركت سر قتل الكنيسة لأكثر من ثلاثمائة ألف طالب علم، وحرقها لثلاثين ألف عالم، وحكمها بالإعدام على برونو وكورنيكوس وجاليلوا.
هذه هي الأسئلة العلمية التي كان من المفترض أن يسبقنا أركون وأدونيس وحرب وطرابيشي إليها، هذه الأسئلة التي كان من المفترض أن تمارسها العلمانية العربية مع الكتب المقدسة جميعا على قدم المساواة، لكن الذي صدمنا هو أن التشكيك والتجاهل كان هو المنهج "الوحيد" بامتياز للعلمانية العربية، التشكيك بالقرآن، والتسامح أو الثناء على الكتاب المقدس.

ثنائية السلطة – النص

عاش الإنجيل إشكالية معقدة مع السلطة، ففي البداية قامت السلطة القيصرية بقمع النص وحامله وقمع أصحابه عليهم السلام، مدفوعين بحملة يهودية قادتها السلطة الدينية ممثلة بالحاخامات، الذين حاولوا وحرضوا السلطة القبض على عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم لسجنه وصلبه، والإنجيل الموجود اليوم يزعم أنهم قد نجحوا في ذلك حتى تمكنوا من صلبه مع اثنين من المجرمين، واستمرت السلطة تمارس القمع تلو القمع تجاه النص وأتباعه، حتى تولى القيصر (قسطنطين) الحكم في القرن الرابع للميلاد، عندها عاش النص إشكالية أخرى مع السلطة، إشكالية في ظاهرها الاصطفاف إلى جانب النص. لكن هذا الاصطفاف عند التأمل كان أشد ضررا على الكتاب المقدس من قامعيه، النص المسيحي انتقل مع السلطة إلى مرحلة أشد تدهورا من مرحلة القمع، فاعتناق (قسطنطين) الغامض للمسيحية قضى على آخر أمل في الخروج بدراسة علمية جادة لمقارنة النصوص وتحقيقها، لقد اتخذت السلطة السياسية موقفا إقصائيا أساء من حيث أراد أن يحسن، فالقيصر أصدر أوامره بتصفية الآخر – لا في الملة – بل في النقل والفهم والتفسير، آخر يملك مثلما يملك من يقف في صف القيصر، بل أكثر وأدق وأقرب لمفهوم الوحي الذي يتسم بالوضوح والبساطة، والبعد عن الغموض والتفلسف ولي أعناق النصوص، فمن أكثر من خمسين إنجيلا تم اختيار أربعة أناجيل فقط، أما الأكثرية فتمت ملاحقتها وسحقها دون تفسير علمي أو تبرير مقنع، ومتى كان ذلك..؟
بعد أكثر من ثلاثة قرون من نزول الإنجيل، وبناءً على قرار – موقف، لا نتيجة، وبناءً على انتقاء لا مقارنة، وذلك في مؤتمر نيقيه عام ٣٢٥م، بل إن ما يؤكد إيدلوجية القرار وتحيزه صدوره بخلاف رأي الأغلبية من الرهبان الذين حضروا

ذلك المجمع المسكوني في نيقيه، بل ووصفه لأبرز المخالفين – الحبر (إريوس) بأنه صاحب بدعة لأنه يحمل عقيدة التوحيد، وهي عقيدة أنبياء بني إسرائيل السابقين كلهم، وعقيدة التوراة، رافضاً فكرة أن يكون عيسى ابنا لله، مؤكدا أنه مجرد نبي كغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا الحكم السلطوي يتلاءم مع العقيدة القيصرية الرومانية الوثنية، المأخوذة بتعدد الآلهة، وهي ثقافة قاومها كل الأنبياء بما فيهم عيسى عليه السلام القائل (ما جئت لأنقض الناموس)، القرار القسطنطيني نقض للناموس على يد السلطة، القرار القسطنطيني تجسيد للثقافة الرومانية تحت لافتة المسيحية، ولا أدل على ذلك من احتفاظ قسطنطين بمنصبه كـ(كاهن أعلى للدين الوثني) ورفضه لممارسة طقوس المسيحية (التعميد) طوال حياته، وقد استمر بترميم المعابد الوثنية وبناء المزيد والجديد – (أوروبا والمسيحية، يان دوبراتشينسكي١-٤٩) وقد نقل هذا القرار عملية النقل من أيدي الرهبان إلى أيدي السلطان، أي من السلطة – المعتنقة إلى السلطة – المتسلطة، وهو أمر ما كان ليتم لولا خلوا ساحة الكتاب المقدس المسيحية من العلماء والنقاد الذين يمارسون عمليتي النقل والنقد معاً، هذا الفراغ أتاح للأقوياء فقط أن يفرضوا مواقفهم على من شاءوا دون اعتبار للعلم والنقد والتساؤل، السلطة هنا في غنى عن توظيف فقيه أو عالم للنص، إنها تقوم بشيء أخطر من ذلك بكثير، إنها تقوم بإلغاء النص لا تفسيره، وتحدد من النصوص لا من التفسيرات ما يجب أن يتداول، بل إنها تحدد نوع العقيدة التي يجب أن تسود في العقول بحد السيف، فلا مساحة للاختلاف والخلاف وإبداء الرأي، فالثقافة القسطنطينية أوجدت مساحتين لا ثالث لهما: هناك مساحة لرأي قسطنطين، وأخرى لسيف قسطنطين، وقد أفرز هذا الموقف السلطوي واقعا مرأ انعكس أثره على القارة الأوروبية كلها.

المؤرخون: المسيحية تحول أوروبا إلى ظلام

وهذا هو المقتل الذي يجهز على موضوعية الفكر العربي ونزاهته.. ويكشف حجم المجاملات والزيف الذي يرتكبه هذا الفكر وكتابه. أوروبا مهد الفلسفة والديموقراطية والفن والأدب والمسارح والشعر والأسطورة ونقد الشعر والنحت تتحول بالمسيحية إلى ظلام دامس، ليس أنا من يقول ذلك، ولا المسلمون ولا العرب، أوروبا تقول ذلك..

مؤرخ العصور الوسطى والكنيسة الإنجليزي (جورج . ج . كولتون) في كتابه (عالم العصور الوسطى – ترجمة جوزيف نسيم) يقسم العصور الوسطى إلى قسمين: عصور وسطى غارقة في الظلمة. وعصور وسطى أخف ظلامية.

ويحدد تلك العصور الوسطى المظلمة بالفترة ما بين عامي ٤٠٠ و١٠٠٠ للميلاد، وهذه الفترة الغارقة في الظلمة هي تماما الفترة التي تلت اعتناق الإمبراطورية الرومانية للدين المسيحي، عندما أعلن الإمبراطور قسطنطين اعتناقه للدين المسيحي، وإقامته للمجمع المسكوني، وفيها تم قمع كل أنواع المعارضة للمذهب القسطنطيني الثالوثي داخل المنظومة المسيحية، لتتحول المسيحية إلى صراع

داخلي لتصفية المسيحي الآخر المخالف. أما الآخر خارج تلك المنظومة فقد تحول إلى مهرطق لا بد من ملاحقته وسحقه، وبذلك تمت إبادة الفكر والثقافة في أوروبا على يد الكنيسة، وقد استمرت تلك الإبادة لقرون عديدة حتى تعرفت أوروبا على من يحملون ثقافة النص القرآني.

لا أدري أين أدونيس من هذه المعطيات، أوليس قسطنطين ابن روما، وابن المدينة الأوروبية، وجذور الديموقراطية، أين أدونيس من تأثير النص المسيحي على الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية في أوروبا. لا أستغرب تجاهله فهو رجل يسترزق بقلمه، لكنني أستغرب قفز الجابري وأمثاله من المفكرين هذه المعطيات الخطيرة حول أخطر مكونات العقل العربي: (التوراة والإنجيل والقرآن) والانكفاء على آثار وتداعيات (القرآن) فقط، لأن ذلك يطرح أكثر من تساؤل حول جدوى ومستوى الطرح المقدم حول العقل العربي، ليس هذا فحسب، بل إن الجهل المخيف الذي يتمتع به المفكر العربي حول المكون الثاني – على المستوى الإسلامي – في أهميته للعقل العربي، أعني به السنة النبوية، اتضح جليا في مستوى الرداءة في النتائج التي خرج بها ذلك المفكر، ذلك أن كل المفكرين العرب ينعمون بحصيلة من المعلومات لا يحسدون عليها حول هذا الموضوع الهام والدقيق، بل إنهم في مواقفهم وطعوناتهم لا يعتمدون على دراسات هم قاموا بها.

لقد كانوا كالعادة استهلاكيين مستلبين يتكئون على غيرهم، ومقولاتهم تكرار ممجوج لمقولات المستشرقين المتعصبين، لذلك لم يأتوا بجديد يدفع بهم إلى المقدمة، لقد ظلوا في معزل عن البحث العلمي الجاد في أخص وأدق ما يتعلق بالتراث، الكثير منهم يلتقط حديثا موضوعاً أو رواية لا أصل لها، ليجعل منها أصلاً ومنطلقا لمؤلفات إنشائية، هي في الحقيقة مواقف أكثر منها رأي يحترم.

إن سر نجاح العلماني الغربي هو في اعتناقه للمنهج التجريبي في تحييد تراثه الديني، فباعتناقه ذلك المنهج القطعي أصاب تراثه الديني في مقتله وهو المصداقية، استطاع المفكر الغربي تعرية تراثه، فانكشفت عيوب أتباعه فرضي الجميع بمحاكمة عادلة ومنصفة، حكمت على هذا التراث أن يحشر في الكنيسة حشراً، فلا شأن له بالعلم ولا بالسياسة ولا بالاقتصاد ولا بالحرب ولا بالسلم بل ولا حتى بالله، وحددت صلاحيته بالمباركة لا أكثر، وحددت له مساحة تحاصرها جدران الكنيسة التي يتلى فيها، فبعد قرون من التعذيب ومحاكم التفتيش والتكفير ومجازر الحروب الصليبية وصكوك الغفران ونزع المسؤلية الفردية، وعزل كل مسيحي عن ربه بواسطة قس قد يكون أسوأ من المذنب نفسه.

بعد قرون من هذه المعاناة اكتشف المفكر الغربي أن الموثوق به في التراث المقدس والمقنع، لا يمثل إلا عموميات هي بالقدر الذي يشكل عاملا مشتركا بين البشرية جميعاً، كالعدالة والصدق والرحمة والحب، مع تباين شاسع في التفسير وهذا أمر لا يحتاج إلى وحي لإدراكه. أما سر العلماني العربي فهو امتلاءه بالهراء، ومن هذا الهراء قول "علي حرب" في مقدمة كتاب نقد النص: (إذا كان هناك ثابت أقف عنده أو دافع عنه، فهو ممارسة حريتي في التفكير بعيداً عن أي إكراه مادي

أو ضغط معنوي. وما تعنيه هذه الحرية هو إمكانية التفكير في كل أمر، بصورة نقدية تتيح تفكيك ما يستوطن عقل المرء من البنى والنماذج والآليات التي تحول دون فهم الأحداث أو عقلنة التجارب والممارسات، أقصد هتك العادات الذهنية الراسخة والبداهات الفكرية المحتجبة التي تحول دون أن يفهم الكائن المفكر ما يصله بالعالم أو ما يتوسط بينه وبين نفسه من العقائد والمدارس أو من اللغات والأنساق أو من النظم والمؤسسات.

هذا هو مشروعي. بل هذا هو موقفي وشاغلي: أن لا أشرع لعقلي على نحو قبلي، وأن لا أرسم الحدود لفكري بصورة مسبقة. باختصار أن لا أقيم سوراً محكماً أسور به ذاتي وهويتي بالمقولات والنظريات والمناهج. بالعكس. علي أن أعمل على إبقاء الأبواب مشرعة أمام العقل، لتعرية المهام والممارسات والألاعيب التي تطمس مهمة التفكير أو تعيق الطاقة على الخلق والابتكار. والتفكير النقدي الفعال والحيوي، يبتكر ويتجدد بالتحرر من الضوابط التي يتقيد بها حراس العقائد وحماة الهوية، أو بخرق القواعد والمعايير التي يلتزم بها أصحاب المدارس وبناة النماذج وهواة التأصيل والتأسيس)

هذه العبارات الطنانة التي يخيل إلى من يقرأها أن علي حرب قد هدم العالم ثم أعاد بناءه من جديد، تتمخض عن هراء لا يقل عن هراء أركون، وإلا لما قفز ما سقته من معلومات، لماذا لم يطرح الأسئلة التي طرحتها على الكتاب المقدس واكتفى بمقولته الفضيحة: (يفقد القرآن فرادته إذن وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها – نقد النص ٨٨) لقد كشف العلم التجريبي ضياع الوحي المسيحي داخل ركام هائل من الأساطير الشعبية والأقاصيص والفلسفات، والأكاذيب التي قذف بها داخل هذا التراث، والتي أعاقت حركة الحياة الدنيا وشوهت حقيقة البعث والجزاء، فكيف لا يقنع هذا التراث بجدران الكنيسة والقليل من خفقات القلب، وكيف لا يرضى بالحرمان من التمتع بآفاق الفكر وتجلياته وإبداعاته. وقبل أن أنهي هذا الفصل أود أن أورد بعض الاعترافات المشهورة حول الكتاب المقدس.

الغرب المسيحي يعترف

هناك في الغرب.. المجامع الكنيسة.. العلماء.. النقاد.. العباد يعترفون ويقرون بأخطاء التوراة.. بما فيها من تناقض، ويعترفون بأساطيرها، ويأمرون الإنسانية بالإيمان بها فقط مع التخلى الكامل عن العقل والعلم.

يقول الأب (دوفو) وهو يقدم لسفر التكوين طالباً التخلى عن العقل والنقد والعلم التجريبي عند الحديث عن الكتاب المقدس: (التوراة لاتخضع لأي من هذه القوانين، وإذا أريد مقابلتها مع معطيات هذه العلوم فلا يمكننا الوصول إلا إلى مجابهة غير حقيقية أو إلى توافق مصطنع)

إنه يقرر أن حقائق العلم تناقض التوراة مناقضة لا سبيل إلى الهروب منها أو إنكارها، ثم يبين استحالة التوفيق بينهما. تأمل قوله الذي ينضح بالإيديلوجية

والمعادة للعلم: (إنا نستعين بالعلم إذا كان نافعا في تثبيت التوراة، أما إذا كان يدحضها فإنا نرفض الرجوع إليه) إذا فهو يرفض الحقيقة العلمية لأنه يهوى التوراة.. يحبها، إنه كمن يدفن رأسه في الرمل كي لايشاهد الكارثة، وبدلا من البحث عن أسبابها ومحاولة علاجها يضيف إلى عناده وتخلفه عنادا أشد وتخلفا أسوأ.. ألا وهو إنكار وجود كارثة حول حقيقة التوراة.
ويقول (ول ديوارنت): (إن اليهودية استوعبت أساطير الجزيرة العربية، والفكر الفارسي، وإن هذه الأساطير كانت معيناً غزيراً لأسفار التوراة)٠
ويقول (نولدكه) في كتاب (اللغات السامية): (جمعت التوراة بعد موسى بسبعمائة عام، استغرق تأليفها وجمعها زمنا متطاولاً جداً، تعرضت حياله للزيادة والنقص، وإنه من العسير أن نجد جملة متكاملة في التوراة مما جاء عن موسى، لأن التوراة لم تدون في عهد موسى ولا في الجيل الذي تلاه)
ويقول (هربت فيشر) في (تاريخ أوربا الحديث): (إن الأسفار القديمة غدت منذ عام ١٨٦٤م تقريباً موضع الفحص الدقيق والأمتحان الشديد وغدت التوراة كتاباً عادياً لاسفراً مقدساً له مكانته المقدسة)
وتقول دائرة المعارف الفرنسية تحت عنوان (توراة): (إن العلم العصري ولاسيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضية في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى، وإنما كتبها أحبار لم يذكروا أسمائهم عليها، ألفوها على التعاقب، معتمدين على رويات سماعيه سمعوها قبل أسر بابل)
ويقول(جورج طعمة): (بأن القول بأن كل كلمة وكل نقطة من النصوص المقدسة هي وحي إلهي حرفي أمر بالغ الخطورة ٠٠كان الناس يعتقدون جيلاً بعد جيل أن الكتب الخمسة الأولى من التوراة: التكوين.. الخروج.. اللاوين.. العدد.. التثنية.. كتبها كلها النبي موسى.. مع أن مثل هذا القول لايرد في التوراة ذاتها، ولكن حين طبقت مقاييس البحث العلمي التي استعملت في دراسة وثائق القرون الوسطى ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الأمر خلاف ذلك)
وأشار القس الفرنسي (رتشاد سيمون) عام ١٦٧٨م إلى: (أن التوراة كما هو متداول يعتمد على مخطوطات ترجع إلى القرون الوسطى، وإن كثيراًمنها ذات مصدر مجهول أومشكوك فيه، وإن النساخ من الرهبان قد أدخلوا فيها كثيراً من الأخطاء والتحريفات)
والإعترافات كثيرة جداً وتحتاج إلى مساحة أكبر، لكني سأختمها باعتراف مجمع الفاتيكان الثاني، والذي استمر النقاش ودامت الدراسة فيه ثلاث سنوات (١٩٦٢-١٩٦٥م)، لقد خرج هذا المجمع بإعلان وافق عليه (٢٣٤٤) صوتاً، وعارضه (٦) أصوات. هذا الإعلان البالغ الخطورة الصادر عن مجمع لا يعلى عليه عندهم يقول: (إن كتب العهد القديم تسمح للكل بأن يعرف من هو الله، ومن هو الأنسان، فضلاً عن الطريقة التى يتصرف بها الله مع الناس بعدالته ورحمته، هذه الكتب رغم كونها تحتوي النقص والعجز.. هي أيضاً من الشواهد على تربية إلهية حقيقية). لقد أعترف المجمع بأن هناك نقصاً، وبأن هناك عجزا لا يمكن الهرب منه

ولا إنكاره، وما سبق معنا أكبر دليل على ذلك، لكن المجمع يوصي بالأخذ ويوصي بالرضا والقبول بالخطأ رغم أنه خطأ.

النصوص المسيحية تمت إزاحتها من عالم العقل إلى الأبد، لتهرب إلى عالم العاطفة واللا معقول، حيث تتحول هناك إلى شيء يمكن التعصب له، أو التعاطف معه وعشقه، أو الانتساب إليه لكن خارج العقل تماماً، وهنا تكمن مشكلة خطيرة هي: تحول التدين إلى تعصب منفلت خارج الضوابط والمعقول، ليتحول إلى حالة انفعالية ضبابية يختلط فها الصواب بالخطأ، والأسطورة بالحقيقة، والحلال بالحرام، والإشكالية هنا هي في تحول المتعصب إلى مشكل لنصه لا متشكل به، أي أن الدين تحول إلى أداة، وهو ما يفسر المجازر الرهيبة التي يرتكبها المسيحيون في التعامل مع الآخر ومع الآخر المخالف ضمن العقيدة نفسها كما مر معنا، والفضائع والمجازر التي يرتكبونها في الحروب التي تدور بينهم، والتي تدور بينهم وبين غيرهم، لم يكن ذلك كله ليحدث لولا الخلفية الثقافية التراثية التي عجزت عن تقديم المثال والنموذج والمقنع، مما حول الدين إلى مساحة يشكلها المسيحي حسب رغباته وأطماعه، بل حوله إلى استجابة لانفعالاته وغرائزة التي لا حدود لجموحها وانفلاتها، فمئات الملايين التي قام المسيحي بقتلها في حروب الاستعمار والسطو على ثروات الغير من قبل البرتغاليين والإسبان والبريطانيين والهولنديين والروس والفرنسيين والإيطاليين مرورا بالحربين العالميتين وحروب الاستعمار الجديد وتقطيع العالم العربي وانتهاءً باجتياح أفغانستان والعراق وما بعدهما، كل هذا لا يمكن تبريره من قبل العلماني العربي بدعوى حرب المصالح الاقتصادية، وإن كان الاقتصاد يدعم بقوة في هذا الاتجاه إلا أن من يمارس ذلك كان يمجد الصليب ويدعي حمل راية السلام المسيحية، ويقتل الأطفال والنساء وهو يتلو عليهم كلمات المسيح (من صفعك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن، وأحبوا أعداءكم .. إلخ من الكلمات التي تم تفريغها وحشوها بعشرات الملايين من الجماجم. وفي خضم ذلك يحق لنا أن نتساءل: لم لم تتوجه أقلام المفكرين العرب لطرق تلك الحقائق وإعادة قراءتها؟ لم تم الاكتفاء بالنتائج الأوروبية دون فحص أو تمحيص؟ أين الفكر العربي إذاً إن كان كل ما يقوم به هو استيراد النتائج، دون الخوض في غمار التجارب واقتحام المجهول!!

الأخطر في قراءات المفكرين العرب ليس هو في استيراد النتائج فقط، بل في أدلجتها وتوظيفها كسلاح في وجه النص والتراث الإسلاميين.. هكذا وبطريقة القص واللزق السهلة نقرأ مصطلحات هي أقرب للرصاص منها إلى العمل الفكري.. الماضوية الظلاميه.. الرجعية.. العيش خارج الزمن.. ناهيك عن عبارات يرددها السذج من صغار الكتاب عن تاريخنا، وأنه مليء بالدماء، وأن الصحابة اختلفوا حول الخلافة والنبي لم يدفن.

من يقرأ تلك المصطلحات والعبارات يظن لأول وهلة أن من يطلقها حمل أمته نحو الشمس والحرية، والرخاء والثراء والديموقراطية.. يظن لأول وهلة أنها لمفكرين استطاعوا نسف النص الإسلامي وأحرجوه وبينوا لمن يعتنقه عدم أهليته ونافسوا

المفكر الغربي على هذا الصعيد. بينما الواقع يكشف أن من يكتبها ويرددها عقليات ما زالت بعد قرنين من الزمن تحاول بيأس إثبات أنها موجودة وعلى قيد الحياة، ناهيك عن أي إنجاز آخر.

بعد هذه العقود التي حملنا فيها المفكر العربي نحو الخلف على كافة المستويات تنفضح تلك الدراسات المزعومة حول العقل العربي، وأنها مجرد صراع مع ذات حبست نفسها في متاهات من صنع يديها، بينما كان النص الإسلامي مشغول عنها بالإنجاز والإقناع، وكسب المعتنقين على رقعة هذا الكون. لتتحول القراءات الفكرية إلى تهم جاهزة للنص الإسلامي، بعيدا عن النص ذاته، ليعاد الدوران مرة في تلك الحلقة المفرغة والكلمات الفارغة: قراءة النص.. نقد النص.. نقد الحقيقة.. لتعود الهروبية من جديد للتضخم، ويعود معها الطريق بالانسداد، والمفكر العربي بالتآكل.. وهكذا. فإلى متى ومفكرونا يراوغون ويروغون من اقتحام النص واختراقه واكتشافه؟

أجزم ولا أزعم أنه سيطول بهؤلاء المقام حتى الانقراض، ويطول بنا الانتظار طالما ظل مفكرونا يستوردون إشكاليات ليست إشكاليات أمتهم، ومن ثم يستوردون حلولا لتلك الإشكاليات، إن هذه الممارسات الانعزالية ستكرس المزيد من عزلة هؤلاء المفكرين ونفيهم لأنفسهم، وتعاليهم عن الطرح الموضوعي والمنصف للذات وللخصوم. ولعل فيما مضى من تجاهل للنص المقدس المسيحي أكبر دليل على تلك العزلة، ناهيك عن العزلة القاتلة في التعاطي مع النص الإسلامي، والمساحة الهائلة من الجهالة به.

وبعد، فقد آن الوقت لاكتشاف المزيد من شعوذات أركون وأمثاله، آن الأوان لكشف ما سكت عنه أركون وأراد تمريره مغلفا، لأن الوقوف به وكشفه سيفضحه ويفضح سطحيته، وسيفضح سر اتفاقه – إيديلوجيا – مع البابا، والذي كشفه الأسقف (جوزيف فيسيو)، بأن الإسلام بخلاف كل الأديان الأخرى لا يمكن إصلاحه، ولذلك فهو لن يتوافق أبدا مع الديموقراطية، لأن حدوث ذلك يقتضي إعادة تفسير جذرية للإسلام، وهذا مستحيل بسبب طبيعة القرآن نفسه وعلاقة المسلمين به. وعندما ناقشه أحد الأساقفة أن ذلك ما يزال ممكنا، اعترض البابا بوضوح كما ينقل عنه الأسقف (جوزيف فيسيو) قائلا: إن البابا علق على ذلك بهدوء ووضوح قائلا: هناك مشكلة أساسية في هذا الرأي. أن الرؤية التاريخية الإسلامية تؤمن أن الله قد أنزل كلماته على محمد، وأنها كلمات باقية إلى نهاية الزمان، وهي ليست كلمات محمد، وبالمقابل فإن هناك منطقا داخليا للإنجيل المسيحي تسمح له وتطالبه أن يتغير ويتأقلم مع المواقف المتجددة. وفي تعليق آخر قال البابا، أنه يرى إمكانية تغير الإسلام فقط إن أمكن إعادة تفسير القرآن بشكل جذري وكامل، وإعادة النظر بالكامل في مبدأ عصمة الوحي) فلم لا نقدم القرآن تحت مجهر النقد الجاد، لا الأركوني الاستشراقي الأسود.

القرآن

القرآن كتاب المسلمين المقدس، الذي ظل خارج النقد والدراسات العربية الجادة، لكنه كان هدفا للكتابات الإيديلوجية الاستشراقية والعربية.. هدفا للإقصاء والتهميش والاتهامات، ولعل زيارة واحدة لمعرض من معارض الكتب العربية، يجد أن الكتب الفكرية العربية تتمحور حول محورين: اعتناق القرآن، أو إقصائه.
والإقصاء هو سمة العلمانيين العرب دون استثناء.
من هنا أجد لزاما الكشف عن المسكوت عنه والمجهول الذي يتهرب المفكر العربي من تناوله، لأن تناوله يمثل حرجا لا يمكن التخلص منه أو تجاهله.

القرآن من النزول إلى الكتابة.

نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في مكة، قبل هجرته من مكة إلى المدينة بثلاثة عشر عاما، وقد نزل عليه باللغة العربية، ونظراً لأن محمداً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فقد حدد عددا من صحابته لكتابة ما ينزل عليه من القرآن، فأملاه عليهم آية.. آية، وأملاه عليهم باللغة العربية نفسها، وقد تجاوز عدد كتاب الوحي الأربعين كاتبا، أما الناقلين عنهم فلا حصر لهم، واستمر القرآن طيلة حياة النبي عليه السلام وبعد مماته باللغة العربية، وما زال بهذه اللغة حتى اليوم.
أثناء ذلك، وفي ميزة للقرآن عن أي كتاب مقدس وغير مقدس في العالم، تم تداول القرآن بشكل محموم ودائم على مدار اليوم والليلة، من قبل النبي عليه السلام وأصحابه، فقد كانوا يرددون كل آياته وسوره بشكل يومي لا ينقطع، خاصة أثناء أداء الصلوات، حيث أن الصلاة تعتبر ناقصة جداً دون قراءة ما تيسر من القرآن. فقد شاهد النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يصلي بطريقة سريعة فأرشده إلى أدنى مستوى من الصلاة المقبولة، والتي تشترط تلك القراءة، وذلك عندما (دخل رجل المسجد فصلى ثم جاء فسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم فرد النبي صلى الله عليه وسلم عليه السلام فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل. فصلى ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ارجع فصل فإنك لم تصل.. ثلاثا فقال: والذي بعثك بالحق فما أحسن غيره فعلمني. قال النبي: إذا قمت إلى الصلاة فكبر واقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم افعل ذلك في صلاتك كلها - صحيح البخاري ١ - ٢٧٤)
ويكفي للدلالة على أهمية استظهار القرآن وحفظه، إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لمصعب بن عمير للمدينة قبل الهجرة، كي يعلم أهلها القرآن قبل قدومه، حتى صاروا يسمونه (المقرىء) لقد أسس مصعب مدرسة للقرآن وحفظه قبل قيام دولة الإسلام، بل قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى تلك المحفزات

العظيمة على تعلمه وتعليمه، حيث يقول لأصحابه: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه - البخاري ٤ - ١٩١٩)
ويحث على قراءته يوميا فيقول: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : ألم حرف. ولكن : ألف حرف، ولام حرف وميم حرف - صحيح الجامع حديث رقم : ٦٤٦٩)
ويحث على الاستماع إليه، بل إن النبي نفسه كان يحب الاستماع إليه من غيره، فيقول صاحبه أبو موسى الأشعري: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا أبا موسى لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة! فقال : أما والله لوأعلم أنك تستمع قراءتى لحبرتها لك تحبيرا) ويقول التابعي أبو سلمة : (كان عمر إذا رأى أبا موسى قال : ذكرنا ربنا يا أبا موسى. فيقرأ عنده. وقال أبوعثمان النهدى: كان أبو موسى يصلى بنا، فلو قلت أنى لم أسمع صوت صنج قط ولا بربط قط ولا شيئا قط أحسن من صوته – فضائل القرآن ١ - ١٦٢)
كما حث على حفظه واستظهاره وترديده ومداومة مراجعته فقال: (تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها – صحيح مسلم ١ - ٥٤٥)
وفي قصة طريفة يجعل النبي عليه السلام من تعليم القرآن مهرا لمن لا مهر له، فيقول صاحبه (سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله أهب لك نفسى. فنظر إليها رسول صلى الله عليه وسلم فصعد النظر فيها وصوبه، ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها؟
فقال: فهل عندك من شيء ؟ فقال: لا والله يا رسول الله. فقال: اذهب إلى أهلك فانظرهل تجد شيئا ؟ فذهب، ثم رجع فقال: لا والله ماوجدت شيئا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: انظر ولو خاتم من حديد؟ فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتم من حديد، ولكن هذا إزاري فلها نصفه. فقال رسول الله: ما تصنع بإزارك، إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء؟ فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا فأمر به فدعي، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن ؟ قال معي سورة كذا وكذا (عددها) فقال: تقرؤهن عن ظهر قلبك ؟ قال: نعم.
قال اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن – صحيح مسلم ٢ - ١٠٤٠)
وكان أصحابه يمضون أجزاءً من الليل يتلون القرآن، وكان من بينهم عبد سابق. هذا الرقيق كان إضافة للأمة رغم رقه ومسكنته، تقول (عائشة زوج النبي صلى الله عليه و سلم: أبطأت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بعد العشاء. ثم جئت فقال: أين كنت ؟ قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له، ثم التفت إلي فقال:

هذا سالم مولى أبي حذيفة. الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا – سنن ابن ماجه ١ - صفحة ٤٢٥)

بل إن بعض الصحابة أراد أن يجعل ليله كله للصلاة وتلاوة القرآن، فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا من الرهبانية والغلو الذي يتنافى مع الواقعية الإسلامية. يقول أنس بن مالك: (جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها – أي اعتبروها قليلة - فقالوا: أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله أني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني – البخاري ٥ - ١٩٤٩)

ناهيك عن الآيات القرآنية التي تجعل من القرآن زاداً يوميا للمسلم مهما كان وضعه ووقته: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وتجعل مجرد الاستماع سببا للرحمة: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)

هذا التحفيز أفرز مجتمعا قرآنيا شديد الولع والتنافس في العلاقة مع القرآن، وفي سنوات مبكرة جدا لا تتجاوز الخمس سنوات، أصبح هناك المئات من حفظة القرآن، لدرجة أن يرسل النبي النبي عليه السلام فريقا من الحفظة في أول سنوات الهجرة، بلغ عددهم السبعين، أرسلهم دفعة واحدة لتعليم ثلاثة أحياء من العرب.

يقول أنس بن مالك: (جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة. فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار يقال لهم (القراء) فيهم خالي حرام يقرؤن القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا. قال أنس: وأتى رجل حراما خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام: فزت ورب الكعبة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا – مسلم ٣ - ١٥١١) ولا يمكن التفريط بهذا العدد وإخلاء المدينة منهم لولا وجود أضعافهم من الحفاظ.

هذا التداول النشط للقرآن في الليل والنهار، والقيام والقعود، والحركة والسكون، والعمل والعبادة، والسلم والحرب، والصلاة وغيرها.. هذا التداول الذي حول المدينة إلى خلية مدوية بالتراتيل يتوج بمراجعة سنوية للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول لابنته فاطمة رضي الله عنه في قصة ترويها زوجته عائشة فتقول: (أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي

صلى الله عليه وسلم: مرحبا بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثا فبكت. فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثا فضحكت. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن، فسألتها عما قال. فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى قبض النبي صلى الله عليه وسلم فسألتها؟ فقالت: أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقا بي – البخاري ٣ - ١٣٢٦)
كل هذا كان يحدث ونبي الإسلام حي بين أصحابه، وهو أمر لم يحدث لأي كتاب قبله ولا بعده، ولا حتى للكتاب المقدس في حياة موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم. كما أن ذلك التداول مايز القرآن عن غيره، في الكتابة والقراءة وطريقة القراءة والحفظ والتعليم والمنزلة، مما يعني أنه كتاب معظم ومقدس، ومستقل في نظمه وكتابته والتعاطي معه. بل إنه خلق جواً ثقافيا لم تعرفه العرب من قبل، فقد تحولت الأحياء والمساجد والطرقات إلى حلقات ثقافية بالقرآن فجأة، ودون مقدمات، حيث كان تحول القرآن إلى منهج حياة، من المولد إلى الممات، تحولا إلى أفق ينهض المسلم ويرتقي بقدر ما يقترب منه، لدرجة أن المدينة التي شهدت حروبا طاحنة ولعقود من الثارات والهمجية بين الأوس والخزرج تتخلى عن ذلك التاريخ المأزوم، فيقف زعماء طالما حسموا نقاشاتهم بالسيوف في معركة بعاث وقبلها، أمثال السعدين: ابن معاذ وابن عبادة وأجدادهما، يقف هؤلاء – وهم الذين لا يرضون بغير المقدمة – خلف طفل صغير مملوك لأحد نساء الأنصار، بالإضافة إلى أن زوجها من مكة.. يقفون خلفه لأنه يحمل من القرآن أكثر مما يحملون.
يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: (لما قدم المهاجرون الأولون العصبة موضع بقباء قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآنا - صحيح البخاري ١ - ٢٤٦)
حتى في أيام الشدة والضنك، أيام مكة المبكرة.. يقول راعي الغنم الفتى الصغير عبد الله بن مسعود عن قصة إسلامه: (كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه وقد فرا من المشركين فقالا يا غلام هل عندك من لبن؟ .... ثم يقول ابن مسعود: فأتيته بعد ذلك فقلت: علمني من هذا القول. قال: إنك غلام معلم. فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد - مسند أحمد بن حنبل ١ -٤٦٢)

منهج نقدي مصاحب للحفظ

كان في جزيرة العرب أكثر من سبع لهجات منها لهجة قريش، وهي لهجة النبي عليه السلام وأهل مكة، وقد نزل القران العربي بسبع من تلك اللهجات، حتى تسهل قراءته على العرب في أنحاء الجزيرة، مما خلق حسا نقديا لدى الصحابة تجاه توثيق القرآن.
يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على

حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: كذبت.. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت. فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله.. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه – صحيح البخاري ٤ – ١٩٠٩)

ومما يؤكد هذا النشاط المنقطع النظير في تداول القرآن وحفظه عن ظهر قلب، بل والتشدد في دقة التلاوة قول الصحابي أبي بن كعب: (كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحب، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه. فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ. فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقا وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقا، فقال لي: يا أبي.. أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثانية اقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي، فرد إلي الثالثة اقرأه على سبعة أحرف.. فلك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم- صحيح مسلم ١ - ٥٦١)

إذا فالنظرة النقدية للنص لم تنشأ بعد موت النبي عليه السلام ، ولا في عهد الخلفاء أو من بعدهم، والأسئلة الملحة كانت تطرح مبكرا، ولم تنشأ على يد الملاحدة أمثال الرازي وابن الراوندي، ولا على يد المستشرقين والمقلدين لهم أمثال أركون. النقد العلمي للنص نشأ في حرارة الوحي وخلال نزوله، وليس بعد اكتماله، كان النقد يمارس أثناء حياة النبي عليه السلام، وليس بعد وفاته بقرون وقرون كما هي حال الكتاب المقدس، وقد قدم النبي لأصحابه إجاباته وتفسيراته لهم، وأستمع لتساؤلاتهم بكل شفافية.

لم يكن هناك ثقافة وثوقية أيام النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يكن مصدرها الوحي، بل إن أحد الصحابة وهو أبي بن كعب يصف مدى تسرب الشك في نفسه إلى الوحي نفسه، لو لم يخبره النبي صلى الله عليه وسلم بوجود أحرف سبعة للقرآن، موافقة للسبع اللهجات العربية الموجودة في الجزيرة العربية، وعمر بن الخطاب لم يقبل الخطأ في قراءة النص – حسب علمه – مما جعله يمسك بثياب القاريء الآخر ويجره كما يجر من ارتكب جرما كبيرا، بالإضافة إلى كون القرآن

ليس مجرد خطبة عابرة، أو نصيحة ظرفية، أو سيرة شخصية، بل كان نصا نابضا حاضرا في المدينة ليل نهار، فالقرآن تجب قراءته يوميا أكثر من سبع عشر مرة بالنسبة لجميع الصحابة وهم بالآلاف، أما كبار الصحابة وهم بالمئات، فيقرأون النص يوميا أكثر من خمسين مرة، في النوافل وغيرها، وهناك من يقرأ القرآن كاملا كل شهر، ومنهم يقرأه كل أسبوع، ومنهم من يقرأه كل ثلاثة أيام، وتطور الأمر بالبعض فأصبح يقرأه في يوم واحد ويومين، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكون للتدبر مكانا في النفوس، فأرشدهم إلى عدم قراءته في أقل من ثلاثة أيام حتى يفسحوا مساحات أكبر لفهم وتدبر القرآن.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: (قلت: يا رسول الله في كم اقرأ القرآن؟ قال: أقرأه في كل شهر. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: اقرأه في خمس وعشرين. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: أقرأه في عشرين. قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك. قال: اقرأه في خمس عشرة. قلت: إني أقوى على أكثر من ذلك. قال: اقرأه في سبع. قلت: إني أقوي على أكثر من ذلك. قال: لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث ـ مسند أحمد بن حنبل ٢ ـ ١٦٥)

إنها حالة استثنائية في تاريخ البشرية كلها، أن يجري تداول كتاب بهذا القدر من الشغف.. لم يسبق لمجتمع أن تداول كتابا ما على كل المستويات: الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، وقبل ذلك الدينية أبداً، لم يسبق أن تداولت أمة كتاباً واحداً، وأن يكون هذ التداول ليس مقصورا على طبقة دون طبقة، أو فئة دون فئة. تداولا لا ينقطع ولا يعرف الهدوء ولا التوقف ليل نهار، مما أكسبه توثيقا استظهاريا مرادفا للتوثيق الكتابي، الذي تكفل به أكثر من أربعين من الصحابة كموثقين، فكيف بالناقلين عنهم، كما أن خلو مجتمع النبوة والخلافة الراشدة من طبقة الكهنة ورجال الدين ذوي الامتيازات والرتب المادية والمعنوية منع اقتصار تداول القرآن وإغلاقه على طبقة قد توظفه وتتلاعب به وتستغله لمصلحتها بتزويره وإدخال ما ليس منه فيه.

إن تجاوز المفكر العربي لهذه الظاهرة العجيبة والخارقة والنادرة لأمر يثير الحيرة، تجاوزه لها واتكاؤه على مقولات تخص وموجهة للكتب المقدسة الأخرى دون تمييز بينها.. يعني أنه يعيش في حالة عزلة علمية وسلوكية وشعورية عما يتحدث عنه، وهو في عزلة شعورية عما يزال يجري حتى اليوم، من تناول للقرآن داخل المساجد والمدارس والمنازل والجامعات. فما يجري منذ نزول القرآن وحتى اليوم أمر مذهل للغاية، ولا تعرفه أمة غير أمة القرآن، بل إن هذا التداول انتشر في ظاهرة معجزة داخل المحيطات الإسلامية ـ غير العربية، كالمجتمعات الهندية والباكستانية والبنغالية والأفغانية والشيشانية والفارسية والأندونيسية والماليزية وحتى الإنجليزية والفرنسية وغيرها، حيث يلتزم هؤلاء بتلاوة القرآن وقراءته باللغة العربية التي نزل بها وكتب بها وحفظ بها، ويكفي أن نعلم أن في باكستان وحدها أكثر من أربعة ملايين ممن يحفظون القرآن عن ظهر قلب.

ومن العجائب المذهلة حول القرآن، ما جرى في إحدى مسابقات القرآن الدولية، حيث رأيت شابا كفيف البصر فارسي اللغة يستطيع تحديد صفحة وسطر أي آية في المصحف، وطفلا صوماليا في الثامنة من عمره فاز بالمرتبة الأولى في حفظ للقرآن، ولما أجرى مراسل "العربية" مقابلة يسأله فيها عن حفظه وعمره واسمه، كان لا يفقه شيئا، كان يكتفي بالتلفت والابتسام لمن حوله، لأنه لا يتكلم العربية، وهناك حالات أخرى لا حصر لها، ولا يمكن تصديقها لولا نقلها أمام الملايين في التلفزيون، مما يؤكد مدى توغل هذا القرآن في عقول وقلوب المسلمين مهما كانت لغاتهم حتى اليوم، وهي ظاهرة أرى العلمانيين العرب في حالة جهل تام بها، وفي عجز عن دراستها وتفسيرها، أما ما يزيد الذهول حقا في القرآن، فهو ذلك التوثيق الدقيق لظروف وملابسات نزول الآيات، حيث لم يكتف الصحابة بتدوين الآيات، بل اهتموا بحفظ أسباب النزول أيضا. وهنا يتبادر سؤال: مادام القرآن جاء بسبع لهجات، فلم تم:

الاقتصار على لهجة قريش

استمرت تلك القراءات والأحرف طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد وفاته تم انتخاب أبي بكر الصديق المهاجر، على أرض الأنصار في ساعات قليلة دون أن تراق قطرة دم واحدة، بعد خلاف في الرأي معتمد على البحث عن الأولى والأحق، لكن تلاوة عمر لسطر من القرآن حسم الأمر على أرض خاضت أيام الجاهلية حربا دامت أكثر من ربع قرن من أجل سباق بين حصانين.

وبعد حروب الردة استشهد عدد من حفظة القرآن، فأصدر أبو بكر أمراً بجمع القرآن في مصحف واحد، بدلا من هذه النسخ التي يحتفظ بها كتاب الوحي وهم أكثر من أربعين كاتبا وغيرهم ممن نقل عنهم، وكان أبرز أصحاب النبي عليه السلام الذين كتبوا الوحي بتكليف منه: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبان بن سعيد، أبو أمامة، أبو أيوب، أبو حذيفة، أبو سلمة، أبي بن كعب، والأرقم، أسيد بن حضير، بريدة بن الحصيب، ثابت بن قيس، الزبير بن العوام، عبد الله بن عمرو بن العاص، ووالده عمرو، يزيد بن أبي سفيان، معاوية بن أبي سفيان، معاذ بن جبل، جعفر بن أبي طالب، أبو سفيان، بشير بن سعد، ثابت بن قيس، أوس بن خولي، جهم بن سعد، حذيفة بن اليمان، حنظلة بن الربيع، عقبة، المغيرة بن شعبه، محمد بن مسلمة، عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، عبدالله بن سعد بن أبي السرح، شرحبيل بن حسنة، سعد بن عبادة، زيد بن ثابت، خالد بن الوليد، طلحة بن عبيد الله، جهيم بن الصلت، حاطب بن عمرو، حصين بن نمير، العلاء الحضرمي، معن بن عدي، مهاجر بن أمية، عبد الله بن رواحة، السجل وغيرهم.

وقد قام أبو بكر بتكليف أحدهم وهو الصحابي زيد بن ثابت بكتابة القرآن في مصحف واحد. يتحدث زيد عن تلك المهمة البالغة الخطورة، بل يطرح السؤال الذي ادعى أركون طرحه، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بجمعه في

مصحف واحد فكيف يفعله أبو بكر؟ طرح هذا التساؤل من قبل من قام بالمهمة، فهو لا يريد القيام بأمر دون أن يطرح تساؤلاته بكل شفافية، ولن ينفذ ما طلب منه إلا وقد اقتنع أنه حق.

يقول زيد: (أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه.

يقول زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال أبو بكر: هو والله خير.

يقول زيد: فلم أزل أراجعه – أي أستخير – حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحدٍ غيره { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم } إلى آخرها، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر – صحيح البخاري ٤ – ١٧٢٠)

لقد اشترك عمر في تلك العملية حيث يقول حفيد أبي بكر عروة بن الزبير، أن جده أبا بكر الصديق (قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه – فتح الباري ٩ – ١٤) ويقول عبيد بن عمير: (كان عمر رحمة الله عليه لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان – تفسير الطبري ١١ – ٧٨)

هذا التوثيق الكتابي الدقيق، بالإضافة إلى الحفظ الاستظهاري والتداول اليومي كان يجري في مناخ نقي وموضوعي هو:

مناخ جمع القرآن

تم جمع القرآن في مناخ مثالي، مناخ موضوعي مأخوذ بالحرص على النص، لا على الجهة التي قامت بذلك، فمن ناحية الزمن يعتبر جمع القرآن في خلافة أبي بكر مساوٍ تماما لجمعه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لعدة اعتبارات:

- الاستقرار السياسي والاتفاق على خلافة أبي بكر.
- قصر مدة خلافة أبي بكر (عامان) مما يعني أن من حوله كانوا صحابة.
- الدولة هي التي أمرت رسميا بجمع القرآن في مصحف واحد.

- زعيم الدولة كان ألصق الناس بالوحي، فهو صديق الطفولة والشباب والشيخوخة للنبي عليه السلام، وهو الذي نال لقب الصديق من الأمة وليس من المنصب.
- الذين قاموا بالجمع كلهم من الصحابة، ومن كتبة الوحي الذين عاصروا نزول القرآن.
- المصادر هم كتبة الوحي فقط وما لديهم من وثائق.
- الوثائق المعتمدة هي من إملاء النبي صلى الله عليه وسلم.
- الكتابة – النسخ والجمع تم في زمن نقي لا يوجد فيه أحد من التابعين، فأبو بكر حكم لعامين ونصف فقط.
- الكتابة والجمع تمت في أجواء صافية تماما من أية طائفية، فلا وجود للشيعة ولا للخوارج ولا للسبأية.
- الكتابة والجمع تم في المدينة المنورة التي عاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم وأسس دولته وتوفي فيها ودفن.
- الكتابة تمت على أيدي أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، ولم يساهم فيها أي شخص من خارجها.
- الكتابة تمت بلغة قريش التي نزل بها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم، ولم تتعرض لترجمة قد تذهب بأصل النص.
- الكتابة تمت في ظروف تداول لا يهدأ للقرآن، سواء كان هذا التداول في الصلاة أو التدريس أو الحفظ أو التعبد أو الاستدلال أو الحاكمية.

هكذا تم جمع القرآن في مصحف واحد، باللغة التي نزل فيها، وبعملية توثيق لم تعرف البشرية مثيلاً لها. وهذا هو أخطر ما سكت عنه أركون وتجاوزه، ولم يشر إليه أدنى إشارة، فمهمة أركون هي التشكيك لا الدراسة وفحص المرويات وعرضها جميعا، وهذا ما أسميه بأن أركون ينفضح فيما سكت عنه، وهل هناك أخطر من قفز هذه الحقبة، وهل هناك أغبى من قول أركون وببغائه عندما قالوا: أن السنة والشيعة اتفقوا على صيغة نهائية للقرآن في القرن الرابع. فهل بعد هذا الهراء من هراء.

القرآن بعد أبي بكر رضي الله عنه

بعد وفاة أبي بكر أصبح المصحف عند عمر بن الخطاب، الذي سلمه قبيل وفاته لابنته حفصة ريثما ينتخب المسلمون خليفة لهم، وقد سلم لحفصة بصفتها أم للمؤمنين وزوجة للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعد انتخاب عثمان بن عفان وأثناء الفتوحات الإسلامية شعر بعض الصحابة بخطورة الاختلاف الذي انتشر حول الكتاب المسيحي اليهودي المقدس، فخشي من تسربه إلى المسلمين من خلال عدم فهم أمر القراءات والأحرف السبعة، وأن ترك الأمر دون اتخاذ قرار حاسم، قد يفضي إلى الوقوع في المعضلة التي وقع فيها اليهود والنصارى مع كتابهم. فكان الصحابي حذيفة بن اليمان أول من استشعر خطورة الأمر، فعاد من جبهات الجهاد

والثغور إلى الخليفة عثمان بن عفان، محذرا إياه من كارثة تكفيرية قد تقع فتمزق الأمة. فاستجاب الخليفة عثمان بن عفان وأصدر أمراً بكتابة نسخ من (الوثيقة الرسمية) المصحف الأصل، ليتم توزيعها كنسخ رسمية وموثقة على بقية الأمصار والبلدان داخل الجزيرة العربية وخارجها، وذلك بعد أن تكرر الخلاف بين بعض المسلمين في القراءة، كما حدث بين عمر وأحد الصحابة أثناء حياة النبي عليه السلام، وقد أصدر عثمان أمراً بإحراق أي كتابة أخرى، لأن النسخة الرسمية الموثقة والمراجعة والدقيقة هي مابين دفتي المصحف الذي جمعه أبو بكر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك عممه عثمان رضي الله عنه، وبذلك غدت بقية الكتابات تتراوح بين كونها بلغة قريش أي بلغة النسخة الموثقة، فتكون مجرد تكرار لكن غير رسمي، وإما أن تكون بلهجة أخرى، وهي بذلك لا قيمة لها إلا عند كاتبها، لأنه قد تم الاستغناء عنها لا لشك فيه، ولكن تم الاعتماد رسميا على لهجة قريش والاكتفاء بها لعدة أسباب:

- أن هذه النسخ لم تراجع.
- حتى لا يتسبب الجهل بالحروف الأخرى ببث الفرقة والنزاع بين المسلمين.

كان لدى بعض الصحابة وعي بما حدث لليهود والمسيحيين من اختلاف وتضارب في نسخ الكتاب المقدس، فكان جمع القرآن في نسخة واحدة وحرف واحد منعاً للاختلاف والتضارب مع مرور الزمن.

هذا العمل يعتبر إنجازا عثمانيا يشكر عليه، وتوحيداً للصف يدخر في رصيده، ولو لم يقم عثمان إلا بهذا العمل لكفاه، فقد جنب الأمة الإسلامية كوارث وقع فيها اليهود والنصارى بعدم توثيقهم لكتابي التوراة والإنجيل، مما أوقعهم في كارثة التطفل على النص الأصلي من قبل رجال يحسنون النية، ومن قبل رجال سيئي النية أيضاً، هدفهم تزوير النص والتخلص من مصداقيته والالتزام به. لكن عثمان والمسلمين تنبهوا لخطورة ذلك، فحسموا الأمر قبل فوات الأوان، ونشروا كتاب ربهم بطريقة لا يمكن أن تتوفر لأي كتاب قبله أو بعده، وقد حدث ذلك أثناء انتشار الإسلام وتوغله في أراضي آسيا وبالتحدي أرمينية وأذربيجان، وقبل أن يثير السبئيون الفتنة ضد عثمان بزمن طويل، وقبل أن تحدث الفتنة بين المسلمين بخروج معاوية على علي وقبل ظهور طائفتي الشيعة والخوارج.

حدثت تلك الأزمات والفتن الخطيرة بعد أن أصبح القرآن موثقا في الصدور والسطور، منشوراً في كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية وفي مصحف موحد متفق عليه، ثم استمر النقل عن ذلك المصحف جيلا بعد جيل.. عاما بعد عام إلى يومنا هذا، باللغة التي نزل بها، دون ترجمة أو حواش أو تعليقات. لا توجد نسخة على وجه الأرض تخالف نسخة أخرى ولا تختلف عنها أو تزيد عليها.

قصة نشر وتعميم المصحف الرسمي

قصة تقتل أركون والمرددين لأكاذيبه، قصة تفضحه وتفضح تعالمه، يرويها لنا أحد الصحابة الذين حضروا الحدث والأحاديث، إنه أنس بن مالك خادم رسول الله صلى

الله عليه وسلم منذ قدومه للمدينة، فيقول: (أنه اجتمع لغزوة أذربيجان وأرمينية أهل الشام وأهل العراق، فتذاكروا القرآن فاختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم قتال، فركب حذيفة بن اليمان لما رأى اختلافهم في القرآن إلى عثمان بن عفان، فقال: إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف. ففزع لذلك عثمان رضوان الله عليه فزعا شديدا، وأرسل إلى حفصة فاستخرج الصحف التي كان أبو بكر أمر زيدا بجمعها فنسخ منها المصاحف، فبعث بها إلى الآفاق – البخاري وابن حبان ١٠ – ٣٦٤ واللفظ له)
وحتى ندرك مدى حرص عثمان على بقاء المصحف بلهجة النبي صلى الله عليه وسلم يروي أنس بن مالك هذه القصة فيقول: (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها أليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق – صحيح البخاري ٤ - ١٩٠٨)
أما تساؤلات أركون حول الناسخ والمنسوخ وغيره، وحول كتابة ما نسخ من القرآن، وبالتالي أمانة عثمان، فقد طرحها – قبل أركون بألف وأربعمائة عام – أحد من كلفهم عثمان بنشر المصاحف، "عبد الله بن الزبير". طرح ابن الزبير أسئلته النقدية على عثمان قبل أن يطرحه الملاحدة المستشرقون ومقلدوهم، فقال: (قلت لعثمان بن عفان {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا}. قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها؟ أو تدعها؟ قال عثمان رضي الله عنه: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه – البخاري ٤ – ١٦٤٦)
إذا فعثمان لم يكن جامعا للقرآن كما توهم أولئك الجهلة، ولم يكن معيدا لترتيب سوره. إنه باختصار ناسخ للنص الأصلي وناشر له ومعمم له في الأقاليم، بل إنه رفض حتى حذف الآيات المنسوخة التي كانت في مصحف أبي بكر، وهي آيات مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتلوها في صلواته، مما يعني بقاء رسمها دون حكمها. وقد أجاب عثمان على سؤال ابن الزبير، ومع ذلك فمازال "العظم" و"أركون" والملاحدة يعيدون تكرار السؤال بصبيانية وعبثية مضحكة، فالعظم يدعي أن القرآن معطل بتلاوة آيات كآيات الرق في هذا الزمان.
وأنا أقول له إن كان هذا التعطيل في رؤوسهم، فالآيات المنسوخة من باب أولى، لكن العظم وأضرابه يريدون من المسلمين التخلص من القرآن كله وليس آيات الرق فقط، ولا أدري ما رأيهم في تلاوة القرآن في بلد كاليابان وكوريا، وهي بلاد

ليست حتى مسيحية، ما رأي أصحاب الأسئلة الصبيانية في تلاوة آيات الزكاة والزواج والجهاد والرق في مثل تلك البلاد الوثنية؟ لا شك أن إجابتهم هي أن القرآن يجب أن يكون (بسم الله الرحمن الرحيم – صدق الله العظيم) كما يتهكم أحمد مطر بأمثال هؤلاء الذين يضيقون بكل حرف من القرآن.

هؤلاء الملاحدة لا يعجبهم القرآن، ولو أنزله الله عليهم مكتوبا في قرطاس، فهم يرفضون توافق القرآن مع حقائق العلم التي اكتشفها العلماني الغربي وسلم بها وأعلن اعتناقه لها، في الوقت نفسه يطالبون القرآن بعدم الواقعية من أجل أمر ظرفي متغير قدم القرآن حكما لاحتمال وقوعه في أي زمان ومكان كالرق.

القرآن يصف الملاحدة أمثال العظم وأركون بدقة بقوله: (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٨٩) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا (٩٠) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا (٩١) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا (٩٢) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا (٩٣) وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا (٩٤) قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (٩٥) قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا (٩٦))

أما الصحابة المشيرون على عثمان، فلم يخشوا أن يختلط القران بالأحاديث، فهذا مستحيل، لكنهم خافوا من انتشار ظاهرة التكفير لدى الجهلة الذين لم يعاصروا نزول الوحي، وذلك عند سماعهم لتلاوة الحروف المختلفة، وعند رؤيتهم لمصاحف تلك الحروف السبعة، لذلك جعلوا حرف قريش هو المعتمد في كل الأقاليم، وقد قدموه لكونه لهجة النبي صلى الله عليه وسلم، وأمروا بإحراق الأحرف الست الباقية حتى ولو كانت مكتوبة، لذلك فمن كانت عنده كتابة، أو كان يحفظ حرفا من حروف القرآن فحفظه أو كتابته ستختفي بوفاته واختفائه، وقد احتفظ بعض الصحابة بمصاحف من كتابتهم الشخصية لكنها أصبحت مصاحف ووثائق شخصية ليست رسمية، ولا تحضى بالإجماع، وليست لها درجة التوثيق التي حصل عليها المصحف الرسمي.

إذا فقد أصبحت الأمة كلها مجمعة على مصحف واحد، ولا قيمة لأي نسخة خارج هذا الإجماع إلا عند من كتبها من إملاء النبي صلى الله عليه وسلم، وحتى هذه لا قيمة لها إلا عند الصحابي وحده، وما بقي بعد ذلك من نسخ خارج الإجماع، يعتبر نصا لا يمكن اعتماده، لأنه يفتقر إلى الإجماع والنقل المتواتر الذي لا يمكن تكذيبه إطلاقا.

وهكذا نقل الآلاف تلو الآلاف، ثم الملايين تلو الملايين هذا القرآن بلغة محمد صلى الله عليه وسلم القرشية حتى يومنا، حفظاً واستظهارا في الذاكرة، وتداولاً يوميا في الصلاة وحلقات طلب العلم والمجالس والطرقات والمنازل، وكتابة ونسخا في المصاحف التي أصبحت بالملايين دون اختلاف، كل هذا جرى في ظاهرة فريدة من

نوعها لم تعرفها أمة من الأمم، ولم يعرفها كتاب من الكتب حتى اليوم، وقد جرت عدة محاولات لإخراج نسخ قرآنية مزيفة سرعان ما تكتشف ويتم التخلص منها في أيامها الأولى، وآخرها المصحف الأمريكي الذي وزع في الكويت تحت عنوان (الفرقان العظيم)

إذا فالخليفة العظيم عثمان بن عفان وما قام به من عمل جبار، كان مجرد جامع للأمة على مصحف واحد، هذا المصحف كان بلغة قريش، وهو يغني عن بقية اللغات الست. أما الخارق للمألوف والمعجز، فهو قيام القرآن بإفشال كل ما شغب به الملاحدة، من تشويش على إنجاز عثمان بإحراق المصاحف التي كانت باللهجات الأخرى، فقد قام القرآن بإذابة تلك اللهجات الفصيحة كلها، وبشكل معجز، وليس كما يحاول "حرب" تبرير ضياع لغة الكتاب المقدس والتهوين من بقاء لغة القرآن، كما هي عادة العلمانيين العرب السخيفة في التهوين من إنجازات من يناصبونه العداء، القرآن لم يكتف بالاحتفاظ بلغته، بل قام بصهر لهجات العرب الآخرين، لدرجة اعتنق أهلها لغة فصحى واحدة.

لغة القرآن

كانت وما زالت العربية لغة القرآن، ولم يترجم إلى أي لغة، بل من المستحيل ترجمته حرفيا إلى لغة أخرى، كما أن حرص المسلمين على نقاء قرآنهم من التحريف جعلهم يحرمون تلاوته بغير العربية، ومما ساهم في بقائه على لغته الأصلية تلك النصوص النبوية التي تبشر من يقرأ القرآن بالحصول على أجر عظيم مقابل الحرف الواحد، ونصوص أخرى تبشر بأجر لمن استمع، ونصوص من القرآن تبشر بالرحمة لمن يستمع للقرآن وينصت له بخشوع، و.. و..

كل ذلك جعل أي مسلم مهما كانت لغته يحرص، ويحتاج إلى حفظ بعض الآيات أوالسور من أجل أداء الصلوات الخمس يوميا، والمدهش والمعجز هنا ليس فقط في بقاء القرآن حتى اليوم بهذه اللغة، أو المحافظة على النص كما هو منذ نزوله، أو في إعجازه البلاغي لفظا ومعنى، بل في قدرته على صهر من يعتنقه وإعادة تشكيله من العمق، ليس في جانب العقيدة والتصور والسلوك وحسب، بل في شيء خارجي لا علاقة له بذلك.. شيء لا يفعله المرء إلا بدافع الوله والعشق العاطفي أو المحرض العلمي، وهو شيء لا أعلم أحداً تنبه له من قبل، ألا وهو:

معجزة القرآن في تبديل اللغات

ولإدراك ضخامة الإنجاز والإعجاز القرآني في هذا المجال، دعونا نتأمل مساحات جغرافية كان العربي قبل نزول القرآن يعتبرها أحلاما.. أمنيات وأحاديث يحلو ترددها والتأوه أملا بقضاء أمسية بين أنهارها.. كان العربي قبل نزول القرآن يسافر إليها بحثا عن الجديد والمتحضر والمدهش، ثم يعود لينسج الأساطير والحكايات عنها، أو يذهب محملا بقصائد الولاء كي يحصل على الهبات من ذلك البلاط أو ذاك.

جاء القرآن وأرض مصر ذات خمسة آلاف عام من حضارة ليست عربية، وشمال أفريقيا بربريا، والسودان والحبشة ليست عربية، جاء القرآن ومعظم الشام لم يكن عربيا، كان رومانيا، العراق في جزء كبير منه كان فارسياً.. (أيبيريا) إسبانيا لم تكن عربية أيضا.

النص القرآني فقط، لا التوراة ولا الإنجيل فعل ذلك، مع أن الجميع نزل في المنطقة نفسها، القرآن فقط هو النص الوحيد في الدنيا، الذي حول تلك المساحات وفي أقل من قرن إلى بلاد تتحدث بلغته (العربية)، تاريخيا وعلميا لا يمكن لأمة من الأمم التخلي عن لغتها مهما كانت الظروف، ولا يمكن إرغامها على ترك لغتها، إلا في حالة واحدة هي تصفية كبار السن وأخذ الصغار إلى موطن آخر، وحتى ذلك لم ينجح بشهادة التاريخ، بل إنه يعمق الجراح والحنين إلى الماضي ولغته، ولدينا الشيشان واليهود أمثلة حية.

أما التهجير الجماعي فيزيد الإحساس بالانتماء والتعصب للغة والقومية، كما فعل ستالين بالشعب الشيشاني الذي عاد أكثر تمردا وأقسى مقاومة للهيمنة الروسية، وكما حدث لليهود مع نبوخذ نصر في سبي بابل وشيشنك والرومان وغيرهم، أما التطهير العرقي والتصفية الجسدية كما فعل المسيحيون التعصبون بالمسلمين في الأندلس، فلا يعني تحولا عن اللغة، إنه إحلال شعب مكان آخر، بالقتل والتصفية من الباب إلى الباب.

ما أتحدث عنه لا ينتمي للتطهير العرقي ولا للتهجير. إنه شيء خارق للغاية ولم يحدث من قبل، أن تتخلى الأمم عن لغتها من أجل لغة كتاب كان بإمكانها اعتناقه والإيمان به مع الحرية الكاملة بالاحتفاظ بلغتها. ما الذي يجعلها تتخلى عن لغتها هكذا، مع أنه لا يوجد نص في القرآن أو السنة يوجب أو يحبذ تغيير اللغة؟ بل إن اختلاف اللغات وتنوعاتها من آيات القرآن ومسلماته: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ الروم ٢٢)

لا شك أن ما دعا تلك الأمم إلى التخلي عن لغتها شيء زائد على الإيمان، شيء زائد على الاقتناع، شيء في القرآن نفسه، لا يمكن تفسيره إلا بكونه معجزا وغير بشري، لقد عرفت الأمم التوراة والإنجيل، وهي كتب سماوية، لكن هذه الأمم صهرت لغة الكتابين إلى لغاتها، أي أنها قامت بالاستغناء عن النص الأصل واكتفت بالترجمة ـ التفسير، وحتى لو أعيدت كتابته بلغته الأصل، فإنه يعود كترجمة تفسيرية أخرى لترجمات عديدة متتابعة، وليس استعادة للنص الأصلي، أي أنه لن يعود كما كان.

الأمم لم تعرف روائع الأدب والفلسفة إلا بعد ترجمتها، أما القرآن فشيء خارق ومذهل، حيث لا تزال الأمم تقرأه بلغته العربية الأصلية، حتى وإن كانت لا تعرف معناه، بل إن الإنسان ليدهشه ما يجري في مسابقات حفظ القرآن الكريم لا سيما عندما يفوز شاب غير عربي بتلك المسابقة، مع أنه لا يجيد التحدث بها، وهو أمر لا يمكن لكتاب بشري إنجازه، إنه كتاب يمارس التغيير والخلق من الداخل، يمارس إعادة تشكيل الإنسان – اعتقادا وتصورا وسلوكا – من جديد، كتاب يحتوي على

أكثر من المعلومات والأوامر والنواهي، كتاب يحمل أشياء معجزة هي التي أعادت تشكيل العقل العربي ثم أطلقته للدنيا، وليست تلك المنظومات التي ساقها الجابري سوى تداعيات لها، أشياء معجزة لا تقاوم. والإعجاز الذي أعنيه ليس نوعا احتفائيا عاطفيا كما يفهم أركون، بل كان إعجازا منتجا للإبداع والخلق على غير مثال سابق، الإعجاز في القرآن أعاد خلق العقل العربي وغير العربي، ليكون عقلا قرآنيا، فلم تعد العروبة في القرآن سوى سلالات بيولوجية لا أكثر. القرآن وظف تلك الانتماءات والسلالات إلى أكثر وأبعد بكثير من التأمل في أعطافها وأجدادها، حولها إلى إسلام يغير العالم بسرعة مذهلة، مبتدئا من الأعماق والداخل فكرا وسلوكا وانتماءا، لا من الخارج احتلالا وإبادة وتسلطا.

القرآن حول تلك البلاد المفتوحة إلى بلاد تعيد إنتاج الفتح بالقرآن من جديد. على المستوى السياسي والعسكري لم يعد القادة من قريش أو الأوس والخزرج فقط، بل جعل من الكرد والترك والبربر والأقباط فاتحين جدد. على مستوى الثقافة لم يعد المحدثون والمفسرون والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأدباء من العرب فقط، نافسهم غير العرب وبزوهم في تخصصاتهم، لدرجة وصلوا معها بالقرآن إلى آفاق مذهلة.

كان التابعي عطاء بن أبي رباح أعورا أسودا أشلاً أعرجاً لكنه بالقرآن بلغ منزلة يذل أمامها الخليفة سليمان بن عبد الملك وأبنائه، مع أن عطاء ليس مستشارا ولا وزيرا ولاراهبا، إنه مجرد عالم فقير لا أكثر.

يقول أبو إسحاق الحربي: (كان عطاء بن أبي رباح عبدا أسودا لإمرأة من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاء، وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه يصلي، فلما صلى انتقل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما. فقال: يا بني لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود – تاريخ دمشق ٤٠ – ٣٧٥)

هذه الثورة الكبرى التي أحدثها القرآن في الإنسان والعالم، ما كانت لتكون لو لم يحتفظ القرآن بلغته الأصلية ونقائه، وبالتالي إعجازه، فالتوراة أبيدت عدة مرات وبالتالي سحقت كنص معجز، والإنجيل كذلك. لذلك لم يقدم الكتاب المقدس أي إضافة تذكر للثقافة والسياسة والاقتصاد، بل إنهما تاريخيا لم يضيفا أية إضافة حضارية، بل على العكس، ساهما في انتشار الجهل والعتمة عندما اعتنقته السلطة، وساهما في رفع وتيرة القمع والجهل، كما حدث خلال العصور الوسطى إبان نشاط محاكم التفتيش، وهو ما يخجل المنصفون أمثال الجابري من ذكره، ويخيف المتطرفين المأزومين أمثال أركون وأدونيس وأبو زيد من التطرق له، لأنهم سيتطرقون إلى مكون هام من مكونات تراث البلاد التي تحتضنهم وتدعمهم، كما دعمت هولندا أخيرا تلك المرأة الصومالية التي قدمت شتم القرآن والإسلام ثمنا للحصول على الجنسية، فأعطيت الجنسية بطريقة مزورة ومعها عضوية بلدية وفلم من إخراج (فان خوخ الحفيد)، وبعد أن دفع خوخ حياته ثمنا لتهوره وتورطه

في فلم قذر حاول به تلويث الإسلام، أحس الهولنديون بأن تلك الصومالية الغبية لا تستحق أن يكون خوخ ثمنا لشهرتها وحضانتها، ففتحوا ملفاتها، وأسقطوا جنسيتها، وهي الآن مهددة بالطرد من هولندا التي لم تنته من باقي أحذيتها. هؤلاء العلمانيون يدركون أن ثمن التطرق للكتاب المقدس فادح جداً وهم لا يستطيعون دفعه.

أما الفضيحة العلمية للعلمانيين العرب، فهي أنهم يدعون العيش داخل ثقافة علمانية لا دينية، في الوقت الذي يغلقون فيه آذانهم وعقولهم وأعينهم، عن أن تلك الثقافة أنتجت علماء تجريبيين منصفين، مارسوا قراءة علمية رصينة وموثقة لكتابهم المقدس، وحكموا بالنتيجة نفسها غيابيا على النص القرآني، فلما أتيح لبعضهم دراسة القرآن دراسة علمية جادة خرجوا بنتيجة معاكسة لتلك الأحكام الغيابية التي أطلقوها سابقا، والتي التقطها أركون وأمثاله من الطرقات التقاطاً، واجتروها ورددوها في غياب شبه كامل للوعي العلمي الموضوعي والثقافي المتحضر.

القراءة التي مارسها العلماني الغربي مع القرآن

أولا لابد من التفريق بين العلمانيين الغربيين الذين تناولوا القرآن، كما أنه لا بد من التمييز أيضا بين القراءات التي تناولت القرآن. فلدينا نوعان من القراءات، ونوعان من العلمانيين:

- نوع جاد في قراءته للنص الإسلامي الأول، يتخلص أثناء قراءته من ماضيه وإيديلوجيته وعقد الماضي والموروث والتقليدي الذي يعيق موضوعية البحث وحياده، مما يؤثر سلبا على النتيجة، ومن أبرز هؤلاء الدارسين البروفسور كيث إل مور أستاذ علم الأجنة في جامعة تورنتو بكندا، والطبيب موريس بوكاي، والبرفسور مارشال جونسون من كلية جيفرسون الطبية بفيلادلفيا في الولايات المتحدة وغيرهم من العلماء، هذه النوعية العلمانية التجريبية هي التي أسقطت الكنيسة والكتاب المقدس والخرافة، ولم تخضع لتراثها لمجرد أنه تراثها.

- وعلماني غربي آخر ينطلق من الماضي، مثقلا بالثارات والحروب، محملا بالتاريخ والموروث، لم يستطع التخلص من ماضيه ولا من تراثه ولا من كنيسته، بل عمل جنديا مخلصا لها ولكتابه المقدس، رغم معرفته التامة بزيفها، وهي سمة كثير من المستشرقين، لعل أبرزهم المستشرق نولدكه، الذي رغم أنه يقول في كتاب (اللغات السامية): (جمعت التوراة بعد موسى بسبعمائة عام، استغرق تأليفها وجمعها زمنا متطاولاً جداً تعرضت حياله للزيادة والنقص، وإنه من العسير أن نجد جملة متكاملة في التوراة مما جاء عن موسى،لأن التوراة لم تدون في عهد موسى ولا في الجيل الذي تلاه) هذا الرجل الذي ينتقد كتابه المقدس نقدا علميا يتحول إلى مهرج عند الحديث عن القرآن، فيقول كلاما لا ينتمي للمنهج العلمي ولا حتى للمنطقي، فيقول: (إن سبب الوحي النازل على محمد هو ما كان ينتابه من داء الصرع)

ولدينا نوعان من القراءات:
- قراءة علمية تجريبية جادة ودقيقة لا يمكن التشكيك بنتائجها، وهي القراءة التي أسقطت النص المسيحي الأول – التوراة والإنجيل (الكتاب المقدس) وعرته أمام أوروبا، فتخلت أوروبا عنه كمنهج حياة ودليل سلوك، وما العلمانية الغربية إلا إفراز تلك القراءة، لأن النص المسيحي لم يتمكن من الصمود أمامها، فسرعان ما انهار ثم تلاشى لينحصر في عالم الروح والضمير، وبين جدران الكنائس فقط، وبالتالي أنفتح الأفق كله في وجه العلمانية، وقد قام الكثير من هؤلاء العلمانيين الحقيقيين باستخدام هذه القراءة في مواجهة النص القرآني بل والسنة النبوية، فخرجوا بنتائج أذهلت الدنيا، وسأقدم أمثلة لتلك القراءة عند الحديث عن القراءات والدراسات النقدية العلمية التي تناولت القرآن.
- قراءة أدبية مطاطة وغير منضبطة لا يمكن الوثوق بها، بل تندرج نتائجها تحت مفهوم (وجهات النظر) لا أكثر، وهي قراءات عاشت قبل النص المسيحي ومعه وبعده، ولم تستطع أن تزحزح النص الأول، بل استطاعت الكنيسة تطويعها أو الالتفاف عليها بل وتسخيرها مئات السنوات، كالقراءة التاريخية والفلسفية والسياسية والروحية والنفسية والاجتماعية والسلوكية للنص. يقول "جورج مينوا" في كتابه "الكنيسة والعلم- تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي- ص٩١١": (في هذا التاريخ لمواقف الكنيسة حيال العلم، سوف نحصر، رغم ذلك، على العلوم المسماة "دقيقة" وهي التي تخص البحث الأساسي، فننحي عمدا منا، مسألة العلاقات مع العلوم الإنسانية، التي لها مشاكل خاصة بها، ولا يزال الموضوع حتى الآن عرضة لجدل شديد، وهو ميراث مجابهات حادة خلال القرن الماضي مع العلموية scientisme من وجهة أخرى يظل بعض الأحقاد والضغائن وهي تتسبب بمهاترات انتقامية، فهناك مشكلة، هناك سوء تفاهم وذلك مصدر أكبر أذية للمعرفة) وكأني بجورج مينوا يشخص لنا عقليات كسنوك وأركون وأدونيس.
وقبل ذكر الأمثلة والأدلة على تلك التقسيمات حول الباحثين ومناهج بحثهم، وحتى – كما قلت – لا يأخذ الكتاب منحى تمجيديا وزاوية إيديلوجية، لا بد من ذكر أحد أهم مكونات العقل العربي، والذي يبقى مخبوءا في اللاوعي لدى المفكر العربي، وأقصد به النص الإسلامي الثاني وهو الأحاديث النبوية، أو ما يسمى بـ(السنة)، وهو مكون لا يقل خطور عن القرآن، كما أن الجهل به ضارب أطنابه في كتابات المفكرين العرب، وكل ما يكتبونه حول هذا الموضوع لا يكاد يلامس السطح.

السنة

حظيت السنة بهجوم همجي وغير مبرر من قبل الكثير من العلمانيين العرب، والمفارقة هنا أن ذلك الهجوم كشف عن جهلهم المروع بالسنة، وهو يتجاوز جهلهم بالقرآن بمراحل، وهذا يؤكد أن هذا الهجوم يتناسب طرديا مع حجم الجهل بالخصم، فهم لا يتعاملون إلا مع السطح منها، أما أعماقها ومناهج النقل والنقد فيها، والمختبرات العلمية التي مرت بها، فهم في غيبوبة تامة عنها، ليتحول نقدهم في النهاية إلى شتائم مشحونة بالعداء، ودراسات مأزومة بالنتائج الجاهزة، وسخرية مسفة ومنحطة لا يجرؤ عليها من يحترم قلمه وقراءه، أو عالم تجريبي توصل – بالعلم لا بالعاطفة – إلى نتائج دامغة ومفضية إلى تلك السخرية بمن يطالب باعتناق نصوص ظهرت قبل ألف عام.

الحديث النبوي تحت المجهر

الحديث النبوي أو السنة النبوية وحي آخر كالقرآن، أحرفه وصياغته نبوية، وهو يشمل توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأفعاله وتقريراته، والتي تمثل في جانب منها تفاصيل لمجملات، أو تخصيص لعموميات، أو تقييد لمطلقات وهكذا..، وهي أيضا إضافات وزيادات موحى بها في العبادات والأحكام والأخلاق والسلوكيات، وهو ما يعني أن لغة الحديث تهتم بالتفاصيل والفروع والاحتمالات في معانيها أقل بكثير من القرآن – حمال الأوجه. وقد كتب الحديث النبوي في عهد النبوة وبعده، وقد بقي مكتوبا باللغة الأم (العربية) ومازال، ليظل بمنأى عن مزالق ومخاطر الترجمة حتى اليوم، مما يعني الحفاظ على نقاء النص بدرجة كبيرة، ليتكفل المنهج النقدي بفرز ما تبقى من غبش قد يعلق بالنص، وهو أمر لم يتح للكتاب المقدس.

بعد ذلك تم ضخ مجموعة كبيرة من الأحاديث المكذوبة عبر مضخات إيديلوجية ومذهبية، بل وحتى اقتصادية وإقليمية وعنصرية عصبية وسياسية، بالإضافة إلى دوافع بريئة مسكونة بالحرص على الدين نفسه والتحذير من التهاون بعباداته وشعائره، والغريب أن الأحاديث السياسية المكذوبة نادرة جداً، إذا ما قورنت بأحاديث مكذوبة تتناول الطعام والشراب. هذا الضخ لتلك الأحاديث المكذوبة استدعى تفعيلا لمنهج طوره النقاد المسلمون، وهو منهج لم يتوفر لأي أمة قبل الأمة الإسلامية، ذلك هو منهج (الجرح والتعديل) والكامن أصلا في القرآن، ليتحول الحديث النبوي إلى علم ضخم ومتفرع ودقيق ومذهل، له علماؤه المتخصصون فيه. المدهش هنا أن علم والجرح والتعديل ونقد متون الحديث بدأ أثناء حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يبدأ بعد وفاته، وسرعان ما نشط وتفرع عن علوم أخرى بعد وفاته مباشرة، وهو أمر لم يتمتع به أي نص أو كتاب مقدس على الإطلاق، أما قواعد هذا العلم وضوابطه فقد تم وضعها أثناء حياة النبي صلى

الله عليه وسلم أيضاً، وأثناء نزول الوحي، وقد تم استخراجها من القرآن مباشرة ودون تكلف، وهذا يعني – ضمنا - إجماعاً على مصداقية النص القرآني وجعله منهجا نقديا للحديث النبوي. والمدقق في هذا العلم يرى أن تركيز المفكرين العرب كان مسلطاً على أربع فئات من علماء تداعيات النص القرآني هم: "علماء الفقه" و"علماء أصول الفقه" و"علماء العقائد والمذاهب الفكرية" و"الدعاة والمبشرون والوعاظ"

أما الفئة الأولى قبل هؤلاء جميعا فلا يعرفون عنها شيئا، ولا يعلمون عن علمها شيئا أيضا، وهم معذورون في ذلك، لأن هؤلاء العلماء لم يُعطو حقهم من الأضواء، لا في حياتهم ولا بعد وفاتهم، ولا حتى لدى المؤرخين، فالأضواء مسلطة على الآخرين، والحوارات تجري مع الآخرين، مع أن الآخرين (أصوليين وفقهاء ودعاة وعقائديين) هؤلاء العمالقة كانو هم الواجهة للفئة الأولى.. كانوا قمة الجبل المغمور الأصول.. تلك الأصول التي لم ينصفها، أو حتى يعرفها أحد من المفكرين العرب، فهم كالعادة مشغولون بما يرونه فقط، المفكر العربي لا يرى في جبل السنة سوى تلك القمة التي لا يريد الصعود إليها، فيهزأ بها، أما ما تحت القمة، وما تحت السطح من جذور وأعماق فهو أعجز من أن يغوص إليها، لذلك أوقع نفسه في مأزق جعل من دراساته ونقوده للسنة أضحوكة، بدل أن تكون أنموذجاً ورمزاً يحتذى كالغربي.

هذا المأزق هو جهله بمنهج الفئة الأولى والتي تعرف بـ(علماء الحديث والجرح والتعديل) وعلمهم العبقري الدقيق والنادرالذي لا تملكه أمة من الأمم، ولا يحتويه تراث أي أمة أخرى، وهو علم حي قابل للتطبيق وما زال يطبق حتى اليوم، ودقيق ومضن لدرجة أن معظم الفقهاء لا يجيدونه، بل إنه وعلى المستوى الإسلامي نفسه غير موجود عند فرق مثل الشيعة، ناهيك عن الباطنية كالنصيرية العلوية والدروز وحتى الصوفية، بل هو محط تندر وسخرية من تلك الفرق، فالشيعة يجعلونه من علوم العامة (أهل السنة)، ويرون في تطبيقه على مروياتهم حكماً عليها بالإعدام، وأما الصوفية فليسوا بحاجة إلى هذا العلم، ويرون أنه لا يليق إلا بالعامة أيضاً، فالخاصة – يعنون أنفسهم – يروون أحاديث فوق مستوى العامة، فالعامة (أهل الحديث والسنة) يشترطون لقبول مروياتهم وأحاديثهم شروطا مضنية، منها وجود الوثائق والتوثيق للرواة وشيوخهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما الخاصة (الصوفية) فيرون هذا المنهج العلمي لا يليق بهم، فأسانيدهم خاصة بهم، ولا يعرفها غيرهم، فهم يقولون: (حدثني قلبي عن ربي)، ولا يقتصرون على الرواية عن الرب فقط، هم يقولون أنهم يرونه ويحل بهم، بل يتحولون أحيانا إلى آلهة. فما هذا العلم الدقيق والصارم والذي من خلال منهجه تم نقل النص الثاني الإسلامي (السنة) ؟

علم يجهله العلمانيون

اكتفوا بشتمه واتهامه، كما فعل مسيلمة العصر محمد أركون في حديثه عن فرع من فروع السنة – السيرة النبوية – ، حيث تهور كعادته بإطلاق أحكامه الهستيرية

المتشنجة، والتي تكشف مرة أخرى جهله بالمنهج النقدي السلفي للسنة، وقد يستغرب القاريء ويتعاظم كلمة جهل في حق هذا المتهور، إلا أن السطور التالية وما فيها من تفاصيل موثقة ستبين أنه في السنة أجهل منه في القرآن، كما تكشف تعالم من تناولوا أركون بالدراسة من المعجبين به، وأن جهلهم يفوق جهل أركون لأنه جهل مركب.

علم السنة علم برعت فيه أمة الإسلام وتميزت به، كما برع الفراعنة في بناء الأهرام، وإن كان تحت دوافع لا إنسانية، حيث يتم إلغاء الإنسان من أجل الحجر، ويتم تسخير الحجر والإنسان من أجل فرد، ومع ذلك بهروا العالم بتشكيل الحجر. وكما برع اليونان وأبدعوا في الفلسفة والمنطق، وتألقوا حقا في استخدام العقل في حالة غياب الوحي والحقيقة.

في الحالة العربية كان الوضع خارج الزمن والإنجاز، الأمة العربية أمة إنشاء لا يتجاوز حدودها، أمة شعر وبلاغة شفوية تنطلق من اللسان العربي إلى الأذن العربية فقط، أمة لا تبهر غيرها ولا تدهشه، ولا تكتب بلاغتها ولا تتواصل ثقافيا مع من حولها، ولذلك بقيت آلاف السنوات في طي النسيان.

النص الإسلامي أخذها إلى أبعد من الأذن العربية، وتجاوز بها الجزيرة العربية، أخذها إلى خارج النسيان، نفث النص القرآني الروح في العربية فتحولت العربية إلى حياة. كان للنص أدلته وبراهينه وإعجازه وجاذبيته الساحرة والمذهلة، والتي لا يستطيع أحد مقاومتها، ذاب غير العربي في فكر النص القرآني فوصل التماهي إلى أن ارتدى الجسد واستحال إلى عربي، تماهى القبط والرومان والفرس والأحباش والفينيق والبربر وغيرهم بالنص القرآني فاستحالوا عرباً. المفكر العربي لا يرى سوى الجسد، لأنه يشاهد.. لا يتأمل، لأنه يقلد.. لا يفكر، ولذلك يظن أن السر في الجسد فاعتنقه، اعتناق الجسد اليوم أعاد العربي إلى حقبة ما قبل الإسلام، حيث يتحول العربي إلى ظاهرة صوتية مبهمة وغير مفهومة، كتلة تتدحرج في مساحة من النسيان.

التركي اعتنق النص فأصبح المتحكم بالجسد، وكرر إنجازات العربي عندما تحرك بالنص، لكنه لم يستطع إذابة الآخر في جسده التركي، اعتنق النص دون الجسد، فظل في حركة إبداعية متدفقة للنص – المعنى لا المبنى. وانتهى الدور التركي ليقلص في مساحة تضيق على النص، لينعتق النص حرا من جديد بانتظار جسد آخر جديد يشرق من خلاله. ليعود السؤال من جديد: كيف بقي النص النبوي لفظا نقيا طيلة هذه القرون ؟ كيف بقي شعلة خالدة لا تنطفيء؟ والإجابة لدى:

علم النقل والنقد

الذي ضمن للأمة لإسلامية أن تتفاعل مع كل الأمم دون أن تتعرض للفناء أو حتى الذوبان، علم جعل هذه الأمة مركز جذب هائل لكل من يقترب من مدارها، حتى في أشد ساعات ضعفها تظل مركز جذب مخيف، لدرجة لا يجرؤ أعداؤها على الدخول معها في مناظرة أو محاورة، علم افتقدته الأمم التي سبقتها فتحولت إلى مجرد نسب، علم حول العلماني الغربي إلى عاشق، وحول العلماني العربي إلى أضحوكة،

علم حول النص الإسلامي إلى جامعة تخرج الطبيب والجيلوجي والفلكي كما تخرج الفقيه والمفسر والمحدث، علم للجادين فقط لا لصائدي الجوائز والباحثين عن الشهرة، علم قد يمضي المتخصص فيه عمره دون أن يعرفه الناس.
علم تهاوت قوى كثيرة في مواجهته بعد قريش، مرورا بمشركي العرب ودولتي فارس والروم العظميين، ودول القبط والبربر والسند والهند وهجمات المغول والصليبيين، وانتهاءً بالغزو الاستعماري ومستشرقيه ثم الاحتلال الذي مازال يحاول حتى اليوم وييأس لا مثيل له. هذا العلم هو الذي حول حياة العلماني العربي إلى كابوس من الفشل المتواصل؟ فلنتتبعه منذ البداية، حيث كانت:
البداية من أجل النص.
عندما نزل النص الإسلامي تعامل معه المسلمون بطريقة فريدة للغاية، النص القرآني بالتحديد بدأ حفظا في السطور والصدور، وقد أنجز هذا العمل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم بحزم، حيث تمت كتابة كل حرف ينزل في خط متواز مع عملية استظهاره، مما جعل النص القرآني فريدا في نزوله وقراءته وكتابته واستمراره، كما أسلفت. أما على مستوى الوحي الآخر – السنة، وآلية نقلها ونقدها فيتجلى هذا العلم بشكل أكثر وضوحا وجلاءً. فنقل السنة ونقدها علمان مكنا المسلمين من الاحتفاظ بوثائقهم ونصوصهم نقية وجديدة، وقابلة للاختبار من جديد متى ما توفرت معايير علمية موضوعية، بل إن هذا العلم النقلي النقدي تعرض لاختبار صعب على يد المنهج التجريبي الحديث، وفي أزهى وأحدث عصوره، فنجح بشكل متميز ومدهش بل ومعجز، لذا لا بد من إلقاء بعض الضوء على هذا العلم بشكل مختصر ومبسط، نظرا لضخامة الموضوع وصعوبة احتوائه في فصل صغير، ولعل الله ييسر لي القيام بذلك مستقبلا.
ينقسم هذا العلم إلى قسمين: نقلي، ونقدي. ولا بد لكل دارس وناقد للتاريخ والعقل، و العقل السياسي والأخلاقي العربي من الانطلاق من هذين القسمين، وإلا فإن دراسته تتحول إلى مجرد تخمينات دون جدوى. لذا سأبدأ من أول عمل تاريخي عربي: تدوين السنة.

متى دونت السنة وكيف حفظت

ليس هذا هو موضوعنا، لكنه البداية ولابد من إضاءات حوله لأسباب هامة منها:
أن تدوين السنة هو الأب والأم لأي كتابة تاريخية تالية.
الأمة العربية لم تعرف تدوينا تاريخيا للأحداث على الإطلاق قبل تدوين السنة، فهو المثال والمحتذى والنموذج.
تدوين السنة لم يقتصر على تدوين ألفاظ الحديث – الوحي بمعزل عن الأحداث، بل كان تدوينا للوحي ضمن سياقه التاريخي.
تدوين السنة كان تدوينا – في جزء منه – حولياً للتاريخ، وذلك لاشتماله على مواضيع ذات صبغة زمنية مثل: أسباب نزول الآيات، وتدرج نزول أحكام العبادات وبعض المعاملات، والناسخ والمنسوخ.

هناك جزء ضخم من السنة هو تاريخ محض، وهو الجزء المتعلق بالسيرة النبوية، حيث تواريخ الميلاد والهجرات والبيعات والمعاهدات والغزوات وقدوم الوفود وغيرها، وهي ثرية بالنصوص الدقيقة، والهامة جداً في المجال السياسي خاصة، بل وفي تشكيل العقل السياسي، وهذا الجزء هو ما فضح أمية أركون وتهوره وتلاعبه وادعائه نقد التراث.

هذا ما يتعلق بالجانب النقلي، أما في الجانب النقدي للسنة، فالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم هما أول من وضع معايير النقد لنقل الأخبار وشروط قبولها وتداولها.

بدأ النقد العملي للسنة مع نزول القرآن، حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم أهم الأسس في نقد سنتة، عبر تحذيرات من الكذب في النقل عنه، مما جعل النقاد يضعون للصدق معايير تمكنهم من كشف المزيفين والكذابين.

كما أن أوامر صارمة أخرى منه عليه السلام صدرت بعدم التساهل عند نقل السنة، وذلك بعزلها تماما عن أي تفسير لها من قبل الناقل.

الصحابة قاموا بنقد السنة، وتشددوا لدرجة قاسية في التثبت في النقل من بعضهم مع البعض، ليس خوفا من الكذب بل خوفا من الخطأ.

التابعون وتابعوا التابعين مارسوا دورهم في نقد مرويات السنة بشكل احترافي مدهش.

التالون لهم بدأوا باشتقاق ألفاظ النقد واختراع مصطلحاته فقط، لينهض علم الأمة الإسلامية الجديد والعملاق .. العلم المنهجي الدقيق المعروف بـ(الجرح والتعديل)

انطلاقا من ذلك لا بد من مراجعة لتدوين السنة ونقدها كما هي، وكما أنجزها علماؤها، بعيدا عن تلك التهم الجاهزة والقبلية، والأحكام الإيدلوجية المعدة سلفاً، دون أن تخضع لأي معيار موضوعي كما يردد خصومها. ولكن قبل البدء لا بد من ذكر نقطتين مفصليتين:

– تختلف السنة عن القرآن بأن القرآن نص محدد وقصير بالنسبة للسنة، أنزل بألفاظ محددة.. هو كلام الله وليس للبشر أي تدخل فيه، لذلك كان من السهولة تدوينه وحفظه.

– من المستحيل تدوين السنة كلها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنها ليست نصا لفظيا منزلا، وليست كذلك أقوالا وخطباً فقط. السنة مجموعة من الأقوال والأفعال والممارسات والمشاهدات والتقريرات النبوية، مارسها النبي صلى الله عليه وسلم طوال فترة الوحي (٢٣) عاما، ولذلك لا يمكن تصور تسجيل مثل هذه الأمور الضخمة، والتي تحتاج إلى فرق عمل متخصصة ومفرغة تماما لهذه المهمة.. فرق متخصصة في متابعة كلمات النبي صلى الله عليه وسلم، وأخرى تتابع حركاته. كما أن هناك من الأمور الخاصة به ما لا يمكن رصدها إلا من خلال زوجاته وبناته، وهناك أمور لم يطلع عليها سوى فرد أو فردان، ولهذا تم تسجيل بعض السنة في حياته صلى الله عليه وسلم، ثم جاء تدوين الباقي تباعا، وبهذا يتم فهم النقص الذي يعتري تلك المقولات، والدعاوى التي يرددها العلمانيون وبعض

المستشرقين حول تأخر عملية تدوين السنة، لأنهم ينطلقون من نظرية لاعقلانية في تناولهم لتدوين السنة.
وهنا ترد الأسئلة الخطيرة، والتي تحتاج إلى إجابات موثقة، وليس إلى إجابات منتقاة ومحتقنة، كالتي يرميها أركون مقلدا فيها أساتذته المستشرقين المتعصبين والمشككين:
إذا كان جزء من السنة قد تم تدوينه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فمتى تم تدوين الباقي؟
ما الآلية التي يتم بها فرز السنة الصحيحة عن المزيفة؟ والنص الحقيقي عن الأسطوري والخرافي؟ وما مدى معقوليتها؟ وهل هي معايير منضبطة وصادقة علميا وموضوعية، بحيث يستطيع أي إنسان مهما كانت ديانته – حتى ولو كان معاديا – التوصل بها إلى تمييز النص الصحيح من المزيف، وفرز الحقيقي من الأسطوري؟ أم هي معايير صوفية وباطنية هرمسية تنتمي للحدس والكشف والذوق والماورائيات؟

بدء التدوين

كما أسلفت بدأ تدوين السنة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، يقول أبو هريرة: (ما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد أكثر حديثا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب – صحيح البخاري ١ – ٥٤) واستمر التدوين دون توقف حتى جاء عصر التابعين، وهو عصر التأليف كما فعل الأئمة: عروة والزهري، وأبو حنيفة ومالك وابن إسحاق وغيرهم.
وعصر التأليف، هو عصر جمع السنة في مؤلفات، إما لموضوع واحد.. مقسمة ومبوبة تطورت وازدادت مع الزمن دقة وتقسيما وتخصصا، فهناك من ألف مرويات تتخصص في موضوع واحد كالسيرة، وهناك من رتب مروياته حسب اسم الصحابي مرتباً تلك الأسماء حسب حروف المعجم، وهناك من ألف حسب أسماء شيوخه، وهناك من ألف حسب الممارسات التعبدية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والعقائدية وهكذا، وبعد أن تم استقصاء معظم السنة حدثت نقلة نوعية في مرحلة التأليف، هذه النقلة أبدعها الإمام الفذ محمد بن إسماعيل (البخاري) رحمه الله، حيث قام بجهد علمي خارق لفرز بعض الصحيح من السنة في مؤلف واحد سماه (الجامع الصحيح)، ثم سار على منواله، وبأسلوب مشابه تلميذه مسلم بن الحجاج فألف كتابه العظيم (المسند الصحيح)، وقد احتل الكتابان الصدارة في هذا المجال، ثم حاول بعض العلماء القيام بعمل مماثل كابن خزيمة وابن حبان والحاكم، لكنهم لم يصلوا في النتائج إلى الدقة نفسها حسب التسلسل الذي ذكرت.
كل هذا تم في حركة علمية ضخمة كانت تعج بها المساجد والمكتبات والمنازل.. خاصة منازل العلماء، وكل هذا يعرفه المستشرق وقد يعرفه العلماني العربي.لكن ذلك يظل لا قيمة له دون معرفة علم (الجرح والتعديل)، لأن ما مضى كان مجرد نقل للنص السني فقط، والنقل بالنسبة لهذا العلم يعني المرحلة الأولى: الجمع فقط،

وهو عملية تهتم بالتدوين والذاكرة، الذاكرة نقل للشيء.. أي شيء.. بدءا من الحقيقة وانتهاء بالأسطورة، وهو عمل مشكور وفذ على مستوى العالم، نظرا لحجم وكمية المرويات ودقتها، والتي لم تتوفر – حتى على مستوى النقل – لأي أمة أخرى، لكنه مع هذا غير كاف على الإطلاق، لذا قام علماء الجرح والتعديل بالخطوة الأخطر، وهي:

الخطوة النقدية: والتي بها تتم الممايزة بين الحقيقة والأسطورة، وفرز الثابت من المزيف، والصادق من الكاذب. وهنا يسأل العالم كله، وقبله النقاد الجادون – لا المأزومون المتآمرون كأركون ومعلميه الكبار في الهراء – سؤالهم الضخم.. سؤالهم المزلزل الذي يكشف حقيقة ما حدث:

هل يمكن لأمة أمية وثنية متخلفة، تعيش قبل ١٤٠٠ عام على السلب والنهب، والأخذ بالثأر ووأد البنات وعبادة الأخشاب والطعام، والتقاتل والتناحر والتفاخر والأمية، أن تؤسس لمنهج نقدي علمي وموضوعي مقبول وقادر على تلك الممايزة بدقة، وفي وقت قياسي جدا، ودون احتكاك بأمة أخرى ثقافيا؟

هل من الممكن لأمة تقول أن الشنفرى كان يركض لعدة أيام دون توقف، وأن عنترة بن شداد بارز لمدة ثلاثة أيام دون توقف، وأن البومة تجلب الخراب، وأن شهر صفر شهر شؤم، وأن العدوى شبح يتنقل حسب مزاجه بين شخص وآخر..

هل من الممكن لأمة بهذه المواصفات أن تنتج علما نقديا، وهي التي لم تؤلف كتابا، أو تبني مدرسة؟ بالتأكيد: لا. بل من المستحيل ذلك.. بل من الخرافي وغير المعقول ذلك، إلا في حالتين:

الأولى: أن يتم ذلك بعد قرون وقرون من الاحتكاك بأمة برعت قبلها بمنهج مماثل وسابق عليه، وهو ما لم يحدث للأمة العربية على الإطلاق.

الثانية: أن تحدث معجزة تُحدث داخل هذه الأمة انقلابا جذريا يغير أعماقها، ويعيد تشكيلها وتصوراتها للكون والحياة، ويعيد ترتيب أولوياتها وتفكيرها، وإعادتها إلى ورشة الحياة، لا يمكن أن تنجز هذه الأمة هذا العلم إلا إذا كانت مدفوعة بشيء استثنائي وخارق للعادة.

مناخ نشأة هذا العلم

لا يمكن أن ينشأ هذا العلم في محيط خارج العالم الإسلامي إطلاقا، لأنه يحتاج إلى قاعدة عقائدية وأخلاقية وثقافية صارمة، ولا يمكن تكوين تلك القاعدة بمجرد الاتفاق والتواضع عليها بين أفراد الأمة الواحدة، ولا من خلال إصدار مرسوم حكومي، مهما بلغت شدة الرقابة على تنفيذه، فنحن نرى كثيرا من الأمور التي اتفق عليها بين أهل الأرض جميعا تنتهك وتتحول إلى هباء، لأن ذلك الاتفاق مجرد التزام مدفوع من الخارج، لدرجة ترى معها المتصدرين لتلك الأمور والمصدرين لها هم أول من ينتهكها ويستبيحها.

يعتبر القرآن هو المؤسس لهذا المنهج والباني لقاعدته العلمية والعقدية والأخلاقية والثقافية، نشأ هذا العلم ساعة نزول القرآن، وقد تولى النبي صلى الله عليه وسلم مواصلة بنائه، فمراجعة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن كاملا كل عام، وأوامره

بتدوين القرآن، وعدم اعتماده على فرد أو فردين أو عشرة أو حتى عشرين أو ثلاثين في كتابته، كل ذلك يعني مولد علم خاص بهذه الأمة وحدها، والآيات التي نزلت على النبي عليه السلام هي أصلب ما في تلك القاعدة الصلبة والصارمة.. آيات أحدثت انقلابا في كل شيء، حيث أعاد الإسلام بناء أتباعه في عملية نقية من الداخل والخارج، ورغم تقاطع الإسلام مع النصرانية واليهودية في بعض القضايا، إلا أنه كان إعادة للنص الإلهي النقي، لا النص التراكمي الذي أنتجته عوامل بشرية وتاريخية شتى خلال القرون المتتابعة، فالإسلام يتجاهل تماما أي نص متداول لدى أصحاب الديانتين، نظرا لاختلاط تلك النصوص بغيرها إلى درجة التماهي، والتجاهل لا يعني إلغاء حق الآخر في اعتناق النص الذي يريد، بل يعني أن تلك النصوص تمثل تراثا إنسانيا مغايرا للنص السماوي ومناقضا له، وإن تقاطع معه، وحتى تتضح تلك القاعدة الصارمة في نقل النصوص، لابد من الإنصات إلى هذه الآيات التي تمثل جزءا من عملية التأسيس تلك.

الآيات المؤسسة لهذا العلم

يقول الله في القرآن: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم)

(قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

(إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)

(انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا)

(إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)

ويصف الذين يكذبون في نقل النصوص بأنهم ينحازون إلى الشيطان ويأتمرون بأمره، يقول القرآن: (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)

وآيات أخرى صارمة يُعتبر الإيمان بها وتلاوتها أكثر من عشر مرات في اليوم والليلة، جزءا لا يتجزأ من النسيج العقدي والسلوكي لدى المسلم، والتداول لها يجعل منها منبهات تقرع حس معتنقها يوميا، تشعره بالمسافة التي قطعها بعيدا عن، أو نحو روح تلك النصوص ومقتضياتها، وهذا ما شد كل مراقب لحياة المسلمين، وما شد الكثيرين إلى الإسلام، حيث يلاحظ مدى شعور المسلم المنحرف بالتقصير، واعترافه ببعد المسافة بين موقعه الآن، وبين ما ينبغي أن يكون عليه، وإلقائه بالتهم على نفسه، بدلا من وضع اللوم على النص كما يفعله المسيحي مع

نصه المسيحي – مثلا، وحتى لدى أولئك المسلمين الملتزمين بالنص لدرجة كبيرة، تجدهم أكثر الناس شعورا بالحاجة إلى المزيد والاعتراف بالتقصير، بعكس الشعور لدى معتنقي الديانات الأخرى الملتصقين بالنص، تجدهم يدعون – عمليا لا علميا – أكذوبة التماهي لا بالنص بل بالإله، لدرجة تخصيص غرف لهم يستمعون فيها إلى اعترافات يومية للتائبين، ويحددون على إثرها مدى استحقاق المعترف لمغفرة القس – لا الله – بصفة القس نائبا عن الله، ووسيطا بينهم وبينه، أما غير الملتزمين بالنص فيمارسون أشد أنواع النقد للنص والدين، ويحملونه أطنان التهم وأسباب التخلف، ويربطون وجود النهضة العلمية الحديثة بالتخلص من الكتاب المقدس.
خارج ذلك نجد الليبراليين العرب كأناس مبتوتي الصلة بالنصوص، بل ويمارسون عليها وصاية معاكسة، هؤلاء الليبرالون يقدمون أنفسهم بصورة كوميدية، أحدهم لا يجيد حتى قراءة النص، والثاني لا علاقة له بتطبيقات النص من صوم وصلاة، وآخر قرأ كل شيء إلا كتب الدين، ومع ذلك ودون أي علاقة بالنص يريد وبسذاجة أن يكون هو من يفهم النص ويفسره ويقدمه وينقده.. هذه الممارسة تورطهم في إشكاليات عديدة منها: لا هم الذين قدموا العلمانية بشكل صحيح. ولا هم الذين أسقطوا النص بالعلمانية، أو حتى حيدوه. ولا هم الذين أقنعوا الأمة بهم من خلال تقدمهم بفهم للنص. إنهم الحيرة في أقصى درجات توترها، فلا هم الذين اعتنقوا النص، ولا هم الذين اعتنقوا العلمانية.

التطبيق العملي لعلم الجرح والتعديل بعد النبوة

بدأ التطبيق العملي لهذا العلم فور وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث تم استخدام مبدأ التثبت والتحري والدقة في قبول أي نص، وكان أبرز من طبق هذا المنهج أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لا سيما عمر، الذي لم يتوان في التلويح بدرته الشهيرة في وجه كل من ينسب نصا للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان أكثر الناس تعرضا لهذه الدرة محدث الأمة وذاكرة الإسلام: عبد الرحمن بن صخر الدوسي الشهير بـ(أبي هريرة) ، كان عمر وغيره من الصحابة يستشعرون خطورة الحديث دون تثبت.
قال قبيصة بن ذؤيب: (جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها، فقال: مالك في كتاب الله تعالى شيء، وما علمت لك في سنة نبي الله صلى الله عليه وسلم شيئا، فارجعي حتى أسأل الناس. فسأل الناس. فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاها السدس. فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة. فأنفذه لها أبو بكر – سنن أبي داود ٣ – ١٢١)
وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب: (قلنا لعمر: مالك لا تحدث كما يحدث فلان وفلان؟ قال: إني أخشى أن أزيد أو أنقص، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار – تاريخ بغداد ٤ – ١٠٧)

وذات يوم سأل عبد الله بن الزبير والده فقال: (إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار – البخاري ١ – ٥٢)
سلمة بن الأكوع سمع الحديث أيضا فقال: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من يقل علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار – البخاري ١ – ٥٢)
ويقول التابعي علي بن ربيعة: (أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة، فقال المغيرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار – مسلم ١ – ١٠)
أنس بن مالك يشرح لتلاميذه سبب عدم الإكثار من روايته لأحاديث عن النبي عليه السلام فيقول: (إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار – مسلم ١ – ١٠)
وقد تجاوز عدد الصحابة الذين رووا هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين صحابيا، مما يعني تأسيسا عقائديا وفكريا وسلوكيا متميزا لدى المسلم تجاه التعاطي مع نصوص السنة، هذا التعاطي الذي عنى ضمنيا التخلي عن الكثير من النصوص الصحيحة احتياطا وورعا، مما يدل على الحرص الشديد على البعد عن الانتقائية في النقل، أو الاستكثار من النقل تحت أي مبرر، والتركيز الشديد على عامل التوثيق والتثبت لا غير، لأن المهمة هنا هي نقل موثق وذو مصداقية.
يقول البخاري في الأدب المفرد - ٣٦٨: (حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثني الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن مروان بن عثمان أن عبيد بن حنين أخبره عن أبي موسى قال: استأذنت على عمر فلم يؤذن لي ثلاثا، فأدبرت. فأرسل إلي فقال: يا عبد الله اشتد عليك أن تحتبس على بابي؟ اعلم أن الناس كذلك يشتد عليهم أن يحتبسوا على بابك. فقلت: بل استأذنت عليك ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، وكنا نؤمر بذلك. فقال ممن سمعت هذا؟ فقلت: سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: أسمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم نسمع؟ لئن لم تأتني على هذا ببينة لأجعلنك نكالا.. فخرجت حتى أتيت نفرا من الأنصار جلوسا في المسجد، فسألتهم؟ فقالوا: أو يشك في هذا أحد؟ فأخبرتهم ما قال عمر، فقالوا: لا يقوم معك إلا أصغرنا. فقام معي أبو سعيد الخدري أو أبو مسعود إلى عمر فقال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يريد سعد بن عبادة حتى أتاه فسلم فلم يؤذن له، ثم سلم الثانية ثم الثالثة فلم يؤذن له. فقال: قضينا ما علينا ثم رجع. فأدركه سعد فقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما سلمت من مرة إلا وأنا أسمع وأرد عليك، ولكن أحببت أن تكثر من السلام علي وعلى أهل بيتي. فقال أبو موسى: والله إن كنت لأمينا على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر: أجل، ولكن أحببت أن أستثبت)
عاش الصحابة حياتهم مسكونين بهذه العقيدة حتى في أشد الحالات حرجا، حتى في أشد الحالات ضرورة للكذب (الحرب) ، فأثناء المعركة التي قامت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، كان عمار بن ياسر يقاتل في صف علي، وكان عمرو

بن العاص يقاتل في صف معاوية، وفجأة سمع عمرو بن العاص خبرا مفزعاً. وذلك بعدما (قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تقتله الفئة الباغية. فقام عمرو بن العاص فزعا يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شانك؟ قال: قتل عمار. فقال معاوية: قد قتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتله الفئة الباغية.

فقال له معاوية: دحضت في بولك أو نحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه جاؤوا به حتى ألقوه بين رماحنا – مسند أحمد ٤ – ١٩٩)

عمرو بن العاص لم يلجأ إلى الكذب لتبرير قتل عمار، لقد تذكر النص الذي سمعه، فأسرع إلى تأديته كما تلقاه مهما كانت النتائج، أما معاوية فلم يكذب عمراً، ولم يشكك في روايته للحديث، أو يصف حامله بالخطأ، فالكذب على النبي صلى الله عليه وسلم خط أحمر لا يمكن لصحابي أن يتجاوزه، لذلك لجأ معاوية إلى تأويل النص، أما الكذب فلم يستطع تكذيبه، ولا الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم لتبرير موقفه.

لوكان معاوية يستحل الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم كما يزعم الطائفيون والجهلة بهذا العلم، لاخترع مقولة ونسبها للنبي عليه السلام، كي يبرر بها خروجه على علي بن أبي طالب.

هذا الموقف العظيم من معاوية وعمرو يجلي قدسية النص، وأهمية المصداقية والتوثيق له، رغم خطورة الوضع الذي يروى فيه ودقته وحساسيته.

وليس هناك أكثر وضوحا في التصور تجاه نقل السنة من القصة التالية، التي يرويها التابعي قتادة عن أنس بن مالك، حيث يقول: (بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبي دجانة، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعنا مناديا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. قال أنس: فما دخل علينا داخل، ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، فأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ: (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إلى قوله فهل أنتم منتهون) ... فقال رجل لقتادة طالبا مزيدا من التوثيق (سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم. وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم. وحدثني من لم يكذب، والله ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب – تفسير الطبري ٧ – ٣٧)

إن هؤلاء المغرمين بالخمرة التي تلعب برؤسهم وقت وصول خبر التحريم، لم يبادروا إلى تكذيب الخبر على الإطلاق، ذلك أنهم يدركون أن ذنب الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم يفوق بمراحل شرب الخمر.

التابعون يرتقون بالمنهج

فإذا انتقلنا للتابعين رأينا الدقة تزداد، والتشدد يتصاعد في قبول النص وفحص الرواة، حيث طبق النقاد منهجا صارما جدا في الرواية، نظرا لرحيل الرعيل الأول المستشعرين لخطورة التزوير على النبي عليه السلام، ونظرا لبروز بعض المذاهب التي تبيح لأتباعها الكذب لنصرة المذهب والإيديلوجيا. لذا بدأت أولى مراحل النقد بالبدء بفرز الرواة لتكون النتيجة مجموعة كبيرة من الكذابين، والضعفاء والمختلطين والمدلسين والثقات أيضا، وكان الفرز يطال الجميع مهما بلغ علمه أو علا شأنه ولو كان الخليفة نفسه.

فالإمام والناقد الكبير الزهري ينتفض في بلاط هشام بن عبد الملك، بل يسبه لأنه رماه بالكذب، في نقل النص، رغم أن الخوف جعل عالما آخر يكتفي بالاحتفاظ بمعلوماته لنفسه، فقد (دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال: له يا سليمان من الذي تولى كبره منهم؟ "أي من الذي أشاع حادث الإفك" فقال: عبد الله بن أبي بن سلول. فقال له: كذبت، هو علي بن أبي طالب. قال سليمان: أمير المؤمنين أعلم بما يقول.

فدخل ابن شهاب الزهري فقال: يا ابن شهاب، من الذي تولى كبره منهم؟ فقال له: عبد الله بن أبي. فقال له: كذبت، هو علي بن أبي طالب.

فقال الزهري له: أنا أكذب لا أبا لك! فوالله لو ناداني مناد من السماء: إن الله أحل الكذب ما كذبت – تاريخ مدينة دمشق ٥٥ – ٣٧١)

ويقول التابعي الكبير الثقة محمد بن سيرين: (لما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم جامع التحصيل - ٦٩) والمقصود بالفتنة، الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وليس كما قال المستشرق المتعصب "البروفيسور شاخت" أنها فتنة مقتل "الوليد بن يزيد" عام "١٢٦هـ" كما فند ذلك أستاذنا البروفيسور محمد مصطفى الأعظمي في رسالته النقدية الرائعة "دراسات في الحديث النبوي" والتي كانت في معظمها نقاشا علميا لتخاريف أساتذة أركون من المستشرقين المتعصبين. فمقتل الوليد لم يكن فتنة تذكر في التاريخ الإسلامي، كما أن الوليد يعتبر من أبهت الشخصيات في التاريخ الإسلامي، لكنها عادة المعلمين والكتاب الكبار كما يحلوا لمريدهم أركون أن يطلق عليهم، فهؤلاء يتمسكون بقشة علها تنقذهم من تيار وثائق السنة التي تجرفهم وتغرقهم.

ومما "يؤيد حجة د. الأعظمي" نصوص وجدتها لابن سيرين رحمه الله يحدد فيها الفتنة بفتنة علي ومعاوية ومنها قوله: (هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف، فما خف فيها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين – كتاب العلل ومعرفة الرجال ٣ - ١٨٢)

قال ابن سيرين عن (عبيدة السلماني قال: سمعت عليا: يقول اجتمع رأيي ورأي عمر في أمهات الأولاد أن لا يبعن، ثم رأيت بعد أن يبعن. قال عبيدة: فقلت له: رأيك ورأي عمر في الجماعة أحب إلي من رأيك وحدك في الفرقة، أو قال في الفتنة. فضحك علي - رضي الله عنه – الاستذكار ٧ - ٣٣١)

ونعود للتثبت، حيث يقول سليمان بن موسى: (لقيت ـ التابعي ـ طاوسا فقلت: حدثني فلان كيت وكيت قال: إن كان صاحبك ملياً فخذ عنه. والملي: يعني ثقة ضابطا متقنا يوثق بدينه ومعرفته، يعتمد عليه كما يعتمد الملي بالمال ثقة بذمته ـ مسلم ١ ـ ١٢) وقال السمعاني في أدب الاملاء ص ٥: (قال عتبة بن أبي حكيم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري، فجعل بن أبي فروة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الزهري: قاتلك الله يا بن أبي فروة، ما اجرأك على الله، ألا تسند حديثك؟ تحدثنا بأحاديث ليست لهم خطم ولا أزمة)

وكان هذا المنهج يزداد دقة وتشددا كلما تقدم الزمن، قال سعد بن إبراهيم: (لا يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الثقات. و معناه لا يقبل إلا من الثقات ـ صحيح مسلم ١ ـ ٢) وقال الناقد الكبير عبدالله بن المبارك: (بيننا وبين القوم القوائم. يعني الإسناد) فابن المبارك يجعل السند بالنسبة للحديث كالقوائم بالنسبة للإنسان والحيوان، دونها لا يستطيع الحركة. وفي إحدى تطبيقات ابن المبارك لهذا المنهج، يسأله إبراهيم بن عيسى الطالقاني عن حديث جميل المعنى فيقول: (يا أبا عبدالرحمن الحديث الذي جاء: إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك؟ فقال عبدالله: يا أبا إسحاق عمن هذا ؟ قلت له: هذا من حديث شهاب بن خراش.

فقال: ثقة، عمن؟ قلت: عن الحجاج بن دينار.

قال: ثقة، عمن ؟ قلت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن المبارك: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي، ولكن ليس في الصدقة اختلاف)

ويقصد ابن المبارك بـ(المفاوز) جمع مفازة، وهي الأرض القفر البعيدة عن العمارة وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها، أي أن في هذا السند حلقات مفقودة من الرواة، ومسافة شاسعة مجهولة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحجاج بن دينار، بحيث لا يمكن الجزم بصحة نسبة هذا الحديث للنبي صلى الله عليه وسلم اعتمادا على كون ابن دينار ثقة، فالعاطفيون والوثوقيون يرون أنه بما أنه ثقة فلا يمكن أن ينسب للنبي صلى الله عليه وسلم حديثا غير صحيح، بل إن تأكده من صحة هذا السند هو ما جعله ينسبه للنبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، لكن النقاد يرفضون الاعتماد على العاطفة والجهالة في نسبة أي نص نبوي، ويعتبر النقاد أن بيان مكانة الرواة الثوثيقية من الدين، وأن من الخيانة السكوت عن حالة أي راو إذا كان متهما أو غير ثقة.

قال أبو عقيل "صاحب بهية": (كنت جالسا عند القاسم بن عبيدالله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن تسأل عن شئ من أمر هذا الدين، فلا يوجد عندك منه علم ولا مخرج؟

فقال له القاسم: وعم ذاك ؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى ابن أبي بكر وعمر؟ فقال له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم، أو آخذ عن غير ثقة.

فسكت فما أجابه. وقال يحيى بن سعيد: سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكا وابن عيينة: عن الرجل لا يكون ثبتا في الحديث، فيأتيني الرجل فيسألني عنه؟ قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت؟

وسئل ابن عون عن حديث لـ"شهربن حوشب الشامي" وهو قائم على أسكفة الباب؟ فقال: إن "شهرا" نزَكُوه إن "شهرا" نزكوه، ومعنى نزكوه، أي طعنوا في روايات "شهر" وتكلموا بجرحه، فكأنه يقول طعنوه بالنيزك وهو رمح قصير؟

وكان النقاد يمايزون بين صلاح الرجل في عبادته، وصلاحيته في نقل الوثائق النبوية (السنة)

قال عبدالله بن المبارك: فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه "عباد بن كثير" أثنيت عليه في دينه وأقول: لا تأخذوا عنه.

وقال الفضل بن سهل: سألت "معلى الرازي" عن "محمد بن سعيد" الذي روى عنه "عباد"؟ فأخبرني عن عيسى بن يونس قال: كنت على بابه و"سفيان" عنده، فلما خرج سألته عنه؟ فأخبرني أنه كذاب.

وقال الناقد يحيى بن سعيد القطان: لم نر الصالحين في شئ أكذب منهم في الحديث.

قال الخليفة بن موسى: دخلت على "غالب بن عبيدالله" فجعل يملي علي: حدثني "مكحول".. حدثني "مكحول". فأخذه البول فقام، فنظرت في الكراسة، فإذا فيها: حدثني أبان عن أنس وأبان عن فلان فتركته وقمت.

وكان هؤلاء النقاد يفرقون بين الغيبة والجرح والتعديل، فالغيبة أحاديث مجالس يتشهى المرء فيها بذكر مثالب الناس وعيوبهم، أما الجرح والتعديل، فبيان للدرجة التوثيقية والنقدية للرواة، إنه أشبه بتمييز العملة المزيفة من القطع النقدية الأصلية، وكانوا لا يستثنون الآباء والأخوة والأبناء من نقدهم، فلا محاباة في نقد رواة السنة مهما كانوا.

قال عفان بن مسلم: كنا عند "إسماعيل بن علية" فحدث رجل عن رجل. فقلت: إن هذا ليس بثبت. فقال الرجل: اغتبته! قال إسماعيل: ما اغتابه، ولكنه حكم أنه ليس بثبت.

وقال زيد ابن أبي أنيسة: لا تأخذوا عن أخي.

ثم يعقب مسلم على تلك النقودات التي نقلت بعضها من مقدمته، مبينا أي نظرة موضوعية تلك التي يحملها نقاد الجرح والتعديل، عند تعاطيهم مع وثائق النص الإسلامي الثاني (السنة)، وعند تعاطيهم مع رواته ونقلته فيقول:

وإنما ألزموا أنفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الأخبار، وأفتوا بذلك حين سئلوا لما فيه من عظيم الخطر، إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي بتحليل أو تحريم أو أمر أو نهي أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته، كان آثما بفعله ذلك، غاشا لعوام المسلمين، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار التي يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من يضطر

إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع، ولا أحسب كثيرا ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة ويعتد بروايتها، بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف، إلا أن الذي يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثر بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث وألف من العدد، ومن ذهب في العلم هذا المذهب وسلك هذا الطريق فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلا أولى من أن ينسب إلى علم – انظر للمزيد مقدمة صحيح مسلم ١-١٢)

يكشف الإمام مسلم في ملخصه السابق عن النقلة التي أحدثها الإسلام في عملية التوثيق. إنها نقلة غير مسبوقة أن يعتبر النقل دينا بحد ذاته، وأن يكون الخبر مسيجا بالضوابط التي تتيح له الاحتفاظ بنقائه، وتضمن عدم تلوثه بالعواطف والمواقف، والدوافع الذاتية والمصالح الشخصية والمذهبية أثناء انتقاله عبر التاريخ. لم يعد الخبر قابلا للتسامح كالسابق عند الحديث عن المكان والزمان والأحداث التي تملأهما، لقد أدخل الإسلام توثيق الرواية تحت أحكام الدين الإسلامي الصارمة من أجل أن تحضى الأمة بمستوى من المصداقية يرتفع إلى مستوى النص وأهميته.

مسلم بن الحجاج يقول: (إذ الأخبار في أمر الدين إنما تأتي بتحليل أو تحريم، أو أمر أو نهي، أو ترغيب أو ترهيب، فإذا كان الراوي لها ليس بمعدن للصدق والأمانة، ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته كان آثما بفعله ذلك، غاشا لعوام المسلمين، إذ لا يؤمن على بعض من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها)

وفي قوله (غاشا لعوام المسلمين) ارتقاء بمفهوم العوام، والذي ظل التعامل معه بدونية ولا مبالاة حتى جاء الإسلام، فجعل العوام همه الذي يسبق همه بالخواص، وارتقاء بمفهوم النقل، لدرجة يتساوى فيه مجرد السكوت عن الناقل مهما كانت منزلته غشا وتزويرا.. مجرد السكوت عند هؤلاء النقاد خيانة للنص وللمتلقي.

الجهود المسكوت عنها والمجهولة حول هؤلاء النقاد

غريب حقا أن يتم تجاهل علم ألفت فيه مئات المجلدات، وبذل رجاله من الجهد والمال حداً أفنوا به أعمارهم وأموالهم، ليتحول بجهودهم إلى علم تجريبي لدرجة يتساوى فيها مع العلوم التجريبية الحديثة، لا مساحة فيه للتحيز العاطفي أو السلوكي، لا رصيد فيه ولا اعتبار للكرامات أو كثرة الصلاة أوالصيام أوالحج وسائر العبادات فقط. علم لا يؤخذ لأنه صدر عن شيخ فاضل، أو كاتب مشهور أو عابد زاهد، أو قاض منصف، أو حاكم عادل أو حتى متسلط، علم استدعى من علمائه رحلات بحث طويلة وشاقة ومضنية قام بها رجال أجزم أن العلماني العربي يقرأ أسماءهم لأول مرة، إلا من ارتبط اسمه بعلوم الواجهة، قاموا برحلات تتطامن أمامها رحلات المنقبين عن الآثار، والباحثين عن مناجم الذهب والألماس وآبار النفط، لدرجة يقول فيها أحد أبرز المتخصصين في هذا العلم وهو الناقد ابن أبي

حاتم الرازي عن رحلات أبيه محمد بن إدريس الرازي، أستاذه وأحد أساتذة علم الجرح والتعديل ومعرفة العلل والرجال المتوفي سنة ٢٧٧هـ: (سمعت أبي يقول: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين، أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ[الفرسخ مسافة بين خمس وثمان من الكيلو مترات] لم أزل أحصي حتى زاد على ألف فرسخ تركته.

أما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة.

ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة.

وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشيا. ومن مصر إلى الرملة ماشيا. ومن الرملة إلى بيت المقدس. ومن الرملة إلى عسقلان. ومن الرملة إلى طبرية. ومن طبرية إلى دمشق. ومن دمشق إلى حمص. ومن حمص إلى أنطاكية. ومن أنطاكية إلى طرسوس. ثم رجعت من طرسوس إلى حمص.

وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان فسمعت.

ثم خرجت من حمص إلى بيسان. ومن بيسان إلى الرقة. ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد.

وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط – الرحلة في طلب الحديث - ٢١٣)

لاحظ كلمته: (ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان فسمعت، ثم خرجت من حمص إلى بيسان) كان بإمكانه أن يعثر على أحاديث في قرطاس، أو مجلد منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم فيرويها، ويكفي نفسه عناء ومشقة السفر والتعب، لكنه سيغش الأمة، لأنه بذلك يرتكب عملا غير علمي بل ولا أخلاقي، لذا لا بد من الذهاب إلى المنبع للأخذ منه، والتأكد من المصدر.

ويقول العالم موسى بن داود: (أفلس "الهيثم بن جميل" في طلب الحديث مرتين، وكان من أهل بغداد تحول فنزل أنطاكية حتى مات بها – تهذيب الكمال ٣٠ – ٣٦٧)

كان هؤلاء العلماء يستسهلون المعاناة في سبيل بقاء النص الحديثي نقيا، غير منتظرين هبة أو ثمنا أو تشجيعا من حاكم، أو شهرة عند الناس، أو جاها، كما إنهم كانوا غير معروفين إلا عند الطبقة العلمية فقط، والتي تلوذ بهم عندما تستغلق عليها أبواب المرويات، بل إنهم يدركون ويعذرون استسهال البسطاء واستصغارهم لمجهوداتهم.

يقول ابن المقرئ: (مشيت بسبب نسخة "المفضل بن فضالة" سبعين مرحلة، ولو عرضت على بقال برغيف لم يأخذها – تاريخ الإسلام ١ – ٢٨٠٨)

كان هؤلاء النقاد يتكبدون مشاق تذهب فيها الأرواح، بلغ العطش بأحدهم أثناء رحلاته ومعاناته في طلب هذا العلم، أن شرب بوله عدة مرات في عدة رحلات.

يقول بكر بن محمد بن حمدان المروزي عن التعرض للعطش المميت مرارا في رحلة البحث عن وثائق الحديث: (سمعت عبد الرحمن بن يوسف بن خراش الحافظ

يقول: شربت بولي في هذا الشأن يعني الحديث خمس مرات – تاريخ بغداد ١٠ – ٢٨٠)
أحد الفقهاء يصف معانات رجال الحديث بالمرارة والخيبة إن لم تصف نياتهم وتخلص لله (كان "علي بن معبد" إذا رأى أصحاب الحديث يقول: شعثة رؤوسهم، دنسة ثيابهم، مغبرة وجوههم، إن لم يكن مع هذا ثواب، فهذا والله هو العقاب – شرف أصحاب الحديث ٦٠)
ومن أجل البحث عن حديث واحد يقول الحافظ والتابعي المعروف (سعيد بن المسيب: إن كنت لأرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد – تهذيب الكمال ١١ – ٧١)
وتحدث مؤلف كتاب تهذيب الكمال ٢٤ – ٤٣١ عن أحد علماء هذا الشأن وهو الإمام البخاري فقال: (البخاري الحافظ صاحب الصحيح إمام هذا الشأن، والمقتدى به فيه والمعول على كتابه بين أهل الإسلام، رحل في طلب الحديث إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبال ومدن العراق كلها، وبالحجاز والشام ومصر)

الجهل العلماني بعلماء الجرح والتعديل

يؤطر المفكر العربي كل علماء الإسلام في إطار نمطي واحد هو: شيخ ملتح متدروش، مسبل العينيين، بطيء الحركة والكلام، كثير الصلاة والذكر والهمهمة، يسند ما يحدث حوله إلى جبرية مطلقة لا حول له فيها ولا قوة، ويعتمد في قبول الأخبار على الثقة العمياء بمشايخه الذين لا يتسرب إلى نفسه شك فيما يقولون أو يفعلون، فهم مقدسون بالنسبة له، وهي نظرة فيها الكثير من السخف والفوقية المفتعلة، تشبه تماما تلك الصورة النمطية عن العربي في استوديوهات هوليود وعقول عرابيها.
هذه النظرة النمطية البليدة أصبحت غير قابلة للنقاش في عقل العلماني العربي، مما يعني أنه قد أصيب بما اتهم به خصومه (علماء الإسلام): التلقي الأعمى، وعدم إعادة النظر في مقولات السابقين ودرساتها ونقدها نقدا علميا، كما يعني أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون شيئا على الإطلاق عن أهم علماء الأمة، والذين لولاهم لما أصبح لغيرهم من العلماء دور يذكر.
فهؤلاء مجهولون بالنسبة للمفكرين العرب جميعا، وإن عرفوا بعضهم فمن خلال تفوقهم في مجال ثان، أو تخصص آخر، لا من خلال علم الجرح والتعديل، فهم يعرفون أحمد بن حنبل صاحب العقيدة، الذي جلد ونكل به لعشر سنوات على يد مثقفي التنوير العقلاني (المعتزلة)، وهم يعرفون ابن حنبل الفقيه إمام المذهب الفقهي واسع الانتشار، لكنهم لا يعرفون أحمد بن حنبل الناقد الكبير في علم الجرح والتعديل. يعرفون أن له كتابا ضخما في الحديث اسمه (المسند) لكن لا يعرفون شيئا عن دراساته ونقده في الرجال والعلل.

ما الذي لا يعرفه العلمانيون عن أهم علماء التراث؟

أكاد أجزم فأقول: (كل شيء) فهؤلاء العلماء يعتبرون شبه مجهولين لدى شريحة كبيرة من الإسلاميين أنفسهم، نظرا لبعدهم عن هذا العلم الدقيق وغير المشهور، فالفاعلون الكبار في الساحة هم الفقهاء والمفسرون والوعاظ والأصوليون، أما علماء الجرح والتعديل فمشغولون في ورشهم ومعاملهم العلمية لفحص السنة ومروياتها، بعيدا عن الأضواء والشهرة، مع أن كل من حظي بالأضواء لا يمكنه قفزهم في الحصول على وثائقه من السنة، إنهم جواز المرور لكل عالم يحترم علمه وتراثه.

علماء الجرح والتعديل معنيون بوثائق السنة ونصوصها، معنيون بفحص ناقلي تلك الوثائق ومتونها، غير مأخوذين بأقوال أولئك الرجال وفتاواهم والتهميش عليها وشرحها، إنهم كخبراء المجوهرات والأحجار لكريمة، وفارزوا العملات الأصلية من المزورة، لا يهمهم سوى شيء واحد، هل هذه العملة حقيقية أم مزيفة، وقد كرسوا حياتهم وجهدهم لهذه المهمة، ليس لنقل السنة فقط، بل لشيء أهم.. هو نقد السنة، وتمييز الصحيح الموثق من المزيف والمشكوك فيه منها. إذا التقوا بحافظ مشهور بحفظه ودقة وثائقه ومصداقيته يحتفلون بمقدمه، ويهشون للقائه وكأنه أحد الفاتحين، لكنهم مع ذلك كله لا يسلمون له من أجل سمعته التي سبقته، بل يخضعونه لاختبارات صعبة تكشف مستواه، وهل هو كما سمعوا عنه أم لا، فليس في قانون هؤلاء العلماء تقديس للرجال، ولا تصنيم لهم، ليس في قاموسهم مصطلحات كهنوتية أو تقديسية تمنعهم من إخضاع أصحابها لتلك الفحوصات الدقيقة.

فهذا الناقد والمحدث الكبير عبد الله بن المبارك يتحدث عن رجل صالح مشهور، كانت أمنيته أن لا يموت حتى يلتقيه، وبأي ثمن، لقد كان شوقه عارما وبلا حدود، لكنه بعد أن التقاه واختبره واكتشف مدى الاعتماد عليه في نقل السنة غيَّر حكمه، وأطلق كلمة قاسية ليست موجهة إلى شخصه ودينه، ولكنها موجهة بالتحديد إليه كوثيقة، مع بقاء رصيد ذلك الرجل من العبادة والتقوى. عبارة ابن المبارك تكشف عن عقلية أولئك النقاد، ورعبهم الشديد من كل ما قد يلوث السنة. يقول ابن المبارك: (لو خيرت بين أن أدخل الجنة وبين أن ألقى عبد الله بن محرر، لاخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة، فلما رأيته كانت بعرة أحب إلي منه – مسلم ١ – ٢٧) وهذا ما يجعلنا نطرح قضية خطيرة للغاية هي قضية:

النص والتعبد

أقصد بالتعبد هنا نوع من الممارسة للعبادة قد يشغل صاحبه عن العلم والعمل، وهذه الصورة هي الذاكرة النمطية التي تم تخزينها في رأس المفكر العربي، عندما يتحدث عمن نقلوا النص الإسلامي ونقدوه، وهي صورة مشوهة يلوكونها فتزداد تشوها، ولو كانوا يعيشون دراسة نقدية جادة للتراث، لأدركوا أن هذه الفئة المتفرغة للعبادة تأتي في المرتبة الثانية من ناحية الضعف بعد الفئة السلطوية.

هناك قائمة طويلة من الوعاظ والقصاصين والرواة، تتراوح درجات النقد الموجه لهم بين درجة كذاب ومغفل، رغم كثرة صلواتهم وصيامهم وقيامهم الليل، ورغم بكائهم الطويل من خشية الله وصفاء نفوسهم وسمو أرواحهم وترفعهم عن الملذات والشهوات المادية. كانوا رجالا تلتف حولهم المئات في المساجد، فلا تخرج تلك الجموع إلا وقد سالت الدموع على الخدود، كانوا زهادا فيما عند السلاطين والناس، كانوا زهادا في الحياة كلها، مسكونين بخوف الله ورجاء ورحمته، حتى الأحاديث التي رووها كانت أحاديث تحث على فعل الخير وترك الشر، كانت أحاديث في فضائل الذكر والعبادة والزهد والرقائق، وليس فيها ما يبرر لحاكم أو يزين لرجل أعمال أو عالم، ومع ذلك كله وضعهم نقاد الحديث ضمن القائمة السوداء، لا في سلوكهم وعبادتهم وصلاحهم وإخلاصهم، بل حسب المعايير العلمية التي يتم من خلالها فرز الأحاديث الضعيفة من الصحيحة، وليس أدل على ذلك من رفضهم لتلك الأحاديث مهما كانت جميلة ورائعة وثرية بالحكمة، والمضامين التربوية الرائعة، فليس المعيار في قبول الحديث معيارا ذوقيا يتعاطف مع الجميل وينفر من غيره. ما يهم النقاد شيء واحد لا أكثر ولا أقل.. شيء واحد فقط هو: (هل قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث، أم لم يقله؟)

القضية الكبرى لدى هؤلاء النقاد هي قضية توثيق النص وفحصه، واختبار الطريق الذي سلكه إلى العالم، وفي ذلك الطريق المليء بنقاط التفتيش النقدية، يتعثر الكثير من الوعاظ والقصاصين والفقهاء والمفكرين والخطباء والصالحين، ولعل من أشهر الوعاظ والقصاصين الذين تم استبعادهم وإيقافهم في تلك النقاط النقدية، رجال طالما حملهم الناس في صدورهم، ومجدوهم وجعلوهم مضرب المثل وهم كذلك، ومنهم:

يزيد الرقاشي

شيخ عابد وورع وصالح، طالما ناح على نفسه معتبرا إياها مقصرة في حق ربها، كان واعظا يؤثر في سلوك الناس وأخلاقهم، ومع ذلك يصنف عند نقاد الجرح والتعديل بأحط المنازل، مع الاحتفاظ بجلالة قدره من ناحية العبادة والصلاح. قال الناقد الأعمش: (أن يزيد الرقاشي كان ينوح على نفسه وهو يقول: يا يزيد إذا مت من يتصدق عنك، يا يزيد إذا مت من يصوم عنك، ثم يقول: وايزيداه – تهذيب الكمال ٣٢ – ٧١) وقال عبد الله بن عمر النميري: (سمعت يزيد الرقاشي - وتمنى قوم عنده أماني - فقال يزيد: أتمنى كما تمنيتم؟ قالوا: تمنه. فقال يزيد: ليتنا لم نخلق، وليتنا إذ خلقنا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نحاسب، وليتنا إن حوسبنا لم نعذب، وليتنا إن عذبنا لا نخلد – السابق)

كلمات تخلع القلوب لا يوجهها للعامة فقط، بل يتوجه بها للخلفاء لا ليُحذوه ويعطوه، أو يتزلف إليهم، أو حتى يفتي لهم فتوى يحبونها ويبررون بها أعمالهم، بل ليهز كيانهم ويشعرهم بخطورة المسئولية التي يحملونها أمام الله والناس. قال أبو القاسم المذكر: (دخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال له: عظني. فقال: لست أول خليفة يموت يا أمير المؤمنين. قال: زدني. قال: لم يبق أحد من

آبائك من لدن آدم إلى أن بلغت النوبة إليك الا وقد ذاق الموت. قال: زدني. قال: ليس بين الجنة والنار منزل، والله يقول: (إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم) وأنت أبصر ببرك وفجورك – تهذيب الكمال ٣٢ – ٦٧)
هذا الرجل العظيم لوكان في دين غير دين الإسلام لوصف بالقديس، ولحلفوا بقداسته، ولكانت الأرض من حول قبره مزارا يتبرك بها. أما في منهج رجال علم الحديث، فكل عمل أو موعظة قام بها يشكر عليها وتثمن له، وهو مدخر له عند الله سبحانه.
أما هو كمحدث، أما هو كموثق للحديث النبوي وناقل لنصوصه، فلا قيمة له إطلاقا، لدرجة يقول عنه شعبة بن الحجاج ناقد عصره والملقب بـ(أمير المؤمنين في الحديث): (لأن ... أحب الي من أن أحدث عن يزيد الرقاشي – تهذيب الكمال ٣٢ – ٧٦) وقال مرة: (لأن أقطع الطريق أحب إلي من أن أروي عن يزيد الرقاشي، وقال الناقد أبو حاتم: كان يزيد واعظا بكاء كثير الرواية عن أنس بما فيه نظر، صاحب عبادة – تهذيب الكمال ٣٢ – ٦٩)

راو آخر اسمه: معدي بن سليمان

كان المعاصرون له يعتبرونه من (الأبدال)، وهو مصطلح يعني أنه من طبقة تعتبر أفضل أهل زمانها عبادة وزهداً وصلاحاً قال الشاذكوني: كان "معدي" من أفضل الناس وكان يعد من الأبدال. هذا الرجل الذي لوكان في أمة غير الأمة الإسلامية لحوله أهلها إلى قديس، بحيث يرتب كلامه في منزلة الوحي، لنتأمل أقوال نقاد الجرح والتعديل فيه: (قال الناقد أبو زرعة: واهي الحديث يحدث عن ابن عجلان بمناكير. وقال النسائي: ضعيف. وقال ابن حبان: يروي المقلوبات عن الثقات والملزقات عن الأثبات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد – انظر تهذيب التهذيب ١٠ – ٢٠٦)

عبد الله بن محرر.

هذا الرجل العابد الزاهد الصائم القائم، الذي قال عنه العالم الناقد عبد الله بن المبارك: لو خيرت بين أن أدخل الجنة وبين أن ألقى عبد الله بن محرر لاخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة، ثم لقيه ابن المبارك واختبر أحاديثه، فقال: فلما رأيته كانت بعرة أحب إلي منه. وقال عنه ابن حبان وهو ناقد متسامح بالنسبة لغيره: (كان من خيار عباد الله، إلا أنه كان يكذب ولا يعلم، ويقلب الأسانيد ولا يفهم – تهذيب الكمال ١٦ – ٣٢.)
أما الحديث الذي أودى برواياته، وجعله ساقطا عند رجال الجرح والتعديل، فحديث لا علاقة له بالمذاهب ولا الطوائف، ولا السياسة، ولا المال، ولا أي شيء مما أزعجنا العلمانيون العرب بترديده حول وضع الحديث من أجل الدولة والسلطان والإيديلوجيا. الحديث الذي أسقط عبد الله بن محرر مروي في مصنف تلميذه عبد الرزاق الصنعاني ٤ – ٣٢٩، حيث يروي عن عبد الله بن محرر عن قتادة عن أنس قال: عق رسول الله عن نفسه بعد ما بعث بالنبوة. قال عبد الرزاق: إنما

تركوه بحال هذا الحديث. وهذا النص يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح عقيقة عن نفسه بعد البعثة.
لقد روى هذا الحديث.. ثم ماذا!! أمن أجل هذا الحديث يرمى بمروياته..؟ ما تأثير ذلك على الدين الإسلامي؟ وما الضير في قبول رواية ليس فيها واجب ولا محرم؟ بل فيها حكاية خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا يترتب عليها أمر أو نهي، إنما سنة فقط، فمن شاء عق عن ابنه ومن شاء لم يفعل؟ سؤال ضخم لا يستطيع أركون طرحه لأنه يفضحه، وهو ليس أهلا لأن يطرحه، بل توضع الأسئلة في فمه وضعاً، ثم إن المستشرقين المتعصبين الكبار لم يطرحوه، فلم يطرحه. كما أن هذا السؤال بالنسبة للسطحيين والعاطفيين والجهلة: لا شيء ولا ضير في تمريره والاعتراف به. أما بالنسبة لنقاد الجرح والتعديل فالأمر في غاية الغاية من الأهمية، وهو بالغ الخطورة، فالنصوص الحديثية ليست عواطف، وليست شعارات. إنها وثائق.. إنها دين، ومتى ما قبلت الكذبة الصغيرة فيه، فما المانع من قبول المتوسطة والكبيرة.
عابد آخر أكثر جرأة وشهرة وتأثيرا هو:

صالح المري

ومن من الزهاد لا يعرف هذا العابد الجريء، الذي يصدع بالحق ولا يخاف سوط الحاكم ولا يرجو عطاءه. استدعاه المهدى ذات يوم فقدم عليه، ولما أدخل عليه ودنا بحماره من بساط المهدى، أمر ابنيه وهما وليا العهد موسى وهارون فقال: (قوما فأنزلا عمكما. فلما انتهيا إليه أقبل صالح على نفسه فقال: يا صالح لقد خبت وخسرت إن كنت إنما عملت لهذا اليوم.. دخل على الخليفة المهدي فزلزل بلاطه بكلمات صادقة ومخلصة وجريئة. قال صالح المري للمهدي: يا أمير المؤمنين احمل لله ما أكلمك به اليوم، فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرث أخلاقه ويأتم بهديه، وقد ورثك الله من فهم العلم وإنارة الحجة ميراثا قطع به عذرك، فمهما ادعيت من حجة أو ركبت من شبهة لم يصح لك بها برهان من الله، حل بك من سخط الله بقدر ما تجاهلته من العلم، أو أقدمت عليه من شبهة الباطل، واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خصم من خالفه في أمته يبتزها أحكامها، ومن كان محمد خصمه كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسول الله حججا تضمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى يدعيه إلى الله قربة، وإن أثبت الناس قدما يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، فمثلك لا يكابر بتجريد المعصية ولكن تمثل له الإساءة إحسانا، ويشهد له عليها خونة العلماء، وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراءك، فأحسن الحمل فقد أحسنت إليك الأداء. فبكى المهدى – تاريخ بغداد ٩ – ٣٠٦)
هذا الرجل عظيم بكل المقاييس إلا مقاييس علماء الجرح والتعديل، الذين اكتشفوا نقطة ضعفه التوثيقية، وعدم صلاحيته في نقل النص النبوي وتوثيقه.

يقول الناقد يحيى بن معين: صالح المري ضعيف أو قال: ليس بشيء. وقال عمرو بن علي: صالح المري رجل صالح منكر الحديث جدا، يحدث عن قوم ثقات بأحاديث مناكير. وقال البخاري: صالح بن بشير المري القاص منكر الحديث. والبخاري يعطي هذا المصطلح درجة دنيا من الجرح والنقد فيقول: كل من قلت فيه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه – لسان الميزان ١ – ٢٠.

وقال السعدي: المري كان قاصا واهي الحديث. وقال النسائي: صالح المري بصري متروك الحديث – الكامل في الضعفاء ٤ – ٦٠. ويقول أحمد بن حنبل: صالح صاحب قصص يقص على الناس، ليس هو صاحب حديث ولا إسناد ولا يعرف الحديث – لسان الميزان ١ - ٢٠.

وابن حنبل رحمه الله يقدم لأركون ومعلميه الكبار "المستشرقين المتعصبين" دروسا في احترام هذا النقد بقوله: (صالح صاحب قصص يقص على الناس، ليس هو صاحب حديث ولا إسناد) إن إمام السنة في عصره، والذي عانى ما عانى من سجن وجلد وسلاسل وأغلال من أجل النص، والذي لم يفتد نفسه من السجن باختلاق حديث يفك به نفسه، هذا الناقد العملاق يفرق بين القصص والروايات الإخبارية والأدبية، وبين النص النبوي، ولعل المحنة التي مر بها ابن حنبل وأصحابه من أهل الحديث، دليل دامغ على تخوف الفريقين من افتراء حديث واحد، أو نصف حديث يدعم وجهة نظره وموقفه المذهبي في مسألة خلق القرآن، ففريق أحمد بن حنبل ومن معه من نقاد الحديث أكبر من هذا السلوك، وأجل من أن ينزلوا إلى هذا المستوى، كيف وقد نذروا حياتهم للحفاظ على النص الحديثي من التزييف، وتكبدوا عناء السفر والغربة والفقر من أجل أن يبقى حديث النبي صلى الله عليه وسلم وسنته في أعلى درجات النقاء.

أما فريق ابن أبي دؤاد ومن معه من المعتزلة الإقصائيين، فإنهم وإن كانوا ليسوا بأهل حديث إلا أنهم يدركون أنهم أمام عباقرة الجرح والتعديل، وأي محاولة لتلفيق نص من النصوص تعني الانتحار أمام الخليفة والناس، لذا وفي حمأة تسلطهم وعنفوان بطشهم وقوتهم لم يجرؤوا على تلفيق حديث يرجحون به مذهبهم، لأنهم يعرفون عواقب هذا التهور في وجود أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وابن أبي حاتم وعلي بن المديني، بل على العكس من ذلك كان ابن أبي دؤاد يتردد على بعض النقاد الذين لم يسجنوا بعد، ليسألهم عن ثغرة قد يجدونها في الأحاديث التي رواها واحتج بها أحمد ومن معه. فأين عقل أركون من هذه الحقيقة التاريخية التي تشهد بصرامة ودقة منهج نقدي لا يعرف عنه شيئا، أين أركون ومتعصبوا الاستشراق الذين طالما هذروا وهذروا عن وضع السلطة للأحاديث، إذا كانت السلطة وسياطها وبطشها قد عجزت من تمرير حديث أو حديثين في عصر العباسيين، فكيف تستطيع ذلك في عهد الأمويين.

الهيثم بن جماز عابد آخر:

عابد مشهور بالصلاح والزهد وكثرة العبادة والبكاء. يصفه النقاد بأنه ممن غفل عن الحديث والحفظ واشتغل بالعبادة حتى كان يروي المعضلات عن الثقات توهما، فلما ظهر ذلك منه بطل الاحتجاج به – المجروحين ٣ – ٩١

عباد بن جويرية

عابد صالح، بل ومجاهد شجاع يصفه الساجي بقوله: كان صالحا، ويقول بن معين: سألت عنه عبد الله بن داود فذكر خيرا وقال: رأيته في الغزو... هذا الرجل جمع الصلاح والزهد وكثرة العبادة، بالإضافة إلى الجهاد بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله، وهل بعد التضحية بالنفس في سبيل الدين من سقف، وما الحكم الذي سيصدر بحق رجل صالح زاهد مجاهد سوى التمجيد والثناء!

لقد توارثت الأمم أساطير حيكت حول شخصياتها التراثية الجميلة، حتى جعلت منهم أناسا خرافيين لا يمكن بلوغ أمجادهم، والعرب ليسوا بمنأى عن هذا، فشخصيات كعنترة وحاتم والشنفرى تضخمت الأساطير حولها حتى خرجت عن صفاتها البشرية.

نقاد الجرح والتعديل يقدمون حكماً لا يخطر على بال أمة من الأمم، حكماً ينسف ما توارثته الأمم من أساطير، سئل الناقد أحمد بن حنبل عن درجة هذا العابد المجاهد الجميل الصفات، وعن درجته في ميزان نقد أهل السنة والحديث فقال كلمة كالصاعقة: (قال أحمد: كذاب أفاك. وسئل عنه البخاري فكذبه. وقال الناقد المعتدل في نقده (أبو زرعة): ليس بشيء. وقال النسائي وغيره: متروك. وقد أخضعه الإمام أحمد لاختبار خرج منه بتلك النتيجة، حيث يقول: "أتيته أنا وعلي بن المديني وإبراهيم بن عرعرة فقلنا: أخرج إلينا كتاب الأوزاعي، فإذا فيه مسائل أبي إسحاق الفزاري: سألت الأوزاعي. فإذا هو قد جعلها عن الزهرى وقلبها، فقلنا: الأوزاعي عن خصيف؟ فقال: هذا خصيف الكبير فتركناه وكان كذابا. فقيل لأبي عبد الله (أحمد بن حنبل): خصيف اثنان؟ فقال: إنما هو واحد ولكنه لا يدرى." – لسان الميزان ٣ – ٢٢٨)

هذه العقلية الحاسوبية التي تحصي الشيوخ والتلاميذ، وترصد الدخلاء على الطبقتين بشكل مذهل، لا تعرفها أمة قبل أمة القرآن، رغم توافر العقول والذكاء في كل الأمم، إلا أنها ما كانت لتوجد لولا القرآن.

مكي بن عبد الله القراد

عابد فاضل آخر، ذو صفات حميدة وعديدة، بل ومن طلبة الحديث ببغداد، قال ابن النجار: كان صالحا متدينا محمود الأفعال متواضعا. فما منزلته في نقل الحديث؟ يقول الإمام الذهبي: (كان المحاربي يذمه، كما حط عليه ابن الأخضر وعبد الرزاق بن الحلبي. وقال ابن نقطة: سألت عنه بن الحضرمي فضعفه – لسان الميزان ٦ – ٨٨)

إبراهيم بن هراسة

زاهد آخر.. كان من العباد الخشنين في تقشفهم وزهدهم، روى عنه الثوري وحدث عنه الكوفيون. ومع ذلك كان أبو عبيد يطلق عليه الكذب، غلب عليه التقشف

والعبادة وغفل عن تعاهد حفظ الحديث حتى صار كأنـه يكذب – المجروحين ١ – ١١١

بنان بن أحمد بن علويه

قال الدارقطني عنه: كان صالحا فيه غفلة – لسان الميزان ٢ – ٦٤

ليث بن أبي سليم.

عابد وعالم في الوقت نفسه، قال عنه ابن حبان: كان من العباد، لكن اختلط في آخر عمره، حتى كان لا يدري ما يحدث به فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، تركه يحيى بن القطان وابن مهدي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين – نصب الراية ٢ – ٣٣٤

وهناك أمثلة كثيرة من رواة الحديث الذين تم إسقاط رواياتهم رغم صلاحهم دينيا، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

الربيع بن صبيح، البصري: صدوق سيء الحفظ وكان عابدا مجاهدا، قال الرامهرمزي: هو أول من صنف الكتب بالبصرة – تقريب التهذيب ٢٠٦

الأحوص بن حكيم العنسي الحمصي، ضعيف الحفظ وكان عابدا – التقريب ٩٦

الحسن بن محمد بن أحمد بن فضل أبو علي الكرماني، اتهمه الساجي، وأساء عليه الثناء بن ناصر. وقال بن النجار: كتب بخطه كثيرا من الكتب والأجزاء، وروى عن الخطيب وسليم الرازي وجماعة وكان عابدا ناسكا. قال المؤتمن الساجي: ينبغي أن ينادى على قبره: هذا كذاب – لسان الميزان ٢ – ٢٥٤

عمار بن سيف الضبي، ضعيف الحديث وكان عابدا – تحفة الأحوذي ٧ – ٤٩.

عباد بن ميسرة المنقري، ضعفه أحمد وكان عابدا ليس بالقوي – الكاشف ٥٣٢.

هذا وقد كان نقدهم للعباد الصالحين دقيقا جدا، فمثلا "موسى بن عبيدة الربذي" أبو عبد العزيز المدني، ضعيف ولا سيما في عبد الله بن دينار، وكان عابدا. تحفة الأحوذي ٢ – ٤٨٥، أي أنه شديد الضعف في رواياته عن شيخه الثقة عبد الله بن دينار.

وفي نقد دقيق لـ"المثنى بن الصباح اليماني الأبناوي" يقول مؤلف التهذيب ١٠ – ٣٢: (قال داود العطار: لم أدرك في هذا المسجد أحدا أعبد من المثنى بن الصباح والزنجي بن خالد. قال ابن سعد وله أحاديث وهو ضعيف. وقال علي بن الجنيد: متروك الحديث، وقال عبد الرزاق: أدركته شيخا كبيرا بين اثنين يطوف الليل أجمع. وقال عمرو بن علي: كان يحيى وعبد الرحمن لا يحدثان عنه. وقال ابن المديني سمعت يحيى بن سعيد وذكر عنده مثنى بن الصباح فقال: لم نتركه من أجل عمرو بن شعيب ولكن كان منه اختلاط في عطاء. أي خلط في أحاديث رواها عن عطاء. وقال أحمد بن حنبل: لا يساوي حديثه شيئا، مضطرب الحديث. وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة عنه فقالا: لين الحديث، قال أبي: يروي عن عطاء ما لم يرو عنه أحد وهو ضعيف الحديث. وقال الجوزجاني: لا يقتنع بحديثه. وقال الترمذي: يضعف في الحديث. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال في موضع آخر: متروك الحديث. وقال ابن عدي: له حديث صالح عن عمرو بن شعيب، وقد ضعفه الأئمة

المتقدمون، والضعف على حديثه بين. وقال الدارقطني: ضعيف. وقال ابن عمار: ضعيف. وقال الساجي: ضعيف الحديث جدا حدث بمناكير ويطول ذكرها، وكان عابدا يهم. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم. أما إذا انتقلنا إلى العلماء، فما:

موقف النقاد من العلماء

لا يعني كون الرجل عالما محدثا ثقة يشار إليه بالبنان.. لا يعني ذلك على الإطلاق أن يبقى بمنأى عن مجهر الجرح والتعديل، وهذه أمثلة لبعض العلماء الذين تناولهم النقاد دون الالتفات إلى ماضيهم الأبيض، وعلمهم الواسع، وصدقهم ونزاهتهم وعدالتهم وصفاء عقيدتهم.

عبد الله بن لهيعة قاضي مصر.

عالم أثنى عليه النقاد ثناء عظيماً، حيث قال الناقد الفريد في كل شيء سفيان الثوري، والذي لم تدرس سيرته دراسة تستحقها: (عند ابن لهيعة الأصول و عندنا الفروع، وقال أيضا: حججت حججا لألقى ابن لهيعة ..) وقال أحمد بن حنبل مثنيا عليه: (من كان مثل ابن لهيعة بمصر فى كثرة حديثه وضبطه و إتقانه؟ و حدث عنه أحمد بحديث كثير) وقال النسائى، عن سليمان بن الأشعث ـ و هو أبو داود: (سمعت أحمد يقول : من كان بمصر يشبه ابن لهيعة فى ضبط الحديث و كثرته و إتقانه ؟ ! .قال : و سمعت أحمد يقول : ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة) وقال روح بن صلاح مبينا حرص ابن لهيعة على تتبع الرواة من التابعين: (لقى ابن لهيعة اثنين و سبعين تابعيا) وقال عبد الرحمن بن مهدى متحسرا على عدم سماعه منه: (وددت أنى سمعت من ابن لهيعة خمس مئة حديث ، و أنى غرمت مؤدى ، كأنه يعنى : دية) وقال أبو الطاهر بن السرح: (سمعت ابن وهب يقول : و سأله رجل عن حديث فحدثه به، فقال له الرجل : من حدثك بهذا يا أبا محمد ؟ قال: حدثنى به ـ والله ـ الصادق البار عبد الله بن لهيعة . قال أبو الطاهر : و ما سمعته يحلف بمثل هذا قط – انظر رواة التهذيبين ـ ٣٥٦٣)

إذا فابن لهيعة علم ثقة على مستوى مصر والعالم الإسلامي، وبشهادة أشد نقاد عصره، ولو كان هذا الرجل في غير العالم الإسلامي لرأينا تماثيله تنصب في الميادين، لكن ابن لهيعة رحمه الله لم يبق على هذا الصورة النقية، لقد حدث له ما عكر صورته عند نقاد الجرح والتعديل فقط، إنه لم يقل بخلق القرآن، ولم يشرب الخمر، ولم ينحرف عقائديا أو سلوكيا. باختصار: أصاب الرجل ما يصيب غيره عندما يكبرمن التغير وضعف الحفظ ، ولا ضير في ذلك ما دامت كتبه موجودة، لكن ابن لهيعة أيضاً أصيب بمصيبة علمية أودت ببعض وثائقه، لقد شب حريق في بيته، فأودى بجزء يسير من تلك الوثائق التي لا تقدر بثمن. فما الذي يضير هذا العلم الشامخ؟ لدى نقاد الجرح والتعديل الإجابة: بضعة رجال فقط، إذا رووا عن ابن لهيعة فأحاديثهم عنه صحيحة، وإذا روى غيرهم عنه فالرويات ضعيفة وإن كان هذا الغير أوثق.

قال المزي في تهذيب الكمال ١٥ ـ ٤٩١: قيل لعبد الرحمن بن مهدي: تحمل عن عبد الله بن يزيد القصير عن بن لهيعة؟ فقال عبد الرحمن: لا أحمل عن بن لهيعة قليلا ولا كثيرا. ثم قال عبد الرحمن: كتب إلي بن لهيعة كتابا فيه: حدثنا عمرو بن شعيب... قال عبد الرحمن: فقرأته على ابن المبارك، فأخرجه إليَّ ابن المبارك من كتابه عن بن لهيعة.
وقال نعيم بن حماد: سمعت بن مهدي يقول: ما أعتد بشيء سمعته من حديث بن لهيعة الا سماع بن المبارك ونحوه. وقال قتيبة: كنا لا نكتب حديث بن لهيعة الا من كتب بن أخيه، أو كتب بن وهب، الا ما كان من حديث الأعرج.
وقال قتيبة: قال لي احمد بن حنبل: أحاديثك عن بن لهيعة صحاح؟ قلت: لأنا كنا نكتب من كتاب عبد الله بن وهب، ثم نسمعه من بن لهيعة.
لكن ما سر توثيق الناقد ابن مهدي لرواية ابن المبارك عن ابن لهيعة؟
السر في أن ابن لهيعة استمر في التحديث، وحصل له بعض الاختلاط، وكان يثق بمن جاءه فيحدثونه ويقولون سمعناها من فلان عنك، فلا يعترض عليهم، وهناك من يسمع منه فقط لذا استمر بتوثيقه. إذا فكيف علم النقاد بتغير ابن لهيعة مادامت أصول كتبه لم تحترق، الإجابة هي في ذلك الشك الذي يحمله كل ناقد من أي رواية حتى يتبين له العكس. قال الناقد الثقة يحيى بن حسان: رأيت مع قوم جزءا سمعوه من بن لهيعة، فنظرت فإذا ليس هو من حديثه، فجئت إليه فقال: ما أصنع.. يجيئوني بكتاب فيقولون هذا من حديثك، فأحدثهم. وقال بن قتيبة كان يقرأ عليه ما ليس من حديثه يغني فضعف بسبب ذلك - تهذيب التهذيب ٥ ـ ٣٣٠)
إذا فهذا العالم يعتريه بعض الخلط أحيانا، ولذا وجب التثبت من رواياته والتدقيق في وثائقه منه شخصيا، والنتيجة لهذه المهمة الشاقة، أن كل رواية جاءت بعد الاختلاط تم استبعادها وعدم الاعتراف بها، ليتبقى لنا مجموعة من تلاميذه سمعوا منه وكتبوا قبل تغيره واحتفظوا بروايته وأهمهم العبادلة الثلاثة: ابن المبارك وابن وهب والمقري، وعثمان السهمي الذي مر معنا قبل قليل.
وبعد هل يعلم المستشرقون وتلاميذهم البله مثل هذا المستوى من التحري في الدقة والتثبت في التاريخ كله، أين نقدهم لروايات الكتاب المقدس التي لا رواة فيها ولا تلاميذ ولا شيوخ ولا نظام يضبطها، أضف إلى ذلك كارثة الترجمة التي لا يدري أحد من قام بها، ولا مدى ثقته ولا عمن أخذها ولا عن أي نص أخذت، ولعل إحراق الكنيسة وليم تندال ضربة لأركون المتخاذل أمام الكتاب المقدس، المستأسد أمام نصوص القرآن والسنة، ناهيك عن هراء علي حرب في تبجيله للكتاب المقدس، وأنه لم يتأثر بالترجمة.
وهناك العشرات من أمثال ابن لهيعة، أمثال:
شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي، صدوق يخطىء كثيرا تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلا فاضلا عابدا شديدا على أهل البدع ـ تقريب التهذيب ٢٦٦

عطاء بن السائب الذي قال عنه قال في تهذيب التهذيب ٧ ـ ١٨٣: قال يحيى بن سعيد ما سمعت أحدا من الناس يقول في حديثه القديم شيئا، وما حدث سفيان وشعبة عنه صحيح إلا حديثين كان شعبة يقول: سمعتهما منه يا بآخره عن زاذان.
هذه أمثلة من مئات بل آلاف الرواة العلماء والعباد والصالحين الذين تعرضوا لنقد علماء الجرح والتعديل، ولم تنجهم صفاتهم الرائعة من مبضع الجرح والتعديل، فالعلم والعبادة والزهد والصلاح والورع أشياء لا تقدم ولا تؤخر في ميزان هذا العلم، إذا كان الراوي مختل الضبط والكتابة والاتصال، بل إن الزهاد والعباد هم الشريحة التي تعرضت للنقد أكثر من غيرها.
قال الإمام الشافعي: أن شخصا ذكر للإمام مالك حديثاً فقال مالك: من حدثك؟ فذكر له إسنادا منقطعا. فقال: اذهب إلى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يحدثك عن أبيه عن نوح عليه السلام ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٤ ـ ٢٨٤.
أي أن ذلك السائل جاء يسأل الإمام مالك عن حديث يرويه بسند غير متصل بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأرشده مالك ساخراً إلى العالم العابد عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال اذهب إليه فسوف يروي لك الحديث عن أبيه عن نوح صلى الله عليه وسلم، أي أنه من ضعف حفظه وعدم تثبته قد يقع في خطأ فاحش كهذا، مع العلم أنه كان رجلاً عابداً. فقد وصفه الإمام ابن خزيمة فقال: أنه ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه لسوء حفظه، هو رجل صناعته العبادة والتقشف، ليس من أحلاس الحديث ـ التهذيب ٦ ـ ١٦١
ويصفه الناقد ابن حبان فيقول: كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك ـ المجروحين ٢ ـ ٥٧. أي أنه ربما نسب كلام الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم، وربما عكس الأمر، وهو ما يعني اضطراب مروياته مما أدى إلى استبعادها.

السلطة القضائية والنص

حتى القضاة موضع الحفاوة والهيبة والتبجيل ورجال العدالة.. ليسوا في حصانة ضد مجهر علماء الجرح والتعديل، فكيف إذا اجتمع القضاء والزهد والعبادة في رجل. قال ابن حجر في التهذيب ٥ ـ ١٤٠: عبد الله بن بشر بن التيهان الرقي قاضي الرقة، قال ابن خلفون في الثقات: كان عابدا زاهدا إلا أنه ليس بالقوي في الزهري.
ومن أشهر القضاة وأنزههم وأعدلهم وأقواهم في الحق شريك بن عبد الله، حيث يقول ابن حجر في تقريب التهذيب ٢٦٦: شريك بن عبد الله صدوق يخطىء كثيرا تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلا فاضلا عابدا شديدا على أهل البدع.

الفقهاء والنص

علماء الفقه.. ناشروا الوعي، والذين تأتم الأمة بآرائهم، وتسير الركبان بأقوالهم ومصنفاتهم، هم كغيرهم تعرضوا لاختبارات علماء الجرح والتعديل التي لا يعرف

عنها العلمانيون العرب شيئا، ومن أشهرهم وأبرزهم فقيه الحنفية وأبرز تلاميذ أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني: ذكاء وعلم وعدالة وديانة، لو كان في غير أمة الإسلام لملأت تماثيله الميادين والمعاهد والمعابد، ولكن مجهر علم الجرح والتعديل لا يعرف لغة اسمها المجاملة.

يتحدث محمد بن الحسن عن نفسه فيقول: ترك أبى ثلاثين ألف درهم، فأنفقت خمسة عشر ألفا على النحو والشعر، وخمسة عشر ألفا على الحديث والفقه – تاريخ بغداد ٢ – ١٧٣، ويقول أيضا: أقمت على باب مالك ثلاث سنين، وسمعت من لفظه أكثر من سبع مائة حديث – لسان الميزان ٥ - ١٢١ ، ويقول الشافعي: ما رأيت سمينا أخف روحا من محمد بن الحسن، وما رأيت أفصح منه، كنت إذا رأيته يقرأ كأن القران نزل بلغته – تاريخ بغداد ٢ – ١٧٦، وقال أيضا: كان محمد بن الحسن الشيبانى إذا أخذ في المسألة كأنه قران ينزل عليه، لا يقدم حرفا ولا يؤخر.... ولما وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه، قال له الرجل: يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء. فقال له الشافعي: وهل رأيت فقيها قط اللهم إلا أن تكون رأيت محمد بن الحسن، فإنه كان يملأ العين والقلب، وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن. وقال أيضا: أمن الناس علي في الفقة محمد بن الحسن – السابق ٢ – ١٧٥، ويقول أيضا: حملت عن محمد وقر بعير كتبا – لسان الميزان ٥ – ١٢١.

قال ابن حجر في لسان الميزان ٥ – ١٢١: محمد بن الحسن الشيباني أبو عبد الله، أحد الفقهاء لينه النسائي وغيره من قبل حفظه، يروي عن مالك بن أنس وغيره، وكان من بحور العلم والفقه قويا في مالك. وهو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني مولاهم الفقيه أبو عبد الله، ولد بواسط ونشأ بالكوفة وتفقه على أبي حنيفة رحمة الله عليه، وسمع الحديث من الثوري ومسعر وعمر بن زر ومالك بن مغول والأوزاعي ومالك بن أنس وزمعة بن صالح وجماعة، وروى عنه الشافعي وأبو سليمان الجوزجاني وأبو عبيد بن سلام وهشام وعبيد الله الرازي وعلي بن مسلم الطوسي وغيرهم، ولي القضاء أيام الرشيد. وقال عباس الدوري عن بن معين: كتبت الجامع الصغير عن محمد بن الحسن.

ترى ما الذي تفعله الأمم بأمثال هؤلاء؟ هل أئمة الجرح والتعديل يعشقون جلد الذات؟ لا، إنهم يقرون بكل ما مضى من صفحات بيضاء، وهم يرددون: نحبهم، لكن القرآن والسنة أحب إلينا منهم.

هذا الرجل له ملف آخر بخصوص تعاطيه مع الحديث النبوي نقلا وتوثيقا حيث يقول الناقد ابن عدي: (ومحمد لم تكن له عناية بالحديث، وقد استغنى أهل الحديث عن تخريج حديثه. وقال أحمد بن حنبل:كان أبو يوسف مضعفا في الحديث. وقال الأحوص بن الفضل العلائي عن أبيه: حسن اللؤلؤي ومحمد بن الحسن ضعيفان. وكذا قال معاوية بن صالح عن بن معين. وقال ابن أبي مريم عنه: ليس بشيء ولا يكتب حديثه)

القضاة والفقهاء والعلماء والوعاظ وغيرهم من أهل العلم لم ينجوا من منهج الجرح والتعديل، ولم يبق سوى الحكام والقادة وكبار التجار وأصحاب المناصب الحكومية العليا.

الخلفاء والحكام في ميزان نقاد الجرح والتعديل

هنا المحك.. هنا تتكشف مصداقية النقد، وهنا أيضا ينكشف الجهل العلماني العربي بهذا العلم النزيه والدقيق، وتنكشف مصداقية قولهم أن كثيرا من الأحاديث – الصحيحة – اختلقت وأنضجت في مطابخ السياسية، وعلقت على جدران البلاط الأموي أو العباسي.

علماء الجرح والتعديل يثبتون مرة أخرى جهل هؤلاء العلمانيين بتراثهم، فعلى ذيل قائمة الضعفاء يضع نقاد الجرح والتعديل جميع الملوك والأمراء، ولم ينج منهم سوى عمر بن عبد العزيز، ففي أشهر كتب هذا العلم (تهذيب التهذيب ٦ – ٣٧٣) ترجمة مدهشة للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان جاء فيها: (عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو الوليد المدني ثم الدمشقي، روى عن أبيه وعثمان ومعاوية وأبي سعيد القرشي وجابر وأبي هريرة وأم سلمة وغيرهم، وروى عنه ابنه محمد وعروة بن الزبير وحريز بن عثمان والزهري وعمر بن سلام قوله وخالد بن معدان ويونس بن ميسرة بن حلبس وآخرون. قال مصعب الزبيري: هو أول من سمي في الإسلام عبد الملك. قال ابن سعد: شهد يوم الدار مع أبيه وهو بن عشر سنين وحفظ أمرهم، وكان عابدا ناسكا قبل الخلافة، وكان قد جالس الفقهاء وحفظ عنهم وكان قليل الحديث، واستعمله معاوية على المدينة. وقال عبادة بن نسي: قيل لابن عمر من نسأل بعدكم؟ قال: إن لمروان ابنا فقيها فسلوه. وقال جرير بن حازم: سمعت نافعا يقول: لقد رأيت المدينة وما بها أشد تشميرا ولا أفقه ولا اقرأ لكتاب الله من عبد الملك، أو قال ولا أطول صلاة ولا أطلب للعلم.

وقال إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي: ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثا ولا شعرا إلا زادني فيه. وقال العجلي: ولد لستة أشهر وخطب خطبة بليغة ثم قطعها وبكى ثم قال: يا رب إن ذنوبي عظيمة وأن قليل عفوك أعظم منها، فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي. فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتبت هذا.

هذا الرجل العظيم يذكره أكثر النقاد تساهلا في التوثيق (ابن حبان) في الثقات ويقول: كان من فقهاء أهل المدينة وقرائهم قبل أن يلي ما ولي. وهو بغير الثقات أشبه. فإذا كان عبد الملك ضعيفا في الحديث فكيف بالبقية. لقد أسقطه النقاد بعد أن تولى، ولو كانوا يفسحون في آرائهم للمجاملة مقعدا لارتفعت أسهمه بعد توليه، ولوجدوا في ماضيه العلمي ما يشفع له ويبرر تزلفهم إليه، لكن علم الجرح والتعديل كان علما نقيا موضوعياً، قاتل رجاله بشراسة وشجاعة كي يبقى بعيدا عن أيدي السلطة ورجالاتها.

النص وتأثير السلطة عند نقاد الجرح والتعديل

لا يمل العلمانيون العرب من ترديد مقولة سخيفة فحواها: أن النصوص الحديثية كتبت في بلاط السلطان، أو بإيعاز من السلطان، وهي مقولة تكشف عن مستوى تناول التراث الإسلامي لهؤلاء العلمانيين الذين يدعون قراءة النص قراءة أخرى وجديدة. ولو عدنا إلى مراجعة بداية إشكالية السلطة مع النص، لوجدناها تبدأ من نقطة انحراف السلطة عن النص، فهناك إجماع على أن ذلك الانحراف عن النص أنتج تراجعا وتخلفا إلا عند أدونيس، الذي يرى أن بداية الحداثة السياسية كانت في ظهور الدولة الأموية. وفي سياق هذه الدولة شهدت السلطة افتئاتا على النص في جانب منه.. هو حق الأمة وحدها في اختيار خليفتها، وبالتالي فلا خيار لعلماء النقل والنقد الجادين سوى الانحياز للنص خوفا عليه من تدخل السلطة، أصبح الهم الذي يحمله هؤلاء العلماء هو حراسة النص من تشويه السلطة، هذا الانحياز من العلماء اتخذ تكتلا موازِ للسلطة.. تكتلا يحاسب السلطة ويحاكمها بالنص، أو ينأى بنفسه عنها، مما جعل هذا التكتل العلمي يضيف إلى مصطلحات الجرح والتعديل (تهمة العمل لدى السلطان وقبول وظيفته) كسبب لرفض الرواية، أو القدح في الراوي، لدرجة أن كثيرا من العلماء الثقات تعرضوا للنقد الشديد، بل رفض بعض النقاد رواياتهم لمجرد قبولهم وظيفة من الحاكم.

فهذا الناقد والعالم الشهير التابعي محمد بن سيرين يرفض روايات العالم الكبير التابعي الثقة حميد بن أبي هلال، لأنه قبل وظيفة لدى الحاكم، يقول الناقد يحيى بن سعيد القطان: كان ابن سيرين لا يرضى حميد بن هلال، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: فذكرت ذلك لأبي؟ فقال: دخل في شيء من عمل السلطان فلهذا كان لا يرضاه – تهذيب الكمال ٧ – ٤٠٥

التابعي الثقة مهران (أبو عروبة) ينتقد عالماً ثقة وراويا للحديث اسمه المعافى بن سليمان ويقول: إنه ليس بمؤتمن في نفسه، كان يعمل في المتقدم أعمالا للسلطان – الكامل في ضعفاء الرجال ٦ – ٣٠٤

وهذا الناقد الثبت زائدة بن قدامة الثقفي يعيب على التابعي الثقة حميد الطويل، لدخوله في شيء من أمر الأمراء – التقريب ١٨١.

وخالد بن مهران أبو المنازل البصري الحذاء ثقة عاب عليه بعضهم دخوله في عمل السلطان - تقريب التهذيب ١٩١.

ابن حنبل تكلم في أحمد بن واقد الحراني لدخوله في عمل السلطان - مقدمة فتح الباري ١ – ٤٦٠.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل قلت لأبي: أيما أثبت عندك وكيع بن الجراح أو يزيد؟ قال: ما منهما بحمد الله إلا ثبت. قلت فأيهما أصلح عندك؟ قال: ما منهما بحمد الله إلا صالح، إلا أن وكيعا لم يتلطخ بالسلطان – تهذيب الكمال ٣٠ – ٤٧١

الشيء المشترك لدى هؤلاء النقاد، أنه لا يوجد حاكم ثقة لديهم حسب المعايير التي وضعوها لنقل الحديث، فرواية جميع الحكام ضعيفة ولا يعتد بها، عدا عمر بن عبد

العزيز رحمه الله، أي أنه ليس الالتصاق بالحاكم تهمة فقط، بل الحاكم نفسه أصبح تهمة، ونحن هنا نتحدث عن حكام لم يخونوا دينهم أو شعوبهم، ولم يبيعوا أراضيهم لعدوهم، بل نشروا الإسلام وسيروا جيوشه حتى وصلت إلى مشارف باريس غربا وأعماق الصين شرقا، حكام شجعوا العلم والإبداع والترجمة، بل واحترموا العلماء وأجلوهم وحاولوا أن يكونوا من جلسائهم، بل كانوا هم المثال المحتذى في التعامل مع شعوبهم مقارنة بدول العالم في عصرهم، وقد مر معنا الحديث عن التابعي الثقة عطاء حيث (كان عطاء بن أبي رباح عبدا أسودا لإمرأة من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاء، وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه يصلي، فلما صلى انتقل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما فقاما. فقال: يا بني لا تنيا في طلب العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود – تاريخ دمشق ٤٠ – ٣٧٥)

وهذا المهدي يستدعي المحدث الناقد الفذ سفيان الثوري لا ليبرر له سياسته ولا ليستفتيه، بل ليجعل أمور الناس بين يديه، فحضر سفيان كما يروي عطاء بن مسلم فيقول: (لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان، فلما دخل خلع خاتمه فرمى به إليه، فقال: يا أبا عبد الله.. هذا خاتمي فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة، فأخذ الخاتم بيده وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال عبيد قلت لعطاء: يا أبا مخلد قال له يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: أتكلم على أني آمن؟ قال: نعم. قال: لا تبعث إلي حتى آتيك، ولا تعطني شيئا حتى أسألك. قال وغضب – أي المهدي – من ذلك وهم به. فقال له كاتبه: أليس قد أمنته يا أمير المؤمنين؟ قال: بلى. فلما خرج حف به أصحابه، فقالوا: ما منعك يا أبا عبد الله وقد أمرك أن تعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة؟ فاستصغر عقولهم، ثم خرج هاربا إلى البصرة – حلية الأولياء ٧ – ٤٠)

هؤلاء الحكام الذين نشروا الثقافة والرخاء ارتكبوا بعض الأخطاء في حق شعوبهم، مما جعلهم ليسوا أهلا للثقة بمروياتهم للحديث، حسب الشروط الموضوعية – الصدق، الحفظ، العدالة، السماع، وغيرها مما وضعه نقاد الجرح والتعديل، وينسحب هذا الحكم على الشرطة وقادة الشرطة ورجال البلاط والكتبة، بل والأدباء والقصاصين الذين يروون ما هب ودب من الروايات والحكايات، مع أن هؤلاء الحكام كانوا يتمتعون بالثقافة وسعة الاطلاع.

قال الخطيب في تاريخ بغداد ١٢ – ٣٢٤: أخبرنا احمد بن عبد الله المحاملي حدثنا حمد بن يوسف بن خلاد إملاء حدثنا أبو عبد الله احمد بن كثير مولى آل العباس حدثني داود بن رشيد قال: دخل غياث بن إبراهيم على المهدي وكان يحب الحمام التي تجيء من البعد، فحدثه حديثا رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: لا سبق إلا في حافر أو خف أو جناح. فأمر له بعشره آلاف درهم، فلما قام قال: أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جناح، ولكنه أراد أن يتقرب إلي.

وفي كتاب صيد الخاطر ـ ٤٢٩: قال السجان لأحمد بن حنبل : هل أنا من أعوان الظلمة ؟ فقال: لا أنت من الظلمة إنما أعوان الظلمة من أعانك في أمره.
بل إن الناقد الفذ سفيان الثوري يذهب مسافة أبعد في النأي بالحديث النبوي عن ضغط بلاط السلطان، فقد جاء رجل خياط إلى سفيان الثوري فقال: إني رجل أخيط ثياب السلطان، هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط. كتاب الكبائر ـ ١٠٤
كان هاجس الضعف أمام السلطان يسكن نقاد النص خشية التمرير والتزوير من أجل السلطة. حيث يقول سحنون: ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه وما ألقاه به من الغلظة، والله ما أخذت ولا لبست لهم ثوبا – سير أعلام النبلاء ١٢ – ٦٥. ويقول سفيان الثوري: إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان فاعلم أنه لص، فإذا رأيته يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مرائي – حلية الأولياء ٦ – ٣٨٧، ويقول عبدالله بن المبارك سمعت سفيان الثوري يقول: لم أر للسلطان إلا مثلا ضرب على لسان الثعلب، قال الثعلب: عرفت للكلب نيفا وسبعين دستانا، ليس منها دستان خيرا من أن لا أرى الكلب ولا يراني. قال: سفيان ليس للسلطان خير من أن يراك ولا تراه – حلية الأولياء ٧ – ٤٤
والناقد الفذ ابن المبارك نفسه لم يملك شعره عندما شاهد أحد العلماء على باب السلطان.
يقول محمد بن يزيد: كنت مع ابن المبارك ببغداد إذ رأى إسماعيل بن علية راكبا بغلة له على باب السلطان فأنشأ يقول تاريخ مدينة دمشق ٥٤ – ٦١:

يا جاعل الدين له بازيا	يصطاد أموال المساكين
لا تبع الدين بدنيا كما	يفعل ضلال الرهابين
احتلت للدنيا ولذاتها	بحيلة تذهب بالدين
وجدت مجنونا بها بعدما	كنت دواء للمجانين
تفكر الناس جميعا بأن	زل حمار العلم في الطين

وقد بلغ الأمر ببعض العلماء أبعد من ذلك، فلجأ إلى الهرب من البلد التي يتواجد فيها الحاكم خوفا من الضعف أمام أعطياته. فيروي كثير بن يحيى عن أبيه قال: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وعمر بن عبد العزيز عامل عليها، قال فصلى بالناس بالظهر ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم فقال لعمر: من هذا، ما رأيت أحسن سمتا منه؟ قال: صفوان. قال: يا غلام، كيس فيه خمس مئة دينار. فأتاه به، فقال لخادمه: اذهب بها إلى ذلك القائم.
فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم فأقبل عليه فقال: ما حاجتك؟ قال: يقول أمير المؤمنين استعن بهذه على زمانك وعيالك. فقال صفوان: لست الذي أرسلت إليه. قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى. قال: فإليك أرسلت. قال: اذهب

فاستثبت. فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يربهما حتى خرج سليمان من المدينة – سير أعلام النبلاء ٥ – ٣٦٨
أما من ساقته أقدامه من العلماء إلى باب السلطان، فيقدم له سعيد بن إسماعيل بعض الضوابط حتى يخرج منه نقيا كما دخل فيقول: ينبغي لمن يخاف الله عز وجل لا يأتي باب السلطان حتى يدعى، فيأتيه وهو خائف من ربه عز وجل، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويقول الحق كما جاء في الخبر: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، ثم ينصرف عنهم وهو خائف من ربه، فهذا غير مفتتن – شعب الإيمان ٧ – ٥٢ . والنصوص في ذلك كثيرة جداً.
إذاً فادعاء تأثير السلطة على منهج النقل والنقد، ودورٍ له في إلى اختلاق نصوص تم تمريرها لتبرر سياساتها ادعاء سطحي، ودعوى مغرقة في الإنشائية، بل هو نوع من الاستلاب الملازم لأصحابه، وهو أيضا نوع من الهروب من المسئولية تجاه النص، لا أعني الهروب من مسئولية التزامه فقط، بل مسئولية نقده ودراسته بشكل عميق وجاد، وما يقدمه العلماني العربي اليوم تجاه النص هو شتائم لا أكثر، وحتى هذه الشتائم تم استنساخها من الآخر (الغربي المستشرق) دون وعي، فالذي يشتم – بوعي أفضل لا شك ممن يشتم بالتقليد.
بعد تولي يزيد أصبحت السلطة في حالة ابتداع متخلف عن النص، على الأقل في الجانب الآلي لاختيار الخليفة، وقد تألق نقاد النص ووفقوا بامتياز بانحيازهم للنص واتهامهم للسلطة، وقد أفرز هذا النهج قوائم سلطوية مدانة ومفضوحة تم استبعادها تماما من الترشيح لنقل النص، على رأس هذه القائمة يقف الملوك والوزراء وشعراء البلاط والشرط والعلماء المتزلفين. فباستبعاد هذه الفئات الرسمية المهمة، والتي تعرف بأنها علية القوم، ذات الهيبة والسطوة والقدرة على البطش في كثير من رموزها، يعني أن لا مكان للعواطف، وأن ليس للخوف ولا للمداهنة حساب عند النقاد في قبول النص ورفضه، لقد روى الوضاعون والحاشية بل وبعض المذهبيين العقائديين والفقهيين أحاديث على النبي صلى الله عليه وسلم، لكنها بقيت شلاء أمام بوابة الجرح والتعديل.

النص ومشروعية النقد

كان هؤلاء النقاد لا يدرجون هذا النقد ضمن لائحة الغيبة المحرمة، والغيبة هي الكلام في الشخص بما يكره وهو غائب – وهي من الذنوب الكبيرة في الإسلام – بل يعتبرون بيان درجة الراوي أو الراوية العلمية والتوثيقية من الأمانة التي يجب أن تؤدى، ومن الدين، لأن الحديث والنقد ليس موجها للشخص لذاته، بل المستهدف فيه هو أهلية الشخص كحامل ومؤتمن على معلومات ووثائق غاية في الأهمية، ولو كان النقد لمجرد النقد والتشهي والتشهير لكان من أكبر الذنوب، لكن الإسناد من الدين، والجرح والتعديل والتفتيش عن الرجال من الدين أيضا، وهذا منهج مدفوع بآيات وأحاديث تهدد من يتلاعب بالنص، أو يحاول تزويره.

قال عفان: كنا عند ابن علية فذكر صالح المري، فقال رجل: ليس بثقة. فقال رجل آخر: اغتبته. فقال إبراهيم: اسكت فانما هذا دين – كتاب الضعفاء ١ – ٥٤ قال عبدان: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد قال من شاء ما شاء. قال عبدان: ذكر هذا عند ذكر الزنادقة وما يضعون من الأحاديث – أدب الاملاء – ص ٧

قال أبو عبد الله (الحاكم): فلولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له وكثرة مواظبتهم على حفظه لدرس منار الإسلام – أي زال ومحي، ولتمكن أهل الإلحاد والبدع فيه بوضع الأحاديث وتقول الأسانيد، فإن الأخبار إذا تعرت عن وجود الأسانيد فيها كانت بترا.

قال عبدالكريم السمعاني في أدب الاملاء والاستملاء ص ٧: حدثنا أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل...حدثني الأصمعي قال: كان رجل يحدثنا ونحن جماعة، فلما فرغ من الحديث قال له أعرابي: ما أحسن أحاديث جئتنا بها، لو أن لها سلاسل تقاد بها. قال أبو الحسن يعنى الإسناد. أخبرنا أبو البدر إبراهيم بن محمد بن منصور القطيعي بكرخ .... سمعت شعبة يقول: كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل. ونظم هذا المعنى بعض شيوخنا، أنشدنا السيد أبو المناقب محمد بن حمزة بن إسماعيل الحسيني العلوي الحافظ لنفسه بهمذان املاء:

عليكم بأصحاب الحديث فإنما — محبتهم فرض لذي الدين والعقل
رعاة حديث المصطفى ورواته — لحفظهم الإسناد بالضبط والنقل
وإثناءهم ذكر النبي محمد — عليه سلام الله في الكتب بالعقل
فكل حديث لم يكن فيه مسند — إلى مسند فالخل ذاك وكالبقل

ثم ذكر قول سفيان الثوري: الإسناد سلاح المؤمن، إذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل. وقال السمعاني: وأخذ الحديث عن المشائخ يكون على أنواع منها:

- أن يحدثك به المحدث.
- ومنها أن تقرأ عليه.
- ومنها أن يقرأ عليه وأنت تسمع.
- ومنها أن تعرض عليه وتستجيز منه روايته.
- ومنها أن يكتب إليك ويأذن لك في الرواية، فتنقله من كتابه أو من فرع مقابل بأصله. وأصح هذه الأنواع أن يملى عليك وتكتبه من لفظ، لأنك إذا قرأت عليه ربما تغفل أو لا يستمع، وإن قرأ عليك فربما تشتغل بشيء عن سماعه، وإن قرئ عليه والحضر سماعه فكذلك.

ويضرب السمعاني أيضا أمثلة (صفحة ٨) لمدى طموح نقاد الجرح والتعديل للوصول إلى مستوى بالغ الدقة فيقول: أخبرنا أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الحافظ الأنماطي ببغداد.... سمعت إسحاق بن عيسى بن الطباع يقول: لا أعد القراءة شيئا بعد ما رأيت مالكا يقرأ عليه وهو ينعس.

ثم يقول: سمعت أبا القاسم إسماعيل بن أحمد بن الأشعثي الحافظ ببغداد يقول سمعت أبا القاسم يوسف بن الحسن التفكري يقول: سمعت أبا علي الحسن بن علي بن بندار الزنجاني يقول: قرأ يحيى بن يحيى النيسابوري الحافظ كتاب الموطأ على

مالك، فلما فرغ منه قال لمالك: ما سكن قلبي إلى هذا السماع. قال: ولم؟ قال: لأني خشيت أنه سقط منه بعيني. فقرأ مالك، فلما فرغ قال: ما سكن قلبي إليه، لأني أخشى أنه سقط من أذني شيء. قال: فما تريد؟ قال: اقرأه أنا ثانيا فتسمعه. فقرأه فتم له سماع ثلاث مرات.

ثم يروي السمعاني بسنده... عن يحيى بن أيوب سمعت حميد الرؤاسي يقول: كان زهير إذا سمع الحديث من المحدث مرتين كتب عليه فرغت. ثم يقول السمعاني مبينا تشدد النقاد في أمر العرض والتسليم باليد دون عرض فيقول: وإن عرضت وأذن لك أو كتب إليك فهو دون هذه الأنواع، ولهذا اختلفوا في صحته حتى أن بعضهم ما كاد يرى الإجازة، ولهذا قال شعبة: لو صحت الإجازة بطلت الرحلة – عمدة القاري ٢ - ٢٦

وأيده عبد الله بن محمود المروزي يقول: لو جازت الإجازة لبطلت الرحلة. قال: وأما إذا أملى عليك المحدث وكتبت أنت من لفظه فلا يتطرق إليه نوع من الفساد، لأنه يعرف ما يملى وأنت تسمع وتفهم ما تكتب.

وأخيرا ماذا عن المحدثين أنفسهم، هل هم في منأى عن النقد وفوق الشبهات، وهل لهم حصانة نقدية تحميهم وتمرر رواياتهم ؟

لعل أكثر الناس تعرضا للنقد والاختبار هم رجال الحديث ونقاده، نظرا لكونهم تحت مرأى هذا المنهج ومسمعه، ومن أبرز من تعرض لتلك الاختبارات الإمام البخاري والإمام الواقدي وأبونعيم، ومن أطرف القصص في ذلك قصة جرى فيها اختبار للإمام الحافظ أبي نعيم على يد أحد كبار علماء الرجال ونقاد الجرح والتعديل يدعى (يحيى بن معين) والذي قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: (كان ابن معين أعلمنا بالرجال) وتحدث عنه العالم أبو سعيد الحداد فقال: (الناس كلهم عيال على يحيى بن معين) وذكر ابن عدي (أن والد يحيى خلف له ثروة ضخمة ألف ألف درهم، وخمسين ألف درهم، فأنفق ذلك كله على الحديث لما توسع في طلبه ورحلاته من أجله)

ومن أطرف رحلاته تلك الرحلة التي سافر فيها مع صديقيه الأمام أحمد بن حنبل وأحمد بن منصور الرمادي من العراق إلى اليمن للسماع من الأمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني حافظ اليمن، وفي العودة أراد أن يدخل الكوفة ليختبر الحافظ أبا نعيم الفضل بن دكين، ويعرف حفظه وتيقظه ونباهته.

يقول الرمادي: (خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق أخدمهما، فلما عدنا إلى الكوفة قال يحيى لأحمد: أريد أختبر أبا نعيم. فقال له أحمد: لا تزيد الرجل إلا ثقة. فقال يحيى: لابد لي. فأخذ ورقة وكتب فيها ثلاثين حديثا من حديث أبي نعيم، وجعل على رأس كل عشرة منها حديثا ليس من حديثه، ثم جاءوا إلى أبي نعيم فخرج، فجلس على دكان فأخرج يحيى الطبق، فقرأ عليه عشرة ثم قرأ الحادي عشر. فقال أبو نعيم: ليس من حديثي اضرب عليه. ثم قرأ العشر الثاني وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني. فقال: ليس من حديثي اضرب عليه. ثم قرأ العشر الثالث وقرأ الحديث الثالث، فانقلبت عيناه وأقبل على يحيى فقال : أما هذا – وذراع أحمد في

يده – فأورع من أن يعمل هذا، وأما هذا – يريدني أي يقصد الرمادي – فأقل من أن يعمل هذا، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، ثم أخرج رجله فرفسه فرمى به – أي رفس يحيى بن معين – وقام فدخل داره.
فقال أحمد ليحيى : ألم أقل لك أنه ثبت. قال يحيى: والله لرفسته أحب إلي من سفرتي ـ الرحلة في طلب الحديث ـ ٢٠٧)
ولعل الاختبار الذي وضع تحت طائلته الإمام صاحب القائمة الطويلة من الألقاب: (العالم المحدث والمؤرخ، والمنقب والقاضي الشهير محمد بن عمر الواقدي رحمه الله) يعتبر مؤشرا على التشدد، بل المبالغة في التشدد في قبول النص – الحديث، وهو مثال على أن الأصل لدى هؤلاء النقاد هو الشك والرفض، لا القبول والتسليم، وإلا لأصبح النص الحديثي في نظرهم مستودعا ضخما للخرافات والأساطير الشعبية والأكاذيب، يقذف به من شاء بما شاء. هذا الإمام بدأ كشفه وسقوطه في حديث واحد.. حديث لا علاقة له بالمذاهب ولا بالسياسة، ولا بالمال ولا بالعنصرية أوالمذهبية، لكن له علاقة بالدقة المتناهية والتحري الشديد والمنهجية العلمية لهؤلاء النقاد، وكان من المفترض – حسب نظرة المفكرين العرب السطحية والتي تتهم الرواة بالتشدد في الدين– أن ترفع رواية الواقدي لهذا الحديث من أسهمه، لا أن تحط من قدره، فهو حديث يحرم على المرأة نزع حجابها أمام الرجل الأعمى، فما الذي جعل هؤلاء النقاد يصنفون الواقدي ضمن درجة متدنية جدا من مراتب التوثيق، بل هي من أشد مراتب الرفض في توثيق السنة ونقلها.
يقول أحمد بن محمد بن محرز: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أنه لم يزل يدافع أمر الواقدي – أي أنه متردد في الحكم عليه – حتى روى عن معمر عن الزهري عن نبهان عن أم سلمة حديث "أفعمياوان أنتما"؟ فجاء بشيء لا حيلة فيه، والحديث حديث يونس لم يروه غيره – تهذيب التهذيب ٩ – ٣٢٤.
أي أن يونس انفرد بهذا الحديث وأن معمر لم يروه عن الإمام الزهري ولا علاقة له به، مما يدل على تتبع حاسوبي دقيق لقوائم الأسانيد والرواة عن كل إمام معروف، ووجود كشف تم فيه حصر روايات معمر عن الزهري، مع ملاحظة أن هذا الحديث الذي رواه الواقدي فيه تشديد على المرأة أن لا تنزع حجابها حتى أمام الأعمى وهذا هو نصه: (عن أم سلمة قالت: كنت أنا وميمونة عند النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء ابن أم مكتوم يستأذن، وذلك بعد أن ضرب الحجاب فقال: قوما. فقلنا: إنه مكفوف ولا يبصرنا. قال صلى الله عليه وسلم: أفعمياوان أنتما لا تبصرانه – ابن حبان ١٢ – ٣٨٧)
لو كان هؤلاء النقاد يحتكمون للعاطفة لقالوا: إن في هذا الحديث من التدين والورع والاحتياط وحماية المرأة وسترها ما يشجع على تمريره، لكن الحديث بالنسبة لهم وثيقة، والرواية دين، والسند دين، والصدق دين، وهؤلاء العلماء هم الذين نقلوا للأمة حديثا عظيما يحدد أهم صفة في ناقل الحديث وناقده، (صفة الصدق والتثبت)
يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار – صحيح البخاري ١ – ٤٣٤)

فلنعد إلى الإمام المؤرخ الواقدي، حيث أجري له اختبار أدق تحدث عنه الناقد أبو حاتم الرازي فقال: (وجدنا حديثه عن المدنيين عن شيوخ مجهولين مناكير، قلنا: يحتمل أن تكون تلك الأحاديث منه، ويحتمل أن تكون منهم. ثم نظرنا إلى حديثه عن ابن أبي ذئب ومعمر فإنه يضبط حديثهم، فوجدناه قد حدث عنهما بالمناكير، فعلمنا أنه منه فتركنا حديثه – تهذيب التهذيب ٩ – ٣٢٥)

عملية رصد دقيقة جدا تتلخص بالتالي: لقد وجدوه يروي عن ثقات أهل المدينة عن شيوخ مجهولين (أحاديث منكرة)، والأحاديث المنكرة مصطلح يقصد به أحاديث مخالفة لنصص القرآن ولنصوص الأحاديث النبوية التي تم التأكد من صحتها. عندها أصبحوا أمام احتمالين لا ثالث لهما:

إما أن تكون الأحاديث المنكرة صادرة عنهم.

أو أن يكون الواقدي هو مصدر تلك الأحاديث.

عندها توجهوا إلى مرجعين علميين آخرين للواقدي.. حيث ينهل ويتتلمذ، فوجدوه قد تتلمذ بشكل مكثف على علمين من أعلام الحديث النبوي هما: معمر وابن أبي ذئب، وسبب التوجه نحو هذين الإمامين يتمثل في نقاط أهما:

أنهما إمامان ثقتان مشهوران ورواياتهما مرصودة وموثقة، ومن الممكن فرز أحاديثهما بمراجعة دقيقة لدفاترهما ودفاتر تلاميذهما الثقات.

أن الواقدي لازمهما وتلقى عنهما وروى عنهما، وهذا ما يتيح إجراء مسح شامل لروايته عنهما، ثم مقارنة مروياته بوثائق زملائه الثقات المعروفين، عندها يتم اكتشاف درجته من ناحية الضبط والمصداقية.

وقد قام نقاد الجرح والتعديل بتلك العملية وذلك المسح، فخرجوا بتلك النتيجة الدقيقة والصارمة، والتي لم تقم أي وزن للعواطف والجهود العلمية الجبارة التي بذلها الإمام الواقدي، بل ولم يقيموا أي وزن لمكانة الرجل الاجتماعية في مقابل أهمية التأكد من موثوقية النص.

كان هؤلاء النقاد العباقرة – المجهولون بالنسبة لأركون ولمن يكتب عن العقل العربي – يعتبرون تلك الرحلات نوعا من أنواع العبادة، وشرطا من شروط القبول والاتصال في السند، وهؤلاء العلماء النقاد لم يرحلوا من أجل فتوى فقيه، أو بحثاً عن بركة إمام أو متصوف أو عابد مقبور، بل من أجل نص نبوي متصل موثق، رجال أفنوا أعمارهم بالبحث والتنقيب والتدقيق والمقارنة العلمية الصارمة، لا يعرفهم إلا المتخصصين في العلم، وبعضهم ليس بمشهور كشهرة أبي حنيفة والشافعي والحسن البصري، بل إن لبعضهم موقف نقدي من رواية أبي حنيفة والحسن البصري رحمهم الله جميعا.

فالحسن البصري الذي يعتبر من أشهر التابعين وأفضلهم، وأصلحهم وأعلمهم وأزهدهم وأعبدهم وأحكمهم وأقواهم، وترجمته في كتب الرجال مدهشة ورائعة، هذا الإمام العظيم والذي لوكان في أمة الكتاب المقدس لحج الناس إلى ضريحه، ولأدرجت كلماته وحكمه ضمن الكتاب المقدس أسوة ببولس وغيره. الحسن البصري لم يشفع له تاريخه الأبيض والجميل في قبول حديثه، رغم توثيقه وعلو

منزلته، عندما يعظ الحسن البصري فعلى الرأس والعين، وعندما يوجه فعلى الرأس والعين، وعندما يفتي فعلى الرأس والعين، وعندما يخطب ويعلم فعلى الرأس والعين، لكن عندما ينقل نصا نبويا منسوبا للنبي صلى الله عليه وسلم، فإن نقله ذلك لا بد أن يمر عبر نقطة تفتيش دقيقة للغاية، ولا بد من وضع وثائقه تحت مجهر علم الجرح والتعديل الصارم والدقيق، أجل الحسن البصري الذي عده بعض العلماء أفضل التابعين، والذي تتلمذ على يد أكثر من سبعين من الصحابة لم يسلم من المجهر النقدي لعلم الجرح والتعديل، لقد وضع هذا العملاق في خانة المدلسين الذين يشترط في تمرير رواياتهم التصريح بالتحديث، بل حتى تصريحه بالتحديث لم يخل من انتقاد مدفوع بحرص لا مثيل له على إبقاء النص النبوي نقياً، كي تستلمه الأمة كما سلمه نبيها صلى الله عليه وسلم.

إذا قال الحسن البصري: سمعت أو حدثني فروايته مقبولة، أما عندما يقول: قال فلان، أو عن فلان، فروايته غير مقبولة.رغم هذه الترجمة البيضاء لهذا العلم الفذ، إلا أنه حسب المصطلح العلمي للجرح والتعديل قد وضع ضمن من لا تقبل روايتهم عندما لا يصرحون بالسماع من أستاذتهم.

وقبل أن أختم الحديث عن هذا المنهج الدقيق الذي يحتاج إلى بحوث أكثر توسعا، لا إلى فصل صغير كهذا، أود أن أكشف للقارىء أي تهور أوقع أركون نفسه فيه عندما تصدى لهذا العلم، حيث حاول أن يبرز عضلاته الكرتونية على أحد أعلام التاريخ الإسلامي هو ابن إسحاق.

جهل أركون بمحمد بن إسحاق

ابن إسحاق بالنسبة لأركون مزور للتاريخ والسيرة النبويين، ولا نستغرب ذلك ما دام عثمان وكل الصحابة لم يسلموا من كيل التهم الأركونية المنحطة، بل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه لم يسلم من قلمه المنتن، ولكن المؤلم في المسألة أن الرجل لا يقول أنا أكفر بالقرآن والسنة فيرتاح ويريحنا معه، إنه يصر على تصوير النفاق على أنه منهج علمي حديث لم تأت به الأوائل منذ أيام ابن سلول، كما يصر على تسمية نفسه بالناقد، ولا تثريب على أركون لو أنه كان واضحا، فالإنسان حر فيما يؤمن به، حر في أن يؤمن أو يلحد أو يكفر، ولكن أن يستغفل القارىء ويسوق جهله بعلب علمية مزركشة فأمر يشبه عمل اللصوص، لأن هناك من السطحيين والضحايا السذج من سيستخفه أركون بمصطلحاته، هؤلاء الضحايا يشكلون في عالمنا العربي بؤرا تجيد الريح الصفير في خوائها، كهذا السطحي الذي يتحدث عن أركون وكأنه سيحملنا إلى القرن الأربعين فيقول متحسرا على ابن رشد من إقصائيتنا وشراستنا: (إن الثقافة العربية معادية للفلسفة ونابذة للإبداع ونافرة من المبدعين ونافية لهم، فكل الأفذاذ الذين أشرتَ إليهم قد تتلمذوا على الثقافة اليونانية فهم أفرادٌ مبدعون خارج سياق الثقافة العربية السائدة، وهم يشبهون في عصرنا الحاضر محمد أركون ومحمد عابد الجابري ومطاع صفدي وطه حسين ومحمود أمين العالم وأمثالهم فهم ينقدون الثقافة العربية السائدة من

داخلها ولكن بأدوات ومعارف من خارجها) وإلا فأي خواء يعيشه شخص لا يفرق بين الجابري وأركون، إن قراءة مقالات هؤلاء الخواء تفصح عن التالي:
لكي تكون عبقريا عند هؤلاء البسطاء ومبدعا فعليك أن تحشر ما استطعت من مصطلحات، وأن تأتي بها بطريقة تستغلق عليهم، عندها ستصبح مبدعا، ولو قلت أن الأرض مخروطية الشكل. ولا أدل على ما أقوله مثل التفاصيل.. ففي التفاصيل يكمن الشيطان وينفضح الخواء، فهذا د. الفجاري في دراسته عن أركون يقول أن لديه "أي أركون" القدرة على إثبات لا تاريخية العقل الإسلامي التأريخي، أي خرافية وأسطورية مرويات السنة، لأن العقل الإسلامي التاريخي ليس له القدرة على النقد واقتصاره على النقل، و"الفجاري" يقدم نموذجا للجهل النقدي المركب عند العلمانيين العرب الذين ورطوا أنفسهم بقراءة التراث دون أن يعوا أدوات التراث الإسلامي نفسه وآلياته التي استخدمها نقاده، فيعقب على أركون، لا لأنه اتهم العقل التاريخي الإسلامي بـ "اللا تاريخية" ولكن لأن أركون "في نظره" انتقائي في النماذج التي يقدمها كدليل على أطروحته، وهما أنموذج الطبري وابن إسحاق، فالتاريخ الإسلامي في نظر الفجاري قدم نماذج نقدية عملاقة، أفضل منهما كابن خلدون.
يقول "الفجاري - ١٤٩": (يثبت أركون لا تاريخية العقل الإسلامي التأريخي بتحديد عدم قدرته على "تحقيق" التاريخ وعدم النظر إليه نظرة نقدية. وهو محق عندما يعتمد لذلك الطبري وابن إسحاق، ولكن ليس محقاً عندما تجاهل ابن خلدون. فلذلك يندرج ضمن الدراسة الانتقائية، لأن العقل الإسلامي التأريخي لا يتوقف عند هذين المؤرخين كما أنه لا يستقيم من خلال دراسة النماذج المحدودة. وهذا من شأنه أن يدرج خطابه عن العقل الإسلامي ضمن القراءة الفكرانية للتراث بحكم نزوعها إلى إبراز فكرة مسبقة، هي فكرة لا تاريخية العقل الإسلامي. فابن خلدون قطع معرفياً مع العقل اللا تاريخي التقليدي، حين دعا إلى ضرورة التحقيق والاعتبار. ثم ينقل الفجاري دليله من قول ابن خلدون في مقدمته: (الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحياد عن جادة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسدين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل")
الفجاري هنا يقدم نفسه لقرائه على أنه متقدم في النقد للعقل التاريخي على أركون الانتقائي، لكن دليله ونماذجه التي ساقها تكشف جهله المركب، وكما أكرر دائما: "لكي تكشفوا المفكرين العرب اتجهوا للتطبيق.. للنماذج.. للأمثلة، لا للتنظير، فهم أساتذة في بناء الأحلام والقصور في الهواء".
الفجاري هنا يؤيد أركون في كون عقلية الطبري وابن إسحاق في نقل التاريخ "لا تاريخية" ومزيفة، لكنه يصف أركون بالانتقائي لقفزه على النموذج الخلدوني الرائع، وهنا يتضح الجهل المركب لدى الفجاري، فهو كمقلدي أركون البلهاء الذين

استخفهم بحشره للمصطلحات العلمية الحديثة، وهذا ما ادهش به ابن خلدون الفجاري وأمثاله، فبمجرد قراءته لمقدمة ابن خلدون وما فيها من جمل وأفكار نقدية رائعة، حتى قام بالتسليم له ببلاهة، ولعل النقاط التالية التي لا يعرفها الفجاري، والتي تعنى بفترة الوحي والسيرة النبوية تكشف حجم الجهل المركب الذي يعنيه الفجاري:

ابن خلدون في مقدمته غيره في سرده ونقله، فهو في المقدمة ناقد حصيف، وفي السرد التاريخي حاطب ليل، ليس لعمله أي قيمة علمية، بل هو قريب جدا من رويات الكتاب المقدس.

ابن خلدون لم يكن سوى عالة على الطبري وابن إسحاق وغيرهما من المؤرخين السابقين.

يتمتع الطبري وابن إسحاق بمنهج توثيقي علمي متفوق ومتقدم جدا على ابن خلدون، فابن خلدون الذي جاء تاريخه سردا غير علمي، ودون تثبت ودون ذكر لوثيقة أو مرجع أو إحالة تتيح للناقد فحص تأريخه لتلك الفترة ونقده، نجد ابن إسحاق والطبري يقدمان أنموذجا علميا رائعا لم يسبقهما أحد إليه في العالم سوى رواة الحديث النبوي، وسأسوق بعض النماذج الرائعة لهما وغير المسبوقة على مستوى العالم كله، ولكن بعد النقطة التالية.

يقول أركون "نقلا عن نقد العقل ١٦٥" في انتفاخ هلامي: (ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الحياة الأسطورية لجيل ابن إسحاق، الذي راح منذ ذلك الوقت يحور في شخص النبي وشخصيته التاريخية. وينبغي أن ندرسها ضمن منظور منفتح إلى أبعد حد على مشاكل علم النفس التاريخي، أقصد مسائل الإدراك العقلاني والخيالي للماضي) هذا الهراء الأركوني في تناول شخصية المؤرخ الدقيق ابن إسحاق يفصح عن دخيلة لا تتمتع باحترام المنهج العلمي النقدي رغم ترديدها له، ولا باحترام عقلية القارىء بالتفكير نيابة عنه، وإلا فأي دراس لمنهجية ابن إسحاق – وقد أمضيت مع هذه الشخصية الدقيقة أكثر من ربع قرن أدرس فيها نصوصه ووثائقه في السيرة النبوية، فمن هو ابن إسحاق الذي يتهمه أركون بالتزوير والفجاري باللا تاريخية؟

ابن إسحاق والسيرة باختصار

هذا المؤرخ العظيم الذي ندين له بحفظ وثائق من السيرة النبوية غاية في الأهمية، يشطبه أركون بسطر واحد، كما شطب قبله "موريس بوكاي" و"روجيه جارودي"، هكذا ودون مبررات علمية أو حتى وجهة نظر محترمة، فليس لدى أركون سوى الإيديلوجيا والضغينة ضد كل ما هو إسلامي، وإلا فلو كان صاحب نقد علمي، لبين لنا كيف زور ابن إسحاق السيرة النبوية، بدلا من أن يلقينا في التيه مرة أخرى.. بدلا من أن يقول لنا أنه لا بد من دراسة الحياة الأسطورية التي كانت تحف بابن إسحاق، وأنه لا بد من دراسة الظروف التاريخية السابقة واللاحقة له، ومطالب أسطورية تجعلنا نخرس ونناشد أركون بالله أن يكف فقد سلمنا له بعجزنا عن تلك المطالب، وأن العالم كله لا يستطيع معنا أن يقوم بتلك المهمة النقدية

الخرافية، التي تذكرني بأسئلة الملاحدة الصبيانية عندما يقول أحدهم: (إذا كان الله موجودا فليحرك هذه الصخرة من مكانها) أركون بمطالبه التي يدرك قبل غيره أنها هي عين التلاعبات التي يرمي بها كل من لا يتساوق مع إيديلوجيته ومواقفه المعلبة في فرنسا.
لنعد إلى ابن إسحاق لنكشف حجم الغباء الأركوني والتعمية التي يريد فرضها بتلك المطالب الأسطورية على تلك الشخصية التاريخية الفذة. فبعد دراسة قمت بها بعنوان "السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة" قمت بدراسة نقدية موسوعية لمرويات السيرة، وقد قمت بفرز الصحيح في كتاب منفصل، سميته "صحيح موسوعة السيرة" وهو يمثل تقريباً عشر الموسوعة، أي أن مرويات السيرة الضعيفة قد تصل إلى ٩٠% من مجموع المرويات، أما نصيب ابن إسحاق في تلك المرويات الصحيحة فشيء لا يعرفه أركون، إنه لا يتجاوز ثلث مرويات البخاري وحده في هذا الموضوع، وحتى أكون أكثر دقة: أقول أن مرويات ابن إسحاق الصحيحة في السيرة بلغت حوالي ٩٤ تزيد أو تنقص رواية أو روايتين، بينما بلغت مرويات البخاري ٣٦٥ تزيد أو تنقص رواية أو روايتين، ولعلي ألخص جهل أركون بشخصية ابن إسحاق بالنقاط التالية:
ابن إسحاق ليس هو المصدر الوحيد في مرويات السيرة، فقد سبقه عروة بن الزبير وغيره.
ابن إسحاق لم يكن حاطب ليل كابن خلدون مع تقديري الكبير لنظرياته النقدية التي لم يطبق منها شيئا عند تناوله للسيرة.
ابن إسحاق صاحب منهج علمي سبق به العالم – عدا المحدثين أي رواة الحديث – وهي الدليل الدامغ على جهل أركون بمنهجه، فعند تصفح سيرته، أو سيرة ابن هشام التي هي لا بن إسحاق مع بعض الإضافات، التي لا تكاد تذكر، نجد أن ابن إسحاق لا يروي رواية إلا وذكر لنا مصدرها، عكس ابن خلدون الذي يجمع عشر روايات دون تفصيل في سياق واحد، وكأنه أحد القصاصين لا المؤرخين.
عبارات ابن إسحاق كانت من الدقة بحيث مكن الدارسين لسيرته من فرز الروايات وفحصها دون عناء، وإليك أهم إحالاته العلمية:
(حدثني) وهي عبارة يعبر بها عن سماعه لأستاذه الذي أخذ عنه تلك الوثيقة.
(عن فلان.. ويسميه) وهي ما يسمى بالعنعنة وابن إسحاق يستخدم هذه العبارة عندما لا يكون قد سمع من المصدر، أو حدثه شخص عن هذا الفلان، لكن هذا الشخص قد لا يكون مرضيا عند النقاد، وإن كان مرضيا عند ابن إسحاق نفسه، لذا يقوم باستخدام التعمية حتى ينفلت الوقوع بالكذب، لأن كلمة "عن" تعفي صاحبها من تهمة الكذب.
(حدثني من أثق به، أو حدثني من لا أتهم) وهي صفة يطلقها ابن إسحاق على رجل يثق به وبروايته، لكن هذا الرجل مجهول عند النقاد، لذا يبقيه مجهولا، ويظهر صفته التي يؤمن هو بها دعما لروايته.

(بلغني عن فلان) ويعبر بها عن أخبار من هنا وهناك لا يستطيع الجزم بصحتها، ولا يجازف بذكر أسماء أصحابها، لأنها روايات عادة مختلطة يصعب فرزها.
(قال فلان) وهي تشبه كثير (عن فلان)
(قال ابن إسحاق) وهي أخبار تنامت إلى ابن إسحاق دون تحديد مصدرها وهي التي تسمى بلاغات ابن إسحاق وهي دون سند.

النقاد وابن إسحاق

قبل أن يخلق أركون والمستشرقون المتعصبون، أخضع نقاد الحديث الإمام ابن إسحاق لفحص دقيق، وقد وثقه النقاد عدا الإمام مالك، فقد كان بينهما شحناء بسبب نقد ابن إسحاق لمالك، وهي عادة ما تكون بين الأقران، وتكون مركزة بشدة بين شخصين اثنين لا يشاركهما فيه أحد، لكن العلماء لم يوثقوه على الإطلاق، لقد اتهموه بتهمة التدليس مع توثيقه، أي أنهم عابوا عليه قوله عن شخص لم يسمع منه: (عن) ولذا قال الناقد الإمام: (أحمد بن حنبل : كان ابن إسحاق يدلس إلا أن كتاب إبراهيم بن سعد إذا كان سماع قال: حدثني ، وإذا لم يكن قال : قال - رواة التهذيبين - ٥٧٢٥)

خلاصة نقدية في مرويات ابن إسحاق

مما سبق يتبين أن خلاصة رأي النقاد في ابن إسحاق هو أنه كما قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب – ٤٦٧ : (محمد بن إسحاق بن يسار أبو بكر المطلبي مولاهم المدني، نزيل العراق إمام المغازي صدوق يدلس)، وهذه الخلاصة مؤداها، أن الرجل صدوق، وهي رتبة متوسطة غير ضعيفة، لكنها لا ترقى إلى درجة الثقة، كما أن حديثه لا يقبل في كل عباراته وإحالاته السابقة وهي: (عن فلان.. قال فلان.. بلغني.. قال ابن إسحاق) لتتبقى إحالة واحدة فقط تقبل فيها روايته وهي: (حدثني) وحتى هذه لا تقبل عندما يقول: (حدثني الثقة.. أو حدثني من أثق به.. أو حدثني من لا أتهم). لأن هذه العبارة فيها تصريح بالسماع دون تدليس، لكن الشيخ هنا مجهول، ولا بد من كشف شخصيته، فقد يكون ثقة عند ابن إسحاق، لكنه ضعيف عند غيره، كما في نموذجين هما: (الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس) و(محمد بن أبي محمد) فهو يوثقهما في رواية دون ذكر الإسم، ويصرح بهما في موضع آخر مع ذكر الإسم، والأول ضعيف والآخر مجهول. إذا فلا تقبل رواية ابن إسحاق إلا بشروط:
استخدام أسلوب التصريح بالسماع.
أن يكون شيخه مصرحا باسمه وثقة.
أن يكون السند متصلا حتى النبي صلى الله عليه وسلم.
أن يتجاوز بقية السند الفحص العلمي الدقيق.
وحتى يكون الأمر موثقا، لا على طريقة أركون الهلامية، أسوق نموذجين لموضوع واحد هو "غزوة أحد" أحدهما من تاريخ ابن خلدون، والنموذج الآخر من سيرة ابن إسحاق حتى أكشف أوهام وأكاذيب أركون والفجاري النقدية.

نموذج ابن خلدون العشوائي في غزوة أحد.

يقول ابن خلدون ٢ ـ ٤٣٤: (لما سار "عليه السلام" بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي في ثلث الناس مغاضبا لمخالفة رأيه في المقامة، و سلك رسول الله صلى الله عليه و سلم حرة بني حارثة، ومر بين الحوائط وأبو خثيمة من بني حارثة يدل به حتى نزل الشعب من أحد مستندا إلى الجبل، وقد سرحت قريش الظهر والكراع في زروع المسلمين، وتهيأ للقتال في سبعمائة فيهم خمسون فارسا و خمسون راميا، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير من بني عمرو بن عوف والأوس أخو خوات، ورتبهم خلف الجيش ينضحون بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من خلفهم، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار، وأجاز يومئذ سمرة بن جندب الفزاري ورافع بن خديج من بني حارثة في الرماة وسنهما خمسة عشر عاما.

ورد أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب، ومن بني مالك بن النجار: زيد بن ثابت وعمرو بن حرام، ومن بني حارثة: البراء بن عازب و أسيد بن ظهير، ورد عرابة بن أوس و زيد بن أرقم و أبا سعيد الخدري سن جميعهم يومئذ أربعة عشر عاما. وجعلت قريش على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل، وأعطى عليه السلام سيفه بحقه إلى أبي دجانة سماك بن خرشة من بني ساعدة، وكان شجاعا بطلا يختال عند الحرب، وكان مع قريش ذلك اليوم والد حنظلة غسيل الملائكة أبو عامر عبد عمرو بن صيفي مالك بن النعمان في طليعة، وكان في الجاهلية قد ترهب و تنسك، فلما جاء الإسلام غلب عليه الشقاء وفر إلى مكة في رجال من الأوس، وشهد أحداً مع الكفار، وكان يعد قريش في انحراف الأوس إليه لما أنه سيدهم فلم يصدق ظنه، ولما ناداهم و عرفوه قالوا: لا أنعم الله لك علينا يا فاسق.

فقاتل المسلمون قتالا شديدا، وأبلى يومئذ حمزة وطلحة وشيبة وأبو دجانة والنضر بن أنس بلاء شديدا، وأصيب جماعة من الأنصار مقبلين غير مدبرين، واشتد القتال، وانهزم قريش أولا، فخلت الرماة عن مراكزهم، وكر المشركون كرة وقد فقدوا متابعة الرماة، فانكشف المسلمون واستشهد منهم من أكرمه الله، ووصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، و قاتل مصعب بن عمير صاحب اللواء دونه حتى قتل، وجرح رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه و كسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر وهشمت البيضة في رأسه، يقال إن الذي تولى ذلك عتبة بن أبي وقاص وعمرو بن قميئة الليثي، وشد حنظلة الغسيل على أبي سفيان ليقتله، فاعترضه شداد بن الأسود الليثي من شعوب فقتله، وكان جنبا فأخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن الملائكة غسلته.

و أكبت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى سقط من بعض حفر هناك، فأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة حتى قام، ومص الدم من جرحه مالك بن سنان الخدري والد أبي سعيد، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه صلى الله عليه وسلم، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، فندرت ثنيتاه فصار أهتم، ولحق

المشركون رسول الله صلى الله عليه و سلم، وكر دونه نفر من المسلمين فقتلوا كلهم، وكان آخرهم عمار بن يزيد بن السكن، ثم قاتل طلحة حتى أجهض المشركون وأبو دجانة يلي النبي صلى الله عليه وسلم بظهره وتقع فيه النبل فلا يتحرك، وأصيبت عين قتادة ابن النعمان من بني ظفر فرجع وهي على وجنته، فردها عليه السلام بيده فصحت وكانت أحسن عينيه.
و انتهى النضر بن أنس إلى جماعة من الصحابة وقد دهشوا وقالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال فما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم استقبل الناس و قاتل حتى قتل، ووجد به سبعون ضربة وجرح يومئذ عبد الرحمن بن عوف عشرين جراحة بعضها في رجله، فعرج منها وقتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم قتله وحشي مولى جبير بن مطعم بن عدي، وكان قد جاعله على ذلك بعتقه، فرآه يبارز سباع بن عبد العزى فرماه بحربته من حيث لا يشعر فقتله.
ونادى الشيطان: ألا أن محمدا قد قتل. لأن عمرو بن قميئة كان قد قتل مصعب بن عمير يظن أنه النبي صلى الله عليه و سلم، وضربته أم عمارة نسيبة بنت كعب بن أبي مازن ضربات فتوفي منها بدرعيه، وخشي المسلمون لما أصابه ووهنوا لصريخ الشيطان، ثم إن كعب بن مالك الشاعر من بني سلمة عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنادى بأعلى صوته يبشر الناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: أنصت.
فاجتمع عليه المسلمون ونهضوا معه نحو الشعب، فيهم أبو بكر وعمر وعلي والزبير والحرث بن الصمة الأنصاري و غيرهم، وأدركه أبي بن خلف في الشعب، فتناول صلى الله عليه و سلم الحربة من الحرث بن الصمة، وطعنه بها في عنقه فكر أبي منهزما، وقال له المشركون: ما بك من بأس! فقال: والله لو بصق علي لقتلني، وكان صلى الله عليه و سلم قد توعده بالقتل فمات عدو الله بسرف مرجعهم إلى مكة، ثم جاء علي رسول الله صلى الله عليه و سلم بالماء فغسل وجهه و نهض فاستوى على صخرة من الجبل، وحانت الصلاة فصلى بهم قعودا وغفر الله للمنهزمين من المسلمين و نزل: {إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان} الآية و كان منهم عثمان بن عفان و عثمان بن أبي عقبة الأنصاري
واستشهد في ذلك اليوم حمزة كما ذكرناه وعبد الله بن جحش و مصعب بن عمير في خمسة و ستين معظمهم من الأنصار وأمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يدفنوا بدمائهم و ثيابهم في مضاجعهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم، وقتل من المشركين اثنان وعشرون منهم الوليد بن العاص بن هشام وأبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة وهشام بن أبي حذيفة بن المغيرة وأبو عزة عمرو بن عبد الله بن جمح و كان أسر يوم بدر فمن عليه، وأطلقه بلا فداء على أن لا يعين عليه، فنقض العهد وأسر يوم أحد و أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم بضرب عنقه صبرا، وأبي بن خلف قتله رسول الله صلى الله عليه و سلم بيده. وصعد أبو سفيان الجبل حتى أطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونادى بأعلى

صوته: الحرب سجال.. يوم أحد بيوم بدر.. اعل هبل وانصرف وهو يقول: موعدكم العام القابل. فقال عليه السلام: قولوا له هو بيننا و بينكم. ثم سار المشركون إلى مكة، ووقف رسول الله صلى الله عليه و سلم على حمزة، وكانت هند وصواحبها قد جدعنه وبقرن عن كبده، فلاكتها ولم تسغها، ويقال إنه لما رأى ذلك في حمزة قال:لئن أظفرني الله بقريش لأمثلن بثلاثين منهم، ورجع رسول الله صلى الله عليه و سلم وأصحابه إلى المدينة، ويقال إنه قال لعلي: لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا)

هذا السياق الجميل الذي يرحل بالمشاعر ويفتن القلب، أسلوب قصصي بارع لكن لا قيمة علمية له، لأن ابن خلدون كان فيه حاطب ليل، جمع بعشوائية جميلة قصصا صحيحة مع ضعيفة مع مكذوبة، وساقها بأسلوب مدهش. والسؤال هنا أين الفجاري من هذا السياق مقارنة مع نص قصير جدا أسوقه من سيرة ابن إسحاق لا يتجاوز الصفحة.

نموذج لدقة ابن إسحاق العلمية.

السياق التالي الذي يرويه ابن إسحاق حول غزوة أحد أقصر من سياق ابن خلدون، وأقل معلومات، لكن تفاصيله تمثل فضيحة علمية لأركون والفجاري، فضيحة تقضي على ما تبقى لديهما من مصداقية وحياء وعلمية، فبمقارنة جزء مما رواه ابن إسحاق مع ما ساقه ابن خلدون حول غزوة أحد، ينكشف مستوى النقد للتراث عند العلمانيين العرب. مع ملاحظة أن هذه الروايات تمثل جزءا من مرويات الغزوة، اقتصرت عليها خشية الإطالة، ولكنها تفي بالغرض، وقد رقمتها من أجل أن يتضح مرادي من إيراد النص كدليل على ما أقول. يقول ابن إسحاق في سيرته (٣٠١):

١- حدثني صالح بن كيسان عمن حدثه عن سعد بن أبي وقاص، أنه كان يقول: ما حرصت على قتل أحد ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت سيء الخلق مبغضا في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله: اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله، فبينما رسول الله صلى الله عليه و سلم في الشعب معه أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عالية على الجبل فقال رسول الله: إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا. فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم عن الجبل، ونهض رسول الله إلى الصخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد بدن، و ظاهر رسول الله بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها.

٢- أخبرنا عبد الله بن الحسن الحراني قال حدثنا النفيلي قال نا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحاق قال حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: أوجب طلحة. حين صنع ما صنع برسول الله، وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله حتى انتهى بعضهم إلى المنقا دون الأعوص، و فر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد

بن عثمان رجلان من الأنصار ثم من بني زريق حتى بلغوا الجلعب "جبلا بناحية المدينة" فأقاموا به ثلاثا، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله – (فيما زعموا) - : لقد ذهبتم فيها عريضة.
٣- أخبرنا عبد الله بن الحسن الحراني قال حدثنا النفيلي قال نا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد أن حنظلة بن أبي عامر أخي بني عمرو بن عوف: أنه التقى هو و أبو سفيان بن حرب، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود، وكان يقال له "ابن شعوب" قد علا أبا سفيان، فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله: إن كان صاحبكم - يعني حنظلة - لتغسله الملائكة فسلوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت صاحبته فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهائعة. فقال رسول الله: لذلك غسلته الملائكة.
٤- أخبرنا عبد الله بن الحسن الحراني قال حدثنا النفيلي قال نا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحاق قال: و قد وقفت هند بنت عتبة (كما حدثني صالح بن كيسان) والنسوة اللاتي كن معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم.. يجدعن الآذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خدما و قلائد وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشيا بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت من الشعر حين ظفروا بما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم:

نحن جزيناكم بيوم بدر

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف فقالت:

خزيت في بدر وبعد بدر

ثم أن أبا سفيان حين أراد الإنصراف علا الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر.. أعل هبل أي ظهر دينك. فقال رسول الله لعمر رحمة الله عليه: قم فأجبه: الله أعلى و أجل.. لا سواء.. قتلانا في الجنة و قتلاكم في النار. فلما أجاب أبا سفيان قال: هلم إلي يا عمر. فقال له رسول الله: ائته. فانطلق فقال: ما شأنه ؟ فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟ قال: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن. قال: فأنت والله أصدق عندي من ابن قميئة وأبر. - لقول ابن قميئة : قتلت محمدا - ثم نادى أبو سفيان: إنه كان في قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت، وما أمرت و لا نهيت، و لما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القادم.
فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل : نعم، هي بيننا و بينك موعدا، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم علي بن أبي طالب فقال: اخرج في أثر القوم، فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون.. فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، و إن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم. قال علي رحمة الله عليه: فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون، فلما جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى

مكة أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم ما أمرني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما بي من الفرح إذ رأيتهم انصرفوا عن المدينة.
٥- أخبرنا عبد الله بن الحسن الحراني قال حدثنا النفيلي قال نا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحاق قال: و فرغ الناس لقتلاهم فقال رسول الله كما حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن صعصعة المازني أخو بني النجار: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أخو الحارث بن الخزرج في الأحياء أو في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله بما فعل. فنظر فوجده جريحا في القتلى فيه رمق، فقال: إن رسول الله أمرني أن أنظر له أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: فأنا في الأموات، فأبلغ رسول الله عني السلام و قل له: أن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل: إن سعد بن الربيع يقول لكم: أنه لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم و منكم عين تطرف. ثم لم أبرح حتى مات رحمة الله عليه، فجئت رسول الله فأخبرته خبره، فخرج رسول الله (فيما بلغني) يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثل به و جدع أنفه و أذناه.
٦- أخبرنا عبد الله بن الحسن الحراني قال حدثنا النفيلي قال نا محمد بن سلمة عن محمد بن اسحاق قال حدثني محمد جعفر بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدي ما غيبته، ولتركته حتى يكون في بطون السباع و حواصل الطير.

مكمن دقة ابن إسحاق

السياق الماضي يحتوي قدرا من المعلومات أقل مما أورده ابن خلدون بكثير، لكنه مكتنز بالثراء التوثيقي النادر تاريخيا، بل الذي لا مثيل له على مستوى الأمم الأخرى، فابن إسحاق لم يدمج تلك الوثائق في سياق واحد دون فواصل كما فعل ابن خلدون، ولم ينتق من الروايات ما يشتهي ويستبعد ما لايشتهي كما فعل ابن خلدون، ولم يتهور بانتقاء المراجع الأقوى وجعلها للقصة الأجمل والأثرى. كان ابن إسحاق يحتفظ بوثائقها لمن بعده، ويسلمها كما استلمها دون حذف أو إضافة:
- الوثيقة رقم "١" لو تأملناه فيها لوجدناه لم يقل فيها: "عن"، بل صرح بأخذ الوثيقة عن مرجع محدد أخذ ويحيلنا إليه، وهو أستاذه صالح بن كيسان، وصالح له ترجمة عظيمة حاز فيها على قبول نقاد الجرح والتعديل، يلخصها المؤرخان الذهبي وابن حجر بالتالي: يقول ابن حجر: ثقة ثبت فقيه. ويقول الذهبي: ثقة جامع للفقه والحديث والمروءة – رواة التهذيبين - رقم ٢٨٨٤.
لكن هل يكتفي ابن إسحاق بهذا الأستاذ الثقة والمرجع الموثوق؟ لا.. إنه يكشف لنا عن مرجع صالح بن كيسان بكل أمانة ودقة، فيقول: حدثني صالح بن كيسان عمن حدثه عن سعد بن أبي وقاص.
وهنا تتجلى الدقة والأمانة التي لا يعرفها أركون في ابن إسحاق، لكنه يعرف كيف يشتمه ويتهمه. إن مرجع ابن كيسان هو رجل مجهول، وهذا المجهول روى عن

شاهد عيان هو سعد بن أبي وقاص. لكن للأسف شهادة العيان هذه لم تفلح في تمرير النص، نظرا لجهالتنا بالواسطة بين سعد وابن كيسان. هذه واحدة.
- فإذا تأملنا الوثيقة رقم ٢، لوجدنا ابن إسحاق يحيلنا على مرجع آخر، فيقول: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول: أوجب طلحة. حين صنع ما صنع برسول الله، وقد كان الناس انهزموا عن رسول الله حتى انتهى بعضهم إلى المنقا دون الأعوص، و فر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان رجلان من الأنصار ثم من بني زريق حتى بلغوا الجلعب "جبلا بناحية المدينة" فأقاموا به ثلاثا، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله – (فيما زعموا) - : لقد ذهبتم فيها عريضة.
وهذه الوثيقة الثانية مؤشر على مستوى الأمانة العلمية التي يتمتع بها ابن إسحاق رحمه الله، فهي تتحدث عن الموضوع السابق نفسه، ومع ذلك لم يسمح ابن إسحاق لنفسه بدمج النصين في سند واحد أو حتى سياق واحد كما فعل ابن خلدون، بل يحيلنا على مصدر الوثيقة التي تلقاها عن شيخه يحيى بن عباد، ويحيى هذا ثقة حسب ترجمته عند نقاد الجرح والتعديل، وهو قد تلقاها من جده الصحابي عبد الله بن الزبير. لكن المدهش في هذه الوثيقة، والذي يؤكد نزاهة ابن إسحاق ودقته في نقل الوثائق، وأمانته التي لا تتوفر في غير مؤرخي هذه الأمة الثقات، ولم تعرفها الدنيا من قبل فهو الكلمة التي وضعتها بين القوسين، أي كلمة: (فيما زعموا) وهي رد على تهورات أركون وسخافاته في تصوير هذا المؤرخ العظيم كمزور.
ماذا تعني كلمة (فيما زعموا)؟ لنتأمل العبارة من جديد..: ابن إسحاق يروي الوثيقة متصلة إلى عبد الله الزبير بن العوام، فلما وصلت القصة إلى كلمة (رجعوا) اتخذت الوثيقة منحى مختلفاً تماما، فالسياق حتى هذه الكلمة لابن الزبير، وفجأة يسلط ابن إسحاق كواشف ضوئية تكشف تلصص أركون على التاريخ الإسلامي والسيرة، وبالتالي تسلط الضوء على بلاهة المعجبين بأركون والمقلدين له، كما يقضي على أكذوبة أركون حول المحيط الأسطوري الذي يحف بابن إسحاق. يقول ابن إسحاق: " ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله – (فيما زعموا) - : لقد ذهبتم فيها عريضة."
إن كلمة فيما زعموا تقوم بفرز كامل لما بعدها عما قبلها، وتفصل ما يأتي من السياق عن أوله، فهما وثيقتان في سياق واحد، على طريقة ابن إسحاق والطبري والمحدثين والرواة الثقات، لا على طريق ابن خلدون، فكلمة (فيما زعموا) تعني أمورا ثلاثة خطيرة على مستوى التوثيق العلمي هي:
أن ابن الزبير روى الخبر الأول وهو موثق بسند قوي متصل.
أن القول المنسوب للنبي صلى الله عليه وسلم في السياق تم عزله تماما عن الحدث السابق وثائقيا، وإن كان يتلاحم به من ناحية السياق، لكن ابن إسحاق، لم يحلنا فيه على مرجع يستند عليه، وهو لم يجد له سندا قويا أو حتى ضعيفا، ولا

يسمح لنفسه على الإطلاق أن يركب له سندا، لذا اتجه إلى توثيق مرجعيته للحديث النبوي، لا إلى توثيق الحديث نفسه، وذلك بالجملة الاعتراضية: (فيما زعموا) أي فيما نما إلى علمي وسمعي من المحيط العلمي والرواة والإخباريين، لكن دون تحديد.

إن كلمة (فيما زعموا) تنسف أكذوبة أركون حول الحياة الأسطورية المحيطة ابن إسحاق في قوله المتهالك: (ينبغي علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الحياة الأسطورية لجيل ابن إسحاق، الذي راح منذ ذلك الوقت يحور في شخص النبي وشخصيته التاريخية. وينبغي أن ندرسها ضمن منظور منفتح إلى أبعد حد على مشاكل علم النفس التاريخي، أقصد مسائل الإدراك العقلاني والخيالي للماضي)

إن هذه الكلمات تفصح عن شخصية مهووسة بالمصطلحات دون أن تعي ما تتحدث عنه وتتصدى له، وكأن أركون يحسب أنه وبمجرد قوله للقاري أنه لا بد أن نعرض حقبة ابن إسحاق الأسطورية على علم النفس التاريخي، سوف يخيفه بهذا المصطلح، فيستسلم لتنويمه المغناطيس الذي يمرر من خلاله اتهاماته لابن إسحاق، بأنه يزور شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، ظن أركون أنه سيمارس شعوذته علينا فننساق معه في كيل الاتهامات لابن إسحاق معه ونحن نغمض أعيننا عن وثائق ابن إسحاق ودقته.

إن الوثيقة وما بعدها تكشف عن جهل موحش يعيشه أركون مع تراث السيرة، وإلا لو كان ابن إسحاق مزورا ومحورا لسمح للحديث النبوي أن يندمج مع السياق وسنده، لكن ابن إسحاق قال: " ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال رسول الله – (فيما زعموا) - : لقد ذهبتم فيها عريضة." فأين التحوير يا أركون، إنني لا أراه إلا في رأسك وإيديلوجيتك العمياء المهووسة بالتعصب لكل ما يعادي الإسلام. أين وثائقك التي تدين ابن إسحاق، وما الذي ينفثه علم النفس التاريخي في روعك... أما:

- الوثيقة رقم ٣ وفيها يقول فيها ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد... قصة أخرى يحيلنا فيها ابن إسحاق إلى مرجع هو تاريخيا وعلميا أقوى منه.. وهو عاصم بن عمر بن قتادة، والذي يقول عنه ابن سعد الرجل الثاني في توثيق السيرة بعد ابن إسحاق: (كان راوية للعلم وله علم بالمغازي والسيرة، أمره عمر بن عبد العزيز أن يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة ففعل، وكان ثقة كثير الحديث عالما - تهذيب التهذيب ٥ - ٤٧، وقول ابن سعد هذا لا يختلف عن حكم بقية النقاد)، ومع ذلك لا يعفي ابن إسحاق نفسه من سؤال مرجعه عاصم بن عمر الذي يحيله إلى صحابي صغير ولد بعيد المعركة. وهنا يقف السند.

- الوثيقة الرابعة: وفيها يقول ابن إسحاق" و قد وقفت هند بنت عتبة (كما حدثني صالح بن كيسان) والنسوة اللاتي كن معها....إلخ " وهنا يعود بنا ابن إسحاق إلى سند الوثيقة الأولى لكن مع جودة أقل، فالثقة ابن كيسان هذه المرة لم يحلنا إلى أي مرجع، وهنا نجد أمانة ابن إسحاق العلمية، فهو لم يدمج الوثيقة الرابعة مع الأولى

مع اتحاد الموضوع "غزوة أحد"، لذا فالوثيقة الرابعة لا قيمة علمية لها حسب منهج نقاد الحديث، وهي لا تعدوا كونها قصصاً جميلة وأحاديث تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم وأشعاراً متداولة وقد تكون مجرد أكاذيب، ومن الواضح أن هذه الوثيقة الضعيفة من مصادر ابن خلدون التي لا نعرفها حتى اليوم.
- الوثيقة الخامسة وفيها يقول ابن إسحاق: " و فرغ الناس لقتلاهم فقال رسول الله كما حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن صعصعة المازني أخو بني النجار: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع .... فخرج رسول الله (فيما بلغني) يلتمس حمزة..... إلخ" وهذه الوثيقة لا تقل تواضعا عما قبلها، فابن إسحاق يحيلنا على مرجعه وهو ابن أبي صعصعة وهو كما يقول تلميذه (ابن إسحاق: كان ثقة وذكره بن حبان في الثقات..... وقال بن سعد: كان ثقة قليل الحديث. وقال مالك: كان لآل أبي صعصعة حلقة في المسجد وكانوا أهل علم ودراية وكلهم كان يفتي - تهذيب التهذيب ٩ - ٢٣٤) لكن ابن صعصعة لم يسعفنا بمصادره، بل يروي خبرا وصله من الأجواء المحيطة به دون تحديد، مما يجعل خبره مفتوحا على كل الاحتمالات التي تجعله غير متماسك، وغير قادر على الحصول على الدرجة المطلوبة للمصداقية عند نقاد الجرح والتعديل، ورغم جهالة المصدر إلا أن ابن إسحاق لم يداخل بين أطراف الخبر، فهو يواصل حيثه فيقول: " فخرج رسول الله (فيما بلغني) يلتمس حمزة " وهنا يتساءل المنصف لا المتعصب كأركون: ما الذي يمنع ابن إسحاق من صياغة وثيقة البحث عن حمزة مع وثيقة ابن صعصعة مادامت لن تقدم أو تؤخر، والإجابة هي في حس ابن إسحاق واستشعاره لأهمية الدقة والمصداقية والأمانة العلمية التي يشعر بها تجاه أخبار السيرة، وهنا أيضا يتلاشى هراء أركون حول الحياة الأسطورية التي تحيط بابن إسحاق، فقد وضع ابن إسحاق جملته الاعتراضية الرائعة والمحترمة جداً: (فيما بلغني) ليحصل الناقد والقاريء على الوثائق كما استلمها ابن إسحاق، لا كما يلوثها أركون.
- الوثيقة السادسة: يحيلنا فيها ابن إسحاق إلى مرجعه فيقول: حدثني محمد جعفر بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة من بعدي ما غيبته، ولتركته حتى يكون في بطون السباع و حواصل الطير." وهنا تتلاشى تهمة الوثوقية التي يتشدق بها العلمانيون العرب، فابن إسحاق يسلم الوثيقة كما استلمها عن محمد بن جعفر – وهو ثقة كما يقول النقاد – لكنه لم يحلنا إلى مرجعه، بل إن قمة الموضوعية تتجلى في رفض هذا النوع من الخبر الذي يسميه النقاد "المعضل" قال السخاوي في (التوضيح ٤٤: والمعضل وهو المستغلق الشديد ما سقط من إسناده إثنان فأكثر على التوالي ويسمى منقطعا أيضا) وأقصد بالموضوعية هنا هي كون الراوي أحد أحفاد صفية، فصفية رضي الله عنها هي أم الزبير بن العوام، والحديث يهم العائلة فهو يتحدث عن جدتها، فلا بد أن يكونوا أكثر من غيرهم تداولا له وحرصاً على حفظه، كعادة الأسر العربية في توارث أمجاد وكلمات قيلت في أجدادها، ومع ذلك يُرفض هذا النص لعدم حصوله على الوثائق اللازمة لقبوله.

وبعد هذه المقارنة بين سياقين لموضوع واحد، أحدهما لابن خلدون والآخر لابن إسحاق، يتبين مدى الفارق الشاسع بين عقليتين، أحدهما تتمتع بالمصداقية والتثبت والحرص الشديد على كل حرف من أحرف الوثيقة وهو ما قام به ابن إسحاق بامتياز، تاركا للنقاد مهمة دراسة مروياته وثيقة وثيقة، وبين نص (حاطب ليل) عشوائي انتقائي ودون تمحيص أو تثبت أو إحالة، مارسه ابن خلدون، مع أن الموضوع واحد والقصة واحدة. ومع هذا كله يأتينا أركون بشعوذاته فيتهم ابن إسحاق بعد التثبت وبالأسطورية، ثم تأتي الطامة من "الفجاري" مطالبا باستثناء ابن خلدون من هذه الأسطورية.

كم أشعر بالصدمة وأنا أقرأ هذا الهراء لرجال يدعون دراسة العقل العربي أو الإسلامي وهم في الحضيض من الموضوعية والأمانة العلمية، وفي القمة من الجهل بالتراث النقدي الإسلامي غير المسبوق، لكن ماذا أقول.. ماذا أقول عن اتهامات أركون لعثمان وغيره من الصحابة، وقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم،واتهاماته لمن بعده، ثم اتهاماته لابن إسحاق.. حقا لا أدري ما أقول سوى إننا في زمن لا أجد أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم في دقة تصويره له عندما قال: (سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال صلى الله عليه وسلم الرجل التافه "يتكلم" في أمر العامة – سنن ابن ماجه ٢ – ١٣٣٩ والحاكم ٤-٥١٢)

فكل هذه الدقة لم تعجب هذا الرويبضة، هذه الدقة المدهشة في أحاديث وأخبار ليس فيها حلال أو حرام أو سياسة أو اقتصاد، بل هي مجرد نقل أخبار لأحداث قد لا تقدم أو تؤخر، بل هي كذلك ومع ذلك يحتاج ابن إسحاق إلى كل هذه الرحلات والجهود والتنقيب والتوثيق، بينما لا تحتاج من ابن خلدون سوى إلى قلم وقرطاس، ومع ذلك يتكلم الرويبضة فيخون الأمين ويكذب الصادق، أما نقله عن المستشرقين وسرقته لأفكارهم التافهة فقراءة علمية للتاريخية العربية الإسلامية والعقل الإسلامي.

أركون وابن إسحاق من جديد

ترى هل يعلم أركون بهذه الجهود التوثيقية والنقدية، أجزم بالعكس، وحتى لو علم لتعامى وطالبنا بمطالبه الإعجازية الأسطورية التي ألح على إيجادها لكي يتمكن من قراءة سورة الفاتحة، والتي مرت معنا أثناء تعرية الدكتور "إبراهيم عوض" لأركون.

إن هذا النوع من الكتاب لا يعي مهامه التي تصدى لها بكل تهور، والتي جعلته أضحوكة، وجعلت مصطلحاته العلمية إدانة له بعد أن أراد توظيفها كما توظف أمريكا فزاعة الإرهاب كلما أحرجت في الداخل والخارج. إن أركون بهذا ينفي نفسه ويسارع في إسقاط مشروع قراءة العقل العربي والإسلامي الذي يحاول تدشينه، ويساهم في إسقاط تلك الأخشاب البلهاء المسندة على جداره الذي يشبه جدران

مسجد الضرار، أركون بكذبه وتلاعباته وتمجيده لأساتذته المتعصبين الكبار يساهم في نزع الثقة والمصداقية والعقلانية عن كل المشاريع، التي يبشرنا بها العلمانيون والليبراليون ومقلدوهم التنويريون.
تلك نبذة مختصرة عن منهج علماء الحديث في رفضهم للإنتقائية واعتمادهم على معايير دقيقة – ستأتي لاحقا – في تقييم الرجال، وهي معايير لا تعتمد على صلاح الرجل أو مركزه الاجتماعي أو الوظيفي أو المالي أو السياسي، أو حتى علمه، لكن هذا ليس كل شيء، إنه البداية لمنهج قرآني نبوي حدد مواصفات نقل الخبر، وهي مواصفات تضمن بقاءه نقيا وسليما من التزوير. وقد قام علماء الجرح والتعديل بإيجاد آلية تضمن استمرارية ذلك المنهج وتماسكه، في وجه المتغيرات والأحداث التي عصفت بما قبله من الكتب السماوية والبشرية على حد سواء.
إذا كان أمثال هؤلاء العباد والعلماء الكبار المشهورين الثقات قد تم انتقاد روايتهم، وهم الذين لو كانوا في دين غير دين الإسلام لما تجرأ أحد على نقدهم والمساس بهم، ولأصبح قبولهم غير قابل للنقاش، بل في مرتبة الوحي تماما. ففي أهم مصادر التراث اليهودي – مثلا – يقبل اليهود رواية التوراة عن مجهول لا يعرف من هو، ولا ما ديانته، ولا اسمه، دع عنك كونه ثقة أو غير ثقة، بل ويقبلون ترجمة المترجم دون سند أو تحقيق، أو سؤال عن حال المترجم، وهل ترجم عن ترجمة، أم ترجم عن النسخة الأصلية، مع ملاحظة أن الشخص الذي كتب النسخة الأصلية للتوراة والمعتمدة اليوم لدى اليهود يقول بنفسه في سفر التثنية ٣٤ – ٥: (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم) إنه كاتب مجهول العين ومجهول الحال ومجهول الديانة ومجهول اللغة ومجهول الاسم والبلد، وهو كذلك جاهل بأهم مكان لدى اليهود بعد الهيكل وهو قبر موسى، هذا أبسط الأمثلة على الفارق بين المنهجين في التوثيق.
أما في التراث المسيحي فقد قبل المسيحيون أناجيلهم الأربعة المنسوبة لأربعة أشخاص مجاهيل هم: (مرقص ويوحنا ومتى ولوقا) هؤلاء مجهولوا العين والحال والبلد والعدالة والحفظ والعلم واللغة، ولا يعرف عنهم إلا الأسماء، بل إنهم لم يروا عيسى ولم يسمعوا منه ولا من أصحابه، فهم يروون قصة مجهولة المصدر. إنهم لا يقولون: حدثنا أو أخبرنا أو سمعنا، أو سألنا، أو رأينا أو حدثنا من رأى أو أخبرنا من سمع أو قال لنا أحد أصحاب عيسى صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جعل العلمانية الغربية تذبح الديانتين بوصفها ديانات مبنية على جهالة عمياء ونقل لا يمت للمنهج العلمي بصلة. وفي المسيحية أيضا يقوم أحد القتلة الذين نكلوا بأتباع عيسى بن مريم عليه السلام، ولا حقوهم بالتعذيب والتصفية الجسدية، يقوم بعد أن كل ومل بانتحال شخصية نبي ليمرر تعاليمه باسم عيسى عليه السلام، ويلغي الكثير من تعاليمه، بل إن مقولاته مقدمة على مقولات وأفعال عيسى بن مريم عليه السلام الذي هو في نظر المسيحيين اليوم ابن لله.

وحتى في بعض الطوائف الإسلامية مثل الإمامية الاثني عشرية، يعتبر علم الجرح والتعديل عندهم من العلوم التي لا تليق إلا بالعوام أي (أهل السنة) لأن التسليم بكل النصوص المنسوبة للأئمة لا يحتاج إلى تردد أو سؤال، لدرجة أن كتابا يعد أحد أربعة كتب هي ركائز التراث الشيعي الإمامي وهو كتاب (نهج البلاغة) والذي ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، هذا الكتاب جمعه الشاعر الأديب (الشريف الرضى) دون أسانيد على الإطلاق، وبه عبارات تنسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يستحيل أن تكون من أسلوبه، أو من أساليب الصحابة رضي الله عنهم، بل إن هناك من نسبه بالكامل لـ(الشريف الرضى) أما عن نقد مرويات الشيعة وعلم الجرح والتعديل لرواة تلك النصوص فمعدومة، فالمنهج العلمي المبني على القيام بالبحث في أحوال الرواة وتوثيقهم أو القدح فيهم، أمر غير مطروح على الإطلاق، والبديل تسليم بكل النصوص والأسانيد حتى لو جاءت عن الحمير كمثل الإسناد الموجود في أصح كتب الشيعة (الكافي) عن حمار الرسول صلى الله عليه وسلم عن أبيه عن جده عن جده الحمار الذي ركب مع نوح عليه السلام في السفينة. أما ما يقال أن لدى الشيعة أحاديث يمكن فرز الضعيف منها عن الصحيح، فأمر لا يمكن التسليم به أو حتى توقعه، نظرا لانعدام الآلية القادرة على القيام بمثل هذه العملية العلمية، فإذا كان منهج الجمع ابتداءً غير مفهوم ولا منضبط، فإن عملية الفرز تصبح مستحيلة نقدياً، ليتحول الحكم إلى حالة مزاجية، أو موقف هروبي عند الإحراج أو المناظرة مع الخصوم، وهو أمر لم يتنبه له الأخوة الإمامية حتى اليوم، وتداعيات فقدانه ستعود بنتائج كارثية على النص الإمامي وبالتالي على المذهب برمته.

إذا فالأصل عند علماء الحديث ونقاد السنة هو الشك في الراوي والرواية حتى يثبت العكس، فلا تقبل رواية راو ابتداءً، ومن لا يوجد له توثيق يصنف ضمن قائمة المرفوضين ولكن تحت مسمى آخر هو: (مجهول الحال)، أما من لا يعرف اسمه ولا من يكون فأشد ضعفا، ويطلق عليه مصطلح (مجهول العين)

بدايةً لا بد من أن يكون الرجل ثقة، أي ثقة في دينه لا يكذب، ولا يستحل الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان فيه – حسب نظرته – مصلحة للدين والأمة، كما أنه لا يعرف بارتكاب الكبائر كالخمر والزنا وقول الزور وغيرها.

وحتى لو كان ثقة في دينه، فإن روايته لا تقبل حتى يتمتع بصفة بيولوجية ضرورية هي الحفظ، فإن كان كثير النسيان أو الأوهام فلا تقبل روايته، فعلى سبيل المثال هناك عالم اسمه رشدين بن سعد، قال يزيد بن هارون: (كانت حلقته بحيال حلقة هشيم)، وهشيم هو أحد أعلام علم الحديث وأئمته الثقات تحدث عنه محمد بن عيسى بن الطباع فقال: (قال عبد الرحمن بن مهدي كان هشيم أحفظ للحديث من سفيان الثوري. فقلت لعبد الرحمن تعجبا: كان أحفظ من سفيان؟ قال: إن هشيما كان يقوى من الحديث على شيء لم يكن يقوى عليه سفيان. قال ابن الطباع: وسمعت وكيعا يقول: نحوا عني هشيما وهاتوا من شئتم. يعني في المذاكرة – تهذيب الكمال ٣٠ – ٢٨١:) هذا الحافظ والعالم (هشيم) كانت حلقته تنافس من

جهة وتعمل من جهة بالتوازي مع حلقة رشدين بن سعد، ومع ذلك يقول الإمام الذهبي ملخصا أقوال النقاد في رشدين: (كان صالحاً عابداً سيء الحفظ غير معتمد – تحفة الأحوذي ١ – ١٤٥) وقال عنه الناقد صالح بن محمد: (ليس هو عندي ممن يكذب ولكن يهم، وهو سيء الحفظ كثير الوهم، يغلط في أحاديث يرفعها ويقلبها – تهذيب التهذيب ٧ – ٣٠٣) أي أنه ربما نسب كلام الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم وربما فعل العكس، وحتى هشيم نفسه رغم كونه إماما ثقة، إلا أن النقد العلمي للجرح والتعديل لم يعفه من بعض النقدكما سيمر معنا.

وكما مر معنا في القاضي شريك، حيث وصف الناقد المحدث أحمد بن حنبل عدالته وصلاحه فقال: (كان عاقلا صدوقا محدثا شديداً على أهل الريب والبدع قديم السماع – التهذيب ٤ – ٢٩٥) ومع ذلك قال عنه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ٢٦٦ ملخصا آراء النقاد فيه: (صدوق يخطيء كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلا فاضلا عابدا شديداً على أهل البدع)

أما إن كان الراوي قوي الحفظ لكنه أصيب بمرض الخرف أو حتى ما يسمى (الزهايمر) فلا تقبل روايته، حتى يتم التأكد من حصول تلميذه على تلك الرواية قبل إصابة شيخه بالخرف، ومن أشهر العلماء المحدثين الثقات الفقيه والقاضي المصري عبد الله بن لهيعة، وقد مر الحديث عنه بالتفصيل. ترى هل تتوفر مثل هذه المنهجية ومثل هذه الدقة حول من رووا الكتاب المقدس ودونوه؟

وليس تعرض الثقات لضعف الذاكرة فقط هو ما يعرض رواياتهم للضعف، هناك ما اصطلح على تسميته عند النقاد بـ(التدليس)، والتدليس نوع من الهرب من الكذب إلى التورية في نسب الحديث، إنه كصنع جسر فوق نهر أو منحدر خطر لا يمكن عبوره، فمثلا إذا كان الراوي سمع حديثا من أحد الذين قد لا يثق بهم غيره، فإنه يلجأ إلى التدليس كجسر لتجاوز الراوي الضعيف، مثال ذلك:

راو مدلس اسمه خالد حدثه راو ضعيف اسمه طارق عن شيخ ثقة اسمه أحمد.

فإذا قال خالد: حدثني طارق عن شيخه أحمد فإن السند يصبح ضعيفا لوجود طارق فيه، لذلك يلجأ خالد إلى صنع جسر تعبر الرواية من فوقه.

إنه لا يقول: حدثني أو سمعت أحمد أو حتى قال لي أحمد. إنه يستخدم عوضا عن ذلك عبارة موهمة ينجو بها من الكذب، ولا يذكر بها طارقا، فيقول مثلا: عن أحمد، أو قال أحمد، أو ذكر أحمد، أو كان أحمد يقول. لكن كيف توصل النقاد إلى معرفة المدلسين؟

بما أن اتصال السند شرط لصحة السند عند علماء الجرح والتعديل، فقد قاموا بمجهود علمي مضن وشاق للتأكد من توفره أو عدمه، وذلك بتتبع تواريخ المواليد الوفيات، وحصر التلاميذ والشيوخ، بالإضافة إلى طرح الأسئلة على الشيوخ حول لقائهم بمن رووا عنهم، وقد عبروا عن الراوي الذي يروي عن شيخ لم يلقه بأنه يرسل ولا يسند، وقد ألف العلماء مصنفات كثيرة حول (المراسيل) وضمنوها كل الرواة المشهورين بالإرسال والتدليس، وما على الباحث سوى معرفة الاسم الأول للراوي ليتأكد من كونه مدلسا أم لا، أو ليتثبت من معرفة شيوخه الذين لقيهم، ومن

لم يلقهم من الرواة السابقين له، وهي عملية سهلة جداً، فبإمكان أي باحث التأكد من اتصال السند وانقطاعه بالرجوع إلى كتب المراسيل وغيرها من كتب العلل والجرح والتعديل، دون الحاجة إلى الرجوع إلى شيخ أو عالم، لأنها عملية علمية صرفة، وبحث موضوعي بحت لدرجة أن غير المسلمين يقدرون على القيام به، ولعل أكبر دليل على دقة عملية ضبط التدليس هو إدراج رجال يعدون من أعظم أئمة الإسلام وعلمائه الثقات على مر العصور ضمن المدلسين، ويكفي أن تقرأ أسماء بيضاء مثل: الحسن البصري، وقتادة، وسليمان بن مهران المعروف بـ(الأعمش) وابن إسحاق المحدث والمؤرخ العظيم وهشيم بن بشير وغيرهم كثير، إن وضع هذه القامات ضمن قائمة المدلسين يؤكد مدى الصرامة والجدية في التعامل مع النصوص، وأنه لا مجال لمجاملة أحد على حساب النص، مهما كان علمه وقدره ومنزلته وتدينه وخدمته لأمته ودينه، ومن يقرأ سير هؤلاء الرجال يصاب بالذهول من جرأة رجال الجرح والتعديل في قول الحق، وموضوعيتهم وقدرتهم على رصد الضعفاء والمدلسين والمختلطين، وفرزهم وتحديد موقف علمي رصين من مروياتهم، حيث اشترطوا لقبول حديث المدلس شرطين:

- أن يكون ثقة وإلا فلا قيمة لحديثه.
- أن يصرح بالسماع من شيخه فيقول: حدثني، أو سمعت، أو قال لي، أما إذا استخدم أسلوب العنعنة والأنأنة فقال: عن فلان، أو: أن فلان قال، فحديثه ضعيف وغير مقبول.

وقد تفنن نقاد الجرح والتعديل في ملاحقة التدليس ورصده، فوضعوا له أفخاخا لا يمكنه النجاة منها، وخرجوا من تلك المتابعة الدقيقة بمصطلحات خاصة بالتدليس، فهناك تدليس الشيوخ، وهناك تدليس التسوية... وهكذا، ولكل مصطلح ضوابطه ومنهجه وأساليب التعامل معه. ولم يقتصر الأمر على الضعفاء والمدلسين ومن مر معنا، هناك ما يمكن تسميته بالنقد التجريبي الذي يرتقي إلى مستوى مذهل غير مسبوق، وهو ما أطلق عليه علماء الجرح والتعديل (علم العلل) وقد يدخل ما مضى في أبسط أشكاله ومعانيه، ومن يقرأ هذا العلم من السذج والبسطاء يظن أنه نوع من السحر أو الرجم بالغيب، ومن يطلع عليه من طلبة العلم المبتدئين الذين لم يتعمقوا في هذا العلم، بل ومن بعض الفقهاء يظنه نوعا من الإلهام والكرامات والخوارق أجراها الله على بعض العلماء لفضلهم، وهذا ما كنت أظنه في شبابي، لكن الحقيقة هي أن (علم العلل) علم تجريبي بحت، يعتمد على الرصد والاستقراء والتتبع للروايات ومقارنة أنسابها ومتونها، وتعلق كل متن بنسبه، ومدى تماسك هذا النسب أو ضعفه، ثم تكون النتيجة التي يجهلها الكثيرون وأولهم العلمانيون العرب، الذين لا يجيدون سوى السخرية مما يجهلونه، خاصة عند ذكرهم لمصطلح "مدلس"

علم العلل

لم يدرس بعمق حتى الآن، والعلمانيون العرب أجهل الناس به، وما لديهم حول هذا العلم – كالعادة – نقولات عن الغربي – المستشرق، فالنقل عن الآخر بإيجابياته وسلبياته، والاحتفاء به، سمة ملازمة للعلماني العربي، فهو لا يملك قراءة خاصة به لهذا العلم ولا لغيره من التراث الإسلامي، والسخرية لا يمكن تسميتها بالقراءة، وإلا فإن علم (العلل) المدهش جدير بدراسات ضخمة لا يقوم بها إلا الجادون، حتى أن آلية هذا العلم مازلت مجهولة لدى قطاع عريض من الإسلاميين، فما بالك بالعلمانيين، وبالذات العرب منهم.

سمات علم العلل

لعل من أبرزها: أنه علم يعتمد على الاستقراء، وهذا يقتضي حاجته إلى تخصص وشبه تفرغ، نظرا للجهد والوقت الكبيرين اللذين يستغرقهما، وقد يمكث الناقد أشهرا، وربما سنوات في تتبع حديث واحد والبحث عن مصادره ومقارنة طرقه ومن ثم الخروج بحكم.

- أنه علم يقتضي الحياد، فلا رصيد للعواطف والمذهبية والعلاقات العرقية والقبلية والإقليمية في الحكم على الرواة أو المرويات.. علم يقتضي الموضوعية، فالنص هو الموضوع، وصحته أو ضعفه هو الدراسة، وليس الهدف هو تصحيحه أو تضعيفه، فالناقد لا ينطلق في دراسته من حكم معد سلفا، أو نتيجة يسعى لتأكيدها، أو إيدلوجية تلح عليه، إنه ينطلق من دراسة موضوعية وجادة وغير منحازة سوى لشيء واحد فقط هو: هل هذا النص بسنده ومتنه ثابت النسب للنبي عليه السلام، أو الشخص المنسوب له أم لا.

- علم العلل لا يعرف التقديس للأشخاص ولا للرموز، وهو عكس ما نجده في علوم كالعقيدة والفقه، والتي تتمتع بمخزون إيديلوجي كبير، وتعصب للإمام بشكل يصل الأمر معه – في بعض الأحيان – التلميذ إلى تأويل النص ليتلاءم مع قول شيخه.

- علم العلل يستطيع ممارسته أي شخص ولو كان غير مسلم متى ما اطلع بشكل جيد على هذا العلم ودرس منهجيته بدقة.

من هذا المنطلق فاقت أعداد العلل أعداد النصوص المعلولة والمنتقدة، وتوزعت الدراسة بين شطري النص (السند والمتن)، فتوافر لدينا عشرات الآلاف من النقودات العلمية والدقيقة.. عشرات الآلاف من النقودات، ومئات المجلدات التي تشكل نسبة كبيرة من التراث، ومع ذلك فإن العلماني العربي لا يعرف عنها شيئا. فأي تراث يتحدث عنه! ولتقريب الصورة وبيان مدى دقة هذا العلم، سأسوق أمثلة على نوع واحد من المصطلحات النقدية في علم الجرح والتعديل واضعا كلامي بين معقوفين للتوضيح.

علم الروايات الشاذة

قال الناقد أبو عبد الله الحاكم في معرفة علوم الحديث ١ – ١١٩ تحت عنوان (معرفة الشاذ من الروايات) وهو يُعرف مصطلح الشذوذ في الرواية بأنه: رواية

الثقة لحديث ينفرد به، لكنه يخالف به الثقات الآخرين، سواءً في لفظ الحديث أم في نسب الحديث وتراتب رجاله.
يقول الحاكم: (إنه حديث يتفرد به ثقة من الثقات، وليس للحديث أصل متابع لذلك الثقة.. سمعت أبا بكر أحمد بن محمد المتكلم الأشقر يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول: سمعت يونس بن عبد الأعلى يقول: قال لي الشافعي: ليس الشاذ من الحديث أن يروى الثقة ما لا يرويه غيره، هذا ليس بشاذ، إنما الشاذ أن يروي الثقة حديثا يخالف فيه الناس.[والناس هنا ثقات الرواة وليس عوامهم] هذا الشاذ من الحديث ومثاله:
ما حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، قال: حدثنا موسى بن هارون قال: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عن معاذ بن جبل: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيغ الشمس أخر الظهر حتى يجمعها إلى العصر فيصليهما جميعا، وإذا ارتحل بعد زيغ الشمس صلى الظهر والعصر جميعا ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أخر المغرب حتى يصليها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلاها مع المغرب.
قال أبو عبد الله[الحاكم]: هذا حديث رواته أئمة ثقات
[لاحظ أن الحديث ليس في السياسة أو المذاهب أو المناطق والأعراق، ولاحظ كذلك أنه يقول أن رواته أئمة وثقات، لكنه يواصل في حس نقدي واستقرائي مسئول فيقول]: وهو شاذ الإسناد والمتن، لا نعرف له علة نعلله بها [أي علة ظاهرة مثل ضعف الراوي، أو انقطاع السند بين راويين.
ثم يبدأ الحاكم رحلة المنقب عن العلة وموطن الخلل طارحا احتمالات قد تطرأ على المتخصصين لكنه يستبعدها فيقول]: ولو كان الحديث عند الليث عن أبي الزبير عن أبي الطفيل لعللنا به الحديث، [وذلك نظرا لأن أبا الزبير ورغم كونه ثقة إلا أنه مدلس، ورغم أن الليث قد حصر ما لم يدلسه وأثبته في وثيقة خاصة] ولو كان عند يزيد بن أبي حبيب عن أبي الزبير لعللنا به فلما لم نجد له العلتين خرج عن أن يكون معلولا.
[ثم يقوم الحاكم بمسح حاسوبي لروايات يزيد وشيوخه ليكتشف أن يزيد ليس من تلاميذ أبي الطفيل الملازمين له، فيقول]: ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل رواية.
[ثم يقوم بمسح آخر للمتن أيضاً، ومن رواه، وألفاظ كل راو على حدة، ومسح لنقودات مسلطة عليه من أئمة النقاد، بل ورواياتهم له، فيقول:] ولا وجدنا هذا المتن بهذه السياقة عند أحد من أصحاب أبي الطفيل. ولا عند أحد ممن رواه عن معاذ بن جبل عن أبي الطفيل فقلنا: الحديث شاذ.
وقد حدثونا عن أبي العباس الثقفي قال: كان قتيبة بن سعيد يقول لنا: على هذا الحديث علامة أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى ين معين وأبي بكر بن أبي

شيبة وأبي خيثمة، حتى عد قتيبة أسامي سبعة من أئمة الحديث كتبوا عنه هذا الحديث.
وقد أخبرناه أحمد بن جعفر القطيعي قال: ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: ثنا قتيبة فذكره...
قال أبو عبد الله [الحاكم مبينا وجهة نظره في سبب رواية هؤلاء النقاد له:] فأئمة الحديث انما سمعوه من قتيبة تعجبا من إسناده ومتنه، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علة.
وقد قرأ علينا أبو علي الحافظ هذا الباب وحدثنا به عن أبي عبد الرحمن النسائي وهو امام عصره عن قتيبة بن سعيد، ولم يذكر أبو عبد الرحمن ولا أبو علي للحديث علة،
[ثم يقدم الحاكم نقدا قاسيا جدا فيقول]: فنظرنا فإذا الحديث موضوع، وقتيبة بن سعيد ثقة مأمون. [ثم يتجه الحاكم إلى أحد أعلام العلل وهو الإمام البخاري، راويا عنه مقولة تؤيد وجهة نظره فيقول:] حدثني أبو الحسن محمد بن موسى بن عمران الفقيه، قال: ثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: سمعت صالح بن حفصويه النيسابوري يقول: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: قلت لقتيبة بن سعيد مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل؟ فقال: كتبته مع خالد المدايني.
قال البخاري: وكان خالد المدايني يدخل الأحاديث على الشيوخ.
الحاكم هنا يرى أن علة الحديث تكمن في خلل سببه وجود خالد المدايني أثناء نسخ الوثائق، وهو شخص غير ضابط لما يرويه، فقد ينسب الروايات لشيخ غير الشيخ الذي رواها. وهي علة غاية في الدقة، ولا مثيل لها على الإطلاق في تراث ووثائق العالم كله، أن يسأل الراوي عن الشخص الجالس بقربه أثناء تدوينه لمروياته، خشية أن يتسرب همس من التلميذ إلى ورق تلميذه.
إنها لا شك دقة أشبه بالمعجزات، خاصة إذا علمنا توقيت تلك الجهود العلمية، أي قبل ألف ومائتي عام، فكيف إذا علمنا أن أبا عبد الله الحاكم هذا يعد في الطبقة الدنيا من نقاد الجرح والتعديل مقارنة بأمثال البخاري وابن المديني والدارقطني وأحمد غيرهم...

مثال آخر

يقول الحاكم: ومن هذا الجنس حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي بمرو الثقة المأمون من أصل كتابه، قال: حدثنا أبو الحسن أحمد بن سيار، قال: حدثنا محمد بن كثير العبدي قال: حدثنا سفيان الثوري قال: حدثني أبو الزبير عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الظهر يرفع يديه إذا كبر وإذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع.
قال أبو عبد الله [الحاكم]: وهذا الحديث شاذ الإسناد والمتن.

[ثم يبين الإمام الحاكم أسباب حكمه على هذا الحديث بالشذوذ في المتن والسند وهي كالتالي:] إذ لم نقف له على علة، وليس عند الثوري عن أبي الزبير هذا الحديث.
ولا ذكر أحد في حديث رفع اليدين أنه في صلاة الظهر أو غيرها.
ولا نعلم أحدا رواه عن أبي الزبير غير إبراهيم بن طهمان وحده تفرد به، إلا حديث يحدث به سليمان بن أحمد الملطي من حديث زياد بن سوقة.
[لكن الحاكم يستبعد رواية سليمان لسبب تقني هو قوله:] وسليمان متروك يضع الحديث.
[ثم يقدم الحاكم استقرائية للنقودات التي قدمها غيره من النقاد لكنه لا يرجحها، فيقول]: وقد رأيت جماعة من أصحابنا يذكرون أن علته أن يكون عن محمد بن كثير عن إبراهيم بن طهمان.
[ثم يبين مستنده لتخطئته وجهة النظر هذه، لأنها تفتقر إلى عملية الاستقراء التي قام هو بها، حيث تتبع وثائق محمد بن كثير، فلم يجد فيها رواية واحدة عن ابن طهمان، ولذلك قال]: وهذا خطأ فاحش، وليس عند محمد بن كثير عن إبراهيم بن طهمان حرف. [ثم يتطرق الحاكم إلى خطأ نقدي يخفى على الكثيرين، ولا يدركه إلا المتعمقين من المتخصصين في هذا الفن، هذا الخطأ هو عملية قياس لا قيمة لها، تتمثل في التالي: بما أن (أ) و(ب) من الرواة تتلمذا على الشيخ (ج). وبما أن (أ) تتلمذ على الشيخ (د).
فإن النتيجة هي أن (ب) تتلمذ على (د) بالقياس.
يقول الحاكم]: فيتوهمون قياسا أن محمد بن كثير يروي عن إبراهيم بن طهمان، كما روى أبو حذيفة، لأنهما جميعا رويا عن الثوري.
[ثم يثبت الحاكم قوله بدليل علمي فيقول]: وليس كذلك فإن أبا حذيفة قد روى عن جماعة لم يسمع منهم محمد بن كثير، منهم: إبراهيم بن طهمان وشبل بن عباد وعكرمة بن عمار وغيرهم من أكابر الشيوخ.
هل يعرف الكتاب المقدس مثل هذه الدقة؟ هل يعرف الكتاب المقدس أحوال من كتب كتابهم المقدس؟ هل يعرف أركون هذا المستوى المذهل من النقد؟

مثال ثالث

يأتي هذا المثال في كتاب للمحدث والناقد "أحمد بن محمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي" (شرح معاني الآثار ٣ – ٧) في نقده لرواية تمنع تزويج المرأة نفسها، مؤيدا عكس ذلك برواية هي في نظره أقوى. من الناحية النظرية والنمطية لدى العلمانيين العرب، بل ولدى بعض طلبة العلم البسطاء يعد هذا النقد نقدا إيديلوجيا مذهبيا ينتصر فيه الإمام أبو جعفر الطحاوي لمذهبه (الحنفي) الذي يرى شرعية تزويج المرأة نفسها، وهو حكم يتلاشى عند التوغل مع هذا الناقد العملاق في أعماق المتون والأسانيد، ليتبين لنا أي منهج دقيق وحساس يطبقه علماء الجرح والتعديل.

يقول الطحاوي: حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب: أخبرني بن جريج عن سليمان بن موسى عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فإن أصابها فلها مهرها بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له.

- حدثنا فهد قال حدثنا أحمد بن يونس قال حدثنا زهير بن معاوية قال حدثنا يحيى بن سعيد عن بن جريج فذكر : بإسناده مثله.

- حدثنا أبو بشر الرقي قال حدثنا المعتمر بن سليمان الرقي عن الحجاج بن أرطأة عن الزهري : فذكر بإسناده مثله

- حدثنا ربيع المؤذن قال حدثنا أسد قال حدثنا بن لهيعة قال حدثنا جعفر بن ربيعة عن بن شهاب : فذكر بإسناده مثله.

- حدثنا ربيع الجيزي قال حدثنا أبو الأسود قال أخبرنا بن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن بن شهاب فذكر : بإسناده مثله

لوكانت هذه الأسانيد لدى الكتاب المقدس لأخرسوا بها العالم، ولكن أبا جعفر الطحاوي يعقب قائلا: فذهب إلى هذا قوم فقالوا: لا يجوز تزويج المرأة نفسها إلا بإذن وليها، وممن قال ذلك أبو يوسف ومحمد بن الحسن رحمة الله عليهما، واحتجوا في ذلك بهذا الآثار.

وخالفهم في ذلك آخرون فقالوا: للمرأة أن تزوج نفسها ممن شاءت، وليس لوليها أن يعترض عليها في ذلك إذا وضعت نفسها ممن شاءت، وليس لوليها أن يعترض عليها في ذلك إذا وضعت نفسها حيث كان ينبغي لها أن تضعها، وكان من الحجة لهم في ذلك أن حديث بن جريج الذي ذكرناه عن سليمان بن موسى قد ذكر ابن جريج أنه سأل عنه بن شهاب فلم يعرفه.

حدثنا بذلك بن أبي عمران قال أخبرنا يحيى بن معين عن بن علية عن بن جريج.. بذلك

[ثم ينتقد الطحاوي تلك الأسانيد قائلا] وهم يسقطون الحديث بأقل من هذا، وحجاج بن أرطأة: فلا يثبتون له سماعا عن الزهري، وحديثه عنه عندهم مرسل، وهم لا يحتجون بالمرسل. وابن لهيعة: فهم ينكرون على خصمهم الاحتجاج عليهم بحديثه فكيف يحتجون به عليه في مثل هذا. ثم لو ثبت ما رووا من ذلك عن الزهري لكان قد روي عن عائشة رضي الله عنها ما يخالف ذلك.

حدثنا يونس قال أخبرنا بن وهب أن مالكا أخبره عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: أنها زوجت حفصة بنت عبد الرحمن المنذر بن الزبير وعبد الرحمن غائب بالشام، فلما قدم عبد الرحمن قال: أمثلي يصنع به هذا ويفتات عليه؟! فكلمت عائشة عن المنذر فقال المنذر: إن ذلك بيد عبد الرحمن. فقال عبد الرحمن: ما كنت أرد أمرا قضيتيه. فقرت حفصة عنده ولم يكن ذلك طلاقا

وحدثنا يونس قال أخبرنا بن وهب قال أخبرني الليث عن عبد الرحمن بن القاسم فذكر : بإسناده مثله.. حدثنا يونس قال أخبرنا بن وهب قال أخبرني حنظلة وأفلح عن القاسم بن محمد: في حفصة بمثل ذلك...

فلما كانت عائشة رضي الله عنها قد رأت أن تزويجها بنت عبد الرحمن بغيره جائز، ورأت ذلك العقد مستقيما حتى أجازت فيه التمليك، الذي لا يكون إلا عن صحة النكاح وثبوته، إستحال عندنا أن يكون ترى ذلك وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم قال: لا نكاح إلا بولي. فثبت بذلك فساد ما روي عن الزهري في ذلك.

[ثم يبدأ الطحاوي بنقد علمي لهذا السند الذي يسلم هو بصحته أيضا، لكن له وجهة نظر نقدية غاية في الدقة، فصحة السند أيضا لاتعني صحة الحديث.. ألم أقل أنه لا يمكن أن تتوفر في كل مناهج النقد العلمية للوثائق التاريخية والدينية مثل دقة منهج علماء الجرح والتعديل. يقول الطحاوي مواصلا نقده، وسائقا بكل أمانة وبروايته هو أدلة مخالفيه:] واحتج أهل المقالة الأولى أيضا لقولهم بما حدثنا إبراهيم بن مرزوق قال: ثنا عثمان بن عمر وحدثنا أبو بكرة ومحمد بن خزيمة قالا: ثنا عبد الله بن رجاء قال أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبيه (أبي موسى الأشعري) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا نكاح إلا بولي. أي إلا بإذنه.

[هذا السند عند الطحاوي صحيح، لكن فيه علة يرى أنها قد خفيت على من يحتج به، وتتلخص في أن الرجل الرابع في السند، وهو إسرائيل قد خالفه من هو أوثق منه. لقد وجد الطحاوي سندا آخر، رواه من هو أكثر ضبطا من إسرائيل، وهما أوثق علماء الحديث في عصرهما: شعبة بن الحجاج وسفيان الثوري، هذان العلمان رويا الحديث عن أبي إسحاق عن والد أبي بردة، أي أنهما أسقطا أبي بردة، وإسقاط أبي بردة لا يعني حسب هذا المنهج غفلة وسهوا منهما، بل دقة في الرواية ووهما من إسرائيل، فالطحاوي يؤكد على أن إسرائيل ذكر أبا بردة سهوا، والصحيح عنده أن أبا إسحاق رواها عن والد أبي بردة، وهنا تتضح العلة كما يقول]: وهي أن أبا إسحاق – كما يرى الطحاوي – لا يمكن أن يروي عن أبي موسى، وذلك لوجود فاصل بينهما يطلق عليه نقاد الجرح والتعديل: الإرسال أو الانقطاع.

يقول الناقد الطحاوي: فكان من الحجة عليهم في ذلك، أن هذا الحديث على أصلهم أيضا لا تقوم به حجة، وذلك أن من هو أثبت من إسرائيل وأحفظ منه مثل سفيان وشعبة قد رواه عن أبي إسحاق منقطعا.

حدثنا إبراهيم بن مرزوق قال ثنا وهب بن جرير قال ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا نكاح إلا بولي.

حدثنا بن مرزوق قال ثنا أبو عامر قال ثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن النبي صلى الله عليه وسلم : مثله... فصار أصل هذا الحديث عن أبي بردة

عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم برواية شعبة وسفيان، وكل واحد منهما عندهم حجة على إسرائيل فكيف إذا اجتمعا جميعا.
[ثم يورد الطحاوي دليلا لمخالفيه على أن السند متصل برواية الإمام الثقة أبي عوانة للسند السابق متصلا دون سقط فيقول معقباً]: فإن قالوا: فإن أبا عوانة قد رواه مرفوعا كما رواه إسرائيل وذكروا في ذلك ما حدثنا فهد قال ثنا أبو غسان قال ثنا إسرائيل وأبو عوانة ح [وحرف ح في السند رمز يعني بداية سند جديد يلتقي مع السابق في المنتصف]
وحدثنا صالح بن عبد الرحمن حدثنا سعيد بن منصور حدثنا أبو عوانة..
ح وحدثنا أحمد بن داود قال ثنا أبو الوليد قال ثنا أبو عوانة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا نكاح إلا بولي.
قيل لهم قد روي عن أبي عوانة هذا كما ذكرتم، ولكنا نظرنا في أصل ذلك فإذا هو عن أبي عوانة عن إسرائيل عن أبي إسحاق فرجع حديث أبي عوانة أيضا إلى حديث إسرائيل. حدثنا بذلك أبو أمية قال ثنا المعلى بن منصور الرازي قال ثنا أبو عوانة عن إسرائيل عن أبي إسحاق فذكر : بإسناده مثله..
فانتفى بذلك أن يكون عند أبي عوانة في هذا عن أبي إسحاق شيء.
ثم واصل الناقد الطحاوي حججه الفقهية والمنطقية من خلال سرده ومناقشته لأدلة أخرى ليست موضوع حديثنا.

أما المحدث والناقد العظيم (الدارقطني) فقد رجح وصل السند وبالتالي صحته في كتابه الضخم (العلل ٧ - ٢٠٦) حيث رسم وبشكل مدهش ورائع خريطة الحديث وشجرة إسناده، ثم بدأ بفرز كل الطرق وبين علة كل طريق بدقة، مستخدما منهجا يحق لأمة الإسلام أن تفخر به كل الأمم في نقدها وقراءتها لتراثها، وذلك عندما سئل عن حديث أبي بردة عن أبي موسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نكاح إلا بولي؟ كان الدارقطني يقدم تفصيلات أعمق وأوسع من الطحاوي، فهو يقوم أولا بحصر الطرق المؤدية إلى ما قبل مركز الحديث أي إلى أبي إسحاق، فيتجه إلى تلاميذ أبي إسحاق، ثم تلاميذ التلاميذ فيقول: يرويه أبو إسحاق السبيعي واختلف عنه: فرواه شعبة واختلف عنه.
فرواه النعمان بن عبد السلام ويزيد بن زريع واختلف عنه عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى. قال ذلك محمد بن موسى الحرشي ومعمر بن مخلد السروجي ومحمد بن الحصين الأصبحي شيخ بصري عن يزيد بن زريع عن شعبة.
[ثم يبين أن هذه الرواية المتصلة من رواية تلاميذ شعبة جاء ما يخالفها من تلاميذ آخرين لشعبة، وهو ما يستدعي مزيدا من البحث والتنقيب ومدى تماسك كل رواية عن شعبة، فيقول]: وخالفهم محمد بن المنهال والحسين المروزي وغيرهما فرووه عن يزيد بن زريع عن شعبة مرسلا .. وكذلك قال أصحاب شعبة عنه وهو المحفوظ. إذا فرواية شعبة بن الحجاج (وهو ثقة حافظ متقن كان الثوري يقول هو

أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة – تقريب التهذيب ٢٦٦) جاءت من طريقين من تلاميذه، فتلاميذ شعبة الثقات الملازمين له رووا الحديث بسند منقطع، والدارقطني يرجح الانقطاع لأن التلاميذ الذين رووه عن شعبة هم أعلم الناس بحديثه، لذلك قال: (وهو المحفوظ) أي هو الصحيح.

ثم يذكر الدارقطني رواية لتلميذ آخر عن أبي إسحاق وهو (سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي، ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة من رؤوس الطبقة السابعة – تقريب التهذيب ٢٤٤) وهذا العلم له تلاميذ بالمئات، وقد روى بعض تلاميذه الحديث عنه بسند صحيح متصل، أما تلاميذه الملازمون له فرووه منقطعا، يقول الدارقطني: واختلف عن الثوري: فرواه النعمان بن عبد السلام وبشر بن منصور وجعفر بن عون ومؤمل بن إسماعيل عن الثوري عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى. وأرسله أصحاب الثوري عن الثوري منهم أبو نعيم وغيره.

وبالتأكيد فإن الدارقطني يرجح رواية أصحاب سفيان الملازمين له، ولا يكتفي بهذ، بل يواصل البحث ليجد أن لسفيان تلميذا حافظا، هو (وكيع بن الجراح بن مليح الكوفي، ثقة حافظ عابد من كبار طبقته – تقريب التهذيب ٥٨١) لكن وكيعا يروي الحديث من طريقين، أحدهما عن سفيان متصلا. ويرويه وكيع عن إسرائيل وهو (إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي الهمداني أبو يوسف الكوفي ثقة من رجال الشيخين تكلم فيه بلا حجة، تقريب التهذيب ١٠٤) أي أنه حفيد أبي إسحاق. وقد رواه عنه متصلا.

فيقول الدارقطني: واختلف عن وكيع بن الجراح: فرواه حاجب بن سليمان ويمان بن سعيد المصيصي عن وكيع عن الثوري عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى متصلا. وغيرهما يرويه عن وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى، وكذلك قال أصحاب إسرائيل عنه.

ثم يجد الناقد الدارقطني لأبي إسحاق تلميذا آخر هو أبو عوانة فيقول: ورواه أبو عوانة عن أبي إسحاق عن أبي بردة عن أبي موسى.

لكنه يكتشف أن أبا عوانة سمعه من إسرائيل، فيقول: وقال معلى بن منصور عن أبي عوانة لم أسمعه من أبي إسحاق حدث به إسرائيل عنه.

أي أن رواية أبي عوانة تدرج ضمن رواية إسرائيل. ثم يجد أيضا طريقا أخرى متصلة عن القاضي (شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي بواسط ثم الكوفة أبو عبد الله صدوق يخطىء كثيرا تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة وكان عادلا فاضلا عابدا شديدا على أهل البدع – تقريب التهذيب ٢٦٦) لكن شريكا كما مر ضعيف ، ومع ذلك فلا بد من استقصاء الروايات عنه، فيقول الدارقطني: ورواه ابن حجر عن شريك عن أبي إسحاق متصلا مسندا، وتابعه أسود بن عامر.. وقيل عن عبد الرحمن بن شريك عن شريك.. ورواه قيس بن الربيع عن أبي إسحاق مسندا.

ثم يورد رواية لابن أبي إسحاق (والد إسرائيل) وهو (يونس بن أبي إسحاق السبيعي الكوفي صدوق يهم قليلا – تقريب التهذيب ٦١٣) ثم يبين أن هناك من رواه متصلا عنه، وهناك من أسقط أبي إسحاق، فيقول: واختلف عن يونس بن أبي إسحاق فقال عيسى بن يونس وزيد بن الحباب: عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن أبي بردة عن أبيه. وقال أبو عبيدة الحداد: عن يونس عن أبي بردة لم يذكر فيه أبا إسحاق. ثم يقدم الدارقطني وجهة نظره حول هذا الحديث بعد هذا الاستقراء والبحث الدقيقين، مرجحا دون جزم صحة وصل الحديث بقرينة كون إسرائيل حفيد أبي إسحاق ضابطا لمرويات جده، فيقول: وإسرائيل من الحفاظ عن أبي إسحاق، قال عبد الرحمن بن مهدي: كان إسرائيل يحفظ حديث أبي إسحاق كما يحفظ سورة الحمد. ويشبه أن يكون القول قوله، وأن أبا إسحاق كان ربما أرسله فإذا سئل عنه وصله.

وهناك نقد وأقوال لأئمة النقد الآخرين لهذا الحديث منهم الترمذي والبخاري وغيرهم، ولا أريد الإطالة وإلا لأوردتها.

لم كل هذا النقد المجهد

كل هذه الجهود من أجل حديث لا علاقة له بالبلاط ولا بالسلطان، ولا علاقة له بالعروبية ولا حتى بالشعوبية، ولا علاقة له بالطائفية ولا بالسياسة، ولا بأي شيء من دوافع التصحيح والتضعيف الإيديولوجية، لكن له علاقة بالمصداقية والتثبت والموضوعية والدقة المنقطعة النظير، ومن أجل هذا ينتظر الفقيه والمفسر والشارح والواعظ والخطيب والسياسي على أبواب علماء الحديث منتظرين تقريرهم المختبري الرائع والمنصف.

هل يعرف العلمانيون العرب وخاصة أركون قراءة كهذه القراءة الرائعة للتراث، ناهيك عن أدونيس الذي يردد ببغائية كلاما لا يدرك معناه عندما يقول: (الدراسات الحديثة حول التراث تتحرك في قفص من الأفكار المسبقة الجاهزة، وهي أفكار تلفيقية وتوفيقية، ذلك أنها ، ولا تطرح على الأصول أسئلتها الجديدة الخاصة، فلسنا نجد مثلا دراسات تتساءل حول الأصول نفسها، وتسائل هذه الأصول نفسها باستثناء دراسات قليلة رفضت وهمشت وعزلت ونبذت(كلام البدايات – ١٣٣))

فما هي الدراسات الحديثة التي يقول عنها، وأي تكرار، ومن قام باستعادة الكتابات التي كتبت حول الأصول بأسئلتها وأجوبتها، وهل تعرف الدراسات الحديثة حول التراث وأعمقها كتابات الجابري – باعتراف أدونيس، فهل تعرف هذه الكتابات عمقا كالذي مر معنا، بل هل هناك من المفكرين العرب من يعرف شيئا عن تلك الدراسات النقدية لعلماء الجرح والتعديل، فضلا عن أن يمارس استعادة لها، إن أركون وأدونيس وأمثالهما ظاهرة صوتية مرتفعة لا أكثر، ظاهرة خطابية لم تقدم سوى الكلام والكثير من الكلام والادعاء..

بعد أن ذكرت هذه النماذج النقدية ضمن آلاف النماذج الأخرى التي تزخر بها كتب الجرح والتعديل، وكتب العلل التي بلغ أحدها وهو كتاب العلل للدارقطني أحد عشر

مجلداً، قدم فيها أكثر من عشرة آلاف نقد علمي لأكثر من عشرة آلاف حديث، وهو نقد مدعم بالاستقراء والمقارنة والفحص التاريخي والفحص الفردي لتراجم الرواة، ودراسة العلاقة فيما بينهم وجوداً وعدماً زماناً ومكاناً، وتأثيراً وتأثراً. لعلي بعد أن ذكرت هذه الأمثلة أجد في كلمات تنسب عن الإمام البخاري وهو يقدم لتلميذ مبتديء شغوف بعلم الحديث، يريد أن يضع قدميه على هذا العلم المذهل، لعلي أجد في كلماته ملخصاً رائعاً لما ينتظر طالب علم الحديث والجرح والتعديل من مشاق، وملخصا للفرق بينه وبين طالب علم الفقه.

البخاري يلخص

يقول محمد بن مخلد التميمي البغدادي: (سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن إبراهيم بن الفضل البخاري قال: لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن زيد الهمذاني عن قضاء الري، ورد بخارى سنة ثماني عشرة وثلاث مائة، لتجديد مودة كانت بينه وبين أبي الفضل محمد بن عبيد الله البلعمي، فنزل في جوارنا فحملني معلمي أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الختلي إليه وقال له: أسألك أن تحدث هذا الصبي بما سمعت من مشايخك رحمهم الله. فقال: مالي سماع. قال: فكيف وأنت فقيه، فما هذا؟ قال: لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلى طلب الحديث ومعرفة الرجال ودراية الأخبار وسماعها، فقصدت محمد بن إسماعيل البخاري ببخارى، صاحب التاريخ والمنظور إليه في معرفة الحديث، فأعلمته مرادي وسألته الإقبال علي بذلك. فقال لي: يا بني لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره. فقلت له: عرفني حدود ما قصدت له ومقادير ما سألتك عنه.

قال: اعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعا مع أربع، كأربع مثل أربع، في أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع.

وكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع،

فإذا تمت له كلها هانت عليه أربع، وابتلي بأربع،

فإذا صبر على ذلك أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع.

قلت له: فسر لي رحمك الله ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات، عن قلب صاف بشرح كاف وبيان شاف، طلبا للأجر الوافي.

قال: نعم، أما الأربعة التي تحتاج إلى كتبتها هي:

أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرائعه، والصحابة ومقاديرهم، والتابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتواريخهم.

مع أسماء رجالها وكناهم وأمكنتهم وأزمنتهم.

كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع الترسل، والبسملة مع السور، والتكبير مع الصلوات.

مثل: المسندات، والمرسلات، والموقوفات، والمقطوعات.

في صغره، وفي إدراكه، وفي شبابه، وفي كهولته،

عند شغله، وعند فراغه، وعند فقره، وعند غناه.

بالجبال، والبحار، والبلدان، والبراري.
على الأحجار والأصواف والجلود والأكتاف.
إلى الوقت الذي يمكنه نقلها إلى الأوراق عن من هو فوقه وعن من هو مثله وعن من هو دونه. وعن كتاب أبيه يتيقن أنه بخط أبيه دون غيره لوجه الله تعالى، طالبا لمرضاته والعمل بما وافق كتاب الله منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتأليف في إحياء ذكره بعده.
ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع التي هي من كسب العبد أعني: معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو.
مع أربع هي من إعطاء الله عز وجل أعني الصحة والقدرة والحرص والحفظ
فإذا تمت له هذه الأشياء هان عليه أربع: الأهل والولد والمال والوطن.
وابتلي بأربع: بشماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهلاء وحسد العلماء.
فإذا صبر على هذه المحن أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع:
بعز القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحيوة الأبد.
وأثابه في الآخرة بأربع: بالشفاعة لمن أراد من إخوانه وبظل العرش حيث لا ظل إلا ظله وبسقي من أراد حوض نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبجوار النبيين في أعلى عليين في الجنة.
فقد أعلمتك يا بني مجملا جميع ما كنت سمعت من مشايخي متفرقا في هذا الباب، فأقبل الآن علي ما قصدتني له أو دع.
قال: فهالني قوله، وسكت متفكرا وأطرقت نادما.
فلما رأى ذلك مني قال: فإن لا تطق احتمال هذه المشاق كلها فعليك بالفقه، الذي يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قار ساكن، لا تحتاج إلا بعد الأسفار ووطي الديار وركوب البحار، وهو مع ذا ثمرة الحديث، وليس ثواب الفقيه بدون ثواب المحدث في الآخرة، ولا عزة بأقل من عز المحدث.
فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث وأقبلت على علم ما أمكنني من علمه بتوفيق الله ومنه، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه على هذا الصبي يا أبا إبراهيم
– تهذيب الكمال ٢٤ – ٤٦١)
إن هذه الكلمات التي تنسب للإمام البخاري تبين باختصار أن كل حصيلة المفكرين العرب من التراث الإسلامي، لا تتجاوز انتقاء بعض ما يقوله الفقيه والمفسر، أما علم الجرح والتعديل والعلل والحديث، فهم في كوكب آخر عنه، ولذلك خرجوا بنقد هزيل جداً. وهذا ما يقع فيه العلمانيون الغربيون أنفسهم – في البداية – عندما يحملون نتائج دراساتهم ونقدهم للكتاب المقدس ليرموا بها القرآن والسنة، لكنهم سرعان ما يعتذرون ويغيرون تلك الأحكام الجاهزة بأحكام علمية منطقية وجادة، بعد أن يقوموا بفحص القرآن بالوسائل نفسها التي كشفت مدى التزوير والحذف والإضافة في الكتاب المقدس، ولعل كلمة الباحث والطبيب الفرنسي موريس بوكاي تكشف هذه الإشكالية عندما يقول: (أصارحكم القول أنني عندما بدأت الدراسة لم

يكن لدي أدنى اقتناع بالإسلام، وكلما مضيت في الدراسة ازداد اقتناعي حتى أتاني اليقين في النهاية أن هذا القرآن إن هو إلا وحي أوحاه الله إلى نبيه)

إنه لم يفحص العلاقات الاجتماعية في القرآن ولا الآداب ولا المواعظ ولا الجزاء والحساب، بل قام بدراسة المعلومات عن الكون والطبيعية التي قدمها القرآن، وهي معلومات بلغ العلم الحديث شوطا متقدما في كشفها والتحقق منها، كعلم الجبال والبحار والأجنة وغيرها.

أثر جهل العلماني العربي بهذا النقد

الأمثلة السابقة – من آلاف الأمثلة – تكشف الفارق الكبير بين مستوى هذا النقد الإسلامي، ومستوى جهل خصومه به، إنك مهما فتشت بين المفكرين العرب الذين تناولوا التراث بالنقد والتحليل، فلن تجد واحدا منهم يعرف شيئاً من ذلك، فهم مشغولون عن الدراسة الجادة بترديد كلمات غدت من كثرة ترددها منفرة ومملة وفارغة دون مضمون أمثال: (الفكر الغيبي، الرجعية، الماضوية، الظلامية...) وغيرها من المصطلحات المملة والتي تتجسد في المفكرين العرب أكثر مما تتجسد في خصومهم.

قراءتان

لنعد للمثالين السابقين اللذين استعرناهما من الإمام الحاكم، حيث يقدم النقاد – على المستوى الإسلامي – وأشباههم قراءتين للروايتين السابقتين، تمثلان الفرق بين السطح والعمق في تناول النصوص والأسانيد، وهي المسافة نفسها بين الناقد وشبه الناقد:

القراءة الأولية

وهي لـ(شبه الناقد)، والتي تكتفي بالنظر السريع إلى رجال السند ومدى مصداقيتهم، واتصالهم، وعدم وجود مدلس لم يصرح بالسماع بينهم، مع التحري عن اتصال السند أو انقطاعه وإرساله، وهي عملية علمية دقيقة لا يستهان بها، وغير معروفة في أي أمة غير الأمة الإسلامية، ولا تتوفر سوى في التراث النبوي فقط من بين كل تراث الأمة، فالتراث التاريخي والشعري لا يتمتع بتلك الميزات، بل هو أشبه بالأساطير عند مقارنته بالتراث النبوي، فكتاب ضخم كالأغاني لأبي فرج الأصفهاني يحتوي على مرويات في خمس وعشرين مجلداً، لو طبق عليها منهج أشباه النقاد لأصبح الأغاني في درجة الأساطير والخرافات، وهو قريب من ذلك، لكن يمكن قبولها حسب المنهج اليهودي والمسيحي، مع العلم أن مروياته أقوى بكثير من مرويات نهج البلاغة (كتاب دون سند). هذه القراءة تظل في مستوى بعيد عن العمق، لأنها تنظر إلى تماسك السند وجودته فقط، وهي مرحلة أولية وضرورية، لكن تتبعها خطوات شاقة ودقيقة لكي يتم الوصول إلى:

القراءة العمقية للنص والسند

وهي تتمثل في أمثال قراءة نقاد الجرح والتعديل أمثال: الحاكم والطحاوي والدارقطني للأحاديث السابقة، والتي ما زال الندرة من النقاد يمارسونها حتى اليوم، إنها عملية السبر والاستقراء والتتبع والمقارنة للسند والمتن معا.

من يقرأ كلام الحاكم دون تأمل يعتقد أنه يأخذ نقده باتجاه تأييد أو رفض صحة النص ابتداءً، لكن ما يدهش هنا هو أن الحاكم يمارس عملية رياضية دقيقة، لقد ترك الحديث عن النص (أي المتن أو لفظ الحديث) مؤقتا حتى ينتهي من السند، فأنجز عملية رصد لكل راو على حدة، ثم تأكد من موثوقيتهم، ومن عدم الانقطاع التاريخي بين حلقات سلسلة السند، وبعد فراغه من ذلك كله يكون قد انتهى من العملية الأولية والأسهل مع صعوبتها، لكنه ورغم ذلك كله حكم على السند بالخلل.
المفارقة هنا هي أن الحديث صحيح بلفظ قريب منه، فقد رواه البخاري ١ ـ ٣٧٤ فقال: حدثنا قتيبة قال حدثنا المفضل بن فضالة عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم نزل فجمع بينهما، فإن زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب) كما رواه مسلم ١ ـ ٤٨٩ أيضا: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا المفضل... إلخ

إذا ما الذي يبحث عنه الحاكم هنا؟

إنه شيء آخر وفي منتهى الدقة، فالحاكم لا يناقش هنا صحة المتن فقط، ولو كان واعظا أو فقيها أو مفسرا لأمكنه تمرير هذه الرواية، نظرا لوجود معنى قريب منه في حديث آخر، لكنه ناقد مهمته فحص الأحاديث والتأكد من سلامتها أو عيبها، أما تفسير النص وشرحه والوعظ به فمرحلة متأخرة. ما يبحث عنه الحاكم هنا هو: هل من الممكن ـ علميا ـ نسبة هذا الحديث من هذه الطريق للنبي صلى الله عليه وسلم؟ أي هل صحيح أن النص سلك هذا الطريق نحونا ؟ وهل يمكن الوصول للنبي صلى الله عليه وسلم عن طريق هذا السند؟ لتبدأ مرحلة أخرى هي البحث الحاسوبي لجميع مرويات رجال السند. كما مر معنا.

وما الذي يضير البخاري لو روى هذا النص وهو قادر على ذلك وعلى اطلاع تام به؟ لا سيما والنص لا يحمل سمة طائفية أو سياسية، ولا يتناول قبائل أو أشخاصا أو أقاليم معينة؟ ما الذي يضير النقاد من قبوله وهو يتحدث عن سنة من السنن غير ملزمة ولا واجبة، وليس على المسلم ذنب إن لم يلتزم بها؟

أسئلة تجعلني في دهشة وإعجاب لا يتوقفان من دقة هؤلاء العلماء في نقد النصوص، وموضوعيهتم في الحكم عليها، ومصداقيتهم في نقل تراثهم، وكيف توصلوا إلى هذا المنهج بعد أقل من قرن من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم؟

أما الإجابة على تلك الأسئلة فهي: أن الحاكم يعتبر تمرير ذلك المتن بذلك السند تزويرا وتلفيقا خطيرين مهما كانت الأعذار والمبررات. صحيح أن الحديث مقبول من طريق آخر، فليكن. إن قبوله من مصدر غير موثوق يميع منهجية القبول، فتتساوى العواطف بالأدلة، والحقيقة بالأسطورة والخرافة، عندها يمكن قبول أي شيء ورفض أي شيء والتهرب من أي شيء، فقد ضاع المنهج العلمي وانتهى كل شيء.

الحاكم لا يعتمد على الحدس أو الكرامات أو الكشف أو حسن الظن أو سوئه، إنها عملية علمية بحتة: لقد قام بحصر كل تلاميذ أبي الطفيل فلم يجد يزيداً ضمنهم.

وقام بحصر الأحاديث التي رواها تلاميذ أبي الطفيل الملاصقين له عن أستاذهم، فلم يجد من بين وثائقهم هذا النص. وقام بحصر أحاديث معاذ فوجد الحديث، لكن ليس عن أبي الطفيل.
وهنا تضيق دائرة النقد وتدق العدسة المسلطة على موضع الخلل:
ما الذي حشر يزيد في السند، مع ملاحظة أن يزيداً هذا ثقة من رجال البخاري ومسلم ولا غبار عليه؟ لا شيء سوى الدقة والنقد الصارم الذي لا يعرف رصيداً للمجاملة والأهواء والعواطف.
هناك خلل في هذا السند لا يمكن تمريره، لذلك قام الحاكم بعملية استعانة بخبرات سابقة لنقاد أفذاذ أمثال ابن المديني وابن معين وابن حنبل حول هذا النص، الذي لا يستحق في نظر العلماني العربي كل هذا العناء، يبحث الحاكم بحثا شاقا خارج المتن والسند، وفي مناطق أخرى قد تؤثر على سلامة النص، ليخرج باستنتاج دراساته، لقد قام باستقراء آراء نقاد آخرين لهم وزنهم في هذا التخصص فيقول:
(وقد حدثونا عن أبي العباس الثقفي قال: كان قتيبة بن سعيد يقول لنا: على هذا الحديث علامة أحمد بن حنبل وعلي بن المديني ويحيى بن معين وأبي بكر بن أبي شيبة وأبي خيثمة، حتى عد قتيبة أسامي سبعة من أئمة الحديث كتبوا عنه هذا الحديث.
وقد أخبرناه أحمد بن جعفر القطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثني أبي قال حدثنا قتيبة فذكره...
قال أبو عبد الله[الحاكم]: فأئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجباً من إسناده ومتنه، ثم لم يبلغنا عن أحد منهم أنه ذكر للحديث علة، وقد قرأ علينا أبو علي الحافظ هذا الباب، وحدثنا به عن أبي عبد الرحمن النسائي، وهو إمام عصره عن قتيبة بن سعيد، ولم يذكر أبو عبد الرحمن ولا أبو علي للحديث علة، فنظرنا فإذا الحديث موضوع وقتيبة بن سعيد ثقة مأمون)
وأخيرا يقوم الحاكم بفحص بعض البصمات المشبوهة فيقول: (حدثني أبو الحسن محمد بن موسى بن عمران الفقيه، قال: حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: سمعت صالح بن حفصويه النيسابوري، قال أبو بكر وهو صاحب حديث، يقول: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: قلت لقتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل؟ فقال: كتبته مع خالد المدايني. قال البخاري: وكان خالد المدايني يدخل الأحاديث على الشيوخ) أي يخلط أحاديث بعضهم ببعض دون تمييز.
نقد ودراسات وبحوث وعناء وجهود مضنية لا يطيق العلماني العربي الوصول إليها ولا يريد معرفتها، لأنها ستنسف كل ادعاءاته بمعرفته للتراث ونقده، ولأنها ستكشف كم كنا مأخوذين ببالونات ادعاء العمق وافتعال الموضوعية العلمانية طوال القرن العشرين، وإذا بها مجرد بالونات. نقد ودراسة وبحث مضن لحديث صحيح، لكن كونه صحيحا لا يعني أن يلفق من شاء ما شاء من أسانيد ويلصقها بذلك الحديث، هذا مثال من آلاف تغص بها كتب العلل والجرح والتعديل، وكتب

الضعفاء والمجروحين وغيرها من الكتب المتخصصة في نقد الأسانيد والمتون والرجال. وقد يتساءل القارىء: ما الضير في إضافة سند ولو كان مكذوبا إلى حديث صحيح؟

والإجابة لو كانت صادرة من أي مصدر غير (إسلامي سلفي) لكانت: لا شيء. أما بالنسبة لنقاد الجرح والتعديل فهي تعني أشياء وأشياء بالغة الأهمية، ودونها لن تقوم قائمة للنص، ولن يكون له رصيد سوى العواطف والتعصب المقيت، لن يكون له رصيد سوى أنه أسطورة وتقليد وموروث وتراث بشري، لكن لا يمكن اعتناقه ولا الإقناع به. بقي أن أذكر مرة أخرى أن الحاكم ومع دقته البالغة تلك وتشدده يعتبر ناقدا من الدرجة الثانية، أو الثالثة، فهو ليس في مصاف البخاري ومسلم أو ابن المديني أو الدارقطني.

العقل الخالق لهذه المنهجية

لو بقي العرب آلاف السنين ما بلغوا هذه الدقة التي نشأت فجأة في أمة أمية لم تؤلف كتاباً، أو تبني مدرسة، ولا تعرف تاريخا ثقافيا مكتوباً.

أمة أصبح لديها فجأة مئات الآلاف من المساجد تدرس فيها علوم جديدة على العرب والعالم، ويتهيأ طالب العلم لتلك المدارس بنظافة جسدية لا تعرفها الأمم حتى اليوم، وتبدأ الدراسة بصلاة (تحية المسجد) كتهيئة روحية ونفسية لمن أراد البقاء في ذلك المسجد ولو مستمعاً.

نحن في الحقيقة أمام ظاهرة علمية وثقافية خارقة للعادة، ولا يمكن أن تنشأ إلا من تشكل خارق للعادة، لا يمكن تكوينها إلا بثقافة صادمة ومعجزة لا تنبعث من صحوة ضمير، أو تأمل واقع مرير، بل من دافع مزلزل أقوى من الضمير، من تشكل يعيد تشكيل الضمير نفسه، ويعيد تكوين الإنسان وتصوراته من جديد، وهذا ما أعنيه بتشكيل العقل وتكوينه بل خلقه، هناك صدمة أصابت العرب فقلبت عالمهم وعقولهم ومشاعرهم وتصوراتهم، لم تكن نتيجة تراكمية أو تلاقحية أو حتى استعمارية من قبل محتل أكثر تحضراً يفرض ثقافته بالحديد والنار.

في الجزيرة العربية وبالتحديد في الحجاز، وفي مكة والمدينة لم تبدأ عملية إعادة تشكيل العقل العربي، بل بدأت عملية خلق العقل العربي من جديد على غير مثال سابق بهذه المعجزة (القرآن) ليتحول العقل العربي إلى عقل جديد أرحب وأوسع أفقا، عقل يتسع للعربي ولغيره، في لحظات تنزل الوحي بدأ خلق هذا العقل.

إن عصر التدوين وما بعده ما هو إلا نتاج للنقلة المذهلة والإعجازية التي أحدثها القرآن وشكلتها السنة، وليس كما توهم الجابري أن العقل تشكل في عصر التدوين أو بعده، كانت كل آية تنزل، وكل حديث نبوي يشكل لبنة في هذا العقل، ولولا هذا العقل الجديد لما أصبح لدينا عصر تدوين أو حتى عصر نحت، ولما أصبح لدينا من أقلام وكتب وعلوم، ولتأخرت النهضة الحديثة آلافا أخرى من السنوات، ولبقي الحال على ما هو عليه: أوثان وثارات وأمية وتخلف وتفاخر بالتخلف.

ولنا أن نتصور دون وجود هذا العقل أشخاصا أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص ومعاوية وطارق بن زياد والخليل بن أحمد وعبد الرحمن الداخل والحجاج بن يوسف ومحمد بن القاسم وهارون الرشيد وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وابن حزم والبخاري ومسلم وابن سينا والفارابي وابن رشد وابن عربي وابن بطوطة وابن خلدون وابن حيان وكل الأسماء الخالدة سلبا وإيجابا.

كل هؤلاء كانوا سيرحلون عن العالم إلى النسيان كما رحلت أجيال قبل نزول القرآن. أما السؤال الذي يُخجِل العلماني العربي فهو: كيف تغيب كل هذه الجهود العلمية عنهم، أين البحث والتساؤل، أوليس يدعي طرح أسئلة الخاصة به على السائد والموروث، أين النقد للمسلم واليقيني والفكر الوثوقي؟

كلمات كلما قرأتها ازددت قناعة أن أكثر الناس تقليدا وتقليدية واجترارا لماضي أسلافه دون فحص هم العلمانيون العرب. أين أدونيس من هذه الجهود المضنية؟ أوليس هو القائل: (كلام البدايات – ١٣٣):

(الدراسات الحديثة حول التراث تتحرك في قفص من الأفكار المسبقة الجاهزة وهي أفكار تلفيقية وتوفيقية، ذلك أنها تستعيد الكتابات التي كتبت حول الأصول بأسئلتها وأجوبتها ولا تطرح على الأصول أسئلتها الجديدة الخاصة، فلسنا نجد مثلا دراسات تتساءل حول الأصول نفسها، وتسائل هذه الأصول نفسها باستثناء دراسات قليلة رفضت وهمشت وعزلت ونبذت. فما هذه الأصول؟

أهي دينية محضة؟ أهي دينية أدبية؟ أهي دينية لغوية؟ وما الفكر هنا ما طبيعته؟ وإذا كان الأسلاف قرأوا هذه الأصول بطرقهم الخاصة وأفقهم الخاص، وكتبوا قراءتهم أي جسدوها في نتاج فكري فلماذا نتبنى اليوم قراءتهم ؟ و لماذا يلزمنا نتاجهم، لماذا لا نسأل أسألتنا الجديدة الخاصة حول اللغة والوحي والنبوة والشريعة والشعر؟ وحول الذات والآخر وحول الأصيل والدخيل)

أدونيس فائض من الكلام، طوفان من الزبد، وأسئلة كرغوة الصابون، وفي النهاية نكتشف أن الرجل أجهل الناس بقراءة الأسلاف، ومنهج الأسلاف وجهود الأسلاف، لكن براعته الإيديلوجية في قراءة نوع من التراث – الشعر نقله ونقده، جعلته يصاب بـ(متلازمة) تلك القراءة، فصاحبته بإيجابياتها وسلبياتها، فعممها على كل التراث، ناسفا جهودا خارقة وبحوثا مذهلة لا أظنه يوماً اطلع عليها، لذلك جاءت أحكامه جاهزة وقبلية ومعدة سلفاً، جاءت أحكامه متحركة في قفص من الأفكار المسبقة الجاهزة وهي أفكار تلفيقية وتوفيقية، ذلك أنها تستعيد الكتابات التي كتبت حول الشعر بأسئلتها وأجوبتها ولا تطرح على الأصول أسئلتها الجديدة الخاصة.

أما عن قوله: (لسنا نجد مثلا دراسات تتساءل حول الأصول نفسها، وتسائل هذه الأصول نفسها باستثناء دراسات قليلة رفضت وهمشت وعزلت ونبذت) فسأسوق – بالوثائق العلمية – من الذي مارس وقام بهذه الدراسات، ومن هو المفكر الذي قدم تساؤلاته الخاصة حول هذه الأصول نفسها، وأن أدونيس والمفكرون العرب

والجابري – في مقدمتهم للأسف – هم من رفضوا وهمشوا وعزلوا ونبذوا تلك التساؤلات والدراسات، وألقوا باللوم على غيرهم.
أما استغفال القارىء لدرجة الغثيان فهو في قوله بعد ذلك: (إن ما كانت تمثله الفلسفة اليونانية أو الحضارة الفارسية يختلف كليا عما تمثله اليوم الحضارة الغربية، أفليس معنى ذلك أن علينا أن نقرأ الأصول بشكل مختلف عن القراءات الماضية؟ أين نجد هذه القراءة المختلفة؟ ومن الذين قاموا بها؟ واحد، اثنان ثلاثة؟ ما مصير قراءتهم؟ أليس هو كمصير القراءات المختلفة في الماضي – قراءة المتصوفة، والرازي وابن الراوندي وابن رشد؟ لماذا؟ وأين العلة؟ أسأل هذه الأسئلة لأقول بإيجاز، إن القراءة التي سادت والتي لا تزال سائدة هي قراءة الفقهاء، وإن الثقافة العربية السائدة اليوم هي ثقافة الفقهاء: السلطة للنص لا للرأي)
ثقافة الفقهاء.. هذا ما أسلفت الحديث عنه، هؤلاء المفكرون لا يعرفون سوى الفقهاء، وكأن علماء الأمة كلهم (فقهاء) بهذه التبسيطية والاختزال يبرع أدونيس في تهميش الفكر الإسلامي، وحصره في زاوية من ماض. أما طرحه هذا للحضارة الغربية فهو مؤشر على مدى المواقف التي تشحن كتابات أدونيس، وعلى مدى الجهل أو التجاهل لحقبة احتلت العقل الأوربي لأكثر من ألف عام.!
أتوجه بهذا السؤال إلى أدونيس: أين نقدك عن الهوة السحيقة التي فصلت الفلسفة اليونانية عن الحضارة الغربية الحديثة، ما هذا الاستغفال للقارىء العربي، وما هذه الحميمية المتطرفة لقرون الظلام الوسطى في أوروبا، وما الذي أصاب أوروبا بالعتمة القاتلة عشرة قرون بعد تلك الفلسفة التنويرية اليونانية، إذا كان العلماني الغربي يعترف بوجود تلك الهوة، ويعبر كل يوم عن انتشائه بالانتصار عليها وردمها نحو المستقبل، فلماذا يغفل أدونيس هوة الظلام الهائلة تلك، والتي فصلت بين الفلسفة اليونانية والحضارة الغربية، لماذا يتحول أدونيس إلى ملكي أكثر من الملك، ومدافع عن المسيحية أكثر من رجال الإرساليات وسدنة الكنائس والباباوات، والذين اعترفوا وتنازلوا واقتنعوا بالهزيمة، بل وقدموا اعتذاراتهم عن تلك الحقب التي لا يريد أدونيس المرور بأطلالها ومقابر النور الجماعية فيها.
لِم لم يتطرق أدونيس إلى دور الكتاب المقدس في تدمير العقل الأوروبي وإحلال الخرافة بديلا للعقلانية، ولم يقدم قراءته للنص المسيحي وهو جزء من مكونات العقل العربي، وملهم للحداثة العربية في إبداعاتها، ومصطلحاته تغص بها قصائد الحداثيين ودوواوينهم، لماذا يوجه كل كتبه للهجوم على القرآن والسنة دون أن يتفوه بحرف واحد باتجاه الكتاب المقدس، ما الإيديلوجية إن لم تكن ممارسته هذه إيديلوجية متطرفة.
أما قوله: (أفليس معنى ذلك أن علينا أن نقرأ الأصول بشكل مختلف عن القراءات الماضية؟) فليستعد للقراءات التالية التي قرأت أصولنا بشكل مختلف عن قراءة أسلافنا الماضين، ولكن عليه أن يتحمل الصدمة والمفاجأة غير السارة له، لا سيما

وأن الذين قاموا بها هم من الغربيين الذين قرأوا نصوصهم وتراثهم قراءة جديدة مختلفة عن قراءة عصور الظلام الوسطى.
أما ما يضحكني في طرح أدونيس فهو قوله عن القراءة التي يدعوا لممارستها مع القرآن والسنة: (أين نجد هذه القراءة المختلفة؟ ومن الذين قاموا بها؟ واحد، اثنان ثلاثة؟ ما مصير قراءتهم؟ أليس هو كمصير القراءات المختلفة في الماضي – قراءة المتصوفة، والرازي وابن الراوندي وابن رشد؟ لماذا؟ وأين العلة؟ أسأل هذه الأسئلة لأقول بإيجاز، إن القراءة التي سادت والتي لا تزال سائدة هي قراءة الفقهاء، وإن الثقافة العربية السائدة اليوم هي ثقافة الفقهاء: السلطة للنص لا للرأي) ألم أقل إنهم لا يعرفون إلا الفقهاء، أما الأشد كوميدية في هذه الكلمات فهو في حشر تلك الأسماء وكأنها ذات مستوى واحد، وكأن من قام بها نهض بالأمة، فبين القراءة الصوفية السلبية الجبرية المعطلة للحياة في زوايا الوجد والحلول والوثنية، إلى القراءة المتخلفة شديدة الغباء التي مارسها كل من الرازي وابن الراوندي، وهي قراءة يحتفي بها أدونيس وبمن قام بها.
الرازي وابن الراوندي شخصيتان كوميديتان يحتفي بهما أدونيس، ويسميهما أركون بالمعلمين الكبار، وحججهما المضحكة والتي يخجل أدونيس من إيرادها أشد كوميدية، فهما ينكران إعجاز القرآن ويقولان بأن إجماع أمتي اليهود والنصارى على صحة الكتاب المقدس يدل على ضعف حجة المسلمين بتحريفهما، لأن العبرة بالعدد، ومادام عدد النصارى واليهود في زمنهما أكبر فالكتاب المقدس أصح، ولا أدري هل الكتاب المقدس يزداد صحة بالتناسب العكسي مع عدد المسلمين، لأنه وبناء على أقوال هذين المخرفين، يكون الكتاب المقدس في أصح حالاته – بعكس القرآن- عنما كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة مطاردا هو وأقل من مائة من أصحابه، بينما كان عدد النصارى بعشرات الملايين. ياله من هراء يسوقه أدونيس والرازي وابن الراوندي.
وهما يسخران أيضا من أحكام الختان والطهارة، كما تسخر الطبيبة السعداوي اليوم، فعقول الملاحدة واحدة. الغريب أن هذه العجوز الشاذة، والتي تطالب بإلغاء عقد الزواج وتسمية الأبناء بأسماء أمهاتهم، وما إلى ذلك من شذوذ لا يقدم ولا يؤخر، بل يدل على خواء فكري مخيف، الغريب أنها تعمل طبيبة وبدلا من أن تنسف الختان علميا وطبيا لعجزها عن ذلك، ملأت كتبها ومقابلاتها بالثرثرة واستعطاف الرجال بمقولة بدائية سمجة هي: لماذا نقطع جزءا من الإنسان، هل من المعقول أن نقطع جزءا من أذنه أو أنفه؟ لكن الأغرب أن العلمانيين العرب عندما يكونون أطباء فإنهم يبقون متكلسين على معلوماتهم التي درسوها في الجامعة والتي أصبح الكثير منها تاريخا، ومنها قول السعداوي ناصحة زملائها الأطباء – نلاحظ هنا أنها بلغت من الصفاقة أن تقدم للأطباء نصيحتها المتخلفة – فتقول في كتابها "كسر الحدود-٣٠٥": (لماذا لا يتابع الأطباء في بلادنا ما يدور في العالم من أبحاث علمية سليمة تؤكد مضار الختان للذكور والإناث؟؟! لماذا تسكت وزارة الصحة ونقابة الأطباء كأنما الأمر لا يعنيهما في شيء، وأرجوا من

وزير الصحة أن يطبع كتاب الأستاذ الدكتور سامي الديب ويوزعه على الأطباء حتى يعرفوا أن ختان الذكور ضارة بالجسم والنفس والمجتمع)

وسأترك الإجابة لمنظمة الصحة العالمية، وأعتقد أنها غير إسلامية ولا علاقة لها بالإسلامويين حسب مصطلح أركون، فقد طالعتنا قناة الجزيرة من خلال شريطها الإخباري، ومن خلال موقع الجزيرة نت بما ملخصه: (طالبت منظمة الصحة العالمية وبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز بإدراج ختان الرجال ضمن إستراتيجيات الوقاية من مرض نقل فيروس الإيدز.

وتفيد توصيات خبراء دوليين نشرت الأربعاء أن بالإمكان إنقاذ ملايين الأشخاص، ولا سيما في أفريقيا، في حال تعميم الختان، لكنهم اشترطوا تعزيز الأجهزة الصحية وعدم تصرف الرجال الذين يخضعون للختان بطريقة تعرضهم للخطر لاعتقادهم، خطأ، أنهم محميون بنسبة مائة في المائة، يأتي ذلك بعد أن أظهرت دراسات طبية أن ختان الرجال يخفض احتمال نقل فيروس الإيدز من المرأة إلى الرجل.

وقالت منظمة الصحة وبرنامج الأمم المتحدة لمكافحة الإيدز: إن إثبات فعالية الختان بعيدا عن أي شك معقول "يشكل محطة بارزة في تاريخ الوقاية من فيروس الإيدز". وأشارت الجهتان إلى أن تأثير ذلك سيكون أكبر حيث إن تواتر الإصابة بفيروس الإيدز عبر علاقات جنسية بين رجل وامرأة كبير، بينما عدد الرجال الذين خضعوا للختان قليل.

واعتبر مدير قسم فيروس الإيدز بالصحة العالمية "كيفين دي كوك" أن "هذه التوصيات تشكل خطوة إلى الأمام في الوقاية من فيروس الإيدز لكن يجب انتظار بضع سنوات لملاحظة التأثير الإيجابي على المرض". يشار إلى أن هذه الاستنتاجات والتوصيات جاءت نتيجة عملية تشاورية دولية نظمت من ٦ إلى ٨ مارس/آذار في سويسرا. وأظهرت ثلاث دراسات أجريت في أفريقيا (كينيا وأوغندا وجنوب أفريقيا) أن الختان يؤدي إلى خفض احتمال الإصابة بفيروس الإيدز بالنصف على الأقل (٦٠%).)

هذه النتائج جاءت عام (٢٠٠٧) ومقال السعداوي كتبته كما في كتابها في ١٠يوليو عام ٢٠٠٠م. وهنا أتساءل: هل تملك السعداوي الجرأة على متابعة نتائج آخر البحوث والدراسات العلمية، وآخر ما دار في عالم الطب؟ هل تعمل السعداوي بنصيحتها لأطباء مصر؟ لا أظن ذلك، لأنها غير معنية بالبحث عن الأحدث والعلمي والأدلة، هي مشعوذة ساقها القدر إلى كلية الطب.

لقد تركت الرد للعلم الحديث على أولئك الملاحدة، تركته للعلم التجريبي الذي وضع الإنسان على القمر وخاض به في لجج البحر ليرد على هذا التخلف الأدونيس الراوندي. أما ابن رشد فهو الفقيه ابن الفقيه، وتراثه الفقهي لا يقل عن تراثه الفلسفي، وهو في الفقه أكثر إبداعا منه في الفلسفة، فهو ناقد في الفقه، مقلد ملفق في الفلسفة، ومايسمى فلسفة ابن رشد ما هي – باعتراف أدونيس – إلا مصالحة بين النص والفلسفة.

وبعد فإن المفكرين العرب لا يملكون أسئلة خاصة بهم، ولا يصدرون عن رؤية خاصة في تعاملهم مع التراث، ففاقد الشيء لا يعطيه، والنجاح في التعامل مع شيء مرهون بمعرفته وإدراكه، وهذا سر فشلهم المزمن في تعاملهم مع التراث – الجهل به.

وقد انكشف جهلهم بموقف نقاد الجرح والتعديل - ذلك الموقف الذي لم يصدر عن رؤية إيدلوجية مذهبية أو إقليمية أو عصبية أو شخصية ضيقة، إنه نقد النص متنا وسندا لا أقل ولا أكثر، فكل ما يهم المتخصصين في هذا الشأن هو النص كوثيقة ومصداقيته، وهنا تشخص قمة الموضوعية للباحثين الموضوعيين المتجردين لا للعلمانيين العابثين بتراثهم، وبعد هذه الجهود العظيمة في دراسة النص وفحصه واختباره يطلقونه كالشمس للفقهاء والوعاظ والدعاة والحكام والساسة والاقتصاديين والقضاة وغيرهم، ممن يستثمره في ضخ الحياة في الحياة، وعيب العلماني العربي أنه محدود الأفق لا يرى أمامه سوى الفقهاء والدعاة الوعاظ والحكام والقضاة، أما ما يحدث داخل تلك الورش والمختبرات والمعامل الدقيقة التي تعتني بحفظ التراث وسلامته فهو كأهل الكهف عنهم.

ظاهرة توثيقية مرادفة

ليس مامضى من دقة ومبالغة في الدقة هو الوحيد، وإن كان أكثر من كاف للتأكد من صحة النصوص الحديثية، فقد ساهمت تداعيات النص على شكل ممارسات عملية يومية للعبادات والمعاملات الاقتصادية والعسكرية والسياسية، بالإضافة إلى تلك الشروح والتفسيرات والمصنفات الفقهية والقانونية والفتاوى التي تستمد شرعيتها من النص القرآني والحديثي، وظهور المذاهب الفقهية التي تتنافس فيما بينها في تقديم الأدلة – النصوص على آرائها، وكيف يحتج كل طرف على طرف لا على مستوى تفسير النص وفهمه، بل – أولا – على مشروعية النص من خلال تقديم نقودات رجال الجرح والتعديل للنصوص التي يحتج بها الخصم، كل ذلك شكل توثيقا مرادفا للحديث النبوي.

أين هذه الدقة والمبالغة في الدقة التي انفرد بها المسلمون تجاه سنة نبيهم عليه السلام، من تلك الفوضى الضاربة الأعماق في نصوص الكتاب المقدس، فالطريق الذي سلكه الكتاب المقدس إلينا لا يعرف شيئا عن الإسناد ولا التوثيق ولا الجرح ولا التعديل، ولا التدارس، ولا التداول اليومي، ولا الشروح، بل لا تعلم هوية كاتبه الدينية والعرقية والجغرافية واللغوية، ولا في أي عام كتبه، ولا مدى موثوقيته وعلمه ولا يعرف مذهبه وأهدافه من كتابته، بالإضافة إلى المعضلة المزمنة التي لا أمل للكتاب المقدس في تجاوزها، وهي:

من الذي ترجم الكتاب المقدس، وما أهدافه من الترجمة، وما مدى ثقافته باللغتين، وما مدى دقة ترجمته ومصداقيتها وتطابقها مع النص الذي ترجم عنه، ومن كتب النص الذي ترجم عنه ومن أي نسخة ترجمها ذلك المترجم، ثم وهو الأهم: هل هو ثقة وما ديانته ومذهبه ومن هو أصلا؟

أسئلة كارثية ليس لدى المسيحيين إجابة سوى هذه الإجابة الأشد كارثية، والتي يعترف المسيحيون قاطبة بها، ولا يعرف عنها العلمانيون العرب المسلمون شيئا، في الوقت الذي يتكتم عنها العلمانيون العرب المسيحيون، إنها:

ترجمة الملك جيمس.

والتي مر الحديث عنها، وخلاصة القول في هذه الترجمة المعتمدة في نقاط:

- هي أشهر وأوثق ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس
- هي المعتمدة تقريبا اليوم لكل الترجمات.
- قام بها ملك يدعى (الملك جيمس)، ونشرت عام ١٦١١، أي بعد نزول الإنجيل بـ ١٦١١ عاما. وهي حقبة زمنية أطول بكثير من المسافة التي تفصلنا عن فترة نزول القرآن.
- هي عملية انتقائية وملخص لترجمات سبقتها هي: ترجمة كوفردال في عام ١٥٣٥، وتوماس متى في عام ١٥٣٧، وجنيف في عام ١٥٦٠... وغيرها.
- تلك التراجم اعتمدت على أول ترجمة انجليزية للكتاب المقدس قام بها رجل يدعى: (وليام تندال)، والذي ترجمها بصورة مباشرة عن نصين: عبري وإغريقي.
- تم رفض ترجمة (وليام تندال) من قبل الكنيسة، بل إن تندال واجه معارضة عاصفة ورفضا كنسيا، فقد اتهمته الكنيسة بتعمد افساد معنى الكتاب المقدس.
- أمرت الكنيسة بإحراق ترجمة تندال للعهد الجديد من الكتاب المقدس (الإنجيل) لأنها مزيفة.
- أصدرت الكنيسة حكما بإعدام وليام تندال، وقد تم إعدامه فعلا أمام الحشود المسيحية حرقا وبالشد على الخازوق ، في اكتوبر عام ١٥٣٦.
- عادت الكنيسة في مشهد مثير للشفقة فاعتمدت ترجمة وليم تندال.

أجل، بعد هذا كله تعود الكنيسة فتجعل من عمل (تندال) الهرطقي والمزيف أساسا لكل الترجمات الإنجليزية وأهمها نسخة الملك جيمس، والتي تعتبر اليوم هي النسخة المعتمدة للشعوب الناطقة بالانجليزية. حيث تقول مقدمة الترجمة القياسية المراجعة: (أن الترجمة القياسية المراجعة للكتاب المقدس إنما هى عملية تنقيح مرخص بها للترجمة القياسية الأمريكية التي نشرت عام ١٩٠١، والتي كانت هي الأخرى تنقيحا لترجمة الملك جيمس التي نشرت عام ١٦١١) وقد تبينت تناقضات وأخطاء نسخة الملك جيمس، بعد اكتشاف كثير من المخطوطات الأكثر قدما من تلك النسخ والتراجم التى اعتمدت عليها ترجمة الملك جيمس، وهو ما يعني أن التراجم الإنجليزية بحاجة إلى إعادة نظر، لكن اعتماداً على ماذا؟ لا جواب، فالأصل مفقود. ليظل الكتاب المقدس عائما تائها، ونهبا للترجمات وللإيديلوجيا الموجهة لتلك الترجمات، وهذا ما دفع المهتمين بالكتاب المقدس إلى اصدار الترجمة الإنجليزية المراجعة في الاعوام ١٨٨١-١٨٨٥. ثم الترجمة القياسية الامريكية – في عام ١٩٠١. واستمرت عملية تنقيح التراجم ومراجعتها – ولاتزال – إلى أن صدرت الترجمة القياسية المراجعة للكتاب المقدس عام ١٩٥٢. وقس على ذلك الترجمات العربية التي تعتبر من أواخر الترجمات.

بعد هذا الكشف لأمية المفكر العربي لقلب تراثه، أو إذا أحسنا الظن قلنا: الكشف عن تجاهله لقلب تراثه العربي تتضح الرؤية في أنه لم يقم على الإطلاق بنقد علمي وجاد لنصوص تراثه، وأن كل ما قام به هو مجرد نقولات، أو ما يسمى هذه الأيام في لغة الحاسب الآلي: (قص ولزق) المقولات، أي استعارتها من الغربي دون وعي، واستخدامها دون وعي أيضا، لذلك اتسم ذلك الاستخدام بالتطرف والإقصاء، ولإنه دون وعي وغير صادر من الذات، فإن مستخدمه لا يصمد أمام أي نقاش جاد وموضوعي أمام خصومه، فيلجأ لقذفه بالاتهامات بالتخلف والرجعية والماضوية، ويسعى بشتى الطرق لمنعه ولو بالقوة من إيصال صوته. إذا فـ:

من العلماني المؤهل لقراءة قلب التراث العربي؟

مرة أخرى نعود للمفكر الغربي الذي أطاح بتراثه وتجاوزه، لا عن طريق القمع والإقصاء، ولا عن طريق استعارة مصطلحات لا يعيها كالماضوية والظلامية والرجعية والتخلف، بل بالحجة الدامغة التي لم تستطع الكنيسة تطويعها ولا أدلجتها ولا طمسها ولا حتى إقصاءها، رغم استخدام المحارق والمقاصل والخوازيق لتصفية عشرات الألوف من العلماء، بالعلم التجريبي وحده قفز العلماني الغربي تراثه وتجاوزه نحو المستقبل، وأثبت أن تراثه كان حقا ظلاميا، وكان حقا متخلفا ورجعيا ومزيفا، بالتجربة والكشف المادي المذهل أصبح التراث الكنسي شيئا من الماضي.

بهذا المستوى من العلمانية نستطيع قراءة قلب التراث العربي من جديد، لأن هذا النوع من العلمانية جاد وناجع.. مسافر مع كشف المجهول وتجلية الحقيقة إلى لا حدود، مؤهل بما يمتلكه من أدوات معرفية لا مكان للإيديلوجيا فيها، ولا مساحة للأحكام القبلية والجاهزة والمسبقة عندها، إنها علمانية تُجري التجربة بشروطها الموضوعية، ثم تحصل على النتيجة، ثم تُصدر الحكم بعيدا عن أي ضغط عاطفي أو إيديلوجي أو عداء أو خصومة، وهي بعكس العلمانية العربية التي تبدأ بتقديم النتيجة دون أن تجري تجربة واحدة، أو حتى تستمع إلى رأي آخر، بل على العكس تبدأ بإطلاق الشتائم والسخرية، وإلقاء التهم أطنانا على كل من خالفها. وأخيرا فلابد من التنبيه إلى أن هذا العلماني الغربي هو أستاذ العلماني العربي، مع أنه لم يتتلمذ على يديه، ولم يشاركه في بحث أو إنجاز، لكن من باب الترفق والمجاملة سأفترض أنه أستاذه، نظرا لكثرة دعواه بأنه يريد أن يصل إلى ما وصل إليه ذلك العلماني الحقيقي الذي قدم تساؤلاته الخاصة..

العلماني الذي قدم قراءة جديدة للنص الإسلامي.

من أماكن بعيدة وشاسعة يأتي باحثون لا علاقة لهم بالإسلام ولا بنصوصه ولا بتراثه، أشخاص معادون للدين المعيق والمحرف، عاشقون للحقيقة التي ينكر أدونيس وأمثاله من العلمانيين العرب وجودها، يأتي العلمانيون الغربيون التجريبيون بمختبراتهم ومعاملهم وأدواتهم وتجاربهم الدقيقة وبحوثهم الجادة.. يأتي الغربيون الذين اكتشفوا الذرة، وغاصوا في أعماق البحار، وصعدوا بالإنسان إلى سطح القمر، وربما إلى غير القمر يوما من الأيام.. العلمانيون الغربيون الذين اخترعوا الحاسوب والتلفاز والهاتف والأقمار الصناعية، والصواريخ التي تحمل أهدافها في داخلها، وتنطلق نحوها عابرة القارات والبلدان. يأتي هذا العلماني الذي قال: للكنيسة قفي. وقال للكتاب المقدس: لست كتاب الله. وقال لرجال الدين: لا شأن لكم بالعلم، فالعلم في جانب والكنيسة في جانب، ثم قذف بهم لرجال السياسة ليواصلوا قذف اللآت صارخين في وجوههم: لا شأن بالسياسة.

يأتي هؤلاء ليس بينهم شاعر كأدونيس، أو مدع كأركون، أو مؤدلج كالعظم، أو مترجم كهاشم صالح، فهذه التخصصات قابلة للتزييف والتطويع والقبلي والجاهز، وقد تصالحت مع الكنيسة عقودا، بل طوعتها الكنيسة واستغلت بعضها لأهدافها طويلا. جاء العلماني الغربي، لا أقصد حفيد سبينوزا وفرويد ودوركهايم وماركس وهيغل، بل حفيد غاليلوا وبرونو وكوبرنيكوس الذين تحولت دماؤهم طوفاناً ابتلع الكنيسة، وحقائقهم نار احرقت حروف كتابها المقدس.

العلماني الغربي التجريبي عثر في طريقه على النص الإسلامي، فلم يسلم له ابتداءً، واصطحب في الحكم عليه منهج الشك، واصطحب معه – مؤقتا – حكمه الذي توصل إليه في حق الكنيسة وكتابها المقدس، لكنه لم يكتف بكشفه السابق، ولم يكتف بقراءته السابقة والناجحة لكتابه المقدس، لقد قرأ النص الإسلامي قراءته الخاصة والجديدة، والتي لا يعرف عنها العلماني العربي شيئا، جاء من الغرب ليصدم بنصوص القرآن والسنة، فلم يرفضها ابتداءً كما فعل العلماني العربي، بل وضعها كما وضع كتابه المقدس تحت المجهر، وفحصها كما فحص كتابه المقدس، ليفاجأ أن هذا القرآن ليس ككتابه المقدس، وليس كأي كتاب قرأه من قبل، ثم خرج بعد دراسته التجريبية الجادة تلك بنتيجة مؤداها أن النص الإسلامي نص غير عادي، بل من المستحيل أن يكون من صنع البشر، فليس في قدرة البشر أن يقوموا به، أو يبدعوا مثله، وقرأ السنة النبوية الصحيحة فوجدها لا تقل عن القرآن مصداقية، اختبر هذه النصوص الإسلامية اختبارات صعبة ومضنية، وفحصها بعناية لا يعرفها الكلل ولا الكسل العربي، لم تكن دراسته مبنية على دراسات من سبقوه من العرب حول بلاغة القرآن وبلاغته اللغوية وإعجاز ألفاظه، لم يكن لدراسته أي علاقة بالبلاغة والصياغة والأسلوب، كان مسكونا بشيء واحد هو العلم التجريبي.. ومن معامل العلم التجريبي وأجهزته الحديثة خرج بشهادته المحايدة في حق هذه النصوص، وحصلت النصوص الإسلامية – القرآن وصحيح السنة – على شهادة هؤلاء المنصفين القادمين من معسكرات الخصوم

الحقيقيين، والأعداء التاريخيين، لكنهم رغم ذلك لا يستطيعون تطويع النتائج ولا أدلجتها فهي غير قابلة لذلك.
بالوثائق التي أفزعت المفكر العربي يقدم العلماني الغربي التجريبي شهادته التي تجزم بدقة مختبرات علماء الجرح والتعديل ونقاده، وتثمن جهودهم أبهى ما يكون التثمين، وتؤكد صدق محمد وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، في الوقت الذي يطل فيه علينا العلماني العربي كمخلوق متخلف بإفرازاته العاطفية وإنشائية البلهاء، لتكون بديلا عن تلك الشهادات الموثقة والرائعة، المنطلقة من موضوعية ومختبرات العلماني الغربي التجريبي، ثم يصر هذا الإنشائي البليد على أن نقلده في كل شيء، فإذا قدمنا له شهادة أستاذه الغربي سل سيف أبي جهل وعاند وتوعد وهدد وقال: أنا ربكم الأعلى، ولا أريكم إلا ما أرى، أو التزم صمت ابن سلول وهمزه ولمزه ونفثه.

العلماني الغربي يقدم شهادته حول القرآن

النصوص التي تهم العلم التجريبي وتتقاطع مع ميدانه في القرآن كثيرة، البعض منها صريح واضح يتحدث عن واقع مجهول أوكل مهمة كشفه واختراق حجبه لعقل الإنسان وعلمه، وشغفه بالمسافات البكر.
يقول القرآن في سورة الزمر، الآية:٩: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول: (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (سورة محمد، الآية:١٩). ويقول: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) (سورة يونس، الآية:١٠١).
ويقول: (إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين. وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) (سورة الجاثية، الآية:٣-٦). وغيرها من الآيات.
ولا يكتفي القرآن بالدعوة للعلم التجريبي، بل إنه يقدم وعوده الجازمة بأن العلم التجريبي كفيل بالوصول إلى الحقيقة التي يتردد في قبولها العلماني العربي، ويجعل للعلماء وحدهم إمكانية إنجاز تلك المهمة، وهذا يعني ضمنيا تقديم حافز باتجاه المستقبل الثري بالمزيد من الكشوفات.
يقول تعالى: (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) (سورة سبأ الآية:٦)
ثم يؤكد القرآن على أن هناك حقائق علمية تؤيد صدق القرآن سيتمكن العلماء التجريبيون من اكتشافها مستقبلا، أي أن القرآن لا يكتفي بإزالة الحاجز الوهمي والرهاب الذي ألقته الكنيسة وكتابها المقدس على من يقترب من العلم، أو ينتسب للعلماء بتلك المجازر والإعدامات الرهيبة التي طالت عشرات الآلاف، تحت حجة أن هؤلاء العلماء آثمون لمواصلتهم تناول المعرفة غير الدينية، وهم بذلك يكرسون

خطأ أبيهم آدم عندما أكل من شجرة المعرفة المحرمة، وأن على الإنسان أن يكون عابدا لا أن يكون عالما.
القرآن نزل لينسف تلك المفاهيم، وليؤكد على أن العلم هو منهج أتباع الأنبياء، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، وأن فضل العالم على العابد كفضل النبي على أقل الناس من أتباعه منزلة، وعلى أن العابد يكون آثما متى كانت عبادته على غير علم، ولا يقصد القرآن بـ(العلم) فقط علم العبادة، بل يقصد ضمنا العلم التجريبي، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما أنزل الله داء إلا قد أنزل له شفاء: علمه من علمه وجهله من جهله – مسند أحمد بن حنبل ١ - ٣٧٧) وقد وصف الذي لا يعرف الطب بالجهل، ولا أعتقد أن الجهل صفة محببة إسلامياً، كما أنها بالتأكيد عكس العلم كما ينص الحديث، والعلم صفة راقية إسلاميا. (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)
ولعل ما حير الأطباء اليوم ومعهم شركات الأدوية في العالم رغم مليارات الدولارات التي أنفقت على اكتشاف علاج لمرض الإيدز، أن يقوم شيخ معمم من أهل القرآن والسنة مع فريقه الطبي والصيدلي، مدفوعين بذلك الحديث السابق وبأحاديث أخرى إلى ممارسة دور المسلم المشغول بالبحث عن الدواء الموجود حتما، وما على الإنسان سوى اكتشافه، دفع ذلك الحديث - الذي طالما سخر العلمانيون العرب برواته والدارسين له والمعتنقين له – الشيخ عبد المجيد الزنداني إلى اكتشاف عقار للإيدز بعد أن فشل العالم كله في اكتشافه، وهو الآن في مرحلة تفاوضية مع شركات الأدوية حول الحقوق والمسائل المادية والقانونية قبل طرحه في الأسواق.
ما قام به الشيخ المشغول بالإعجاز العلمي، والذي أسلم على يديه عشرات العلماء الغربيين والشرقيين التجريبيين، من أطباء وفلكيين وجيولوجيين وغيرهم، كان بتحريض من قول القرآن قبل ألف وأربعمائة عام: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق* أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (سورة فصلت، الآية:٥٣) إنه يقول في الآفاق وفي أنفسكم، والآفاق ليست مصحفا أو كتباً أو تفاسير، أو كتب فقه وحديث ووعظ وتذكير، أو حتى كتب شعر وبلاغة، ولست الآفاق ركوعا أو سجودا أو صياما أو تجارب تصوفية وتأملات نفسيه.. إنها آفاق الكون وزواياه، وأعماق جسد الإنسان وخلاياه وخباياه.
ويقول: (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) (سورة الأنعام، الآية:٦٧). ويقول: (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) (سورة النمل، الآية:٩٣) ويقول: (إن هو إلا ذكر للعالمين* ولتعلمن نبأه بعد حين) (سورة ص، الآية:٨٧-٨٨).
هذا الجزم القرآني هو المحك والفيصل الذي يفصل العلماني الغربي عن العربي، ففي حين يكون الأخير مأخوذا بالتقليد وترديد أقوال أستاذه الغربي ونتائجه مع كتابه المقدس، دون أن يخوض التجربة نفسها مع القرآن، ليحصل على النتائج العلمية المبرهنة بالتجربة والأدلة، نجد أستاذه الغربي لا يكتفي بتعميم نتائجه

السابقة مع الكتاب المقدس، بل يقوم بدراسة القرآن وفحصه واستخراج نتائجه الموضوعية المحايدة ريثما يفيق العربي من غطيطه الطويل وشخيره المزعج.
القرآن هنا يتحدى العلم التجريبي ويحرضه ويستفزه للكشف، ويجزم بأن العلم هو من سيكتشف يوما صدقه وموثوقيته. إنه تحد مذهل لا يصدر إلا من واثق بما يحمله.
لم يستجب العلماني العربي للتحدي، لأنه لم يكن أهلا له، فاكتفى بترديد الشتائم، واستخدام الدراسات النفسية والاجتماعية والأدبية المطاطة التي يستطيع توظيفها حسب إيديلوجيته، أما الغربي فحمل أسلحته التي هزم بها الكتاب المقدس، ونزل إلى ميدان العلم في صراع مع القرآن، فوجد آيات كثيرة جدا تتحدث عن الفضاء والسماء والأرض والبحار والحيوانات والإنسان، وهي ميادين وحقول العلم التجريبي، وهي حقول خصبة أبدع فيها الغربي بشكل رائع، اكتشف مجاهلها وغاص في أعماقها وسافر في آفاقها، وأصبحت تلك الإبداعات زاده وراحلته. توصل إلى معلومات تصنف ضمن قائمة (الحقيقة) ووصل في بعضها إلى درجة (النظرية) ومازال متيما بالمزيد من الكشف والبحث الذي لا يتوقف.
ما يهمنا هنا هو قائمة (الحقيقة) التي مكنت الإنسان من غوص أعماق البحار، والمشي على سطح القمر، وإجراء عمليات بالغة الدقة كزرع الأعضاء والاستنساخ.. والآيات الكثيرة التي تتحدث عن مساحات في الكون والإنسان وصل فيها العلم التجريبي إلى درجة (الحقيقة) ومدى تطابق الحقيقة القرآنية مع الحقيقة العلمية التجريبية. وبالتالي أسقط القرآن والعلم التجريبي معا تلك النظرية الإنشائية الرشدية حول الحقيقتين.
أما مؤدى وجود تلك الحقائق في القرآن قبل ألف وأربعمائة عام فلا يقتصر على الدهشة في تناول الجانب المادي فقط، فالقرآن لا يذكر المعلومة لذاتها كما تفعل السنة في أحاديث كثيرة تتعلق بالكون والإنسان، فالمعلومة المادية في القرآن تأتي ضمن سياق يحتوي على سياقات أخرى تاريخية وغيبية وتشريعية، وكأن المعلومة المادية تأتي ضمن ذلك السياق الرائع لتمنح شهادة توثيقية أخرى بالإضافة إلى عمليات التوثيق الأخرى التي مرت معنا.. تأتي كشهادة بالحقيقة والصدق لمعلومات غيبية وثوابت عقائدية كالقيامة والجنة والنار والملائكة..
تلك الثوابت تأتي في غضون تلك المعلومات المادية التي حكم عليها العلم التجريبي من خلال مستوى الحقيقة لا النظرية. كان القرآن معجزا ومدهشا لربطه تلك المعطيات مع ركائز عقائدية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق واحد فقط هو الخبر الصادق، وكأنها تشير إلى أمر يجعل القرآن في قمة التحدي لعقل الإنسان، وكأن تلك الآيات تقول له: ابحث أيها الإنسان عن تلك المعلومة فإن تأكدت من صدقها فأنت مطالب بالإيمان بها ككل، لأنه لا يمكن فصلها، والعكس صحيح، كما أنه لا يمكن لبشر مهما كان عبقريا أن يصل إلى تلك المعلومات والحقائق في ظل تلك المعطيات والظروف السائدة قبل ١٤٠٠ عام، والتي تعتبر متخلفة جدا مقارنة بما وصل إليه العلم الحديث اليوم، لا سيما ذلك المحيط العربي الجاهلي الذي عاش

فيه النبي صلى الله عليه وسلم، والذي يعتبر من أكثر مناطق العالم تخلفا إن لم يكن أكثرها.

التحدي هنا هو أن يقدم القرآن معلومات لا يستطيع الإنسان مهما حاول، أن يصل إليها إلا في هذا العصر، وهذا هو المعنى الذي تشع به الآية القرآنية التي تقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق* أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (سورة فصلت، الآية:٥٣)

وفي القرآن آيات سيطول المقام لو أوردتها.. كلها تندرج ضمن القائمتين (الحقيقة) و(النظرية) ولذا سأكتفي ببعضها. ومنها قول القرآن: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين – المؤمنون ١٢-١٤)

وقوله تعالى: ("فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب - الطارق :٥ -٧)

وقوله: (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا – النبأ:٦ - ٧)

وقوله: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ – النحل ٦٦) وغيرها من الآيات التي تتحدث عن الكون والإنسان، وبطريقة أثارت غضب العلماني العربي فسخر منها، وأثارت العلماني الغربي فدرسها بفضول شديد كما درس كتابه المقدس.

عندما يفرغ العالم التجريبي الذي يعيش في عالم صناعي وتقني متطور من تقديم شهادته في دينه كتاباً وتعاليماً وتشريعات.. كاشفاً لمعتنقيها أنها منتج بشري، فلا بد أن تكون نظرته الأولية للدين السائد في البلاد المتخلفة كالعالم العربي، والذي تقود دوله الأكثر تخلفا قيادات علمانية أكثر سوداوية، وهذه النظرة الأولية لازمت العقلية العلمانية العربية دون تغير، فاقتنعت بها دون ممارسة أي حراك علمي تجريبي للبرهنة عليها، بل اكتفت بالعبارة السريعة التي لا تكلف سوى النطق بها: (ما دام دين الغرب المتقدم محرفا، فمن المؤكد أن دين العرب المسلمين المتخلفين أكثر تحريفاً) ولعل أبرز الأمثلة على هذه العقلية المأساوية العربية الكسولة ما مرمعنا في بداية الكتاب، وهو تخرصات الكاتب الشيوعي(صادق جلال العظم) وتلاعبات الكاتب "أركون"

إذا تجاوزنا هذه القراءة الإيديلوجية الضيقة للقرآن عند العظم وأركون وأمثالهما من العلمانيين العرب والتي ترفض النص القرآني ابتداءً قبل عرضه ودراسته، فقط لأن الغرب رفض الكتاب المقدس، إذا تجاوزنا هذه القراءة إلى قراءة الغربي التجريبي للنص الإسلامي (القرآن) إذا اتجهنا إلى تلك القراءة غير المحملة بالماضي وتداعياته، بل إلى قراءة كشفت لوحدها زيف الكتاب المقدس، وهي القراءة التجريبية التي لا مجال للمحاورة والمداورة معها، فمن الممكن تطبيقها بامتياز على الآيات القرآنية "الصريحة" في تناولها للكون أو الجسد البشري

والحيواني. وقد أتيحت لبعض العلمانيين الغربيين التجريبيين فرصة التعرف على النص الإسلامي (قرآنا وسنة).
في البداية كانت نظرتهم التي يحملونها لكل الأديان واحدة، وهي أنها إبداع بشري، أو إلهي، تسرب إليها التحريف والزيف من هنا أو هناك، ولم تكن هذه النظرة سوى نتيجة طبيعية للضغط الهائل الذي مارسته الأدبيات الغربية في تخصصات علم النفس والاجتماع والأدب والفلسفة، وهذه الأدبيات عبارة عن إفرازات غير منضبطة للنتائج التجريبية، في مواجهتها للكنيسة وكتابها المقدس، وهي أدبيات حاولت التغلغل إلى العلم التجريبي بأسلوب أسطوري لكنها فشلت، كنظرية دارون التي حطمها اكتشاف الجينات الوراثية، ومثلها نظريات الكبت الجنسي لدى فرويد وغيرها.. ورغم هذا الضغط الهائل إلا أن العلماني الغربي التجريبي، يتجدد إبداعا وكشفا كل يوم، ومع كل كشف، ومن الآيات التي تعرف عليها العلماني الغربي تلك الآيات التي كفر بها (العظم).
في البداية، كانت الدهشة والتساؤل وعدم التصديق، إذ كيف يأتي رجل عربي أمي.. في عصر متخلف تقنياً بتلك المعلومات البالغة الدقة!! هنا تبينت تفاهة القراءة التي مارسها العظم وأركون. أما الخطوة الثانية، فتتجلى في الدراسات الجادة للألفاظ والمعطيات القرآنية، مع استبعاد التاريخ والإيديلوجيا والعواطف والقراءات السابقة والمعدة. الخطوة الثالثة: إعلان النتائج دون تردد أو وجل.
أما الخطوة الرابعة، فهي التي تقتل أمثال العظم وأركون وأدونيس وتفزعهم، تلك هي اعتناق العلماني الغربي التجريبي للنص القرآني، بعد توصله إلى نتيجة قاطعة لا شك فيها، مؤداها: أنه يستحيل لبشر مهما كانت قواه العقلية، أن يبدع نصاً كالقرآن في تلك الظروف المتخلفة علميا وتقنياً، والتي كانت أكثر تخلفا بمراحل من أكثر عصور الظلام الأوربية في القرون الوسطى.
الخطوة الخامسة، والتي بدأت بالقضاء على الفكر العلماني العربي هي: أن يؤلف هذا التجريبي الغربي (أستاذ العربي) مؤلفات عن القرآن ذات سمة علمية دينية مشتركة لا يمكن التشكيك بها، وهو بذلك يقضي على الخرافة الرشدية (نظرية الحقيقتين)
أسماء لامعة في العلم التجريبي، ومراجع عالمية كبيرة في علم الأجنة من أمثال:
- البروفيسور "كيث ل. مور" أحد كبار العلماء في العالم في مجال (التشريح وعلم الأجنة).. هذا الأستاذ هو مؤلف الكتاب المرجع (The Developing Human) (أطوار خلق الإنسان) وهذا الكتاب مترجم لثمان لغات: الروسية، واليابانية، والألمانية، والصينية، والإيطالية، والبرتغالية، والإنجليزية، واليوغوسلافية، وعندما كونت لجنة في أمريكا لاختيار أحسن كتاب في العالم ألفه مؤلف واحد كان هذا الكتاب هو الفائز عند تلك اللجنة.
- البروفيسور جولي سمسون وهو أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية وقد طلب منه أن يكون مستشاراً

علمياً لإبداء رأيه من الجانب العلمي حول بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه.
- البروفيسور مارشال جونسون رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.
- البروفيسور ج. س. جورنجر أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن.
- البروفيسور... برسود رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا.
- البروفيسور تاجات تاجاسون رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة شاينج ماي بتايلاند، والآن عميد كلية الطب بها.
- البرفيسور موريس بوكاي الطبيب الفرنسي الشهير.
لنتأمل هذه الأسماء وتخصصاتها جيدا: هل فيها مدع كمحمد أركون، أو شاعر كأدونيس، أو كاتب كالعظم. أعتقد أن هؤلاء المفكرين العرب يبدون كالأميين المتخلفين في تعاطيهم مع العلم التجريبي مقارنة بهؤلاء العلماء التجريبيين المتخصصين، وأن لا مجال لمقارنة بين الفريقين إلا لدى المختلين عقليا، كانت قراءة العظم الإيديلوجية المحملة بالتقليد المحض، والعداء للنص، والمشحونة بالأحكام المعلبة.. تكرارا ممجوجا لآراء متخلفة سبقه إليها أمثال ابن الراوندي والرازي إخوان الصفا، في عصور كانت المراكب فيها الحمير والبغال، فما هي قراءة العلماني الغربي التجريبي للقرآن ولهذه الآيات بالتحديد، والتي وقف العربي بعدها أخرسا كالمسمار:
يقول القرآن: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ¤ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ¤ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين – المؤمنون ١٢-١٤)
ويقول: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث- الزمر ٦)
وقد مر معنا حديث البروفيسور كيث مور في كتابه المدعم بالصور والأشكال التوضيحية تحت عنوان: (العصور الوسطى)، كما مر معنا الحديث عن الحوار الذي جرى بين البروفيسور كيث مور والرجل المشغول بعلاقة العلم التجريبي بالإسلام ومكتشف عقار علاج الإيدز الشيخ (عبد المجيد الزنداني) على هامش مؤتمر علمي.
يقول الزنداني: ثم بعد ذلك وضع الدكتور كيث مور مقدمة هذه الإضافات الإسلامية، فكان هذا الكتاب هو الذي اقترحه البروفيسور كيث مور مع الإضافات الإسلامية كما يراه القارئ بين يديه. لقد رجعنا إلى كل صفحة من الصفحات التي فيها حقائق من علم الأجنة فوضعنا في مقابلها الآيات والأحاديث النبوية التي تبين وجه الإعجاز.
كيث مور لم يكتف بالتسليم بحقيقة أن القرآن منزل من عند الله، بل تجاوز ذلك إلى تأليف الكتب حول القرآن وعلم الأجنة، ومنها:
(وصف التخلق البشري – طورا العلقة والمضغة)

و(مصطلحات قرآنية لمرحل وأطوار التخلق البشري) وغيرها...
أما ما يخجل العلمانية العربية فهو أن هذه المؤلفات العلمية تمت بمشاركة شيخ ماضوي وثوقي ظلامي إسلاموي – حسب اصطلاحات أدونيس وأركون ومن لف لفهم من المنتفخين بالادعائية – وليس بمشاركة العظم أو طرابيشي أو أركون.
وهنا تأتي الصدمة التي يحاول المنتفخون تجاهلها وطمرها تحت وابل من الإنشائية، الصدمة التي مازالت تتجدد لتعيد خلق كل إنسان يفتح عقله ويتخلى عن عواطفه.. الصدمة التي أعادت تشكيل أبي بكر وعمر، وبقية الصحابة والتابعين والأجيال حتى اليوم.. تعيد بالقوة نفسها البروفيسور (كيث إل مور) أحد أبرز مراجع علم الأجنة في العالم في القرن الحادي والعشرين، لتحوله إلى إنسان آخر.
هذا هو السر – النص (القرآن والسنة)، وهو ما لم يتنبه له الجابري بنسبته هذا الإنجاز إلى عصر التدوين. وما عصر التدوين سوى أثر من آثار نزول القرآن الذي أعاد تشكيل الإنسان العربي، وما زال، وما كان عصر التدوين ليحدث لولا نزوله، وهو الذي أعاد لأوروبا حيويتها كي تشاغب نصوصها المقدسة، وتنعتق من سراديب محاكم التفتيش اللاهوتية.
النص القرآني أعاد تشكيل (مور) فانطلق كالشمس لإضاءة الآخرين، النص القرآني وأعاد تشكيله كما أعاد تشكيل الصحابة الذين قضوا ردحا من أعمارهم متخثرين تحت هبل واللات والعزى وبقية الأحجار والأخشاب التي يمجدها أدونيس، القرآن أطلق كيث مور نحو المزيد من البحث والإضاءة، ولم يحوله إلى راهب، انطلق "مور" بالقرآن نحو العلماء التجريبيين أمثاله ليضيئهم بآياته ومعجزاته، أصبح "مور" الكندي مشعا كبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم من الأقباط والبربر..
في إحدى المؤتمرات العلمية قدم "مور" بروفيسورا آخر هو: (فان برسود) رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا. وقد قام الدكتور "مور" بتقديمه قائلا: هناك علماء أحرار.. يهمهم البحث عن الحقيقة، وهذا أحدهم البروفيسور (فان برسود) مؤلف مشهور له عدد من الكتب، ألفها في علم أمراض النساء، وأضاف أيضاً في هذه الكتب بعض ما جاء في القرآن والسنة، وأشار إلى هذه الآيات والأحاديث في كتبه، وقدم عدداً من البحوث في عدد من المؤتمرات. وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه حول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (الذي رواه مسلم وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم): "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء".
أما برسود فقال: إنني لا أجد صعوبة في أن أوفق في عقلي أن هذا الإلهام إلهي أو وحي. ويواصل مور تأثيره على المؤتمرات العلمية، كاشفا هذه العتمة التي حالت بين الغرب والنص القرآني والتي فرضها تسلط العلماني العربي وتحكمه بقنوات الإعلام والتعليم. ومما أذهل العالم حديثا تلك الصور التي عرضها الزنداني مقارنا

بين شكل الجنين قبل أربعين ليلة وبعده، ففي الأولى لا ترى أي تشكل أو بدايات للسمع والبصر، أما الثانية فتبدوا شقوق السمع والبصر واضحة جلية

عالم كبير كاد أن يكون علمانيا عربيا

في قصة غريبة وردة فعل أغرب، كاد أحد العلماء التجريبيين الكبار أن يكون علمانيا عربيا تحت تأثير الإيديلوجيا والأحكام العاطفية، لكن النص القرآني ثم كشوفات كيث مور العلمية الدقيقة أبت إلا أن يكون هذا العالم إسلامويا ماضويا وثوقيا.

البروفيسور (تاجاتات تاجاسون)

في مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، وفي المؤتمر الطبي السعودي السابع، كان أحد ضيوف المؤتمر عالم كبير هو: البروفيسور (تاجاسون) رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة شاينج ماي بتايلاند، وهو الآن عميد كلية الطب بها، وبعد قيام علماء الإسلام المهتمين بعلاقة القرآن بالعلم التجريبي، بعرض بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه في مجال علم التشريح، أقر "تاجاسون" بما فيها من إعجاز، لكن نزعة عاطفية وراثية وإيديلوجية عاجلته، فقال وقد أعمته العاطفة والنفور الذي يجده الإنسان من كل ما لم يألف عليه من عقائد: "ونحن كذلك يوجد لدينا في كتبنا المقدسة البوذية أوصاف دقيقة لأطوار الجنين" فقال له العلماء: نحن بشوق لكي نعرف هذه الأوصاف، ونريد أن نطلع على ما كتب في هذه الكتب. فوعدهم خيرا.

سافر البروفيسور (تاجاسون) إلى بلاده، وبحث عن مخرج لورطته التي أوقعته فيها تلك الإجابة المؤدلجة المتعجلة، وعندما جاء بعد عام إلى المملكة مرة أخرى، ممتحناً خارجياً لطلاب الطب في جامعة الملك عبدالعزيز بجده، حاصره علماء الإسلام بكل ثقة، طالبين منه الكشف عن تلك النصوص المعجزة التي ادعى أن كتب البوذية تحتوي عليها؟

اعتذر الرجل قائلا: كنت قد أجبتكم دون أن أتثبت لهذا الأمر، ولما بحثت عنه وجدت أنه لا توجد النصوص التي ذكرتها لكم. عندئذٍ قدم العلماء له محاضرة مكتوبة للدكتور "كيث مور" وكان عنوان المحاضرة (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة) وسألوه: هل يعرف الأستاذ كيث مور؟ فقال: إنه رجل من كبار علماء العالم المشهورين في هذا المجال. وبعد أن اطلع على هذه المحاضرة اندهش أيضاً.

سأل العلماء الدكتور (تاجاسون) عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه، ومنها ما يتعلق بالجلد فأجاب قائلاً: نعم، إذا كان الحرق عميقاً دمر عضو الإحساس بالألم.

فقالوا له: سيهمك أن تعرف أنه في هذا (القرآن الكريم) إشارة منذ ألف وأربعمائة سنة إلى عقاب الكافرين بالقرآن بعذاب النار في جهنم، ويذكر القرآن أنه عندما ينضج الجلد، يخلق الله لهم جلوداً أخرى حتى يذوقوا العقاب بالنار، مما يشير إلى حقيقة أطراف الأعصاب في الجلد ونص الآية هو: (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان

عزيزاً حكيماً) (سورة النساء، الآية:٥٦). هل توافق على أن هذه إشارة إلى أهمية أطراف الأعصاب في الجلد، بالنسبة إلى الإحساس منذ ١٤٠٠سنة؟
فأجاب الدكتورتاجاسون: نعم، أوافق أن هذه معرفة. ثم قال: لأنه مذكور أنه إذا ارتكب أحد خطيئة وعوقب بحرق جلده يخلق الله جلداً جديداً لجعله يذوق الألم مرة أخرى، هذا يعني أنه كان معروفاً منذ ١٤٠٠سنة أن مستقبل الإحساس بالألم لا بد وأن يكون في الجلد، ولذلك فلا بد أن يخلق لهم جلداً جديداً.
ولما تلا عليه العلماء قوله تعالى:(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب...) وذكروا له عدداً من الآيات والأحاديث، وسألوه بعد ذلك هل يمكن أن تكون هذه الآيات قد جاءت إلى محمد صلى الله عليه وسلم من مصدر بشري؟أجاب: لا يمكن أن يكون ذلك. قالوا له: فمن أين جاءت؟ قال: لا يمكن أن تكون مصدراً بشرياً، ولكن أسألكم أنتم من أين تلقى محمد هذه العلوم؟
قالوا له: من عند الله سبحانه وتعالى. فقال: ومن هو الله؟
قالوا له: إنه الخالق لهذا الوجود، إذا رأيت الحكمة.. الحكمة تدل على الحكيم، وإذا رأيت العلم في هذا الوجود، دلك على أنه من صنع العليم، وإذا رأيت الخبرة في تكوين هذه المخلوقات، دلتك على أنها من صنع الخبير، وإذا رأيت الرحمة شهدت لك على أنها من صنع الرحيم، وهكذا إذا رأيت النظام الواحد في هذا الوجود والترابط المحكم، دلك ذلك على أنه من صنع الخالق الواحد سبحانه وتعالى. فأقر بما قاله العلماء، ثم عاد إلى بلاده وألقى عدداً من المحاضرات عن هذه الظاهرة التي رآها واطلع عليها، وبلغهم أنه أسلم بعد محاضرته خمسة من طلابه.
ثم جاء موعد المؤتمر الطبي السعودي الثامن، كان خلالها ينصت بكل حواسه في الصالة الكبرى، التي خصصت للإعجاز الطبي في (القرآن والسنة) طوال أربعة أيام لعدد من الأساتذة من المسلمين وغير المسلمين، يتحدثون عن هذه الظاهرة (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة).
وفي ختام هذه الجلسة وقف البروفيسور (تاجاتات تاجسون) يقول هذه الكلمات: (في السنوات الثلاث الأخيرة أصبحت مهتماً بترجمة معاني القرآن الكريم، الذي أعطاه لي الشيخ عبدالمجيد الزنداني في العام الماضي، ومحاضرات البروفيسور "كيث مور" التي طلب مني الشيخ الزنداني أن أترجمها إلى اللغة التايلاندية، وأن ألقي فيها بعض المحاضرات للمسلمين، ولذا فإنني أؤمن أن كل شيء ذكر في القرآن منذ ١٤٠٠ سنة لا بد أن يكون صحيحاً، ويمكن إثباته بالوسائل العلمية، وحيث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يستطيع القراءة والكتابة، فلا بد أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول جاء بهذه الحقيقة، لقد جاء هذا عن طريق وحي من خالق عليم بكل شيء، هذا الخالق لا بد أن يكون هو الله، ولذلك فإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أخيراً يجب أن أشكركم على جهدكم لإعداد هذا النقاش، والذي كان على درجة عالية من النجاح، إن الفقرات التي أعدت (لهذا المؤتمر) بمثل هذا الحجم لا بد وأنها كانت

صعبة جداً، لقد اهتممت كثيراً ليس بالجانب العملي فقط، ولكن بالأمانة العظيمة التي أصبحت لي لزيارة العلماء وتكوين صداقات جديدة، إن أثمن شيء اكتسبته باعتناق هذه العقيدة هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فأصبحت مسلماً.
وبعد هذه الكلمات العظيمة من تلك المراجع العلمية، ألا يحق لنا أن نقول: أليس من الجنون مقارنة أركون والعظم وأدونيس وكتاباتهم الإنشائية، بدراسات هؤلاء المراجع العلمية التجريبية الحديثة. فبعد شهادة "تاجات" و"مور" وغيرهم من النوابغ، لا أدري كيف أصف جرأة هذا (العظم) وذلك (الأركون) على العلم التجريبي وحديثهما بالنيابة عن العلماء المنجزين وهما أجهل الناس به.
فإذا انتقلنا إلى آيات أخرى، تتحدث عن علم آخر من العلوم التجريبية مثل قوله تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)
هذه الآية التي مر الحديث عنها تتحدث عن أن أعمال وعقيدة من يكفر بالله كالعظم، ومن يكفر بالقرآن وحياً كأركون، وأن هذه الأعمال لا وزن لها يوم القيامة، وستتلاشى كالسراب، ثم يشبه الله أعمالهم وجهودهم لأطفاء نور الإيمان بأنها بالغة الظلمة ومضطربة، كظلمات في أغوار بحر عميق يعلوها موج، ليس هذا فحسب، بل تأتي الآية بتصوير جديد لم يعهده العرب من قبل، ولم تعهده البشرية، ولم تصل إليه مخيلة الأسطوريين اليونان والرومان بل والفرس وغيرهم، وذلك عندما تقول الآية أن هذا الموج فوقه موج آخر، ومما يزيد من ظلام تلك الظلمات أن فوق تلك الأمواج سحاب.
هذه الصورة تأتي في القرآن كمثال على حالة التخبط والظلامية في عقول من يكفر بالقرآن، والقرآن هنا يضرب مثالا لا تعرفه العرب الذين أكلتهم الصحراء وغيرتهم شمسها.. العرب الذين لا يعرفون السفن ولا يركبونها، لا يعرفون سوى سفينة الصحراء (الجمل) وهي صورة يمكن الاكتفاء بها كمثال فقط، والاقتصار على وقعها المعنوي للرجوع عن العناد والكفر والمكابرة. لكن المعجز والمدهش في النص القرآني، أنه حتى المثال في القرآن، لا يكتفي بروعة توصيف الحالة التي يريد تقريبها لقارئه، بل يتجاوز ذلك إلى أن يكون المثال نفسه مكتنزا بالإعجاز.
القرآن هنا يضرب مثالا يفهمه العربي على أنه مثال لا أكثر، لأنه لم يركب البحر ولم يسبر أغواره، لكنه يشعر بأجواء الظلمة تغمره بها هذه الصورة المرعبة، ومما يزيد من ثقل المثال جهل العربي بعالم البحر، مما يجعل الظلمة أكثر عتمة وإخافة.
وحتى غير العربي ممن ركب البحر وغاصه في ذلك الزمان، لا يفهم منه أكثر مما فهمه العربي، بحر عميق مضطرب الأمواج ومخيف، لأن الغواصين في ذلك الزمان لم يتمكنوا من الغوص إلى أعماق تمكنهم من سبر تلك التجربة، ولأن الإنسان لم يستطع التعمق أكثر من ثلاثين مترا إلا بعد اختراع آلات حديثة.

لكن – كما قلت – المدهش والمعجز في المثال القراني أنه مثال يخيف أهل البحر أنفسهم، فحتى هم.. ورغم خبرتهم وتجاربهم مع البحر، فإنهم لا يدركون من هذا المثال سوى أنه مثال يصيب الإنسان بالرعب، وهو رعب مضاعف، لأن الأمواج ترعب الإنسان وهو فوق سطح البحر، فكيف بمن يعيش تحت ظلمته، وفوقه موجان، موج داخل البحر، وآخر على السطح.

إذاً فليس هناك أحد مؤهل طوال ألف وثلاثمائة عام ليقرأ هذا النص القرآني قراءة أخرى غير القراءة الأدبية والشعورية، لكن عندما أطل القرن العشرين، قرن الثورات العلمية والتقنية والكشوفات المذهلة، لاح في الأفق العلماني الغربي التجريبي وحده مؤهلاً لكشف هذا المثال القرآني الذي يهز كيان الإنسان.

قرأ العلماني الغربي التجريبي هذا المثال، آخذا في الاعتبار كون محمد صلى الله عليه وسلم لم يركب البحر ولا علاقة له به، وكون محمد صلى الله عليه وسلم لا يعرف القراءة ولا الكتابة، بالإضافة إلى أنه عاش ونقل لنا هذه الآيات في ظروف كان العالم فيها يعيش تخلفا بالغا في التقنية.

كل ما في هذه الآية وما يحيط بها من معطيات علمية، لا يعني شيئا لدى العلماني العربي سوى التندر والسخرية، لأنه غير مسكون لا بما جاء به محمد عليه السلام، ولا بما توصل إليه العلماني الغربي التجريبي من كشوفات، هو مسكون بترديد أصوات في رأسه دون وعي. أما بالنسبة للعالم التجريبي الغربي فتعني التحدي في أقصى مداه، وأرحب آفاقه، لأنه ممتلىء بالتحدي الذي لا يعرف القناعة.

تلك الكشوفات وتماهيها مع النص القرآني.. ترفع الستار عن فضيحة مدوية للعلماني العربي، هي أنه ينقل حتى الألفاظ بتقليدية تثير الشفقة، وهو لا يقلدها فقط، بل يقتلعها من سياقها التاريخي والموضوعي الذي نشأت فيه، فالعلماني الغربي قالها في وجه الكنيسة والكتاب المقدس، بعد أن وصل العلم الحديث من جهة، والكنيسة والكتاب المقدس من جهة أخرى، إلى حالة التصادم التام.

هكذا ودون وعي ينقلها العربي، ومما زاد تلك الفضيحة، أن الأستاذ الغربي (العلماني الحقيقي) تخلى عن مقولة (لا أحد يملك الحقيقة) عندما درس القرآن كما مر معنا، حتى المعاند والإيديلوجي منهم حاورت عواطفه وداورت، ثم أعلن استسلامه وتسليمه بصحة القرآن وإعجازه.

فماذا بقي للعلماني العربي سوى أن يقرأ هذه الآية كما قرأها أستاذه الغربي، أو يتمسك بجهله وعناده وإيديلوجيته ليكون من (الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

هذه الآية تؤكد أن العلماني العربي ينقصه الكثير.. الكثير من نور العلم التجريبي، وهو نور يكشف نور الحقيقة، ولكن (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

يجهلها هؤلاء، ويجهلون ما فيها من مضامين علمية، ويكفرون بما فيها من مضامين عقائدية. إنها كلمات – بالنسبة لهم - غير مفهومة، لذا لا بد من تكذيبها واتهامها، فهي ماضوية متخلفة منقولة من القرون الوسطى المظلمة. لكنها بالنسبة للعلماني الغربي التجريبي شيء آخر.. شيء مدهش ومعجز ومحير ومذهل، شيء لا يمكن لبشر مهما كان مثقفا أو متعلما أن يصل إليه، ولا تفسير لوجوده في القرون الوسطى سوى أنه نازل من عند الله.

يقول القرآن: (''فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب . إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَآئِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ - الطارق :٥ -٧)

هذه الآية تبين أن الإنسان خلق من سائل متدفق، لكن الشيء الذي يجهله كل البشر حتى تطور العلم التجريبي هو: أن هذا السائل ينشأ في منطقة تقع بين الصلب وهي عظام أسفل الظهر، والترائب وهي عظام الظهر.

العالم التجريبي ''دودح'' يقدم بحثا علميا مدعما بالوسائل لمؤتمر العلمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بعنوان

نشأة ذرية الإنسان

حيث يقول – بتصرف – حول قوله تعالى: (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مّآءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ. إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ): (الماء الدافق تعبير وصفي للسائل، لأن تركيبه يماثل قطيرات الماء، إلا أنه حي تتدفق تكويناته وتتحرك بنشاط، ويصدق عليها الوصف بصيغة اسم الفاعل (دافق) لدلالته على الحركة الذاتية، وجميع الأوصاف عدا وصف الماء بالدافق تتعلق بالإنسان، لأن بدء خلقه هو محور الحديث والموضوع الرئيس، وهو المستدل به على إمكان الإرجاع حياً، وضمير (له) في قوله تعالى (فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ) لا يستقيم عوده إلى الماء وإنما إلى الإنسان.

وضمير (رجعه) في قوله تعالى (إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) الأظهر عوده إلى الإنسان، والإرجاع هو إعادة الخلق للحساب بقرينة وقت الإرجاع (يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ).

ولا توجد ضرورة لتشتيت مرجع الضمائر في (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ) و(خُلِقَ مِن مّآءٍ) و(رجعه) في (إِنّهُ عَلَىَ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) و(فَمَا لَهُ مِن قُوّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ) ولذا الأولى عود ضمير (يخرج) في (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ) إلى الإنسان كذلك مثلها، خاصة أن السائل لا يخرج بذاته كذلك وإنما من الخصية، والوصف بالإخراج آية مستقلة كبيان متصل بأصل الحديث عن الإنسان، وبيان القدرة المبدعة وسبق التقدير، وإمكان الإعادة أظهر في إخراج الذرية من ظهور الأسلاف، والتلازم قائم بين (إخراج) الإنسان للدنيا وليداً و(إرجاعه) حياً بينما لا تلازم بين (إخراج) المني و(إرجاع) الإنسان، وخروج ذرية الإنسان من الظهر مُبَيَّن في قوله: (وَإِذْ أَخَذَ رَبّكَ مِن بَنِيَ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ) الأعراف ١٧٢،، وقوله: (أَبْنَآئِكُمُ الّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ) النساء ٢٣.

ولم يرد في القرآن فعل (الإخراج) متعلقا بالسائل، بينما ورد كثيرا متعلقا بالإنسان، لبيان خروجه للدنيا وليداً، وخروجه حياً للحساب، وللوجدان أن يقشعر من تلك الدقة المتناهية، التي ميزت بين موضع تكون أعضاء إنتاج الذرية في الظهر، وموضع خروجها على طريق هجرتها!.

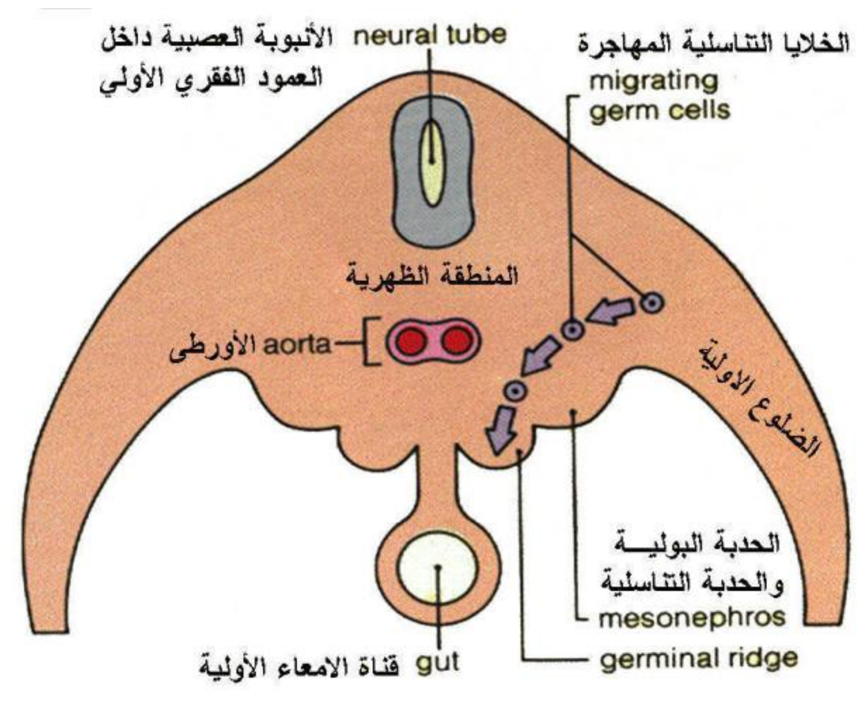

قطاع عرضي يبين نشأة الغدة التناسلة في المنطقة الظهرية للجنين (الأسبوع ٥-٦) وهجرة أصولها الخلوية بين بدايات العمود الفقري والضلوع قبل انفصالها وتميزها

والحقيقة العلمية هي:أن الأصول الخلوية للخصية في الذكر، أو المبيض في الأنثى تجتمع في ظهر الأبوين خلال نشأتهما الجنينية. ثم تخرج من الظهر من منطقة بين بدايات العمود الفقري وبدايات الضلوع. ليهاجر المبيض إلى الحوض بجانب الرحم. وتهاجر الخصية إلى كيس الصفن حيث الحرارة أقل، وإلا فشلت في إنتاج الحيوانات المنوية، وتصبح معرضة للتحول إلى ورم سرطاني إذا لم تُكمل رحلتها.
والتعبير (يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ) يفي بوصف تاريخ نشأة، ويستوعب كافة الأحداث الدالة على سبق التقدير والاقتدار والإتقان والإحكام في الخلق، منذ تكوين البدايات في الأصلاب وهجرتها خلف أحشاء البطن ابتداءً من المنطقة بين الصلب والترائب إلى المستقر، وحتى يولد الأبوان ويبلغان ويتزاوجان وتخلق الذرية مما يماثل نطفة ماء في التركيب عديمة البشرية من السائل، لكنها حية تتدفق ذاتياً لتندمج مع نطفة نظير، فتتكون النطفة الأمشاج من الجنسين، ويستمر فعل الإخراج ساري المفعول ليحكي قصة جيل آخر لجنين يتخلق، ليخرج للدنيا

وليداً وينمو فيغفل عن قدرة مبدعه، وكل هذا الإتقان المتجدد في الخلق ليشمل تاريخ كل إنسان قد عبر عنه العليم الحكيم بلفظة واحدة تستوعب دلالاتها كل الأحداث: (يَخْرُجُ))

ثم يعقب الدكتور "محمد دودح" وكأنه يستفز ما بقي من عقل لدى العلماني العربي قائلا: (فأي اقتدار وتمكن في الخلق والتعبير! ومع كل تلك المشاهد المتجددة والتقديرات المبدعة والقدرة المفزعة هل يرد مجرد هاجس على الخاطر: أنبعثُ حقاً ونُحَاسَب!. وهكذا يتصل العرض وينقلك في ومضة من مشاهد بدايات مقدرة تسبق وجود الإنسان، إلى حيث يقف عاجزا معرُى السريرة ليواجه مصيره وحده بلا أعوان، فيتجلى بتلك النقلة الكبيرة الفارق في أحواله، وسرعة النقلة تؤكد التقدير وسبق التهيئة وتجلي قدرة الله تعالى وحكيم تدبيره مؤيدةً (إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ). قال الكلبي: "الضمير في (إنه) لله تعالى وفي رجعه للإنسان".

وقال المراغي: (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) أي فلينظر بعقله وليتدبر في مبدأ خلقه ليتضح له قدرة واهبه وأنه.. على إعادته أقدر.. (خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ) حقائق علمية تأخر العلم بها والكشف عن معرفتها وإثباتها ثلاثة عشر قرنا، بيان هذا أن صلب الإنسان هو عموده الفقري (سلسلة ظهره) وترائبه هي عظام صدره..

وإذا رجعنا إلى علم الأجنة، وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب، فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى، ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا ومقابل أسفل الضلوع، فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شئونهما بالأعصاب قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب، هذا وكل من الخصية والمبيض بعد كمال نموه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن، ويهبط المبيض حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم، وقد يحدث في بعض الأحيان ألا تتم عملية الهبوط هذه، فتقف الخصية في طريقها ولا تنزل إلى الصفن فتحتاج إلى عملية جراحية، وإذا هدي العلم التجريبي إلى كل هذا في مبدأ خلق الإنسان، وأقر بما في القرآن من آيات معجزة جاءت في سياق واحد مع عقيدة البعث بعد الموت، سهل أن نؤمن إيمانا جازما بما في القرآن حول البعث في اليوم الآخر (إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) أي أن الذي قدر على خلق الإنسان ابتداء قادر أن يرده حيا بعد أن يموت".

واقتدار الخالق شاخص في كل العرض، بينما يتملى الخيال مشاهد أعرضت عن الإنسان فعبرت عنه بالغائب، في ومضات تُعَرِّيه من الخيلاء وتفاجئه بأصله ومصيره، طاوية حياته ومماته وكأنه لم يكن، في مقابل مشهد استكباره في تبجح صارخ يعلنه الاحتجاج المستهل بحرف (الفاء) ليفصح بأصل دلالته على التعقيب

عن محذوف يكشف ما يجول في طوية نفسه: (فَلْيَنظُر الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)، كأنه صيحة مدوية مؤنبة تقول: ألم تحدثك نفسك؟
وليس للإنسان في تلك المحاكمة إلا حضورا باهتا داخل قفص الاتهام في زاوية من المخيلة، بينما تشخص عياناً أدلة التجريم؛ وكأنه تعالى يقول: (أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىَ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىَ) القيامة ٤٠
وهذا المشهد الأصغر لتعري السرائر مثال لمشهد يوم عظيم (يَوْمَ تُبْلَىَ السّرَآئِرُ)، اتساق في عرض المشاهد.. تصوير عجيب يكشف ما قبل فتح الستار، وحتى بعد ضمه تبقى في الخاطر شتى صور العقاب، وتأز في المسامع نيران تتشوق لمن يشك لحظة في قدرة الخالق سبحانه.
أسلوب مذهل جامع فريد لا يبلغه اليوم أي كتاب ينسب للوحي.. أسلوب بلغ الذروة في التصوير وثراء المعني، مع الغاية في إيجاز اللفظ، وأما التفاصيل العلمية التي يستحيل أن يدركها بشر زمن التنزيل، فهي بعض دلائل النبوة الخاتمة التي تسطع اليوم أمام النابهين)
هكذا تأتي المعلومة في القرآن، دقيقة ومعجزة، لكنها لا تنفصل عن الثوابت التي جاء بها القرآن، وهذه الآية المذهلة تقدم حقيقة لم تكتشف إلا في القرن العشرين، وهي تأتي متماهية مع بعض ثوابت الإسلام: الإيمان بالله والقدرة على البعث، والإيمان باليوم الآخر والحساب والجزاء.

آية أخرى

والآيات المعجزة كثيرة جداً تحتاج إلى مجلدات – تكشف عمق الأزمة العلمانية العربية، ومدى تخلفها عن عصر التقدم العلمي المذهل. آية يهدد فيها القرآن أولئك المعاندين المؤدلجين، الذين يكذبون القرآن وينكرون كونه من عند الله، أمثال مشركي قريش ومنافقي المدينة وعلماني العرب، آية لها سبب نزول هو: أن أبا أبا جهل قال: (هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل: نعم. فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي – زعم – ليطأ على رقبته، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقيل له: مالك ؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار، وهولا، وأجنحة.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا.
فأنزل الله عز وجل - لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه - "كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى . أرأيت الذي ينهى . عبدا إذا صلى . أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . أرأيت إن كذب وتولى (يعني أبا جهل) . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية . كلا لا تطعه" – صحيح مسلم ٤ – ٢١٥٤)
ولدينا هنا عالمان تجريبيان ليحدثانا عن الناصية التي أثارت تساؤل العلامة الزنداني صاحب مشروع القراءة الجديدة للقرآن، تلك القراءة التي طالما ثرثر العلمانيون العرب بها، دون أن يقدموا شيئا جديدا، فكتاباتهم ما هي إلا تكرار ممل

لمقولات أبي جهل وعبد الله بن أبي بن سلول وابن الراوندي والرازي: القرآن من تأليف محمد وهو ليس بمعجز.

حمل الزنداني أسئلته إلى العلماء التجريبيين فبم أجابوه؟ القرآن يهدد هؤلاء المعاندين الذين يكذبون دون تثبت، هؤلاء الوثوقيون بمقولات أسلافهم دون وعي، يتوعدهم بأن نواصيهم سوف تسفع بعذاب شديد.. قدم تساؤله المحموم بالبحث عن الجديد حيث يقول: (وصف القرآن الناصية بأنها كاذبة خاطئة كما قال تعالى: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) (العلق:١٦) والناصية لا تنطق، فكيف يسند إليها الكذب، وهي لا تجترح الخطايا فكيف تسند إليها الخطيئة؟

لقد أزال البروفيسور محمد يوسف سكر(عميد الدراسات العليا بكلية الطب في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة في حينها، وله كتاب باللغة الإنجليزية في وظائف الأعضاء يعد مرجعاً في الكليات الأجنبية) أزال عني هذه الحيرة – صاحبتني هذه الحيرة خمسة عشر عاماً – عندما كان يحدثني عن وظائف المخ فقال: إن وظيفة الجزء من المخ الذي يقع في ناصية الإنسان هي توجيه سلوك الإنسان. فقلت له : وجدتها ! قال : ماذا وجدت ؟ قلت : وجدت تفسير قوله تعالى: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) فقال : دعني أراجع كتبي ومراجعي .

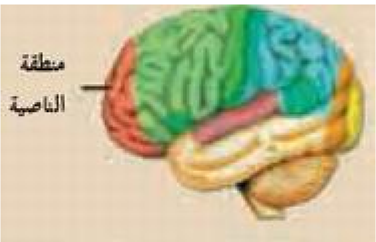

وبعد مراجعته لتلك الكتب والمراجع ، أكد الأمر وقال : إن الإنسان إذا أراد أن يكذب، فإن القرار يتخذ في الفص الجبهي للمخ، الذي هو جبهة الإنسان وناصيته، وإذا أراد الخطيئة فإن القرار كذلك يتخذ في الناصية.

ثم عرضت الموضوع على عددٍ من العلماء المتخصصين، منهم البرفسور كيث إل مور (من كبار الأطباء في العالم، تدرس بعض كتبه في كليات الطب بعدة لغات، وقد أشترك في تقديم عدة بحوث في الإعجاز الطبي في مؤتمرات الإعجاز العلمي العالمية، وله مرجع كبير في تشريح المخ) وقد أكد "مور" أن الناصية هي المسئولة عن المقايسات العليا وتوجيه سلوك الإنسان، وما الجوارح إلا جنود تنفذ هذه القرارات التي تتخذ في الناصية؛ لذلك فالقانون في بعض الولايات الأمريكية – كما أخبرني أحد علماء جراحة المخ الأمريكيين – يجعل عقوبة كبار المجرمين الذي يرهقون أجهزة الشرطة، هي استئصال الجزء الأمامي من المخ الناصية، لأنه مركز القيادة والتوجيه، ليصبح المجرم بعد ذلك كطفلٍ وديع يستقبل الأوامر من أي

شخص. وبدراسة التركيب التشريحي لمنطقة أعلى الجبهة، وجد أنها تتكون من أحد عظام الجمجمة المسمى العظم الجبهي (frontal bone)، ويقوم هذا العظم بحماية أحد فصوص المخ، والمسمى (الفص الأمامي) أو (الفص الجبهي) (frontal lobe)

وهو يحتوي على عدة مراكز عصبية تختلف فيما بينها من حيث الموقع والوظيفة، وتمثل القشرة الأمامية الجبهية الجزء الأكبر من الفص الجبهي للمخ، وترتبط وظيفة القشرة الأمامية الجبهية بتكوين شخصية الفرد، وتعتبر مركزاً علوياً من مراكز التركيز والتفكير والذاكرة، وتؤدي دوراً منتظماً لعمق إحساس الفرد بالمشاعر، ولها تأثير في تحديد المبادأة والتمييز .

وتقع القشرة مباشرة خلف الجبهة، أي أنها تختفي في عمق الناصية، وبذلك تكون القشرة الأمامية الجبهية هي الموجه لبعض تصرفات الإنسان التي تنم عن شخصيته، مثل الصدق والكذب والصواب والخطأ ... الخ وهي التي تميز بين هذه الصفات وبعضها البعض، وهي التي تحث الإنسان على المبادأة سواءً بالخير أو بالشر (من كتاب "الناصية" إصدار هيئة الإعجاز العلمي بتصرف).

يقول "الزنداني": عندما قدم البرفسور كيث إل مور البحث المشترك بيني وبينه حول الإعجاز العلمي في الناصية، في مؤتمر دولي عقد في القاهرة (مؤتمر الإعجاز الطبي في القرآن والسنة في القاهرة عام ١٩٨٥م) لم يكتف بالحديث عن وظيفة الفص الجبهي في المخ (الناصية) عند الإنسان، بل تطرق إلى بيان وظيفة الناصية في مخاخ الحيوانات المختلفة، وقدم صورا للفصوص الجبهية في عدد من الحيوانات قائلاً : إن دراسة التشريح المقارن لمخاخ الإنسان والحيوان تدل على تشابه في وظيفة الناصية، فالناصية هي مركز القيادة والتوجيه عندالإنسان، وكذلك هي عند كل الحيوانات ذوات المخ. فلفت قوله ذلك انتباهي إلى قوله تعالى: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)هود:٥٦

وتذكرت أيضاً بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الناصية كقوله: (اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ - أحمد ١ – ٣٩١ وغيره وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٩٨)

وكقوله:(أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ – مسلم - كتاب الذكر)

وكقوله:(الْخَيْلُ معقود فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ – البخاري - الجهاد)

فإذا جمعنا معاني هذه النصوص، نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان، وكذا سلوك الحيوان)

أوجه الإعجاز العلمي في الناصية

يقول البرفسور (كيث إل مور) مستدلاً على هذه المعجزة العلمية: إن المعلومات التي نعرفها عن وظيفة المخ لم تذكر طوال التاريخ، ولا نجد في كتب الطب عنها شيئاً، فلو جئنا بكتب الطب كلها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده بقرون، لن نجد ذكراً لوظيفة الفص الجبهي الأمامي الناصية ولن نجد له بياناً، ولم يأت

الحديث عنه إلا في هذا الكتاب القرآن الكريم، مما يدل على أن هذا من علم الله جل وعلا الذي أحاط بكل شئ علماً، ويشهد بأن محمداً رسول الله (من بحث ألقاه في المؤتمر العالمي عن الإعجاز الطبي في القرآن والسنة، الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٨٥م). ولقد كانت بداية معرفة الناس بوظيفة الفص الأمامي الجبهي في عام ١٨٤٢م ، حين أصيب أحد عمال السكك الحديد في أمريكا بقضيب اخترق جبهته، فأثر ذلك في سلوكه ولم يضر بقية وظائف الجسم، فبدأت معرفة الأطباء بوظيفة الفص الجبهي للمخ، وعلاقته بسلوك الإنسان.

وكان الأطباء يعتقدون قبل ذلك أن هذا الجزء من المخ الإنساني منطقة صامته لا وظيفة لها. فمن أعلم محمد صلى الله عليه وسلم بأن هذا الجزء من المخ الناصية هو مركز القيادة للإنسان والدواب، وأنه مصدر الكذب والخطيئة!؟!؟

لقد أضطر أكابر المفسرين إلى تأويل النص الظاهر بين أيديهم لعدم إحاطتهم علماً بهذا السر، حتى يصونوا القرآن من تكذيب البشر، الجاهلين بهذه الحقيقة طوال العصور الماضية، بينما نرى الأمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، في أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه في الإنسان والدواب، فمن أخبر محمد صلى الله عليه وسلم من بين كل أمم الأرض بهذا السر وبهذا الحقيقة؟! إنه العلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو شهادة من الله بأن القرآن من عنده، لأنه نزل بعلمه سبحانه)

وهناك آيات أخرى كثيرة يطول بنا المقام إذا أوردتها وأوردت تأييدات العلم التجريبي لها، لكن لا مانع من ذكر الآية فقط مع الإحالة إلى موضع الدراسة ونتائجها، منها قوله تعالى:

(مرج البحرين يلتقيان* بينهما برزخ لا يبغيان)

في هذه الآية إشارة قرآنية دقيقة إلي حقيقة علمية مؤكدة، لم يدركها العلماء المتخصصون إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في أثناء رحلة الباخرة البريطانية (Challenger) أو التحدي(١٨٧٢ -١٨٧٦) بالإضافة إلى دهشة وتأثر أشهر عالم بحار في العالم جاك كوستو، صاحب السفينة العلمية (كاليبسو) الذي لم يكتف باعترافه بمعجزة الآية فقط، بل اعتنق الإسلام على إثرها.

وقوله تعالى: (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ-يونس٩٢)

هذه الآية تفضح أولئك المتعالمين خاصة المدعو "أركون"، وقد جعلتها الأخيرة لأنها ستفتح لنا أبوابا أخرى، وآفاقا جديدة.. آية قرآنية أخذت العالم التجريبي الفرنسي (موريس بوكاي) إلى مزيد من الكشوفات، وإلى المزيد من البحث، وجعلته حركة أكثر من السابق، وأشغلته بالطموح، حتى مات وهو مشغول بالسياحة في آفاقها، هذه الآية نفسها قتلت أركون لأنه نذر قلمه لمحاربتها لا لدراستها. هذه الآية كشفت الفرق الشاسع بين العقليتين: عقلية "بوكاي" التي تنبض بالجديد والبحث عن المزيد، ولا مكان للعناد والتحيز فيها، إلا العناد للفشل

والتحيز للحقيقة. وعقلية "أركون" التي تعشق الموت والظلام، فهي تقتاته زادا يوميا، ولذا حولت أمتها إلى كومة من الحطام والفشل المعاند.
هذه الآية تتحدث عن حدث مغرق في القدم، منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام، حيث غرق الطاغية "فرعون"، وتخبرنا عن نجاة جثته بعد غرقه، لتبقى عبرة ودرساً للأمم، ولتكون جثته دليلا على مصداقية النص القرآني.
لم يجد "موريس بوكاي" المكلف بفحص المومياء الفرعونية أي علاقة لجثة فرعون مع كتابه المسيحي المقدس، فالكتاب المقدس رغم تفاصيله الكثيرة والمتناقضة، يتحدث بإجمال عن غرق مركبات فرعون فقط. وتمر مئات السنين، وتمر آلاف السنين أيضاً، والجثة لا تزال مجهولة مطمورة تحت التراب، ويُبعث محمد صلى الله عليه وسلم في مكة، وتنزل عليه آيات قرآنية تحدثه عن جثة لا يعرف عنها أهل مصر شيئاً في ذلك الزمان، ويمر على نزول الآية أكثر من ألف وثلاثمائة عام، فيكتشف علماء الآثار الجثة (مومياء فرعون) ويكتبون عنها، ويُطلب من بوكاي فحصها، وهو لايعرف شيئا عن القرآن، ويقدر لبوكاي أن يسمع تلك الآية، فيصاب بدهشة وذهول، فقد وجد فيها معلومات غيرت نظرته للكتب المقدسة كلها، ملأته الآية بالمزيد من الشوق إلى الاكتشاف والاكتشاف، فبدأ فصلا جديداً من الإبداع في البحث واقتحام المجهول، بالعلم التجريبي المذهل فقط، فأذهلت كشوفاته العالم وأبهرته. تلك الكشوفات أقضت مضجع أركون وأزعجته، لأنها فضحت تعالمه، كشوفات "بوكاي" كشفت عن مخزون الوقاحة التي يتمتع بها أركون ومترجمه، اللذان لا يزالان يصران على أن هذه الآية هي مجرد عمل تاريخي اقتبسه محمد من المحيط اليهودي المسيحي في حياته، ويتمادى أركون فيصف كشوفات "بوكاي" بأنها تلاعبات.
أجل إن أركون يملك من الوقاحة ما يصف به نتائج المعامل الفرنسية الحديثة والدقيقة بأنها (تلاعبات)، أما كتاباته المليئة بالهذر والتي لا تكلفه سوى مجموعة من الأوراق ودنان الراح فهي نتائج علمية لا مجال للشك فيها.
يقول أركون في صفاقة لا حدود لها: (إن التحليل السيميائي يعري آليات هذه القرآءة التي تفصل النص التأسيسي أو الأصلي = القرآن .. كما هو الحال فيما يخص التوراة والإنجيل، عن العملية الاجتماعية التاريخية لإنجازه النصي، وذلك من أجل إنتاج نصوص أخرى = أقصد السلسلة المفتوحة من التعليقات والشروح بدءا من الطبري وجعفر الصادق مرورا بعشرات المفسرين، وانتهاء بتلاعبات موريس بوكاي الوهمية التي تبرهن على أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن)
أي صفاقة يمتلكها هذا الكاتب الذي يدعي أن هدف "موريس بوكاي" الفرنسي ابن الفرنسي، المسيحي ابن المسيحي من بحوثه وكشوفاته التي أذهلت العالم، هو أن يثبت أن القرآن كلام الله؟ أي وقاحة يهرف بها أركون، وهو يتهم علمانيا مسيحيا بأنه إسلامي إيديلوجي؟!! حقا إذا لم تستح فاصنع ماشئت. أولا يعلم أركون أن بوكاي لم يسلم بمجرد انتهائه من اختبار المومياء، ولم يسلم حتى بعد قراءته

لتلك الآيـة، ولا حتـى بعد مقارنتـه للنـصوص المقدسـة الثلاثـة، ومقارنتهـا بـالعلم التجريبي، بل أسلم بعد أن انتهى من ذلك كلـه، وبعد أن فحص القرآن كلـه ودرسـه وقارنـه بتخصصه الذي تفوق به على أطباء فرنسا، لا على عملاء فرنسا، بعد ذلك بسنوات أعلن إسلامه. وليت أركون اقتصر على الوقاحة، إنه يتجاوزها إلى عمل لا أخلاقـي، ألا وهـو الافتـراء علـى مـوريس بوكـاي عنـدما قـال: (وانتهـاء بتلاعبـات موريس بوكاي الوهمية، التي تبرهن على أن كل الاكتشافات العلميـة كـان قد أعلـن عنها في القرآن)

فلا موريس بوكاي ولا كيث مور، ولا حتى أحلام العوضي أو زغلول النجـار، قـال مثـل ذلـك، أوحتـى قريبـا منـه، بـل هـي مـن ادعـاءات أركـون وأكاذيبـه، وتخرصـاته المدفوعـة بعداوة غير مبررة لكل مـن يحمـل هذا القرآن ويبشر بـه، فلا أحد من هؤلاء العلماء ادعى أن كل الاكتشافات العلمية كان قد أعلن عنها في القرآن.

إن بوكـاي رجـل مـسيحي الـولادة والمنـشأ والديانـة، وهـو فرنـسي المنـشأ والـولادة، وبلاده كانت تـستعمر دولاً مـن مـشارق العـالم العربـي ومغاربـه، فمـن المفتـرض أن يكون محملا بإرث الاستعلاء والتفوق والازدراء، ومن المفترض أن يكون متعصبا كبقيـة المستـشرقين ضـد الإسـلام لـو حكمنـا عليـه مـن خلفيتـه الثقافيـة، وأخيـرا فموريس بوكاي لا يمت للعروبة ولا للإسلام بصلة، لكنه يمت بصلة قوية جدا للعلم التجريبي والبحث عن الحقيقة واكتشاف سرار هذا الكون، وقد كان لا يعرف القرآن ولا يؤمن به ابتداء، بل كان يشك في كل ما هو مقدس، إنـه يقول متحدثا عن نجاة جثة فرعون التي تتحدث عنها الآية القرآنية:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَـا لَغَـافِلُونَ) (يـونس:٩٢) يقـول بوكـاي: (فـي ١٨٩٨ بـوادى الملـوك بطيبـة اكتـشف (لوريـت) موميـاء (منبتـاح) ابـن رمـسيس الثـانى، وكـل شـئ يـسمح بالاعتقـاد بأنـه فرعـون الخروج، ومن هناك نقلت المومياء إلى القاهرة ورفع (إليوت سميث) عنها أربطتها فى ٨ يوليو ١٩٠٧) نلاحظ هنا أن هذه الأحداث والاكتشافات تتم علـى يـد العلمـانى التجريبي الغربي، ولا صلة للعربي بها.

ثـم يواصل بوكـاي قـائلا: (ويـصف (إليـوت سـميث) فـى كتابـه (المومـيـاء الملكيـة) (١٩١٢) بروتوكول هذه العملية وفحص الجثـة، وفـى ذلك الوقت كانـت المحافظـة علـى الموميـاء مرضـية، بـالرغم مـن بعـض التـدهورات فـى نقـاط عـدة، ومنـذ هـذا التاريخ والمومياء معروضة للزوار بمتحف القاهرة، مكشوفة الرأس والرقبـة، أمـا بقية الجسم فهو مغطى بقطعة من القماش، لدرجة أنه حتى هذه الشهور الأخيرة لـم يكـن المتحـف يملـك صـورا فوتوغرافيـة عامـة لجسم الموميـاء، سـوى تلـك التـى يحتـوى عليهـا كتـاب (إ. سـميث) (١٩١٢). ثـم يـصف بوكـاي بدايـة تعاملـه مـع المومياء المذكورة في القرآن، والتـي لـم تتحدث التوراة عنهـا إطلاقـا، محذرا مـن سوء العناية بها كأثر نادر وهام جداً، وسوء العناية يتم على يد وزير علمـاني تـرك مهمتـه وتفـرغ لـسب الحجـاب، فيقـول: (وفـى يونيـو ١٩٧٥ سـمحت لـى الـسلطات المصرية العليا بدراسة أجزاء جسم فرعون التى كانت مغطاة حتى ذلك الوقت، كمـا

سمحت لى بأخذ بعض الصور، وعندما أقيمت المقارنة بين حالة المومياء الحالية وما كانت عليه منذ أكثر من ٦٠ عاما، أتضح جليا أن حالة المومياء قد تدهورت، وأن هناك أجزاء منها قد اختفت، فقد عانت الأنسجة المحنطة الكثير على أيدي البشر بالنسبة لبعض الأجزاء، وبسبب آفة الزمن بالنسبة لأجزاء أخرى، وسبب هذا التدهور الطبيعى يتضح تماما بتعدل ظروف الاحتفاظ بالمومياء، منذ أن اكتشفت المومياء في نهاية القرن التاسع عشر في قبر بمدفن مدينة طيبة، حيث كانت منذ أكثرمن ثلاثة الآف عام، وهي معروضة الآن تحت واق زجاجى بسيط لا يفصلها بشكل تام عن الجو الخارجي، ولا يمنع تلوثها بالجسميات الميكروبية، كما أنها عرضة لفروق درجات الحرارة الجوية وغير محمية، مما قد يصيبها بسبب الرطوبة الموسمية.

لكل هذه الأسباب فالمومياء بعيدة كل البعد عن الظروف التى سمحت لها بأن تعبر ثلاثة آلاف سنة على وجه التقريب في حمى من كل أسباب التدهور هذه، لقد فقدت حماية أربطتها، وميزة المكوث بوسط مغلق في قبر حيث درجة الحرارة أكثر استقرارا والهواء أقل رطوبة من جو القاهرة في بعض فترات السنة، ولاشك أنها قد عانت في مدافن طيبة نفسها من زيارات القوارض أولصوص القبور، وذلك كما هو محتمل منذ زمن بعيد جدا، وقد تسبب هؤلاء في بعض الأضرار، وبالرغم من ذلك فقد كانت الظروف – فيما يبدو – أكثر مواءمة من اليوم لمقاومة آفة الزمن.

وفي أثناء فحص هذه المومياء في يونيو ١٩٧٥ بدأت بمبادرتي دراسات خاصة، فقد قام الطبيبان (المليجى) و(رمسيس) بدراسة طبية بالأشعة السينية، على حين قام الدكتور (مصطفى المنيلاوى) بفضل ثغرة في جدار القفص الصدرى بدراسة جوف القفص الصدرى والبطن، وقد حقق بذلك أول دراسة بالمنظار الداخلي على مومياء، وقد سمح هذا برؤية وتصوير بعض التفاصيل الهامة جدا داخل الجسم نفسه، ومع الدراسة الميكروسكوبية لبعض أجزاء صغيرة وقعت تلقائيا من جسم المومياء، وهي دراسة سيقوم بها بباريس البروفيسور (مينو) والدكتور (دوريجون) ستكمل الدراسة الطبية الشرعية العامة التي سيقوم بها البروفيسور (سيكالدي)، وإنه لمما يؤسفني حقا أن نتائج هذه الأبحاث لم تكتمل في اللحظة التي ينتهي فيها تحرير هذا الكتاب.

ولكن ما يمكن استنتاجه من هذه الدراسة، هو ملاحظة آفات عظيمة عديدة مع ثغرة في مادة الجسم – ربما كان بعض منها قاتلا – دون أن يكون ممكنا الآن القول بما إذا كان بعض منها قد حدث قبل أو بعد موت فرعون. فهذا الفرعون قد مات إما غريقا على حسب روايات الكتب المقدسة، وإما بسبب رضوض عنيفة جدا سبقت ابتلاع البحر له أو ربما للسببين معا.

إن ربط كل هذه الآفات بالتدهورات التى تحدثنا عن أسبابها تجعل عسيرا الاحتفاظ جيدا في المستقبل بهذا الجسم المحنط، ما لم تتخذ إجراءات الإنقاذ اللازمة في مستقبل قريب جدا. وسيكون من شأن هذه الإجراءات أنها ستجنبنا فقدان الشاهد المادي الوحيد الباقي حتى يومنا.. الشاهد على موت فرعون الخروج، وعلى النجاة

التى أرادها الله لجسده، وإنه لمما يرجى دائما أن يعمل الإنسان على الاحتفاظ بشواهد على تاريخه)

ثم يوجه بوكاي معلومته وشهادته التي أثارت فزع أركون وأفقدته عقله وتوازنه، فهذا الرجل التجريبي يشهد للقرآن بالمصداقية والإعجاز، وهو كتاب خصوم بلاده فرنسا التاريخيين ، وهو أمر لا يحبه أركون ولا قدرة علمية له على تفنيده، لذلك يتراجع إلى حصن العلمانيين العرب الخلفي والأخير (السخرية والتندر)

يقول بوكاي: (ولكن المعني به هنا هو شئ أكثر من هذا: إنها شهادة مادية في جسد محنط على من عرف موسى وعارض طلباته، وطارده في هروبه ومات في أثناء هذه المطاردة، وأنقذ الله جثته من الهلاك التام ليصبح آية للناس كما هو مكتوب في القرآن. أي بيان رائع لآيات القرآن ذلك الذي يخص بدن فرعون، والذي تهبه قاعة الموميات الملكية بدار الآثار بالقاهرة لكل من يبحث في معطيات المكتشفات الحديثة عن أدلة على صحة الكتب المقدسة)

ثم يقدم بوكاي درساً في مقارنة الأديان لأركون الذي أنكر بأسلوب باهت في برنامج "خير جليس" في قناة الجزيرة أن يكون هناك دراسة مقارنة للأديان، وهي مقولة يريد بها التهرب من الوقوع في إحراج مع حاضنته (فرنسا)، وهو لا يريد أن يثير على نفسه مشكلات تحرمه من هذه الحضانة المشبوهة.

يقدم تلك الدروس التي تفتح الأبواب إلى آفاق أخرى وكشوفات أخرى وأثرى.

يقول بوكاي تحت عنوان:

مقابلة بين معطيات الكتب المقدسة والمعارف الحديثة

(روايات القرآن والتوراة الخاصة بمكوث بنى إسرائيل بمصر وبخروجهم منها، تقدم جوانب تستطيع أن تكون موضوع مقابلات مع المعارف الحديثة، والحق يقال إن هذا ممكن ولكن بشكل غير متساو، حيث إن بعض الجوانب تثير كماً من المشاكل، على حين أن هناك جوانب أخرى لا تهب أى مادة للبحث)

ثم يقدم دراسة لتفاصيل الروايات تحت عنوان (العبريون في مصر) قافزاً على تناقضات روايات التوراة مع نفسها، إلى تناقضاتها مع العقل، حيث تموت المجاملة والنفاق الذي يمارسه أركون كلما أحرج وحاصرته الانتقادات. فيقول بوكاي تحت عنوان

(العبريون فى مصر)

(يبدو فعلا أن بالإمكان القول بأن العبريين مكثوا بمصر طيلة ٤٠٠ أو ٤٣٠ عاماً، دون المجازفة بالوقوع فى خطأ كبير، وبحسب ما هو مكتوب فى التوراة (التكوين ١٥ ـ ١٣، والخروج ١٢ ـ ٤٠)

وأياً كان الأمر فى عدم الاتفاق هذا بين التكوين والخروج، وهو قليل الأهمية، فإن مكوثهم قد بدأ باستقرار يوسف بن يعقوب وإخوته بمصر، وكان ذلك بعد عصر إبراهيم بكثير، وفيما عدا التوراة التى تعطى المعلومات التى قدمت لتوي، والقرآن الذى يشير إلى هذا الاستقرار دون أن يعطى أقل إشارة زمنية لتسلسل الأحداث، فإننا نكاد لا نملك أية وثيقة أخرى قادرة على إيضاح هذه النقطة لنا.

ومن (ب . مونتى) إلى (دانيل رويس) فإن المتخصصين يقولون حاليا بعد النظر إلى كل الاحتمالات: بتواكب حركة الهكسوس نحو مصر فى القرن الـ ١٧ ق .م . مع وصول يوسف وآله. وإنه فى مدينة (أفاريس) بالدلتا، استقبل عاهل هكسوسى يوسف وإخوته استقبالا حسنا.
وهذا التقدير بالتأكيد يتناقض بوضوح مع ما يقول لنا كتاب "الملوك الأول" من التوراة ٦ – ١، فهو يحدد الخروج من مصر بـ٤٨٠ سنة قبل بناء معبد سليمان في (٩٧١ ق . م) تقريبا، هذا التقدير يحدد إذن الخروج من مصر بنحو (١٤٥٠) عاما قبل الميلاد تقريبا، وبالتالي يكون الدخول قد حدث بين (١٨٥٠ - ١٨٨٠ ق . م)
وهنا يقدم بوكاي الفرنسي المسيحي قراءته التي لا يجرؤ "أركون" عليها، يقدم بوكاي قراءته العلمية لنص التوراة، وليست تلك القراءات التاريخية أو التاريخانية أو التاريخوية أو التراخومية التي يهذر بها أركون في الاستماتة من أجل إثبات بشرية القرآن.
يقول بوكاي: ولكن هذه الفتره بالتحديد هي الفتره التي يفترض حاليا إن إبراهيم قد عاش بها، وهو ينفصل بحوالي ٢٥٠ عاماً عن يوسف فيما يعتقد اليوم، اعتماداً على معطيات أخرى في التوراة، وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من كتاب الملوك الأول غير مقبولة من وجهة نظر التسلسل الزمني للأحداث، وسنرى أن هذه النظريه التي ندافع عنها لا يمكن الاعتراض عليها، فيما عدا المعارضة التي يمكن استخراجها من كتاب الملوك الأول هذا، ولكن عدم الدقة الواضحة فيه الخاصة في معطيات التسلسل الزمني للأحداث وتشجب أية قيمة لهذه المحاضرات.
إن ما تركه العبريون كأثار لمكوثهم بمصر غامض جدا إذا استثنينا معطيات الكتب المقدسة، ومع ذلك توجد بعض الوثائق الهيروغليفية التي تشير إلى أنه قد وجد بمصر فئة من العاملين (ابيروا) أو (الهابيروا) رأى البعض صحة أو خطأ أنهم العبريون، وقد أشير بهذا الأسم إلى عمال البناء والعمال الزراعيون وعمال قطف العنب... من أين أتوِ؟ عسيرة حقا الإجابة عن هذا)
"موريس بوكاي" في بحثه هذا يقدم مجموعة من الآيات القرآنية، التي احتوت ضمنا على معلومات دقيقة ومعجزة سيأتي ذكر بعضها، كما أن كشوفاته أدت دون أن يدري إلى إعجاز تاريخي في القرآن أثبته علم الآثار، كما حملته إلى تأليف كتاب آخر سماه (ما أصل الإنسان) وإلى أن يلقي محاضرات عدة عبر العالم، ومن بينها محاضرة بعنوان (العلم والقرآن) والتي ترجمها الأستاذ الدكتور عبد السلام هارون، والتي أثبت فيها أن العلم التجريب والإسلام وجهان لعملة واحدة، وقد أوردت مقتطفات منها عند الحديث عن أركون. لكن ماهي الكشوفات التي عثر عليها في الطريق.

بوكاي يكشف دون قصد إعجازاً تاريخياً مذهلا في القرآن

القرآن يتحدث أحيانا عن شعوب وأمم وأحداث موغلة في القدم، مثل أقوام: لوط وعاد وثمود وفرعون وهامان وأقوام آخرين، وقد دأب المستشرق الغربي ذو

التخصص الأدبي مع العلماني العربي على السخرية من تلك القصص، فالعلماني العربي يسخر من تلك الأحاديث، معتبرا إياها أسطورة لا حقيقة ولا مصداقية لها، وأنها إرث اجتماعي، مثل طه حسين الذي يقول في كتاب الشعر الجاهلي: (للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة) بينما يعتبر المستشرقون المتعصبون (المحايدون والمعلمون الكبار عند أركون) ذوي التخصص الأدبي والإنسانية، أن القرآن نقل بطريقة مشوهة عن التوراة والإنجيل، أمثال سنوك كما مر معنا.

موريس بوكاي قام ببحثه ذلك عن جثة فرعون، لكنه دون أن يشعر كشف لنا بعض الأدلة الدامغة التي تفند أكذوبة "نقل القرآن عن التوراة" التي رددها اركون كالببغاء عن المستشرقين المتعصبين، وكشف لمن لا يؤمن بالقرآن، أن القرآن قدم القصة الحقيقية لمرويات دخلها الزيف في غيره من الكتب، والتي شوهها من كتبوا الكتاب المقدس.

يقول "بوكاي" كاشفا تخبط الأرقام في التوراة: (ومن (ب . مونتى إلى دانيل رويس) فإن المتخصصين يقولون حاليا بعد النظر إلى كل الاحتمالات: بتواكب حركة "الهكسوس" نحو مصر فى القرن الـ ١٧ ق.م، مع وصول يوسف وآله، وإنه فى مدينة (أفاريس) بالدلتا، استقبل عاهل هكسوسى يوسف وإخوته استقبالا حسنا. وهذا التقدير بالتأكيد يتناقض بوضوح مع ما يقول لنا كتاب "الملوك الأول" من التوراة ٦ – ١، فهو يحدد الخروج من مصر بـ ٤٨٠ سنة قبل بناء معبد سليمان في (٩٧١ ق . م) تقريبا هذا التقدير يحدد إذن الخروج من مصر بنحو (١٤٥٠) عاما قبل الميلاد تقريبا، وبالتالي يكون الدخول قد حدث بين (١٨٥٠ - ١٨٨٠ ق . م)

ولكن هذه الفتره بالتحديد، هي الفتره التي يفترض حاليا أن إبراهيم قد عاش بها، وهو ينفصل بحوالي ٢٥٠ عن يوسف فيما يعتقد اليوم، اعتمادا على معطيات أخرى في التوراة، وعلى ذلك تكون هذه الفقرة من كتاب الملوك الأول غير مقبولة من وجهة نظر التسلسل الزمني للأحداث، وسنرى أن هذه النظريه التي ندافع عنها، لا يمكن الاعتراض عليها، فيما عدا المعارضة التي يمكن استخراجها من كتاب الملوك الأول هذا، ولكن عدم الدقة الواضحة فيه الخاصة في معطيات التسلسل الزمني للأحداث وتشجب أية قيمة لهذه المحاضرات)

وحتى يسهل فهم تلك الحقب التاريخية التي ذكرها "بوكاي" ويتضح الإعجاز للقارئ، أود تلخيصها بالتالي: تقدم التوراة تواريخ متداخلة ومتناقضة ومتضاربة، بحيث يستحيل تصديقها:

فقد عاش إبراهيم عليه السلام ونشأ في العراق، ولما أنزلت عليه الرسالة ناظر قومه وجادلهم وحطم أصنامهم، وترك أكبر صنم معلقا الفأس عليه ليفحمهم: كيف يعبدون حجراً هم نحتوه، وبعد أن أفحمهم وأسقط في أيديهم، لجأوا إلى الإقصاء بل

والحرق، فأنجاه الله فاتجه وزوجته سارة إلى فلسطين ثم مصر، وكان شيخا كبيرا لم ينجب، فتزوج من أمة مصرية تدعى هاجر، أنجبت له إسماعيل جد العرب، وأخذ هاجر وأمه ليعيشا بين جبال فاران، في واد يدعى (مكة) حيث بنى الكعبة. ثم عاد إبراهيم لسارة وحملت منه وهي كبيرة بمعجزة، وأنجبت له إسحاق جد (اليهود) مات إبراهيم، وكبر إسحاق وفرزق بأبناء منهم يعقوب، ثم مات إسحاق.

كبر يعقوب ورزق باثني عشر ابناً، كل واحد يعتبر أصلا لقبيلة من قبائل اليهود الاثنتي عشرة، ومن بين هؤلاء كان يوسف، الذي كان أحب أبناء يعقوب وأصغرهم وأجملهم، فدبت الغيرة في إخوته فأخذوه ووضعوه داخل بئر جافة وشبه مدفونة، فالتقطته قافلة وباعته بثمن زهيد على أحد سادات مصر، وكبر يوسف وازدادت وسامته فعشقته زوجة السيد المصري، فراودته عن نفسه، فامتنع، فدبرت له مكيدة دخل على إثرها السجن سبع سنين، فألهمه الله فيها تفسير الرؤى، ففسر رؤيا لسجينين معه، أحدهما نجا وعمل عند حاكم مصر، الذي رأى رؤيا وطلب تفسيراً لها، فتذكر هذ الرجل زميله المعتقل "يوسف" عليه السلام. فطلب حاكم مصر إخراجه، فرفض الخروج حتى تعترف المرأة ببراءته، فاعترفت، فاستمع يوسف إلى رؤيا الحاكم المصري، والتي رأى فيهاسبع بقرات نحيلات يلتهمن سبع بقرات سمان، ففسرها يوسف بسبع سنوات من الرخاء، يأتي بعدهن سبع سنوات من الجفاف.

أعجب الحاكم بالتفسير وبيوسف، فطلب مشورته ورأيه لحل هذه الإشكالية القادمة، فاقترح عليه إنشاء صوامع تخزن فيها الحبوب في سنابلها تحسبا للسنوات الجافة، فعينه الحاكم المصري وزيرا، ومرت السنوات وجاء الجفاف، وجاء أخوة يوسف يطلبون بعض الحبوب، فعرفهم، وبعد ترددهم عليه ونقاش معهم عرفهم بنفسه، فطلبوا منه أن يغفر لهم، فغفر وطلب منهم أن يحضروا والده، فأحضروه وبقوا في مصر، وتناسلوا حتى كونوا اثني عشر قبيلة هم من يعرفون بـ(بني إسرائيل)، ومرت سنوات وجاء زمن فرعون الذي رأى "رؤيا" أن طفلا من بني إسرائيل يقضي عليه، فاضطهد بني إسرائيل وأمر بقتل كل أطفالهم، وفي سنوات الاضطهاد تلك ولد موسى، فأوحى الله لأمه أن تضعه في تابوت وتتركه في النهر، فالتقطته زوجة فرعون وأصرت على رعايته حتى حصل ما حصل بينهما.

هذا هو ملخص القصة، وهنا يكشف بوكاي ذلك التناقض العجيب بين العقل ونصوص الكتاب المقدس.

فالبحوث العلمية والتنقيب عن الآثار تؤكد أن يعقوب وأبنائه دخلوا مصر حوالى (١٧٠٠ ق.م) وهي فترة سيطرة (الملوك الهكسوس) على مصر وانتزاعها من الفراعنة، فكيف تقول التوراة أن موسى خرج من مصر قبل (٤٨٠) عاما من بناء معبد سليمان، أي في (٩٧١ ق.م) تقريبا. وهذا يؤدي إلى أن الخروج من مصر حدث حوالى (١٤٥٠) عاما قبل الميلاد تقريبا، وبالتالي يكون دخول يعقوب وأبنائه قد حدث بين (١٨٥٠ - ١٨٨٠ ق.م)

وهذه الفتره بالتحديد هي الفتره التي يفترض أن إبراهيم قد عاش بها، حسب رواية الكتاب المقدس، الذي يأتي بما يناقض تلك المعلومة، فيقول: أن بين إبراهيم ويوسف حوالي (٢٥٠) سنة.

هذه التناقضات والتخبطات (تعني) أن مصدر الكتاب المقدس ليس شخصاً ولا شخصين مجهولين، بل مصادر بشرية كثيرة ومتناقضة. لكن ما علاقة القرآن بهذا التناقض، وأين الإعجاز القرآني، لا سيما وأن القرآن لا يتحدث عن تواريخ أبداً؟ والإجابة تأتي من بيان القرآن المعجز وألفاظه اللغوية الرائعة، فعندما يتحدث القرآن عن موسى وتواجده في مصر يذكر دائما أن حاكم مصر هو (فرعون) مثل: (قال فرعون أنا ربكم الأعلى) (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) (وقال موسى لفرعون : يا فرعون إني رسول من رب العالمين) (فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا) (اذهب إلى فرعون إنه طغى)... وغيرها من الآيات.

أما عندما يتحدث القرآن عن يوسف، وعن حياته في مصر، فإن كلمة فرعون تختفي تماما، لتحل مكانها كلمة (الملك) مثل قوله تعالى:

(وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف...)

(وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع...)

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي...)

(قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير...)

(كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله...)

شيء مدهش، فبينما لا ينفك ذكر موسى عن ذكر فرعون، نجد أن هذا الفرعون يختفي عند الحديث عن يوسف. وقد كشف موريس بوكاي هذه الحقيقة دون أن يشعر، وربما مات رحمه الله وهو لا يدري أنه قدم لأمة القرآن وللعالم كشفا يضاف إلى كشوفاته. كشف بوكاي إعجازا تاريخيا مذهلا، بقوله:

(ومن (ب . مونتى) إلى (دانيل رويس)) فإن المتخصصين يقولون حاليا بعد النظر إلى كل الاحتمالات: بتواكب حركة (الهكسوس) نحو مصر فى القرن الـ (١٧ ق.م) مع وصول يوسف وآله. وإنه فى مدينة (أفاريس) بالدلتا، استقبل عاهل (هكسوسى يوسف وإخوته استقبالا حسنا)

إذا فالذين حكموا مصر في عهد يوسف هم (الملوك الهكسوس)، وليسوا الفراعنة، وهنا تبلغ الدقة إعجازا في القرآن.

أما في (الكتاب المقدس) فتضرب الفوضى أطنابها عند الحديث عن حاكم مصر في عصر يوسف، فالتوراة تصفه بأنه (فرعون).

تقول التوراة في (التكوين – ٣٩) أن الذي اشترى يوسف هو (فوطيفار المصري كبير خدم فرعون ورئيس الطهاة)

وفي (التكوين - ٤٠) يتحدث الكتاب المقدس عن أحد السجناء ويصفه أنه (رئيس طهاة فرعون ملك مصر)

وعن الرؤيا التي فسرها يوسف يقول في التكوين – ٤١: (رأى فرعون حلما)

وهكذا يتضح مدى تناقض (الكتاب المقدس) مع معطيات علم الآثار الحديث، وهو تناقض لا يعرف عنه أركون وأمثاله شيئا، ولا نجد له صدى في الفكر العربي، ولا نجد له قراءة أخرى على غير مثال سابق لدى أدونيس، وكأن (الكتاب المقدس) ليس ضمن التراث العربي، ولا يشكل رافداً من روافد الثقافة العربية، بينما يتم التطاول على القرآن والافتئات على نصوصه، والتعالم على حسابه دون رصيد علمي أو حتى منطقي. أين أركون الذي يردد أن القرآن نقل عن الكتاب المقدس.. شيء مخجل ومقزز!!

معجزة أخرى يقدمها القرآن والعلم الحديث لسنوك وأركون وأمثالهما حول ادعاءات النقل القرآني من الكتاب المقدس، رسالة يقدمها علماء الآثار حول شخصية فرعونية ذات مركز مرموق تدعى (هامان)

اكتشاف شخصية "هامان" بين الكتاب المقدس والقرآن

شخصية محيرة ومجهولة طوال التاريخ، يجهلها الكتاب المقدس فلا ذكر لها فيه، ويجهلها المؤرخون، عدها العلمانيون العرب أسطورة، وتجرأ بعض الباحثين في الآثار فأنكر شخصيته، فالقرآن يشير أن فرعون أمره بأن يوقد على الطين، وأن هذا النوع من الطين المحروق والمعروف بـ(الآجر) ليس من سمات الحضارة الفرعونية، لكن للعلم الحديث والقرآن قول آخر.

القرآن يؤكد على وجود هذه الشخصية الطاغوتية، الكافرة بما جاء به موسى عليه السلام من عند الله، فذكر القرآن اسم هامان في عدة مواضع مثل:

(وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين)

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب)

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

هذه الآيات تؤكد وجود هامان، وتبين وظيفته، ولذلك يقول الدكتور (فراس نور الحق – مدير موقع موسوعة الإعجاز العلمي) حول هذه الآية:

(يخاطب فرعون وجهاء قومه، أنه لا يعرف معبوداً لهم غيره، فينادي هامان طالباً منه أن يبني له من الطين المحروق وهو القرميد بناءً شاهقاً، لعله يرى إله موسى، تشير هذه الآية إلى معجزات عديدة منها:

١. تأليه فرعون نفسه: في قوله مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، والأبحاث الأثرية التي قامت حول الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن الفراعنة منذ الأسرة الرابعة، كانوا يصرحون ببنوتهم للإله رع الذي يمثل إله الشمس، والذي كان يعبدها قدماء المصريين، بل إن اسم رع دخل في ألقاب الفراعنة، مثل (رع نب) أي الرب

الذهبي، ولعل أوضح دليل على تأليه الفراعنة لأنفسهم كما يقول (بريستد) عالم الآثار، و التي حفظتها نصوص الأهرام، هي أنشودة للشمس تردد فيها هوية الملك بإله الشمس، إن هذه الأنشودة تخاطب مصر، في تعداد طويل ورائع للمنافع التي تستمتع بها تحت حماية وسيادة إله الشمس، فعلى ذلك يمُنح فرعون مصر المنافع نفسها، ولهذا يجب أن يتسلم نفس الهبات من مصر، ولذا الأنشودة بأكملها تعاد بوضع اسم فرعون أينما يجيء اسم (رع) أو (حورس) في الأنشودة الأصلي - تطور الفكر والدين في مصر القديمة، بريستد ١٨٥]

٢. الإعجاز الثاني هو استعمال الفراعنة الآجرّ في بناء الصروح، فقد طلب فرعون من هامان أن يبني له من الطين المحروق (الآجر) صرحاً، وهذا يعتبر من الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم، فقد ظل الاعتقاد السائد عند المؤرخين أن الآجر لم يظهر في مصر القديمة قبل العصر الروماني، وذلك حسب رأي المؤرخين [مثل الدكتور عبد المنعم أبو بكر في كتابه الصناعات ص ٤٨٥] والذي يرى في ذلك إشكالاً في أن الآيات السابقة، التي تبين طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحاً من الآجر، أو الطين المحروق، وظل هذا هو رأي المؤرخين إلى أن عثر عالم الآثار (بتري) على كمية من الآجر المحروق، بنيت به قبور وأقيمت به بعضاً من أسس المنشآت، ترجع إلى عصور الفراعنة (رعمسيس الثاني) و(مرنبتاح) و(سيتي الثاني) من الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق. م)، وكان عثوره عليها في موقع أثري غير بعيد من (أبي رعمسيس أو قنطير) عاصمة هؤلاء الفراعنة في شرق الدلتا - كتاب الحضارة المصرية. تأليف محمد بيومي مهران ٣ - ٤٢٩

٣. أما الإعجاز الثالث فهو الإشارة إلى أحد أعوان فرعون واسمه "هامان".

ذكر الدكتور موريس بوكاي ما نصه : (يذكر القرآن الكريم شخصاً باسم (هامان) هو من حاشية فرعون، وقد طلب إليه هذا الأخير أن يبني صرحاً عالياً يسمح له، كما يقول ساخراً من موسى، أن يبلغ رب عقيدته. وأردت أن أعرف إن كان هذا الاسم يتصل باسم هيروغليفي من المحتمل أنه محفوظ في وثيقة من وثائق العصر الفرعوني، ولم أكن لأرضى بإجابة عن ذلك إلا إذا كان مصدرها رجلاً حجة فيما يخص اللغة الهيروغليفية، وهو يعرف اللغة العربية الفصحى بشكل جيد، فطرحت السؤال على عالم المصريات Egyptologue و هو فرنسي يتوافر فيه الشرطان المذكوران تماماً. لقد كتبت أمامه اسم العلم العربي، أي (هامان)، ولكنني أحجمت عن إخبار مخاطبي بحقيقة النص المعني، واكتفيت بإخباره أن هذا النص يعود تاريخه بشكل لا يقبل النقض إلى القرن السابع الميلادي.

وكان جوابه الأول: أن هذا الأصل مستحيل، لأنه لا يمكن وجود نص يحتوي على اسم علم من اللغة الهيروغليفية، وله جرس هيروغليفي، ويعود إلى القرن السابع الميلادي، وهو غير معروف لحد الآن، والسبب أن اللغة الهيروغليفية نسيت منذ زمن بعيد جداً. بيد أنه نصحني بمراجعة (معجم أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة) والبحث فيه إن كان هذا الاسم الذي يمثل عندي الهيروغليفية موجوداً فيه

حقاً. لقد كان يُفترض ذلك، وعند البحث وجدته مسطوراً في هذا المعجم تماماً كما توقعته، و يا للمفاجأة !! ..

ها أنا فضلاً عن ذلك أجد أن مهنته كما عُبر عنها باللغة الألمانية (رئيس عمال المقالع) ولكن دون إشارة إلى تاريخ الكتابة، إلا أنها تعود إلى الإمبراطورية التي يقع فيه زمن موسى، وتشير المهنة المذكورة في الكتابة، إلى أن المذكور كان مهتماً بالبناء، مما يدعو إلى التفكير بالمقاربة التي يمكن إجراؤها بين الأمر الذي أصدره "فرعون" في القرآن وبين هذا التحديد في الكتابة - كتاب القرآن والعلم المعاصر الدكتور موريس بوكاي ٩٠ ،٩١ دار ملهم.

وقبل الانتقال إلى الآية التالية، أود لفت النظر إلى منهج بوكاي وتحريه ودقته وكأنه من رجال الجرح والتعديل عندما يقول: (ولم أكن لأرضى بإجابة عن ذلك إلا إذا كان مصدرها رجلاً حجة فيما يخص اللغة الهيروغليفية، وهو يعرف اللغة العربية الفصحى بشكل جيد، فطرحت السؤال على عالم المصريات Egyptologue و هو فرنسي يتوافر فيه الشرطان المذكوران تماماً. لقد كتبت أمامه اسم العلم العربي، أي (هامان)، ولكنني أحجمت عن إخبار مخاطبي بحقيقة النص المعني، واكتفيت بإخباره أن هذا النص يعود تاريخه بشكل لا يقبل النقض إلى القرن السابع الميلادي) إنه لا يحشر المصطلحات ليخدع قراءه بها، ولايدعي أنه أتى بما لم تأت به الأوائل كما يفعل أركون المنتفخ بالغازات الادعائية، إن بوكاي يدهشك.. يأخذك نحو الجديد والمعجز فقط، دون هالات أو ضجيج أو جعجعة لا طحن بعدها، وبالعلم فقط لا بلافتاته المزيفة.

آية أخرى يكشف علماء الآثار، ودون أن يعلموا أيضا، عن إعجازها، وعن دليل آخر على دقة القرآن وسلامة نقله، المكتشف هنا ليس شيخا أو مفكرا أو حتى منقبا مسلما عن الآثار، المكتشف هو أكبر وكالة لعلوم الفضاء في العالم.

وكالة ناسا تطلق قمرا لإثبات صحة النص القرآني

أمر لا يصدق لكنه حصل، قصة تاريخية تحكي عقوبة قوم عاد، بريح شديدة استمرت لثمانية أيام بعد أن كفروا بنبيهم هود، وقد اعتبر بعض العلمانيين والغربيين هذه القصة من قبيل الأمثال والأساطير التي لا يمكن تصديقها، لكنها أضيفت للقرآن كتراث اجتماعي محمول بهدف وعظي محض، ومما ساعد في دفع تلك المقولة الفقر في الحصول على أي معلومات تاريخية مكتوبة أو منحوتة تشير إلى موقعهم، لا سيما وهم قد عاشوا في جنوب الجزيرة العربية، ولم يأت على ذكرهم سوى بعض المؤرخين الغربيين قبل الإسلام. لكن القرآن قدم معلومات عنهم وعن عقوبتهم فقال: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية* سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فتري القوم فيها صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية* فهل تري لهم من باقية* (الحاقة:٦-٨)

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد* إرم ذات العماد* التي لم يخلق مثلها في البلاد-الفجر ٦-٨)

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ٢١ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٢٢ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون ٢٣ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ٢٤ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ٢٥)

إذاً فهم يسكنون الأحقاف، وهي جنوب الجزيرة، وكلمة الأحقاف تعني الرمال كما يقول ابن إسحق - تفسير الطبري ٥ – ٥٢٣ – : (كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله فيهم هودا الأحقاف، قال: والأحقاف الرمل فيما بين عمان الى حضرموت فاليمن كله) ثم يقول: (فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم وأكثروا في الأرض الفساد، وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلمهم هود فقال: {أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون} {قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء} أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا جنون أصابك به بعض آلهتنا هذه التي تعيب { قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون } إلى قوله : { صراط مستقيم }

قال ابن كثير: وقوله تعالي:(ذات العماد) لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلي أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال:(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون)

وقال تعالي:(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) وقال ههنا (التي لم يخلق مثلها في البلاد) أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم.)

قال في معجم البلدان ١ – ١١٥: (والأحقاف المذكور في الكتاب العزيز واد بين عمان وأرض مهرة)

عاشت الأحقاف مطمورة تحت الرمال والجهل التام بتفاصيلها، عدا ما في القرآن وبعض القصص غير الصحيحة سنداً، ولا أحد استطاع مشاهدتها بعد تلك الحادثة، لتتحول في نظر خصوم القرآن إلى أسطورة لا حقيقة لها، ولكن وكالة ناسا الفضائية لديها قول آخر.

الكشف الحديث عن إرم ذات العماد

يتحدث في هذا الموضوع عالم تجريبي تعامل شخصياً ومباشرة مع هذا الكشف، وطُلب منه فحصه ودراسته، هو الدكتور زغلول النجار أستاذ علم الجيولوجيا المشهور، وكتب عنه مقالا طويلا في جريدة الأهرام يوم الأثنين غرة شعبان

١٤٢٣ هـ الموافق ٧ اكتوبر ٢٠٠٢ في العدد ١٢٦ ونظرا لطول المقالة وكثرة مصطلحاتها العلمية ونقولاتها نقلت منها ما يهمنا بالتحديد، حيث يقول: (في سنة١٩٨٤ م تم تزويد أحد مكوكات الفضاء بجهاز رادار له القدرة على اختراق التربة الجافة إلى عمق عدة أمتار، ويعرف هذا الجهاز بـ (رادار اختراق سطح الأرض) (GroundPenetratingRadarOrGPR) فكشف عن العديد من المجاري المائية الجافة مدفونة تحت رمال الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غربا الي أواسط آسيا شرقا، وبمجرد نشر نتائج تحليل الصور المأخوذة بواسطة هذا الجهاز تقدم أحد هواة دراسة الآثار الأمريكان واسمه: (نيكولاس كلاب) (NicholssClapp) إلي مؤسسة بحوث الفضاء الأمريكية المعروفة باسم ناسا (NASA) بطلب للصور التي أخذت بتلك الواسطة لجنوب الجزيرة العربية، وبدراستها اتضح وجود آثار مدقات للطرق القديمة المؤدية إلي عدد من أبنية مدفونة تحت الرمال السافية التي تملأ حوض الربع الخالي، وعدد من أودية الأنهار القديمة والبحيرات الجافة، التي يزيد قطر بعضها عن عدة كيلو مترات، وقد احتار الدارسون في معرفة حقيقة تلك الآثار، فلجأوا الي الكتابات القديمة الموجودة في إحدي المكتبات المتخصصة في ولاية كاليفورنيا، وتعرف باسم مكتبة هنتنجتون (HuntingtonLibrary)، وإلي عدد من المتخصصين في تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم، وفي مقدمتهم الأمريكي (جوريس زارينز) (Juris Zarins) والبريطاني رانولف فينيس (RanulphFiennes)

وبعد دراسة مستفيضة أجمعوا علي أنها هي آثار عاصمة ملك عاد التي ذكر القرآن الكريم ان اسمها (إرم) كما جاء في سورة الفجر، والتي قدر عمرها بالفترة من٣٠٠٠ ق.م. إلي أن نزل بها عقاب ربها فطمرتها عاصفة رملية غير عادية.

وعلي الفور قام معمل الدفع النفاث بكاليفورنيا (معهد كاليفورنيا للتقنية) TheJetPropulsionLaboratories)، CaliforniaInstitute of Technology,J.P.L) بإعداد تقرير مطول يضم نتائج الدراسة، ويدعو رجال الأعمال والحكومات العربية إلي التبرع بسخاء، للكشف عن تلك الآثار التي تملأ فراغا في تاريخ البشرية، وكان عنوان التقرير هو:

(البعثة عبر الجزيرة)

(TheTrans-ArabiaExpedition)

وتحت العنوان مباشرة جاءت الآيتان الكريمتان رقما (٨،٧) من سورة الفجر، وقد أرسل إلي التقرير لدراسته، وقد قمت بذلك فعلا وقدمت رأيي فيه كتابة إلي المسئولين بالمملكة العربية السعودية، وقد ذكر التقرير أن اثنين من العلماء القدامي قد سبق لهما زيارة مملكة (عاد) في أواخر حكمها، وكانت المنطقة لاتزال عامرة بحضارة زاهرة، والأنهار فيها متدفقة بالماء، والبحيرات زاخرة بالحياة، والأرض مكسوة بالخضرة، وقوم عاد مستكبرون في الأرض، ويشكلون الحضارة السائدة فيها، وذلك قبل ان يهلكهم الله تعالى مباشرة، وكان أحد هؤلاء هو (بليني

الكبير) من علماء الحضارة الرومانية (والذي عاش في الفترة من٢٣م إلي ٧٩م)، والآخر كان هو الفلكي والجغرافي (بطليموس الاسكندري) الذي كان أمينا لمكتبة الاسكندرية. وعاش في الفترة (من١٠٠ م الي١٧٠ م تقريبا)، وقام برسم خريطة للمنطقة بأنهارها المتدفقة، وطرقاتها المتشعبة والتي تلتقي حول منطقة واسعة سماها باسم (سوق عمان).

ووصف (بليني الكبير) حضارة عاد الأولي بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخري علي وجه الأرض، وذلك في ثرائها، ووفرة خيراتها، وقوتها، حيث كانت علي مفترق طرق التجارة بين كل من الصين والهند من جهة وبلاد الشام وأوروبا من جهة أخري، والتي كانت تصدر اليها البخور والعطور والأخشاب والفواكه المجففة والذهب والحرير وغيرها. وقد علق كثير من المتأخرين على كتابات كل من بليني الكبير وبطليموس الاسكندري، بأنها ضرب من الخرافات والأساطير، كما يتشكك فيها بعض مدعي العلم في زماننا ممن لم يستطيعوا تصور الربع الخالي، وهو من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافا اليوم، مليئا في يوم من الأيام بالأنهار والبحيرات والعمران، ولكن صور المكوك الفضائي جاءت مطابقة لخريطة بطليموس الاسكندري، ومؤكدة ما قد كتبه من قبل كل منه ومن بليني الكبير كما جاء في تقرير معهد الدفع النفاث)

ثم يقول الدكتور النجار: {في يوليو سنة١٩٩٠ م تشكل فريق من البحاث في وكالة الفضاء الأمريكية (NASA) برئاسة (CharlesElachi) ومن معهد الدفع النفاث (J.P.L) برئاسة (RonaldBlom) للبحث عن (إرم ذات العماد) تحت رعاية وتشجيع عدد من الأسماء البارزة منها:

(ArmandHammar,SirRanulphFiennes,GeorgeHedges)

ولكن البحث تأجل بسبب حرب الخليج. وفي يناير سنة (١٩٩١م) بدأت عمليات الكشف عن الآثار في المنطقة التي حددتها الصور الفضائية، واسمها الحالي الشيصار، واستمر إلي مطلع سنة (١٩٩٨م)، وأعلن خلال ذلك عن اكتشاف قلعة ثمانية الأضلاع سميكة الجدران، بأبراج في زواياها مقامة علي أعمدة ضخمة، يصل إرتفاعها إلي ٩ أمتار وقطرها إلي ٣ أمتار، ربما تكون هي التي وصفها القرآن الكريم.

في١٩٩٢/٢/١٧م نشر في مجلة تايم (Time) الأمريكية مقال بعنوان: (sLostSandCastleByRichardOstling - Arabia) ذكر فيه الكشف عن إرم.

في تاريخ١٠/٤/ ١٩٩٢م كتبت مقالا بعنوان اكتشاف مدينة (إرم ذات العماد) نشر بجريدة الأهرام القاهرية، لخصت فيه ما وصلني من أخبار ذلك الكشف حتي تاريخه.

في سنة ١٩٩٣ م نشر بيل هاريس كتابه المعنون: (BillHarris:LostCivilizations)

وبتـــاريخ ٢٣/٤/ ١٩٩٨م نـــشر (NicholasClapp) كتابـــه المعنـــون: (TheRoadtoUbar)
وبتـــاريخ ١٤/٦/ ١٩٩٩م نـــشر بيكـــو إيـــر (PicoIyer) كتابــه المعنــون: (FallingoffTheMap:SomeLonelyPlacesinTheWorld
وتوالت الكتب والنشرات والمواقع علي شبكة المعلومات الدولية منذ ذلك التـاريخ، ولكن تكتم القائمون على الكشف نشر مزيد من أخباره حتى يتمكنوا من تزييفه وإلحاقه بأساطير اليهود، كما فعلوا من قبل في لفائف البحر الميت وآثار(إبلا) وغيرها من المواقع، ولكن كل مانشر - على قلته - يؤكد صدق ماجاء بالقرآن الكريم عن قوم عاد بأنهم:
١- كانوا في نعمة من الله عظيمة ولكنهم بطروها ولم يشكروها، ووصف بليني الكبير لتلك الحضارة بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخري كأنه ترجمة لمنطوق الآية الكريمة (التي لم يخلق مثلها في البلاد).
٢- أن هذه الحضارة قد طمرتها عاصفة رملية غير عادية وهو ماسبق القرآن الكريم بالإشارة إليه.
٣- أن هناك محاولات مستميتة من اليهود لتزييف تاريخ تلك المنطقة ونسبة كل حضارة تكتشف فيها إلي تاريخهم المزيف، ولذلك كان هذا التكتم الشديد علي نتائج الكشف حتي يفاجئوا العالم بما قد زيفوه، ومن ذلك محاولة تغيير اسم (إرم) إلي اسم عبري هو أوبار(Ubar).

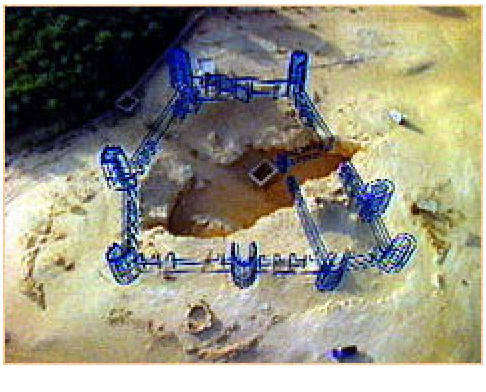

هذه الصورة هي لقلعة من قلاع إرم والتي تقع على عمق ١٠ أمتار تحت طبقات من الرمال الصحراوية والتي تتميز بأعمدتها الضخمة والتي تم تصويرها عبر أحد الأقمار الصناعية الأمريكية المتطورة مع رسم توضيحي للمعالم.

هذه هي قصة (إرم ذات العماد) مدينة قوم عاد، التي جاءت الكشوف الأثرية الحديثة بإثبات ماذكر عنها في القرآن الكريم. وإن كان نفر من الأقدمين قد حاول

إنكار ذلك تطاولاً على الله وكتابه، فإن نفرا من المحدثين قد حاول إنكاره، تطاولا علي العلم وأهله في زمن يتكلم فيه الرويبضة كما أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويبقي ماجاء في القرآن الكريم من ذكر لقوم عاد ولمدينتهم.

انتهى قول هذا العالم التجريبي الذي قام بالتعليم في جامعات شهيرة على مستوى العالم، وهذه هي الكشوفات التي حققتها وكالة ناسا، فهل يقتنع أركون بتلاعبات وكالة ناسا الأمريكية الماضوية الإسلاموية الضلامية، المقلدة لتلاعبات موريس بوكاي وكيث مور. وهناك آيات أخرى تحتاج إلى كتب تفرد لها، على هذا المستوى من القراءة الجديدة للنص القرآني، المعجز هنا أن هذه الكشوفات المدهشة تثير كل منها آية، آية واحدة، تثير كل هذا الفضول وحب الاكتشاف الذي لا يمل من العطش.

أما الآيات الأخرى، والتي تحتوي على إشارات وومضات علمية، فكثيرة منها:

إشارة إلى نزول الحديد إلى الأرض، وسر رقم سورة وآية الحديد

قال الشيخ عبد المجيد الزنداني ضمن سلسلة حواراته مع عدد من العلماء التجريبيين: (هذا هو البروفيسور "آرمسترونج"، أحد مشاهير علماء الفلك في أمريكا، يعمل في وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا"، وهو من مشاهير علمائها، التقينا به وسألناه عن عدد من الآيات الكونية المتعلقة بمجال تخصصه في الفلك.

فقال: سأحدثكم كيف تكونت كل العناصر على الأرض، لقد اكتشفناها، بل لقد أقمت عدداً من التجارب لإثبات ما أقول لكم: إن العناصر المختلفة تجتمع فيها الجسيمات المختلفة من الكترونات وبروتونات وغيرها، ولكي تتحد هذه الجسيمات في ذرة كل عنصر يحتاج إلى طاقة، وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد، وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعة الشمسية أربع مرات، ليست طاقة الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا عطادر ولا زحل ولا المشتري، كل هذه المجموعة الشمسية بأكملها لا تكفي طاقتها لتكوين ذرة حديد، بل تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات. ثم قال هو من نفسه بدون تدخل منا: ولذلك يعتقد العلماء أن الحديد عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها. فذكرنا قول الله تعالى: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ـ سورة الحديد،الآية ٢٥)

ثم سألناه: هل في هذه السماء فروج وشقوق؟ قال: لا، إنكم تتكلمون عن فرع من فروع علم الفضاء اسمه الكون التام! هذا الكون التام ما عرفه العلماء إلا أخيراً، لو أخذت نقطة في الفضاء، وتحركت مسافة معينة إلى اتجاه، وتحركت بنفس المسافة في اتجاه آخر، لوجدت أن وزن الكتلة في كل الاتجاهات متساو، لأن هذه النقطة متزنة فيجب أن تكون الضغوط عليها من كل جانب متساوية، والكتلة يجب أن تكون كذلك، ولو لم يكن هذا الاتزان لتحرك الكون وحدث فيه تصدع وشقوق.

فقال الشيخ الزنداني: فذكرت قول الله جل وعلا: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) (سورة ق، الآية:٦). وتحدثنا معه كذلك

عن جهود العلماء في محاولاتهم الوصول إلى حافة الكون، هل وصلوا إلى حافة الكون؟ قال: نحن في معركة للوصول إلى حافة الكون، إننا نطور أجهزة ثم ننظر من خلالها فنكتشف نجوماً، ونكتشف أننا ما زلنا بداخل هذه النجوم دون أن نصل إلى الحافة؟ وأنا أعلم من قوله تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) (سورة الملك، الآية:٥).

إن كل هذه النجوم هي زينة للسماء الدنيا، وهو يقول لنا: لم نصل إلى الحافة. لم نصل إلى النهاية، قال: ولذلك نحن نفكر في إقامة التلسكوبات في الفضاء الخارجي، حتى لا يكون هذا الغبار والأشياء من الظواهر الجوية الموجودة على الأرض من العوائق التي تحول بيننا وبين هذه الرؤيا، إن التلسكوبات البصرية التي تستعمل الضوء أو البصر عجزت ولم تستطع أن تتجاوز بنا مسافات كبيرة، فعوضنا عن هذه التلسكوبات البصرية بتلسكوبات لا سلكية فوجدنا مسافات جديدة، ولكن لا زلنا داخل الحدود.

فذكرت قول الله جلا وعلا: (فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير - سورة الملك ٣-٤).

كل هذا ونحن نريه الآيات، كلما ذكر لنا حقيقة ذكرنا له الآية وهو يوافق على ذلك.

ثم قلنا له: هذا أنت ذا قد رأيت بنفسك حقائق علم الفلك الحديث، بعد أن استخدم الإنسان هذه الأجهزة والصواريخ وسفن الفضاء واكتشفت هذه المعلومات، ها أنت ذا قد رأيتها ثم رأيت كيف جاءت في نصوص القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ عام فما رأيك في هذا؟

فأجاب البروفيسور آرمسترونج: هذا سؤال صعب، ظللت أفكر فيه منذ أن تناقشنا هنا، وإنني متأثر جداً كيف أن بعض الكتابات القديمة تبدو متطابقة مع علم الفلك الحديث بصورة ملفتة للأنظار، لست عالماً وافياً في تاريخ البشرية وفي صورة يعتمد عليها، بحيث ألقي بنفسي تماماً في ظروف قديمة كانت سائدة منذ ١٤٠٠ سنة، ولكني بالتأكيد أود ألا أزيد على أن ما رأيناه جدير بالملاحظة، ومع ذلك قد لا يترك مجالاً للتفسير العلمي، قد يكون هناك شيء فيما وراء فهمنا كخبرة بشرية عادية ليشرح الكتابات التي رأيناها، ولكن ليس في نيتي أو وضعي عند هذه النقطة أن أقدم إجابة على ذلك، لقد قلت كلمات كثيرة على ما أظن دون أن أعبر بالضبط عما أردتني أن أعبر عنه، إنه من واجبي كعالم أن أظل مستقلاً عن مسائل معينة، وأعتقد أن هذا عندما توقفت على أفضل وجه عند نقطة أقل قليلاً من إعطائك الإجابة التي قد ترغب فيها؟

فقال الشيخ الزنداني: نعم، أمر صعب أن يتصور أن هذا العلم الذي نزل في كتاب الله قبل ١٤٠٠ عام قد جاء إلى محمد صلى الله عليه وسلم من مصدر بشري، لا بد أن هناك مصدراً وراء تفكير هؤلاء العلماء (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض) (سورة الفرقان، الآية:٦)}

شيء عجيب ومدهش ما يبوح به العلمانيون الغربيون التجريبيون عندما يقرأون القرآن، ومخجل جدا ما يهرج به أمثال العظم وأركون وأدونيس، والفرق بين

الانطباعين هو تماما الفرق بين الإنجازين، الإنجاز الغربي المبهر في العلوم التجريبية، والتخلف المخجل في الأطروحات العلمانية العربية.

ومضات مذهلة في القرآن

وأخيرا وحول سورة الحديد، ومضة قرآنية لا تستقبلها تلك الأنفس الإقصائية الضيقة، بل تنفر منها نفور الأجساد المريضة من الدواء والغذاء:

فترتيب سورة الحديد في القرآن هو ٥٧ وهو يتفق مع الوزن الذري لأحد نظائر الحديد (٥٧).

أما رقم آية الحديد في السورة نفسها فـ (٢٦) مع البسملة فهو نفس العدد الذري للحديد.

ومن الومضات العددية المدهشة في هذا القرآن المعجز، المكتوب منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، ما يقوله الطبيب الدكتور جميل القدسي الدويك، في ندوة على هامش جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم: (أن كلمة البر ذكرت في القرآن: ١٣ مرة، وأن كلمة بحر ذكرت فيه: ٣٢ مرة، وبقسمة أحدهما على الأخرى تكون النتيجة هي نفسها تماما نسبة مساحة البر بالنسبة للبحر على الكرة الأرضية.

ومن الومضات والإشارات في كتاب الله (القرآن): أن القمر كان كوكباً مشعاً

قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) (الاسراء:١٢) . فقد روي عن ابن عباس في قوله تعالى: (فمحونا آية الليل) أنه قال: " لقد كان القمر يضيء كالشمس فطمسنا ضوءه ".

وفي ندوة بين الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور فاروق الباز من وكالة الفضاء الأمريكية "ناسا"، تم كشف حقيقة أن القمر والأرض والمريخ وكل كواكب المجموعة الشمسية عندما بدأت كانت كلها مشتعلة، وسبب هذا هو أن المواد عندما أخذت تتجمع مع بعضها بعد انفجار الشمس الأم، وتكوّن محيطاً فتندفع إليها القطع الباقية حولها بسرعة جبارة بسبب الجذب، ويزداد ارتطام هذه القطع على الكوكب المتكون، فتزيد من حرارته زيادة كبيرة حتى تصل إلى درجة انصهار سطحه كله، وهذا الانصهار يمكن أن يمتد إلى سمك حوالي ٣٠٠ كيلو متر في عمق الكوكب المتكون مع جميع الجهات.

هذا في حالة القمر، أما في حالة الأرض فإننا لا نعرف ذلك، لأن الأرض تغيرت كثيراً جداً عن يوم خلقها، أما القمر فتغير قليلاً جداً من يوم خلقه الله، وهذا الصهير يكون لونه أحمر مثل النار، والصخور تكون منصهرة وسائلة، وهذا يعني أن درجة الحرارة أكبر بكثير من درجة حرارة النار التي نعرفها، فنحن لا نستطيع أن نصل بدرجة حرارة النار لدرجة صهر الصخور لتصبح سائلة أبداً ... وفي هذا الصهر الصخري أو الصخور السائلة تبدأ عمليات انفصال المعادن، فتأخذ المعادن الثقيلة في الغوص إلى تحت، وتطفوا العناصر الخفيفة إلى فوق، ونعلم أن هذا قد حدث في قشرة القمر. ومعنى هذا أن الكوكب أو الجسم السماوي يكون ملتهباً في

بدء خلقه، نتيجة ما يتراكم على سطحه من طبقات وقطع المجموعة الشمسية الصلبة، وحتى تنصهر المنطقة العلوية كلها في سمك ٣٠٠ كيلومتر، وتبدأ العناصر الثقيلة في الرسوب وتطفوا العناصر الخفيفة وتبرد، وتكون القشرة من عناصر خفيفة فوق وعناصر أو معادن ثقيلة تحت.
هذا جزء صغير جداً مما احتواه النص القرآني من إعجاز كشفه العلمانيون الغربيون المبدعون، وسخر منه العلمانيون العرب الإنشائيون، والمدهش اليوم أن الأغلبية الساحقة من المهتمين بإعجاز النص القرآني والمهمومين به من المسلمين هم علماء تجريبيون: أطباء، صيادلة، جيولوجيون، علماء فلك وبحار وهندسة ورياضيات، بينما نجد أن من يحاربه من العلمانيين العرب هم من الشعراء والسياسيين والأدباء والصحفيين ودارسي الفلسفة بل وقادة ديكتاتوريين ملاحدة وعسكريين جهلة.

السنة وحكم العلم التجريبي عليها

إذا انتقلنا إلى النص الإسلامي الثاني وهو الحديث النبوي، أو السنة لنكشف شهادة العلماني الغربي التجريبي في هذا الموضوع، فإن النتيجة تصبح أكثر حدية، نظرا لأن النص النبوي عادة ما يكون قصيرا جدا ومحدداً، ويكاد يكون في بعض مقارباته علمياً ومادياً بحتاً، مما يجعله في اختبار أكثر صعوبة من تلك التي يواجهها القرآن، نظراً لكون القرآن (حمال أوجه). أما النص النبوي فغالبا ما يكون واضحاً وجلياً ومباشراً عندما يتحدث عن شيء مادي، وللمقارنة بين النصين أضرب مثالا سريعا حول التمر مثلا:
فالقرآن يقول عن مريم (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ٢٢ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ٢٣ فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ٢٤ فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا ٢٦)
أما في السنة فيقول عليه الصلاة والسلام: (من اصطبح بسبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر – صحيح البخاري ٥ – ٢١٧٩)
ففي الآية إخبار من جهة وإعجاز من جهة أخرى، إخبار عن حالة مريم وهي تعاني آلام الحمل الأخيرة، أما الإعجاز ففي كشوفات العلم الحديث عن فوائد تناول الرطب الكثيرة للحامل، وأثره في تيسير عملية الولادة، لكن لو لم يكن هناك من إعجاز لما تأثر النص، نظرا لأن الآية تحكي قصة تعرضت لها أم نبي الله عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم. أما الحديث النبوي، فيتحدث عن فائدة وقائية طبية حتمية لتناول سبع تمرات فقط، فالكلمة هنا للعلم الحديث ليقول شهادته، وقد قالها بعد تجارب مخبرية، أثبت فيها صحة الحديث طبيا وعلميا.
من هنا يتبين لنا الفارق بين النصين، فالنص القرآني يأتي بالمعلومة ضمن سياق عقائدي، لا يتأثر بالتوصل لها، فالمعلومة لا تأتي لذاتها، ولا تأتي بين قوسين، هي

في الغالب تأتي كمثل يضربه الله لحالة عقائدية، أو نفسية أو مصيرية، أو خبر أو تشريع.

شهادة العلماني الغربي لنتائج الجرح والتعديل

قدم العلماني التجريبي شهادته للسنة النبوية الصحيحة، والتي نالت إجازتها من مراكز بحوث الجرح والتعديل. لتصبح المعادلة: (علماء غربيون تجريبيون بأدوات غربية بالغة الدقة والحداثة، وفي المقابل: علماء النقل والنقد المسلمون بأدواتهم: الموضوعية والأمانة والتوثيق والخوف من الله – قبل كل شيء – في النقل. وبين هؤلاء وهؤلاء يضيع العلمانيون العرب بإنشائية مملة، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كسل ينقصه الكثير من الذكاء، فلنبدأ رحلة الكشف عن دقة المعادلة. قدم النقاد المسلمون نصهم نقيا كما نزل، وقد مر معنا بعض ملامح تلك الجهود، قام النقاد بذلك منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم، مأخوذين بقاعدة قرآنية هي: أنه لا يمكن للنص الصحيح أن يخالف حقيقة كونية، إلا إذا كان النص ضعيفاً، أو أن العلم التجريبي لا يزال في منتصف الطريق نحوها، ومن هنا سنتجاوز المعطيات التجريبية التي توصف بأنها في منتصف الطريق، والتي لم تتجاوز مفهوم (النظرية) متجهين إلى ما أصبح يوصف لدى العلم التجريبي بـ(الحقيقة).

سنتجاوز تلك النظريات متوغلين نحو ما وصلت الكشوفات العلمية فيه إلى درجة (حقيقة) كعلم الأجنة، وعلوم البحار والجيولوجيا وغيرها، فمعطيات العلم هنا ناضجة، وحقيقة لا يمكن إنكارها، وقد نجحت الآلاف من الأحاديث النبوية في الحصول على شهادة الصحة من قبل نقاد الجرح والتعديل، بينما أخفقت عشرات الآلاف في ذلك، ولعل من أقرب الأمثلة على ذلك ما قام به مجدد علم الجرح والتعديل في القرن العشرين "محمد ناصر الدين الألباني" رحمه الله، حيث قام بدراسة سريعة لكتاب (الجامع الصغير) للسيوطي رحمه الله، وهو يحتوي على أكثر من ١٤٠٠٠ حديث من المفترض أن تكون مقبولة لدى الإمام "السيوطي"، لكن مراجعة سريعة للألباني أوصلته إلى أن أكثر من ٦٠٠٠ حديث منها هي أحاديث ضعيفة أو مكذوبة. مع التأكيد على أن دراسته تلك كانت سريعة وليست بالدقة المطلوبة.

لنعد إلى الأحاديث التي نالت مصداقية، وثبتت نسبتها للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن بينها أحاديث لها علاقة بهذا الكون وبالصحة وبالطب وغيرها، مما أمكن تقديم اختبارات وقراءات جديدة قائمة على ما توصلت إليه آخر الكشوفات في الكون والطبيعة والطب غيره. في البداية قدم العلمانيون العرب من أدباء وشعراء وممثلين وصحفيين قراءاتهم النمطية والمعروفة، والمفعمة بالسخرية والرمي بالرجعية والفكر الغيبي والتخلف، والاستهزاء بكل نص نبوي، حيث كانت مقالات هؤلاء أشبه بالرجم بالحجارة والشتم لا بالنقد، وصمت المسلمون في بداية هذا القرن، وهم يرون أبناءهم يشتمون تراثهم ويسخرون منه تقليدا للغربي الذي أسقط تراثه الكنسي بالعلم التجريبي، لكن أبناءهم يريدون إسقاط القرآن والسنة

بالتخرص والجهل والتقليد الأعمى، ودون إجراء أي تجربة، فجاء العلماني الغربي بأسلحته التي هزم بها الكنيسة والكتاب المقدس، جاء بالأسلحة نفسها ليبارز بها الحديث النبوي ويفضحه أمام أتباعه، ليقول للمسلمين أن الدين خرافة ومنتج بشري، وأن دينكم ليس سوى منتج بشري. لكنه خرج من تلك المعركة غير مصدق في البداية، ثم مندهشا، وأخيراً معتنقا له، حاملا إياه في يد، وفي اليد الأخرى كشوفاته وحقائق علمه الحديث، مما أصاب العلمانيين المقلدين بإحباط لا مثيل له. كيف لا، وهو يرى أستاذه الغربي الذي ردد مقولاته لأكثر من قرن، وطالما حلم بإنجاز مماثل لإنجازه كي يجهز على القرآن والسنة، كيف لا وهو يرى أستاذه وملهمه يقف بعلمه إلى جانب خصمه. إنها الخيبة بكل معانيها، أن تفني عمرك في جهود تجزم بأنها صواب، لتكتشف أخير أنك لم تكن مخطئا فقط، بل أن من كنت تصفه بالجاهل والمتخلف ليس سواك. ما أذهل العالم هنا هو تلك المعلومات النبوية العجيبة، فهي ليست من الممارسات التقليدية، التي ربما صنفت ضمن قائمة العادات والتقاليد والتراث الشعبي، بل هي نسف لمفاهيم جاهلية سائدة ونمطية ومتوارثة، بل نسف لكل المفاهيم الحديثة في عصر العلم اليوم، إنها انقلاب يحرض العالم التجريبي الجاد على الحماس لإثبات أنها مغالطة مفضوحة، لكن العلماني العربي مبتلى بالكسل والاستهلاكية، فلم تجد لتحريك واستفزاز طاقاته كل المحرضات والمنشطات إلا المنشطات الغرائزية. إن المعجز في الحديث النبوي أنه مستفز للعلم والعالم التجريبي بشكل غير مسبوق، وبمعلومات لا يمكن تصديقها عند قراءتها فقط، بل تثير سخريته ابتداءً، وهو ما يجعل من التجريبي الجاد أكثر تصميما على قبول التحدي، نظرا لأن المعلومة التي يأتي بها الحديث تخالف السائد، فتدفعه إلى تكذيبها وإثبات كذبها ولكن بالتجربة، ومن أمثلة ذلك:

حديث عن (الذباب)

تلك الحشرة الصغيرة قدمها الحديث النبوي بصورة تخالف النمطي والسائد في الجاهلية وفي القرن الحالي كذلك، فالذباب في الجاهلية طائر لايؤبه به، ولا بآثار تنقلاته، إنه جزء من حياة الجاهلي، بل هو موضع تأمل للشعراء الجاهليين، ومنهم أبرز شعراء الجاهلية عنترة بن شداد، حتى جاء الإسلام فغير نظرة العربي للذباب، يقول عنترة:

فترى الذباب بها يغني وحده   غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه   فعل المكب على الزناد الأجذم

أما الذباب في القرن الحالي فحشرة ضارة، تنقل الميكروبات والجراثيم والأمراض، وتوضع اللافتات في الطرقات والأماكن العامة، تحث الناس على القضاء عليه، وتتفنن مصانع المبيدات في إنتاج أفضل وأسرع المبيدات فتكاً به.

أما الحديث النبوي الذي قاله محمد صلى الله عليه وسلم قبل ١٤٠٠ عام فيقدم رؤية ومعلومات لا يعرفها الجاهلي، ويجهلها الغربي آنذاك، فالحديث النبوي أول مكتشف لضرر الذباب وخطورته ونقله للأمراض، أما العلماني العربي، فغض

الطرف عن هذا الكشف، وركز على الجزء الذي يجهله من الحديث، فاعتبر الحديث خرافة تدل على كذب الصحابة وأبي هريرة بالتحديد، وكذلك علماء الحديث، واعتبره من الفرص التي لا تفوت للطعن فيهم جميعاً. الكشف الذي يقدمه هذا الحديث الصحيح، يتمثل في أن الذباب ينقل أمصاله ومضاداته لتلك الأمراض على جسده، لذا فالحديث النبوي يقدم للإنسانية – لا للمسلمين فقط – ثلاثة حلول للتعامل مع الذباب:

- النهي عن شرب الشراب الذي وقع فيه الذباب، لأنه يحتوي على الأمراض التي يحملها جسد الذباب.
- لا يكفي لتناول ذلك الشراب إزالة الذباب عنه، بل يحذر من الشرب بعد إزالته.
- هناك طريقة وحيدة فقط للاستفادة من ذلك الشراب، نظراً لوجود مادة مضادة داخل جسد الذباب يمكن الاستفادة منها. فمن أراد شرب الشراب فعليه أن لا يزيل الذباب، بل يمارس شيئا ليس في الحسبان.. عليه أن يغمس الذباب كاملاً في الشراب.

هذا الشيء يحير الجاهل بالحديث النبوي والعلم الحديث معا، فالمفترض بداهة عند النظرة السطحية للموضوع، أن تزيد ميكروبات وجراثيم الذباب مع الغمس، لأن السائل قد لامس كل جهات الذباب المليئة بما التصق بها من مواد ميكروبية ضارة، لكن نتائج العلم التجريبي تقدم شيئا آخر.

هذا هو الحديث: روى البخاري ٣ – ١٢٠٦ عن عبيد بن حنين قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، ثم لينزعه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء)

تهكم العلمانيون العرب بهذا الحديث، واتهم الطائفيون أبا هريرة بالكذب على نبيه، ووصفوا الحديث بعدم النظافة، ولو تأملوا الحديث ابتداءً لأدركوا أن محمدا عليه السلام هو أول إنسان كشف للعالم عن خطورة الذباب، لكنه في الوقت ذاته أضاف شيئا محيرا ومدهشاً، هو محك النبوة ودليل الصدق، إنه لا يأمر بنزع الذباب، لأن الداء سيبقى في الشراب، بل بالعكس يأمر بغمس الذباب، ليتحلل ما يحمله من دواء مضاد في الشراب، قاضيا على ما حمله من داء. الدقيق هنا هو قوله عيه السلام: (في شراب أحدكم) لقد حدد غمس الذباب في السوائل، ولم يقل في طعام أحدكم، فالطعام له وضع خاص. فقد قال أبو هريرة: (سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الفأرة تموت في السمن؟ قال: إن كان جامداً فالقوها وما حولها، وإن كان مائعا فلا تقربوه – المنتقى ٢٢١)

عامل المرض وعامل الشفاء محمولين على جسد الذبابة، وقبل اكتشافهما بأربعة عشر قرنا، وفي زمن كان الذباب فيه جزءا من حياة العربي اليومية، يكشف محمد صلى الله عليه وسلم لأمته وللعالم شيئا غير مألوف ولا متوقع.

أما العلم التجريبي الحديث فقد قال كلمته حين أثبتت التجارب العلمية الحديثة الأسرار الغامضة التي في هذا الحديث، وأن هناك خاصية في أحد جناحي الذباب هي أنه يحول البكتريا إلى ناحية، وعلى هذا فإذا سقط الذباب في شراب أو طعام

وألقى الجراثيم العالقة بأطرافه في ذلك الشراب، فإن أقرب مبيد لتلك الجراثيم هو مبيد البكتريا الذي يحمله الذباب في جوفه قريبا من أحد جناحيه، ولذا فإن غمس الذباب كله وطرحه، كاف لقتل الجراثيم التي كانت عالقة به، وكاف في إبطال عملها، كما أنه قد ثبت علميا أن الذباب يفرز جسيمات صغيرة من نوع الإنزيم تسمى (باكتر يوفاج) أي مفترسة الجراثيم وهذه المفترسة للجراثيم (الباكتر يوفاج) أو عامل الشفاء صغيرة الحجم يقدر طولها بـ (٢٥:٢٠) ميلي ميكرون، فإذا وقعت الذبابة في الشراب، وجب أن تغمس فيه كي تخرج تلك الأجسام الضدية فتبيد الجراثيم التي تنقلها، وفي العصر الحديث صرح الجراحون الذين عاشوا في السنوات العشر التي سبقت اكتشاف مركبات السلفا، أي في الثلاثينيات من القرن العشرين، بأنهم قد رأوا بأعينهم علاج الكسور المضاعفة والقرحات المزمنة بالذباب. وقد كتب الدكتور "خليل خاطر" بحثا جميلا عن حديث الذبابة سماه "الإصابة"، أكدت فيه البحوث الطبية والمختبرية الحديثة صحة ما في حديث الذباب، وهي شهادات للحديث النبوي، ولنقاد الجرح والتعديل، وكم كانوا عليه من الدقة والأمانة والمنهجية، وخيبة للعلماني العربي. أما المضحك بعد الكشف الغربي لصحة الحديث والمبكي معا، فهو تعليقات العلمانيين العرب الصبيانية والسخيفة في منتدياتهم الالكترونية، فمن مكذب ومعاند للكشوفات المخبرية الدقيقة، وكأن الأمر يخضع للأمزجة والميول الإيديلوجية والعاطفية، ومن ألفاظ صبيانية تقول: لم لا تحشرون الذباب في كؤوسكم عندما تشربون... وغيرها من التعليقات المفلسة التي تعكس واقعاً مثلها.

حديث عن (الكلب)

بل أحاديث أخرى تتعلق بالصحة والمرض، لكنها خرافة متناقضة جدا في حالة كون المتلقي جاهلا كالعلماني العربي، أو جاهليا كوثنيِّ العرب، وهي معجزة في حالة كون الإنسان مؤمنا بالنبي صلى الله عليه وسلم أو علمانيا غربيا تجريبيا. فالحديث النبوي يقدم صورة للكلب خارج المألوف والمتعارف عليه والبديهي في حياة الجاهلي، وخارج المألوف في حياة الغربي الذي أصبح الكلب يضفي على حياة الغربي نوعا من الرقي. والحديث الأول هو: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب – مسلم ١ – ٢٣٤)

الكلب حيوان لصيق بالجاهلي، فهو يرعى الغنم ويحرس الخيام، ونباحه دليل على قدوم ضيف أو تسلل سارق أو هجوم غاز، ووفاؤه وصفاته تملأ أبيات الشعر الجاهلي، بل وصل الحد بالجاهلي أن يسمي ابنه بـ (كلب) و(كليب)، بل إن هناك قبيلة عربية كريمة تدعى (كلب)، كان الكلب في الجاهلية رمزاً جميلا كالأسد والفهد والنمر، ولم تكن أذن العربي تنبو عندما تسمع لفظ كلب أو تتبرم، ولم يكن أحد يغضب عندما ينادى بكلب، أو يوصف بالكلب، كان الكلب جزءا حميماً من حياة العربي الجاهلي.

واليوم وفي العالم الغربي يحتل الكلب مكانة قد تفوق مكانة الأطفال عند بعض الأسر، فملايين الكلاب في الغرب تعيش حياة مرفهة تحلم بها المليارات من البشر، الذين يفترشون الأرصفة والكراسي الحديدية والإسمنتية، ويقبعون في أنفاق القطارات والملاجىء، في مدن هي الأرقى، مثل لندن وباريس ونيويورك ولوس أنجلوس، أو يقبعون في بيوت من الصفيح وتحت الجسور في آسيا وأفريقيا وسائر القارات، فأرفف الأسواق المركزية تغص بأصناف مأكولات الكلاب، لدرجة أن بعضها صمم على أشكال عظام متفاوتة الحجم، حتى لا يفقد الكلب شعوره بطعام أسلافه وتراثه. ملايين الكلاب في تلك البلاد الغربية يتم العناية بها وتنظيفها بأصناف المنظفات كالصابون والشامبوهات، وهناك الآلاف من العيادات الخاصة بها فضلا عن العيادات البيطرية، حيث تنعم برعاية طبية فائقة، بل وتحسبا لعدم إصابتها بالاكتئاب، يتم أخذها في جولات يومية، ويبالغ بعض الغربيين فيخصص لكلابه خدما يقومون برعايتها. كل هذا مع أنهم لا يحتاجون تلك الكلاب في صيد أو رعاية ماشية أو حراسة، بل إن هناك من يفضل اقتناء كلب على إنجاب طفل، وهناك من الأثرياء من أوصى بتركته لكلب.

أما الحديث النبوي فيقدم صورة طبية تنسف بعض تلك الممارسات الجاهلية، والغربية الحديثة معا، لا اعتباطاً ولا تعسفا ولا تضييقاً على البشر، ولكن من أجلهم، من أجل حياة أنظف وأرقى، يقدم صورة غاية في الدقة، ولا يمكن اكتشاف تلك الدقة إلا عن طريق البحث العلمي التجريبي المخبري. فالحديث يقول: (طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب – صحيح مسلم ١ – ٢٣٤) بينما نجد الحديث الثاني عن عبد الله بن عمر بن الخطاب يقول: (كنت أبيت في المسجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت فتى شابا عزبا، وكانت الكلاب تبول وتقبل وتدبر في المسجد، فلم يكونوا يرشون شيئا من ذلك – سنن أبي داود ١ - ١٥٧)

أمامنا حالاتان: حالة لعق الكلب لإناء الإنسان. وحالة تبول الكلب على تراب المسجد النبوي، وهو من أطهر البقاع.

في الحالة الأولى يشدد النبي صلى الله عليه وسلم على عدم استخدام ذلك الإناء الذي أكل فيه الكلب أو شرب منه، إلا بعد غسله غسلا شديدا، وبالتحديد سبع مرات إحداهن باستخدام التراب. في وقت لا يفكر فيه الجاهلي بتلك العملية أو حتى تخطر له على بال، أما الغربي اليوم فلا يمانع أن يلعق الكلب وجهه كله وهو يداعبه، وربما امتزج لعاب الكلب بلعاب الإنسان الغربي ولسانه بلسانه أثناء تلك الملاطفة.

أما في الحالة الثانية، فالنبي عليه السلام لم يشدد في تنظيف المسجد من بول الكلب، والبول في نظرة الإنسان التلقائية ضار ونجس، بعكس اللعاب الذي لا يخطر على بال الإنسان نجاسته وإن استقذره وتقزز منه. هنا لا بد من تدخل العلم المخبري الحديث ليقول كلمته، فالأمر ليس بحاجة إلى تخرصات وكسل، أو توظيف للمنهج الألسني والبنيوي، أو علم الاجتماع أو علم النفس الاجتماعي وأحكامهما التي تمتح من مستودع الأحكام الجاهزة والمعلبة.

حكم العلم التجريبي في حديث الكلب.

العلم الحديث يقول أن الكلب رغم وفائه وعلاقته الحميمية بالإنسان، وكونه أصبح من مميزات الحياة الغربية، لدرجة أن تكون صورة أكبر زعماء العالم ناقصة دون احتوائها على نشاط يتضمن وجود الكلب، ولو من باب (الإيتيكيت). العلم الحديث رغم ذلك كله، يقرر أن الكلب ضار في بعض تعاطي الإنسان معه، وأن في لعابه فيروس خطير، وأن فيروس الكلب دقيق متناه في الصغر، ومن المعروف أنه كلما صغر حجم الميكروب، كلما زادت فعالية سطحه للتعلق بجدار الإناء والتصاقه به، ولعاب الكلب المحتوي على الفيروس يكون على هيئة شريط لعابي سائل، ودور التراب هنا هو امتصاص الميكروب – بالالتصاق السطحي – من الإناء على سطح دقائقه. وقد أثبت العلم التجريبي الحديث أن التراب يحتوي على مادتين قاتلتين للجراثيم هما: (التتراكسلين) و(التتاراليت) وتستعملان في عمليات التعقيم ضد بعض الجراثيم. وقد ثبت أنّ التراب عامل كبير على إزالة البويضات والجراثيم، وذلك لأنّ ذرّات التراب تندمج معها فتسهّل إزالتها جميعا، كما يحتوي التراب على مواد قاتلة لهذه البويضات. كما ثبت أن استخدام الماء وحده لا يكفي عنه، لإن الحُمة المسببة للمرض متناهية في الصغر، وكلما قل حجم الحمة إزداد خطرها، لازدياد إمكانية تعلقها بجدار الإناء والتصاقها به، والغسل بالتراب أقوى من الغسل بالماء، فالتراب يسحب اللعاب والفيرويسات الموجودة فيه بقوة أكثر من إمرار الماء، أو اليد على جدار الإناء، وذلك بسبب الفرق في الضغط الحلولي بين السائل (لعاب الكلب) و بين التراب، وكمثال على هذه الحقيقة الفيزيائية إمرار الطباشير على نقطة.

أما حديث ابن عمر في عدم رش الماء على أبوال الكلاب، فلأن أرضية المسجد النبوي كانت ترابا، وقد ثبت علميا قتل التراب للجراثيم. أما المعجز هنا فهو توقع بعض الأطباء الباحثين، أن يجدوا في تراب المقابر جراثيم معينة بسبب كثرة جثث الموتى، لكن التجارب والتحاليل أظهرت أن التراب عنصر فعال في قتل الجراثيم، حيث قام العلماء في العصر الحديث بتحليل تراب المقابر، ليعرفوا ما فيه من الجراثيم، وكانوا يتوقعون أن يجدوه غاصاً فيه بأنواع الجراثيم الضارة، و ذلك لأن كثيرا من البشر يموتون بالأمراض الإنتانية الجرثومية، و لكنهم لم يجدوا في التراب أثرا لتلك الجراثيم الضارة المؤذية، فاستنتجوا من ذلك أنّ للتراب خاصية قتل تلك الجراثيم، و لولا ذلك لانتشر خطرها واستفحل أمرها، وقد سبقهم النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى تقرير هذه الحقيقة بهذه الأحاديث النبوية الشريفة. وقد توصل العلم الحديث إلى حقائق مذهلة فيما يتعلق بنجاسة الكلاب وآثار تربيته في المنازل.

يقول الدكتور الإسمعلاوي المهاجر: وجد أطباء بيطريون مختصون أن تربية الكلاب والتعرض لفضلاتها من براز وبول وغيرها ينقل ديدان طفيلية تعرف باسم (توكسوكارا كانيس) التي تسبب فقدان البصر و العمى للإنسان. ولاحظ الدكتور إيان رايت – أخصائي الطب البيطري في سومر سيت – بعد فحص ٦٠ كلباً، أن

ربع الحيوانات تحمل بيوض تلك الدودة في فرائسها، حيث اكتشف وجود ١٨٠ بويضة في الغرام الواحد من شعرها، وهي كمية أعلى بكثير مما هو موجود في عينات التربة، كما حمل ربعها الأخر ٧١ بويضة تحتوي على أجنة نامية، وكانت ثلاثة منها ناضجة تكفي لأصابة البشر، وأوضح الخبراء في تقريرهم الذي نشرته صحيفة (ديلي ميرور) البريطانية، أن بويضات هذه الدودة لزجة جدا ويبلغ طولها ملليمترا واحدا، ويمكن أن تنتقل بسهولة عند ملامسة الكلاب أو مداعبتها، لتنموا وتترعرع في المنطقة الواقعة خلف العين، وللوقاية من ذلك ينصح الأطباء بغسل اليدين جيدا قبل تناول الطعام، وبعد مداعبة الكلاب، خصوصا بعد أن قدرت الاحصاءات ظهور ١٠ آلاف اصابة بتلك الديدان في الولايات المتحدة سنويا، يقع معظمها بين الأطفال، وقد أوصى نبي الإسلام محمد – صلى الله عليه وسلم – منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة بعدم ملامسة الكلاب ولعابها، لأن الكلب يلحس فروه أو جلده عدة مرات في اليوم، الأمر الذي ينقل الجراثيم إلى الجلد والفم واللعاب فيصبح مؤذيا للصحة. وقال الدكتور عبد الحميد محمود طهماز: تعيش في أمعاء الكلب دودة تدعى المكورة تخرج بيوضها مع برازه، وعندما يلحس دبره بلسانه تنتقل هذه البيوض إليه، ثم تنتقل منه إلى الآواني والصحون وأيدي أصحابه، ومنها تدخل إلى معدتهم فأمعائهم، فتنحل قشرة البيوض وتخرج منها الأجنة التي تتسرب إلى الدم والبلغم، وتنتقل بهما إلى جميع أنحاء الجسم، وبخاصة إلى الكبد لأنه المصفاة الرئيسية في الجسم، ثم تنمو في العضو الذي تدخل إليه وتشكل كيسا مملوء بالأجنة الأبناء، و بسائل صاف كماء الينبوع، وقد يكبر الكيس حتى يصبح بحجم رأس الجنين، ويسمى المرض: داء (الكيس المائية) وتكون أعراضه على حسب العضو الذي تتبعض فيه، وأخطرها ماكان في الدماغ أو في عضلة القلب، ولم يكن له علاج سوى العملية الجراحية. وقد بيّن مجموعة من الأطباء مكان استقرار هذه الدودة من أجهزة الإنسان بعد وصولها إلى الجسم من طريق لعاب الكلب فذكروا أن الرئة تصاب بالدودة الأكينوكوكيّة (Echinococcosis)، فتؤدي الدودة الأكينوكوكيّة التي تستقر في الرئة، وأحيانا في الكبد وبعض الأعضاء الداخلية الأخرى إلى نشوء كيس مملوء بالسائل، ومحاط من الخارج بكبسولة من طبقتين، وقد يصل حجم الكيس أحيانا إلى حجم رأس الوليد، و يتطور المرض بشكل بطيء وتحتفظ الدودة الأكينوكوكيّة بالنمو داخل الكيس لعدة سنوات، ويتم انتقال العدوى إلى الإنسان من الكلاب. (ملخص للمحاضرة التي ألقاها الأستاذ نجيب بوحنيك بتصرف عن الأستاذ فراس نور الحق). أما الحديث الثالث فأشد إعجازاً وإدهاشاً.

الحديث عن بول الإبل

خفت لهجة العلمانيين الساخرة من حديث الذباب، وبدأوا فاصلا من السخرية الجديدة حول بول الإبل، فقد أصابتهم الكشوفات الحديثة وبراءات الاختراع حولها بمقتل، فعلا صراخهم بهيستيرية..

إنـه أمـر مخـالف تمامـا لمـا مضى، ومعاكس لـه في النتـائج، ممـا قد أصـاب هؤلاء بـالجنون، لكنـه أمـر يحـث العلمـاني الغربـي علـى المزيـد والمزيـد مـن اكتـشاف المجهول، والإبداع العلمي الذي لا يعرف التوقف. ففي هذا الحديث يأمر النبي صلى الله عليه وسلم لا بغسل الإناء من البول ولا بالتنزه منـه، إنـه علـى العكس من ذلك يصفه كدواء، لا للدهن أو الغسل به، بل يتقدم خطوات لا يتصورها بشر، إنـه يـأمر بشرب البول نفسه، فلقد أتاه أناس فملوا البقـاء فـي المدينـة لمرض أصـابهم، ربمـا كان هو الجوا وهو مرض الجوف، وربما بمرض آخر، فأرشـدهم إلـى التوجـه إلـى مرعى خاص بالدولة الإسلامية ترعى فيه إبل الصدقة، وهي إبل مخصصة للفقراء والمساكين والمستحقين للصدقة، تأكل مـن أعشاب البريـة وأمرهم بالشرب مـن أبوال الإبل وألبانـها.

يقول أنس بن مالك: (أن ناسـا اجتووا فـي المدينـة فـأمرهم النبـي صلـى الله عليـه وسلم أن يلحقوا براعيه، يعنـي الإبل فيشربوا من ألبانـها وأبوالهـا فلحقوا براعيـه فشربوا مـن ألبانـهـا وأبوالهـا حتـى صلحت أبدانـهم فقتلـوا الراعـي وسـاقوا الإبـل - البخـاري ٥ ــ ٢١٥٣) ورواة هذا الحديث هم رواة أحاديث كتابـة القرآن وحفظـه ورواة أسباب النزول.

هذه القصة تتحدث عن وصفة طبيـة لمرضـى اصفرت ألـوانهم، وانتفخت بطـونهم ووهنت أجسادهم. فالأقرب لعقل الإنسان أن تزيد تلك الوصفة من مرضهم، لا سيما والنبـي صلـى الله عليـه وسلم أمـر المسلمين إذا أكلـوا مـن لحـم الإبـل أن يعيـدوا الوضوء، ثم ما الفائدة من شرب بول بعير أو ناقة.

شيء مذهل قد يصيب أركون بـالجنون، وقد أصـاب مقلديهم فعلا، فهم كـالمختلين يطلقون كل عبـارات التنـدر والاستخفاف بعد معرفتهم لنتـائج البحوث العلميـة. أمـا العلـم الحـديث فلـه شـهادة يـدلي بهـا هنـا، وهـي عبـارة عن مجموعـة مـن البحـوث المخبريـة الحديثـة التـي أجريـت علـى بـول الإبـل، ونظرا لأن النبـي صلـى الله عليـه وسلم لم يصف البول وحده كدواء بل قرن معه اللبن، فسأختصر في تنـاول فوائـد لبن الإبل وهي كثيرة، لأن الإشكالية التـي تحرض العلمـاني العربـي علـى التكذيب والكفر بالنص النبوي هو ذكر البول هنا، وهي محك الإعجاز النبوي والدليل القاطع على أنه وحي. العلم الحديث يقول كلمته التي سأختصرها ما استطعت.

ففـــي مقالـــة فـــي جريـــدة الاتحـــاد العـــدد ٩٥١٥ بتـــاريخ ٢٠٠١/٢٤/٧ http://www..co.ae alittihad / تشير النتـائج الأوليـة للبحـوث التـي أجراهـا بعض الخبـراء والعلمـاء أن تركيب الأحمـاض الأمينيـة فـي حليب الابل، تشبه فـي تركيبهـا هرمـون الأنسولين، وان نسبة الدهن فـي لحـوم الإبـل قليلـة وتتـراوح بـين ١,٢ في المئة و ٢,٨ في المئـة، وتتميز دهون لحم الإبل بأنـها فقيرة بالأحمـاض الامينية المشبعة، ولهذا فان من مزايا لحوم الإبل أنـها تقلـل مـن الإصابة بـأمراض القلب عند الإنسان.

وفي مقالة أخرى توصل الباحث العلمي (أوهاج) إلى أن بول الإبل يشفي من طائفة من أمراض الجهاز الهضمي وعلى رأسها التهاب الكبد. يقول (أوهاج) فـي البحث:

إن التحاليل المخبرية تدل على أن بول الجمل يحتوي على تركيز عالي من (البوتاسيوم والبولينا والبروتينات الزلالية والأزمولارتي) وكميات قليلة من (حامض اليوريك والصوديوم والكرياتين)، وأوضح أن ما دعاه إلى تقصي خصائص البول البعيري العلاجية، هو أنه رأى أفراد قبيلة يشربون ذلك البول حينما يصابون باضطرابات هضمية، واستعان ببعض الأطباء لدراسة البول الإبلي، فأتوا بمجموعة من المرضى، وسقوهم ذلك البول لمدة شهرين، وكانت النتيجة أن معظمهم تخلصوا من الأمراض التي كانوا يعانون منها، كما ثبت علمياً أن بول الجمال مفيد إذا شربته على الريق، وقد توصل (أوهاج) إلى أن بول الجمال يمنع تساقط الشعر.

وفي دراسة علمية ومعملية شارك فيها مجموعة من أساتذة كلية زراعة جامعة الفاتح، أثبت العلماء أن حليب الإبل يحتوي على كمية فائقة من فيتامين (ج) بما يعادل ثلاثة أمثال مثيله من ألبان الأبقار، في حين تصل نسبة (الكازين) إلى ٧٠% من البروتين في ألبان الإبل، الأمر الذي يجعله سهل الهضم والامتصاص مقارنة بحليب الأبقار الذي تصل النسبة فيه إلى ٨٠%، وكشفت الدراسة أنه يمكن وصف حليب الإبل لمرضى الربو، والسكري، والدرن، والتهاب الكبد الوبائي، وقرح الجهاز الهضمي، والسرطان. لكن الدراسة العلمية كشفت عن مفاجأة أكبر، وهي احتواء ألبان الابل على نسبة عالية من المياه تتراوح بين ٨٤% و٩١% وهي نسبة غير موجودة في أي نوع من الألبان الأخرى، وقد تجلت قدرة الله تعالى في دور هرمون (البرولاكتين) في عملية دفع المياه في ضرع الناقة لتزيد كمية المياه في اللبن، ولوحظ أن هذه العملية تتم في الأبل وقت اشتداد الحر، والتي يحتاج فيها مولودها الرضيع لهذه الكمية من الماء، وكذلك الانسان العابر معها الصحراء الى كميات متزايدة من المياه ليطفىء ظمأه. وصدق الله العظيم إذ يقول (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت).

وأبرزت دراسة علمية أهمية ألبان الإبل كبديل غذائي مهم عن الفواكه الطازجة والخضراوات الورقية. ونظرا لغنى ألبان الإبل بالفيتامينات والمعادن اللازمة لسلامة صحة سكان البادية ، ويقول الدكتور "عبد العاطي كامل" رئيس بحوث الأبقار بمركز البحوث الزراعية التابع لوزارة الزراعة: إن ألبان الإبل تحتوي على كمية فائقة من فيتامين (سي)، وهو الأمر الذي يجعل لألبان الإبل أهمية عظيمة لسكان المناطق الصحراوية، التي لا توجد فيها الخضراوات الورقية الطازجة والفواكه.

كما كشف عميد كلية المختبرات الطبية بجامعة الجزيرة السودانية البروفسير "أحمد عبد الله أحمداني" عن تجربة علمية باستخدام (بول الإبل) لعلاج أمراض الاستسقاء وأورام الكبد أثبتت نجاحها لعلاج المرضى المصابين بتلك الأمراض.

وأضاف البروفسير "أحمداني" في ندوة نظمتها جامعة الجزيرة، أن التجربة بدأت بإعطاء كل مريض يوميا جرعة محسوبة من (بول الإبل) مخلوطا بلبنها حتى يكون مستساغا وبعد ١٥ يوما من بداية التجربة كانت النتيجة مدهشة للغاية، حيث

انخفضت بطون جميع أفراد العينة وعادت لوضعها الطبيعي، وشفوا تماما من الاستسقاء.
وذكر "أحمداني" أن تشخيصا لأكباد المرضى قبل بداية الدراسة قد جرى بالموجات الصوتية، وتم اكتشاف أن كبد ١٥ مريضا من ٢٥ تحتوي (شمعا) وبعضهم كان مصابا بتليف الكبد بسبب مرض البلهارسيا. واستطرد البروفسير قائلا: إن جميع المرضى استجابوا للعلاج باستخدام (بول الإبل) وبعض أفراد العينة من المرضى استمروا برغبتهم في شرب جرعات بول الإبل يوميا لمدة شهرين آخرين، وبعد نهاية تلك الفترة اثبت التشخيص شفاءهم جميعا من تليف الكبد.
وتحدث البروفسير "أحمداني" في محاضرته عن تجربة علاجية رائدة أخرى، لمعرفة أثر لبن الإبل على معدل السكر في الدم استغرقت سنة كاملة، وأثمرت الدراسة فيما بعد عن انخفاض نسبة السكر في المرضى بدرجة ملحوظة. وأشار إلى أنهم اختاروا في هذه التجربة عددا من المتبرعين المصابين بمرض السكر لإجراء التجربة العلمية، حيث قسم المتبرعين لفئتين، قدم فيها للفئة الأولى جرعة من لبن الإبل بمعدل نصف لتر يوميا، فيما حجبت عن الفئة الثانية. وشرح البروفسير "أحمداني" في ختام محاضرته حول الأعشاب الطبية والطب الشعبي الخواص العلاجية لبول ولبن الإبل وقال: إن بول الإبل يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم، ويحتوي أيضا على زلال ومغنسيوم، إذ أن الإبل لا تشرب في فصل الصيف سوى أربعة مرات فقط، ومرة واحدة في الشتاء، وهذا يجعلها تحتفظ بالماء في جسمها لاحتفاظه بمادة الصوديوم، حيث إن الصوديوم يجعلها لا تدر البول كثيرا، لانه يرجع الماء إلى الجسم. وأوضح البروفسير "أحمدانى" أن مرض الاستسقاء ينتج عن نقص في الزلال أو في البوتاسيوم، وبول الإبل غني بالاثنين معا. وأشار "أحمدانى" إلى استخدام بعض الشركات العالمية لبول الإبل في صناعة أنواع ممتازة من شامبو الشعر، وأن أفضل أنواع الإبل التي يمكن استخدام بولها في العلاج هي الإبل البكرية.
وكتبت الأستاذة "أمجاد محمود رضا" في (الوطن السعودية) تحت عنوان (ماء الإبل): أصبح ماء الإبل "موضة علمية" استثارت عقول الباحثين في السعودية أخيرا، وكانت الريادة في البحث والتحقيق للدكتورة "أحلام العوضي"، بالتعاون مع الدكتورة "ناهد هيكل" في كلية التربية للبنات، الأقسام العلمية بجدة، حيث استخدمتا بول الإبل للقضاء على فطر (A.niger) الذي يصيب الإنسان والنبات والحيوان، وكانت تلك هي نقطة البداية لـ"د.أحلام العوضي"- صاحبة ٣ اكتشافات علمية - بدأتها باختراع مرشح بسيط من قشرة البيضة، وواصلت بحوثها لتضيف أبعادا أخرى تشكل بها إضافات غير مسبوقة، تمثلت في اختراعين تقدمت بهما منذ عام ١٤١٩هـ لتنال عنهما براءة الاختراع من مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، وكانت إحدى هذه الإضافات استخدام بول الإبل في علاج الأمراض الجلدية، والأخرى مكافحة الأمراض بسلالات بكتيرية معزولة من بول الإبل.

كما أشرفت الدكتورة "العوضي" على بعض الرسائل العلمية امتداداً لاكتشافاتها - مثلما حدث مع طالبات الكلية – ومنهن: "عواطف الجديبي" و"منال قطان"
فبإشرافها على بحث لطالبة الماجستير "منال القطان" التي نجحت في تأكيد فعالية مستحضر تم إعداده من بول الإبل - وهو أول مضاد حيوي يُصنع بهذه الطريقة على مستوى العالم، وهو على حد قول الباحثة "القطان" قد جاء تحضيره في رسالة الماجستير بالطريقة التي تضمنتها براءة الاختراع للدكتورة "أحلام العوضي"، والتي تقدمت بها لمدينة لملك عبد العزيز للعلوم والتقنية منذ عام ١٤١٩هـ. ولهذا فهي تدين بالفضل للدكتورة "أحلام العوضي"، لإعطائها فرصة الانطلاق بما يحقق الإضافة ومما يجعلهما شريكتين في إثبات فعالية المستحضر الذي تم تصنيعه لأول مرة ومن ثم الحصول على أحقية بعد ترخيص من وزارة الصحة.
المعلومات المتوفرة تؤكد أن المستحضر سيكون زهيد السعر، الأمر الذي يجعله في متناول الجميع وبسؤالنا للباحثة "منال القطان" عن ذلك أفادت: بأن المستحضر يتميز بتعدد فعالياته العلاجية والتي لا توجد في سائر الأدوية المكتشفة، حيث تصل تكلفة الحد الأدنى لعبوته (٥) ريالات مقارنة بتكلفة المضادات الحيوية في هذه الدراسة التي تراوحت تكلفتها من (١١,٩٥) ريالا إلى (٧٢,٨٢) ريالا، أما تكلفة العلاج من إصابات الأظافر في المضادات الأخرى فتتراوح ما بين (٥٣٧,٩٠) إلى (٢٦٤٩,٨٠) دولار.
ومن ثم يتضح من خلال هذه المقارنة مدى ما سيساهم به المستحضر الجديد في العلاج، وخاصة الطبقات الفقيرة التي تعاني من انتشار الأمراض الفطرية.
وحول أهم ما أثبتته الدراسة أو الأطروحة العلمية تقول "القطان": بأن الرسالة تناقش لأول مرة تأثير مستحضر معد الإبل على بعض الفطريات المسببة للأمراض الجلدية، بالإضافة إلى تضمين الرسالة - في جزء منها- للعلاج التطبيقي لبعض الحالات المرضية الطبية المتداولة على ٣٩ متطوعا (رجال ونساء وأطفال) وأثبتت الدراسة بأن المستحضر يعد مضادا حيويا فعالا ضد البكتريا والفطريات والخمائر مجتمعة.
ومن مزايا المستحضر تقول د. (العوضي): بأنه غير مكلف وسهل التصنيع، ويعالج الأمراض الجلدية كالإكزيما والحساسية والجروح والحروق وحب الشباب، وإصابات الأظافر والسرطان والتهاب الكبد الوبائي، وحالات الاستسقاء بلا أضرار جانبية، لأن ماء الإبل في الأساس يُشرب فلا خوف منه ولا ضرر، ولا خوف من تخزينه في حال تعرضه لدرجات حرارة مرتفعة، هذه عوامل تزيد من فعاليته عكس المضادات التي تنتهي صلاحيتها بدرجة أكبر في حال تفاوت درجات الحرارة، ومن عظمة الخالق أن جعل نسبة الملوحة عالية مع انخفاض اليوريا في بول الإبل، ولو زادت لأفضت إلى التسمم، ولهذا جاءت كِلية الإبل مختلفة تماماً عن سائر المخلوقات، لكي تؤدي إلى غرض علاجي أراده الله لها. وأضافت: إن بول الإبل يحتوي على عدد من العوامل العلاجية كمضادات حيوية (البكتريا المتواجدة به

والملوحة واليوريا)، فالإبل يحتوي على جهاز مناعي مهيأ بقدرة عالية على محاربة الفطريات والبكتريا والفيروسات، وذلك عن طريق احتوائه على أجسام مضادة (IgG) .

وبسؤالنا عن سبب تسمية المستحضر "أ – وزرين"؟ أجابت د. "العوضي": بأن حرف "أ" يرمز إلى "أحلام العوضي" باعتبار المستحضر جزءاً من براءة اختراع تقدمت لنيلها منذ عام ١٤١٩ هـ، أما وزر فترمز إلى بول الإبل حيث يُطلق البدو على بول الإبل مسمى وزر، أما (ين) فتشير لمشتقات المضاد وانتقلنا إلى الحالات التي تم شفاؤها بالمستحضر.

ثم ذكرت صاحبة المقال نماذج للحالات التي تم شفاءها ومقابلات معها تحكي فيها أثر تناول بول الإبل في شفائها من أمراض خطيرة عانت منها.

وبالعودة إلى الباحثة منال قطان وسؤالها عن كيفية إقناعها للمتطوعين على استخدام هذا المستحضر المعد من بول الإبل أفادت: بأن ما ساهم في مداومة المتطوعين على العلاج هو شعورهم بالتحسن فعلاً، مما أجبر الجميع على المواصلة ومن ثم الوصول إلى نتائج جيدة ، كما أن هناك أكثر من ٢٠ حالة أخرى انضمت بعد البدء مع الدفعة الأولى من المتطوعين، وأغلبهم يعانون من بقع وبثور في الوجه وحالات كلف وهالات سوداء وقد قامت بمعاينة النتائج د. تولين العوضي أخصائية الأمراض الجلدية. ومما يلفت النظر أن أغلب المتطوعين قد انتابهم القلق لانتهاء الدراسة، ويسألون عن المستحضر ويطالبون بتقديم مزيد وهو أمر لا أستطيعه إلا بموجب ترخيص نحصل عليه من وزارة الصحة، بما يمكن من تداوله بين الناس طالما ثبتت فعاليته في العلاج. وللمزيد يرجى الرجوع إلى:
http://www.khayma.com/roqia

وفى رسالة الماجستير المقدمة من (مهندس) تكنولوجيا الكيمياء التطبيقية الباحث (أوهاج) والتي أجيزت من قسم الكيمياء التطبيقية بجامعة الجزيرة - السودان . واعتمدت من عمادة الشئون العلمية والدراسات العليا بالجامعة في نوفمبر ١٩٩٨.

عنوان الرسالة هو:

ASTUDY ON THE CHEMICAL COMPOSITION & SOME MEDICAL USES OF THE URINE OF THE ARABIAN CAMEL –

(دراسة في المكونات الكيميائية وبعض الاستخدامات الطبية لبول الأبل العربية)

خلصت الرسالة والتي أجريت فيها التطبيقات الطبية على ثلاثين مريضا يعانون من مرض الاستسقاء بمجموعة خلاصات أهمها:

١- أن بول الأبل ذا تركيز عالي OSMOLALITY مقارنة بأبوال الغنم والبقر وبول الإنسان، وهي على الترتيب المذكور .

٢- بول الأبل يعمل كمدر بطيء مقارنة بمادة الفيروسمايد FRUSAMIDE ولكن لا يخل بملح البوتاسيوم والأملاح الأخرى التي تؤثر فيها المدرات الأخرى، فبول الأبل يحتوى على نسبة عالية من البوتاسيوم والبروتينات.

٣- بول الإبل أثبت فعالية ضد بعض أنواع البكتيريا والفيروسات، وقد تحسن الـ٢٥ مريضا الذين استخدموا بول الأبل من الاستسقاء، مع عدم اضطراب نسبة البوتاسيوم وإثنان منهم شفوا من آلام الكبد، وتحسنت وظيفة الكبد إلى معدلها الطبيعي كما تحسن الشكل النسيجي للكبد.

ومن الأدوية التي تستخدم في علاج الجلطة الدموية مجموعة تسمى FIBRINOLYTICS تقوم آلية عمل هذه المجموعة على تحويل مادة في الجسم من صورتها الغير نشطة PLASMINOGEN إلى الصورة النشطة PLASMIN وذلك من أجل أن تتحلل المادة المسببة للتجلط FIBRIN أحد أعضاء هذه المجموعة هو UROKINASE الذي يستخرج من خلايا الكلى أو من البول كما يدل الإسم URO- البول في الإنجليزية URINE وخلاصة ما تقدَّم: نجد أن لبن البعير وبوله، كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم وأكَّدَ الطب الحديث أنه:

- أرق الألبان، وأكثرها مائية وحده، وأقلها غذاء وأقواها على تلطيف الفضول، وإطلاق البطن (أي فتح الشهية)، وتفتيح السدد، وأخص الألبان بتطرية الكبد وتفتيح سددها.

- تحتوى ألبان الإبل على نسبة من الفيتامينات والأملاح تصل إلى ثلاثة أضعاف ما في ألبان الأبقار ومرة ونصف ما في ألبان الأمهات من النساء، الأمر الذي يؤدي إلى سهولة هضمه وسرعة امتصاصه في جسم الإنسان. كبديل غذائي مهم عن الفواكه الطازجة والخضراوات الورقية

- يشفي أوجاع الكبد، وخاصة اليرقان وتليف الكبد يشفي من طائفة من أمراض الجهاز الهضمي وعلى رأسها التهاب الكبد الوبائي وتحليل صلابة الطحال إذا كان حديثا، وأورام الكبد. وعلاج سرطان الدم

- يُستخدم بول الإبل في علاج الجلطة الدموية

- يُستَخرج منه FIBRINOLYTICS والعلاج من الاستسقاء (ينتج عن نقص في الزلال أو في البوتاسيوم وبول الإبل غني بالاثنين معا)

- علاج لأوجاع البطن وخاصة المعدة والأمعاء وأمراض الربو وضيق التنفس، انخفاض نسبة السكر في المرضى بدرجة ملحوظة.

- يساعد على تنمية العظام عند الأطفال ويقوي عضلة القلب بالذات، كمادة مطهرة لغسل الجروح والقروح، وخاصة بول الناقة البكر ولنمو الشعر وتقويته وتكاثره ومنع تساقطه، وكذا لمعالجة مرض القرع والقشرة.

- ألبان النوق تحتوي على مواد تقاوم السموم والبكتريا، ونسبة كبيرة من الأجسام المناعية المقاومة للأمراض، خاصة للمولودين حديثاً. ويمكن وصف حليب الإبل لمرضى الربو، و السكري، والدرن، والتهاب الكبد الوبائي، وقرح الجهاز الهضمي، والسرطان.

- بول الإبل يحتوي على كمية كبيرة من البوتاسيوم ويحتوي أيضا على زلال ومغنسيوم وتحتفظ في جسمها بمادة الصوديوم، استخدام بعض الشركات العالمية

لبول الإبل في صناعة أنواع ممتازة من شامبو الشعر وأن أفضل أنواع الإبل التي يمكن استخدام بولها في العلاج هي الإبل البكرية.
- استخدام بول الإبل في مكافحة الأمراض بسلالات بكتيرية معزولة من هذا البول.
- يُستخدم بول الإبل فى علاج الأمراض الجلدية الآتية بلا أضرار جانبية: كالإكزيما والحساسية والجروح والحروق وحب الشباب وإصابات الأظافر والسرطان
- من عظمة الخالق أن جعل نسبة الملوحة عالية مع انخفاض اليوريا في بول الإبل، ولو زادت لأفضت إلى التسمم.
وأخيرا أود الإشارة إلى أن التلفزيون السعودي بث على إحدى قنواته برنامجا لثلاث من الأكاديميات السعوديات اللواتي قمن بدراسات مخبرية حصلن من خلالها على براءات اختراع حول بول الإبل، وقمن بتصنيعه على شكل دهونات (كريمات) أو حبوب (كبسولات)، وكنت أتمنى لو حصلت على تفصيلات من بحوثهن، ولكن لعل ذلك يكون في بحث آخر أو طبعة أخرى.

حديث نبوي أشد تحدياً وإعجازا حول السم والتمر

حديث ناسف لكل ما هو مألوف منذ وجد الإنسان على سطح الأرض، مذهل ومعجز للغاية، فيه يصف النبي محمد صلى الله عليه وسلم التمر ليس غذاء فقط، بل واقيا من أخطر ما عرف البشر طوال تاريخهم فيما يتعلق بصحتهم، لدرجة أنهم يطلقون اسمه كوصف لكل ما هو شديد الخطورة على الصحة، إنه "السم". حديث صحيح يرغم علماني يهودي، وعالم تجريبي على التخلي عن يهوديته واعتناق الإسلام.
النبي صلى الله عليه وسلم يقدم وصفة غذائية لمن يريد الوقاية من السم، سواءا كان سم حية أو عقرب. فيقول: (من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره سم حتى يمسي- صحيح مسلم ٣ – ١٦١٨)
حين يسمع العلماني العربي هذا الحديث الخطير سيقهقه ساخرا، ولسان حاله يقول: أتصل الجرأة بالإسلامويين الماضويين الظلاميين أن يتهوروا فيروون حديثا بمثل هذه الخطورة؟ السم القاتل..! ألهذه الدرجة وصل بهم الفكر الغيبي؟ ألهذه الدرجة يصل الفكر الوثوقي الماضوي بأصحابه؟
أما المسلمون فيؤمنون بهذا الحديث بعد أن خرج من مختبرات الجرح والتعديل حاملا شهادة (حديث صحيح) لكن ما رأي العلم الحديث في هذا الحديث الخطير للغاية.
بحوث الكيميائي الشهير الدكتور "عبد الباسط السيد" تحدثنا عما وصل العلم الحديث إليه، حيث ثبت بالدليل العلمي أن هناك إنزيماً يرتفع أداؤه في حالة التسمم، وعندما يتم تناول سبع تمرات لمدة شهر يومياً، نلاحظ أن هذا الإنزيم قد بدأ في الهبوط والعودة لوضعه الطبيعي، وهذا من الإعجاز الإلهي الذي خُصّ به النبي.
وقد بحث العلماء في جامعة الملك عبدالعزيز وجامعة القاهرة وتوصلوا لنفس النتائج، من أن العمال الذين يعملون بالمناجم وبالرصاص وبالمواد السامة، أي الأكثر عرضة للسموم، عندما يتناولون سبع تمرات يومياً يتوقف تأثير المواد

السامة تماماً، ومن الظواهر التي أثبتها العلم الحديث المتعلقة بسبع تمرات: ظاهرة التليباثي أو الاستجلاء البصري أو الاستجلاء السمعي أو ما يطلقون عليه (التخاطر عن بعد) للمهتمين بمواضيع (البراسيكولوجي).

وهذا ما نشره العالم اليهودي (اندريا ويل) (الذي أعلن إسلامه بعد ذلك) في بحثه تحت عنوان "سبع تمرات كافية"، الذي أثبت فيه أن سبع تمرات تعد علاجاً للتسمم ونصح جميع العاملين المعرضين للتسمم بتناولها يومياً، وهذا ما يثبته حديث النبي صلى الله عليه وسلم السابق، وتشير إليه الآية القرآنية التي تقول: (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلي واشربي وقري عينا)، وهذا ما أيده العالم اندريا ويل في كتابه (الصحة المثلى) واستشهد فيه بأحاديث النبي عن التمر وفوائده العظيمة للصحة وللإنسان وكيفية الوقاية من الأمراض.

وللفائدة تراجع مقابلة الأستاذ أحمد منصور مع د. "عبد الباسط محمد سيد": في برنامج (بلا حدود) في قناة (الجزيرة)، وموقع الدكتور عبد الباسط على الإنترنت.

أما ما سيثير جنون أركون وأمثاله، فهو "قصة تحول العلماني اليهودي التجريبي (أندريا ويل)" هذا العالم التجريبي كان مصاباً بالسرطان، وقد شفاه الله منه بسبب آيات وأحاديث تتحدث زيت الزيتون، فأعلن إسلامه وتخصص في دراسة هذا الزيت، فخرج بنتائج علمية قد تصيب أركون ومقلده بجلطة دماغية.

النوم على الجنب الأيمن

كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه أحد صحابته واسمه البراء بن عازب إلى الطريقة المثلى للنوم فيقول له: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به. قال: فرددتها على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت قلت: ورسولك. قال: لا، ونبيك الذي أرسلت – البخاري ١ – ٩٧) وبالطبع تلقى هذه الأحاديث نصيبها من سخرية العلمانيين العرب كاستخدام اليد اليمنى، والسواك والوضوء، لكنها تستحث العلماني الغربي على إجراء البحوث والمزيد من الكشف للتحقق. هذا الحديث أحد ما استطاع العلم عن كشف حقائق يزخر بها، لا سيما والنوم ممارسة يومية لا يأبه الجهلة كيف يمارسونها. تقول موسوعة الإعجاز العلمي – بتصرف – : إن الاستلقاء أو الاضطجاع على الفراش يمكن أن يكون على البطن أو على الظهر أو على أحد الشقين الأيمن أو الأيسر فما هي الوضعية الأمثل من أجل عمل الأعضاء ؟

يقول د.ظافر العطار: ("اضطجع على شقك الأيمن" مجلة طبيبك ك ١ـ ١٩٦٨):

حين ينام الشخص على بطنه يشعر بعد مدة بضيق في التنفس، لأن ثقل كتلة الظهر العظمية تمنع الصدر من التمدد والتقلص عند الشهيق والزفير، كما أن هذه الوضعية تؤدي إلى انثناء اضطراري في الفقرات الرقبية. كما أن الأزمة التنفسية

الناجمة تتعب القلب والدماغ. ولاحظ باحث أسترالي ارتفاع نسبة موت الأطفال المفاجيء إلى ثلاثة أضعاف عندما ينامون على بطونهم، نسبة إلى الأطفال الذين ينامون على أحد الجانبين. كما نشرت مجلة التايم دراسة بريطانية مشابهة، تؤكد ارتفاع نسبة الموت المفاجيء عند الأطفال الذين ينامون على بطونهم. ومن المعجز حقاً توافق هذه الدراسات الحديثة مع ما نهى عنه معلم الخير سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم رجلاً مضطجعاً على بطنه فقال إن هذه ضجعة يبغضها الله و رسوله ـ رواه الترمذي).

أما النوم على الظهر، فيسبب كما يرى الدكتور العطار التنفس الفموي، لأن الفم ينفتح عند الاستلقاء على الظهر لاسترخاء الفك السفلي. لكن الأنف هو المهيأ للتنفس لما فيه من أشعر ومخاط لتنقية الهواء الداخل، ولغزارة أوعيته الدموية المهيأة لتسخين الهواء. وهكذا فالتنفس من الفم يعرض صاحبه لكثرة الإصابة بنزلات البرد والزكام في الشتاء، كما يسبب جفاف اللثة ومن ثم إلى التهابها الجفافي، كما أنه يثير حالات كامنة من فرط التصنع أو الضخامة اللثوية. وفي هذه الوضعية أيضاً فإن شراع الحنك واللهاة يعارضان فرجان الخيشوم، ويعيقان مجرى التنفس فيكثر الغطيط والشخير، كما يستيقظ المتنفس من فمه ولسانه مغطى بطبقة بيضاء غير اعتيادية. كما أنها تضغط على ما دونها عند الإناث فتكون مزعجة كذلك، وهذه الوضعية غير مناسبة للعمود الفقري لأنه ليس مستقيماً، كما يحوي على انثناءين رقبي وقطني، كما تؤدي عند الأطفال إلى تفلطح الرأس إذا اعتادها لفترة طويلة.

أما النوم على الشق الأيسر فهو غير مقبول أيضاً، لأن القلب حينئذ يقع تحت ضغط الرئة اليمنى، والتي هي أكبر من اليسرى مما يؤثر في وظيفته ويقلل نشاطه وخاصة عند المسنين. كما تضغط المعدة الممتلئة عليه فتزيد الضغط على القلب والكبد الذي هو أثقل الأحشاء لا يمكن ثابتاً بل معلقاً بأربطة و هو موجود على الجانب الأيمن فيضغط على القلب و على المعدة مما يؤخر إفراغها.

فقد أثبتت التجارب التي أجراها (غالتيه وبوتسيه) أن مرور الطعام من المعدة إلى الأمعاء يتم في فترة تتراوح بين ٢،٥ ـ٤،٥ ساعة إذا كان النائم على الجانب الأيمن، ولا يتم ذلك إلا في ٥ ـ ٨ ساعات إذا كان على جنبه الأيسر. فالنوم على الشق الأيمن هو الوضع الصحيح، لأن الرئة اليسرى أصغر من اليمنى فيكون القلب أخف حملاً، وتكون الكبد مستقرة لا معلقة، والمعدة جاثمة فوقها بكل راحتها، وهذا كما رأينا أسهل لإفراغ ما بداخلها من طعام بعد هضمه ... كما يعتبر النوم على الجانب الأيمن من أروع الإجراءات الطبية التي تسهل وظيفة القصبات الرئوية اليسرى في سرعة طرحها لإفرازاتها المخاطية، هكذا ينقل الدكتور الراوي و يضيف قائلاً : إن سبب حصول توسع القصبات للرئة اليسرى دون اليمنى هو لأن قصبات الرئة اليمنى تتدرج في الارتفاع إلى الأعلى، حيث أنها مائلة قليلاً مما يسهل طرحها لمفرزاتها بواسطة الأهداب القصبية، أما قصبات الرئة اليسرى فإنها

عمودية مما يصعب معه طرح المفرزات إلى الأعلى، فتتراكم تلك المفرزات في الفص السفلي مؤدية إلى توسع القصبات فيه، والتي من أعراضها كثرة طرح البلغم صباحاً، هذا المرض قد يترقى مؤدياً إلى نتائج وخيمة كالإصابة بخراج الرئة والداء الكلوي، وإن من أحدث علاجات هؤلاء المرضى هو النوم على الشق الأيمن. وللمزيد يرجع لـ : روائع الطب الإسلامي ص ٤ الدكتور محمد نزار الدقر والمجلة الطبية العربية: أوضاع النوم الخاطئة العدد ١٩٦ لعام ١٩٩٣، وفن الصحة والطب الوقائي تأليف د . أحمد حمدي الخياط جامعة دمشق.

عظم لا يموت

حديث آخر لكنه لا يتحدث عن الصحة الجسدية، بل عن خلق الإنسان وإعادة خلقه مرة أخرى يوم القيامة، وكأنه أحد الشواهد الإعجازية على البعث بعد الموت. هذا الحديث يتناول عضوا من أعضاء الإنسان يدعى (عجب الذنب)، حيث روى البخاري ٤ – ١٨١٣ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت. قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: أربعون شهرا؟ قال: أبيت. ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق)

وروى مسلم ٤ – ٢٢٧٠ عن أبي هريرة: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب)

يحدثنا عن ذلك عالم تجريبي كبير متخصص هو الأستاذ الدكتور "محمد علي البار" فيقول: لقد أوضحت أحاديث المصطفي صلى الله عليه وسلم قضايا كثيرة في جسم الإنسان، وفيما سواه من الأمور التي لم يكشف عنها اللثام إلا في الآونة الأخيرة، كما لا يزال بعضها يحتاج إلى المزيد من التقدم في العلوم الكونية، حتى تتضح كل أبعاد حقائقها الرائعة البعيدة الغور الصعبة المنال مصداقاً لقول الله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ـ فصلت ٥٣}. ومن جملة هذه الأحاديث تلك الأحاديث المتعلقة بعجب الذنب، والتي أوضحت أن جسم الإنسان كله يركب منه عند تكوين الجنين، كما أن ما يبقي منه في التراب هو الذي يعاد تركيبه يوم القيامة بأمر الله تعالي.

أوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولى (Primitive Streak) حيث إن هذا الشريط الأولى هو الذي يتكون إثر ظهوره الجنين بكافة طبقاته، وخاصة الجهاز العصبي، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقي منه إلا أثر فيما يسمي عظم العصعصي (عجب الذنب):

تكوين الشريط الأولى

بعد أن تعلق الكرة الجرثومية (الأريمة) (جرثومة الشيء أصله، وكذلك أرومته أي أصله)، وهذه الكرة الجرثومية تتكون من النطفة الأمشاج (الزيجوت) بعد أن يلقح الحيوان المنوي البيضة، ثم يبدأ في الانقسامات المتتالية حتى تصبح مثل التوتة، وهي مصمتة من الداخل، ثم تصبح مثل الكرة حيث يتكون بداخلها سائل ويصير لها

جوف، ولهذا تدعي الكرة الجرثومية، أو الأريمة (تصغيرا) ثم تعلق بجدار الرحم في اليوم السابع أو السادس منذ التلقيح (Blastula) في الرحم تنغرز فيه ثم تتمايز إلى كتلتين من الخلايا هما:

أ- الكتلة الخارجية: وهي تحتوي على الخلايا الأكلة (Cytotrophoblasts) التي تقضم جدار الرحم وتثبت الكرة الجرثومية فيه، كما أنها تسمح بتغذية الكرة الجرثومية مما يتكون حولها من الدماء والإفرازات الموجودة في غدد الرحم.

ب - الكتلة الداخلية: التي منها يتكون الجنين بإذن الله تعالى، وهذه بدروها تنقسم إلى ورقتين:

١- خارجية وتدعي الاكتودرم (Ectoderm)

٢- داخلية تدعي الانتودرم (Ectoderm)

وتظهر طبقة الانتوردم الداخلية في اليوم الثامن منذ التلقيح، ويظهر شق صغير أعلى الطبقة الاكتودرمية الخارجية مكوناً بداية تجويف الأمينون (السلي، ويكون سقف تجويف السلي من الخلايا الأكلة بينما قاعدته من خلايا الاكتودرم.

وفي اليوم التاسع يمتد من خلايا الطبقة بخلايا " الانتودرم " شريط من الخلايا ويتصل بخلايا الميزودم الخارجية Extra Embryonic Mesoderm مكوناً كيس المخ الأولى primary Yolk Sac.

وفي اليوم الثالث عشر تنمو من الخلايا الآكلة الخارجية Cytotrophoblasts نتوءات تعرف بحملات الغشاء المشيمي Chorionic Villi التي تثبت كيس الجنين بالرحم، ثم تتفرع بعد ذلك مثل فروع الشجرة. كما تنمو الخلايا الانتودرم الداخلية مكونة كيس المخ الثاني والذي يصغر الكيس الأولى بكثير.

وفي نهاية الأسبوع الثاني يكون الجنين ممثلاً بقرصين متلاحقين:

١- القرص الخارجي (الاكتودرم) ويكون قاع تجويف الأمنيون.

٢- القرص الداخلي (الانتودرم) الذي يكون سقف تجويف كيس المخ.

ويلتصق القرصان في الجزء الأمامي أو ما سيعرف لاحقاً بجهة الرأس Cephalic Portion نتيجة ثخانة خلايا الانتودرم، وتعرف هذه المنطقة باسم الصفيحة سالفة القلب Prochordal Plate، وكذلك يلتصق القرصان في المنطقة المؤخرية (الذيلية) Caudal Portion مكونة صفيحة المزرق مستقبلاً Cloacal Plate.

وفي اليوم الرابع عشر يستطيل القرصان حتى يأخذا شكل الكمثري، فيكون الجزء العريض هو الجزء الأمامي، بينما يدق الجزء المؤخري، وتنشط خلايا الاكتودرم في الجزء المؤخري مكونة الشريط الأولي Primitive Streak الذي يظهر لأول مرة في اليوم الخامس عشر منذ بدء التلقيح. ويظهر انقسام سريع ونمو متكاثر في الشريط الأولى، وتهاجر الخلايا يمنه ويسرة بين طبقة الاكتودرم الخارجية وطبقة الانتوردم الداخلية، مكونة طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة (الميزودم) Mesoderm. ونتيجة لظهور الشريط الأولى يبدأ تكون الجهاز العصبي والنوتوكورد (سالفة العمود الفقري) كما تتكون الطبقة المتوسطة (الميزودرم)

ويشهد الجنين بداية تكوين الأعضاء، أما عند غياب أو عدم تكون الشريط الأولى فإن هذه الأعضاء لا تتكون، وبالتالي لا يتحول القرص الجنيني البدائي إلى مرحلة تكون الأعضاء بما فيها الجهاز العصبي.

ولأهمية هذا الشريط الأولى فقد جعلته لجنة وارنك البريطانية (المختصة بالتلقيح الإنساني والأجنة) العلامة الفاصلة بين الوقت الذي يسمح فيه للأطباء والباحثين بإجراء التجارب على الأجنة المبكرة الناتجة عن فائض التلقيح الصناعي في الأنابيب (الأطباق)، فقد سمحت اللجنة بإجراء هذه التجارب قبل ظهور الشريط الأولى ومنعته منعاً باتاً بعد ظهوره على اعتبار أن ظهور هذا الشريط يعقبة البدايات الأولى للجهاز العصبي. وعند ظهور الشريط الأولى ونتيجة نشاطه الجم الغزير يظهر الآتي:

١- النوتوكورد (أو الحبل الظهري أو سالفة العمود الفقري) ويمتد إلى جهة الرأس من العقدة الأولية Primitive node والتي تعرف أيضاً بعقدة هانسن.

٢- يتحول القرص الجنيني المستدير بظهور الشريط الأولى إلى شكل كمثري، بحيث يمكن تمييز طرفيه، ويدعي الطرف العريض الجهة الرأسية.. والطرف الدقيق الجهة الذيلية أو الذنبية.

٣- تظهر بداية الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية (الاكتودرم) في نهاية الأسبوع الثالث (٢٠-٢١ يوماً) مكونة الصفيحة العصبية Neural Plate التي تمتد من جهة الرأي إلى الشريط الأولى وتستطيل هذه الصفيحة وتنثني مكونة الانثناء أو الالتفاف العصبيNeural Folds، وتكون الجهة المنخفضة ما يعرف باسم الميزاب العصبي Neural groove. وسرعان ما يتلف هذا الميزاب ليقفل مكوناً أنبوبة تدعي الأنبوبة العصبية Neural tube، وتكون فتحة هذا الأنبوب في طرفية: الرأسي والذيلي. وتدعي الفتحة الرأسية: الفتحة الأمامية العصبية Anterior Neural Pore أو الفتحة المنقارية Rostral Neuro Pore.. وتقفل الفتحة العصبية الأمامية في اليوم الخامس والعشرين بينما تقفل الفتحة الخلفية في اليوم السابع والعشرين. وبهذا يقفل الأنبوب العصبي، ويشكل أغلبية الأنبوب الدماغ بينما يشكل الجزء الأخير (الذنبي) النخاع الشوكي. وفي الوقت الذي يقفل فيه الأنبوب العصبي تظهر الصفيحة السمعية Otic Placode والصفيحة العدية Lens Placode. ويتكون الدماغ في الثلثين العلويين للأنبوب العصبي بينما يتكون النخاع الشوكي في الثلث الأسفل وذلك من مستوي الكتلة (الرابعة – الخامسة). حيث إن الكتل البدنية Somirtes الأربع الأولى تكون جزءاً من قاع الجمجمة.

٤- تتكون طبقة الميزودرم التي تتكثف حول المحور الجنيني مكونة الكتل البدنية Somites والتي تشكل العمود الفقري والعضلات، كما يخرج منها بدايات الأطراف العليا والسفلي.. وهي التي تكون الجهاز الهيكلي والعضلي. وتنقسم طبقة الميزودرم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الميزودرم بجانب المحور وهو الجزء الملامس لمحور الجنين، حيث الحبل الظهري والميزاب العصبي، ومنه تتكون الكتل البدنية Somites والتي تكون أبرز ما في الجنين فيما بين الأسبوع الثالث إلى الخامس، ومنها يتكون الجهاز الهيكلي والعضلي كما يبرز من تلك الكتل البدنية الطرف العلوي والطرف السفلي.

القسم الثاني: وهو الجزء المتوسط من هذه الطبقة ويعرف بالميزودرم المتوسط Intermediate Mesoderm، ومنها يخلق الله سبحانه وتعالى الجهاز البولي والتناسلي.

القسم الثالث: وهو الميزودرم الحشوي Lateal Mesoderm وينقسم هذا أيضاً إلى قسمين جداري وحشوي وبينهما تجويف يعرف بالتجويف الجنيني الداخلي Intra Embryonic Ceolom ويخلق الله سبحانه وتعالى منه أغشية البيرتون والبلورا والتمور (غشاء البطن الداخلي وغشاء الرئتين وغشاء القلب على التوالي) كما يخلق الله سبحانه وتعالى الأوعية الدموية والقلب وعضلات الجهاز الهضمي من القسم الحشوي. وهكذا فإن تكون الشريط الأولى علامة هامة على بداية تمايز أنسجة الجنين، وتكون الطبقات المختلفة ومنها الأعضاء، والواقع أن ما يعرف بمرحلة تكون الأعضاء Organogenesis لا تبدأ إلا بعد تكون الشريط الأولى والميزاب العصبي والكتل البدنية، وتستمر من بداية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن، بحيث يكون الجنين في نهاية هذه الفترة قد استكمل وجود جميع الأجهزة الأساسية فيه، وتكونت أعضاؤه ولم يبق إلا التفصيلات الدقيقة والنمو. ثم يقول د. البار:

إن الشريط الأولى كما أسلفنا ذو أهمية بالغة لأن نشاطه الجم يؤدي إلى تكون النوتوكورد (سالفة العمود الفقري)، وإلى تكون الطبقة المتوسطة الداخلية (الميزودرم Mesoderm) التي يكاد ينتهي الشريط الأولى من مهمته تلك في الأسبوع الرابع حتى يبدأ في الاندثار ويبقي كامنا في المنطقة العجزية – العصعصية – في الجنين ثم في المولود، ويندثر ما عدا ذلك الأثر الضئيل الذي لا يري بالعين المجردة. وقد أشار المصطفي صلى الله عليه وسلم أنه لا يبقي من الإنسان إلا عجب الذنب، فإذا أراد الله بعث الأجساد أنزل عليها مطرا من السماء كمني الرجال فينبت الإنسان من بقايا ذلك الشريط الأولى الكامن في عجب الذنب (المنطقة العصعصية). ثم يلخص الدكتور البار ما مضى بقوله تحت عنوان:

الخلاصة

إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته صلى الله عليه وسلم. فقد أوضح علم الأجنة الحديث أن الإنسان يتكون وينشأ من عجب الذنب، هذا الذي (يدعونه الشريط الأولى Primitive Streak)، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام والتخصص والتمايز، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله)، ويندثر هذا الشريط

الأولى إلا جزءاً يسيراً منه يبقي في المنطقة العصعصية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصعص)، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة، كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. وللمزيد تراجع دراسات أد/ "مصطفى عبد المنعم" أستاذ علم الأجنة والتشريح ـ كلية الطب ـ جامعة طيبة المنشورة في موقع موسوعة الإعجاز، والمدعم بالصور والأشكال التوضيحية المدهشة.

وبعد فالأحاديث التي كشف العلم الحديث عن إعجازها، والتي لا يمكن لبشر أن يأتي بها في تلك الظروف التي عاشها النبي محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا، وهي موجودة في مؤلفات علماء غربيين وعرب مسلمين وغير مسلمين، وموجودة بالتفصيل في مواقع الإعجاز العلمي للقرآن والسنة وهي عديدة.

تلك نماذج قليلة جداً مما قدمه القرآن وقدمته السنة كانت كافية بالنسبة للعلماني الغربي للحكم عليه بالصحة والصدق، وأنها وحي يوحى، وليست أعمالا تاريخية، أو أساطير شعبية، أو حتى نقلا عن أساطير الأولين كما يقول أبو جهل وأمية بن خلف وسنوك وأركون. تلك المعلومات تأتي في هذا الزمان كشاهد قطعي للقرآن في زمن للعلم فيه الكلمة الأولى، وللبلدان فيه تصنيف حسب اقترابها من العلم، فتكون بلدان متقدمة، أو متخلفة، فتكون من دول العالم الثالث أو العاشر، لكن المعلومة في القرآن لا تأتي كشاهد لصحة القرآن فقط، هناك أهداف أخرى لا تقل أهمية،أهداف أخرى للمعلومة القرآنية..

حديث القرآن عن البحار والجبال والأجنة حديث جديد، ولا يزال جديداً حتى اليوم، إنه لا يهدف إلى تقديم المعلومة فقط، بل لخلق إنسان جديد، إنسان مختلف.. مكتشف للمعلومة.. مجرب وباحث ومتوغل دون وجل في المجهول، فمنذ نزول القرآن وهو يزيح المخاوف من الكون شيئا فشيئا، ومنذ نزول القرآن وهو يزيد في طاقة الإنسان شيئا فشيئا، حتى حول هذا الخائف من الحجر والشجر والبوم والغربان والغيلان إلى سيد للجميع، القرآن سخر الكون كله للإنسان، وشحن المسلم بطاقة البحث عن المجهول، وقدم للإنسان معالم في طريقه، وفنارات تستحثه الإبحار والاكتشاف، فماذا بقي سوى الحركة في أفق القرآن اللا نهائي.

القرآن يقدم المعلومة محفزة ودافعة للإنسان نحو مزيد من العمل والإيمان معا، لذلك تتهادى المعلومات الكونية في القرآن ندية وجذابة، بعيدة عن الجفاف والبرودة، يقدمها صحيحة مستفزة، وما على الإنسان سوى اكتشافها بالتجربة العلمية الدقيقة، يقدمها ضمن سياق إيماني حار.. سياق متدفق يشتمل على الحديث عن أشياء من عالم الغيب وعالم الشهادة وأشياء الإيمان والإسلام، بحيث تبدوا تلك الأشياء وكأنها تضيء تلك المعلومة وتكشف عن مكامنها، لتأتي المعلومة بعد اكتشافها وثيقة تجريبية كالشمس، على صحة ما جاء من أشياء الإيمان وأحكامه، لتمارس عملية تغيير العقل العربي.

وكما كانت المعجزة اللغوية الأبرز في عصر النقاء اللغوي، تأتي المعلومة في القرآن معجزة ضمن معجزات، لكنها الأبرز في هذا العصر (عصر العلم). لا يقدمها

القرآن باردة منفصلة كما تنتجها المعامل والمختبرات، بل تأتي ضمن سياقات كثيرة، وكأنها لا تأتي لذاتها بل لأهداف أبعد، وغايات أسمى، إنها ترحل بمكتشفها نحو جهات أخرى وعوالم أخرى، لتبدأ عملية من التغيير في عقله وفكره وسلوكه، فالمعلومة التي أيدتها الكشوفات الحديثة وشهدت لها تأتي في سياقات عديدة منها:

- إثبات الإيمان بالله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحبة وليس كمثله شيء.
- إثبات الإيمان بالملائكة.
- إثبات الإيمان بالكتب السماوية وتصحيح ما حرف منها.
- إثبات الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب.
- إثبات الإيمان بالجنة والنار.
- إثبات الإيمان بالقدر.
- إثبات عدالة وتوثيق الصحابة رضي الله عنهم.

المعلومة تربط الإنسان بخالقه ورازقه وواهبه مواهبه، يقدمها القرآن لا لذاتها، فهو ليس كتابا في علوم الطبيعة، ولكن يقدمها لمحات تفجر طاقات المستمع الروحية والذهنية والسلوكية، وتحفزه نحو مزيد من الإيمان الواعي، وإلى مزيد من البحث والتنقيب في هذا العالم والكون المحيط به، وإلى مزيد من الارتقاء السلوكي والروحي والمادي معا دون تناقض، دون صراع خلقته النصوص المزيفة مع العلمانية الحائرة، ولعل من أسرار القرآن وإعجازه ذلك التداخل المذهل بين الفكرة والمعلومة والإيحاء، والتي يقدمها القرآن في سياق واحد، سياق يجعل من الباحث التجريبي الجاد أكثر إيماناً، ومن المؤمن أكثر بحثاً، فالمعلومة تبرهن على الفكرة وتجعلها أكثر قبولا، والفكرة تجعل المعلومة والبحث عنها جزءاً من الإسلام والإيمان، كما أن المعلومة المقدمة في القرآن ضمن سياق تاريخي ينفي عنها سمة الخرافة التي تسبب الكتاب المقدس في جعلها تهمة للكتب السماوية، والتي تلقفها المفكرون العرب بسطحية وأصروا – دون بحث – على إلصاقها بالقرآن، ليأتي النفي موثقا على يد العلماني الغربي، فمفكرون سطحيون ومؤدلجون أمثال أركون والعظم لا يترفعون عن توظيف الأدب وقلة الأدب في مهاجمة النص الإسلامي والدين الإسلامي، محاولين إضفاء سمة العلم على مقالات إنشائية، وإلا فبم يفسر قول العظم السابق وبم تفسر افتراءات أركون ومترجمه وأدونيس وغيرهم وغيرهم. أما تلك النماذج القليلة التي سقتها من الحقائق الكثيرة جداً حول النص القرآني والنبوي، فلا يمكن مقارنتها على الإطلاق بنصوص الكتاب المقدس حسب قول العلماني الغربي التجريبي، وحسب نتائج العلم التجريبي الدقيقة، كما لا يمكن مقارنتها على الإطلاق بنكات وتندرات وسخريات العلماني العربي المدفوعة بمواقف غير علمية، ولا حتى أخلاقية تجاه القرآن والسنة لأسباب منها:

- أن العلماني العربي ليس تجريبيا في دراساته تلك ونتائجه ولا حتى وتخصصاته.
- من كان من العلمانيين العرب تجريبيا – طبيب مثلا – تجده يهرب من تخصصه إلى الساحة الأدبية غير المنضبطة والمكتنزة بالمواقف والعواطف في خصومته مع

النص، حيث ينتقي منها ما شاء، بعد أن لم يسعفه تخصصه التجريبي بشيء نافع، كما هي حال السعداوي التي تثير مقولاتها الشفقة.
- العلماني العربي صاحب أحكام سريعة وجاهزة، ومقلد من الدرجة الأولى، ومتهور في إطلاق أحكامه كما فعل أركون والعظم وطه حسين في أحكامهم الجاهزة على القرآن.
- العلماني العربي لا يعرف شيئا عن الكتاب المقدس أيضا، فهو يردد مقولات العلماني الغربي دون وعي.
- العلماني العربي – في الوقت ذاته – يخشى من تناول الكتاب المقدس، ويتهرب من فعل ذلك حتى لا يتعرض موقعه الأكاديمي في جامعات الغرب للغضب كما هو حال أركون وأبو زيد.
- العلماني العربي لا يعرف شيئا عن الكشوفات الحديثة المؤيدة للنص الإسلامي، والتي أرغمت مكتشفيها الغربيين لا على الاعتراف بإعجاز النص فقط وإلهيته، بل على اعتناق الإسلام.
- العلماني العربي لا يكتفي بالجهل، بل يواصل تركيب العناد على الجهل، ونظرة لمواقع العلمانيين العرب الالكترونية عبر شبكات الإنترنت وهي التي تفصح عن حقيقة مواقفهم من النص الإسلامي، تلك المواقف التي يخشون من إبدائها علنا، إطلالة واحدة على تلك المواقع تفصح عن كمية الأحقاد السوداء، والجهل المتراكم والعداء الغبي والتكذيب الوقح لكل كشف علمي حتى ولو كان مكتشفه غربي، وحتى لو اعتنق المكتشف الغربي الإسلام، كما بلغت الوقاحة بأركون حد تسفيه هذه الكشوفات العلمية ووصفها بالتلاعبات، ما يكشف حقيقته وهي التهرب من إجراء مقارنة بين النص الإسلامي واليهودي والمسيحي، أما التطرف فهو في رفض المقارنة تحت ذريعة عدم وجود دراسات سابقة، وهو عذر أقبح من فعل، وجهل مركب مخجل، كما صرح أركون تماما في برنامج (الكتاب خير جليس) عندما صرح – بسذاجة وسطحية – عن عدم وجود دراسات علمية مقارنة للديانات، وهو تهرب مفضوح، وموقف متحيز.

متى بدأ تغيير وإعادة خلق العقل العربي

من هذه النقطة بدأ تغيير العقل العربي وإعادة تشكيله، بالقرآن وبالسنة تم إنجاز ذلك، بالمعلومة القرآنية الجديدة، فقبلهما لم يكن هناك من عقل عربي، كان هناك جاهلية أمية كل إنجازاتها سبع مطويات شعرية. وحالما نزل الوحي (القرآن والسنة) بدأ صهر العرب الوثنيين وغير العرب لإعادة تشكيلهم من جديد، من الأعماق لا من السطح، من الداخل لا من الخارج، حيث تخلوا عن كل القيم والعقائد الوثنية المتخلفة والزائفة، كما تخلى الكثير من أتباع الديانات السماوية عن معتقداتهم، ليحل بدلا منها ما يهبط من جديد الوحي، بدأ تشكيل الإنسان بالعلم، بـ(إقرأ). لتتحول الأمة الأمية إلى أمة مثقفة بالنص، تقرأ العالم قراءة مناقضة لقراءة الماضين والأسلاف والنمطي والسائد.

وهذا ما جعل أركون يتجه نحو القرآن والسنة لمهاجمتها، لأنه يدرك أنه بمهاجمتها والتشويش عليها تنهار تداعياتها الضخمة.. تداعياتها الفكرية والعقائدية والسلوكية والسياسية، أي أنه سينجح في إعادة تشكيل العقل الإسلامي والعربي من جديد، وما لم تتم إزاحة القرآن ونزع صفة الوحي عنه فلن يتم له ذلك، وهذا ما يدعو إليه البابا الجديد، وهذا ما فشل أركون في تحقيقه، لأن هدفه لم يكن كهدف العلماني الغربي "البحث عن الحقيقة مهما كانت مخالفة لإيديلوجيته". هدف أركون هدفٌ إيديلوجي تدميري تشكيكي بحت، وهو هدف مدمر للذات عندما يصدم بحقائق العلم، وهو أيضا ما جعل من أركون أضحوكة، ودراساته أشبه بالعدائية الهستيرية التي لا تحمل أي قدر مقبول من الموضوعية، فلم تسعفه تلك المصطلحات التي أراد بها إدخال الرعب على قرائه.

النص القرآني - على عكس ما يشوش العلماني العربي – فرض العلم فرضا، فالمسلم يؤمن بالعلم: (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك).

ويتدين ويتعبد على علم (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، لا على ما يرثه من عادات كما يقول الوثنيون والمقلدون للعادات والمجترون للتقاليد: (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)، ولا على ما يلتقطه من موروث شعبي، وقد فضل النص القرآني العالم على الجاهل: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

القرآن يجعل الخشية من الله نتيجة طبيعية للعلم، لا للخرافة والجهل، فالخرافة تنتج الخوف من كل شيء، بدءا من الظلام مرورا بالغربان والبوم وانتهاء بالوهم، قال تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) هذه الآية لا تتحدث عن العلوم العقائدية -والفقهية كما يدعي البعض، فسياقها يأخذ عقل الإنسان بالعلم التجريبي، ليطلقه مكتشفا هذا الكون، وهي تجعل من يكتشف تلك الأشياء عالماً.

والقرآن جعل الذي يتعبد على جهل آثما وإن أصاب. قال تعالى: (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وقال سبحانه: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا)

أما السنة فجعلت العالم وارثا للأنبياء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر – صحيح ابن ماجة ١ - ٤٣)

هنا – فقط – بدأ تغيير العقل العربي بالحقيقة التي تثبتها المعجزة، وبالنص المعجزة الذي يشترط العلم للعبادة، ويشترط العلم للنظافة والطهارة، ويشترط العلم للبيع والشراء التجارة، ويشترط العلم للتربية، ويشترط العلم للزواج والطلاق، ويشترط العلم للسلم والحرب وكل مناحي الحياة، جاء النص القرآني مغيراً للعقل بالمعلومة، ولم يكتف بتغيير الحاضر ورسم آفاق المستقبل، بل تجاوز ذلك إلى تصحيح أهم نقاط الماضي والتاريخ ونفض ما ران عليها من تشوهات بفعل التقادم، جاء لينفض الغبار عن سير الأنبياء السابقين، الغبار الذي لوث تاريخهم وجهودهم وإنجازاتهم، جاء ليمحو ما تسلل من تزوير على الكتاب المقدس بشقيه.

المعجز في القرآن هو أنه صحح معلومات كانت بالنسبة للعقلية الإيديلوجية الاستشراقية هي الأصل، وأن القرآن مجرد نقل خاطيء عنها، وإضافات غير أمينة عليها، ليأتي العلم الحديث بكشوفاته وإنجازاته شاهداً للقرآن بأنه أعاد النسخة الأصل، والرواية الحقيقية والصحيحة، وأن الكتاب المقدس كان يسوق قصصا وتفاصيل تم مزجها بالخيال الشعبي والأساطير المتداولة. جاء القرآن ليصحح ذلك ومازال، ليس بشهادة أتباعه، حتى لا يقال أنها مجرد دعاوى وتمجيد لمعتقد موروث، بل بشهادة المنصفين من أتباع الكتاب المقدس، وشهادة العلماء التجريبيين الذين لا تعرف علومهم التحيز، وشهادة الكشوفات العلمية الحديثة والأحدث.

وبعد فتلك الفصول التي مرت البراهين عليها سواء كانت من التراث، أو من غيره، تكشف أن المفكر العربي ليس مؤهلا لنقد العقل العربي، بل ولا لدراسته، نظرا لاحتقانه بالمواقف الجاهزة، وانطلاقه من أحكام مقررة قبلا، مما يعني أن مساحة العاطفة في تفكيره هي الطاغية والجارفة، هذه العاطفة لا تمكنه من إعمال العقل بتجرد، ولا رؤية الواقع بشكل سليم، ولا التعاطي مع التراث بموضوعية، ولذا ظلت الدراسات حول العقل العربي في مكانها إن لم نقل أنها تتراجع، نظرا لتخبطها واستلابها من قبل تلك المواقف والأحكام الجاهزة. فأصبحت تلك الدراسة في حالة فصام مع نفسها:

- دراسات تعي ماهية العقل العربي، لكنها تريد أن تغير تلك الماهية بالإنشائية والخطابية والعبثية، حتى تتمكن من خلق ماهية أخرى تشكلها هي، بحيث يمكن تطويعها للقبلي، وأركون والمعجبون به ضمن هذا الفريق الغارق في العبثية، والذي يريد إغراقنا معه، إنهم كمن يريد تجفيف البحر بملعقة، أو إزاحة جبال الهملايا بالإزميل.

- ودراسات جادة في طرحها، لكنها تنقب في المكان الخطأ، وكأنها لا تريد تكبد عناء الغوص في تلك الماهية، لذا فهي تتعامى عنها وتهرب منها إلى التداعيات، حاملة منهجها المتماسك إلى حد ما، وهي كمن يمتلك أدوات التنقيب عن النفط، لكنه يحفر في المكان الخطأ. وما دمنا قد تحدثنا عن الفريق الأول بما يكفي، فلا بد من إلقاء المزيد من الضوء على الفريق الآخر الجاد، وحتى لا يكون في البحث تحيزا له أو مجاملة، لا بد من كشف التناقضات التي وقع فيها، والهروبية التي

مارسها. لا بد من الرجوع للجابري الذي يعتبر أنزه من كتب عن العقل العربي، وأكثرهم منهجية وتركيزا وعناية بالفرز والتصنيف، إلا أن كتاباته – للأسف – كانت كما قلت حفرا في المناطق الخطأ، وملاحقة لتداعيات خالق العقل العربي وليس ولوجا إلى عمقه، وهذا ما جعل دراسته حافلة بالأخطاء العلمية والتناقضات، كما أشار "حرب" أنه يبرز أشياء ويطمس أشياء،

تناقضات الجابري

تحدثت فيما مضى عن أهم وأخطر مكونات العقل العربي الحقيقية، والتي يمارس المفكرون العرب سكوتا مخجلا حولها، ويتجاهلون تناولها بالنقد الجاد والموضوعي، كما كانت الفصول كشفا عن رؤية علمية تجريبية لتلك المكونات، قام بها العلماني الغربي تجاه معطيات لا يمكن تمريرها كظاهرة اجتماعية، أو قبولها كمنتج علمي يلائم حقبة زمنية محددة، لا سيما وأنها جاءت قبل أربعة عشر قرنا، وفي جزيرة العرب، أي في محيط يشهد تخلفا علمياً هو الأشد مقارنة بما حوله.

ما مضى كان كشفاً عن مدى سطحية الدراسات العلمانية العربية وتخبطها بالمقارنة مع الدراسات العلمانية الغربية لأهم مكونات العقل العربي (القرآن والسنة والكتاب المقدس) تلك الدراسات الغربية الهامة جدا، هي أحد أهم ثمرات منجزات هذا العصر، الذي يوصف بأنه عصر العلم والكشوفات المذهلة، والتي جعلت العلماني الغربي يقف متسيدا عصره، فبالعلم التجريبي، لا بالعلوم الإنسانية، تسيد الغرب، بالتقنية العالية والكشوفات الضخمة ينقلنا الغربي من عصر إلى عصر، ويشهد لقرآننا وسنة نبينا بالصحة والصدق والدقة، وبالتقنية نفسها والكشوفات نفسها يشهد على كتابه المقدس بالبشرية والتزوير، بعلوم كالطب والتشريح والفلك والجيولوجيا وغيرها يعتنق العلماني الغربي كلمات القرآن ويكفر بأساطير الكتاب المقدس، ولا يحكم لذلك الكتاب بفرادة ولا بميزة، ولعل النقاط التالية تكشف عن مستوى الخلط الذي وقع فيه الجابري.

دعونا أولا نتأمل هذه العبارات المتناقضة تنظيرا مع تطبيقاتها عند "الجابري" نفسه، نتأملها بتمعن دقيق، فهي التي كشفت مستوى دراسته علمياً، وأنها لا تلامس سوى السطح، لا أقول ذلك من خلال أحكام إيديلوجية جاهزة، بل لأن العبارات تفصح عن نفسها بنفسها، ثم تفضحها الممارسة التطبيقية للجابري نفسه، وأقول هذا مع إعجابي الشديد بجهد مفكر كبير وجاد وغير مسف.

يقول في "تكوين العقل ص٥": العقل العربي الذي نعنيه هنا هو: (العقل الذي تكون وتشكل داخل الثقافة العربية ، في نفس الوقت الذي عمل هو نفسه على انتاجها واعادة انتاجها). هذا ما أعنيه بالسطحية في التناول، فالجابري يتحدث هنا عن "العقل العربي" الذي تكون وتشكل داخل الثقافة "العربية"، ولا أدري أي عقل "عربي" تشكل داخل الثقافة "العربية"، أي ثقافة "عربية" تشكلت قبل الإسلام.. سبع قصائد معلقة على الكعبة؟! لا أعرف كتابا ألف داخل العالم العربي

قبل الإسلام، لا أعرف مدرسة أسسها العربي قبل الإسلام، لا أعرف حراكا ثقافياً فكرياً قبل الإسلام، لا أعرف دولة مستقلة للعرب قبل الإسلام، رغم وجود اليهودية والمسيحية والوثنية داخل الرقعة العربية قبل وجود الإسلام..

إذاً فأي عقل تشكل داخل الثقافة العربية قبل الإسلام إذا كانت الثقافة العربية أصلا غير موجودة؟ إلا إذا سمينا التخلف والجهل والأمية والثارات والدموية ووأد البنات ثقافة.

الجابري يتحاشى تناول "نزول القرآن"، حتى لا يقال عنه أنه إسلاموي غيبي التفكير، يتحاشى القول بالمعجزة التي لم يتحرج أعظم علماء العالم الغربي التجريبيين اليوم من التسليم بها. أساتذة الفلسفة والتاريخ والأدب يخوضون في بحار متلاطمة من الضباب والأحكام غير المنضبطة، وهو ما يجعلهم في حرج من الحكم على شيء بأنه حقيقة، وهو ما اعترف به الجابري عندما وصف بحثه بأنه: (ليس بالدرجة نفسها التي توجد في في بحوث الرياضيات أو الفيزياء، وذلك لاندماج الباحث في الموضوع واندماج الموضوع في الباحث)

إذا فالجابري يعترف بوجود اندماج للباحث في البحث والعكس، وأن هذا الاندماج يشكل ثقلاً على النتائج، مما يفقدها دقتها ومصداقيتها. في الوقت الذي يريد فيه النهوض بأمة "عربية" مع تجاهله لمحركها الأول الذي يكسب أتباعا كل يوم، ليس على مستوى الأمة فقط، بل على مستوى العالم، فالإسلام كما يقول مؤلفا فخ العولمة: هو الدين المؤهل للمنازلة في القرن الحادي والعشرين أكثر من غيره.

إشكالية أخرى للجابري، تتمثل في تناقض تنظيره مع تطبيقه، لا سيما وهو القائل في ص٧: (وكما أنه ليس من الممكن فصل الثقافة عن السياسة في التجربة الثقافية العربية، وإلا جاء التاريخ لها عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة، لم يكن من الممكن كذلك، ونحن نبحث في تكوين العقل العربي، إهمال اللا معقول والاهتمام بالمعقول وحده، بل لقد تتبعناهما معا في نموهما وتأثيرهما المتبادل، وأكثر من ذلك وأهم، في نظرنا، لم نحاول التماس المعقولية، بصورة من الصور، لهذا القطاع او ذاك من قطاعات اللا معقول في الثقافة العربية، بل لقد احترمنا في كل قطاع طبيعته وربطناه بالبنية – الأم التي منها تفرع وإليها ينتمي). هو متناقض كما أسلفت لدرجة غير معقولة مع مقولته السابقة، لذا حصل على النتيجة التي انتقدها.. فقد فصل الثقافة عن السياسة في التجربة الثقافية العربية، وجاءت كتابته عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة، وكتاب نقد العقل العربي كان بامتياز (عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة) . تلك الأشلاء تتضح في تلك المطولات التي لا طائل من ورائها حول المنظومات الثلاث - البيانية والعرفانية والبرهانية، والقفز مباشرة إلى عصر التدوين، هذا القفز الإيديلوجي أو الانتقائي – إن شئت – لم يفلح في تشخيص مكونات وبنية العقل العربي، بقدر ما كان محاولة للركض بالحاضر بتشكلاته في مساحات الماضي، للعثور على نقطة تاريخية مشابهة لتشكلات هذا الحاضر.

الجابري يبحث عن ماض في تاريخ الأمة الإسلامية يشابه واقعنا في حراكه الفكري والثقافي، حتى يحصل على أكبر قدر من المعقولية والإقناع للقارىء. لم تسعفه الجاهلية فهي خارج التاريخ والثقافة، ولا يمكن الخروج منها بطائل، ولا يريد التطرق لعصر النبوة والخلافة الراشدة، لأنه عصر محرج للغاية، ففيه تم تغيير وخلق العقل والثقافة والقيم والعلم والسياسة لأول مرة بالقرآن فجأة ودون مقدمات أو إرهاصات، كما أن تناوله يعني الكشف عن أرضية صلبة، يمكن من خلالها إعادة تشكيل العقل العربي اليوم، وهو أمر طالما خاصم الجابري المؤمنين به، لذا هرب الجابري إلى عصر يستطيع تفصيل الحاضر عليه (عصر التدوين) حيث القواسم المشتركة بين التيارات الفكرية اليوم. القفز إلى عصر التدوين كان قفزا إنتقائيا إيديلوجيا، وموقف يخدم فكرة مسبقة حول الحديث عن شيء لا وجود له من قبل (العقل العربي)

لكن النتيجة أن هذا القفز أدى إلى الاصطدام بعقبة كأداء لا يمكن للجابري ولا لغيره القفز عليها – تجاوز الخالق للعقل العربي والموجد له (النص القرآني السني) كان نوعا من الانتحار الثقافي، مارسه الجابري بطريقة مستغربة على باحث بمستواه.. كان إدانة للجابري الذي يحاول أن يقتعنا أنه لم يغفل شيئا من مكونات ومحددات العقل العربي بقوله: (لم يكن من الممكن كذلك، ونحن نبحث في تكوين العقل العربي، إهمال اللا معقول والاهتمام بالمعقول وحده، بل لقد تتبعناهما معا في نموهما وتأثيرهما المتبادل، وأكثر من ذلك وأهم، في نظرنا، لم نحاول التماس المعقولية، بصورة من الصور، لهذا القطاع او ذاك من قطاعات اللا معقول في الثقافة العربية، بل لقد احترمنا في كل قطاع طبيعته وربطناه بالبنية – الأم التي منها تفرع وإليها ينتمي) فأي إهمال للمعقول أكثر من إهمال أهم ما تتميز به الأمة وعقلها الفاعل:

منهج النقل والنقد عند المسلمين في تناولها للقرآن والسنة، وهو منهج فريد لم تعرفه أمة من الأمم، حتى أنها سميت بـ (أمة السند). فإذا أهمل الجابري أهم ما تتميز به هذه الأمة ثقافياً فما قيمة بحثه.

وأي إهمال للامعقول أكثر من تجاهل حقيقة الوحي، التي ظلت المحرك للأمة طوال أربعة عشر قرنا، وهي حقيقة اعترف بها العلمانيين الغربيين التجريبيين الجادين في أحدث وأزهى عصور هذا العلم اليوم، والذين على أيدي منهجهم هذا تم القضاء على مقولة أن الكتاب المسيحي وحي من عند الله، ولم يصل الأمر بهؤلاء إلى مجرد الاعتراف، بل تجاوزوا ذواتهم وميولهم وموروثاتهم ومواقفهم المسبقة، وتغلبوا على النمطي والنسقي السائد تجاه القرآن والسنة فاعتنقوهما وأعلنوا إسلامهم. لوكان هؤلاء أدباء أو مفكرون أو فلاسفة أو باباوات لتم إدراج ذلك الاعتناق تحت لافتات: وجهات النظر والميول العاطفية أو حتى العقلية النسبية، لكن أن يعتنق القرآن باحث أكاديمي داخل معامل ومختبرات وعالم رياضيات وطب وفضاء وبحار وغيرها من العلوم التجريبية التي أقر الجابري بدقتها، وعدم تداخل الباحث مع البحث فيها، فهذا دليل قاطع على أن (لا معقولية أن يكون القرآن منتج

بشري) تم القفز عليها من قبل الجابري الجاد، وبالتالي فلا تثريب على المؤدلجين – أمثال أركون والعظم – الذين قد أعدوا للقفز عدته مسبقاً، وجهزوا أحكامهم قبل كتابة حرف واحد من مؤلفاتهم.

أي تتبع للامعقول والمعقول في نموهما وتأثيرهما المتبادل، إذا تم القفز على تتبع نزول الوحي وتدوينه وتدوين السنة ونقدها. وأي فكر عربي هذا الذي يمارسه باحث جاد كالجابري أو إيديلوجي كأركون والعظم وأدونيس!!

أي تتبع للامعقول والمعقول في نموهما وتأثيرهما المتبادل، إذا تم القفز والتعامي عن اليهودية والمسيحية أو حتى الوثنية واللا معقول فيهما، وتأثيرهما الموازي لتأثير الإسلام، لا سيما وبعض الكتاب يمجدونها، هكذا دون وعي كـ"علي حرب" مع الكتاب المقدس، وكـ"أدونيس" الذي هاجم الإسلام وهو أحدث أديان التوحيد وآخرها من بين الديانات السماوية كلها، وجعل عبادة الأخشاب والبقر والحمير والأصنام أرقى منه بقوله: (في الثقافة الوثنية القديمة كانت السماء موصولة بالأرض، وكان الكون بيتا واحدا. أما الثقافة الحديثة التي رفضت الوثنية فإنها لم تفصل السماء عن الأرض وحسب، بل جعلت الأرض موضع ازدراء سمتها دار الشقاء والفناء وسمت السماء بالمقابل دار الهناء والبقاء) فأي نقد هذا الذي يقومون به وأي عقل عربي هذا الذي يقومون بنقده، وكتاباتهم لا تستهدف سوى الإسلام

ياله من تناقض في وصف الجابري للمثقف ص١٣ بأنه (لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها) ثم يبين معنى التفكير داخل الثقافة بأنه (لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها. فقد يتم التفكير في قضايا ثقافة معينة بواسطة ثقافة أخرى، ومع ذلك يبقى المفكر منتميا إلى هذه دون تلك)

ثم يضرب مثلا لمفكر عربي يفكر بالقضايا اليونانية فيقول: (فالفارابي مثلا الذي فكر في قضايا الثقافة اليونانية، هو مفكر عربي لأنه فكر فيها بواسطة الثقافة العربية ومن خلالها، ومثل ذلك المستشرقون فهم سيظلون "مستشرقين" يطلبون الشرق لأنهم يقعون خارجه، أي يفكرون في بعض قضاياه من موقع يقع خارج احدى ثقافاته، وبالتالي فلا يمكن ان ينتموا الى الثقافة العربية لأنهم يفكرون في قضاياها من خارجها، بل ومن خارج محيطها الخاص)

ورؤيته هذه رصينة لو لم يناقضها ممارسة، وهي عبارات تكاد تكون منقولة عن الرسالة العميقة جداً والصغيرة (في التاريخ فكرة ومنهاج) حيث يتبين الفارق الشاسع بين من تتحد نظريته مع ممارسته الثقافيه فيسمي الأمور بمسمياتها، وبين من لم يحالفه التوفيق في تطبيق ما ينظر له.

يقول صاحب الرسالة وهو ينظر لكتابة جديدة للتاريخ الإسلامي، تختلف عن كتابة الأقدمين والمتأخرين الغربيين: (التاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة واحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان. ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها،

ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية. وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة، ويستجيب لوقوعها في مداركه ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد.
فأما إذا كان يتلقاها بادئ ذي بدء وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس – عن عمد أو غير عمد – فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد ، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية، أي أنه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل. ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئاً أو ناقصاً.
هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ، ذلك أن هناك عنصراً ينقض الطبيعة الغربية – بصفة عامة – لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص .. عنصر الروحية الغيبية – وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية على وجه أخص – وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة)
ثم يقول: (هذه المقدمة الصغيرة لا بد منها لبيان ما في تناول المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامي من نقص طبيعي في الإدراك ، ونقص طبيعي في الفهم ، ونقص طبيعي في التفسير والتصوير. ثم يقول: (وثمة سبب للشك في قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية. ذلك أنه لا يخفى أن كل مرئي يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية. وكذلك الشأن في الأحداث والوقائع، والأوربي بطبيعته ميال إلى اعتبار أوروبا هي محور العالم، فهي نقطة الرصد في نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث. ومن هنا تتخذ في نظره أشكالاً معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصَحُّ الأشكال، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها. وإذا كان بديهياً أن أوربا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ، وكان الأوربي لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلى الماضي .. أدركنا مدى انحراف الزاوية التي ينظر بها الأوروبي للحياة الإسلامية التاريخية، ومدى أخطاء الرؤية التي يضطر إليها اضطراراً، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعينة.
ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة، وانتفاء الأسباب التي تؤثر على هذه النزاهة، فإذا نحن وضعنا في الحساب ما لا بد من وضعه، وما لا يمكن جدياً إغفاله من أسباب ملحة قاهرة عميقة طويلة الأجل، متجددة البواعث تؤثر في نظرة الأوربي للإسلام، وللحياة الإسلامية، وللعالم الإسلامي. من اختلاف في العقيدة، إلى كراهية لهذا الدين وأهله، إلى ذكريات تاريخية مريرة في الأندلس وفي بيت المقدس وفي الأستانة، وفي سواها، إلى صراع سياسي واقتصادي واستعماري، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية .. إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة

أبداً) ثم يؤكد على (إن التاريخ الإسلامي يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر. إن هذا التاريخ موجود اليوم في صورتين:
صورته في المصادر العربية القديمة، وهذه من التجوز الشديد أن تسمى تاريخاً، بل هي لا يمكن أن تحمل هذه الاسم. فهي نثار من الحوادث والوقائع والحكايات والأحاديث والنتف والملح والخرافات والأساطير، والروايات المتضاربة والأقوال المتعارضة على كل حال، وإن كانت بعد ذلك كله غنية كمصدر تاريخي بالمواد الخامة التي تسعف من يريد الدراسة ويوهب الصبر ويحاول الغربلة، بالمواد الأولية اللازمة له في بناء هيكل التاريخ.
وصورته في المصادر الأوروبية – وبخاصة في أعمال المستشرقين – وهي الصورة التي تحدثنا من قبل عنها، وألقينا عليها في إجمال بعض الأضواء. وهي تعتمد في جملتها على المصادر العربية القديمة. وهي على ترتيبها وتنسيقها تتسم بتلك السمات التي لا تطمئن الباحث الواعي إليها. وهي في أحسن صورها دراسة من الظاهر للحياة الإسلامية – إذا صح هذا التعبير – وخير ما فيها هو الجهد في جمع النصوص وتحريرها وتنسيقها والموازنة بين الرويات المختلفة من ناحية السند الخارجي، لا من ناحية الإدراك الداخلي. لأن هذه الإدراك هو الذي يحتاج إلى تلك الحاسة الناقصة في شعور الغربيين تجاه الحياة الإسلامية كما أسلفنا، فضلاً عن الغرض في كثير من الأحيان والهوى، مما يخل بنزاهة الموازنة، فضلاً عن فقد عنصر التجاوب الكامل مع المؤثرات جميعاً)
ثم يقول وكأنه يعني أركون وأمثاله، في تناولهم للتراث فيقول: (هناك أجزاء لم تتم من صورة ثالثة للتاريخ الإسلامي – لم نشأ أن نعتبرها في الفقرتين السابقتين، لأنها – فضلاً على كونها أجزاء معدودة – لا تزيد على أن تكون ظلالاً باهتة أو كاملة للدراسات الأوروبية، حتى وهي تناقش أحياناً أو تعارض هذه الدراسات.
فهي أولاً : تتبع المنهج الغربي في صميمه دون زيادة.
وهي ثانياً : تستمد عناصرها من الدراسات الغربية في الغالب.
وهي ثالثاً : متأثرة بالإيحاءات الغربية من ناحية زاوية الرؤية. فهي لا تقف في المركز الإسلامي لتطل منه على تلك الحياة، لأنها ليست من القوة والأصالة بحيث تجد نفسها في خضم الثقافات الغربية، لتفهم الإسلام بعقلية أصيلة وعلى ضوء كذلك أصيل. والعقلية التي تحكم على الحياة الإسلامية ينبغي أن تكون في صميمها إسلامية مشربة بالروح الإسلامي، لكي تدرك العناصر الأساسية في هذه الحياة، وتحسبها، وتتجاوب معها، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير)
وأخيرا يقول: (وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل تلك العقيدة. وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير عربي بوجه عام، ولا عند غير مسلم على وجه التخصيص، وهي الخصائص التي لا بد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامي)

الجابري يستنسخ التنظير السابق فيقول أن المثقف (لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها) أي (لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها..) لكن الجابري يختلف عنها في الممارسة العقلية لذلك التنظير، ففي حين يتساوق صاحب الرسالة تنظيراً وممارسة، يصاب الجابري بفصام واضح بينهما، فالجابري ينسف مقولته بدءا من تسمية العقل بالعربي، حيث يخذل قراءه بالحديث عن عقل غير عربي، إنه يتحدث عن عقل إسلامي، سواءً بدأه من عصر التدوين ومنظوماته السالفة، أو انطلق من العهد النبوي كما فعل عند مقاربته للعقل السياسي.
فأين التفكير بواسطة العقل العربي، إذا تم تجاوز الحقبة الجاهلية؟!
وأين التفكير بواسطة العقل العربي، إذا تم تجاوز علاقة العربي باليهودية وهي علاقة سابقة على الإسلام؟!
أين التفكير بواسطة العقل العربي، إذا تم تجاوز علاقة المسيحية بالعقل العربي، وهي علاقة سابقة للإسلام؟!
أين التفكير بواسطة العقل العربي إذا تم انتقاء الغنوصية والفلسفية فقط في التأثير، وهي أمور لم تأت كمشكل ومكون للعقل الذي يتناوله، بل روج لها بمواقف سياسية، وحتى تناول تلك المنظومات كان إسلامياً صرفاً فمعتنقوها يقولون أنها تعبر عن لب الإسلام وحقيقته. أين العربي هنا؟ لا وجود له.
أما – كما أسلفت – ما يجعل من دراسة الجابر حافلة بالثغرات والتناقضات ففي تجاهله أن ذلك العقل العربي الذي تناوله كان له مشكل وخالق واحد، هو النص الإسلامي القرآن، وأن ما تناوله الج كان تداعيات لذلك النص، ذلك التجاهل أوقعه في مأزق ثقافي انعكس على نتائج البحث التي تعيدنا إلى نقطة الصفر من جديد.
ما يشكل عبئا آخر على من تناول العقل العربي، تلك المرجعية التي ينتمون إليها، والتي يقول الجابري أنها أوروبية، فهي مرجعية تتحدث عن العقل العربي من الخارج، دون ممارسة التفكير به باعتراف الجابري نفسه، لكني أضيف شيئا آخر هنا لا يجرؤ الجابري ولا غيره على التطرق له، بل إن الجابري همشه وقلل من أثره، بينما سخر منه الإيديلوجيون كأركون والعظم، وعرف أدونيس خطورته فأهال عليه تراب النسيان. حسنا سنجعل المرجعية الأوروبية وعلمانيتها الحقيقية منطلقاً في تناول العقل العربي، لكن الإشكالية هي، أن هؤلاء لا يريدون العلمانية الأوروبية، إنهم يريدون أدلجتها أيضاً، هم لا يريدون العلمانية الأوروبية التي فحصت تراثها علميا فأسقطته، وجعلت للعقل المنزلة الأولى، وأن ما يصادمه لا قيمة له، حتى هذا لا يريده المفكرون العرب، لأنهم:
أولا: يجهلونه.
ثانياً: أنهم يجهلون أن تلك المرجعية عندما تعرفت على النص الإسلامي – قلب العقل العربي – اعترفت بإعجازه وأنه خارق غير بشري، وأنه يحفز العقل ويحرضه ويدفعه للأمام، وأنه أحدث انقلابا في العالم كله، وأنه حجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة، وأنه الذي أعاد لها روح النقد والبحث العلميين بعد

قرون الظلام الكنسية، ولم تكتف المرجعية العلمانية الأوروبية بتلك الاعترافات، بل تجاوزتها إلى التسليم به كوحي فاعتنقه الكثير من رموزها.
هنا تنكشف حقيقة العلمانية العربية، لأنه لا للمرجعية الإسلامية، ولا للعربية، ولا حتى للأوروبية حضور في نهجها، إنها نوع من الإيديلوجيا العبثية التي لا جذور لها ولا امتداد، هي أشبه بإيديلوجيا أبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط، بل إن إيديلوجية هؤلاء ذات جذور وسلفية وثنية، أما إيديلوجيا أركون وأمثاله فأشبه بالشظايا المتطايرة، لذا فتنظيرها وممارساتها ونتائجها تظل شظايا مثلها. وواهم كل الوهم من يعتقد أن الفكر العربي – البنية التحتية للنظام العربي – سيتقدم شبرا، أو حتي سيتمكن من الاستمرار في الوقوف في مكانه، أو أنه ستوقف عن التراجع والانزلاق للوراء كما اعترف الجابري، ولا أعتقد أن الرجوع للوراء يعد إنجازاً.
قد يقال: إن الإسلامية رجوع للوراء؟ وهذا ما أسميه بالمماحكة، فالإسلام أفق وليس وراء. لأن العلم والعدالة والحرية والتوحيد والمساواة آفاق وليست وراء، وهي آفاق فشل العقل العربي في تحقيقها وأنجزها النص الإسلامي. أما البغال والحمير وبيوت الطين والسيوف والسواني ومصابيح الزيت فوراء وليست آفاق، ولا أعتقد أن عاقلا يقول أن هذه هي الإسلام، أو أن عاقلا يقول بوجوب أن تكون هي آليات هذا العصر، فتقديس هذه الأشياء فيه الكثير من الوثنية.
ثم يواصل الجابري: (''العقل العربي'' كما سنتناوله بالتحليل والفحص في هذه الدراسة، تحديدا أوليا، فنقول: إنه ليس شيئا آخر غير هذا ''الفكر'' الذي نتحدث عنه: الفكر بوصفه أداة للانتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها، هي الثقافة العربية بالذات الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام وتعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية كما تحمل وتعكس وتعبر، في ذات الوقت، عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن) ولا أعتقد أن الجابري وغيره قادر على إدراك تاريخ العرب الحضاري العام وواقعهم، والتعبير عنه وعن طموحاتهم المستقبلية، والتعبير في ذات الوقت عن عوائق تقدمهم وأسباب تخلفهم الراهن، وهو الذي يتجاهل نصهم الإسلامي، وقلب تراثهم الذي ما زال هو الأفق الذي يحركهم، ويواصل ذلك التجاهل بالقفز على شهادة قادمة من قمم العالم العلمية التجريبية اليوم لهذا النص، والتي تواصل نهوضها بالعالم نحو الأكثرجدة ورخاءً.. تجاهل الجابري لذلك يجعله مقعداً عن إدراك ذلك كله.
أما قوله ص١٤ : (إن وجهتنا الوحيدة هي التحليل ''العلمي'' لـ''عقل'' تشكل من خلال إنتاجه لثقافة معينة، وبواسطة هذه الثقافة نفسها: الثقافة العربية الاسلامية. وإذا كنا قدوضعنا كلمة ''العلمي'' بين مزدوجتين، فذلك اقرارا منا منذ البداية بأن هذا البحث لايمكن أن يكون علميا بنفس الدرجة من العلمية التي نجدها في البحوث الرياضية أو الفيزيائية)
فالجابري يتجاهل أن العلماني الغربي أوصل تلك البحوث الفكرية إلى ذلك المستوى.. الجابري يتجاهل نتائج الفيزياء والرياضيات والطب والفلك والجيولوجيا

وشهادتها للقرآن، الذي هو محرك العقل العقل العربي وقلب تراثه، في الوقت الذي يحتفي ويكب على دراسات مطاطية غير منضبطة وذات نتائج لا يمكن الوثوق بها.
كما أن الجابري يعترف في التفاصيل، أنه لا عقل عربي دون إسلامي، ولهذا مارس هروبية مكشوفة في قوله في الصفحة نفسها: أما مسألة ما إذا كان (العقل) الذي سندرسة هو (العقل العربي) كما كان بالأمس – أي أمس – أو (العقل العربي) كما هو (اليوم) فهي مسألة نفضل السكوت عنها مؤقتا.
السكوت هنا مريب، لأنه وخلال أربعة عشر قرنا لم يكن هناك سوى عقل إسلامي، أما ما يمكن علميا إطلاق صفة العروبة عليه فيتمثل في حقبتين هما..
- العصر الجاهلي
- عصر العلمانية العربية المتناثرة هنا وهناك اليوم، والتي لا تستطيع الآن الإفصاح عن هويتها ولا تجرؤ.
وهو لا يكف عن الاعتراف بإسلامية العقل العربي كما يقول في ص١٥: (إن ترجمة كلمة (عقل) بعبارة (الفكر بوصفة أداة تفكير)، وربط (عروبة) هذا العقل بالثقافة التي ينتمي إليها، الثقافة العربية الإسلامية)، لكن عدم حديثه عن إعجاز القرآن وأنه كلام الله يتناقض مع توصيفه التالي الذي يقول فيه: (إن الأداة التي نحفر الأرض بها – الفأس مثلا – تستمد هويتها، ولنقل ماهيتها، من فاعليتها: الحفر. ولكنها تستمد قدرتها على الحفر من اجزائها وطريقة تركيبها، وأيضا من أسلوب استعمالها... أفلا ينطبق هذا على (أداة التفكير) سواء سميناها (الفكر) أو (العقل)؟)، وهنا أسأل الجابري : هل بإمكان أداة بشرية أن تغير عقول العالم ووجه الأرض وخرائطه ولغاته؟
وإذا كان يعترف أن أداة الحفر تستمد قدرتها على الحفر من اجزائها وطريقة تركيبها بالإضافة إلى أسلوب استعمالها، فما الكتاب الذي أعادت أياته خلق الإنسان والعالم وتكوينهما، وحولت مسيرتهما غير القرآن؟
هل بإمكان بشر أن يفعل ذلك إن لم يكن كتاباً إلهيا معجزاً.
هو يقول: (إن ما نقصده بـ(العقل العربي) هو العقل المكوَّن، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافه العربيه للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة، أو لنقل: تفرضها عليهم كنظام معرفي. أما العقل المكوِّن فسيكون هو تلك الخاصية التي تميز الإنسان عن الحيوان أي (القوة الناطقة) باصطلاح القدماء. وبهذا الاعتبار يمكن القول أن الانسان يشترك مع جميع الناس، أيا كانوا، وفي أي عصر كانوا في كونه يتوفر على عقل مكوِّن وينفرد هو ومن ينتمي معه إلى نفس الجماعة الثقافية بعقل مكوَّن والذي هو عبارة عن النظام المعرفي (مفاهيم، تصورات ...) الذي يؤسس الثقافة التي ينتمون إليها)
وأسأله مجددا: من غير القرآن والسنة قدم جملة من المبادئ والقواعد للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة؟ أو فرضها عليهم كنظام معرفي، فحولت أمة لم تؤلف كتاباً واحداً، ولا تعرف القراءة ولا الكتابة، إلى أمة تعلم الناس والعالم، وتنهض بهم، وتأخذهم إلى مراحل لم يحلموا بها؟ في الوقت الذي ضيع العالم فيه

الكتاب المقدس فضيعهم، ومزقوه بالترجمات، ثم حولوه إلى أداة لتمزيق بعضهم وتمزيق غيرهم، واكتفى الآخرون بتداول كتب الفلاسفة في غرف مغلقة.
ثم يعود للتناقض وينسب للعرب ما ليس لهم فيقول ص١٦: (إن العقل العربي هو، حتى في مظهره الفاعل، من نتاج الثقافة العربية، وكذلك الشأن بالنسبة لأية ثقافة أخرى والعقل المنتمي إليها، الشيء الذي يخفف من الاعتراض القائل بـ(كلية العقل أو (كونيته). فالعقل كوني ومبادئه كلية وضرورية... نعم. ولكن فقط داخل ثقافة معينة أو أنماط ثقافية متشابهة. يقول لالاند نفسه فإن العقل – المكوَّن – (ينزل منزلة المطلق من طرف أولئك الذين لم يكتسبوا، في مدرسة المؤرخين أو مدرسة الفلاسفة ، الروح النقدية) ، أولئك الذين يحكمهم العقل السائد الذي أنتجه عقل أجدادهم الفاعل، عقل ثقافتهم التي يعتبرونها الثقافة الوحيدة والممكنة، أو على الأقل العالم الثقافي الخاص بهم)
لكن استعانة الجابري بلالاند أتت بنتائج عكسية، فلالاند يقول: العقل – المكوَّن – (ينزل منزلة المطلق من طرف أولئك الذين لم يكتسبوا، في مدرسة المؤرخين أو مدرسة الفلاسفة، الروح النقدية)
وأقول إن العلماء الغربيين التجريبيين ومدرستهم، على درجة من الدقة النقدية لا تطالها مدارس الغرب الفلسفية والتاريخية، وهم من قام بنقد النص الإسلامي وحكموا له بالإعجاز وأنزلوه منزلة المطلق، وهم الذين قبل أن يتعرفوا على النص القرآني كانوا لا يؤمنون إلا للعلم التجريبي بذلك الحكم، أما أمور الدنيا فالنص نفسه يقول بوضوح: أنتم أعلم بأمور دنياكم، لكن العربي أخفق في أمور الدين والدنيا.
أما قوله (الذي ننوي القيام به هنا (نقد العقل العربي) ، وذلك من زاويتين:
فمن جهة يمكن النظر إلى (العقل العربي) بوصفة عقلا سائدا قوامه جملة مبادئ وقواعد تؤسس المعرفة في الثقافة العربية. وفي هذه الحالة يكون من الممكن جدا القيام بتحليل موضوعي علمي لهذه المبادئ والقواعد التي تشكل، في ذات الوقت، أساسيات المعرفة، أو نظمها، في الثقافة العربية.
ومن جهة أخرى يمكن النظر إلى (العقل العربي) بوصفه عقلا فاعلا ينشئ ويصوغ العقل السائد في فترة تاريخية ما، الشيء الذي يعني أنه بالإمكان إنشاء وصياغة مبادئ وقواعد جديدة تحل محل القديمة، وبالتالي قيام عقل سائد جديد، أو على الأقل تعديل أو تطوير، أو تحديث أو تجديد، العقل السائد القديم)
والذي فعله الجابري غير ذلك تماما، إنه بتجاهله للنصين الذين خلقا تلك المباديء، لم يقرأ تلك القواعد والمباديء التي أسست المعرفة في الثقافة العربية، وبالتالي، فهو لم يقم بشيء، وعلى إثره يسقط ادعاؤه الثاني لأنه مؤسس على أخطاء تطبيقية كارثية. والجابري ليس سوى رسام يشكل لوحة مبدعة ثم يقوم بتمزيقها، كما في قوله ص١٧: (عندما نتحدث عن (العقل العربي) أو عن (الثقافة العربية) فاننا نصدر، سواء صرحنا بذلك أم لم نصرح، عن موقف يسلم بوجود (عقل) و (ثقافة) أو (عقول) و (ثقافات) أخرى يتحدد بالمقارنة معها العقل والثقافة اللذين نتحدث عنهما)

ولا أدري أين الجابري عن العقل الوثني واليهودي والمسيحي ضمن مكونات العقل العربي، وهو يصر دائما على تناول العقل العربي ولكن بنسخته الإسلامية، ألا يدرك أنه بهذه النسخة ينفي عروبته، وأنه منحاز، أو أنه يجعل من عروبته أمراً هامشياً، ليكون من الأولى أن يسميه (العقل الإسلامي العربي)، عندها يمكن – مع بعض التحفظ – قبول أطروحته تلك، لا سيما وهو القائل (إننا عندما نتحدث عن (العقل العربي) فنحن نميزه في نفس الوقت عن (العقل اليوناني) و (العقل الاوربي) الحديث، فتلك العقول تعني كل المكونات دون استثناء.
هذه هي الخطوط العريضة لما يسمى بـ(العقل العربي) وتلك هي التناقضات التي تنطوي على موت ذلك العقل بين ثناياها.

العقل السياسي كشف هروبية الجابري

ما سبق كان نوعا من المزج لمجموعة من الأشياء البراقة في سلة واحدة، على أنها أحجار كريمة، دون التفريق بين ما هو ألماس وكريستال أو حتى حطام زجاج. المهم أنها براقة. ولعل الجابري بالحديث عن العقل السياسي العربي يكشف لنا مزيدا من الارتباك المنهجي، فيقول: (وكما أنه ليس من الممكن فصل الثقافة عن السياسة في التجربة الثقافية العربية، وإلا جاء التاريخ لها عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة) في تناقض صريح بين مقولته هذه وتلك، فقد بدأ دراسة تكوين العقل العربي من عصر التدوين حيث اتضحت البنى المعرفية الثلاث: البيانية الفقهية والعرفانية اللاعقلانية (الصوفية) والبرهانية.
ويقول في خاتمة تكوين العقل ص ٣٣٢: (لم يكن هدفنا في هذا الكتاب التأريخ للفكر العربي لقد أردنا فقط تتبع مراحل تكوين العقل العربي العالِمة، أعني التي دونت وصنفت وأعيد بناؤها خلال عصر التدوين وامتداداته)
لكنه عندما بدأ كتابه عن العقل السياسي بدأه من نشأة الدولة الإسلامية في عهد البعثة النبوية. أليس هذا فصلا للثقافة عن السياسة،أليس هذا عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة، وتناقضاً مع قوله السابق: (ليس من الممكن فصل الثقافة عن السياسة في التجربة الثقافية العربية، وإلا جاء التاريخ لها عرضا لأشلاء متناثرة لا روح فيها ولا حياة) وهو ارتكاب يفصح عن حجم المسكوت عنه لدى الجابري – أعني القرآن والسنة – وهل هناك تراث يعادلهما في التراث الثقافي العربي، وعلى المستوى الثقافي نفسه هل ظهرت تلك المنظومات الثلاث إلا على القرآن والسنة، ما المنظومة البيانية إلا فهم وشرح للنص، وحتى البرهانية الفلسفية لم تكن فلسفة عربية، فالعرب لم يكن لهم فلسفة، لقد قامت جهود الفلاسفة على شيء واحد هو مصالحة ومواءمة القرآن والسنة مع الفلسفة اليونانية، والأمر كذلك بالنسبة للصوفية والباطنية الهرمسية.
وعلى المستوى السياسي: هل هناك تراث وظف – إيديلوجيا – من أجل شرعنة السلطة مثل ماوظف القرآن والسنة. وهل هناك تراث غيرهما يستحق معتمدا للشرعنة، وهل – قبل ذلك – قامت الدولة المثال في المرحلتين النبوية والخلافة

الراشدة إلا على القرآن والسنة. وفي الجانب التراثي لم يكن باقي التراث سوى أداة تمجيد أو نقد وتقييم للسياسة لا أكثر. هذا الارتباك المنهجي يعني الكشف عن أزمة يعيشها الجابري، بعكس أركون الذي أعلن بكل صفاقة عن إيديلوجيته قبل بحثه، وهي العمل على أنسنة القرآن، محاولة نزع صفة الوحي عن القرآن.

أميل إلى أن الجابري لا يريد أن يوصف بصاحب الفكر الغيبي، لذا قفز المرحلة النبوية والراشدة وأثرها في تكوين العقل العربي، لكنه لم ولا يستطيع ذلك في تعاطيه مع العقل السياسي، ورأيي هذا يقول بعكسه علي حرب، الذي يرى أن الجابري (يجامل الإسلاميين) إذا فلا بد للجابري من الهرب من عصر النبوة ثقافيا والعودة إليه سياسياً، لأن البدء منه ثقافيا يعني القيام بما بينته خلال ما سبق من هذا الكتاب، وهذه المقاربة الثقافية تعني – بالضرورة – القيام بجهد مماثل تجاه النص المسيحي اليهودي، وهنا تقع الإشكالية وتكمن العقدة عند المفكرين العرب، ألا وهو الكشف عن الغياب التام للكتاب المقدس كتراث عربي، فإما أن يكون تراثا أو لا يكون، وهذه ورطة أخرى تؤدي إلى ممارسة العلمانية الصحيحة.. وهي ممارسة توقع المفكر العربي في الخوض فيما لا يريد الخوض فيه، لظروف هو أعلم الناس بتداعياتها السلبية عليه ماديا وثقافيا واجتماعيا.

هنا يهرب المفكر العربي إلى العموميات والنتائج الجاهزة، التي انتزعها العلماني الغربي بتجاربه ومعاركه المريرة مع تراثه، والتي انتهت بانتصاره على ذلك التراث. المفكر العربي يريد الانتصار هكذا دون خوض معركة، أو حتى حمل سلاح، وهذه عجيبة ثامنة من عجائب الدنيا السبع.

ومن تناقضاته مع قوله: (هل هناك عقل (خاص) بالعرب، دون غيرهم؟ أوليس العقل خاصية ذاتية للإنسان، أي انسان، تميزه و(تفصله) عن الحيوان؟ .... ذلك أن كلمة (فكر) خصوصا عندما تقرن بوصف يربطها بشعب معين كقولنا (الفكر العربي) أو(الفكر الفرنسي) ....الخ ، تعني في الاستعمال الشائع اليوم، مضمون هذا الفكر ومحتواه، أي جملة الآراء والأفكار التي يعبر بها، ومن خلالها، ذلك الشعب عن اهتمامه ومشاغله، وأيضا عن مثله الأخلاقية ومعتقداته المذهبية وطموحاته السياسية والاجتماعية. وبعبارة أخرى إن (الفكر) بهذا المعنى هو (الإيديولوجيا) اسمان لمسمى واحد. وهذا بالضبط أحد أنواع الخلط الذي نريد تجنبه والتنبيه عليه منذ البداية) لكنه يعود فيقول: (إن ترجمة كلمة (عقل) بعبارة (الفكر بوصفة أداة تفكير)، وربط (عروبة) هذا العقل بالثقافة التي ينتمي إليها، الثقافة العربية الإسلامية، خطوة أولى، ما في ذلك شك، نحو تحديد مفهوم (العقل العربي))

ثم يهدم ما قاله بقوله: (إن الحضارات الثلاث اليونانية والعربية والأوروبية الحديثة هي وحدها التي أنتجت ليس فقط العلم، بل أيضا نظريات في العلم ، إنها وحدها – في حدود ما نعلم – التي مارست ليس فقط التفكير بالعقل بل أيضا التفكير في العقل. (التفكير في العقل) درجة من المعقولية أسمى بدون شك من درجة (التفكير بالعقل) فلنجعل مرتكزنا في المقارنة مقصورا على الثقافات التي تشترك

مع الثقافة العربية في هذه الخاصية، وهي كما قلنا الثقافة اليونانية والثقافة الأوروبية الحديثة. ولنتساءل : كيف يتحدد العقل داخل كل واحدة من هذه الثقافات الثلاث)

إنني أعجز عن حل هذه الأحجية بالغة التعقيد، فالجابري لا يريد أدلجة العقل بنسبته لشعب ما كالفكر الفرنسي والعربي كما يقول، ثم يعود فينسبها مرارا وتكرارا للعرب، لكنه يضيف الإسلام عند الإحراج والتفصيل، وكأن إدراج الإسلام يقف عائقا دون مرور كتاباته لمريديه، مع أنه لم يتحدث في المجلدات الأربع الضخمة إلا عن الإسلام وتداعيات القرآن والسنة، ثم ينسب ذلك للعربية فقط. أما الأدهى من ذلك والأمر ففي قوله الأخير: (إن الحضارات الثلاث اليونانية والعربية والأوروبية الحديثة هي وحدها التي أنتجت ليس فقط العلم، بل أيضا نظريات في العلم، إنها وحدها – في حدود ما نعلم – التي مارست ليس فقط التفكير بالعقل بل أيضا التفكير في العقل. (التفكير في العقل) درجة من المعقولية أسمى بدون شك من درجة (التفكير بالعقل)) إنني أسأل الجابري متى فكر العرب في العقل، بل متى فكروا بالعقل؟

شيء غريب أن يصدر هذا الكلام من مفكر كالجابري، لو صدر عن كاتب مؤدلج كأدونيس وأركون لكان الأمر غير مستغرب، لكن أن يمارس الجابري هذا النوع من الكتابة فغريب حقاً.

قبل القرآن والسنة كان العرب سلالات يمارس بعضها إفناء بعض، وأكثرها تحضرا كان يمارس دور العبد للحضارتين الفارسية الغنوصية، والرومانية بثوبها المسيحي القسطنطيني، ما المؤلفات.. ما الكتب .. ما النظريات التي تجعل العرب قاموا بممارسة التفكير في العقل كاليونانيين والأوروبيين؟

كل التراث العربي كان أسطوريا وشفهيا يسبح في عالم من الخيال مع الغيلان والسعالي والعنقاء، وقصص عن شخصيات كرتونية ممتعة، كل ما تركه العرب قبل الكتاب والسنة.. شعر وحكايات وأمثال شفهية، كادت تضيع لولا نزول (إقرأ) و(الذي علم بالقلم) لم يكن للعرب قبل القرآن قلم ولم يكونوا يقرأون، كانوا يسمون بالأمة الأمية، فكيف أسبغ عليها الجابري نعمة التفكير في العقل، ومنافسة فلاسفة اليونان. الجابري نفسه يعترف بذلك ضمنيا وإن سكت عنه عندما تحدث عن الشخصيات الحاضرة بيننا خلال التاريخ العربي.

إنه يقول ص٣٨: (بعد هذا التعريف، العام والمجرد، للعقل العربي، التعريف الذي يسمح لنا الآن برفع المزدوجتين عن هذا المفهوم، مفهوم العقل العربي، ننتقل الآن إلى القاء ما يمكن من الأضواء على مضمونه، فنتساءل: وماذا بقي ثابتا في الثقافة العربية منذ (العصر الجاهلي) الى اليوم؟ (نقول منذ (العصر الجاهلي) – الذي نضعه هو الآخر بين مزدوجين إلى حين – لأن هناك إجماعا، ضمنيا على الأقل، بأن الثقافة العربية بدأت في التكون في نقطة ما داخل ذلك العصر... ماذا بقي ثابتا في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم؟ قد يبدو هذا السؤال وجيها وبريئا. غير أنه في الحقيقة سؤال (ماكر)، مضلل، خصوصا وقد ينقلب هو نفسه إلى

جواب إذا ما قرئ بصيغة الا ستفهام الانكاري. على أن ما يجعل منه سؤالاً (ماكراً) من وجهة النظر التي نتحرك فيها هو أنه يخفي ويكتم سؤالا آخر معاكساً، أكثر صراحة وأعمق تعبيراً، وبالتالي أقدر على زعزعة التصور السائد. هذا السؤال (المقموع) هو: ماذا تغير في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم؟ ونحن لانشك في أن قارئنا العربي – نعني الذي يحمل عقلا تكون في الثقافة العربية ومن خلالها وحدها – قد اهتز وانفعل مع هذا السؤال الثاني بصورة لم تحدث له مع السؤال الاول. إن السؤال الأول سؤال مسالم، بل (منوم)، والسؤال الثاني سؤال مستفز تمتد آثاره، بعيدا، في (أحشائنا) الفكرية، ولذلك فهو أكثر التصاقا بموضوعه، أكثر مساءلة له.

ماذا تغير في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم ؟ سؤال يمكن قراءته هو الآخر بصيغة الاستفهام الانكاري وسيكون له من المشروعية أكثر مما للسؤال الأول ؟ آية ذلك اننا نشعر جميعا بأن امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وعنترة ولبيد والنابغة وزهير بن أبي سلمى.

وابن عباس وعلي بن أبي طالب ومالك وسيبويه والشافعي وابن حنبل ... والجاحظ والمبرد والأصمعي .. والأشعري والغزالي والجنيد وابن تيمية ... ومن قبله الطبري والمسعودي وابن الأثير ... والفاربي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ... ومن بعد هؤلاء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والعقاد والقائمة طويلة .... نشعر بهؤلاء جميعا يعيشون معنا هنا أو يقفون هناك أمامنا على خشبة مسرح واحد، مسرح الثقافة العربية الذي لم يسدل الستار فيه بعد، ولو مرة واحدة. ولا يمكن أن يعترض على هذا (الادعاء) إلا من يشعر شعورا صادقا وجازما، عندما يقرأ أحد هؤلاء، أنه لا يفهمه، لا يتجاوب معه، لا يتجاوب معه، لا يستمع اليه، لا يستسيغ خطابه ومنطقه، أو على الأقل يشعر أنه من عالم غير عالمه. وكيف يمكن ذلك ونحن جميعا أبناء الثقافة العربية نتعلم القراءة، والفهم، والاستماع، والخطاب، والمنطق منذ طفولتنا، وخلال جميع مراحل دراستنا من (أبطال) هذه الثقافة الذين ذكرنا بعضهم ... وإذن فمن من المثقفين (العرب) من يستطيع الادعاء بانه من عالم غير عالم هؤلاء، أو أنه لم تعد له صلة مع أبطال خشبة المسرح الثقافي العربي.. (الخالد)؟)

كلام الجابري هذا يكشف حجم ما يسكت عنه الإيديلوجي العربي، وحجم ما يستخف به مفكر كالجابري، إنه يقدم سؤالا يقول فيه: ماذا بقي ثابتا في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم؟ ثم يعتبر هذا السؤال ماكراً لأنه (يخفي ويكتم سؤالا آخر معاكسا، أكثر صراحة وأعمق تعبيرا، وبالتالي أقدر على زعزعة التصور السائد. هذا السؤال (المقموع) هو: ماذا تغير في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم ؟ ثم يصف السؤال الأول بأنه سؤال مسالم، بل (منوم)، ويصف السؤال الثاني بأنه مستفز تمتد آثاره، بعيدا ، في (أحشائنا) الفكرية، ولذلك فهو أكثر التصاقا بموضوعه، أكثر مساءلة له... وسيكون له من المشروعية أكثر مما للسؤال الأول؟

ثم يسوق الدليل على زعمه فيقول: آية ذلك اننا نشعر جميعا بأن امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وعنترة ولبيد والنابغة وزهير بن أبي سلمى.
وابن عباس وعلي بن أبي طالب ومالك وسيبويه والشافعي وابن حنبل ... والجاحظ والمبرد والأصمعي .. والأشعري والغزالي والجنيد وابن تيمية ... ومن قبله الطبري والمسعودي وابن الأثير ... والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ... ومن بعد هؤلاء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والعقاد والقائمة طويلة ....
هنا ينكشف الجابري لا أقول السطحي كما يصفه أدونيس، بل المتجاهل كما يتضح من طرحه للسؤالين السابقين، ومن خلال تقديمه لتلك الرموز التي يعتبر بقاءها آية على أهمية السؤال الثاني مقارنة بالأول.
الجابري يريدنا أن نقفز السؤال الأول، لأن الإجابة عليه تعني قراءة مكونات العقل العربي وتفاعلاتها الحقيقية لا التي يريد تسويقها الجابري، إنه يصف السؤال الأول بأنه سؤال (ماكر)، مضلل، مسالم، بل (منوم)، هذه الجمل الاستخفافية تخدر القاريء السطحي ليأخذه الجابري إلى سؤاله الثاني الذي لم يجب عليه، بل زاده ضبابية. وعند التأمل يتضح حجم السؤال الأول وأنه عكس ما وصفه الجابري. إنه سؤال ثوري يهز كيان العربي من أعماقه، ويعيد إليه حيويته التي أفقده إياها ما يسمى بالفكر العربي. إنه سؤال ضخم والإجابة عليه أضخم. أجل ماذا بقي ثابتا في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم؟
الإجابة العمقية لهذا السؤال تبين أنه لم يبق من العصر الجاهلي شيء على الإطلاق، لأنه لا يوجد شيء سوى الظلام، وحتى الشعر الجاهلي لم يبق لأنه جاهلي، أو لأن الجاهلية تمثل عمقا عربياً اليوم. فالشعر الجاهلي في نظر من نقله ونظر النقاد السابقين واللاحقين، بل في نظر المؤدلجين بالعداء لكل ما هو إسلامي كأدونيس.. لم يكن ليبق إلى اليوم إلا لارتباطه التفسيري والبياني بالنص الإسلامي (القرآن والسنة)، فالشعر الجاهلي بقي من أجل توظيفه كقاموس لغوي لبعض معاني القرآن والسنة، التي قد تستغلق على المفسر أو الفقيه، هذا هو ما منح الشعر الجاهلي فرصة البقاء، إذا فالباقي حتى اليوم هو النص الإسلامي وما يمنحه هذا النص لغيره من عوامل البقاء.
السؤال الأول ليس مخدراً وليس منوما كما يزعم الجابري، بل هو سؤال عميق يكشف عن تجاهل الجابري لما بقي منذ العصر الجاهلي حتى اليوم: أين الوثنية، أين وأد البنات، أين الثارات القبلية، أين الأمية، أين الفوضى الضاربة داخل كل شبر في العالم الجاهلي، كل ذلك امحى بكلمة واحدة لا تزال تتلى ليل نهار حتى اليوم (اقرأ باسم ربك الذي خلق).. ذهبت الجاهلية بآية من القرآن، وبقيت الآية تمثل هوية العالم العربي الثقافية حتى اليوم.
أما السؤال الثاني الذي يعتبره الجابري أكثر صراحة وأعمق تعبيرا، وأقدر على زعزعة التصور السائد. ويتعاطف معه بوصفه السؤال (المقموع) وهو: ماذا تغير في الثقافة العربية منذ (الجاهلية) إلى اليوم؟ ثم يبالغ الجابري كعادة المفكرين

العرب بتضخيم وجهات نظرهم فيقول: ونحن لانشك في أن قارئنا العربي – نعني الذي يحمل عقلا تكون في الثقافة العربية ومن خلالها وحدها – قد اهتز وانفعل مع هذا السؤال الثاني بصورة لم تحدث له مع السؤال الاول. إن السؤال الأول سؤال مسالم، بل (منوم).

يعتقد الجابري أن هذا السؤال أكثر صراحة وأعمق تعبيرا، وأقدر على زعزعة التصور السائد، ولا أدري أي تصور سائد استطاع هذا السؤال زعزعته، إن أول شيء يبدأ بزعزعته هو التصورات السائدة عن كل شيء لا يتماهى مع النص، أما تلك النماذج التي اعتبرها الجابري دليله على صحة مزاعمه وهي قوله: آية ذلك اننا نشعر جميعا بأن امرئ القيس وعمرو بن كلثوم وعنترة ولبيد والنابغة وزهير بن أبي سلمى.

وابن عباس وعلي بن أبي طالب ومالك وسيبويه والشافعي وابن حنبل ... والجاحظ والمبرد والأصمعي .. والأشعري والغزالي والجنيد وابن تيمية ... ومن قبله الطبري والمسعودي وابن الأثير ... والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون ... ومن بعد هؤلاء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والعقاد والقائمة طويلة ....

لنتأمل تلك النماذج والأسماء، إنها أسماء جاهلية وأخرى إسلامية: الأسماء الجاهلية تؤيد ما قلته.. إنها أسماء لشعراء فقط، وسر بقائهم كما يؤكد الدارسون هو ارتباط الشعر الجاهلي بعملية تفسير القرآن لغوياً، أي الاحتفاظ به كقاموس لغوي لا أكثر، ثم انطلقت تداعيات ذلك الاحتفاظ بدءا من تقعيدات الخليل بن أحمد للشعر، ذلك العبقري من طبقة تابع التابعين، وأحد رواة الحديث، وقد بلغ درجة القبول عند نقاد الجرح والتعديل، وهو رجل نحو ولغة، ومن المسلم به أن النحو تأسس من أجل النص القرآني.

الجاهلية ليس فيها من الرموز الثقافية الفكرية سوى الشعراء، وهم القاسم المشترك لشعوب العالم المتقدم والمتخلف.

فإذا اتجهنا للقائمة الأخرى، غير الجاهلية، وجدناها أسماءً خلقها النص القرآني وفجر طاقاتها، ولولاه لما نشأت وعرفت، وهم أصحاب تخصصات جديدة على مستوى العالم، وهي تعتبر من تداعيات النص الإسلامي وآثاره التي لا تنتهي.

فابن عباس صحابي مفسر وفقيه وزعيم سياسي ومجاهد في سبيل النص، وعلي بن أبي طالب أحد كتاب الوحي مناضل ومجاهد وسياسي وقائد وخليفة راشد وفقيه وقاض، ومالك راو للحديث وفقيه مشهور وناقد من نقاد الجرح والتعديل، والشافعي فقيه ومحدث وأصولي بارع وشاعر من شعراء الحكمة، وأحمد بن حنبل ناقد ومحدث وفقيه ومفكر عقائدي نال ما نال على يد المعتزلة التنويريين، وسجن وجلد على مدى عشر سنوات، وسيبويه والجاحظ والمبرد والأصمعي هم من أمثال الخليل بن أحمد، والأشعري والغزالي والجنيد كانوا علماء عقائديين، وابن تيمية كان موسوعة سلفية حوت علوم عصرها من التفسير وانتهاءً بالفلسفة، والطبري مفسر ومحدث وناقد ومؤرخ عظيم، والمسعودي وابن الأثير مؤرخان وعالمان

إسلاميان مشهوران، أما الفارابي وابن سينا وابن رشد فلولا النص لما قاما بما قاما به، فقد كانا في حالة دفاع لا ينقطع عن أي تهمة لهم بالانفصال عن النص، وابن خلدون مؤرخ وناقد إسلامي، وفي العصر الحديث يبقى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والعقاد كمفكرين إسلاميين بدرجات متفاوتة قربا وبعداً.

فليقل الجابري من مِن هؤلاء يعتبر نفسه عربياً، قبل أن يكون إسلاميا؟ حتى أولئك الذين كانت أنشطتهم تتمحور حول اللغة نفسها وبحور شعرها وصرفها ونحوها، كانوا إسلاميين قبل أن يكونوا عرباً، بل إن الكثير منهم لم يكونوا عرباً، بل اعتنقوا النص الإسلامي فحولهم ذلك النص إلى عرب، ولكن قبل ذلك إسلاميين، فسيبويه أستاذ النحو العربي لم يكن عربياً، وأشهر الفقهاء أبو حنيفة فارسي، بل إن الفقهاء والمحدثين من غير العرب أكثر من أن يحصوا.

وحتى من يسمون بفلاسفة الإسلام لم يكن منهم أحد من العرب إلا الكندي، فالفارابي القائل – روح المعاني ٢٣ – ٥٤: (وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلي في قوله تعالى قل يحييها الذي الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم.. الخ وهو الله تعالى أنشأ العظام وأحياها أول مرة وكل من أنشأ شيئا أولا قادر على إنشائه وإحيائه ثانيا فيلزم أن الله عز وجل قادر على إنشائها وإحياءها بقواها ثانيا)

الفارابي كان من فاراب، وابن سينا كان فارسيا.. وغيرهم ممن تطول القائمة بذكرهم. إذا فالسؤال الأول وكذلك الثاني وكل الأسئلة التي يطرحها العلماني العربي تطرح في معزل عن الموضوعية والحياد، وفي مناخ يراد له أن يتجاهل الكثير ويسكت عن الكثير.. الكثير.

الجابري يدرك كغيره من المفكرين العرب أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه ليس عقلا عربيا وإن نطق بحروف عربية.

الجابري يدرك كغيره من المفكرين العرب أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأن هذا العقل هو من حول جزيرة أمية إلى أمة تنقسم إلى نصفين عالم ومتعلم.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه، يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي حول العرب من أمة تمارس إفناء بعضها داخل الحي الواحد، إلى أمة تتهاوى أمامها الإمبراطوريات..

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، والذي أوجد في أمة تعيش على هامش التاريخ موجا هادرا من شتى التخصصات، وما المنظومات البيانية إلا أحد تداعيات نصه القرآني السني.

الجابري يدرك كغيره من المفكرين العرب أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، والذي حول العرب رعاء الشاء والإبل إلى قادة بنوا آلاف السفن في بحر اسمه بحر الروم حتى سيطروا عليه تماما، وما زالت سيرهم ونظرياتهم في الحكم تدرس في جامعات العالم.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه وكيف أقنع الأوس والخزرج الذين قاتلوا بعضا عشرين عاما من أجل حصان، ورفض بعضهم أن يخضع لبعض في أتفه الأمور، أن يتنازلوا لرجل من أضعف قبائل قريش بالخلافة، داخل مدينتهم وعلى أرضهم وفي ممتلكاتهم في دقائق، ودون أن تسيل قطرة دم واحدة بعد أن تليت عليهم آية الغار.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، والذي استطاع تحويل الروم والقبط والبربر إلى مسلمين يمارسون نشره والتبشير به، وأبناؤهم اليوم يحملون فكر الإسلام وعقيدته اليوم.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه لم يكتف بتحويل غير العرب إلى مسلمين، بل إلى عرب، بل إلى أساتذة العربية والحديث والفقه والتفسير وشتى التخصصات.. هل فعلوها وأبدعوا فيها تحت تهديد السلاح أم عشقا للكتاب والسنة.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه لم يكتف بتحويل غير العرب إلى عرب، بل صهر اللهجات العربية في لغته، لتتحول إلى اللغة الرسمية وتذبل اللغات العربية الأخرى متحولة إلى عامية.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه الذي حول هؤلاء العرب الذين لم يكونوا يعرفون سوى بالشعر والخطابة، إلى مبدعي تخصصات جديدة على مستوى العالم، كالمحدث والفقيه والمفسر والنحوي والفرائضي.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه هو أستاذ التخصصات التي نشأت عند العرب دون اقتباس من أحد أو اتصال بأحد سوى القرآن والسنة، كالتاريخ والسير والمغازي والفقه والتفسير والحديث وعلم الجرح والتعديل.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه الذي أوجد علما لا يوجد ولم يوجد في أي أمة قبله، فعلم الجرح والتعديل الذي نشأ من نصوص القرآن والسنة مكن من الاحتفاظ بهما نقيين حتى اليوم.

الجابري يدرك أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، وأنه العقل الذي تداعت من قراءته قراءة إيديلوجية: مذاهب وفرق عقائدية، ومنها ما يسمى بالفكر العربي نفسه، والذي يدعي أنه يقرأ النصين قراءة لا على مثال سابق كما يبشر أدونيس.

وأخيرا وليس آخرا فالجابري يدرك كغيره من المفكرين العرب أن خوض هذا المسكوت عنه يعني الإفصاح عن هوية العقل الذي يتحدث عنه، تلك الهوية التي ستنسف ما قرأه عن تعريف العقل، ويريد استنساخه على القرآن والسنة وأنه:

(العقل الذي تكون وتشكل داخل الثقافة العربية، في نفس الوقت الذي عمل هو نفسه على إنتاجها وإعادة انتاجها)
الجابري يريد عقلاً عربياً أنتجه العرب وبمقاييس يبتكرها هو، يريد منتجا بشريا في مخيلته ليمارس تنظيراته عليه. وهذا النص القرآني لا يسعفه في هذا المأرب، والتاريخ والحاضر والعلم التجريبي لاتسعفه في ذلك، العالم العربي قبل القرآن: لا شيء، تائه بين الإمبراطوريات والحضارات والفلسفات، أمة تمدح أو تهجو نفسها، وتتسول على أبواب غيرها، لا دولة ولا قيادة ولا قراءة ولا كتابة، بل كم هائل من الخرافات والأساطير والأصنام والثارات والهجاء والفخر الذي لا طائل من ورائه، كما هم العرب اليوم.
فأي شيء يمكن أن تنتجه أمة بهذه المواصفات، وأي عقل عربي (تكون وتشكل داخل هذه الثقافة العربية وعمل هو نفسه على إنتاجها وإعادة إنتاجها)؟ لا شيء سوى الهراء. حتى ماضيها مات ولم يتبق منه سوى بقايا قصائد، وحتى هذه القصائد لم تكن لتبقى لولا نزول القرآن.
فجأة.. فجأة زلزال يدمر تلك الأصنام والخرافات.. ويعصف بـ(العقل العربي الحقيقي) زلزال مفاجيء لم تعرفه العرب من قبل.. فجأة ينزل القرآن وتنطق السنة فإذا العرب أكبر دولة في العالم، ليس بجيشهم، بل بعلمهم وتحضرهم وإنسانيتهم ورحمتهم، وإذا الأمم الساخرة منهم المستعبدة لبعضهم تذوب في عقيدتهم، فتغيرها تلك العقيدة، فتذوب مرة أخرى بلغة قرآنهم وتصبح عربا مثلهم، وتتحول إلى امبراطوريات تقوى كلما اتخذت القرآن منهاجا، وتسقط عندما تبدأ التفلت منه، أمة تقوى ويشتد عودها وتهابها الأمم كلما كانت باتجاه الآفاق التي رسمها القرآن، وتضعف وتتهاوى كلما انحرفت عن تلك الآفاق.. الجابري لا يريد الخوض في هذا الموضوع الذي هو لب العقل الذي يتناوله وطاقته سر إبداعه ومصدر وهجه، لأنه سيعرض بحثه لانتقاد المثقفين العرب الذين لن يسمحوا بتسميته بعد اليوم بالمفكر، بل سيلقى في زنزانة الماضوية والظلامية والسلفوية وهو الذي عاش عمره مبشرا ومفكرا عربياً.
ولذا اختطف – بحسن نية – ولا أقول كما يقول "حرب" بنية تكتيكية، ذلك العقل وأعاره لعصر التداعيات "عصر التدوين"
وقبل أن أختم أود الاحتفاء بمثال الجابري الذي يقول فيه: (إن الأداة التي نحفر الأرض بها – الفأس مثلا – تستمد هويتها ، ولنقل ماهيتها، من فاعليتها: الحفر. ولكنها تستمد قدرتها على الحفر من اجزائها وطريقة تركيبها وأيضا من أسلوب استعمالها... أفلا ينطبق هذا على (أداة التفكير) سواء سميناها (الفكر) أو (العقل)؟)
وأنا أسأل بدوري.. هل الأداة التي غيرت العرب وما زالت تغيرهم حتى اليوم، هي تلك المنظومات المعرفية الثلاث، التي تبلورت في عصر التدوين كما يسميه، أم المعلقات الجاهلية؟ أم القرآن والسنة اللذان لا يزالان هما المؤثران الأولان في العقل العربي، واللذان يكسبان كل يوم أتباعا.. ليس من العرب فقط، بل من الغرب والشرق، ودون إكراه أو تهديد أو غزو، أو سلطة، فالمبشرون بهما يعانون القمع

والتهميش والعزل من قبل السلطات العلمانية العربية، مع تواطؤ من الحكومات الغربية المؤدلجة ضد ما هو كل عربي ومسلم، وهو عكس ما يحدث للكتاب المقدس.. فهذا الأخير يحظى بموارد هائلة ودعم هائلين في الغرب العلماني، حيث تضخ المليارات تلو المليارات في سبيل التبشير به، ويكفي أن نعلم أن جماعات تنصيرية رصدت في عام ٢٠٠٥ أكثر من ٣٦٠ مليار دولار للتبشير بالكتاب المقدس، وهو مبلغ يعادل ميزانية أغنى دولة عربية (السعودية) في ذلك العام أكثر من خمس مرات، ومع ذلك لا يوجد قس أو حتى بابا، بل لا يوجد مسيحي واحد يحفظ ذلك الكتاب المقدس، بينما يحفظ القرآن الملايين من غير العرب باللغة العربية، ناهيك عن العرب؟

هل ما خلق ويعيد خلق العقل العربي هو تلك المنظومات الثلاث، أم الشعر الجاهلي، أم القرآن والسنة اللذان يدهشان علماء العالم بعد بحوث ودراسات تجريبية عميقة ومضنية.. فلا يجدون بداً من الاعتراف بأنه كتاب غير بشري وأنه وحي يوحى، وأن المعلومات التي جاء بها متناولة الطب وجسد الإنسان والكون بالغة الدقة، وأن آياته كانت تتضمن تلك المعلومات لتكون من خلالها أدلة على صحة أخباره عن التوحيد والبعث والنشور والجنة والنار، ودليلا آخر على أن تعاليمه وتشريعاته من عند الله، لتنجلي الصورة من جديد، ويذوب الطلاء وترفع الأقنعة، ويبقى الإنسان أمام حقيقة طالما بح صوت العلماني العربي في تزييفها والصراخ بها: لا أحد يملك الحقيقة..

هذه هي الحقيقة التي كشفها العلماني الغربي بمختبراته ومعامله وغواصاته وصواريخه ومركباته ووكالاته الفضائية، والتي يريد العلماني العربي أن يشطبها بينما هو يفلي رأس صاحبه في غابة الكسل والتخلف والقمع التي يريد قذفنا ومحاصرتنا فيها، هكذا ودون أن يقدم دليلا يدحض به حجة أستاذه الغربي الذي مشى على القمر، ووضع أجهزة على المريخ، وهو طموح باتجاه الشمس وما بعد الشمس. هل يمكن مقارنة الإنسان الغربي المنجز بعلماني عربي كل إنجازاته ديوان شعر أورواية خليعة أومعتقل؟

القرآن شكل العرب وغيرهم وما زال يشكلهم ويغيرهم، ولو كان كتابا بشريا لما فعل ذلك حتى لو انتسب لله زورا. ولو كان كتابا بشريا لما أقنع بعد ألف وأربعمائة عام مراجع العلم التجريبي أمثال البروفسيور كيث مور وبوكاي ومارشال جونسون ومئات آخرين، وعشرات بدأوا بفتح ملفات علمية تجريبية تنبعث من القرآن والسنة، وتحصل على براءات اختراع من النصين الإسلاميين.

إذا كان القرآن والسنة يفعلان ذلك بأناس هم رواد ومراجع العلم الحديث، ومثال الشعوب في التطور المادي والنهضة العلمية، وإذا كان القرآن والسنة فعلا ما فعلا في العرب وغيرهم ومازالا حتى اليوم، وإذا كانا يعيدان معتنقيهما اليوم إلى الصدارة في مقاعد العلم والبرلمانات النزيهة، فأي فوضى تكمن في الدراسات النقدية للتراث إذا تجاوزتهما وتناولت تداعياتهما فقط، وأي إيديلوجية توجه أولئك المفكرين العرب وهم يمارسون انتقائية توظف باتجاه آراء مسبقة في رؤوسهم؟!

خصوصية العقل العربي المعاصر

للعقل العربي الحديث خصوصية لا شك.. لا بالمعنى الإيديلوجي التمجيدي المتداول والمحاط بالهالات الشعارات، بل في عملية ظهوره، والناشئة بصورة مفاجئة عن طريق افتعال معركة وهمية مع تراثه، وهي خصوصية تميزه عن جميع العقول في العالم أجمع، ففي حين تجاوزت كل العقول تراثها تجاوزا كليا بعد دراسة وفحص دقيقين، محولة إياه إلى تاريخ وليس – كما يقول الجابري – إلى جسر للمستقبل، حيث يتمثل هذا التخلي بحصره في جدران المتاحف والمعابد، وقطع الصلة بينه وبين المنجز المادي، بل وحتى الأخلاقي، بعد أن تم تحويل الأخلاق إلى منتج اقتصادي، وفي حين تم تجاوز الثقافة البوذية والكنفوشية والمسيحية وتراثها، وإزاحتها جميعا من طريق النهضة المادية لأنها تمثل معوقا، أو القيام بتحويرها لكي توظف لمصلحة التقدم المادي، وهو ما يعتبر منجزا للفكر الغربي والذي تأثر به الفكرين الأبرز الهندوسي والبوذي، بعد معالجة علمية تجريبية للتراث.

بينما يتم كل ذلك في العالم الغربي، والمتقدم من الشرقي، تجري الأمور في مسار معاكس ومختلف تماما في العالم العربي، بل والإسلامي، فتبرع ما يسمى بالنخب العربية بافتعال الصراع وتوهم الإشكاليات، وإعلانه الحرب مباشرة ودون هوادة مع التراث، والتراث الإسلامي بالتحديد، نتج عنه ما يسمى بالعقل العربي، وهو عقل نشأ متزامنا مع كون الدول الإسلامية العربية في حال أقوى مما هي عليه الآن بكثير جدا مقارنة بما حولها، بل كانت متقدمة بالنسبة لدول كالصين واليابان وكوريا والهند، فالدولة الإسلامية العثمانية مثلا كانت تصنف ضمن الدول العظمى في زمنها، وكانت منسجمة مع التطور العلمي الذي بدأ ينهض في أوروبا، ولم تكن الدولة الإسلامية تعيش ممانعة مع التقدم التقني والعلمي على الإطلاق، وإن كانت بدأت في الانحراف عن النصين، ولعل من الشواهد على ذلك تلك البعثات اليابانية التي كانت ترسل للتعلم في الدول الإسلامية آنذاك، إلى تركيا ومصر على سبيل المثال قبل قرن من الزمن، لذا تشكل العقل العربي على خلفية تتميز بالتناقض وينقصها الكثير من العمق والنزاهة:

من ناحية العمق: تولى مهمة التبشير بإسقاط الدولة الإسلامية العثمانية كمستعمر لعالم عربي – لا وجود سابق له - وذلك بالتعاون مع المستعمر الذي يمثل العدو التاريخي للأمة.

من حيث التناقض: يتضح في شن حرب ثقافية شرسة مارسها العلمانيون العرب لتحطيم الجسر الذي يربط العالم العربي (المتخيل) بالعالم الإسلامي والدولة العثمانية. هذا الجسر هو بالطبع التراث الإسلامي، وبالتحديد قلبه (القرآن والسنة). وبما أن الأمة الإسلامية لم يكن فيها كنيسة ولا رجال دين ولا محاكم تفتيش، فقد تم تلفيق تهم التخلف للقرآن والسنة مباشرة.

أما من ناحية النزاهة: فكانت النزاهة أبعد ما يكون عن هذه العقلية، فقد تفرغت لتحطيم روابطها التاريخية بأمة الإسلام، وتغاضت تماما عن التراث المسيحي

مجاملة للمستعمر الغربي الذي يمثل (الأستاذ) الذي لقنها العلمانية تلقينا، ومجاملة لرفاق النضال اليهود والمسيحيين العرب، مع أن الموضوعية والحياد والعلمانية الحقيقية كانت تقتضي أن يجمع التراث الذي يمثل إرثا للعلماني العربي مهما كان انتماؤه، ثم ينقد جميعا نقدا علمياً دون تحيز، وبحياد علمي تام. لكن لم يحدث شيء من ذلك، وبما أن العلمانية العربية قد نهضت على تلك القواعد المهترئة: (التناقض وعدم النزاهة والافتقار للعمق) نشأ العالم العربي عليها جميعا.. نشأ العقل العربي والعالم العربي عاجزين لا عن التقدم نحو الأمام، ولا عن الوقوف أيضاً، بل عن إيقاف التخلف والتراجع للخلف كما أشار الجابري.

أنجز العقل العربي بتواطؤ تلك النخب المؤدلجة والمسيسة مع النخب السياسية الغربية المستعمرة، لا المبدعة ولا المخترعة والمكتشفة، وهي عملية سياسية، ولا يمكن حسابها على العمل العقلي والفكري، كما أن العربي يمثل انتكاسة عن العلمانية الحقيقية بعد تمكنه من السلطة، حيث تنصل – منها عمليا – منذ أن اكتشف أن العلم التجريبي الحديث يقف إلى صف النص الإسلامي (القرآن والسنة الصحيحة)، وهي صدمة أفقدته صوابه، فصار إقصائيا إلى درجة لا تطاق، بعد أن أدرك استحالة نسف علمانيته العربية للثوابت الإسلامية المدعومة بالعلم التجريبي الحديث، مماجعل العلماني العربي مجرد ظاهرة صوتية متورمة بالادعائية والتعالم والتنظير، الذي سرعان ما ينكشف عند أول مثال يضربه، وسرعان ما يتخلى الناس عنه عندما يتحول إلى واقع سياسي أو اقتصادي.

لم لم يظهر فيلسوف عربي

يثرثر البسطاء عن عدم ظهور فيلسوف عربي حقيقي، ويتناسون حقيقة أثر القرآن والسنة العميقة في تشكيل العقل العربي (الإسلامي حقيقة) هذا الأثر امتد منذ نزول القرآن حتى اليوم، حيث لم يظهر في العالم العربي والإسلامي فيلسوف واحد، رغم هذا الكم الهائل من دارسي الفلسفة قديما وحديثا، فكل المتفلسفة العرب كانوا توفيقيين، نظرا لأن الفلسفة بحث دائم عن حقيقة يصعب الوصول إليها، كما كان الأمر في أوروبا قبل الكتاب المقدس، وقد فشل الكتاب المقدس بأساطيره في تقديم هذه الحقيقة، مما جعل الغرب حقلا خصبا للفلسفة من جديد، نظرا لأنه لا حقيقة في الغرب سوى ما يدعمه العلم التجريبي، أي أن الحقيقة قد تركزت في التعاطي مع المادة، فبينما يتخذ التقدم المادي في الغرب شكلا تصاعديا مذهلا وسريعا، نجد تخبطا في النظريات النفسية والتربوية والاجتماعية عندهم، أنتج ذلك الخواء الذي يعيشه الغرب اليوم، وما تلك القيم الغربية التي يتحدث عنها بعض الكتاب العرب المندهشين بكل ما في الغرب، كقيم الصدق والنظام والانضباط، تلك القيم لا تنبع من الإيمان بها دينيا أو فكريا، بل هي أثر لتطبيق النظام بشكل حاسم وحازم من قبل النظام السياسي على الجميع، وهي عملية مادية بحته، وهو عكس الفوضى الضاربة في عالمنا العربي الذي يمسك العلماني العربي بزمامه، ليقوم القرآن والسنة بلملمة ما تناثر هنا وهناك، وهي محاولة مضنية لنظرا لسوء الإدارة

العلمانية لمفاصل الحياة العربية. القرآن بشهادة العلم التجريبي يقدم الحقيقة التي يريد العلماني العربي انتزاعها وإلغاءها بإنشائية بليدة، ولغة ساخرة من كل جميل، ولذلك فلن يظهر فيلسوف في العالم العربي الإسلامي إلا بالصورة التقليدية الرشدية أو السينوية التوفيقية، لأن الحلول الفكرية التي يقدمها المفكر العربي هي لإشكاليات يتوهمها مع التراث، مما يستوجب استيراد الإشكاليات نفسها من مواطنها، أي أنه أيضا يظل بمعزل عن الواقع الذي يزعم التصدي لإشكالياته، كما أن من اسباب استحالة ولادة فيلسوف عربي:

- أن العلماني العربي ظل طوال القرن العشرين يردد شعار (الصراع الحتمي بين العلم والنص الإسلامي) لكنه لم ينجح طوال هذا القرن في تقديم مثال واحد يدعم ذلك الشعار، وأثناء هذا الضجيج الذي يثيره هذا الشعار يأتي الدعم من العلماني التجريبي الغربي للنص الإسلامي لا لذلك الشعار.

- أن العلماني العربي ولد في هذه الظروف التي نشهدها اليوم، وما زال يتناسل في مثلها، وهي ظروف سياسية بعيدة كل البعد عن التعاطي الفكري والعقلي، بل إنه لا يمكن أن يتناسل إلا في مثل هذه الظروف، التي تكون فيها أقدام المستعمر تملأ محيطه، وهذا ليس تخوينا، إنما تجلية لحقيقة مؤداها: أن العلمانية العربية نشأت بعد ألف وثلاثمائة عام من الاستمرارية الإسلامية، لكنها لم تنشأ من أعماق الأمة العربية والإسلامية، أو نتيجة لمتطلبات مرحلة وضرورات مرحلية، بل أنشئت وترعرت من خارجها، ثم غرست غرسا ولم تنبت، هذا الخارج يتجسد في المستعمر والغازي، ومما يلاحظ على هذا التوجه العلماني أنه ينشط كلما اقتربت بوارج المستعمر، وهي ظاهرة محيرة تؤكد أن هذا الفكر لا يحضى بالقبول الكافي في الأجواء الطبيعية، رغم ظهوره الطاغي في كافة المؤسسات الرسمية (الإعلامية منها خاصة)، وهذا ما يفسر حقيقة ما يسمى بالعقل العربي وأنه ليس عربيا كما وصفه الجابري وبناه وكونه، فهو لا يتحدث مطلقا عن غير الإسلامي، مما يثير التساؤل حول عدم حضورٍ لأي من التراث المسيحي واليهودي، رغم الآيات والأحاديث التي لاتحصى، والتي تتناول الثقافتين والموقف منهما.

- أن الدراسات التي تمت لتجلية ما يسمى بالعقل العربي، تمت بمعزل عن الموضوعية.. تمت بمعزل عن العلم التجريبي، لتعوم في بحور العلوم الإنسانية المتلاطمة.. الفلسفة وعلم النفس والاجتماع وغيرها.

- أن الدراسات التي تمت لتجلية ما يسمى بالعقل العربي تمت بمعزل عن العلم التجريبي، وبتجاهل تام له، مع أنه العلم الوحيد القادر على إسقاط المزيف والتشكيك بالثوابت المختلقة.

- الدراسات التي تمت لتجلية ما يسمى بالعقل العربي كانت انتقائية تستدعي من التراث ما تريد، وتقصي منه ما تخشى أن يسبب حرجا سياسيا أو ماديا أو وظيفيا لها.

- الدراسات التي تمت لتجلية ما يسمى بالعقل العربي تهمش غير الإسلامي، لا إقصاءا بل تجنبا لرد فعل الآخر الحاضن، والذي تحرص على استمرارية تدفق

مكتسباتها المادية والمعنوية منه، ولعل في نماذج أركون وأدونيس وأبو زيد أوضح مثال.
إذا فإذا أراد العلماني العربي أن يوجد حقلا تنبت فيه بذور الفلسفة، فعليه أولا أن ينجح في إسقاط القرآن والسنة والقضاء عليهما، كما نجح العلماني الغربي، لا كما فشل أركون وبشكل مثير للسخرية. دون ذلك ستظل معاناة العلماني العربي مع نفسه ومع أمته، وسيظل في معاناة لا تنقطع وممارسة لا نهائية مع نفي الذات.

عن أي عقل يتحدث الجابري

الجابري لا يتحدث عن العقل العربي، بل عن عقل إسلامي سماه (العقل العربي)، ومن خلال مسبق تبين أن العقل العربي هو أكثر الغائبين في دراسته، ورغم الحديث الكثير عن العربي والصحراء والانفصال وقياس الغائب على الشاهد، إلا أن الجابري لم يفلح في تقديم أي عقل عربي. وانشغل عن ذاك بفحص أدوات التفكير وآليات الانتاج المعرفي في فروع الثقافة الإسلامية، والتي هي مجرد تداعيات للقرآن والسنة، وهو وإن كان كما يقول حرب (نقد النص ١١٧): (إذ يفيد من العقلانيات الحديثة ويتسلح بمناهج نقدية عصرية، فإنه لا يستخدم هذه الأشكال والأدوات المعرفية كما استخدمها أصحابها، بل هو يحسن توظيفها بالعمل على تكييفها وإعادة انتاجها في معرض اشتغاله على موضوع بحثه، الذي هو هنا فروع الثقافة العربية الاسلامية وميادينها العلمية والمعرفية، أي أنه ينجح في أقلمتها وتعريبها وعلى نحو يتيح له المساهمة في تحديث اللغة وتجديد الفكر في آن معاً، كما ينم عن ذلك خطابه)
إذا فكما صرح حرب فموضوع اشتغال الجابري وموضوع بحثه هو فروع الثقافة العربية الاسلامية وميادينها العلمية والمعرفية. الجابري يتجه نحو الفروع، فيكون قد تجاهل بممارسته تلك بدايات تشكل العقل العربي، والمتشكل قبل الإسلام بآلاف السنوات، حيث كان خليطا من بقايا التوحيد والوثنيات – في الغالبية الساحقة – وينتظم داخله اليهودي والمسيحي والمجوسي هنا وهناك، وكان الوثني لا يشعر بأي ميزة أو تفوق للآخر (الكتابي) عليه، بل إن هذا الكتابي فشل في جذب الوثني رغم مئات السنوات من الاختلاط، وأعزو ذلك إلى أن العقل الكتابي بشقيه لم يكن مسكونا برسالية فكره والتبشير به خاصة في الجانب اليهودي منه.. كان على العكس مأخوذا بحالة من الترقب والتوجس والانتظار لرسالة جديدة، مما أشغله عن ممارسة التبشير بشكل جاد، لكنه وبعد أن ظهر الإسلام، واتضح أن الوحي القادم من بلاد العرب، وبالتحديد من جبال فاران (مكة) – كما هو في التوراة – لم يكن امتدادا يهوديا ولا مسيحيا، وأن حامله عربي وليس من بني إسرائيل، عندها نشط التبشير لوقف انتشاره وامتداده. وهنا يأتي السؤال الأهم: إذا كان الوحي عربي اللغة، والنبي عربي الأصل والمنشأ واللغة، فلم لا يسمى بـ(العقل العربي)؟
والإجابة هي أن العربية كانت مجرد وعاء لا بنية ولا تكوينا، كانت وعاءً لا أكثر، بل يمكنني القول أن العقل العربي بدأ بالانقراض يوم نزل القرآن، فبنزول النص

القرآني انسحبت اليهودية من أمامه، باحثة عن نبي يهودي غير عربي، وتمايزت النصرانية بين الانضواء تحت راية الإسلام، أو حمل راية العداء له ملتحقة بالمسيحي غير العربي (الروماني). لكن ما تم – وهو الأهم – هو اجتثاث مرتكزات العقل العربي الفكرية: الوثنية والخرافة والأسطورة، لتبدأ عملية إعادة خلق وتشكيل علاقة الإنسان بالله والكون والحياة، فمثلا:

- في الشأن العقدي: أعيد التوحيد نقيا وتم نفي الصفات البشرية عن الله كالزوجة والابن والبنت والولادة...

- في الجانب العبادي: جعل العبادة كلها محرمة ما لم يكن مصدرها الكتاب والسنة، وبذلك أنشئت سياج بالغة القوة للإبقاء على نقاء العبادات، والاحتفاظ بالنسخ الأصلية لكل عبادة كنتيجة للاحتفاظ بالنسخة الأصلية للقرآن والسنة.

- في الجانب الدنيوي: أطلق يد الإنسان في هذا الكون ليبتكر ويبدع ويعمر ويصنع ويخترع ويكتشف، تحت القاعدة التي غيرت وجه الكون، وأطلقت أوروبا من ظلمتها، تلك القاعدة التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) وبالآيات التي تحث على العلم التجريبي الذي كان محتقرا لدى الفلسفة اليونانية، بالدرجة نفسها التي كان محتقرا فيها عند الجاهلية والمسيحية.

- في الشأن السياسي: أصبح في جزيرة العرب دولة تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وتبين حق الأمة في تولية حاكمها بالطريقة التي ترتأيها الأمة، وحق المحكوم في العدل والقسط وبيت المال وترك للأمة اختيار الشكل السياسي الذي تختاره، للاحتساب على الحاكم والمحكوم معا، كم خط لها خطوطا عريضة وبالغة المرونة في سياساتها الداخلية والخارجية، كما أسس لاستقلال القضاء ونزاهته من الداخل والخارج، عقيدة ورقابة واستقلالا.

- في الشأن الاقتصادي: خلق النص اقتصادا حرا الأصل فيه الإباحة، وحدد المحظور منها بدوائر ضيقة، وهي التعاملات التي تؤدي إلى استغلال الناس والتلاعب بمقدراتهم المعيشية كالربا، كما حظر التعاملات التي تؤدي إلى خلخلة المجتمع والاقتصاد كالقمار والغرر، والبغاء، والغش، وأطلق الاقتصاد الحر، وأوجد توازنا اقتصاديا يحافظ على تماسك المجتمع أخلاقيا وسلوكيا واقتصاديا بالزكاة والكفارات الأوقاف.

- وفي الجانب الاجتماعي: أطلق مفهوم المساواة من حيث المبدأ، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، وصار هناك ترتيب للعلاقة بين أفراد الأسرة وتنظيم للعلاقة بين أفراد المجتمع، وحقوق الجار والصديق والمواطن المسلم وغير المسلم، وتكافل لا حدود له بين أفراد المجتمع، وإيجاد نظام كفيل بالقضاء على الفقر عن طريق الزكاة والكفارات، وإبطال لعادات وجرائم الوأد والثأر والسلب والنهب وإيجاد نظام عقابي صارم لذلك، وتطبيق نظام دقيق للأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والنسب والإرث وحق الجار والطريق وحق الحيوان والنبات والبيئة.

- في الجانب الاجتماعي أيضا: (خاصة فيما يتعلق بالمواطنين المسلمين) تحولت الحياة إلى نظام دقيق وتنظيم رائع للوقت والحياة، أوجد النص توزيعا دقيقا وجميلا للوقت قبل اختراع الساعة منذ نزول الوحي بالصلاة ما زال قائما حتى اليوم، فهناك نهوض في ساعات الفجر وهي – علميا – أفضل الأوقات صحياً لبدء النشاط الحركي اليومي، وهناك وقت الظهر وهو وقت العودة للمنازل حتى صلاة العصر، ثم الانطلاق لمعاودة المناشط حتى غروب الشمس، ثم وقت خفيف حتى صلاة العشاء، وبعدها الخلود للنوم ما لم يشغل المرء شيء هام، فاصبحت مواعيد الناس دقيقة، وأوقات أنشطتهم التجارية والعلمية منظمة، وارتباط هذه الأوقات بالصلوات الخمس أدى إلى أمر هام للغاية في حياة الإنسان: ففي الوقت الذي كانت المسيحية تتقرب إلى المسيح بالتبذل واتساخ الأجساد والثياب أشهرا وأعواماً، وكان العرب لا يلقون للنظافة بالاً أو يعيرونها اهتماماً، حتى أن أحدهم ليمر عليه العام دون أن يغتسل، جاء النص الإسلامي ليخلق أنظف مجتمع في العالم حتى اليوم، ولايزال هو الأنظف كلما اقترب المسلم من النص، فلأداء الصلاة يحتاج المسلم إلى غسل أعضائه التي يتعاطى بها مع محيطه يومياً ويؤثر استخدامها في صحته، كالأيدي والأرجل، وثغور الجسم (الأنف والفم والأذنان وغيرها)، أصبحت تلك الأعضاء تغسل خمس مرات يوميا، كما أن قضاء الحاجة يحتاج إلى نظافة أشد، وأوجب غسل الجسد والرأس في حالة الجنابة، كما أوجبها أسبوعيا مرة واحدة كحد أدنى، وحث عليها في الأعياد، أما الجميل هنا فهو في تخصيص اليد اليمنى لممارسة الأشياء النظيفة، كالسلام والشرب والأكل، وإدخال الماء في حالتي المضمضة والاستنشاق، وجعل اليد اليسرى لمس الفرجين وتنظيفهما والاستنثار وكل ممارسات التنزه والتنظف والتخلص من الأوساخ، كما حرم ممارسات جنسية أثبت العلم تأثيرها الخطير على صحة الإنسان، وحرم أطعمة أثبت العلم التجريبي خطورتها على صحة البشركالدم والميتة ولحم الخنزير والحيوانات التي تتغذى على اللحوم والجيف، كما أمر بنظافة الثياب والتزين والتطيب خمس مرات في اليوم أيضا، وأمر بتنظيف المساجد والدور والأفنية وجعل تنظيف الشوارع والطرقات أحد أسباب دخول الجنة.

- صار هناك نظام جنائي يطبق على الجميع دون استثناء، للحفاظ على الضروريات الخمس التي اتفقت الدساتير والقوانين على حفظها وهي: الدم، والمال، والنسب، والعقل، وادين.

- صار هناك نظام دقيق ومنضبط في التعامل مع العدو المسالم والمعاهد والعدو المحارب في السلم والحرب، وقبل الحرب وأثنائها وبعدها، وأحكام للأسرى والغنائم.

- جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وفضل العلماء على غيرهم بنسبة تفضيل الأنبياء على خطاة البشر، وجعل العلم شرطا للحياة بكل مناشطها: العبادية والتجارية والسلوكية والأخلاقية والعسكرية والاجتماعية وغيرها.

- تحولت جزيرة العرب بالنص الإسلامي إلى أمة واحدة، بعد أن كانت شظايا متناحرة تمزقها الثارات والحروب، ويكفي للدلالة على ذلك أن يحصي أحد المؤرخين أيام وحروب العرب فيما بينهم داخل جزيرتهم، فيجدها أكثر من ألف وخمسمائة معركة، أججت من أجل بعير أو حصان أو تيس ربما.
- لم يكتف النص الإسلامي بتحويل قبائل العرب إلى أمة واحدة، بل بدأ بتحويل الأمم لمجاورة (في الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا كله) إلى أمة إسلامية.
- حول النص تلك الأمم فيما بعد وبجاذبيته فقط إلى أمة إسلامية عربية، مع أن النص نفسه لا يلزم أحدا بالتخلي عن لغته.
- قام النص بإنجاز معجز للغاية، إنجاز يذهل المرء ولا يكاد يصدق، وذلك بتحويل أبناء تلك الأمم الذين بقوا على دياناتهم المسيحية واليهودية والوثنية إلى عرب أيضا، مما يعني انصهارهم ثقافيا في المجتمع الإسلامي.
- لم يكتف النص بذلك بل تجاوزه إلى حمل تلك الأمم كالجسد الواحد لتقف على أبواب باريس غربا والقسطنطينية شرقا في ثمانين عاما، أي قبل عصر التدوين.
إنها أشياء خارقة ومذهلة لا يمكن أن تحدث إلا بتشكل عقل ناضج ومكتمل، ولا يمكن تشكيل هذا العقل الناضج والمكتمل في هذه الفترة القياسية والمفاجئة، إلا بشيء خارق ومعجز وفوق طاقة البشر وإمكاناتهم، والشيء الخارق يبقى دائما خارج الحسابات البشرية، ولذلك يظل معجزا وخارقا ومدهشا في المستقبل كما كان في الماضي، وهذه هي صفات القرآن والسنة، والتي ظن العلمانيون العرب أن عصر العلم التجريبي كفيل بالقضاء عليهما كما قضى على الكتاب المقدس، وإذ به يقدم إعجازا بلغة العصر، لغة العلم التجريبي.
وهنا يلح سؤال ضخم آخر: لماذا يعتنق العالم العلماني الغربي – التجريبي خاصة – الإسلام، أو على أقل الأحوال يعترف بأن القرآن كلام الله المنزل من السماء، بينما يتهكم العلماني العربي بهذا الإعجاز، فمرة يصف رواد هذا العلم بأنهم تجار كتب وبحوث وسماسرة يبحثون عن الشهرة، ومرة يصرخ بغباء لا حدود له: أن الإعجاز العلمي يعني أننا نقول للغرب لا فائدة لبحوثك فالقرآن قال هذا قبل ألف وأربعمائة عام؟!!!
ما سر هذه الحملة الشعواء على عالم جيولوجي تجريبي كزغلول الجار، أو التهكم على عالم وطبيب بارز كموريس بوكاي أو كيث مور؟!!!
لا أعلم جوابا عن تلك التساؤلات سوى أن العلماني الغربي شخص ذاق مرارة الضياع والتشتت بصحبة الكتاب المقدس وأساطيره، ولما اكتشف القرآن وجد في إعجازه تفسيرا لعلاقة الإنسان بالله والكون والحياة والعلم، وأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون ذا مصدر بشري، وأن ما فيه من معطيات علمية لا يمكن أن يأتي بها بشر في تلك الحقبة المتخلفة علميا، أما سبب تهكم العلماني العربي فعائد إلى منهجيته العبثية التي لا تبحث عن الحق ولا تريد الحصول عليها، ولا تريد أن تفتح عقلها لغير ما تحب وتهوى، إنها العقلية الجاهلية التي كانت تعشعش في رأس أبي جهل وعبد الله بن أبي بن سلول وحيي بن أخطب: محمد نبي لكننا سنظل نمارس العداء

له ما بقينا، ولا أدل على مستوى الانحطاط الذي بلغوه من تهكمهم بالشيخ الزنداني وبحوثه في الإعجاز العلمي ثم ماذا كانت النتيجة: ظل العلمانيون العرب يتهكمون ويقهقهون ويسخرون منه، ليفاجئهم هذا الشيخ ويفاجيء العالم كله باكتشافه لعلاج مرض أعيى أطباء وصيادلة الغرب (الإيدز) لينصرف العالم عن عبث هؤلاء إلى إنجاز هذا الشيخ والتفاوض معه حول كشفه الكبير، أما المفاجأة الكبرى فهي أن الشيخ استخرج هذا العلاج واستوحى تركيبته من القرآن وبعض الأحاديث.

كل ذلك خلقه النص الإسلامي فحول هذه الأمة الغارقة في التخلف والجاهلية، والتجاهل من أمم الأرض في أقل من عقدين إلى أمة أخرى، أمة تعلم غيرها بعد أن كانت تتسولها، أمة متحضرة تحمل كل تلك القيم والأنظمة، وللمرء أن يتصور أن العرب عاشوا آلاف السنوات في جزيرتهم لا يعرفون شيئا من تلك الإنجازات، وفجأة وبالنص الإسلامي يحدث لهم ذلك، يحدث لهم ذلك بعد عشر سنوات.. إنه إنجاز يحتاج إلى عشرات الآلاف من السنوات وإلى ظروف مثالية لتحقيقه.

إذا فادعاء الجابري أن العقل العربي تشكل وتكون في عصر التدوين باهت جداً، لا سيما وأن عصر التدوين ما كان ليكون لولا نضج العقل الإسلامي. كما أن عصر نزول القرآن هو عصر التدوين الحقيقي، فتدوين القرآن ونسخه، وتدوين بعض الأحاديث كان انطلاقة لا سابقة لها، قفزة جبارة غير مسبوقة على مستوى العالم، وتعيين أكثر من أربعين صحابيا لكتابة النص القرآني شيء غير مسبوق، وهؤلاء علموا المئات وأملوه عليهم، ونشروه في بيوتاتهم وبين أبنائهم وزوجاتهم، وعناية الكثير من الصحابة بالحديث القولي وتدوينه، وإلزام من يعرف القراءة من أسرى بدر بتعليم أطفال الصحابة القراءة والكتابة، يكشف عن مبدأ إسلامي هو: أن العلم المفيد يتلقاه المسلم من أي شخص مهما كانت ديانته.

إن تجاوز الجابري لهذه المعطيات الهامة وتجاهلها، يعد نوعا من الهروب عن مواجهة محرجة مع الآخر غير المسلم، نظرا لأنها ستؤدي إلى مقارنة ما لدى المسلم من وثائق ونصوص أولى بما لدى الآخر – المسيحي، وهو أمر بالغ الحرج بالنسبة للمثقفين العرب خاصة من يكتب منهم ويعيش في الغرب، أما بالنسبة للجابري كمثقف جاد فالأمر بالغ الغرابة، لا سيما وقد هاجمه الإيديلوجيون أمثال أدونيس، وطرابيشي، بعد أن اكتشفوا خطورة كتاباته على أفكارهم الجاهزة والاستباقية، فالجابري كشف أن العقل العربي هو نتاج إسلامي صرف وإن سماه عربيا، كما كشف عن تلك الزيوف التي كان أدونيس يدسها بمناسبة وغير مناسبة على أهل السنة (أتباع النص الحقيقيين) الذين يسميهم الأكثرية والتيار السائد. لكن الجابري بقفزه للنص المسيحي يمارس فعلا ثقافيا سلبياً يحسب عليه، ذلك أن مفهوم (العربي) لا يعني بالضرورة (المسلم) إلا في المخيلة الغربية المؤدلجة، فكيف يقع مثقف رصين مثله في مأزق كان أجدر النخبة بكشفه وتجليته، وهو فخ هرب منه أركون وتخلص من تبعاته والتورط في إشكالات مع العقل المسيحي، فأركون فرق بين العقلين بقوله: (يختلف مفهوم العقل الإسلامي عن مفهوم العقل

العربي؟ إن الأول يتقيد بالوحي أو المعطى المنزل، ويقر أن المعطى هو الأول لأنه إلهي...

ثم يقول: لا ينفرد العقل بهذا الوضع المعرفي والأنطولوجي والأيسي، إذ يشاركه فيه العقل المسيحي والعقل اليهودي، كلاهما يخضع للمعطى المنزل...

ثم يعرف العقل العربي تعريفا مناقضاً للجابري بالتحديد قائلا: (أما العقل العربي فهو الذي يعبر باللغة العربية أياً تكن نوعية المعطى الفكري الخارج عنه، والذي يتقيد به، وهكذا نجد المسيحيين واليهود ينتجون علومهم الدينية باللغة العربية، كما نعرف اليوم شعراء وكتابا مغاربيين يؤلفون بالفرنسية. إن اللغة لا تختص بشعب أو عنصر من عناصر البشر، إنها تتأثر طبعا بتاريخ القوم أو الجماعة أو الأمة الناطقين بها ولكن التعامل بين العقل واللغة أوسع وأعمق وأكثر مرونة وتعدداً وإنتاجاً من العلاقات بين قوم محدود ولغة. ولذلك فضلت استعمال مفهوم العقل الإسلامي على العقل العربي، ويصعب علي قبول ما أورده عابد الجابري لتبرير اختياره لمفهوم العقل العربي، ومن المعروف أنه لم يتحرر في شروحه وتأويلاته من تلبسات الذهنوية والقوموية والعنصرية.

ثم يبين سبب تسمية عنوان له بـ"الإنسية العربية في القرن الرابع الهجري" فيقول: إنه ينطبق تماما على الوضع الفكري والاجتماعي والثقافي الدال على النزعة الإنسية في المجتمع البويهي حيث كان المسلمون واليهود والمسيحيون والعرب والأتراك والفرس وغيرهم من العناصر المتعايشة يستعملون اللغة العربية في كل ما يعبر عنه العقل ويمارسه- مقدمة أين هو الفكر الإسلامي)

بهذا يتضح أن الجابري بتجاوزه للنصين كمن يصدر عن رؤية مذهبية منحازه، ذلك أنه يتجاوز مكونا ثقافيا عربيا هاما ذلك هو (الكتاب المقدس المسيحي)، ولئن كان الكتاب المقدس غاب عن تنظيرات وتحليلات لمفكرين المسيحيين العرب نظرا لهشاشته التي كشفت عنها، ونظرا لمناقضته للعلم والمنطق والعقل، ولكونه خزانة كبيرة للتراث الشعبي والأساطير التي حشرت بين أدراجه، إلا أنه لم يغب عن لا شعور المثقف العربي المسيحي، فهو يظهر في كتابات أولئك المثقفين الأدبية غير المباشرة – كما تظهر نصيرية وباطنية أدونيس في شعره وكتاباته غير المباشرة، ككتاب "السريالية والتصوف" ورسالته الصغيرة "الهوية غير المكتملة" – فالكتاب المقدس له حضور مكثف في شعر أولئك المثقفين، فمصطلحات مسيحية كـ (الصلب والصليب وحمل الصليب، وأجراس الكنيسة، والعشاء الأخير وشمشون والمجدلية والعذراء وغيرها..) وحكم كـ(ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان) و(ودع ما لقيصر..) تغص بها أشعارهم، وكتاباتهم عن طوائفهم، مع احتفاظهم هوياتهم الإنجيلية يعني أن الكتاب المقدس ما زال مكونا من مكونات العقل العربي.

كما أن تجاهل الجابري للكتاب المقدس يعني عكس ذلك أيضا.. يعني أن الجابري لا يريد التورط بالتبجيل كما تورط علي حرب بشعارات أشبه بشعارات القوميين، يجيد ترديدها ولا يفقه ما وراءها عندما قال: (يفقد القرآن فرادته إذن وإعجازه إذا ما ترجم إلى لغة أخرى، ويتحول إلى مجرد تفسير بين التفاسير الكثيرة، بينما يمكن

ان تقرأ الكتب المقدسة الأخرى في أية لغة كانت دون ان يفقدها ذلك خصوصيتها وفرادتها – نقد النص ٨٨)

الجابري لا يريد النزول إلى هذا المستوى، لذا يتحاشى الإحرجات مع المثقف العربي غير المسلم، لأن من المفترض به ككاتب جاد أن يكون موضوعيا عندما يتناول كتابهم المقدس، والموضوعية في تناول الكتاب المسيحي المقدس تعني أكثر من الإحراج، تعني أن الرجل سيتعرض لإعصار لا قبل له به، واتهام بالطائفية والأصولية وغيرها من التهم، وربما استدعيت له تهم العصور الوسطى الكنسية كالتجديف والهرطقة والزندقة، كما أن الموضوعية تقتضي منه تناول تاريخ الكنيسة وأثرها على الثقافة في العالم وبالتحديد العربي منه، وهذا يؤدي أيضا إلى إحراجات أشد وطأة، فتاريخ الكنيسة مخضب بالمجاز والمذابح والحروب الصليبية الدموية ومحاكم التفتيش وملاحقة غير المسيحي واستئصاله، خاصة اليهودي والمسلم، والرجل ليس بحاجة إلى ذلك كله.

أما إذا كان الجابري ملحا على أنه يكتب عن العقل العربي بتلك المواصفات فلا بد من أن يكشف: كيف متى تشكل العقل العربي الحديث؟ فهذا (العقل العربي).. هذا المصطلح الغريب لم يتشكل في عهد النبوة، ولا في عصر التدوين، ولا في ما يسمى أدبيا بعصر الدول المتتابعة أو كما يحلوا للعلمانيين العرب تسميته بـ(عصر الانحطاط)، فتلك العصور كانت عصورا إسلامية، والعقل الذي يمثل الأمة كان عقلا إسلاميا.

لم يكن تشكيل العقل العربي نتاجا لتراكمات ثقافية أو فلسفية سابقة، فالفاصل بين العقل الإسلامي فالعقل العربي الحديث – زمنيا – معدوم تماما، مما يعني أن العقل العربي لم يكن نتاجا فكريا على الإطلاق، وليس ثمرة دراسات فكرية ناضجة، أو نتيجة لنهضة علمية تجريبية على غرار ما حدث في الغرب، إنه ظاهرة سياسية أكثر منها عقلية، ظاهرة سياسية استعارت آلية غربية واعية، لتستخدمها دون وعي للتغيير بالقوة في بيئة غريبة عنها، العقل العربي في تعاطيه مع تلك الآلية الغربية يبدو كشخص شاهد آخر يصطاد سمكة بسنارة، فلما رى حوتا ضخما استعار السنارة منه ليصاد بها الحوت، فما كان من الحوت إلا أن التقمه هو وسنارته... العقل العربي ما زال يصرخ في بطن الحوت مهددا إياه بسنارته.

خلق العقل العربي بالتعاون مع المستعمر الغربي السياسي لا الثقافي، الذي بدوره كان يوظف هذا العقل لمصالحه، كان عقلا عربيا صرفا، فهو ليس إسلاميا، وليس الإسلام ولا نصه سوى هدفا لهجومه، كانت لافتة لا تفرق في انضواء جميع الديانات والملل تحتها، كان عقلا يكن احتراما لكل الديانات والملل من أقصى التطرف في اليزيدية إلى أقصى الغلو في النصيرية العلوية، فضلا عن اليهودية والمسيحية واليهودية وسائر الديانات الوثنية، أما الهجوم فقد وجه بكليته من قبل من يمثلون العقل العربي إلى الإسلام بنصيه: (القرآن والسنة).. انتقل القروي طه حسين إلى فرنسا فأذهلته بتطورها المادي، وأخبروه هناك أن تخلصهم من كتابهم المقدس هو سر نهضتهم، فعاد منها متحمسا، عازما على اقتلاع القرآن من الحياة

ليحقق ما حققته فرنسا، كان يظن – ببلاهة – أن اقتلاع الدين يكون بالبحوث الأدبية والتنظير للشعر والنثر، دون أن يدرك أن من اقتلع الكتاب المقدس من أوروبا ليسوا: فولتير أو شكسبير أو روسو أو غيرهم من الأدباء، بل العلماء التجريبيون، فأطلق مقولة بالغة الغباء، ولا أقول الخبث، لأن الرجل – في نظري – كان ناصحا لأمته مشفقا عليها من بدايات تخلفها بعد تحولها إلى أمة عربية، لكنه كان كالأمعة يردد أقوال الأخرين عن واقعهم، ظانا أنه الأمر ينطبق على واقعة. قال عميد الأدب العربي – كما يلقب – كلمته الغبية التي تطالب بأخذ كل ما في الغرب بحلوه ومره فليس فيه مر والتخلي عن الشرق كشرط للنهضة، بل إنه ربط مصر بأوروبا والغرب، ولم يكتف بذلك بل استورد من الغرب كل مقولاته فساوى بين القرآن والكتاب المقدس وأنه لا يمكن الوثوق بهما كمصدر للمعلومة التاريخية والعلمية. هذه العقلية المتطرفة والمغرقة في التعميمية والأحكام المعلبة فشلت، وهي سبب الفشل العربي على كافة المستويات. وهنا يرد السؤال الذي يهرب منه الجابري وسائر المفكرين؟

كيف نجح الغربي وفشل العربي

إن الشفرة التي اكتشفها العلماني الغربي ومكنته من النجاح، هي الشفرة نفسها التي ما زال العربي يبحث عنها أو يتعامى عنها، فاختار طريق التخبط والتخرص الذي زاد من أزماته وبالتالي تخلفه.. تلك الشفرة سهلة للغاية تتلخص بالتالي:

أن المفكرين الغربيين لم يتجهوا كالجابري وأمثاله إلى العصور التي تتشابه مع حاضرهم كي ينطلقوا منها، ويركبوا عليها ذلك الحاضر، ولم يتجهو إلى تحليل العصور التي تشكلت فيها المذاهب والفرق والصراعات والتشكلات المذهبية، نظرا لكونها تحتوي الكثير من وجهات النظر التي قد تتشابه مع الصراعات المعاصرة، لأنها عصور تعتبر أثرا لا مؤثرا، وأطرافا لا قلبا، ولم يسفهوا العلم التجريبي ويتجهوا إلى العلوم الإنسانية، وينتقوا من التاريخ ما يحلوا لهم كما يفعل أركون... كانوا يبحثون عن القلب، عن العقل الذي ما زال يحتل مساحات اللا شعور، كانوا يرومون كشف الحقيقة التي يدعيها الكتاب المقدس، لم يتجهوا إلى عصور التدوين المسيحي، لإنها – كما قلت – عصور تداعيات وآثار للنص، بل راموا مباشرة النص ذاته، ظروف تدوينه ومصطلحاته ولغته، وأخيرا متنه ومدى مواءمته للحقيقة المتمثلة في الكشوفات الحديثة، والحقائق العلمية غير القابلة للنقاش، عندها فقط أسقطوا الكتاب المقدس والكنيسة، وأسقطوا كل مقدس من تراثهم بالعلم التجريبي لا بالفلسفة، وحققوا ما نسميه اختراق التراث وتجاوزه عن وعي وإدراك، وقد فعلوا ذلك لأنهم استهدفوا – بموضوعية – منتج العقل المسيحي ومكونه... وبالتالي سهل عليهم إسقاط ما تداعى عنه من مذاهب وأفكار وفرق وألقاب وقداسات.

أما ما قام به الجابري – رغم مجهوده – فلا يعدو أن يكون بحثا عن عصر فيه من التيارات الفكرية ما يتشابه مع التيارات الفكرية الموجودة اليوم، ما قام به كان بحثا عن نتائج جاهزة تؤيد وجهة نظره التي ترفض الغنوصية وتحترم البيانية وتنتصر

للبرهانيـة، وهـي اتجاهـات تتـشابه مـع الواقـع، فالغنوصية تتمـاهى مـع الباطنيـة والتشيع والصوفية الحلولية، والبيانية تتماهى مع التيارات الإسلامية، والبرهانية قد تتشابه في نظره مع التيارات العقلانية. وهذا السلوك الثقافي بحث عن السابق والمعد سلفا، وانتصار للإيديلوجيا على حساب العقل والتجربـة.. ولـو بحثنـا عن عصر يتماهى مع الواقع العربي اليوم لما وجدنا أنسب من العصر المكي مشابهة للواقع، فالأمة العربيـة في أسفل القائمـة بين الأمم علما وقوة وصناعة وإبداعاً، وهـي عبـارة عـن صـراعات يأكـل بعضها بعضا وولاءات متناقـضة ومتطاحنـة، والغرب والشرق يتعاظم من حولها.. بينما يتجه النص الإسلامي لجذور الأمة بعيدا عن السلطة، ليعيد بناءها تحت وابل من التهم والسخرية والتهكم في الداخل والخارج.

ما قام به المفكر العربي بعيد كل البعد عن المشهد الواقعي، وبعيد كل البعد عن الخالق الحقيقي للعقل العربي، مع رفضي لهذه التسمية لأنها لا تعبر عن هذ العقل ولا تستوعبه، وسيظل المفكر العربي بعيدا عن تصور حقيقي للعقل العربي، ما دام مصرا على تناوله من أطرافه لا من قلبه ومركز الحركة فيه، وحتى من زعم قراءة هذا القلب – النص، كان يقرؤه بعقلية الذي يحمل نتائجه معه، لامن يبحث عن النتائج مهما كانت مؤلمة.

لا بد من البدء بجد وموضوعية على إيجاد نتائج علمية حقيقية بديلة للنتائج العلمية التجريبية السابقة والمذهلة، والتي بدأها العلماني الغربي، مع منهج نقل النص القرآني، ومنهج نقل ونقد النص الحديثي الذي يمكن أي إنسان من ممارسة هذا المنهج حتى اليوم، وعدم الاكتفاء بتجاهل تلك النتائج وقمعها وتهميشها والتشويش عليها بالإنشائية وتسويق التفاهة الإعلامية والثقافية، لإن هذا يوقع من يتجاهل النص الإسلامي في ورطة واقع لا مناص من الاعتراف به: هذا النص إلهي ومعجز ولا يمكن للبشر خلقه والإتيان بمثله.

هذا النص إلهي ومعجز

هذه هي النتيجة التي وصل إليها كبار علماء الغرب التجريبيين، ومن يقفز هذه النتيجة البالغة الخطورة ينفي عقله ونفسه ويمتطي التخلف والعناد، فلسنا أكثر من الغرب تقنية وعلما ودقة، بل نحن في مقدمة دول العالم في نسب الأمية وقلة الإنتاج، وعدم الاهتمام بالبحث العلمي والاكتشاف والاختراع، والشهادة التي منحت للقرآن أتت من العلماني الغربي المخترع المكتشف الذي أبهر العالم بكشوفه، والذي نسف بتلك العلوم نفسها تراثه ورجال دينه وكتبه المقدسة، وعلى أكتاف أولئك العلماء قامت العلوم الأدبية والإنسانية الأخرى.

هذا هو مأزق العلمانية العربية في تناولها للعقل العربي، وهروبها إلى عصر التدوين وتوظيف المنظومات الثلاث، أو لوك عصر الانحطاط أو حتى الالتصاق بالقرون الوسطى الأوروبية، أو محاولة القضاء على القرآن بمقولات لا تستحق الورق الذي كتبت عليه، كل ذلك محاولات يائسة لإيجاد مخرج من مأزق الاعتراف

بإلهية النص القرآني وأنه كلام الله، وأن النص النبوي وحي حتى فيما يتعلق منه بصحة الإنسان وأكله وشربه.

العلمانية العربية في أزمة مع نفسها ومع الحقيقة التي لا تريد الاعتراف بها، وتحاول أدلجة العالم العربي بالإرهاب الفكري والمادي لاعتناق إيديلوجيتها المستنسخة، لكن الحقائق لا تلغى بالرصاص ولا بالمعتقلات ولا بآلاف المحطات المدجنة. فاكتشاف علمي تجريبي واحد لحقيقة ما.. يكفي لنسف ملايين الخطب والخطابات والأشعار والشعارات التي تخالفه.

ما يعيد خلق الإنسان العربي ويعيد تكوينه يوميا هو هذا النص الذي يربط الإنسان بخالقه، وبالكون وبالإنسان والحيوان والنبات والجماد، وفي كل يوم تظهر للباحث التجريبي الجاد معجزة تعزز تلك الروابط.

هذا النص أيضا هو الذي خلق تلك المنظومات وغيرها، وما زال يخلق المزيد والمزيد.. وأزمة العلماني العربي وإخفاقه في تحقيق علمانيته على الأرض العربية هي في تناقضاته مع نفسه أولا، ومع مجتمعه ومع العلم الحديث الذي يدعي عشقه، ومع النص الإسلامي. فهو ضبابي إلى درجة النفاق فيما يتعلق بهويته، ففي حين يعلن العلماني الغربي كفره بكتابه المقدس، ويباهي بكفره ويلجم المتدينين بأدلته العلمانية، ولا يأبه بالتكفير الصادر ضده من أقبية الكنائس والأديرة والمجامع الكنسية والكنس، بل وتعرض في الماضي للمقالص والخوازيق والحرق في سبيل علمه التجريبي.

على عكس ذلك نجد العلماني العربي يكفر بالقرآن كنص إلهي – بطريقة غير مباشرة – دون أن يقدم دليلا علميا واحدا مقنعا، أو يرد على أدلة الإعجاز القرآني الصادرة من أستاذه الغربي، ثم يرفض أن يكفره أحد أو يشكك أحد في دينه، بل إنه في الظاهر يعلن أنه يفهم النص والدين أكثر من غيره، مع أنه لا يتعاطى معهما علماً ولا عملا. أما مع مجتمعه فهو يكتفي بمحاضرة أو ندوة تشكيكية، ينصرف بعدها ليعيش حالة انقطاع تام مع المجتمع، في الوقت الذي يتماهى أتباع النص القرآني والسنة معهما بعد أن آمنا بهما، منطلقين بذلك التماهي نحو قضايا المجتمع من فقر وتربية وتوجيه وإسداء للنصح في المساجد والمدارس والمنتديات وأجهزة الإعلام التي لاتقصيهم، وفي كل مكان يتاح لهم حتى المستشفيات والسجون، مدفوعين بنصوص قرآنية وحديثية يتداولونها يوميا، نصوص تعيد ضخ الدماء والحياة والمشاعر فيهم، وهو ما يتسق مع ما يتداوله المجتمع بمعظمه من نصوص محفزة على الأفضل والأحسن. هذه الحركة اليومية لا يعيش العلماني بعيدا عنها فقط، بل مشككا ومصادما لها، مما يجعله في صدام مع المجتمع نفسه، ونافيا لنفسه بنفسه. فعلى سبيل المثال يشكوا العلماني من تسلط المؤمنين بالقرآن على المنابر والمساجد، ويشكك في نواياهم، في الوقت الذي يرفض فيه أن يذهب لتلك المنابر والمساجد لإصلاحها وبيان ما يراه الحق، وعوضاً عن ذلك تجده يتجه نحو الخمارات والمواخير، وهي أماكن أول من يطالب بإغلاقها أستاذه العلماني

الغربي التجريبي، لأن دراساته أثبتت حجم الكارثة والأمراض البدنية والاجتماعية المنبعث منها، بينما هي أفق معظم العلمانيين العرب.
أما تناقض العلماني العربي مع العلم الحديث فيتجلى في إخفاقه وهو الذي أدار الأمور بكافة مستوياتها، وعلى مدار أكثر من قرن من فشل إلى فشل، وكان مقتله في محاولة التشويش على كشوفات الغربي حول القرآن والسنة ووصفها بالتلاعبات كما يفعل أركون، بل ووصف العلماني الغربي الذي اعتنق الإسلام بالبحث عن المطامح المادية والمعنوية. وهو بتلك الممارسة غير العلمية واللا أخلاقية يبقى خارج العلم والحداثة والعلمانية نفسها.
أما تناقضه مع النص القرآني والحديث النبوي فهو في محاولته المستميتة في إقناع العالم بعدم محاربتهما، وأنه ليس ضدهما، يشن أحط أنواع الإقصاء والملاحقة لمن يعتنقهما ويتبناهما، وهو يجهل أن النص لا يمكن أن يصل إلى العالم دون بشر يتبنونه ويؤمنون به ويحملونه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة طريدا شريدا محاصرا، ولم يصل الإسلام للعالم إلا بعد أن حمله البشر وآمنوا به وحملته دولته للعالم. إن من يظن من هؤلاء أن الهجوم على من يتبنون القرآن والسنة ليس هجوما عليهما، كمن يظن أن الهجوم على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليس هجوما على الإسلام.
وإن من يتجاهل النص أو يريد قفزه بدعوى الحداثة أو العلمانية أو التطور يمارس القفز على الحداثة نفسها والعلمانية نفسها، فقدرة القرآن والسنة على إعادة تشكيل أتباعهما، وقدرتهما على منح أولئك الأتباع القدرة على التكيف مع أي واقع يمر بهم مهما كان ذلك المجتمع متقدما أو متخلفا، مما يجعل المؤمنين أسرع من غيرهم في اعتناق كل حديث وجديد يجعل من الحياة أكثر تطورا ورخاء، لذا تجدهم سباقين في مجالات علمية بحتة كالطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها من التخصصات التجريبية. وهو أمر طبيعي في الإسلام الذي يقول عنه موريس بوكاي: العلم والدين في الإسلام توأمان. ويقول أيضاً: لم يصطدم الإسلام أبدا مع العلم، بل على العكس ألقت المعارف الحديثة أضواء جلت لنا معاني القرآن وما فيه من روعة.

ملامح المخرج

ليس أمامنا إذا أردنا دراسة جادة ومعمقة للعقل العربي إلا أن نقوم بالتالي:

- تحرير مفهوم العقل العربي، بحيث لا يكون ملتبسا أو عائما أو مضللا.
- تناول تراث العرب الجاهلي واليهودي والمسيحي والإسلامي وسائر التراث العربي على حد سواء، وإلا فإننا نعبث في تعاملنا مع التراث.
- لا بد من نقد علمي رصين لأهم مكونات التراث العربي، والتي تمثل الخلفية الثقافية للأمة العربية حتى اليوم، والتي تقوم عليها ديموقراطيات كما في لبنان، والتي يتسمى بها وينتمي إليها العرب عند الإفصاح عن الهوية الخلفية والأساسية للشعب العربي. أعني التوراة والإنجيل والقرآن كما فعل الغربي.
- ترك الأحكام الجاهزة والمقلدة عن الغربي، والاطلاع على بحوثه ونتائجها وشهدته تجاه أهم مكونات التراث العربي (التوراة والإنجيل والقرآن).
- التخلي عن النفاق الثقافي تجاه تلك الكتب المقدسة، وإعلان المواقف دون تردد أو مواربة، لأن من أكبر أسباب تخلف الفكر العربي هو حالة النفاق الثقافي الطاغي على معظم المفكرين العرب، لأنه نوع من الانقراض لا يمثل وجهة نظر معلنة، ولا يفصح عن حالة مستبطنة. إنه نوع من قتل الذات. وهو غير موجود عند المفكر الغربي الذي لا يخفي كفره بكتابه المقدس بعد اكتشافه لمغالطاته وأخطائه، بل يفتخر بذلك، بعكس المفكر العربي الذي يمارس نفاقا ثقافيا.
- ترك المقولات المحنطة التي تنتظر الدفن، مثل إعادة قراءة القرآن والسنة، وهي مقولات فيها الكثير من الجبن الثقافي والضبابية، فإما الإيمان بهما والتسليم بأنهما وحيين، أو إعلان الكفر بهما وإثبات أنهما منتجات بشرية.
- الاعتراف بشجاعة بأن مفهوم العقل العربي لم يوجد إلا في حقبتين هما: الحقبة الجاهلية، وحقبة ما بعد سقوط الدولة العثمانية، فقد تبلور في تلك الحقبتين ما يمكن حقا وصفه بالعربي، ففي الجاهلية لا وجود للإسلام، وفي حقبة ما بعد الدولة العثمانية وظهور مفهوم القومية تم إقصاء الإسلام رسمياً من تلك الدول الثورية وتلك الكتابات المؤسسة لها، وعدم الاعتراف به إلا كجزء صغير من أجزاء المنظومة الثقافية والسياسية والإعلامية والقانونية العربية.

وأخيراً

لا أدعي في هذا الكتاب أنني قدمت نقداً وافيا لما كتب حول العقل العربي، لكنني أزعم أنني قمت بالكشف لمن زعموا نقد العقل العربي أو التنظير له الكثير مما أغفلوه أو تغافلوا عنه، وأزعم كذلك أنني بتلك المحاولة سلطت بعض الضوء على حجم المواقف الجاهزة والمفصلة، التي تسكن نفوس هؤلاء وتحتقن بها أقلامهم، وحسبي من هذا الكتاب أن أزلزل تلك الثقة والقدسية التي أهلناها على أقلام كانت تدعي قراءة التاريخ وكشف المستقبل لنا، لنجد أنفسنا خلفها خارج التاريخ ودون مستقبل. وأخيرا أجزم ولا أزعم أن استمرار دفن المفكرين العرب لرؤوسهم في الرمال وتجاهل خصمهم (النص القرآني) سيؤدي بهم يوما إلى الانطمار التام تحت كثبان متحركة وروطوا أنفسهم فيها، ومن منطلق إشفاقي على تلك الكلمة التي يختطفونها وهي كلمة (المفكرين) أتمنى عليهم أن يعطوها حقها، وأن يمارسوا التفكير في المواجهة والحوار، لا التفكير في القفز والفرار، لأن نفي هذا الخصم نفي للذات، ولن تتخلى الأمة عن هذا النص الذي يمدهم كل يوم بالإعجاز والإقناع والثراء، وبشهادة العلمانيين الغربيين التجريبيين مقابل إنشائية عربية مفعمة بالعاطفة..

لن تتخلى الأمة عن نص قفز بها نحو الأمام قرونا، من أجل مفكرين يأخذونها – باعتراف أستاذهم - نحو الوراء، كما أود أن أقول لمن يتناول العقل العربي أن غياب النص عن الحياة الرسمية في بعض الدول الإسلامية اليوم يعتبر قليلا جدا إذا قيس بأعمار الأمم، لا سيما إن كان بالإكراه كما هو حالنا، والأمة اليوم تشهد إفاقة نحوه، وإذا استمر المفكرون العرب بأسلوب التجاهل لهذه الإفاقة، فلا أظنهم سيحتملون الصمود أمام خصمين:

النص الذي طوح بفكرهم، وإفاقة الأمة التي إن لم يحترموها فستطيح ببقايا أطلالهم.

محمد الصوياني

فهرس

٣- الإهداء
٤- المقدمة
٩ - ماذ يعني العقل العربي
١٤- لماذا اقترن العقل العربي بالإخفاق
٢٠- العقل العربي الحقيقي
٢١- مكونات العقل العربي
النماذج الإيديلوجية المتطرفة في التعاطي مع العقل العربي
(جورج طرابيشي)
٢٣- المحارق المسيحية للآخر
٣١- المحارق الإسلامية للفلاسفة
النموذج الثاني
(أدونيس)
٣٦- أدونيس ناقدا وشاعرا إيديلوجياً
٣٨- هل كل الشعر الإيديلوجي يستحق الإقصاء؟
٤١- نماذج شعرية رائعة تفضح إيديلوجية أدونيس
٥٧- خطورة شعر البعثة
٥٨- التراث الشعري الذي يعترف أدونيس به
٥٩- ما ينقص الفكر العلماني
٦٦- عندما يتحدث العلماء والعلمانيون الحقيقيون
٦٨- أدونيس سياسيا
٦٨- عمر يرفض التصديق بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم
٦٩- خرج أبو بكر في وقت أبي بكر
٧٠- سقيفة بني ساعدة
٧٢- وجاء يوم الثلاثاء
٨٠- حمل أدونيس على أبي بكر.
٨٩- لماذا يتجاهل أدونيس العصر الإسلامي.
٩٢- أسباب امتناع الديموقراطية
٩٦- التاريخ القريب يكشف أدونيس
٩٨- الديموقراطية ثقافة وليست صندوق انتخاب

٩٩- أدونيس فرنسي أكثر من الفرنسيين ضد الحجاب
١٠٧- أدونيس والدين الإسلامي
١١٠- نماذج أخرى ولكن مسطحة (العظم مثالا)
١١٤- البروفيسور (كيث. ل. مور)

محمد أركون

١٢٠- أركون
١٢٣- مشروع أركون كما يلخصه البابا عام ٢٠٠٥م
١٢٤- انتكاسة النقد الأركوني
١٢٦- كيف يمارس أركون لعبته النفسية
١٢٨- دعوى امتلاك العلمية
١٢٩- نماذج تفضح إدعاء أركون للمنهج العلمي انتقائيته في طرحه للتاريخ
١٣١- أركون يتلاعب بالتاريخ
١٣٩- نماذج من خوارق أركون العلمية
١٤٧- أركون يكذب على عثمان ويزور تاريخه
١٤٨- المزيد من أكاذيب وعدم أمانة أركون العلمية
١٥١- مفارقة بين المناهج الرصينة والمطاطة
١٥٢- القرآن نص مفتوح على كل المناهج
١٥٥- تخبطات أركون
١٥٧- إبراهيم عوض يعري أركون
١٧٦- فضيحة أركون العلمية وهاشم صالح.
١٨٠- بوكاي يحاضر عن العلم والقرآن
١٩٧- مطلب بيان كروية الأرض وفضيحة أركون أمام الأرقام

محمد عابد الجابري

٢٠٢- حفر في المكان الخطأ
٢٠٣- هل هناك عقل عربي ومتى تشكل
٢٠٦- لماذا تم الهروب إلى الأمام والخلف
٢٠٨- عصر الإبداع الإسلامي
٢٠٩- الإشكالية العربية مع الموروث
٢١٦- قلب التراث وكيف نقرأ التراث العربي

٢١٧- المنهج الوثوقي؟
٢١٨- ما التراث العربي المسكوت عنه

النصوص المقدسة أمام النقد العلمي

٢٤٤- الكتاب المقدس – الجزء الأول منه
٢٥٢- الجانب الأسطوري فيه
٢٦٥- المرأة مصدر الشرور
٢٧٩- دموية مع الآخر
٢٨٣- الجزء الآخر – إشكالات التوثيق واللغة
٢٩٤- الأساطير
٢٩٦- السلطة والنص
٢٩٧- الظلام يعم أوروبا

القرآن

٣٠٣- من النزول إلى الكتابة
٣١٠- مناخ جمع القرآن
٣١٢- تعميم المصحف (العثماني)
٣١٥- لغة القرآن
٣١٨- القراءة التي مارسها العلماني الغربي مع القرآن

السنة

٣٢٠- الحديث النبوي تحت المجهر
٣٢١- علم يجهله العلمانيون
٣٢٣- متى دونت السنة وكيف حفظت
٣٣٦- الجهل العلماني بعلماء الجرح والتعديل
٣٣٧- ما الذي لا يعرفه العلمانيون عن أهم علماء التراث؟
٣٤٦- الفقهاء والنص
٢٤٨- الخلفاء والحكام في ميزان نقاد الجرح والتعديل
٣٤٩- تأثير السلطة على النص عند نقاد الجرح والتعديل
٣٥٧- جهل أركون بمحمد بن إسحاق
٣٦١- الفرق بين ابن إسحاق وابن خلدون في المنهج والتطبيق (السيرة)

٣٧٥- علم العلل- الروايات الشاذة
٣٨٦- أثر جهل العلماني العربي بهذا النقد أثر جهل العلماني العربي بهذا النقد
٣٨٩- العقل الخالق لهذه المنهجية
٣٩٤- ظاهرة توثيقية مرادفة
٣٩٦- من العلماني المؤهل لقراءة قلب التراث العربي؟
٣٩٧- العلماني الذي قدم قراءة جديدة للنص الإسلامي.
٣٩٨- العلماني الغربي يقدم شهادته حول القرآن
٤٠٥- البروفيسور (تاجاتات تاجاسون)
٤٠٥- عالم كبير كاد أن يكون علمانيا عربيا (البروفيسور (تاجاتات تاجاسون)
٤٢٠- بوكاي يكشف دون قصد إعجازاً تاريخياً مذهلا في القرآن
٤٢٦- وكالة ناسا والقرآن
٤٣٤- السنة ومجهر العلم التجريبي عليها لا هذرولوجيا أركون
٤٣٥- شهادة العلماني الغربي لنتائج الجرح والتعديل
٤٥٧- متى بدأ تغيير وإعادة خلق العقل العربي
٤٦٠- تناقضات الجابري
٤٧٠- كتاب العقل السياسي كشف هروبية الجابري
٤٨٠- خصوصية العقل العربي المعاصر
٤٨١- لماذا لم يظهر فيلسوف عربي
٤٨٣- عن أي عقل يتحدث الجابري
٤٩٠- كيف نجح العلماني الغربي وفشل العربي
٤٩٤- ملامح المخرج
٤٩٥- وأخيراً

كتب لمحمد الصوياني

العقل العربي – الجزء الثاني، فشل الانخراط في الحداثة.

السيرة النبوية – قراءة جديدة

الفقه السهل - من القرآن والسنة فقط

الجنة حين أتمنى – كتابة أدبية مختلفة في النثر والشعر

التوراة والإنجيل والقرآن والسنة – نقد علمي

المرأة الغربية لماذا تعلمنت؟